المجلس الأعلى للثقافة

فراعنة من؟

علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى

المشروع القومي للترجمة

تأليف:
دونالد مالكولم ريد

ترجمة:
رءوف عباس

708

حرص دونالد مالكولم ريد فى هذا الكتاب على أن يؤرخ لرواد علم الآثار المصريين، ممن مارسوا العمل الأثرى؛ ليدحض مقولة إن علم الآثار علم غربى لا شأن لأهل الشرق به؛ فسجل اهتمام الكتاب المصريين بالآثار، وألقى الضوء على الوعى بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضارى عندهم، كما سجل فضل محمود الفلكى فى ريادة الحفائر الأثرية فى الإسكندرية، وأفرد مساحة أوسع لثلاثة من رواد العمل الأثرى المصريين: أحمد كمال، وعلى بهجت، ومرقص سميكة.

وخلال تتبعه لتاريخ علم الآثار المصرية والمتاحف من حملة نابليون حتى عام ١٩١٤، لم يسقط من اعتباره التطور العلمى والمعرفى والثقافى فى القرن التاسع عشر، بل اتخذ منه إطاراً لدراسة موضوعه الأساسى؛ فرسم معالم النهضة العلمية والثقافية التى صاحبت مشروع محمد على من إقامة نظام التعليم الحديث إلى حركة الترجمة، إلى الاتصال المعرفى بالحضارة الأوروبية الحديثة، كما أوضح العلاقة بين التطورات التى شهدتها مصر فى عهد الخديو إسماعيل ومشروعه الثقافى الشامل الذى تولى صياغته على مبارك بمساعدة رفاعة الطهطاوى.

الغلاف / نسرين كشك

المشروع القومى للترجمة

فراعنة من ؟

علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية
من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى

تأليف : دونالد مالكولم ريد

ترجمة : رءوف عباس

٢٠٠٥

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

إهداء

إلى

عبد المنعم إبراهيم الجميعى

صديقًا حميماً للمؤلف والمترجم

ومؤرخاً قديراً . . .

رءوف عباس

تقديم المترجم

يعد علم الآثار المصرية (المصريات Egyptology) من أحدث العلوم الإنسانية . إذ يرتبط بفك طلاسم الكتابة المصرية القديمة الذى تم عام ١٨٢٢ بفضل جهود العالم الفرنسى شامبليون الذى عكف على دراسة حجر رشيد الشهير فى المتحف البريطانى ، حيث أخذه الإنجليز معهم عندما جاءوا إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها . وقد صدر هذا الكتاب الجديد من دار نشر جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة ، وحمل عنوان « فراعنة من ؟ - الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية من نابليون حتى الحرب العالمية الأولى » ليسد فراغًا فى الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ العلوم ، وتاريخ علم المصريات على وجه الخصوص ، وهو مجال ندر التأليف فيه عمومًا ، وغاب التأليف فيه عندنا .

ومؤلف الكتاب هو الصديق دونالد مالكولم ريد Donald Malcolm Reid أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، الذى تخصص - منذ ما يزيد على ربع القرن - فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة ، وبدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر ١٩٧٥) ، وثنّى بكتاب عن « المحامين والسياسة فى العالم العربى ١٨٨٠ - ١٩٦٠ » (نشر عام ١٩٨١) ، وكان كتابه الثالث عن « جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة » (نشر عام ١٩٩٠) وصدرت ترجمته العربية عن المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومى للترجمة) عام ٢٠٠١ ، والكتاب الذى بين أيدينا هو عمله الرابع المهم الذى شغل بإعداده - فيما أعلم - فى السنوات العشر الأخيرة ، وقضى بالقاهرة عامين متفرقين فى ١٩٨٨ و١٩٩٩ . عكف خلالهما على جمع مادته العلمية ، حتى استطاع أن يقدم للأوساط العلمية هذا الكتاب المهم الذى ينفرد به فى التأريخ لعلم المصريات . ولم يثبت دونالد ريد - بهذا الكتاب - تميزه بين المؤرخين الغربيين

المتخصصين فى تاريخ مصر فحسب ، بل أثبت تميزه كمصور ينافس المصورين المحترفين ؛ فالكثير من الصور التى وردت بالكتاب كانت من عمله، وهى على درجة عالية من المستوى الحرفى.

* * *

لقد سار علم الآثار – كما يلاحظ المؤلف – مع الإمبريالية والهيمنة الغربية يداً بيد ، فهناك من علماء الغرب ، ورحالته ، وقناصله – فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت تخضع للدولة العثمانية – من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم فى تلك الآثار التى يتم العثور عليها ، فهم لا يقدرون قيمتها ، ولا يعنيهم من أمرها إلا ما قد يدره عليهم بيعها من مال ، والأولى بها الأوروبيون الذين يفردون لها الأماكن اللائقة بها فى متاحفهم باعتبارها تراث الإنسانية . فلا علاقة للمصريين أو العراقيين أو الفلسطينيين (المتخلفين) بما يتم العثور عليه من آثار فى بلادهم ، فهى تخص حضارات أرقى لا يمت إليها أولئك (الهمج) بصلة .

من هذه المقولة التى رددها المؤلف غير مرة فى فصول كتابه القيم ، كان انطلاقه لتأليف الكتاب لدحضها ، متخذاً من حالة مصر ومن علم المصريات مدخلاً للدراسة ، فيبدأ – للوهلة الأولى – بنفى تلك الفرية التى كادت أن تصبح حقيقة مسلمة فى الثقافة الغربية ، بل كانت كذلك (على أقل تقدير) فى القرن التاسع عشر ، فيعدد دونالد مالكولم ريد كُتَّاب الخطط الذين ذكروا الآثار المصرية وقدموا وصفًا لها فى العصر الذى كتبوا فيه قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون ، ولكنه يلقى المزيد من الضوء على اهتمام الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك لا بالآثار وحدها ، ولكن بتاريخ مصر القديم ، ويبين ما تدل عليه كتاباتهم من وعى بالقيمة التاريخية لما يقع على أرض مصر من شواهد أثرية تدل على تراثها الحضارى العريق ومن ثم يصبح اتهام المصريين خصوصاً والعرب عموماً ، بعدم إدراك القيمة التاريخية للحضارات القديمة التى قامت فى بلادهم مجرد مبرر – من وجهة نظر المؤلف – لاستلاب المصريين آثارهم الثمينة لتعمر بها متاحف أوروبا ، ولتزدان ميادينها بالمسلات المصرية .

وإذا كـان النصف الثـانى من القـرن التـاسع عـشـر يمـثل عـصـر نضج الثـورة الصناعية فى أوروبا ، الذى يشـهد هيمنة غرب أوروبا على الأسواق العالمية لتصريف بضاعتها واستثمار فائض رءوس أموالها ، وضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأبخس الأثمان ، فهو العصـر الذى لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسى فى وضع أسس « علم المصـريات » وفى إرسـاء دعـائم علم الآثار والعناية بـهـا ، وإقـامـة المتاحف فى مصر . ففيما بين عامى ١٨٥٨ و ١٩٠٨ سيطر الأوروبيون على الإدارة التى عنيت بالآثار ، وعلى المتاحف التاريخية الأربعة التى أقيمت خلال تلك الفترة : المتحف المصرى (الأنتكخانة) الخاص بتاريخ مصر فى العصر الفرعونى ، والمتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية ، والمتحـف القبطـى بمصـر القديمـة ، ومتحـف الفن العربى (الذى عرف بمتحف الفن الإسلامى فيما بعد) ، وهكذا سيطر الأوروبيون على الآثار المصرية فى الوقت الذى كانوا يحكمون فيه السيطرة على مصر ذاتها من خلال الهيمنة على اقتصادها – ماليتها ثم احتلالها .

لقد عـرف المصريون علم الآثار عن طريق الأوروبيـين ، ولكنهم مـالبثـوا أن عـملوا على امتلاك ناصيته ، وتوظيفه لخدمة أمانيهم الوطنية . وإذا كان سعيد باشا هو أول من أنشأ متحفًا للآثار الفرعونية عام ١٨٥٨ ، وإدارة للآثار ، رأسهما معًا ماربيت بك الفرنسى ، فقد أسس الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩ أول مدرسة مصرية عليا لدراسة المصريات عرفت باسم « مدرسة اللسان المصرى القديم » تولى (نظارتها) عالم الآثار الألمانى هنريش بروجش ، والتحق بالمدرسة عشرة من الطلاب المصريين الذين اختيروا من بين المتفوقين فى اللغة الفرنسية ، باعتبارها لغة التدريس بالمدرسة ، وقد درس أولئك التلاميذ الكتابة المصرية القديمة واللغة القبطية ، إضافة إلى الألمانية والإنجليزية ، وتاريخ مـصـر القديم ، وأصول علم الآثار . وإلى جـانب إدارته لهذه المدرسة وتكوينه للطلاب المصريين ، قام هنريش بروجش بإلقاء محاضرات فى تاريخ مصر القديم بدار العلوم ، كان يلقيها بالفرنسية ، ويترجمها أحد تلاميذه أو معاونيه إلى العربية ، ونشر بعضها بمجلة « روضة المدارس المصرية » التى رأس رفاعة الطهطاوى تحريرها ، كذلك نشـر بروجش جـدولاً بملوك مـصـر القدامى ، ومقالات فى أصول الكتابة المصرية القديمة بالمجلة نفسها ، مما أتاح فرصة نشر المعرفة بالمصريات وتاريخ مصر القديم

لأول مرة باللغة العربية . وتدرب الطلاب بمدرسة اللسان المصرى القديم على الحفائر الأثرية فى الصعيد .

وفى عـام ١٨٧٢ تخـرج فى أول مدرسـة للآثـار المصريـة سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذى أصبح أول عالم مصريات مصرى فيما بعد) . ولكن ماريت باشا مدير الآثـار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار خشية أن يؤدى وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبى (وخاصة الفرنسى) بالإدارة . وكان قد بدأ يضايق الطلاب منذ افتتاح المدرسة ، فأصدر أوامره لموظفى المتحف بمنع الطلاب من نسخ النصوص المصرية القديمة ، ولما لم يجد أولئك الخريجون مكانًا لهم فى مجال الآثار ، عينوا مدرسين ومترجمين للغتين الفرنسية والألمانية . وهكذا بددت السيطرة الأوروبية على إدارة الآثار الجهود التى بذلها إسماعيل لإعداد أول أثريين مصريين ، فقد أغلقت « مدرسـة اللسـان المصـرى القـديم » فى نفس السنة التى تخـرج فيهـا أولئك الطلاب السبعة .

ورغم ذلك أثمرت جهود المدرسة وناظرها ، وما نشرته مجلة « روضة المدارس المصرية » من محاضرات الدكتور بروجش فى دار العلوم وغيرها من المقالات والدراسات التى نشرت مترجمة إلى العربية أو كتبها بعض طلاب المدرسة ، أثمرت فى نشر الوعى بتاريخ مصر القديم بين المتعلمين ورجال السياسة ، وتجلى ذلك فى الخطاب السياسى والثقافى الذى تغنى بمجد مصر القديم ، سواء كان ذلك فى كتابات رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وميخائيل عبد السيد ، أو فى أحاديث السيد جمال الدين الأفغانى وأحمد عرابى وعبدالله النديم ، أو فى تصميم الجناح المصرى فى معارض لندن وباريس والولايات المتحدة على النسق الفرعونى ، أو فى اتخاذ الأهرام وأبى الهول رمزًا لمصر على طوابع البريد وغيرها ، واتخاذ « الأهرام » اسمًا لأبرز الصحف التى صدرت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . هذا الوعى بالتراث المصرى القديم ما كان ليتحقق لولا ذلك الدور البارز الذى لعبته أول مدرسة للمصريات (مدرسة اللسان المصرى القديم) - رغم قصر عهدها - وأسهمت فى نشره أهم مجلة ثقافية مصـرية (روضة المدارس) ظهرت فى القرن التاسع عشر .

وأسهم الأجانب المقيمون فى مصر – أيضًا – فى ذيوع الاهتمام بالتراث المصرى القديم ، ففى عام ١٨٥٩ أسست مجموعة من نخبة الجاليات الأجنبية فى مصر « المجمع المصرى » بالإسكندرية ، حيث كان الوجود الأجنبى كثيفًا ، وجاء إنشاء « المجمع المصرى » مصاحبًا للبدء فى أعمال حفر قناة السويس . وقد كانت ذكريات « المجمع العلمى المصرى » الذى أقامه نابليون بونابرت فى مصر أيام الحملة الفرنسية حاضرة فى أذهان مؤسسى المجمع المصرى ، فأرادوا إحياءه تحت رعاية الوالى محمد سعيد باشا ، ولكن ليصبح اهتمامه مركزا على الآثار المصرية والتراث المصرى القديم . وتعاقب على رئاسته (فيما بين ١٨٦١ – ١٩١٧) أربعة فرنسيين ثم خلفهم يعقوب باشا أرتين وكيل نظارة المعارف ، وضم المجمع فى عضويته بالإضافة إلى الفرنسيين ، أعضاء من الإنجليز والإيطاليين والألمان ، وكانت اللغات الأربع لغات معتمدة لمنشورات ومحاضرات المجمع ، بينما كانت الفرنسية لغة مجلس الإدارة ، وحدد المجمع هدفه بالعمل على « إحياء المعارف القديمة على ضفاف النيل ، تلك المعارف التى تعود إليها عظمة مصر القديمة مهد الآداب والعلوم والفنون » ، وقد انتقل « المجمع المصرى » إلى القاهرة عام ١٨٨٠ .

ورغم أن الأجانب كانوا يمثلون أغلبية أعضاء « المجمع المصرى » فقد وجدت نخبة من العلماء المصريين لنفسها مكانًا بين الأعضاء ، وكان على رأس تلك النخبة رفاعة الطهطاوى وإلى جانبه على باشا مبارك ومحمود الفلكى (الذى كان العضو المصرى الوحيد بمجلس الإدارة) .

وتجلى اهتمام « المجمع المصرى » بالآثار المصرية من اختيار مارييت نائبًا للرئيس ، وغلبة الموضوعات الأثرية على محاضرات المجمع ومنشوراته ، فألقى مارييت ومحمود الفلكى محاضرات حول تاريخ مصر القديم ، وقدم الفلكى دراسة لفرع النيل الكانوبى الذى كان يصل فرع رشيد بالاسكندرية ، وقد نشرت دراسات الفلكى بالفرنسية فى عدد من الدوريات العلمية الأوروبية الشهيرة عندئذ ، وانضم أحمد كمال (أول عالم آثار مصرى) إلى المجمع عام ١٩٠٤ .

كذلك اهتمت الجمعية الجغرافية الخديوية ، التى أسسها الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ ، اهتماماً جزئيا بالآثار المصرية القديمة ، وكانت تلك الجمعية تضم فى عضويتها أغلبية من الأجانب الممثلين للجاليات المختلفة الموجودة - عندئذ - بمصر ، على نحو مارأينا فى « المجمع المصرى » ، ولكن تميزت « الجمعية الجغرافية الخديوية » بوجود أعضاء أمريكيين من الضباط الذين عملوا فى قيادة الجيش المصرى فى عهد الخديو إسماعيل .

ويربط المؤلف بين اشتراك مصر فى المعارض الدولية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ورواج حركة السياحة الأوروبية والأمريكية المتجهة إلى مصر لمشاهدة الآثار المصرية ، ويلفت المؤلف الأنظار إلى مواكبة الاهتمام بزيارة مصر بدء حركة السياحة الأوروبية الخارجية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث نضجت مرحلة الرأسمالية الصناعية ، واتسع نطاق الطبقة الوسطى ذات الدخول الكبيرة ، وزاد ميلها إلى الاستمتاع بجانب من فائض مدخراتها فى السياحة الخارجية ، وخاصة زيارة مصر وفلسطين ؛ حيث مهد الحضارة القديمة ومسرح الأحداث التى سجلها الكتاب المقدس .

فقد جاء اشتراك مصر فى « المعرض الصناعى الدولى الكبير » الذى أقيم فى لندن عام ١٨٥١ بجناح صمم على الطراز الفرعونى ، مثيراً لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولى يقام فى العالم ، وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة التى عبر عنها الجناح المصرى ، وحدث نفس الأثر عندما اشتركت مصر فى « المعرض الدولى » الذى أقيم فى باريس عام ١٨٥٥ ، وكذلك عام ١٨٦٧ ، وخاصة أن المعرض الأخير شهد جناحاً مصريا متميزاً ، عبر عن التراث المصرى القديم ببعديه الفرعونى والإسلامى .

وبعد أن كان قدوم الأجانب إلى مصر قاصراً على الرحالة والمغامرين وأعضاء البعثات التى جاءت إلى مصر بقصد جمع الآثار للاتجار بها فى أوروبا أو لحساب المتاحف الأوروبية ، شهدت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قدوم الأفواج السياحية التى نظمها بيت سياحى بريطانى ؛ مالبث أن اكتسب شهرة عالمية

باعتباره مشروع يعرفه العالم فى هذا المجال ، ونعنى به « توماس كوك وولده » الذى بدأ نشاطه عام ١٨٤١ بتنظيم رحلات داخلية بالقطار من وسط إنجلترا إلى لندن ، واتسع نشاطه مع إقامة « المعرض الصناعى الكبير » عام ١٨٥١ ، فزادت رحلاته الداخلية إلى لندن لمشاهدة المعرض ، ثم نظم رحلات خارجية - لأول مرة - لزيارة معرض باريس عام ١٨٥٥ ، وكذلك رحلات لزيارة جبال الألب وإيطاليا . وجاء تنظيم توماس كوك للرحلات السياحية إلى مصر ليحول هذا البيت السياحى إلى مشروع دولى كبير يربط أوروبا وأمريكا بمصر من خلال الرحلات السياحية التى قام بتنظيمها مستخدمًا السفن البخارية ، ومبتدعًا خطوط البواخر النيلية ، ومشجعًا ومشاركًا فى إقامة الفنادق لإقامة السياح بالأقصر وأسوان والقاهرة . ثم جاء امتداد الخطوط الحديدية إلى أسوان قبل نهاية القرن ليساعد على اختزال زمن الرحلة ، ومن ثم تخفيض تكلفة الرحلة ، وزيادة أعداد الرحلات السياحية المتجهة إلى مصر ، وهكذا صنع « توماس كوك وولده » إمبراطورية سياحية كبرى ظلت تسيطر على هذا المجال كبيت عائلى حتى تم بيعها لشركة « عربات النوم الدولية » لتتحول بذلك إلى شركة مساهمة عالمية (عام ١٩٢٦) .

ويرتبط بظاهرة السياحة الخارجية التى كان الاهتمام بالآثار المصرية وراء قيامها وتطورها ، ظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفًا من قبل وهو « دليل السائح » الذى حمل بالإنجليزية اسم « كتاب اليد » Hand Book وبالفرنسية اسم « كتاب الجيب » Livre de Poche ، ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر طبع أول دليل سائح لمصر باللغة الإنجليزية وآخر بالفرنسية ، وازداد العدد فى الستينات من نفس القرن ليصبح أربعة بالإنجليزية وثمانية بالفرنسية ، وظهر أول دليل بالإيطالية فى الستينيات ، وبالألمانية فى السبعينيات . وعند نهاية القرن التاسع عشر ، بلغ عدد أدلة السائح المنشورة بالإنجليزية ٣١ دليلاً ، وبالفرنسية ١٥ دليلا ، وبالألمانية تسعة ، وبالروسية دليلاً واحدًا ، وهكذا صاحب ظاهرة الاهتمام بالسياحة الخارجية التى استقطبتها مصر ، ظهور وتطور صناعة الأدلة السياحية المطبوعة التى أصبحت عند نهاية القرن التاسع عشر تتنافس مع بعضها البعض ، من حيث تنوع المعلومات التى تهم السائح لا عن الآثار المهمة وحدها وإنما عن مصر ذاتها : تاريخًا ، ومناخًا ، ومجتمعًا ، إلى غير ذلك من معلومات ، وكذلك بما تقدمه للسائح من خرائط ورسوم وصور إيضاحية .

كذلك ارتبط بظاهرة السياحة الخارجية رواج اللوحات المرسومة باليد لمناظر من مصر كان يرسمها بعض السياح الأوروبيين ، ثم يطبعونها ويبيعونها فى بلادهم أو يصدرونها إلى مصر لتباع للسياح . ومع ظهور التصوير الفوتوغرافى عند منتصف القرن التاسع عشر ، بدأت تظهر صناعة طبع الصور التى تعبر عن الآثار المصرية ومظاهر الحياة فى مصر ، وأتاح ذلك ظهور « البطاقات البريدية » Post-Card التى تحمل صوراً من مصر ، ويرسلها السائح لأصدقائه من مصر بالبريد ، وكان ذلك فى التسعينيات من القرن التاسع عشر .

ولم تكن زيارة المواقع الأثرية وحدها على جدول زيارات الأفواج السياحية الأوروبية والأمريكية التى كان يجلبها « توماس كوك وولده » إلى مصر ، بل كانت زيارة المتحف المصرى بالقاهرة من أهم المواقع التى تتجه إليها أفواج السياح ، وكان المتحف قد أقيم - على نحو ما رأينا - عام ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا على شاطئ النيل عند بولاق (وهو الموقع الذى يقع الآن بين مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل) ، وكان اختيار الموقع يهدف إلى تيسير نقل الآثار التى ترد من الصعيد على المراكب النيلية . واشتمل المبنى على « مصلحة الأنتكخانة » (التى كانت تابعة لنظارة الأشغال العمومية) ، وصالات عرض التحف الأثرية ، ومقر إقامة مدير الآثار ، ولكن مالبث المكان أن ضاق بمقتنياته وزواره ، فتم نقل المتحف فى أواخر عهد الخديو إسماعيل إلى قصر الحرملك بالجيزة . (وكان يقع على مشارف حديقة الأورمان) ، واستمر هناك حتى أقيم له مبنى خاص بميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن) وهو المبنى الحالى الذى افتتح فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى عام ١٩٠٢ ، وينوء الآن بما يحتويه من آثار بعد قرن من الزمان ، دون أن تسعى الحكومات المتعاقبة إلى التفكير فى إقامة متحف آخر إلا فى السنوات الأخيرة ، ولم يتجاوز الأمر بعد حدود التفكير !!

وظلت الآثار الفرعونية وحدها موضع الاهتمام حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عندما بدأ الاهتمام بالآثار اليونانية - الرومانية وكذلك الآثار العربية (الإسلامية) لتضاف بذلك نواة لمتحفين آخرين لهذين العصرين ، وجاء الاهتمام بالعصر القبطى متأخراً (فى أوائل القرن العشرين) ، وأسفر ذلك الاهتمام عن إقامة المتحف القبطى لتكتمل بذلك دور العرض المتحفى للآثار المصرية على مر العصور .

جاء الاهتمام بالعصر اليونانى - الرومانى من خلال البحث فى تاريخ مدينة الإسكندرية ، ويعود إلى العالم المصرى محمود الفلكى فضل ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية (عام ١٨٦٥ - ١٨٦٦) بهدف التحقق من بعض مواقع الإسكندرية القديمة ، ونشر خريطة الإسكندرية القديمة محققة فى مجلة المجمع العلمى المصرى (١٨٦٨ - ١٨٦٩) مع تقرير بنتائج الحفائر ، وقد نشرها أيضًا بكوبنهاجن ، وقد استفاد محمود الفلكى من خبرته كمهندس فى تحديد مواقع الحفر وتنفيذه فى وقت لم يكن عرف فيه - بعد - الأصول العلمية والفنية لتنفيذ الحفائر الأثرية ، ومن ثم كان عمل محمود الفلكى مبتكرًا فى هذا المجال ، ولم يتابع أحد بعده الحفر بالإسكندرية بشكل علمى منظم حتى نهاية القرن .

وفى ١٨٩١ أسس بعض الإيطاليين بالإسكندرية « الجمعية الأثينية » ونجحت الجمعية فى إقناع المجلس البلدى بالإسكندرية باتخاذ قرار بإنشاء المتحف اليونانى - الرومانى ومكتبة البلدية ، ووافقت الحكومة على القرار بعد تردد لبعض الوقت ، على أن يخضع المتحف لإشراف مصلحة الآثار المصرية ، وتتحمل البلدية نفقات إقامته . وتأسست « جمعية آثار الإسكندرية » عام ١٨٩٣ لترعى إقامة المتحف دون أن يكون بين أعضائها مصرى واحد ، بل ضمت نخبة الجاليات الأجنبية بالمدينة من المثقفين ورجال الأعمال . ونجحت الجمعية فى إقامة المتحف اليونانى - الرومانى عام ١٨٩٧ . وظلت إدارة المتحف بيد الإيطاليين حتى مطلع النصف الثانى من القرن العشرين ، على حين ظلت إدارة « المتحف المصرى » بيد الفرنسيين حتى ذلك التاريخ أيضًا .

واستطاعت « جمعية آثار الإسكندرية » أن تجمع أموالاً كونت « صندوق الاكتشافات المصرية » ، تم الإنفاق منها على الحفائر الأثرية المتعلقة بالعصر اليونانى - الرومانى ، وشراء التحف لتعرضها بالمتحف ، وكذلك أوراق البردى اليونانية التى تم جمعها من الحفائر .

أما عن الآثار الإسلامية ، فيعود الاهتمام بها إلى « لجنة حفظ الآثار العربية » التى شكلها الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩ بناء على اقتراح من مهندس نمساوى (أوجست سالزمان) لترميم مسجد الظاهر بيبرس ، ولكن الأمر لم يتجاوز

حد صدور القرار بتشكيل اللجنة ، ولم تتم دعوتها للانعقاد حتى نهاية عهد إسماعيل . وفى ديسمبر ١٨٨١ ، أعاد الخديو توفيق تشكيل اللجنة من شخصيات أجنبية : إنجليز ، وفرنسيين وإيطاليين وألمان ، وكانت اللغة المستخدمة فى أعمال اللجنة هى اللغة الفرنسية . وقد عقدت اللجنة أول اجتماعاتها فى فبراير ١٨٨٢ ، ثم تعطلت أعمالها بسبب حوادث الثورة المصرية ووقوع الاحتلال البريطانى لمصر ، فاجتمعت فى ديسمبر ١٨٨٢ برئاسة ناظر الأوقاف محمد زكى باشا الذى أصبحت اللجنة تتبع وزارته . وظل عمل اللجنة قاصراً على النظر فى ترميم المساجد القديمة التاريخية فى حدود الميزانية الفقيرة التى ظلت فى حدود ما يقل قليلاً عن أربعة آلاف جنيه سنويًا ، حتى عام ١٨٩٦ عندما قفزت الميزانية المخصصة لها إلى عشرين ألفًا من الجنيهات ، ولم يتجاوز ما تم إنفاقه على ترميم الآثار الإسلامية حتى عام ١٩٠٦ (أى بعد ربع قرن من إنشاء اللجنة) ٢٠٥ آلاف من الجنيهات .

وتولت « لجنة حفظ الآثار العربية » إقامة « متحف الفن العربى » عام ١٨٨٤ فى فناء مسجد الحاكم بأمر الله ، حيث تكدست التحف المجموعة من هنا وهناك دون اتباع لأساليب العرض المتحفى ، بل لم يكن هناك خبراء بالفن العربى (الإسلامى) بذلك المتحف ، ولم تهتم كتب « الدليل السياحى » الخاصة بمصر بذكر ذلك المتحف إلا نادراً . وفى عام ١٨٩٨ تم رصد اعتماد لبناء مبنى بباب الخلق يضم دار الكتب الخديوية ومتحف الفن العربى معًا ، حيث تم افتتاح المتحف عام ١٩٠٣ (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامى) .

وجاء الاهتمام بإقامة « المتحف القبطى » بمبادرة شخصية من مرقص سميكة – أحد أعيان الأقباط – الذى راعه ما تتعرض له التحف القبطية من ضياع ، فأخذ على عاتقه مهمة جمعها والدعوة لإقامة متحف للفن القبطى للحفاظ عليها . وكان مرقص سميكة قد سعى لمد اختصاص « لجنة حفظ الآثار العربية » ليشمل ترميم الكنائس والأديرة التاريخية ، وهو ما كان محل اعتراض البابا كيرلس الخامس . وفى ١٨٩٦ تم تعديل تشكيل اللجنة لينضم إليها عضوان من الأقباط ، وتم رصد اعتماد لترميم الكنيسة المعلقة . ولكن كيرلس الخامس ظل معترضًا على تدخل اللجنة فى أعمال ترميم الكنائس باعتباره أمراً يخص الكنيسة وحدها ، وأخيراً وافق البابا على ترميم الكنيسة

المعلقة عام ١٩٠٦ (وهو العـام الذى أصبح فيه مرقص سميكة عضواً باللجنة) ، كما وافق على إقامة « متحف قبطى » عام ١٩٠٨ مقابل مساندة مرقص سميكة له فى مواجهة دعاوى الإصلاح التى تبناها المجلس الملِّى للأقباط الأرثوذكس . واشترط أن يكون « المتحف القبطى » تابعاً للكنيسة . وتم افتتاح المتحف القبطى عام ١٩١٤ .

وقد حرص دونالد مالكولم ريد فى هذا الكتاب أن يؤرخ لرواد علم الآثار المصريين ، ممن مارسوا العمل الأثرى ليدحض مقولة إن علم الآثار علم غربى لا شأن لأهل الشرق به . وهكذا رأيناه يحرص على تسجيل اهتمام الكتاب المصريين بالآثار ، ويلقى الضوء على الوعى بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضارى عند المصريين ، كما سجل فضل محمود الفلكى فى ريادة الحفائر الأثرية فى الإسكندرية (على نحو ما رأينا) ، ولكنه أفرد مساحة أوسع من دراسته لثلاثة من رواد العمل الأثرى المصريين : أحمد كمال ، وعلى بهجت ، ومرقص سميكة (باعتباره صاحب فكرة المتحف القبطى) .

وخلال تتبعه لتاريخ علم الآثار المصرية والمتاحف من حملة نابليون بونابرت حتى عام ١٩١٤ ، لم يسقط المؤلف من اعتباره التطور العلمى والمعرفى والثقافى فى مصر القرن التاسع عشر ، بل اتخذ منه إطاراً عاما لدراسة موضوعه الأساسى ، فرسم للقارئ معالم النهضة العلمية والثقافية التى صاحبت مشروع محمد على من إقامة نظام التعليم الحديث إلى حركة الترجمة ، إلى الاتصال المعرفى بالحضارة الأوروبية الحديثة . كذلك وضع بين يدى القارئ العلاقة بين التطورات التى شهدتها مصر فى عهد الخديو إسماعيل ومشروعه الثقافى الشامل الذى تولى صياغته على مبارك بمساعدة رفاعة الطهطاوى . كما لم يفصل المؤلف بين الاهتمام بالآثار من جانب الأجانب ، والموجة الإمبريالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التى استهدفت فتح الأسواق لاستثمار فائض رءوس الأموال وتصريف الإنتاج ، وسعت إلى حماية مصالحها من خلال الهيمنة السياسية على مصر .

وهو إذ يتحدث عن محاولات الأجانب إبعاد المصريين عن ميدان الآثار ، يضع أمام القارئ صورة الصراع الذى دار بين المصريين والأجانب من أجل تحرير بلادهم

من الهيمنة الأجنبية ، ويعالج العلاقة بين الرواد أحمد كمال وعلى بهجت والأجانب فى سياق العمل الوطنى الذى يهدف إلى الحفاظ على الهوية المصرية ، ويحرص فى خاتمة الكتاب على أن يلقى الضوء على ما حدث لعلم الآثار من تطورات بعد ما ملكت مصر أمـــرها بيدها ، وما تركتــه الكشوف الأثرية المهمة (قبــل اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون) من آثار إيجابية على الحركة الوطنية المصرية .

لقد سبق للمؤلف أن قدم تاريخًا ثقافيا لمصر فى القرن العشرين من خلال دراسته لجامعة القاهرة ، وكتابه الذى بين أيدينا اليوم يقدم تاريخًا ثقافيا لمصر فى القرن التاسع عشر من خلال دراسته لتاريخ علم الآثار والمتاحف فى مصر ، وهو ما يضفى على العمل أهمية خاصة ، ويجعله مرجعًا أصيلاً لمن يريد الوقوف على تطور مصر الثقافى فى القرن الذى شهد التحولات الكبرى فى تاريخ مصر الحديثة .

عرفان وتقدير

ما كان باستطاعتى متابعة البحث فى موضوع هذا الكتاب بمصر لولا المنح التى حصلت عليها من « الوقف القومى للعلوم الإنسانية » (من خلال مركز البحوث الأمريكى بمصر) ، ومن لجنة فولبرايت بمصر ، وبرنامج فولبرايت - هايز لأبحاث أعضاء هيئة التدريس بالخارج ، وجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية . وخلال عامين جامعيين قضيتهما فى مصر (٨٧ - ١٩٨٨ ، ٩٨ - ١٩٩٩) ، كنت موضع رعاية د. جاب الله على جاب الله الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار بمصر ، ود. حسنين ربيع نائب رئيس جامعة القاهرة ، ود. رأفت النبراوى عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة ، ود. رءوف عباس حامد وكيل كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ومركز البحوث الأمريكى بمصر . كما لقيت عونًا طيبًا من د. مختار الكسبانى من كلية الآثار جامعة القاهرة . وحظيت بدعم وتشجيع الزملاء من جامعة ولاية چورچيا : العميد أحمد عبد العال ، ورئيس قسم التاريخ بالجامعة : تيموثى كريمنز ، وديان ويلن ، وتحملت منحة كوين لأعضاء هيئة التدريس نفقات الفهرسة ، كما ساعدنى كل من د. چيمس هينرمان وبلاك يوسرى على إعداد الخرائط .

ولعب الأستاذان د.ل.كارل براون ، ود. فرحات ج.زيادة دورًا فعالاً فى تشجيعى على المضى قدمًا فى هذا العمل ، وتركت صداقة وزمالة عمرها ثلاثين عامًا جمعتنى بوليم كيفلاند وروبرت هانتر بصماتها على هذا الكتاب ، ومن بين الأصدقاء الآخرين الذين قدموا لى مساعدات قيمة : أحمد عبد الله ، وچير باتشراتش ، وإدموند بروك الثالث ، وبروس كريچ ، وإسرائيل جرشونى ، وآرثر جولد شمث جونيور ، وعلاء الحبشى ، وفايزة هيكل ، وكينيث بركنز ، ومايكل رايمر ، وچون رودنبك ، وچاسون طمسون ، ومى طراد ، وچورچ سكانلون ، وسمير سميكة ، ودولاند وتكومب ، وكارولين وليامز .

كما لقيت مساعدة قيمة من د. عبد المنعم الجميعى ، والسيد / مكرم نجيب اللذين غمرانى بكرمهما أثناء وجودى بمصر . وللأسف جاء اتصالى المتأخر باريك جادى حائلاً دون أن أدخل على الكتاب سوى القليل من مقترحاته الممتازة والإشارات الببليوجرافية فى هذا الكتاب .

وكدأبها دائمًا كانت زوجتى باربرا جيبس ريد خير عون ومشجع وناقد موضوعى لهذا العمل .

كما قدم الأستاذ نيل أشر سلبرمان وأحد المحكمين المجهولين الذين استعانت بهم إدارة النشر بجامعة كاليفورنيا ، قدما نظرات نقدية ثاقبة على مخطوطة الكتاب . كما أدين بالفضل للآنسات لين ويتى ، ولورا هارجر ، ووبن ويتاكر من إدارة النشر بجامعة كاليفورنيا .

وأذن لى بعض الناشرين باستخدام بعض المقتطفات من بحوثى التى نشرت لديهم مما يستوجب تقديم الشكر إلى مركز الدراسات الوثائقية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية بالقاهرة (سيديج SEDEJ) ، وفرانك كاس للنشر بلندن ، وإدارة النشر بجامعة كولومبيا .

وتبقى مسئولية الآراء التى قدمتها فى هذا الكتاب من نصيبى وحدى .

المؤلف

مقدمة

« جدير بالمثقفين الأوروبيين أن يقدموا الشكر لفرنسا لانتزاعها مسلة من أعماق الطمى المتراكم فى مصر ، ومن الجهل البربرى للترك ، فالأوروبيون هم أصحاب الحق فى الآثار القديمة ، لأنهم وحدهم يعرفون كيف يتذوقونها ، فهى حقيقة تخص من لهم الحق الطبيعى فى رعايتها وجنى ثمارها » .

الكابتن فرنياك سان - مور

رحلة الأقصر (١٨٣٥)

« إنه لمؤسف حقا أن تكون الآثار آثارنا ، والتاريخ تاريخنا ، ولكن من يكتبون تاريخ مصر القديم ليسوا من المصريين . . . غير أننا لا نملك سوى التعبير عن إعجابنا بالأستاذ سليم حسن لبراعته فى علم الآثار ولاكتشافاته الأثرية الدائمة ، والتى كان آخرها الهرم الرابع »

صحيفة « البلاغ » المصرية ٢٦ فبراير ١٩٣٢ .

يعالج هذا الكتاب الكيفية التى تناول بها المصريون (ومعظمهم من الوطنيين) ، والأوروبيون (ومعظمهم من الإمبرياليين) ، حقبًا معينة من تاريخ مصر الممتد فيما بين غزو نابليون لمصر فى العام ١٧٩٨ ، واندلاع نيران الحرب العالمية الأولى .

وتعود البداية الأوربية لعلم الآثار فى مصر إلى زمن الحملة الفرنسية ، فقد اكتشف الجنود الفرنسيون حجر رشيد صدفة عام ١٧٩٩ ، واستطاع چان فرنسوا شامبليون أن يحل رموز النص الهيروغليفى المدون عليه بعد ثلاثة وعشرون عاماً من ذلك التاريخ ، ففتح بذلك الباب أمام علم « المصريات » الحديث . وعلى مدى نصف القرن الذى يقع بين ١٨٥٨ و١٩٠٨ ، لعب الأوروبيون الدور الرئيسى فى تأسيس مصلحة الآثار المصرية وأربعة متاحف تاريخية هى : المتحف المصرى (للعصر الفرعونى) ، والمتحف اليونانى الرومانى ، والمتحف القبطى ، ومتحف الفن العربى (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامى) . وخلال نفس الفترة - نصف القرن - أحكم الاستعمار الأوروبى قبضته على مصر ؛ مدفوعاً لتحقيق متطلبات الثورة الصناعية : الحاجة للقطن وغيره من المواد الخام ، والسعى لإيجاد أسواق وفرص استثمار فيما وراء البحار ، واحتدام مشكلات الإنتاج الواسع ، والصراعات بين الدول الأوروبية . وبدا وكأن علم الآثار والإمبريالية يسيران معًا يدًا بيد [١] .

وعندما تعرف المصريون على علم الآثار عن طريق الأوروبيين ، بدأوا يدركون - تدريجيًا - إمكانية استخدامه لخدمة أهدافهم الوطنية . وعندما أيقن المصريون من الدور الحيوى الذى يلعبه علم الآثار - فى صياغة هويتهم القومية ، راحوا يلتمسون السبل التى تتيح لهم تدريب الآثاريين المصريين ، وهيأ ذلك المسرح للتحدى الوطنى للهيمنة الأوروبية على المؤسسات الآثارية المصرية ، وللتفسيرات الغربية الإمبريالية لتاريخ مصر .

كانت الاعتبارات الچيوبوليتكية وحدها هى التى دعت الأوروبيين فى القرن التاسع عشر إلى محاولة السيطرة على مصر ، ولكن الرؤية المبهرة لتاريخها السحيق أعطت تلك المحاولات دفعة قوية . فقد أحس الغربيون الذين يطأون أرض مصر أنهم يدخلون عالم الفراعنة ، عالم التوراة ، والإغريق والرومان ، والقرآن ، وألف ليلة وليلة . وقد عبرت فلورانس نايتنجيل عن هذه العوالم الأربعة فى جملة واحدة حين قالت : « هنا عاش أوزيريس وعباده ، وسار إبراهيم وموسى ، وإلى هنا جاء أرسطو ، وفيما بعد جاء محمد (*) ليتعلم مبادىء دينه ويدرس المسيحية ، ولعل أم مخلصنا (السيدة مريم) جاءت بابنها إلى هنا ليفتح عينيه على النور » [٢] .

(*) هذا نص الاقتباس من نايتنجيل أوردة المؤلف ، ونقلناه بأمانة ولا يعنى ذلك أن النبى محمد تعلم مبادئ الدين فى مصر . (المترجم) .

ولم تكن تلك الزوايا الوحيدة التى رأى الغربيون من خلالها تراث مصر ، فورثة السحر رأوا فى مصر منبع الحكمة السحرية ، ولا زال الإيمان بالسر الخفى للأهرام موجودًا حتى اليوم . وتصور البعض الآخر من الغربيين أنفسهم صليبيين عادوا لاسترداد مواقعهم المفقودة ، وإن كان ذلك أكثر ارتباطًا بفلسطين وسوريا ، مثلما كان شعور الجنرال اللينبى عند دخوله القدس عام ١٩١٧ ، والجنرال جورو عند دخوله دمشق عام ١٩٢٠ . وراح الرومانسيون الذين افتقدوا عالم ما قبل الثورة الصناعية فى بلادهم ، راحوا ينشدون فى البدو « الأرستقراطية الطبيعية » والمثل الخلقية الفطرية ورأى بريطانيو الهند فى المصريين الصفات الوراثية للشرقيين الذين يمكن حكمهم بالأساليب التى استخدمت فى الهند . ولما كانت الحكمة غائبة عن الجميع ، كان السؤال الأساسى يتعلق بنوع الغرابيل التى يمكن استخدامها لاستخلاص حقيقة مصر ، ومدى اتصال ذلك بالواقع المصرى وتعبيره عنه .

وثمة رؤيتان فرنسيتان ترمزان إلى ارتباط الغرب بالآثار المصرية طوال القرن التاسع عشر ، أحدهما : فاتحة المجلد الأول من كتاب « وصف مصر » الذى أعدته الحملة الفرنسية ، وثانيهما : مبنى « المتحف المصرى » الذى افتتح عام ١٩٠٢ ولا زال يستخدم حتى اليوم ، ففى فاتحة المجلد الأول من « وصف مصر » رسم إطار زخرفى غنى ، يدعو ناظره إلى الغوص فى مناظر النيل الخلابة من الإسكندرية إلى أسوان (انظر الشكل رقم ١) [٣] . فهذه بلاد قديمة مليئة بالخرائب الفرعونية ، ولا نرى أثرًا إسلاميًا بينها . أو منظرًا للقاهرة ، أو سكان مصر المحدثين . وعلى رأس الإطار منظر عارٍ لنابليون فى صورة أبوللو أو الإسكندر ، يصوب رمحًا من عربته الحربية بينما يخر المماليك أمامه ، ووراء « البطل » اثنتا عشرة من آلهات الفنون (فى الأساطير الإغريقية) يُعدن إلى مصر الفنون لتستقر فى أرضها الأسطورية التى نبعت منها .

وبعد ذلك بقرن من الزمان ، خلدت واجهة « المتحف المصرى » عام ١٩٠٢ ، وحديقة النصب التذكارى لمؤسسة أوجست مارييت ، أبطال علم المصريات الأوروبى منذ نابليون (انظر الشكلين ٢ ، ٣) . وتضمنت قائمة رواد علم المصريات الأوروبيين : ستة من الفرنسيين وخمسة من البريطانيين ، وأربعة من الألمان ، وثلاثة من الإيطاليين ، وهولندى ، ودنمركى ، وسويدى (انظر الشكل ٤) . وخلت القائمة من أسماء

المصريين . وثمة لوح تذكارى آخر أكد المدخل الكلاسيكي الذى أطال من خلال الغرب النظر إلى مصر القديمة ، إذ يبرز اللوح هيرودوت ، وإراتوس ، ومانيتو ، وهورا بوللو . واحتل ذلك اللوح مكانه بين ألواح أخرى خلدت حكام مصر القدامى والعلماء المحدثين .

وعلى جانبى مدخل المتحف ، نحت تمثالان جداريان يمثلان إلهة الوجه القبلى ، وإلهة الوجه البحرى (انظر الشكل ٥) يرتدى كل منهما « عباءة مبتلة » على نحو ما جرت عليه تماثيلَ النساء عند الإغريق ، حيث تكشف تلك العباءة عن تفاصيل الجسد ، وذلك فى وقت كانت فيه نساء الطبقة العليا فى مصر يعشن فى عصر الحريم ولا يستطعن الخروج من بيوتهن دون نقاب . وجاء نقش اسم الخديو عباس حلمى الثانى على المدخل طبيعياً ، ولكنه لم يقدم ترضية كافية للمشاعر الوطنية (انظر الشكل ٦) ، فقد كتب النص باللاتينية التى لا يعرفها إلا الندرة من المصريين ، وجاءت إضافة السنة الهجرية إلى جانب السنة الميلادية كنوع من الترضية ولكنها كتبت باللاتينية أيضًا وبطريقة الترقيم الرومانية . وقد تعنى بذلك واجهة المتحف عند المصريين أن : « علم المصريات أوروبى خالص ، وهو العلم الذى كشف عن عظمة مصر القديمة التى تعد أصل الحضارة الأوروبية ، وأن المصريين المحدثين لا يستحقون أن يكونوا ورثة قدماء المصريين ، فهم لم يصلوا إلى عظمتهم ، ولم يأخذوا علم المصريات مأخذ الجد » [٤] .

وكان للمصريين نظراتهم الخاصة بهم فى مجال السياسة وعلم الآثار ، فعلى الصفحة الأولى من أحد أعداد العام ١٨٩٩ لصحيفة الأطفال المصرية « السمير الصغير » التى لم تعمر طويلاً ، وضعت مصر القديمة فى بؤرة النهضة الوطنية الحديثة (انظر شكل ٧) [٥] ، فأشعة الشمس التى ترمز إلى « نور المعرفة » تتجه نحو الأم التى بدت فى زيها الوطنى ، والتى توجه أنظار أطفالها إلى الأهرام وأبى الهول . واحتل عباس حلمى الثانى (وليس نابليون) قمة المشهد الذى أحاط به أربعة من رموز الإصلاح من رجال الدولة والمعلمين والعلماء ، ثلاثة منهم يحتلون موقعًا مهمًا من كتابنا هذا ، وهم : رفاعه الطهطاوى ، ومحمود الفلكى ، وعلى مبارك . وبذلك وضعت عند ختام القرن التاسع عشر البذور التى أنبتت أكلها فى العشرينات من القرن العشرين التى اتسمت بالاعتزاز القومى بالماضى الفرعونى وعلم المصريات .

لم يكن العصر الفرعونى وحده الذى ادعى العلماء الغربيون وشعوبهم حقهم فيه ، فقد كان للأوروبيين فضل الريادة فى تأسيس متاحف أخرى فى مصر : المتحف اليونانى - الرومانى بالإسكندرية ، ومتحف الفن العربى (الإسلامى الآن) بالقاهرة ، وهم الذين ألهموا من أسسوا المتحف القبطى ، وكما رأينا فى « المتحف المصرى » ، عبر كل المتاحف الثلاثة عن أحد الفروع العلمية القائمة ، وعن عصر من عصور تاريخ مصر الضارب فى أعماق الزمن ، ومع وجود هذه المتاحف والحقول المعرفية التى اتصلت بها ، شعر المصريون بالحاجة إلى تكوين وتدريب المتخصصين الذين يعطون مصداقية لتطلع المصريين إلى تولى مهمة دراسة وتفسير مختلف عصور تاريخهم المديد .

وجاء تتابع تأسيس المتاحف ليعكس أولويات الاهتمام الأوروبى بمصر أكثر من تعبيره عن الأولويات المصرية . فجاء تأسيس « المتحف المصرى » للآثار الفرعونية نتيجة اهتمام الأوروبيين بالكشف عن الحضارة المصرية القديمة ، وكان الاهتمام بالإغريق تأكيداً لأهمية هذه الحضارة كأصل للحضارة الغربية . وتسمية « المتحف المصرى » وعلم « المصريات » تعكس الأهمية الكبرى التى يوليها الغرب للعصر الفرعونى ، وكان من المنطقى أن يتضمن علم المصريات دراسة لتاريخ مصر فى مختلف عصور التاريخ ، ولكن المصطلح صيغ فى منتصف القرن التاسع عشر ليعنى دراسة تاريخ مصر القديم مع اعتبار العصرين اليونانى - الرومانى والقبطى نتاجاً له . وهذا الاستثناء للعصرين الإسلامى والحديث يعنى - بصورة أو بأخرى - « أن مصر فقدت هويتها عند نهاية تاريخها القديم » (٦) .

وجاء تأسيس متحف القاهرة للفن العربى تالياً لتأسيس « المتحف المصرى » نتيجة عمل « لجنة حفظ آثار الفن العربى » التى تأسست عام ١٨٨١ ، وكان تأسيس اللجنة لهذا المتحف الذى افتتح عام ١٨٨٤ تعبيراً عن افتتان أهل الغرب بالآخر « الشرقى » ، ولا يدخل هذا الاهتمام - بحال من الأحوال - فى نطاق سعى الغرب للبحث عن جذوره الحضارية .

وأعقب ذلك تأسيس المتحف اليونانى - الرومانى عام ١٨٩٢ الذى لم يقم بالقاهرة ، وإنما أقيم بالإسكندرية العاصمة البطلمية لمصر . ومن السهولة بمكان تعريف

الأوروبيين فى إطار الحضارة الإغريقية - الرومانية أكثر من حضارتى مصر القديمة والإسلام . فقد قلل الكثيرون من فضل مصر القديمة على اليونان والرومان ، واعتبروها مجرد نقطة ارتكاز فى الطريق إلى الحضارة اليونانية - الرومانية العظيمة . ومع وجود العديد من المتاحف التى ضمت آثار اليونان والرومان فى أوروبا ، كان إنشاء متحف آخر بمصر لا يحتل الأولوية .

ولكن بحلول عام ١٨٩٢ ، ومع وجود نخبة من البريطانيين المثقفين ممن حكموا مصر ، ووجود جاليات أوروبية كبيرة ، أصبح الوقت مناسبًا لإقامة هذا المتحف ، ففى إيطاليا كانت الطبقات العليا تبحث منذ عصر النهضة عن الآثار الرومانية القديمة وأعطى القوميون الذين أسسوا الوحدة الإيطالية فى القرن التاسع عشر دفعة جديدة لتلك الجهود ، وتعاقب على إدارة المتحف اليونانى - الرومانى ثلاثة من المديرين الإيطاليين الذين بذلوا الجهود لدعم الجانب الثقافى من مطالب بلادهم فى تلك الولاية القديمة من ولايات الإمبراطورية الرومانية .

وكان المتحف القبطى - الذى أسس عام ١٩٠٨ - آخر المتاحف الأربعة التى تمت إقامتها فى مصر ، لقد ظل الكاثوليك والبروتستانت فى الغرب ينظرون إلى الكنيسة القبطية منذ زمن بعيد على أنها هرطقة تعكس عيوب « البيئة الشرقية » . ولكن المسيحيين الغربيين - واليهود فيما بعد - اهتموا بعلم الآثار لإقامة الدليل على صحة الكتاب المقدس فى مواجهة دعاوى العلمانية والنزعة العلمية ، دعمًا لقضيتهم . وقد جاسوا خلال فلسطين وبقية بلاد الهلال الخصيب بحثًا عن الأدلة الأثرية التى تدعم دعواهم ، وكان من الصعب عليهم تجاهل بلد النيل (مصر) التى ارتبط بها يوسف ، وموسى ، والمسيح ، وأمه مريم ، والقديس مرقص . ويرجع الأقباط أصل كنيستهم إلى القديس مرقص ، وهم الذين ابتدعوا نظام الرهبنة المسيحية . وفى التسعينات من القرن التاسع عشر ، اهتم بعض الأوروبيين بالفن القبطى والعمارة القبطية ، وكان حماسهم مصدر إلهام مرقس سميكة فكرة تأسيس «المتحف القبطى» ، وكان المتحف فريداً فى نوعه ، يديره مؤسسه المصرى ، ولا يخضع لسلطة الدولة وإنما ترعاه الطائفة القبطية .

والغرض الرئيسى لهذا الكتاب هو كتابة تاريخ المصريين المحدثين من خلال دراسة تاريخ هذه المتاحف والمؤسسات والعلوم التى ارتبطت بهم : علم المصريات ، والدراسات القديمة (الكلاسيكية) ، والدراسات القبطية ، والفن والعمارة الإسلامية . فالكتابات الغربيـــة فى تاريخ تلك العلوم تعكس عادة النظرة الإمبريالية التى طبع بها ذلك العصر ، وحتى الكتابات التى احتفت بها ، همشت دور المصريين . ويهتم هذا الكتاب - أيضا - بالبحث فى المفاهيم الأكثر شيوعًا عن المصريين فيما يتعلق بماضيهم - فى مصر والغرب على حد سواء - ومدى صلتها بالإمبريالية ، والقومية والهوية المصرية .

وكانت تلك التطورات التى شهدها علم الآثار المصرى والمتاحف جزءًا من عملية دولية ، سعت من خلالها الدول والشعوب لتقديم نفسها باعتبارها « أممًا حديثة » ، وكان البون شاسعًا بين أن يكون أو لا يكون المرء مواطنًا لإحدى الدول الغربية الكبرى : بريطانيا ، أو فرنسا ، أو ألمانيا ، أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية ، تلك الدول التى حظى نفوذها السياسى والاقتصادى باعتراف العالم أجمع . وكانت المتاحف التى أنشئت فى المستعمرات كمصر والهند ، ساحات متميزة للنضال من أجل الاستقلال الوطنى . أما البلاد المستقلة شبه الطرفية كاليونان وإيطاليا ، والإمبراطورية الروسية ، والمكسيك . فقد بذلت فيها جهود مضنية لدراسة وعرض ما يتصل بماضيها لخدمة أهداف توسعية عكست - بدرجات مختلفة - ملامح علم الآثار فى البلاد المستقلة والمستعمرة على السواء .

ويحاول هذا الكتاب تقديم أطروحة ذات مستويات خمسة : أولاً ، المقابلة بين التواريخ المألوفة للآثاريين الغربيين والتاريخ المهمل لنظرائهم المصريين ، فلازال علم الآثار المصرية يحتاج إلى أن يكتب عنه الكثير حتى بعد ميشيل فوكو ، وإدوارد سعيد ، وعودة الاهتمام بأنطونيو جرامشى ، والفرضيات الوضعية حول المعرفة التقدمية ، الموضوعية ، « العلمية » . فالذين يحتلون على مسرح علم الآثار المصرية دور « البطولة » هم : شامبليون ، ريتشارد ليبسيوس ، أوجست مارييت ، جاستون - كاميل - شارل ماسبيرو ، أدولف إرمان ، فلندرز بترى ، هوارد كارتر ، چيمس برستيد ، وچورج ريشنر . بينما تحجب الظلال المصريين باعتبارهم ملاحظى عمال أكفاء ، وخدم

مخلصين ، وعمال ، ولصوص جبانات ، وتجار عاديات ، وموظفين معوقين للعمل ، ووطنيين مهووسين . ومن المقابلات التى لا جدال فيها ، مقابلة شامبليون ورفاعة الطهطاوى ، وكذلك إدوارد لين ورفاعه الطهطاوى ، وماسبيرو وأحمد كمال ، وماكس هيرتز وعلى بهجت ، على نحو ما فعلنا فى هذا الكتاب لتحدى الفكرة السائدة عن تفرد الغربيين فى علم الآثار المصرية ، دون أن نقلل من حجة مساهمات الغربيين أو نبالغ فى مساهمات المصريين أو أوجه التشابه بين الفريقين ، ولندحض الفكرة القائلة باستحالة التقاء الطرفين ، وأن تاريخ علم الآثار كان غربيًا محضًا ، يلعب المصريون فيه دور المتفرج .

لقد أسقطت الطبعة الأولى (١٩٥١) من موسوعة أعلام علم المصريات (Who Was Who in Egyptology) اسم رائد المصريات المصرى أحمد كمال ، ولم يذكر فى الطبعتين الثانية والثالثة إلا عرضًا ، وإن خصته الطبعة الثالثة من هذه الموسوعة البريطانية الشهيرة (١٩٩٥) بعشرين سطراً ، على حين كان نصيب ماسبيرو ٨٢ سطراً ، ونصيب بترى ١٣٤ سطراً . ولا شك أن ماسبيرو وبترى كانا عملاقين ، ولكن التعامل مع أحمد كمال بهذا القدر من الإهمال يحتاج إلى تفسير . إن الموسوعات من هذا النوع تهدف إلى استخلاص « العلم » من السياق السياسى الاجتماعى ، ولا تضع فى اعتبارها الانتماء القومى للأعلام أو الصراعات الشخصية ولكن ما فعلته « موسوعة أعلام علم المصريات » يحول دون فهم علم المصريات كما عاشه أولئك الرواد (٧) . كانت سيادة اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية فى حقل المصريات أحد العوامل المهمة التى أعطت للأوروبيين ميزة بارزة فى هذا المجال .

أما المستوى الثانى للأطروحة فهو وضع تاريخ علم الآثار والمتاحف فى المجرى العام لتاريخ مصر الحديث . فبعد احتدام الحركات الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، زعم علماء الآثار الغربيون أنهم أقاموا أسس علمهم على قواعد الموضوعية ونبذ المنفعة . وفى العقدين الماضيين تعرض هذا الزعم لهجوم متزايد بافتراض أن الأهداف السياسية كانت كامنة وراء علم الآثار فى الغرب (٨) ، ولكن بالنسبة لمصر بدأت عملية إعادة التقويم . فلا يذكر ماريت وماسبيرو إلا باعتبارهما من كبار علماء المصريات ، ولكن يجب أن يذكرا أيضـًا باعتبارهما ممثلين بارزين للإمبرالية فى

عصرهما ، وعناوين مثل « اغتصاب النيل » ، و « اغتصاب مصر » ، و « اغتصاب توت عنخ أمون » ، تعكس الاعتراف الغربى الراهن بالجانب الإمبريالى من علم المصريات فى القرن التاسع عشر ، ولكن هذه الكتب تترك الغربيين يتصدرون المسرح ، وتترك للمصريين دور « الضحايا » [٩] .

غير أن المؤرخين المصريين المحدثين ركزوا جهودهم فى مراجعة التاريخ على مجالات أخرى ، ولم ينل علم الآثار إلا القليل من اهتمامهم فالقليل من المصريين والأقل من الغربيين يعرفون شيئًا عن أحمد كمال ، أو على بهجت ، أو مرقس سميكة وغير هؤلاء من المصريين الذين تناولهم هذا الكتاب معروفين بشكل أفضل ، كالجبرتى ، والطهطاوى ، وعلى مبارك ، وأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، والملك فؤاد - ولكن علم الآثار ، والمتاحف والتاريخ القديم لا تدخل ضمن ما عرف عن هؤلاء . ترى من يتذكر أن طه حسين عندما عين أستاذًا بالجامعة كان أستاذًا للتاريخ اليونانى - الرومانى وليس أستاذًا للأدب العربى ؟ [١٠] .

وفى المستوى الثالث للأطروحة التى يقدمها هذا الكتاب ، يتسع إطار النظر إلى تواريخ علوم المصريات ، والدراسات اليونانية - الرومانية ، والدراسات القبطية ، والعمارة والفن الإسلامى ، ليضمنها جميعًا معًا . فمجال هذه العلوم الأربعة هو ماضى مصر ، ولكن المتخصص فى واحد منها نادرًا ما يهتم بما يخرج عن إطار تخصصه ، وأحيانًا يمتد اهتمامه إلى العصر السابق أو اللاحق لمجال تخصصه . والتخصص فى واحد من هذه العلوم ضرورى بحكم اختلاف اللغات وطرق الكتابة والأديان فى كل عصر من تلك العصور عنها فى غيره ، ولكن حدود التخصص والعصور التاريخية قد تترك آثارًا سلبية على الدراسات نفسها . وقد ارتضى المؤرخون المصريون المعاصرون أن يتركوا تاريخ علم الآثار للآثاريين (ولهواة الكتابة من غير المتخصصين) ، مما يؤدى إلى نقص فى دراسة تاريخ علم الآثار ، فرغم أن كتابة الآثاريين فيه مطلوبة إلا أن مؤرخى مصر الحديثة أقدر على وضع تطور ذلك العلم فى سياق تاريخ مصر الحديث .

ويتناول المستوى الرابع من أطروحة هذا الكتاب ، الاهتمام العلمى والشعبى بتاريخ مصر ، فى مصر ، وكذلك فى الغرب . وغالبًا ما تقوم الدراسات التاريخية لعلم المصريات وغيره من تخصصات الآثار المصرية - بتنحية الأفكار الشعبية المتصلة بموضوع دراستهم ، رغم ما فى بعضها من إثارة للخيال : فالأدبيات الخاصة « بالولع بمصر » طرقت موضوعات فرعونية فى الرسم والتصوير الفوتوغرافى ، وطرز الملابس ، وأدب الرحلات ، والروايات ، والأغانى الشعبية ، والموسيقى الكلاسيكية ، والمعارض الدولية ، وكتب الدليل السياحى ، وبطاقات البريد ، وطوابع البريد ، فابتداءً من «معرض لندن الكبير» (أو قصر الكريستال) فى العام ١٨٥١ ، لم يكن هناك معرض دولى يستحق أن يسمى كذلك إذا غاب عنه « جناح مصر » . وعلى الجانب المصرى التفتت الأنظار مؤخرًا إلى الرموز الفرعونية التى استخدمها دعاة الاستقلال الوطنى فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين (١١) . وفى تتبعى لهذه الظاهرة فضلت أن أصفها « بالولع المصرى بالعصر الفرعونى » أو « الحماس الشعبى تجاه مصر القديمة » نحو « الفرعونية » أو « النزعة الفرعونية » التى تثير عند الكثير من المسلمين الصور المستهجنة للوثنية وطغيان فرعون الذى عانى منه موسى وبنى إسرائيل على نحو ما جاء به القرآن (والإنجيل) .

ولا يتضح دائمًا الحد الفاصل بين « علم المصريات » و « والولع بمصر الفرعونية » ، فمن بين أصحاب الاتجاه الأخير نجد مارييت ، وزميله الألمانى هنريش بروجش ، وعضو اللجنة المهندس المعمارى ماكس هرتز الذى سعى لضمان الأصالة المصرية فى تصميم الجناح المصرى فى المعارض الدولية ، واستخدم كارل بايدكر ، وتوماس كوك ، وجون موراى العلماء من أهل الاختصاص لكتابة بعض فصول كتب « الدليل السياحى » التى حملها السياح معهم فى رحلاتهم المتجهة إلى الصعيد . وتنوع الرسامون والمصورون الغربيون من السياح إلى الآثاريين . وكتب جورج إيبرس كتيبات فى علم المصريات ، كما كتب بعض الروايات التى تناولت موضوعات من عصر الفراعنة . وتولى مارييت - عالم المصريات - إدارة مصلحة الآثار والمتحف ، بينما عبر عن ولعه بمصر القديمة من خلال كتابته النص الذى أصبح أوبرا « عايدة » لفردى ، وقد أصر على أن تكون ملابس الأوبرا مطابقة تمامًا للزى الفرعونى ، ولكن ماذا يجدى

الإصرار على الأصالة مع تلك الموسيقى الأوروبية البديعة التى لا صلة لها بمصر القديمة ، والتى لم يستطع تذوقها المصريون المعاصرون له ؟ .

أما المســـتوى الخامس لأطـروحة هذا الكتاب فيتناول المناورات التى دارت بين « الوطنية » و« الإمبريالية » من ناحية ، والموضوعية المثالية لعلم ذى طبيعة دولية من ناحية أخرى . ولم ينجح كل من الغربيين والمصريين فى التوصل إلى حل معضلة أن يكونوا مواطنين صالحين لمجتمعين متخيلين أحدهما سياسيًا ذا طبيعة خاصة (إما إمبريالى غربى ، أو مصرى وطنى) ، والآخر عالمى . ففى الاقتباس الذى نستهل به هذه المقدمـــة ، برر ســانت - مور نقل مســـلة من الأقصــر إلى باريس بالمزج بين مخاطبة « مثقفى أوروبا » كمبرر عالمى الطابع ، والوطنية والإمبريالية الفرنسية (١٢) . وبعد ذلك بقرن من الزمان كتب مصرى مجهول فى صحيفة « البلاغ » القاهرية صيغة بليغة جمعت بين العالمى والوطنى معًا عندما قال : « إن العلم لا وطن له ، لأنه ثمرة الفــكر البشـرى المتطلع لتحقيق الخير للإنسـانيـة ، ويجب ألا يعرف العلم حدودًا جغرافية ، وأن يتخلص تمامًا من شبهة التحيز الوطنى . غير أننا لا نملك سوى التعبير عن إعجابنا بالأستاذ سليم حسن ، لبراعته فى علم الآثار ، ولاكتشافاته الأثرية الدائمة والتى كان آخرها الهرم الرابع » (١٣) .

وتقدم الإمبـريالية الغربية فى مواجهة الوطنيـة المصرية ، إطارًا ضروريًا لهذا المستوى من الأطروحة ، لا يتسم بالبساطة ، ولكنه ليس كافيًا . فقبل عام ١٩١٤ أبدى الآثاريون الغربيـون (الإنجليز والفرنسـيون ، والألمان ، والإيطاليين ، والنمسـاويين ، والأمريكيين) اتجاهات إمبريالية فى تعـاملهم مع الآثار المصرية . وكـان بعض أولئك العلماء أكثر تسيسًا من الآخرين . وكان الصراع بين بعض الأفراد من جنسية واحدة بالغ الحدة أحيانًا ، وتباين الآثاريون المصريون أيضًا فى درجة التزامهم الوطنى وسبل التعبير عن ذلك الالتزام . وقـصر الغربيون المناصب الكبرى على أنفسـهم أحـيانًا ، مسـيئين بذلك إلى حرمـة العلم المتســم بالتقدمــية ، واتهموا المصريين بأنهم مجــرد « وطنين متطرفين » . لأنه - على حد قول فرانز فانون « تستخدم الموضوعية دائمًا ضد كل من يتسم بالوطنية » (١٤) .

ولا يغفل هذا الكتاب الجدل الخلاق الذى دار بين إدوارد سعيد ونقاد الاستشراق من ناحية ، والمؤرخين ذوى العقلية الإمبريقية من نقاد إدوارد سعيد وغيره ، فقد أبرز سعيد الدور المعقد للمستشرقين الذين يريدون فرض الإمبريالية الغربية على العالم الإسلامى (١٥) . ويذهب المؤرخون من نقاده أن سعيداً يبحث عن باطن النصوص ليضع يده على ما يدين به الاستشراق ، وأن نقده للاستشراق مفرط فى أيديولوچية ، ويستند إلى وقائع تاريخية بعينها تفتقر إلى الدقة .

ويذكر چون ماكنزى فى كتابه : « الاستشراق : التاريخ ، والنظرية ، والفنون » أنه رغم التفاوت فى القوة ، كان اتصال الغربيين « بالشرقيين » يسير فى اتجاهين ، وأنه أدى إلى نتائج متعددة غير متوقعة . وفى تناوله للفنون تحديداً ، رأى أن الكثير من الفنانين المستشرقين : من الرسامين ، والمعماريين ، والمصممين ، والمسرحيين ، والموسيقيين لم يبد منهم عداءً للشرق ، كما لم يروجوا للإمبريالية (١٦) . وأشار إدموند بروك الثالث إلى أن تركيز سعيد على مقدمة فورييه لكتاب « وصف مصر » المحملة بالأيديولوچية ، حجبت عن سعيد مغزى هذا العمل . ويقول إن كتاب سعيد (الاستشراق) يعيد إنتاج نفس الأساسيات والتعميمات ، مغطاة بطلاء من الرعاية الإمبريالية التى استخدمتها ، فهى ذات سلالة معروفة ، ولكن ليس لها تاريخ» (١٧). ويعترف كارتر فندلى فى مقاله : « عثمانى مستغرب فى أوروبا » بالرؤية الثقافية للاستشراق التى قدمها إدوارد سعيد ، وطرح خطوطاً أخرى مثمرة للتفسير (١٨) .

ويقدم هذا الكتاب – من حين لآخر – مقترحات حول نقاط فى حاجة إلى إضافة أو دراسة متعمقة ، فيذهب پرانسنچت دوارا – من منطلق مدرسة « المهمشين » – إلى ضرورة « إنقاذ التاريخ من الأمة » (١٩) . وقد يحاول البعض ذلك باسم الموضوعية « ذلك الحلم النبيل » ، ولكن پيتر نوڤك يثير الشك حول صلاحية هذا الاختيار (٢٠) . ويرى أصحاب مدرسة « المهمشين » أن مقولة الوطنية أداة لتأكيد هيمنة النخبة الحاكمة على عامة الناس (المهمشين) ، والحواضر على الأقاليم ، والرجال على النساء . ونستطيع أن نقدم رواية تاريخ علم الآثار المصرية كما تروى « من أسفل » . أو من وجهة نظر بعض المصريين (٢١) : المرأة ، الأقباط ، أهل الصعيد ، التراجمة ، عمال التنقيب عن الآثار ، تجار العاديات ، بحارة السفن النيلية ، الفلاحين من قرى

الجيزة أو القرنة ، الجماعات الإسلامية التى هاجم أفرادها السياح [٢٢] . ورغم إدراك پرانسنجت دوارا لواقع مجتمع ما بعد الاستعمار ، فإن قصة المراحل الأولى لمحاولات المصريين فى مجال علم الآثار هى « إنقاذ الأمة من الإمبريالية » الذى يمثل الخط الرئيسى فى هذه الدراسة .

وهذا الكتاب لا يقدم تاريخاً شاملاً لعلوم المصريات أو الدراسات القبطية أو الدراسات اليونانية – الرومانية أو الفنون والعمارة الإسلامية . ولأن الكتاب يركز على التطورات التى شهدتها مصر ذاتها فى القرن التاسع عشر ، فقد تم تهميش علماء المصريات من أمثال صامويل پرش – الذى كان يعمل بالمتحف البريطانى – وأدولف إرمان الذى كان أستاذاً بجامعة برلين الذين فضلوا العمل فى حقل الكشوف الأثرية ، بدلاً من البقاء فى بلادهم داخل قاعات الدراسة وباحات العرض المتحفى . ولكن مارييت وماسبيرو يبرزان هنا بسبب طول فترة خدمتها فى مصر ونشاطهما المؤثر فيها .

وبالنسبة للحقبة الزمنية التى يتناولها الكتاب ، يعد القرن التاسع عشر من ١٧٩٨ حتى ١٩١٤ مناسباً للوفاء بالغرض الذى ننشده ، فقد ذهب المتصدون لهذا العصر بالدراسة إلى التردد بين قدوم حملة نابليون فى ١٧٩٨ وتولية محمد على فى عام ١٨٠٥ باعتبارها الحد الفاصل بين « العصر الوسيط » و« العصر الحديث » فى مصر [٢٣] . فافتراض أن « الغرب » الحركى الطابع قد أثر فى « الشرق » الراكد لا يصمد أمام النقد ، فهناك استمرارية للكثير من الظواهر تمتد جذورها حول ذلك الفاصل الزمنى بين العصرين . ورغم ذلك اتخذنا عام ١٧٩٨ نقطة انطلاق لهذا الكتاب لأنه لولا مجىء الحملة الفرنسية لما اكتشف حجر رشيد ، ولما كتب « وصف مصر » ، فبدون حجر رشيد ربما تأخر حل رموز الهيروغليفية ، وبدون حل تلك الرموز يظل التاريخ الفرعونى مجهولاً .

وعلى كل ، فلا مناص من بروز مصر الحديثة وعلم المصريات ، ولكن فى سياق زمنى آخر ، وبفعل عوامل أخرى .

ويتوقف الكتاب عند عام ١٩١٤ الذى شهد تقاعد كل من ماسبيرو وأحمد كمال ، وقيام الحرب العالمية الأولى التى أوقفت نشاط علماء المصريات من الألمان والنمساويين العاملين فى مصر . وتوقف - أوكاد - نشاط العلماء الإنجليز والفرنسيين ، وفتح رحيل النمساوى ماكس هرتز من لجنة حفظ الآثار العربية وإدارة « متحف الفن العربى » ، فتح الباب أمام تمصير إدارة المتحف على يد على بهجت . وعند نهاية الحرب العالمية الأولى ، قامت ثورة ١٩١٩ . وأصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعطى مصر نوعًا من الاستقلال المنقوص ، وبدأت حقبة جديدة شبه استعمارية فى تاريخ السياسات الوطنية والمتاحف وعلم الآثار ، وعلى مدى العقود الثلاثة التى أعقبت التطور سارت عملية تمصير العمل فى الآثار وغيرها من مرافق الحكومة بخطى مناسبة ، وإن كانت الأبواب الخلفية أتاحت للأوروبيين أن يمسكوا بأيديهم زمام التحكم فى السلطة حتى ثورة ١٩٥٢ .

ويستند الكتاب إلى المادة الوثائقية والمصادر المنشورة بالعربية واللغات الغربية التى دعمت بالمقابلات الشخصية . فقد تم استخدام الوثائق غير المنشورة المودعة بدار الوثائق القومية ودار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، ووثائق الخارجيتين البريطانية والفرنسية ، ومحفوظات المتحف البريطانى ، ومتحف جامعة بنسيلفانيا . وكان أهم ما عثرنا عليه حتى الآن المخطوطة التى لم يسبق استخدامها من قبل ، والتى تضم مذكرات مرقس سميكة مؤسس المتحف القبطى .

ويعالج الباب الأول « البدايات الإمبريالية والوطنية » الفترة السابقة على الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، فيتناول الفصل الأول التصورات الغربية والإسلامية لمصر القديمة قبل القرن التاسع عشر ، والحملة الفرنسية وكتاب « وصف مصر » وتطور التنافس الإنجليزى - الفرنسى فى ميدان المصريات حتى منتصف القرن ، ويبرز الفصل مساهمات الجبرتى ورفاعه الطهطاوى ، ومحمد على ، ويوسف حككيان فى تاريخ المصريات الذى يعالج - غالبًا - من منطلق المركزية الأوروبية .

يوضح الفصل الثانى مدى مساهمة السفن البخارية والسكك الحديدية ، وكتب الدليل السياحى الحديثة ، والفنادق السياحية فى اختراع السياحة الجماعية التى لعبت

فيها مصر وشركة توماس كوك دوراً قيادياً . ويرجع الفضل فى ظهور عصرالسياحة الجديد إلى التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى شهدها الغرب عندئذ . وحظيت كتب الرحلات والرسوم والصور الفوتوغرافية التى تناولت موضوعات ومشاهد مصرية باهتمام كبير من جانب العلماء ، ولكن الدور الذى لعبه المصريون فى هذا المجال لا زال بحاجة إلى المزيد من البحث .

أما الفصل الثالث ، فيعالج علم المصريات فى ثلاثة عقود تتركز فى عصر إسماعيل الذى مهد الطريق للاحتلال البريطانى فى العام ١٨٨٢ . فمع امتداد ظلال الإمبريالية الغربية بعد منتصف القرن ، شجع ولاة مصر : سعيد وإسماعيل ، مارييت على تأسيس مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى . وقام مارييت بإشباع نزعة الولع بمصر الفرعونية عند الأوروبيين بالترتيبات التى وضعها لاحتفالات افتتاح قناة السويس ، ونص أوبرا عايدة ، وجناح مصر بالمعرضين الدوليين بباريس . وكتب الطهطاوى أول كتاب بالعربية عن تاريخ مصر القديم ، وقام على مبارك - ناظرالمعارف - بجلب هنريش بروجش من ألمانيا ليتولى إدارة « مدرسة اللسان المصرى القديم » ، وبدأ بعض المصريين المساهمة فى نشاط الجمعية الجغرافية الخديوية ، والمجمع العلمى المصرى ، والمؤتمرات الدولية للاستشراق .

ويتناول الباب الثانى فترة ازدهار الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ - ١٩١٤) ، ويضم فصلاً عن كل من المتاحف الأربعة ، والتخصصات الأثرية التى ارتبطت بكل منها . وقد استهلت هذه الفترة - سياسيًا - بكرومر ، وختمت بكتشنر ، بينما سيطر ماسبيرو وبترى على مشهد علم المصريات . وتناول على مبارك آثار مختلف العصور فى موسوعته الشهيرة « الخطط التوفيقية » ، وتولى أحمد كمال وعلى بهجت ومرقس سميكة تكوين جيل جديد من المتخصصين فى مختلف فروع التخصصات الأثارية .

ويعالج الفصل الرابع المتحف اليونانى - الرومانى والدراسات القديمة (الكلاسيكية) ، فقد أهمل الإمبرياليون الإنجليز والفرنسيين فى مصر من نابليون إلى كرومر وكتشنر آثار الإسكندر وقيصر ، وازدهر المتحف اليونانى - الرومانى بفضل من تولى إدارته من الإيطاليين جيسب بوتى ، وإيفرستو برشيا ،

وقدمت الجمعية الآثارية بالإسكندرية ذات الطبيعة الدولية ، وكذلك بلدية الإسكندرية ، الدعم اللازم للمتحف ، ولم يظهر أى متخصص مصرى فى الدراسات القديمة أو الآثار اليونانية - الرومانية من مستوى أحمد كمال وعلى بهجت ومرقص سميكة حتى نهاية فترة الدراسة ، ولكن نفراً قليلاً من المصريين تابعوا أعمال علماء الغرب الإمبريالى فى حقل الدراسات القديمة ، ووجدوا فيها معيناً جديداً للمعرفة .

أما الفصل الخامس ، فيتناول علم المصريات فى تلك الحقبة ، حيث يقف فى الجانب الأوروبى ماسپيرو ، وپترى وصندوق الكشوف الأثرية ، بينما يقف فى الجانب المصرى أحمد كمال وحيداً . وغطت الخلافات الحادة بين الآثاريين الإنجليز والفرنسيين على الضجة التى أثارها حادث فاشودة فى السودان عام ١٨٩٨ ، وكان للوفاق الودى عام ١٩٠٤ جانبه الآثارى إضافة إلى جانبه السياسى ، وقامت الحكومة بنقل المتحف من بولاق إلى الجيزة ثم استقر فى موقعه الحالى بميدان التحرير . وحوالى نهاية القرن التاسع عشر استأنف الألمان حفائرهم فى مصر ، وبدأ علماء المصريات الأمريكيين يضعون أقدامهم فى هذا الميدان ، وانهمك أحمد كمال فى بذل الجهد فى مجال المصريات ، ونشر الوعى بتاريخ مصر القديم بين مواطنيه ، وبذلك ساعد الكتاب والسياسيين المصريين من أمثال أحمد لطفى السيد على التماس جذور فرعونية للقومية المصرية .

ويتحول الفصل السادس إلى « لجنة حفظ الفن العربى » و« متحف الفن العربى » ، والصحوة المعمارية الإسلامية الجديدة . وقد وجه أعمال كل من اللجنة والمتحف بنجاح فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩١٤ كل من يوليوس فرانتز الألمانى ، وماكس هرتز اليهودى المجرى (من رعايا إمبراطورية النمسا والمجر) ، بقدر كبير من النجاح . وحاول يعقوب أرتين - الأرمنى الكاثوليكى - أن يلعب دور حلقة الوصل بين العلماء الأوروبيين والمصريين . وعمل على بهجت تحت رئاسة هرتز لمدة عشر سنوات قبل أن يبدأ حفائره الرائدة فى الفسطاط عام ١٩١٢ . وجاء رحيل هرتز المفاجئ بعد عامين ليفتح الطريق أمام على بهجت ليصبح مديراً لمتحف الفن العربى .

وخصص الفصل السابع للدراسات القبطية والمتحف القبطى ، والفصل يعتمد أساساً على مذكرات مرقس سميكة التى لم يسبق استخدامها من قبل ، ويضع الفصل الآثار القبطية والتاريخ القبطى فى إطار الجدل الذى يدور بين الأقباط حول الإصلاح الاجتماعى ، وفى سياق السياسة الوطنية المصرية . ويعكس عنوان هذا الفصل « الأبناء المحدثون للفراعنة » الانتماء عميق الجذور لمصر القديمة الذى بدأ بعض مثقفى الأقباط تأكيده عند نهاية القرن التاسع عشر .

وبعد أن لخصت الخاتمة التطورات التى شهدتها المجالات الأربعة لعلم الآثار على مر القرن التاسع عشر ، أشارت إلى التغيرات التى حدثت بعد الحرب العالمية الأولى . ففى عام ١٩٢٢ ربط التصريح البريطانى بإعلان استقلال مصر ، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، بين علم المصريات والنزعة القومية عند المصريين بشكل أكثر وضوحاً من ذى قبل ، فاستفاد المصريون من استقلالهم الجديد فى افتتاح جامعة حكومية عام ١٩٢٥ ، وكان من بين أقسام الجامعة قسم للآثار والمصريات وقسم للدراسات الأوروبية القديمة (الكلاسيكية) . وبعد ذلك بعام أدخل برنامج للدراسات العليا فى الآثار الإسلامية ، وأبدى المشتغلون بالعمل الوطنى فخرهم واعتزازهم بأجدادهم الفراعنة ، وعبّر عن ذلك الكتاب ، والرسامون ، والمعماريون ، والنحاتون ، ومؤلفو الكتب الدراسية ، ومصممو طوابع البريد فى استخدامهم للرموز الفرعونية .

وفقد علم الآثار بوفاة أحمد كمال عام ١٩٢٣ ، وعلى بهجت عام ١٩٢٤ ، رائدين مصريين لعلم الآثار فى فترة حرجة من تاريخ مصر ، وجاء سقوط وزارة سعد زغلول عام ١٩٢٤ ليحبط الآمال فى تحقيق الاستقلال التام . وخلال ربع القرن التالى أحكم بيير لاكو وإيتيان دوريوتون قبضة الفرنسيين على مصلحة الآثار المصرية ، وخلف أكيل أدريانى ، برتشتا فى إدارة المتحف اليونانى - الرومانى ، وآلت إدارة متحف الفن العربى إلى جاستون ڤييت . وتولى الأوروبيون رئاسة قسم الآثار بالجامعة المصرية ، وفى عام ١٩٣٣ ، أسس الكابتن كيبل أرشيبالد كامرون كرزويل شعبة الآثار الإسلامية بالجامعة . وكان درايتون ، وڤييت ، وكرزويل علماء كبار لم يتأثروا بهجوم غلاة الوطنيين ضد الأجانب . وكان على ثورة ١٩٥٢ التى قادها عبد الناصر أن تحقيق هدفين كانا مثار قلق جيل ثورة ١٩١٩ هما تحقيق الاستقلال التام ، وتمصير العمل فى المتاحف وعلم الآثار .

الهوامش

(١) « علم الآثار » يعنى بدراسة المجتمعات القديمة من خلال ما يتم العثور عليه من آثار مادية فى الحفريات ، وقد استخدمنا المصطلح فى هذا الكتاب ليعنى « التاريخ القديم » (ويجمع بين الفلسفة والتاريخ) ، وقد ساد هذا المعنى فى العقود الأولى من القرن العشرين . وأخذت بهذا المفهوم كلية الآثار بجامعة القاهرة حتى الآن ، ويركز قسم الآثار الإسلامية فيها على التاريخ والفن أكثر من اهتمامه بالحفائر .

(٢) Florence Nightingale, Letters From Egypt, A Journey on the Nile 1849 - 1850 (New York), 33.

(٣) رغم أن المجلد الأول من « وصف مصر » يحمل تاريخ ١٨٠٩ فإنه لم ينشر إلا فى – ١٨١٠ ، انظر :

Commission des monuments d'Egypt, Description de l'Egypt, vol. 1, Paris 1809, Frontispiece.

(٤) انظـــر :

Benedict Anderson, Imagined Communities, 2nd ed. (London 1991), 181; Karl Baedeker, Egypt and the Soudan, 8th ed. (Leipzig 1929) 88.

حيث يذكر أن فرديناn شيفر هو النحات الذى صنع تمثالى إلهة الوجه القبلى وإلهة الوجه البحرى على جانبى مدخل المتحف .

(٥) Bertrand Millet, Samir, Mickey, Sindbad et les autres : Histoire de la presse en Fantine en Egypt (Cairo 1987) 30 - 31 .

وقد تأسست « السمير الصغير » عام ١٨٩٧ لتقديم المعلومات المصورة للأطفال .

(٦) A. Zvie, "Lgypte ancien ou l'Orient perdu et retrouvé" in D'un Orient l'autre, 2 vols, (Paris 1991), 1 : 38.

(٧) W.R.Dawson, Who Was Who in Egyptology (London 1951) , W.R.Dawson and Eric P.Uphill, 2nd ed., (1972); W.R. Dawson, Eric P. Uphill and M.L. Bierbrie, 3rd ed., (1995) .

(٨) Bruce Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, Mass., 1989; Bruce Kuklick, Puritans in Babylon : The Ancient Near East and American Intellectual Life 1880 - 1930 (Princeton, N,J., 1996) : Suzanne L. Machand, Down From Olympus, Archaeology and Philhellenism in Germany, 1750 - 1970, (Princcton, N.J., 1996).

(٩) Brian M. Fagan, The Rape of the Nile (London 1975); Peter France, The Rape of Egypt : How Europeans stripped Egypt of Its Heritage (London 1991); John and Elizabeth Romer, The Rape of Tutankhamun. (London 1993).

(١٠) كان المقـــرر الذى تولى طه حسين تدريسه بالجامعة المصرية عام ١٩١٩ هو « تاريخ الشرق القديم » ، وقد قام بتدريسه مركزًا على التاريخ اليونانى الرومانى وموقع مصر منه .

(١١) Israel Gershoni and James Jankowski, Egypt, Islam and the Arabs, The Search For Egyptian Nationhood, 1900 - 1930, (New York 1986) .

والكتاب يتناول النزعة الفرعونية فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين .

(١٢) E. de Verninac Saint - Mauer, Vpyage du Luxor (Paris 1835) as quted in Leslie Greener, The Diccovery of Egypt (New York 1965), 157 - 58.

(١٣) البلاغ – القاهرة : نقلاً عن الإجبشان جازيت ، عدد ٢٦ فبراير ١٩٢٢ .

(١٤) Quted in Edward Said, Culture and Imperialism (New York 1993).

(١٥) Edward Said, Orientalism (New York 1978); and Said, Culture and Imperialism; Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, 1988); Martin Bernal, Black Athena, Afroasiatic Roots of Classical Civilization, 2vols (NweBrunswick, N.J., 1987 - 1991).

(١٦) John Mac Kenzie, Orientalism : History, Theory and the Arts (Manchester, 1995).

(١٧) Edmund Bruke III, "Egppt in the Description d'Egypte", Paper, MESA meeting at Phoenix, Ariz., November 1994.

(١٨) Carter Vaughn Findley, "An Ottomnn Occidentalist in Europe : Ahmed Midhat meets Madame Gülnar, 1889" American Historical Review 103, (February 1998), 14 - 49.

(١٩) Prasenjit Duara, Rescuing History From the Nation : Questioning Narratives of Modern China (Chicago 1995).

(٢٠) Peter Novick, That Noble Dream : The "Objectivity Question" and the American Historical Profession (Chicago 1988).

(٢١) Partha Chatterjee, The Nation and Its Fragments : Colonial and Post colonial Histories (Princeton, N.J. 1993).

(٢٢) Michael Herz Feld, A Place in History, Social and Monumental Time in a Cretan Town (Priceton, N.J., 1991).

(٢٣) من أمثلة ذلك :

Peter Gran, Islamic Roots of Caoitalism, Egypt 1760 - 1840 (Austin, Tex., 1979); Kenneth Cuno, The Pasha's Peasants : Land, Society and Economy in Lower Egypt, 1740 - 1858 (Cambridge 1992).

الباب الأول

البدايات الإمبريالية والوطنية
١٧٩٨ - ١٨٨٢

الفصل الأول

إعادة اكتشاف مصر القديمة
شامبليون والطهطاوى

« يدمر الأجانب الخرائب القديمة ، ويأخذون منها الأحجار وبعض المشغولات ، ويصدّرونها إلى بلادهم . فإذا استمر ذلك لن يبقى بمصر شيء من المخلفات القديمة ، ، ، ومن المعروف أن الأوربيين يشيدون أبنية خاصة بالعاديات ، والأحجار المرسومة والمنقوشة وغيرها من تلك الأشياء ، يحفظونها بعناية ، ويعرضونها على أهالى البلاد وعلى السياح الراغبين فى مشاهدتها . . . ومع أخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار ، رأت الحكومة أن الأمر يقتضى منع تصدير العاديات ، التى يتم العثور عليها فى الخرائب القديمة ، إلى خارج البلاد . . . وتخصيص مكان فى العاصمة ليكون مستودعًا لها . . . وقررنا عرضها للسياح الذين يزورون مصر ، منعًا لنهب الخرائب القديمة بالصعيد ، مع بذل كل جهد ممكن للحفاظ عليها » .

أمر صادر من محمد على باشا فى ١٥ أغسطس ١٨٣٥ ، أورده جاستون فييت فى كتابه :

« محمد على والفنون Mohamed Ali et les Banx-Arts »

قد يثير عنوان هذا الفصل فضول القارىء الغربى عندما يجدنى أضع العبقرى الفرنسى الذى حل رموز الكتابة الهيروغليفية فى مستوى واحد مع العالم المصرى رفاعه الطهطاوى ، الأقل شهرة فى الغرب ، فالقاسم المشترك بين الرجلين أنهما أحدثا انقلابًا فى فهم قرائهما لمصر القديمة ، عندما طرحا بين أيديهم المعرفة المستخلصة من

الهيروغليفية التى طال زمان صمتها . وعلى حين كتب شامبليون بالفرنسية مخاطبًا القارئ الغربى ، كتب الطهطاوى بالعربية مخاطبًا المصريين . وهكذا فتح شامبليون أبواب عالم مجهول أمام قرائه ، بينما دعا الطهطاوى قراءه أن يمعنوا النظر فيما وراء تلك الأبواب ، وذلك رغم عدم قراءته للهيروغليفية ، ويرصد هذا الفصل ما عرفه الغربيون والمسلمون عن مصر القديمة قبل العام ١٨٠٠ ، ويبحث فى العمل الأثرى للحملة الفرنسية ، ويقف عند التنافس الإنجليزى - الفرنسى فى حقل المصريات ، ويسجل دخول الألمان إلى الساحة على يد ريتشارد ليبسيوس . ومحمد على ، ويوسف حككيان ، فى إطار قصة علم المصريات التى تروى دائمًا من منطلق المركزية الأوربية ، ونظرًا لقرب حككيان من الدوائر الأوربية بحكم تعليمه وثقافته ، أكثر من قربه من الدوائر المصرية ، فإن الطهطاوى يعد الشخصية المحورية فى التعبير عن المصريين . وقد لعب دورًا أساسيًا فى المحاولة التى يقدر لها النجاح لإقامة إدارة خاصة بالآثار ومتحف لحفظها فى عهد محمد على عام ١٨٣٥ ، ونشر عام ١٨٦٨ كتابًا فى تاريخ مصر القديم ، سنلقى عليه نظرة فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، ويبين الجدول رقم (١) المصريين الذين اهتموا بالآثار فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مقابلة الأوربيين أصحاب نفس الاهتمام .

الجدول رقم (١)

العلماء وجامعو الآثار والحكام الأوربيين والمصريين

العلماء وجامعى الآثار الأوربيين	العلماء المصريين	الحكام ومدة حكمهم
دينون ١٧٤٧ – ١٨٢٥		
	الجبرتى ١٧٥٤ – ١٨٢٢	نابليون ١٧٩٩ – ١٨١٤
	حسن العطار ١٧٦٦ – ١٨٣٥	محمد على ١٨٠٥ – ١٨٤٨
يانج ١٧٧٣ – ١٨٢٩		
دروفيتى ١٧٦ – ١٨٥٢		
چومار ١٧٧٧ – ١٨٦٢		
بلزونى ١٧٧٨ – ١٨٢٣		
بوركهارت ١٧٨٤ – ١٨١٧		
شامبليون ١٧٩٠ – ١٨٣٢		
ولكنسون ١٧٩٧ – ١٨٧٥		
روسللينى ١٨٠٠ – ١٨٤٣		
لين ١٨٠١ – ١٨٧٦	رفاعة الطهطاوى ١٨٠١ – ١٨٧٣	إبراهيم ١٨٤٨
لبسيوس ١٨١٠ – ١٨٨٤	يوسف حككيان ١٨٠٧ – ١٨٧٥	عباس الأول ١٨٤٨ – ١٨٥٤

رؤية الأوربيين لمصر القديمة قبل شامبليون :

كان الضباب يلف رؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل شامبليون ، فقد كانت معرفتهم بمصر تعتمد على الروايات اليونانية - الرومانية ، والإنجيل ، وما يراه الزائر من آثار مهملة . وهناك لوحة على واجهة « المتحف المصرى » بالقاهرة تخلِّد ذكرى هيرودوت ، وأرانوس ، ومانيتو ، وهورأبوللو ، وهم من الإغريق والمصريين المتأغرقين الذين كتبوا عن مصر القديمة . وعندما زار هيرودوت مصر عام ٤٥٠ ق.م ، كان باستطاعته أن يستعلم من الكهنة الذين كانوا يمارسون الخدمة الدينية بالمعابد ، ويعرفون الهيروغليفية ، فكتب بقدر من المعرفة عن الأسرة الفارسية السابعة والعشرين وعن الأسرة السابقة لها (٦٤٤ - ٥٢٥ ق.م) ، والأسرة « الأثيوبية » الخامسة والعشرين (٧٤٥ - ٦٦٤ ق.م) ، ولكن معلوماته عن الحقب الأقدم لهذا التاريخ كانت تفتقر إلى الدقة على نحو شبيه بما كتبه هوميروس ، فقد كان الفارق الزمنى بين هيرودوت وعصر بناة الأهرام ألفى عام . وقد كتب كل من الكاهن المصرى مانيتو ، والعالم الإغريقى الموسوعى إراتوس أمين مكتبة الإسكندرية ، تاريخها باليونانية بعد ما أصبحت مصر تنتمى إلى العالم الهللينستى بعد ما ضمها الإسكندر إليه . ولم يتبق من تاريخ مانيتو سوى قائمة بملوك مصر(١) ، ولكن علماء المصريات لازالوا يستخدمون تحديدها المناسب للأسرات الحاكمة .

وقد انعكس الجانب العلمانى من الفكر الأوروبى نفسه فى إغفال واجهة « المتحف المصرى » لما يشير إلى الأنبياء إبراهيم ، ويوسف ، وموسى ، وعيسى . غير أن هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم بالإنجيل (والقرآن) كانوا يمثلون أكثر ما كان يعرفه الأوربيون عن مصر القديمة . وقد أدى تحول المصريين إلى المسيحية فى القرنين الرابع والخامس للميلاد إلى حدوث قطيعة كاملة مع الديانات الوثنية القديمة ، والملوك الآلهة والكتابة الهيروغليفية . وقام المسيحيون بطمس النقوش والصور الدينية القديمة على جدران المعابد الوثنية ، وحولوها إلى كنائس . وهكذا انتهت معرفة الهيروغليفية والديموطيقية بنهاية الكهنة القدامى ، وماتت معهم .

ولكن التراث الفرعونى ظل على قيد الحياة وإن كساه غطاء من الوعى . فصورة إيزيس وابنها حورس تحولت إلى صورة مريم تحمل ابنها المسيح ، وتمثل بعث أوزيريس فى قيامة المسيح ، وتحول ست عدو أوزيريس إلى التنين الذى قتله مارى جرجس ، وأصبح « عنخ » بالهيروغليفية (مفتاح الحياة) أول شكل من أشكال الصليب واستمرت اللغة المصرية القديمة فى الحياة تحت اسم اللغة « القبطية » التى كتبت بحروف يونانية مضافًا إليها سبعة حروف ديموطيقية . واستمر الحديث بالقبطية لعدة قرون بعد الفتح العربى ، ولكن ما بقى منها الآن نصوص وأدبيات كنسية .

وخلال العصور الوسطى الأوربية ، جذب الحج والحملات الصليبية والتجارة الأوربيون إلى مصر . فقد توقف الحجاج بمصر فى طريقهم إلى القدس ، ليشاهدوا المواقع المصرية التى ارتبطت بيوسف وموسى وعيسى ، والقديس مرقص والقديس أنطونيوس ، وأدرجت الأهرامات فى مشاهد الحج باعتبارها صوامع يوسف التى قام العبرانيون ببنائها . وعلى الصعيد التجارى ، قام چون ساندرسون التاجر الإنجليزى بشحن ستمائة رطل من المومياوات إلى بلاده فى أواخر الثمانيات من القرن السادس ، لأنه كان يعتقد بفائدتها فى علاج الجروح والرضوض والكدمات [٢] .

وأضاف إنسانيو عصر النهضة إلى مبررات السفر إلى مصر عند أهل العصور الوسطى ، أضافوا الرغبة فى التعلم والترويح عن النفس ، وكتبوا أقدم كتب الرحلات التى ضمنوها مشاهداتهم فى مصر ، فأوجدوا بذلك طريقة جديدة للبحث ، وصدرت طبعات لأعمال هيرودوت ، وسترابو ، وديودور الصقلى بعد مرور عقدين من الزمان على طباعة جوتنبرج للإنجيل ، وبذلك أصبح من السهل التعرف على الكلاسيكيات وعلى المتطلبات الدينية للحج . وفى ١٦١٠ زار الشاب چورج ساندى الجيزة فى جولة طويلة عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره ، وأيد الفكرة الإغريقية الرومانية عن الأهرام باعتبارها قبورًا ملكية ، ونفى تمامًا وجود أى علاقة بينها وبين يوسف أو العبرانيين . ولكن المعرفة الكلاسيكية لها حدود ، ولم يكن أحد قد عرف بعد ما إذا كان الملوك الذين ذكرهم مانيتو فى قائمته ملوكًا حقا أو محض خيال ، وقال ساندى إن محاجر طره سمِّيت كذلك لأن تراجان سجن هناك [٣] .

لقد شوهت العدسات الكلاسيكية صورة الأهرام ، فحتى القرن التاسع عشر كان الكثير من الأوربيين يعتبرون أن هرم كايوسى سيستيوس بروما (الذى يبلغ انحداره ٧٥ درجة) النموذج المثالى للهرم رغم أن أهرام الجيزة كان انحدارها ٥٢ درجة) . وذكرت مادة « الهرم » فى الطبعة الأولى لدائرة المعارف البريطانية (١٧٧١) أن هرم سيستيوس سابقٌ على أهرام الجيزة . كان ساندى قد رأى الأهرام رؤية العين ، ولكن رسمها بزاوية انحدار كبيرة ، ولا تزال زاوية انحدار هرم سيستيوس تؤثر على تصور شكل الهرم فى خاتم الولايات المتحدة الكبير الذى يظهر على أوراق النقد (الدولار)، وكان البناءون الأحرار من أوائل من قاموا بتصميم ذلك الخاتم(٤) .

وقام أستاذ الرياضيات بأكسفورد ، الفلكى ، والمستشرق جون جريفز بتجربة عملية ، فجلب معه إلى مصر أدوات لقياس الأهرام وفى كتابه « جغرافيا الأهرام ، أو حديث عن أهرام مصر » الصادر فى ١٦٤٦ قدم تحديداً أدق لأبعاد الأهرام ، مبيناً الممر الداخلى بالهرم الأكبر ، مؤكداً أنها كانت مقابر للملوك (٥) . غير أنه أخطأ فى حساب زاوية انحدار الهرم . وحتى بعد مرور ١٢٥ عاماً على ذلك ، ذكرت دائرة المعارف البريطانية تقديرات ارتفاع الهرم الأكبر التى تراوحت بين سبعمائة وخمسمائة قدم ، دون أن توجه انتقاداً إليها .

ومن المثير للدهشة أن يحظى هورأبوللو – من مؤلفى القرن الخامس الميلادى – بالتخليد على واجهة « المتحف المصرى » بالقاهرة ، فقد ثبتت قيمة كتابه « هيروغليفيكان » ، ولكن طريقة قراءته للرموز الهيروغليفية ضللت العلماء عدة قرون . وفى القرن الخامس عشر أعاد الأفلاطونيون الجدد بفلورنسا اكتشاف هورأبوللو وقوانين هرمس (Corpus Hermeticum) وأتاحوها للتداول . وكان المؤلف المزعوم لتلك القوانين هو هرمس ترسمجتس – وهو يجمع بين هرمس وتوت المصرى – الذى كان يعتقد بأسبقيته على موسى وبتعبيره عن حقائق المسيحية . وفى عام ١٦٠٠ ، مات جيوردانو برونو وهو يسعى لتأكيد تفوق الحكمة الهرمسية على المسيحية ، ورغم أن إسحق كازوبون أقام الدليل فى ١٦١٤ أن قوانين هرمس كتبت بعد ظهور المسيحية ، فإن الرؤية الأسطورية لمصر القديمة باعتبارها منبع الحكمة الصافية انتقلت إلى الروزيكوريين (وهى جمعية دينية سرية زعمت امتلاك أسرار الطبيعة والدين) ، وإلى البنائين الأحرار ، وإلى حلقات الصراع فى العصر الجديد الآن (٦) .

أما العلاَّمة اليسوعى أثناسيوس كرشر (١٦٠١ - ١٦٨٠) ، الذى كان يقرأ العبرية ، والسوريانية ، والعربية ، والقبطية ، فقد التزم جانب الغموض الباطنى ، فكتب كتاباً من ثلاثة آلاف صفحة ليبرهن على ما يزعمه من أن الهيروغليفية كانت سابقة فى تعبيرها عن المسيحية . وتحمل صفحة عنوان كتابه « أوديب المصرى » (Oedipus Aegptiacus) رسماً للمؤلف يصوره يسعى لمعرفة سر أبى الهول المصرى الذى بدا فى شكله الأنثوى المجنح أقرب ما يكون إلى الطابع الأغريقى لا المصرى (انظر الشكل رقم ٨) . ورغم ثبوت خطأ ما ذكره أثناسيوس كرشر بالنسبة للهيروغليفية واعتقاده فى جنيات البحر ، والغرفين (حيوان خرافى نصفه نسر ونصفه أسد) ، ومركزية الأرض ، فقد كان له فضل إرساء دعائم الدراسات القبطية فى أوروبا [٧] .

إعادة اكتشاف الأوروبيين لآثار الصعيد :

قبل قرن ونصف القرن من وصول بونابرت إلى مصر ، نشر رحالة فرنسيون سبعة وعشرون كتاباً - على الأقل - عن رحلاتهم فى مصر ، بزيادة ١٦ كتاباً عما كتبه الإنجليز ، بينما كتب الألمان ست كتب ، والهولنديون أربعة كتب ، والإيطاليون كتابين والسويسريون كتابين [٨] . وكان الأوروبيون يدخلون إلى مصر إما عن طريق موانيها على البحر المتوسط ، أو عبر فلسطين بطريق البر ، وحتى ستينات القرن السابع عشر ، ندر من غامر منهم بالتنقل جنوب القاهرة . وبعد ذلك قام الرهبان الكاثوليك بالإبحار على صفحة النيل جنوبياً لممارسة مهامهم التبشيرية التى تستهدف تحويل الأقباط إلى الكاثوليكية . وفى الطريق إلى دير الشهداء بإسنا ، دلف راهبان كابوتشيان إلى الكرنك عام ١٦٦٨ . وفيما بعد كلف الأب ڤاسيليب وكلود سيكار من قبل ملك فرنسا بشراء المخطوطات المسيحية (القبطية) القديمة إضافة إلى مهمتهما التبشيرية . وكان سيكار - الذى قام برحلته فيما بين ١٧١٤ و ١٧٢٦ - أول رحالة أوروبى حديث يكتب عن خرائب الأقصر فى طيبة . وزار أيضاً معبدى كوم أمبو والفانتين . وحتى الآن لا زال ينظر إلى مصر القديمة فى الدوائر المسيحية واليهودية الغربية من خلال منظار الكتاب المقدس (انظر الشكل ٩) .

وكانت الرموز العلمانية أكثر وضوحاً عند بنوادى مابيت الذى كان قنصلاً لفرنسا فى القاهرة قرب نهاية القرن الثامن عشر ولم يقم مابيت بزيارة الصعيد ، ولكنه شجع الآخرين على زيارته ، ولا يعد كتابه الذى حمل عنوان « وصف مصر » من كتب الرحلات العادية ، ولكنه كان يضم كمًا هائلاً من المعلومات (٩) عن مصر ، وتوضح إحدى لوحات الكتاب « عمود بومبى » والمسلة القائمة بالإسكندرية جنبًا إلى جنب ، فثقافته الكلاسيكية جعلته يعبر عن ميله للعمود الرومانى أكثر من تأثره بالمسلة الفرعونية .

وقد رسم العمود بعناية كبيرة ، ولكنه لم يلتزم الدقة فى رسمه للرموز الهيروغليفية المنقوشة على المسلة والتى كان من المتعذر قراءتها . وعلى نقيض مواطنيه بعد ذلك بقرن من الزمان ، كان يرى أن أفضل ما تحصل عليه فرنسا هو عمود بومبى وليس المسلة الفرعونية (انظر الشكل ١٠)(١٠) .

وفى عام ١٧٣٧ ، جاء إلى مصر رجلان من بروتستانت شمالى أوروبا ، هما : ف.ل.نوردن الضابط البحرى الموفد من ملك الدنمارك ، وريتشارد پوكوك ، القس الإنجيلى ، وأسهما فى اكتشاف الصعيد ، دون أن يعرف أحدهما بوجود الآخر ، وبعد ما عاد كل منهما إلى بلاده كتب عن رحلته ، وانضما إلى « الجمعية المصرية » التى أسسها بلندن عام ١٧٤١ چون مونتاجو ، إيرل مقاطعة ساندوتش والتى لم يقدر لها أن تعمر طويلاً . وقد سارت الجمعية على نهج « جمعية ديلبتانى » (١٧٣٢) التى ضمت المتحمسين للدراسات الكلاسيكية ممن قاموا بزيارة إيطاليا . وقد عبر پيكوك عن افتتانه بأبى الهول عندما صوره سليم الأنف ، وكان نوردن أول من رسم أبى الهول على حقيقة أنفه المفقود (١١) .

وبعد عام ١٧٥٠ ، حالت الاضطرابات التى شهدها الصعيد على مدى نصف القرن دون الأوربيين وزيارة المنطقة ، ورغم ذلك جاس اللورد الأسكتلندى چيمس بروس خلال الصعيد فى طريقه الى أثيوبيا ، فتوقف عند الكرنك ووادى الملوك ، بينما لم يتجاوز كل من المستشرق كلود ساڤرى ، والفيلسوف كونت دى ڤولنى ما وراء القاهرة جنوبيًا . وكان تصوير ڤولنى لمصر والشام باعتبارهما ترزحان تحت نير الاستبداد الشرقى ، كان عونًا عفويًا للتخطيط لحملة بونابرت على مصر (١٢) .

وهكذا بنى علماء الحملة الفرنسية معرفتهم بمصر من تراكم المعلومات التى وردت فيما كتبه الغربيون عن مصر القديمة ، ولم يبدأوا من الصفر على نحو ما يتردد غالبًا فى بعض الكتابات . فقبل العام ١٧٩٨ ، التفت الرحالة الغربيون إلى المعابد الكبرى فى الصعيد حتى أسوان . ولم تتم رؤية معبدى أدفو وأبيدوس عن قرب (١٣) .

رؤية المسلمين لمصر القديمة قبل الطهطاوى :

تعد فكرة الأوروبيين عن مصر القديمة قبل القرن التاسع عشر معلومة بصورة أوضح من فكرة المسلمين عنها ، فالكتابات العربية التقليدية تبرز العداء الإسلامى لمصر القديمة وتعتبر عبادة الأوثان وتعددية الآلهة نوعًا من « الجاهلية » السابقة على الإسلام . ولما كانت مصر الإسلامية تختلف عن مصر القديمة عقيدة ولغة ، فإنها لم تنتج نظيرًا « للشاهنامة » التى احتفى فيها الفردوسى بالتراث الفارسى وأشاد بالساسانيين وملوك الفرس الأسطوريين ، وربما كانت الكتابات العربية التقليدية فى السحر ، التى ارتبطت بمعرفة السحر الفرعونى ، وافدة على مصر من العراق فى القرن الحادى عشر ، وليس لها جذور عميقة بمصر . وليس هناك سوى مصدر عربى واحد سابق على العصر الحديث ، أورد ذكر الكرنك ، فقد أشار الرحالة ابن بطوطة إلى مسجد الولى الشيخ أبو الحجاج فوق قمة خرائب معبد الأقصر (١٤) . وسادت فى مصر فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أزمة متصلة بسبب الحروب والأوبئة والمجاعات ، وأدت تلك الأزمة إلى موجة من التشدد الدينى والتعصب ضد الرموز الدينية القديمة ، فقام المسلمون بتحطيم تمثال لإيزيس بالفسطاط مدفوعين فى ذلك بالحماس الدينى . وتم استخدام حجارة تحمل نقوشًا ، انتزعت من « المعبد الأخضر » فى منف ، فى بناء تكية للمتصوفة ، وتم هدم معبد أخميم ، كما قام بعض المتصوفة بالهجوم على تمثال أبى الهول بالجيزة (١٥) .

واعتمد الطبرى (المتوفى فى ٩٢٣ م) فى تاريخه على مصادر يهودية ومسيحية ، وفارسية ، وعربية سابقة على الإسلام ، ولكنه لم يشر إلى مصر القديمة إلا عرضًا عند ذكره للأنبياء يوسف وموسى وعيسى ، وأعطى الجبرتى لفرعون موسى اسما عربيًا .

واستهجن طغيانه الوثنى . وأسقط الطبرى من ذكر حكام مصر الفترة اليونانية - الرومانية [١٦] .

وعلى كل ، بين أولريش ها أرمان أن الأدب العربى الوسيط تميز بموقف إيجابى غير تقليدى من مصر القديمة . فالمسعودى (توفى ٩٥٦ م) أبحر فى النيل حتى أسوان باحثًا عن أسرار المسلمين والأقباط فى كتابه « مروج الذهب » الذى قدم فيه عرضًا لتاريخ اليونان منذ فيليب المقدونى ، والتاريخ البيزنطى ، والأساطير الخيالية عن الفراعنة ، وأبدى المسعودى إعجابه ببراعة الفراعنة فى الطب والفلك ، واستخدامهم للحجارة والمعدن [١٧] .

وعبر الكثير من الكتاب المسلمين عن مصر القديمة باعتبارها بلاد السحر والغموض . وقيل أن ملكًا يمنيًا يدعى شداد بن عاد غزا مصر ، وملك مصرى يدعى سريد بن شلق ، وهرمس ترسمجستوس (الذى يرد ذكره فى القرآن باسم إدريس وفى الإنجيل باسم إنوك) قد بنى كل منهم الأهرام للحفاظ على « الحكمة » حتى لا يضيعها فيضان النيل . ووصف الرحالة عبد اللطيف البغدادى (المتوفى ١٢٣١ / ١٢٣٢م) الآثار بتفصيل مبهر . وذهب المقريزى (المتوفى ١٤٢٢ م) إلى أن الهيروغليفية ما هى إلا ترميز للمعرفة القديمة فى الكيمياء ، وذكر أن بمصر عشرين من عجائب الدنيا الثلاثين ، من بينها الأهرام ومعابد أخميم ودندره [١٨] .

وكتب جمال الدين الإدريسى (حوالى ١٢٣٨) كتابًا عن الأهرام باعتبارها تحذيرًا إلهيًا للبشرية . وأعطاها مسحة إسلامية بزعمه أن النبى والصحابة كان يسعدهم الاستظلال بها ، وذكر أن شيخا مغربيًا أعاد حاجًا من مكة إلى مصر لأنه لم يزر الأهرام قبل قدومه إليها . وخصص الإدريسى فصلاً للتراث الخيالى عن الأهرام ، مشيرًا إلى أبعادها ، واصفًا الهرم الأكبر من الداخل [١٩] .

وبذلك سبق الإدريسى چون جريفز الذى كان أول من قدم للغرب صورة مماثلة بعد الإدريسى بأربعة قرون .

ولم يكن الغربيون أفضل معرفة بمصر القديمة من المسلمين ، لأنهم اعتمدوا على ما أورده هيرودوت وديودور الصقلى وسترابو . ولأن كتب التاريخ والمسرحيات

والأساطير وكتب الرحلات اليونانية لم تكن ضمن العدد الهائل من الكتب اليونانية التى نقلت إلى العربية . ولكن الميزة التى تمتع بها الغربيون كانت محدودة لأن الكتابات اليونانية – الرومانية القديمة لم تحقق التسلسل الزمنى لمصر القديمة ولم تقدم أسلوبًا صحيحًا لقراءة الكتابة الفرعونية القديمة . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، أقرت دائرة المعارف الفلسفية الفرنسية أن « تاريخ مصر القديم فى حالة فوضى ، يختلط فيه التطور الزمنى بالدين والفلسفة وتغرق جميعًا فى الغموض والاضطراب »[٢٠] .

الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى :

ولد علم المصريات فى خضم العنف ، والإمبريالية ، والصراع الإنجليزى – الفرنسى . فقد جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر لتحقيق مشروع استعمارى اقترحه ليبنتز عام ١٦٧٢ ، وكان الغرض من الحملة الهجوم على المصالح البريطانية فى البحر المتوسط والهند ، وعثر الجنود الفرنسيون – صدفة – على حجر رشيد عندما كانوا يحفرون الأرض لإقامة الاستحكامات العسكرية ، واستولى الإنجليز على الحجر كغنيمة حرب عام ١٨٠١ ، ليصبح ذلك معلمًا لبداية صراع أنجلو – فرنسى فى حقل المصريات امتد لأكثر من قرن . ولولا الغزو الفرنسى لمصر لما كان هناك « وصف مصر »[٢١] .

وقد ذهب نقاد تاريخ هذه الحقبة إلى أن عام ١٧٩٨ كان مجرد حدث لا يرقى إلى المستوى المفترض منه ، فقد مهدت إصلاحات على بك الكبير الطريق لإصلاحات محمد على ، ولم تكن مصر بعيدة عن السوق العالمية قبل العام ١٧٩٨ ، وأن الحملة الفرنسية تركت القليل من الآثار الثقافية [٢٢] . كما أنه قد بولغ فى تقدير تأثير كتاب « وصف مصر » فى أوروبا ، وأن أسرار الماسونية ، ومزمار موزار السحرى ، والتصميمات المعمارية لبرانسى تقوم دليلاً على وجود الولع بمصر قبل العام ١٧٩٨ . وقام الأوربيون الذين كان باستطاعتهم قراءة القبطية بزيارة الكنائس والأديرة الرئيسية بمصر ، وحددوا المواقع التى ذكرها المؤلفون القدامى ، ووصلوا إلى المعابد الكبرى فى الصعيد فيما عدا إدفو وأبيدوس ، الآثار الإسلامية وحدها هى التى لم تكن معروفة إلا قليلاً [٢٣] .

وكان هنــاك كتــاب أسـبق بحمــل عنوان « وصــف مصــر » (١٧٣٥) الذى ذكر أن « النيل معروف للكثير من الناس كنهر السين تمامًا » (٢٤) .

ولكن الحمــلة الفرنسية كانت نقطة تحول فى تأكيد الصراع الجغرافى الأنجلو فرنسى ، واستطاعت أن تضعــف المماليك بشكل مؤثر ، وتمهد الطريق أمام محمد على ، كانت هناك عقبات ، ولكن محمد على استطاع أن يدخل تغييرات أساسية فى مجالات الاقتصاد والمالية والجيش والسياسة والثقافة (٢٥) .

ومثل عهد الحملة الفرنسية وعصر محمد على فتحًا جديدًا فى علم الآثار - فقد مهد العثور على حجر رشيد الطريق لحل رموز الكتابة الهيروغليفيـة ومولد علم المصريات الحديث ، ولعب « وصف مصر » دورًا مهمًا فى تسجيل الفن الفرعونى وكذلك العمارة الفرعونية والطبوغرافيا .

ولما كان نابليون يسعى لتحويل الهزيمة العسكرية فى الحملة إلى نصر ثقافى ، فقد جعل من « وصف مصر » مشروعًا للدولة عام ١٨٠٢ . ويرهن العمل الكبير الذى بذل فى إعداد المشروع على أنه قد يكون وريثًا لدائرة المعارف المعروفة ، فقد صحب نابليون معه ١٧٠ عضوًا كونوا لجنة العلماء والفنانين الموفـدون إلى مصـر ، وكان علماؤها الأساسيون ينتمون إلى المجمع العلمى المصرى الذى أقيم على نسق مجمع مماثل أقيم حديثًا فى فرنسا ، وتولى جسبار مونج - رائد الهندسة الوصفية - رئاسة المجمع ، وتولى « المواطن بونابرت » منصب نائب الرئيس ، وإضافة إلى چان پاتست فورييه ، كان مونج منتميًا إلى قسم الرياضيات ، بينما كان ڤيڤان دينون منتميًا إلى قسم الأدب والفنون الجميلة ، وكلود لوى برتوليه إلى قسم الفيزياء (٢٦) .

وضمنت اللجنة خمسة وأربعين مهندسًا (بما فيهم الجغرافيين) ، ونحو الإثنى عشر من الميكانكيين وأخصائى المناظير ، ومثلهم من الأطباء والصيادلة ، وثلاثين من الفلكين والرياضيين والكميائيين ، وعلماء الحيوان والنبات ، والتعدين ، كما كان هناك ما يزيد قليلاً على خمسة عشر من رسامى الخرائط والرسامين ، والمعماريين والأدباء ، وعلماء الآثار والموسيقيين والاقتصاديين . وكان هناك عشرة من المستشرقين يعملون كمترجمين . وفى عام ١٧٩٩ طبعت مجلة « الاستشراق » لتكون المجلة الأولى التى

يسهم فى تحريرها كل من يدرس أو يرسم الشرق . وتولى ثمانية عشر طبّاعًا تشغيل مطبعتين كانت إحداهما غنيمــة من الڤاتيكان ، وضـــمت حروفًا عربية ويونانية ولاتينية . وضم المجمع مكتبة ، ومرصدًا ، وورشة ، ومعملاً كيماويًا ، ومجموعة من المعادن والآثار . ترى هل كان فرانسيس بيكون أودينيس ديدروت يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك ؟

وكانت الأســئلة الستة التى طرحها بونابرت فى افتتاح المجمع محبطة لأحلام الحالمين . فقد سأل عن كيفية استطاعة الجيش صناعة الجعة دون استخدام حشيشة الدينار ، وكيف يستطيع تحسين أفران الخبز ، وتنقية المياه ، وصناعة البارود محليًا ؟ وما إذا كان من الأفضل إقامة طواحين هواء أو ماء ؟ وما هى الإصلاحات التى يمكن إدخالها على القانون المحلى والتعليم وتكسب قبولاً شعبيًا ؟ (٢٧) .

ولم يحظ باهتمام الأوربيين من بين هؤلاء العلماء سوى ڤيڤان دينون (١٧٤٧ – ١٨٢٥) ، فقد عاد إلى فرنسا مبكرًا بصحبة بونابرت ، وكان كتابه « رحلة فى صعيد مصر » الذى نشر عام ١٨٠٢ ممهدًا الطريق « لوصف مصر » ، وسرعان ما ترجم كتابه إلى الإنجليزية والألمانية . كان دينون فى الحادية والخمسين عندما انضم إلى الحملة ، وكانت له إنجازات فى مجال الكتابة والفن ، كما خدم فى السلك الدبلوماسى فى سان بطرسبرج والسويد ، ونابولى – وقد فقد دينون أملاكه فى حوادث الثورة ولكنه نجا من « الرعب » بفضل حماية الرسام داڤيد (٢٨) .

وقد صحب دينون الجنرال ديزيه فى حملته على المماليك بالصعيد ، ورسم الآثار التى وقعت عليها عيناه طوال الطريق . وكان الجنود يسخرون من « العلماء » ، ولكن الجيش الفرنسى أصيب بالذهول عندما رأى طيبة « وكأن احتلال خرائب تلك العاصمة القديمة أعظم أعمالهم ، وأنه المتمم لاحتلال مصر » . وليس من الغريب أن تناقض رسوم دينون التقليد الكلاسيكى ، فقد وصف المعابد المصرية بالنمطية والطابع الحزين ، وقال عن معبد دندره « لم يخترع اليونان أو يفعلوا شيئًا يفوق عظمة هذا المعبد » ، متحديًا بذلك مقولة كاترميردى كونسى أن العمارة المصرية أقل شأنًا من العمارة اليونانية (٢٩) .

وتبع دينون مهندسان شابان هما إدوارد دى ڤيلييه دى تراچ (الذى يذكر دائمًا باسم دى ڤيلييه) ، وچان باتست پروسپير جولوا ، تبعاه فى الاهتمام بآثار الصعيد ، فأحضرا معهما رسومًا ومخططات معمارية للمعابد ، كما أرسلت الحملة فيما بعد بعثتين علميتين إلى الصعيد لدراسة الآثار ، وعقد دى ڤيلييه مقابلة بين عظمة الماضى وتخلف الحاضر ، بربرية الشرق والتنوير الأوروبى فقال :

« القرية العربية تضم أكواخًا بائسة ، وتتحكم فى أعظم آثار العمارة المصرية ، ويبدوا أنها قائمة هناك لتعبر عن انتصار الجهل والبربرية على قرون النور التى رفعت فى مصر الفنون إلى الذروة .

وقد سعدنا عندما فكرنا أننا سنأخذ معنا إلى بلادنا منتجات علوم وصناعة المصريين القدماء ، وهو غزو مشروع سنقوم به باسم الفنون » [٣٠] .

وصف مصر :

إن الرجل الذى رعى « وصف مصر » حتى اكتماله هو إدمى فرانسوا چومار (١٧٧٧ - ١٨٦٢) الجغرافى الذى ساعد الحملة على رسم خرائط القاهرة والإسكندرية والأقاليم . وقد شمل هذا العمل الموسوعى أربع محافظ ضخمة من النصوص المتعلقة بمصر القديمة ، واثنتين (من ثلاثة أجزاء) للدولة الحديثة ، واثنتين (فى خمسة أجزاء) للتاريخ الطبيعى ، وخمس محافظ ضخمة للوحات التى خطت الآثار القديمة ، واثنتين للدولة الحديثة ، واثنتين (من ثلاثة أجزاء) للتاريخ الطبيعى . ولما كان العصر الإسلامى قد جاء بعد نهاية العصر القديم ، فقد صنفه أصحاب « وصف مصر » ضمن « الدولة الحديثة » وفى هذه الحالة لم ينته الخلاف حول التفرقة بين القديم والحديث بصورة تامة ، فسوف يقود هذا الخلاف إلى تقسيم التاريخ إلى عصور ثلاثة ، جعلت « التاريخ الوسيط » يحتل موقعًا بين القديم والحديث [٣١]. وقد عمل على هذه اللوحات التى بلغ عددها ٩٧٤ لوحة نحو ٤٠٠ رسامًا . ولم تظهر باكورة « وصف مصر » مطبوعة بالمطبعة الإمبراطورية التى أدارها چان - چوزيف

مارسيل (أحد من خدموا فى صفوف الحملة بمصر) ، لم تظهر إلا عام ١٨١٠ (رغم أن صفحة الغلاف تحمل عام ١٨٠٩) ، وطبع آخرها عام ١٨٢٨ (ولا يعد من بينها الأطلس المستقل الذى طبع عام ١٨٢٩) غير أن پانكوك أصدر طبعة ثانية مختصرة (١٨٢٠ - ١٨٣٠) كعمل تجارى .

وقد انتقد إدوارد سعيد وغيره المقدمة التى كتبها فورييه لتتصدر الكتاب ، ووافق عليها نابليون ، أشاد فورييه بالأهمية الإستراتيچية لموقع مصر عند ملتقى قارات ثلاث وبكونها بيت الفنون حتى قبل حرب طرواده ، وتلقى العلم فيها هوميروس ، وليكورجوس ، وسولون ، وفيثاغورث ، وأفلاطون ، وسعى إليها كل من الإسكندر ، وپومبى ، وقيصر ، ومارك أنطونيوس ، وأغسطس طلبًا للقوة والمجد . وتبع خطاهم نابليون العظيم ، ولكن « هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى العديد من الأمم ، تعيش الآن بين براثن البربرية » [٣٢] . ومن ثم كانت بحاجة ماسة إلى الغزو الفرنسى الذى كان عليه استعادة المنافع الحضارية .

وتناولت صورة الغلاف التى أشرنا إليها من قبل (شكل ١) ما يدعم هذه الرسالة [٣٣] . فهناك خراطيش بها نجمة ونحلة - قيل فى شرحها أنها ترمز إلى الإمبراطور - تحيط بالإطار الذى يعبر عن تتويج نابليون . وحتى نابليون نفسه لم يعترف صراحة أن النجمة والنحلة تعنيان (فى الهيروغليفية) « الملك المقدس » [٣٤] .

وقبل نشر « وصف مصر » بعقد من الزمان ، عندما كان الجيش الفرنسى وعلماوءه لا يزالون رهن الحصار فى مصر ، قام الرسام البريطانى الساخر چيمس جيلراى بالسخرية من العلماء الفرنسيين عندما صورهم فوق عمود پومبى مذعورين منهكين ، وقد أحاط البدو بالعمود من أسفل يحكمون عليهم الحصار (الشكل ١١) وكتب تحت ذلك الرسم أن خطابًا من الچنرال كليبر وقع فى يد الإنجليز ذكر فيه أنه عندما تقدمت قوة عثمانية ، وأجبرت الفرنسيين على التقهقر نحو الإسكندرية ، حوصر مجموعة من العلماء كانوا قد اعتلوا عمود پومبى لأغراض علمية ، حيث أحاط البدو بالعمود وأشعلوا النار فى كم هائل من القش جمعوه تحته ، وتبين للعلماء فى تلك المحنة الفكرة التى كانت وراء تصميم رأس العمود على هذا النحو » .

وسار « وصف مصر » على نهج دائرة المعارف الفرنسية فى تخطيه للتاريخ الفرعونى وإغفاله الإشارة إلى المجتمع الفرعونى وتطوره السياسى والدينى [٣٥] . ويستمد العمل قوته فيما اتصل بالتاريخ القديم من استناده إلى التراث الكلاسيكى (اليونانى - الرومانى) من حيث استخدامه فى محاولة فهم ما شاهده العلماء من آثار . وقد أشار « وصف مصر » إلى مصادر يونانية ولاتينية تم استخدامها وكانت النقوش الهيروغليفية الواردة « بوصف مصر » لا قيمة لها حتى صدور المجلد الأخير عام ١٨٢٨ ، فالعلماء لم يلتزموا الدقة فى تصوير الرموز الهيروغليفية ، كما أن جومار نفسه لم يكن مقتنعًا بعمل شامبليون .

ونحى العلماء التطور التاريخى جانبًا ، وقاموا بترتيب اللوحات الخاصة بالآثار المصرية القديمة على أساس موقعها الجغرافى من جزيرة فيلة إلى الإسكندرية شمالاً . وتعد لوحات الآثار التى اندثرت بعد الحملة الفرنسية بالغة القيمة اليوم ، فالكتابات الإسلامية عن الآثار الفرعونية تفتقر إلى القيمة لأنها لا تتضمن توثيقًا مصورًا لتلك الآثار .

الجبرتى والحملة الفرنسية :

عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٤ - ١٨٢٢) ، عالم أزهرى ، سجلت حولياته التى حملت عنوان « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » - تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى وفاته ، ولكن سرده لأخبار الحملة الفرنسية تخطى الجانب الأثرى من عملها . ومن المحتمل ألا يكون قد رأى « وصف مصر » الذى كانت أجزاءه تصدر تباعًا فى باريس عندما مات الجبرتى . وقد أورد الجبرتى البيانات التى أصدرها بونابرت بالعربية موجهة إلى المصريين ، ولم تأخذه بالفرنسيين الشفقة عندما راح يعدد الأخطاء النحوية الواردة بتلك البيانات ، وينتقد ادعاء بونابرت صداقته للإسلام والسلطان ، وعداءه للبابا ، وإنقاذه المصريين من طغيان المماليك ، وافتتح حولياته عن الحملة الفرنسية بالقول : « وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ،

واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب » (٣٦) .

وذكر الجبرتى أن الفرنسيين بعيدين عن التدين ، ماديين ، يمارسون الخلاعة والمجون مع النساء الأوربيات والمصريات ، وأنهم دنسوا الأزهر الشريف . غير أن الجبرتى قدر للفرنسيين علمهم أعظم تقدير ، وعبر عن إعجابه « بالعلماء » الفرنسيين ، وقد زار مكتبة المجمع العلمى ومعمله ، ووصفه قائلاً :

« أفردوا للمدبرين ، والفلكيين ، وأهل المعرفة ، والعلوم الرياضية كالهندسة ، والنقوشات ، والرسومات ، والمصورين ، والكتبة ، والحُسّاب ، والمنشئين ، حارة الناصرية حيث الدرب الجديد . . . وفيه جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون ، يحفظونها ويحضرونها للطلبة ، ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة . فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها ، فيحضرها له الخازن . فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر إليهم بعض المسلمون ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، وإظهار السرور بمجيئه إليهم ، وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها التصاوير . . . .

ولقد ذهبت إليهم مراراً ، وأطلعونى على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . . . وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . . . ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات ، وتصاريفها واشتقاقاتها . . . وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة . . . كذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق . . . وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان ، واستخراج الأملاح . . . » (٣٧) .

ولم يذكر الجبرتى شيئًا عن مجموعة الآثار التى جمعها علماء المجمع العلمى ولكنه رأى كتبًا تحتوى على « صور البلدان والسواحل والبحار والأهرام ، وبرابى الصعيد ، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها . . . » وهكذا نقل إلينا عالم أزهرى مصرى صورة إيجابية لمكتبة غربية ، ومعامل البحث ، ومعرفة الفرنسيين للإسلام والعربية ، ومشاهدته للصور التى رسموها للمعابد والنقوش الهيروغليفية .

القناصل جامعى الآثار (سولت ودروفتى) والصراع الأنجلو - فرنسى :

يحدد الاستيلاء البريطانى على حجر رشيد بداية ما يزيد على القرن من الصراع الإنجليزى الفرنسى فى ميدان المصريات . وعندما جاء وليم هاملتون - سكرتير اللورد إيلجن السفير البريطانى فى إستانبول - إلى مصر عام ١٨٠١ ليساعد فى إجلاء الحملة عن مصر ، أحبط محاولة فرنسية لتهريب حجر رشيد من مصر ، واضطر لإقامة نقطة مراقبة على النيل هناك لهذا الغرض . وأورد هاملتون فى كتابه عن مصر (١٨٠٩) ترجمة للنص اليونانى على حجر رشيد . وفيما بعد ، ساعد هاملتون اللورد إيلجن فى الحيلولة دون حصول الفرنسيين على التمثال الرخامى لپارثينون ، واضطر اللورد إيلجن أن يبيعه للمتحف البريطانى خاسرًا بذلك سمعته وماله [٣٨] .

وتابع القنصل البريطانى العام سولت وخصمه الفرنسى برناردينو دورفتى التسابق فى اقتناء الآثار المصرية وخاصة ما ندر منها ، وعظمت قيمته . جاء سولت إلى مصر عام ١٨١٥ ، ومات بعد اثنى عشر عامًا ، وقد رحب باقتراح السير جوزيف بانكس - عالم النبات وأمين المتحف البريطانى ورئيس الجمعية الملكية أن يتولى جمع الآثار لحساب المتحف البريطانى . ولم يكن المرتب السنوى الذى يحصل عليه سولت (١٥٠٠ جنيهًا استرلينيًا) يكفى لتغطية نفقات القنصلية وتعلقت آماله بما يمكن أن يكسبه من تجارة الآثار ، ولكن الضجة التى آثارها شراء المتحف البريطانى للتماثيل الرخامية لوثت الأجواء . فقام سولت أولاً بإهداء المتحف البريطانى تمثالاً لرأس رمسيس الثانى ثم عرض على إدارة المتحف شراء المجموعة التى كانت عنده كلها ،

ولكن السير بانكس خذله ، ويعقب صديقه وصاحب ترجمته على ذلك بقوله : « اتهم سولت المسكين بأنه مجرد تاجر ويهودى ، ونسخة أخرى من اللورد إيلجن » [٣٩] .

وكان من بين رجال سولت العاملين فى حقل الآثار چيوڤانىٍّ كاڤجليا ، وهو قبطان بحرى من مالطا ، أجرى حفائر بالجيزة ، وچيوڤانىٍّ بلزونى ، وهو لاعب سيرك سابق ، والشخصية التى كتبت عنها ست تراجم . وقد أحضر بلزونى رأس رمسيس الثانى على مركب نيلى إلى سولت بالقاهرة ، وفتح معبد أبو سمبل ، ومقبرة سيتى الأول ، وهرم الجيزة . وعندما قطع علاقته مع سولت قام بتنظيم معرض فى الصالة المصرية ببيكاديللى (لندن) فى ١٨٢١ ، ونشر كتابًا بديعًا عن نشاطه [٤٠] .

أما دروڤتى فكان توسكانيًا ، خدم فى الجيش الفرنسى فى إيطاليا وجاء إلى مصر كنائب قنصل عام ١٨٠٢ ، ثم ترقى إلى منصب القنصل العام . وعند عودة الملكية فقد وظيفته عام ١٨١٤ ، ولكنه استمر مقيمًا بمصر ، يجمع الآثار على أمل بيعها فيما بعد إلى متحف اللوڤر . ولم يدَّع دروڤتى العلم كما فعل غريمه سولت . وقد استعاد منصبه القنصلى عام ١٨٢١ ، واستمر فى جمع الآثار . ووصل الأمر برجاله ورجال سولت إلى العراك داخل الكرنك ، مما دفع القنصلين إلى التوصل إلى اتفاق بتقسيم مناطق مصر الأثرية بينهما ، فما يقع غرب النيل من نصيب سولت ، وما يقع شرقه من نصيب دروڤتى . وقام چان چاك ريفر - أحد العاملين لحساب دروڤتى - بإجراء حفائر فى الكرنك فيما بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٣ [٤١] .

وتابع خلفاء سولت ودروڤتى الصراع القنصلى الأنجلو - فرنسى لجمع الآثار المصرية . ففى الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، تولى ذلك الأمر چون بيكر ، وپاتريك كامبل ، وتشارلز موراى على الجانب البريطانى ، وتولاه على الجانب الفرنسى كل من چان فرانسوا ميمو وريموند ساباتييه ، أما أدريا لوى كوشيليه الذى تولى القنصلية الفرنسية بمصر فيما بين ميمو وساباتييه فلم يكن له اهتمام بجمع الآثار [٤٢] .

وكان من بين قناصل الدول الأخرى من اهتم أيضًا بجمع الآثار المصرية مثل : چيسپ دى نيزولى القنصل النمساوى فى العشرينات من القرن التاسع عشر ،

وچيوڤانى أنستاسى الذى كان ابنًا لأحد الأمريكيين ممن كانوا يمدون الحملة الفرنسية فى مصر بالمؤن ، وقد وقع نشاطه فى حقل جمع الآثار بين فترة دروڤتى - سولت وفترة باربيت ، وتولى جمع الآثار أثناء عمله قنصلاً للسويد والنرويج بالقاهرة فيما بين ١٨٢٨ - ١٨٥٧ . وعن طريق عملائه فى سقارة والأقصر ، استطاع أنستاسى أن يكّوِن مجموعة ضخمة من الآثار المصرية انتهى بها المطاف إلى متاحف هولندا ولندن وباريس . كما قام ستيفان زيزينيا - اليونانى المولود بجزيرة خيوس والفرنسى الجنسية - قنصل بليچيكا بالقاهرة ، بجمع الآثار المصرية (٤٣) .

وحال التمزق السياسى لإيطاليا من انتفاعها بجهد الإيطاليين فى تجميع الآثار المصرية ، وقد مارس الإيطاليون عملهم فى هذا المجال تحت أعلام دول أخرى (على طريقة كولومبس وڤيسبوتشى) ، فقد عمل كل من بلزونى وكاڤجليا وألكسندرو ريتشى لحساب الإنجليز ، وأصبح دروڤتى البيدمونتى المولد فرنسى الجنسية . بل إن « الكورسيكى العظيم » - وهى الصفة التى خلعها أحد مؤرخى النشاط الإيطالى بمصر على بونابرت (٤٤) - بدأ حياته إيطاليًا أكثر من كونه فرنسيًا . وفى العشرينات من القرن التاسع عشر ، اشترت بروسيا مجموعات الآثار المصرية التى جمعها كل من هنريش ڤون مونيتولى وچيسپ پاسالاكا ، لتودع فى متحف برلين . وكان مونيتولى ضابطًا بروسيا إيطالى المولد برتبة چنرال ، أما پاسالاكا فكان إيطاليًا من تريسته ، وقد تبع مجموعته إلى برلين وأصبح أمين المتحف المصرى هناك . ومن بين مواطنى الدول الصغرى الذين عملوا لحساب دول أخرى چيوڤانى أثاناسى الذى قام بحفائر لحساب سولت فى وقت كانت فيه بلاده - اليونان - تابعة للإمبراطورية العثمانية . والمستكشف السويسرى يوهان لودڤيج بوركهارت (واسمه الإنجليزى چون لويس ، وعرف بين المصريين باسم إبراهيم المهدى) وكان يقوم باستخراج الآثار لحساب الإنجليز (٤٥) .

ولعل الأبعاد القومية بين المتصارعين الأوربيين فى حقل الآثار المصرية كانت مثار حرج أرستقراطية القرن الثامن عشر التى كانت ترسم الحدود بين البلاد بطريقة أيسر من رسم الحدود بين الطبقات ، ولكن عقدين من الحروب الثورية فعلت فعلها في إضفاء الصفة العالمية على العلم والثقافة ؛ فقد أخذت فرنسا بالنظام المترى للقياس فى عام

١٧٩٣ ، وأرجأت بريطانيا عقد معاهدة دولية لجعل هذا النظام عاماً فى مجال العلوم حتى عام ١٨٧٥ [٤٦] .

هذا المزج بين الوطنية ، والمنفعة ، والحماس للتنقيب عن الآثار الذى تفاوت من جامع للآثار لآخر ، والمتاحف التى انتشرت فى المدن الأوربية ، مالبثت أن أنهت دور الجامعين الوطنيين . فقد رفض اللوفر عرض دروفتى بيع مجموعته للمتحف ، وانتهى بها المطاف فى بلده الأصلى بيدمونت بدلاً من فرنسا التى حمل جنسيتها . ودفع المتحف البريطانى ألفى جنيهاً إسترلينياً لأول دفعة من مجموعة سولت ، ولكن اللوفر حصل على بقية مجموعته بضعف الثمن ، وإنتهى الأمر بلوحة الملوك التى جلبها ميمو من أبيدوس إلى المتحف البريطانى .

الجبرتى والآثاريون الفرنجة :

ولم يكن نشاط القناصل جامعى الآثار خافياً على العلماء المصريين ، ففى عام ١٨١٧ سجل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى نشاط الأوربيين فى مجال الآثار كما يلى :

« إن طائفة من الإفرنج الإنكليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة الكائنة ببر الجيزة غربى الفسطاط ، لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات ، والفحص عن الجزئيات ، وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان ، والتصاوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى بالناحية القبلية وغيرها ، ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض ، ويصرفون لذلك جملاً من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤجراتهم ، حتى أنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد ، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا ... وأحضروا أيضاً رأس صنم كبير ، دفعوا فى أجرة السفينة التى أحضروه فيها ستة عشر كيساً ، منها ثلثمائة وعشرون ألف نصف فضة ، وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها ، وذلك عندهم من جملة المتاجر فى الأشياء الغريبة .

ولما سمعت بالصور المذكورة ، فذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير المعروف بالساعاتي ، وسيدى إبراهيم المهدى الإنكليزى (وهو الاسم الذى عرف به يوهان لودفيج بوركهارت فى مصر) إلى بيت قنصل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية (وهو بيت سولت) . وشاهدت ذلك كما ذكرته ، وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم ، وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب . وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة (محمد على باشا) ، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة ، وأحضروا الفعلة والمساحين والغلقان وعبروا إلى داخلها ، وأخرجوا منها أتربة كثيرة من ذيل الوطواط وغيره ، ونزلوا إلى الزلاقة ، ونقلوا منها ترابًا كثيرًا وزبلاً، فانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك ، هذا ما بلغنا عنهم . وحفروا حول الرأس العظيمة بالقرب من الأهرام التى تسميها الناس رأس أبى الهول ، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهى التى يراها الناس ، وباقى جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال ، وساعداه من مرفقيه ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه نقوش شبه قلم الطير ، فى داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه فى مقدار الكلب ، رفعوه أيضًا إلى بيت القنصل ، ورأيته يوم ذاك . وقيس المرتفع من جسم أبى الهول من عند صدره إلى أعلى رأسه فكان اثنين وثلاثين ذراعًا ، وهى الربع من باقى جسمه . وأقاموا فى هذا العمل نحوًا من أربعة أشهر » [٤٧] .

وهكذا عبر الجبرتى عن إعجابه بدقة ما صنعه الفراعنة ولاحظ إقبال الأوربيين على العمل فى استخراج الآثار ، مستغربًا ذلك دون أن يستهجنه ، ولعل هذه الفقرة المدفونه فى حوليات الجبرتى مرت أمام أعين قراء تاريخه دون أن تلفت نظرهم .

وقد مات الجبرتى عام ١٨٢٢ ، وهو العام الذى شهد الإنجاز الذى حققه شامبليون فى حل رموز الهيروغليفية . وسوف تمضى اثنتا عشرة سنة قبل أن يتمكن أزهرى آخر هو رفاعه الطهطاوى من نقل ثمار عمل شامبليون إلى المصريين .

التسابق الأنجلو - فرنسى لحل الهيروغليفية (يانج وشمبليون) :

تطور علم المصريات ودراسة آثار الشرق الأدنى من خلال الاستعانة بالنصوص فى فهم الآثار ، مع وجود كتابات مسجلة تلعب دوراً حاسماً فى تفسير الآثار المادية ، وهو هنا على نقيض علم الآثار ما قبل التاريخ فى الأمريكتين وأوروبا وأفريقيا ما وراء الصحراء . ولذلك كان من أولويات علم الآثار فى الشرق الأوسط حل رموز الكتابات الهيروغليفية المصرية ، والأكادية ، والسومرية ، والفارسية القديمة ، والحيثية . لأن كل واحدة من تلك الكتابات كانت مفتاحاً لفهم النصوص التى تعد هدفا أولياً للمنقبين عن الآثار . ورغم أن اليونانية واللاتينية لم تكونا فى حاجة إلى مفتاح لقراءتها ، فقد تطور علم المصريات على نفس الخطوط التى سارت عليها دراسة الآثار اليونانية - الرومانية . أما دراسة علم الأشوريات (تاريخ العراق القديم) والآثار الإنجيلية فقد صاحب تطور علم المصريات أو تأخر عنه قليلاً [٤٨] .

وتعلقت آمال الإنجليز على توماس يانج (١٧٧٣ - ١٨٢٩) لحل رموز الهيروغليفية ، وكان يانج طبيباً ولغوياً ، له مساهمات فى المصريات . وقد أدرك يانج أن القبطية لغة مصر القديمة ، واستطاع أن يستنتج بعض الرموز الديموطيقية المأخوذة عن الهيروغليفية ، وأن الهيروغليفية مزيج من الرموز الأبجدية وغير الأبجدية . وتمكن من حل خرطوش بطلميوس والملكة برنكى ووضع قائمة صحيحة جزئياً للعلامات الأبجدية ولكنه ظل عاجزاً عن تحقيق تقدم فى فك طلاسم الهيروغليفية [٤٩] .

وقبل چان فرانسوا شامليون التحدى ممثلاً لفرنسا . وكان أخاه الأكبر چاك جوزيف يتمنى الذهاب إلى مصر مع حملة بونابرت ووجه حماس أخيه الصغير نحو علم المصريات . وفى سن السادسة عشر ، قدم شامبليون الصغير بحثاً لأكاديمية جرينوبل أكد فيه أن القبطية هى لغة مصر القديمة . وتلقى العلم فى باريس على يدى سلفستردى ساسى ولوى لانجليه فى كلية فرنسا والمدرسة الخاصة باللغات الشرقية . وفى عام ١٨٢٢ ، أعلن توصله إلى حل لرموز الكتابة الهيروغليفية فى خطاب وجهه للأكاديمية الفرنسية بعنوان : « خطاب للمسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية » [٥٠] .

لقد استولى الإنجليز على حجر رشيد ، ولكن قراءة النص المنقوش عليه احتاجت إلى جهد رجل فرنسي ! وتكشف عناوين الكتابات الإنجليزية التى تصدت لدعم المزاعم الإنجليزية عن ذلك السباق بين البلدين فى هذا المجال ، مثل ما كتبه يانج بعنوان « تقرير عن بعض الكشوف الحديثة فى الأدب الهيروغليفى والآثار المصرية بما فى ذلك الأبجدية التى وضعها المؤلف التى عرضها المسيو شامبليون » (نشر عام ١٨٢٣) ، وكذلك كتاب سولت « مقال حول التكوين الصوتى للهيروغليفية عند الدكتور يانج ومسيو شامبليون » (نشر عام ١٨٢٥) ، ولا زال رفض شامبليون الاعتراف بأى فضل ليانج مسجلاً على اللوحة الموضوعة عند حجر رشيد بالمتحف البريطانى .

وتجاوز الجدل حول أبجدية شامبليون حدود الدول . ففى ألمانيا اعتبر شامبليون بطلاً فى نظر عالم التاريخ الطبيعى ألكسندرفون هامبولد وشقيقه اللغوى ڤلهلم ، بينما رفضه كل من هنريش كالپروت وجستاڤوس سايفارت . ولم يتأكد أن ما توصل إليه شامبليون بعيد تماماً عن الشك إلا عندما أقر ذلك ليپسيوس عام ١٨٣٧ ، وعندما نشرت أعمال شامبليون بعد وفاة صاحبها : كتاب : « النحو » (١٨٣٦ – ١٨٤١) ، و« القاموس » (١٨٤١ – ١٨٤٤) [٥١] .

وكذلك اختلف العلماء الفرنسيون فى الرأى حول إنجاز شامبليون فعلى حين أيده تماماً سيلڤستر دى ساسى ، أدت معارضة إدمى فرانسوا چومار إلى عدم انضمام شامبليون إلى « أكاديمية النقوش » حتى العام ١٨٣٠ . وكانت رعاية دوف بلاكا – الملكى والمهاجر السابق – لشامبليون حاسمة فى تمكينه من تجاوز انتماء عائلته للبعاقبة ، وأن ينتصر على چومار ويحصل على أمانة القسم المصرى باللوڤر عام ١٨٢٦ ، وصرف چومار جهده إلى الوقوف على إخراج المجلدات الأخيرة من « وصف مصر » ، والمساعدة فى إدارة أمور « الجمعية الجغرافية » والإشراف على البعثة العلمية التى أرسلها محمد على باشا إلى باريس ، وتولى أمانة قسم الخرائط بالمكتبة الوطنية بباريس . ولكن من المؤسف أن رفضه لشامبليون جعله يحرم نفسه من الدخول فى زمرة علماء المصريات ، فقد صنفته موسوعة من هو عالم الآثار على أنه « مهندس ، وجغرافى ، ومنقب عن الآثار – ولكنه ليس من علماء المصريات » [٥٢] .

رسامو الآثار البريطانيين والفرنسيين :

انضم – فى العشرينات من القرن التاسع عشر – بعض الرسامين الشباب إلى الميدان إلى جانب القناصل جامعى الآثار . وكان البريطانيون فى المقدمة دون أن يتلقوا رعاية مادية خاصة أو حكومية . فقام السويسرى يوهان بوركهارت باستكشاف بلاد النوبة والشام ومكة لحساب الجمعية الأفريقية بلندن ، واعتزم البريطانيون الذين تبعوه فى مصر – فى العشرينات – رصد الآثار ، والمناظر الطبيعية ، والمجتمع المصرى الحديث بالفرشاة والقلم .

وقد أصبح جاردنر ويلكنسون (١٧٩٧ – ١٨٧٥) بارزاً فى ميدان المصريات كما أصبح إدوارد وليم لين (١٨٠١ – ١٨٧٦) رائد الاستشراق البريطانى فى جيله . وكانت الثروة التى ورثها الرسام روبرت هاى (١٧٩٩ – ١٨٦٣) كافية لإعالة فريق كامل من الرسامين ، ولكن الدراسات التى أجراها فريق هاى على العمارة المصرية لم تعرف طريقها إلى النشر . وقد قام كل من ويلكنسون وهاى ولين بإهداء بعض الآثار المصرية إلى المتحف البريطانى ، ولكن تسجيل الآثار بالرسم كان شغلهم الشاغل (٥٣) .

وقضى ويلكنسون معظم الفترة التى عاشها فى مصر (١٨٢١ – ١٨٣٣) فى قرية القرنة التى تقع فى مواجهة الأقصر على الضفة الغربية للنيل . وهناك شغل برسم مناظر القبور الفرعونية التى نشرها فى كتابه « عادات وتقاليد المصريين القدماء » . ومن الغريب بمعايير اليوم أن نعرف أن ويلكنسون عاش فى مقبرة تكسوها النقوش ، وكان يتخذ من أخشاب توابيت المومياوات وقوداً . ولما كانت قراءة الهيروغليفية – عندئذ – لازالت من الصعوبة بمكان ، فقد كان جل اعتماد ويلكنسون على الإنجيل ، والدراسات الكلاسيكية (اليونانية – الرومانية) ، والمناظر المنقولة من نقوش القبور ، وكان ويلكنسون يخشى أن يسرق الألمان أو الفرنسيون فضل المبادرة إذا تقاعس هاى عن نشر نتائج العمل الميدانى المكثف الذى قام به البريطانيون فى العشرينات والثلاثينات (٥٤) .

لقد تعلم لين الرسم ، وجاء إلى مصر عام ١٨٢٥ ، وأعدَّ كتابه الذى لم تتح له فرصة النشر إلا بعد ما يزيد على القرن ، والذى حمل عنوان « وصف مصر » مقابلاً جزئيًا للعمل الفرنسى العظيم . وقد عكس كتابه الشهير « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » جانبًا من عمله عن « وصف مصر » الذى يعكس معرفته بالمصريات ، ولكنه تخصص بعد ذلك بالاستشراق ، فترجم « ألف ليلة وليلة » ، ووضع قاموسه العربى برعاية بعض الأرستقراط . ولم تكن الجامعات - عندئذ - قد احتلت مركز العلم البريطانى الحديث ، ولذلك اعتمد ويلكنسون ولين ومعاصريهما تشارلز لايل وتشارلز دارون على رعاية بعض الأثرياء أو على ثرواتهم الخاصة .

وقد نشر البريطانيون ١١٤ رحلة عن مصر (على الأقل) فيما بين ١٧٩٨ - ١٨٥٠ بينما لم يزد ما نشره الفرنسيون عن ٥٤ رحلة (ومنذ عشرينات القرن التاسع عشر احتل الأمريكيون المركز الثالث بعد ما أزاحوا عنه الألمان) (٥٥) . وأدت التقارير الواردة إلى أوروبا عن النشاط البريطانى فى التنقيب عن الآثار المصرية إلى حفز شامبليون على إعداد بعثته الأثرية ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ، وساعده فى قيادتها تلميذه التوسكانى إيوليتو روسيلليني .

ولما كان العلماء يتحرقون شوقًا للنصوص ، فقد انكبوا على نسخها ، ولكن كان من بين أهداف بعثتهم جمع الآثار المصرية لحساب متحف اللوفر . وعندما سمع چوزيف بونومى - ناسخ النقوش الذى كان يعمل مع هاى - أن شامبليون ينوى قطع بعض النقوش من مقبرة سيتى الأول كتب له ما يلى :

« سيدى - علمت أن أناسًا وصلوا إلى القرنة بأمر منك لقطع رسوم معينة من مقبرة وادى الملوك التى فتحها بيلزونى بتمويل من المرحوم سولت القنصل البريطانى ، فإذا صح عزمك على ذلك ، أرى من واجبى كإنجليزى محب للآثار أن أستخدم كل الحجج الممكنة لحثك على عدم ارتكاب مثل هذا العمل القوطى » . فرد عليه شامبليون قائلاً :

« فلتهدأ بالاً - سيدى - لأنك تستطيع يومًا ما أن ترى النقوش الجميلة من مقبرة أوزيرى (سيتى الأول) فى المتحف الفرنسى . فقد تكون هذه الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها

من الدمار الواضح ، وعندما أقوم بهذا العمل سوف أتصرف بمنطق المحب للآثار ، طالما كنت سآخذها للمحافظة عليها ، وليس لبيعها » [٥٦] .

ونتج عن عمل البعثة الفرنسية - التوسكانية مجموعتان من اللوحات العظيمة ، مجموعة شامبليون التى نشرت بعد وفاته بعنوان « آثار مصر والنوبة » وتقع فى أربعة مجلدات (١٨٣٥ - ١٨٤٧) ، ومجموعة روسيللينى ونشرت بعنوان « آثار مصر والنوبة » وتقع فى تسعة مجلدات بالإضافة إلى ثلاثة مجلدات للأطالس (١٨٣٢ - ١٨٤٤)[٥٧] .

وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، انتقل مركز الصراع الأنجلو - فرنسى فى مجال الآثار - القديمة من النيل إلى دجلة ، فقد أرست الإنجازات - التى تمت فى مجال نسخ النقوش وجمع الآثار وحل رموز الكتابة - أرست قواعد علم « الأشوريات » القديمة . وكان كلوديوس ريس - وكيل شركة الهند الشرقية ببغداد وجامع الآثار مثل سولت - قد اكتشف بابل فى أوائل العقد الثانى من القرن ، وجمع بعض الألواح المسمارية التى انتهى بها المطاف إلى المتحف البريطانى . وفى الأربعينات ، أدهش پول إميل بوتًا - نائب القنصل الفرنسى بالموصل ، الإيطالى المولد مثل دروفتى ، الفرنسى الجنسية - أدهش العالم بالكشف عن تماثيل لثيران مجنحة ذات رأس بشرى وبعض التماثيل الآشورية الأخرى التى عثر عليها فى خور سباد ، وقام بشحنها إلى اللوفر . وقام أوستن هنرى لايارد - خصم بوتًا وصديقه الذى أصبح سفيرًا لبريطانيا فى إستانبول فيما بعد - قام باكتشاف تماثيل ونقوش مماثلة فى نمرود وكيونچك وشحنها بدوره إلى المتحف البريطانى . وأدى اندلاع حرب القرم إلى وضع نهاية لمرحلة الإقبال على اكتشاف آثار الرافدين عام ١٨٥٥ [٥٨] .

غير أن ما تحقق من نجاح فى حل رموز الكتابة المسمارية قرب الفجوة بين تفوق علم المصريات ، وعلم الآشوريات الوليد . ففى ١٨٠٢ اكتشف مدرس ألمانى يدعى چورچ جروتفند دلالة اثنى عشر رمزًا فى الفارسية القديمة عن طريق مقارنة اسم دارا باسم كسرى ، ولكنه عجز عن التوصل إلى حل سليم لرموز الكتابة ، تمامًا كما فعل يانج فى سعيه لحل رموز الهيروغليفية . وفى العام ١٨٤٦ - ١٨٤٧ ، نشر هنرى

رولنسون نص وترجمة نقش دارا الأول ، وهو نص فارسى قديم كتب بثلاث لغات بالخط المسمارى ، عثر عليه فى بيهستن بفارس ، وبعد ذلك التاريخ بنحو عقد من الزمان نجح رولنسون واثنين آخرين من العلماء فى التوصل إلى حل الرموز الأكادية - لغة بابل وآشور القديمة عندما استطاع كل منهم - على حدة - أن يترجم النص المسمارى .

الظهور الأول للألمان ، بعثة ليبسيوس :

بينما كان الانتباه الفرنسى والبريطانى موجهًا نحو دجلة ، نجحت بعثة ريتشارد ليبسيوس البروسية فى الفترة ١٨٤٢ - ١٨٤٥ فى حفائرها بمصر وبلاد النوبة ، وفاقت إمكانات البعثة تلك التى كانت للبعثة الفرنسية - التوسكانية التى قادها شمبليون . فقد أنفقت الحكومة البروسية بسخاء على هذه البعثة للقيام بحملة واسعة من نسخ النقوش والتنقيب عن الآثار ، وجمعها . وكانت جامعة برلين وغيرها من الجامعات الألمانية قد برزت فى الثلاثينيات كمراكز للبحث العلمى ، عندما كان ليبسيوس يدرس فقه اللغة بجامعات ليبزج وجوتنجن وبرلين . وانتقل ليبسوس إلى باريس بعد عام واحد من وفاة شمبليون لمتابعة الدراسة ، فأعد نفسه منهجيًا بدراسة العلوم المساعدة قبل أن ينخرط فى دراسة فقه اللغة المصرية القديمة التى كان بروزها حاسمًا عام ١٨٣٧ . ففى كتابه « خطاب إلى السيد الأستاذ روسيللينى بخصوص الأبجدية الهيروغليفية » هبط ليبسيوس بما فعله شامبليون إلى مستوى الهراء .

وعندما اعتلى فردريش ڤيلهلم الرابع (١٨٤٠ - ١٨٦١) العرش البروسى ، نصحه كل من ألكسندر همبولد ، وكرستيان كارل بونسن (الدبلوماسى العالم) بأن يرسل ليبسيوس على الفور إلى مصر على رأس بعثة أثرية . وكان والده الملك فردريش ڤيلهلم الثالث (١٧٩٧ - ١٨٤٠) قد تولى رعاية البعثة المتواضعة التى قادها هنريش ڤون مينوتولى عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ للتنقيب عن الآثار فى مصر ، وقد زارت تلك البعثة الصعيد وواحة سيوة [٥٩] . وقد نجح مينوتولى فى جذب الأمير البروسى (ولى العهد) إلى الاهتمام بالمصريات ، ولعب الأمير الدور الأساسى فى تدبير شراء مجموعة الآثار المصرية الخاصة بباسالاكا ، وعينه أمينًا لمتحف برلين . وكانت بعثة ليبسيوس

على درجة عالية من التنظيم حتى أنها أخذت معها قسًا لوثريا لتوفير الخدمة الدينية للفريق . وقد احتفلت البعثة بعيد ميلاد ملك بروسيا على قمة الهرم الأكبر برفع علم بروسيا وإضرام شعلة (انظر الشكل ١٢) .

ورحب محمد على باشا بالبروسيين ، وقدم لهم عونا تمثل فى توفير وسيلة نقل نيلية مجانية لهم ، وتقديم ما يلزمهم من العمال المسخرين ، وعلى مر الطريق إلى الجنوب ، جمع ليبسيوس وسجل بالرسم كل ما قابله من آثار ، وعاد إلى بلاده حاملاً معه خمسة عشر ألفًا من القطع الأثرية والأقنعة المصبوبة . واحتل مقعد أستاذية المصريات الذى نشئ خصيصًا من أجله بجامعة برلين ، وبأسلوب منهجى رصين نشر كتابه « آثار مصر وأثيوبيا » الذى ضم ١٢ مجلدًا (١٨٤٩ - ١٨٥٩) .

وقد كان ليبسيوس القوة المحركة وراء إدارة وتوسيع متحف برلين ، رغم أن باسالاكا كان الأمين الاسمى للمتحف حتى وفاته عام ١٨٦٥ . وخسر ليبسيوس معركة مع المغامر الفرنسى بريس دافين (١٨٠٧ - ١٨٧٩) الذى ما كاد يسمع أن ليبسيوس ينوى نقل لوحة الملوك بالكرنك إلى برلين حتى هرع إلى هناك وعمل طوال الليل على اقتلاع اللوحة من موضعها ، وحملها فى مركب على النيل ، وعندما مر بجوار مركب ليبسيوس المتجه جنوبيًا ، دعاه إلى مركبه واستضافه دون أن يدرى أنه كان يجلس فوق صندوق يحتوى على الكنز الثمين الذى كان يسعى للحصول عليه ! وكان بريس رسامًا يشتغل بنسخ النقوش ، كما كان معنيًا بجمع الاثار وقد نشر لوحات عن الفن الفرعونى والفن العربى بالقاهرة [٦٠] .

سباق المؤسسات ، المتاحف والجمعيات العلمية الأوربية :

قامت المتاحف والجمعيات العلمية برعاية أعمال التنقيب الأثرية فى حقل المصريات - حتى أواخر القرن التاسع عشر - أكثر مما كانت تفعله الجامعات ، فقد أعلن شامبليون توصله إلى حل رموز الهيروغليفية إلى « أكاديمية الفنون الجميلة والنقوش » وعمل أمينًا باللوفر ، وحصل على كرسى الأستاذية « فى كلية فرنسا » قبل عامين من

وفاته . وكان الإنجليزى صامويل بيرش من رجال المتاحف ، وليس أستاذًا بالجامعة ، وكان كونرا دوس ليمانز (١٨٠٩ - ١٨٩٣) رائد المصريات فى هولندا مديرًا لمتحف ليدن [٦١] .

وأدى استيلاء بريطانيا على القطع الأثرية التى جمعتها الحملة الفرنسية (بما فيها حجر رشيد) إلى تأخر البدء فى تكوين مجموعة الآثار المصرية باللوفر . وعندما أصبح دينون مديرًا للمتحف المركزى للفنون بعد عشر سنوات من الثورة الفرنسية ، جعل مجموعة المقتنيات الفنية الملكية متاحة للجمهور ، ثم مالبث أن ترقى إلى منصب مدير عام المتاحف الوطنية . وقام بجمع ما صادره نابليون من تحف أعدائه الأوربيين وفقد دينون منصبه فى ١٨١٥ عندما تخلص البوربون من موظفى نابليون ، وكان يجب استعادة ما تم نهبه عقب هزيمة ووترلو . ورغم ذلك بدا اللوفر نموذجًا للمتاحف الوطنية يحتذى به فى أوروبا كلها ، وفى بلاد بعيدة كالولايات المتحدة ، والمكسيك ، ومصر ، وإستانبول (انظر الشكل ١٣) .

وأضاع اللوفر فرصة ذهبية عام ١٨٢٤ ، عندما حرضه چومار على رفض شراء مجموعة الآثار المصرية الأولى التى عرضها دروڤتى ، فقد اشترتها بيدمونت (البلد الأصلى لدروڤتى) ، وكان على شامبليون أن يتبع المجموعة حتى تورين بحثًا عن النصوص اللازمة لبحثه اللغوى . وهناك اقترح إقامة أول متحف للآثار المصرية فى العالم [٦٢] . ومالبث اللوفر أن عوض ما فاته من وقت لاقتناء الآثار المصرية ، فحصل على مجموعة سولت ، ومجموعة دروفتى الثانية ، وعين شامبليون أمينًا للجناح المصرى الجديد عام ١٨٢٦ . وفى العالم التالى - بعد أقل من ثلاثة عقود على الحملة الفرنسية - فتح شامبليون الجناح المصرى للوفر الذى كان يسمى رسميًا « متحف شارل العاشر » . وتغاضى شامبليون عن العادة الشائعة لترتيب المعروضات وفق المعايير الجمالية ، فقام بعرض المقتنيات على أساس زمنى وحسب الغرض الذى صنفت من أجله : دينى ، أو زمنى ، أو جنائزى . وساعدت ثمار بعثته إلى مصر على سد بعض الثغرات فى المجموعة .

ولم يبدأ المتحف البريطانى بمجموعة ملكية ، ولكنه بدأ بمجموعة خاصة ، أوصى بها عام ١٧٥٣ الطبيب وعالم التاريخ الطبيعى السير هانز سلون ، فقد نصت وصيته على أن تكون مكتبته وتحفه « للنفع العام » ، وأن يتاح الاطلاع عليها « لكل الطلاب ومحبى الاطلاع » . وقد تم إنشاء أقسام المتحف الخاصة بالآثار القديمة عام ١٨٠٧ ، وبدأت بداية غير ثابتة ، على نحو ما حدث من صعوبات واجهها إيلجن وسولت فى تعاملهما مع المتحف ، وقد بدأ صامويل بيرش - الذى خلدته واجهة المتحف المصرى بالقاهرة إلى جانب شامبليون وليبسيوس وروسيلليني - بدأ رحلة عمله الذى امتد إلى نصف القرن ، بالمتحف البريطانى عام ١٨٣٦ .

وفى برلين ، لم يعد مونبيجو كافيًا لاستيعاب مجموعة الآثار المصرية بعد عودة ليبسيوس من مصر ، وتم افتتاح المتحف الجديد عام ١٨٥٠ بجزيرة المتحف مع استمرار باسالاكا مديراً للجناح المصرى اسمًا بينما كان ليبسيوس صاحب اليد العليا فيه . وصممت صالة العرض على طراز فرعونى جديد مبهر يضفى الكثير على الآثار المعروضة [٦٣] .

أما عن الجمعيات العلمية ، فقد كان السبق لباريس فى إنشاء الجمعية الجغرافية عام ١٨٢١ ، تلتها برلين عام ١٨٢٨ ولندن عام ١٨٣٠ ، ونيويورك فى ١٨٥١ ، وكان الأخوان شمبليون وراء تأسيس الجمعية الجغرافية بباريس ، ولكن چومار جعل منها منتدى له لمدة أربعين عامًا ، وغالبًا ماكان يوجه مجلتها نحو الموضوعات المصرية [٦٤] .

وقد ورثت « الجمعية الجغرافية الملكية « بلندن » ، جمعية النهوض بكشف المناطق الداخلية من أفريقيا » (تأسست ١٧٨٨) ، وجمعية فلسطين (تأسست ١٨٠٤) ، و « نادى الرالى للرحالة » (تأسس ١٨٢٦) ، وقد وجهت الإمبريالية غير الرسمية مسار « الجمعية الجغرافية الملكية » ، ثم لعبت « الإمبريالية الجديدة » نفس الدور ، وقد فاقت الجمعية منافساتها من جمعيات الدول الأخرى فى النهوض بالكشوف الجغرافية والبحث العلمى .

وتأسست « الجمعية الأسيوية » بباريس عام ١٨٢٢ ، وتلتها « الجمعية الملكية الأسيوية لبريطانيا العظمى وأيرلندا » التى أنشئت بلندن عام ١٨٢٣ فى نفس العقد الحرج الذى تأسست فيه الجمعية . وفى التجربة البريطانية ، أثرت المستعمرات فى المركز ولم يحدث العكس ، فقد أنشأ وليم چونز « الجمعية الأسيوية بالبنغال » عام ١٧٨٤ ، وأقيمت نظيرتها فى بومباى عام ١٨٠٤ . ولم تظهر الجمعيات الإستشراقية الألمانية والأمريكية قبل الأربعينات من القرن التاسع عشر . ولذلك كانت الجمعيات الجغرافية والأسيوية التى تأسست فى لندن وباريس ، والمجمع العلمى المصرى الذى ذوى مع الحملة الفرنسية ، « والمجمع العلمى الفرنسى » ، و « الجمعية الملكية البريطانية » هى النماذج التى حذا حذوها الأوربيون الذين أسسوا « الجمعية المصرية » بالقاهرة عام ١٨٣٦ .

استلهام النموذج الأوربى ، الجمعية المصرية بالقاهرة :

كانت حملة نابليون ، والبعثات الأثرية التى قادها شامبليون وليبسيوس ذاتية الدوافع خرجت جميعًا من أوروبا متجهه إلى مصر ، جمعت الآثار من مصر ، وحملتها معها إلى بلادها لدراستها وعرضها ونشر ما استخلصته منها من معلومات .

وظلت ذكريات المجمع العلمى المصرى ماثلة فى أذهان الأوربيين المقيمين بمصر بعد جلاء الفرنسيين عن البلاد ، ففى عام ١٨٢٨ أقيمت جمعية غامضة بالإسكندرية سميت « جمعية القراءة الإنجليزية » ، وأسس الأوربيون بالقاهرة « الجمعية المصرية » عام ١٨٣٦ « كملتقى للرحالة بهدف إيجاد رابطة بين أهل العلم والآداب الذين قد يزورون مصر من وقت لآخر » [٦٥] . وقد سعت الجمعية – التى أطلق عليها أيضًا اسم « الجمعية الشرقية » – إلى تكوين مكتبة للمراجع الخاصة بمصر « لجمع وتسجيل المعلومات » عن مصر وجيرانها ، وباستطاعة أى زائر أو زائرة لمصر استخدام المكتبة ، « وجميع الرجال من مختلف الجنسيات » لهم حق العضوية مقابل جنيه إنجليزى واحد فى السنة [٦٦] ، وكان استثناء النساء من العضوية يتسق مع ما جرى العمل به – عندئذ – فى أوروبا .

وكان أنتونى هاريس (١٧٩٠ - ١٨٦٩) أول رئيس للجمعية ، تاجراً فى الآثار، أثرت مجموعة بردياته المتحف البريطانى . وبلغ عدد أعضاء الجمعية عشرين عضواً عام ١٨٣٩ عندما حصلت مكتبتها على « الأعمال الكبرى لمدرسة الآثار الجديدة ، وجعلتها متاحة للاطلاع فى مصر لأول مرة » (٦٧) . وبعد أربع سنوات ، ارتفع عدد الأعضاء إلى ١١٠ عضواً ، كان الثلثين من البريطانيين ، يليهم الفرنسيون (وكان من بينهم أنطوان كلوت بك ، ولينان دى بلفون وفردنان دى لسيبس) ، وكان هناك مجموعة من البريطانيين والألمان والأمريكيين ، وكان كلوت بك والطبيبان البريطانيان : هنرى أبوت ، وألفرد والن ، مولعين بجمع الآثار تماماً مثل هاريس رئيس الجمعية . ومنحت الجمعية العضوية الشرفية لستين شخصية ، كان من بينهم بيرش ، وڤون بونسن ، وهاملتون ، وچومار ، ولين ، وليبسيوس ، وروسيللينى ، وبلكنسون . وتولى چومار متابعة تلبية طلبات الجمعية من الكتب فى باريس ، وقام لين بنفس المهمة فى لندن (٦٨) ، وعندما ضمت الجمعية أعضاء من المصريين فى عضويتها ، كان الأيسر قبولاً سليمان باشا الفرنساوى الذى تولى قيادة الجيش المصرى ، والأرمينيان حككيان وأنستاسى .

وفى عام ١٨٤٢ دب نزاع بين الأعضاء حول كتاب كلف بإعداده پريس داڤين (٦٩) ، أدى إلى حدوث انشقاق ، وتأسيس جمعية منافسة باسم « الجمعية الأدبية المصرية » ، وكان الانقسام على أساس شخصى وليس على أساس الانتماء الوطنى ، فقد قاد الطبيبان البريطانيان والن وأبوت هذا الانشقاق ، وكانت أغلبية الأعضاء فى الجمعيتين من البريطانيين . وأسهم كل من ويلكنسون وبريس داڤين فى المجلد الوحيد الذى أصدرته « الجمعية الأدبية » قبل أفول نجمها . وفى الدليل الذى نشره ويلكنسون عام ١٨٦٧ ، ذكر مكتبة « الجمعية المصرية » كمكان جدير بزيارة السياح ، ولكن الجمعية لم تكن ذات نشاط ملحوظ عندئذ ، وفى ١٨٧٣ - ١٨٧٤ قام حككيان ولينان دى بلفون بإهداء ما تبقى من مكتبة « الجمعية المصرية » إلى دار الكتب الخديوية التى أنشئت حديثاً (٧٠) .

الطهطاوى يكتشف الفراعنة :

عند صدور طبعة رابعة من موسوعة « من كان هو فى علم المصريات » ، يجب أن يدرج الطهطاوى ضمن الشخصيات التى رصدتها الموسوعة . فرغم أنه لم يقم بالتنقيب عن الآثار ، ولم يقرأ الهيروغليفية ، إلا أنه لعب دوراً مهمًا فى جذب اهتمام مواطنيه المصريين بمصر القديمة على نحو ما فعل الرحالة وجامعو الآثار والمؤلفون الغربيون – الذين ورد ذكرهم فى الطبعات الثلاث من الموسوعة – مع أبناء بلادهم (٧١) . والطهطاوى شيخ أزهرى ، ختم تعليمه فى باريس ، وتولى مناصب رسمية فى ميادين الترجمة ، والتعليم ، والصحافة ، وأصبح أشهر مفكر مصرى فى جيله (انظر الشكل ١٤) .

وقد حرصنا أن نقرن الطهطاوى وشامبليون فى عنوان هذا الفصل لتأكيد الدور الذى لعبه هذان العالمان فى تقديم معلومات جديدة – كل إلى قرائه – مستمدة من النصوص الهيروغليفية ، كما أن الحياة العملية للطهطاوى قريبة الشبه بتلك التى كانت للمستشرق البريطانى إدوارد وليم لين . فقد ولد كل منهما عام ١٨٠١ ، وفى منتصف العشرينات ، اتجه الأول إلى الغرب ، بينما اتجه الآخر إلى الشرق ، عبر البحر المتوسط ، بحثًا عن المعرفة التى غيرت مسار حياة كل منهما . وعاش كل منهما فى العاصمة الكبرى للثقافة التى ينشد دراستها ، وتعلم كل منهم لغة الثقافة التى تعنيه ، وعاد كل منهما إلى بلاده ، لينشر – فى منتصف الثلاثينات – كتابًا رصينًا قدّم فيه لمواطنيه عادات وتقاليد أهل الثقافة الأخرى . (عاش الطهطاوى فى باريس ولم يعش فى لندن بلد لين ، وتعلم الفرنسية وليس الإنجليزية) .

وركز كل من الكتابين على عاصمة واحدة – باريس ، والقاهرة – ويكاد كل منهما يستبعد الأقاليم الأخرى فى البلاد التى كتب عنها . وضم كتاب لين عن « المصريين المحدثين » صوراً رسمت بعناية ، ولكن تعليم الطهطاوى الأزهرى لم يؤهله لتزويد كتابه بالرسوم المصوّرة .

وقد أتبــع كل من الرجلين كتابه الأول بنشر ترجمات لإطلاع قراءه على ثقافة الآخر ، ورغم أن وجودهما بالقاهرة قد تزامن ، وأن لين اشترى نسخة من كتاب الطهطاوى « تخليص الإبريز » عند ظهوره ، إلا أننا لا نجد دليلاً على أنهما قد تقابلا . وكان كل منهما شديد الاهتمام بمصر القديمة والحديثة ، وبعد أن قضيا حياتهما يلعبان دور قناة الاتصال بين الثقافتين ، مات الطهطاوى فى ١٨٧٣ ، ولحق به لين فى ١٨٧٦ .

ولا شك أن الطهطاوى ولين اختلفا من حيث الشخصية ، والأفكار ، والعلاقات على الصعيدين الوطنى والعالمى . فخلال حياتهما تحول ميزان القوى بصورة حاسمة ضد مصر لمصلحة الغرب . لقد أبدى لين أسفه للتغيرات التى شهدتها مصر باستلهام الغرب ، ولعل ذلك يرجع إلى عدم ارتياحه للتغير الاقتصادى والاجتماعى والسياسى السريع الذى كان يجرى فى بريطانيا ، ورغم أنه اعتمد تمامًا على ما يلقاه من رعاية مادية أرستقراطية ، كان لين انطوائيًا ، عزوفًا عن الارتباط بالنظام البريطانى . وكان الطهطاوى نقيضًا له ، يعمل فى خدمة الحكام الذين يتطلعون إلى دعم سلطتهم من خلال اقتباس التكنولوجيا ونظم الإدارة الغربية .

ولد رفاعة الطهطاوى بمدينة طهطا - جنوب أسيوط - فى العام ١٨٠١ ، الذى شهد جلاء الفرنسيين عن مصر ، لأسرة من العلماء ، ولكن إقدام محمد على باشا على إلغاء نظام الالتزام أضر بوالد رفاعة ، وقد تلقى الصبى تعليمه الدينى الأولى ببلده ثم انتقل إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر عام ١٨١٧ . وكان أستاذه - عندئذ - الشيخ حسن العطار عالمًا واسع الأفق ، اتصل بعلماء الحملة الفرنسية ، وقدر له أن يصبح - فيما بعد - شيخًا للأزهر . وقد رشح العطار تلميذه الطهطاوى ليعمل إمامًا للبعثة التى ضمت ٤٤ طالبًا أوفدهم محمد على إلى باريس عام ١٨٢٦ . وكان يقيم بفرنسا - عندئذ - عدد من المصريين الذين تعاونوا مع الحملة الفرنسية ، وفروا من مصر بصحبة الفرنسيين عند جلائهم عن البلاد فى ١٨٠١ . ولكن ظهر الآن نوع آخر من المصريين هم الطلاب الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة ، والعودة إلى مصر لتطبيقها [٧٢] . ويبرر الطهطاوى طلب العلم فى بلاد « الكفار » بالحديث النبوى « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

وفى باريس ، تحول « الإمام » ليصبح أكثر طلاب البعثة نجابة وشغفًا للمعرفة . وقام چومار – باعتباره « ناظر » البعثة المصرية – بتقديم رفاعة الطهطاوى إلى سيلفستر دى ساسى – عميد المستشرقين الفرنسيين(٧٣) ولعدد كبير من علماء فرنسا .

وفى عام ١٨٣٠ ، كان الطهطاوى شاهد عيان لثورة يوليو التى أدت إلى نفى الملك شارل العاشر ، واعتلاء لوى فيليب العرش الفرنسى ، وفى العام نفسه عرض الطهطاوى على دى ساسى مسودة كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » (٧٤) ، الذى وصف فيه رحلته وملاحظاته على الحياة الباريسية ، وفى ١٨٣١ عاد إلى مصر ليتولى وظائف فى مجالات التدريس والترجمة والصحافة ، جعلت منه نجم النهضة العربية فى القرن التاسع عشر .

نشرت المطبعة الأميرية ببولاق كتاب « تخليص الأبريز» عام ١٨٣٤ ليكون الأول من ثلاثة كتب ظهرت خلال ذلك العقد من الزمان الذى أخذت فيه مصر والغرب بمعايير بعضهما البعض . فقد ظهر كتاب لين « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » عام ١٨٣٦ ، ونشر كتاب ويلكنسون « عادات وتقاليد قدماء المصريين » عام ١٨٣٧ . وقد جاء كتابا الطهطاوى ولين متناظرين ، وكان من الممكن أن يحمل كتاب الطهطاوى عنوان « عادات وتقاليد الفرنسيين المحدثين » . وكان من الطبيعى أن يترافق كتابا لين وويلنسكون فى حقيبة كل مسافر غربى إلى مصر ، وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر . وإذا كان كتاب ويلكنسون قد فقد قيمته ، فإن كتاب لين ظل يحمل طابع التراث .

لقد تناولت دراسات أخرى ملاحظات الطهطاوى عن باريس ، وما يعنينا هنا هو اهتمامه الواعى بمصر القديمة ، ورغم أن أهل الصعيد يفترض فيهم الانتماء إلى مصر القديمة ، يصعب إثبات هذا الافتراض ، كما أن الطهطاوى لم ينشأ فى رحاب الكرنك أو إدفو ، وإن كانت بعض الأعمدة المتداعية من معبد قاو الكبير تقع على بعد سبعة أميال إلى الجنوب من بلدته طهطا .

والدليل الأول على اهتمام الطهطاوى بمصر القديمة يعود إلى باريس عام ١٨٢٧ ، عندما نشر ترجمة عربية لعمل جوزيف أجوب « قصيدة ملحمية عن مصر » . وكانت

عائلية أجوب قد ربطت نفسها بالفرنسيين أثناء وجود الحملة بمصر ، وفروا معها عند خروجها من البلاد ، ومعهم جوزيف الذى كان طفلاً فى السادسة من عمره ، وقد ترعرع الطفل فى مارسيليا ثم انتقل إلى باريس ، ودرس اللغات ، وقام بتدريس العربية ، وتردد على الصالونات الأدبية ، وعمل معاونًا لجومار فى إعداد « وصف مصر » ، كما علم الطهطاوى وتلاميذ البعثة المصرية اللغة الفرنسية أثناء وجودهم فى باريس ، وكانت قصيدة أجوب الملحمية تعبيراً عن حنين ولوعة رومانسية على الوطن المفقود « مصر أم الآلهة والأبطال والحكماء » فبين خرائبها « تجتمع أربعون قرنا » [٧٥] .

وقدَّم شمبليون – شخصيًا – تقريراً لمحمد على عام ١٨٢٨ عن دراسة رفاعة الطهطاوى فى باريس [٧٦] ، ولكن ربما لم تتح لشامبليون والشيخ فرصة اللقاء – ورغم علاقة الطهطاوى بجومار ، يخلو « تخليص الإبريز » من أى إشارة إلى « وصف مصر » الذى كان له بالغ الأثر فى الوعى الأوربى ، وإن كان يشير فى « تخليص الإبريز » إلى وجود موقع لحفظ الآثار – لعله اللوفر – يضم العجائب التاريخية للقدماء كالمبانى والمومياوات والملابس ، ومن بينها آثار من مصر مثل دائرة البروج المجلوبة من دندرة ، التى وقف منها علماء فرنسا على معرفة المصريين القدماء بالفلك والنجوم [٧٧] .

ويرد ذكر قدماء المصريين فى « تخليص الأبريز » قرب نهاية الكتاب ، انتقل فيها من الحديث عن القديم حيث الآثار والذكريات . فقد توقف الطهطاوى فى فونتانبلو – فى طريقه إلى مصر عام ١٨٣١ – وشاهد المسلة التى أقيمت تذكاراً لعودة البوربون إلى الحكم . ويشرح لقرائه أن الأوربيين شأنهم شأن المصريين وسائر القدماء يخلدون أنفسهم بإقامة النصب التى تحمل كتابات . وعلى كلٍّ ، فى تلك الحالة قام ثوار ١٨٣٠ بمحو أسماء الملوك [٧٨] .

هذا النصب جعله يفكر فى الأهرام فيقدم مزيجًا من التخرصات القديمة وما اكتشفه الأوربيون حديثًا ، فيقول أن بعض الفرنج يذكرون أن ملكًا يدعى قوف (خوفو) بنى أهرام الجيزة منذ ثلاثة آلاف عام . ويرجعه آخرون إلى خامس

أوخيوب (يقصد Cheops وهو النطق اليونانى لخوفو على أى حال) ، ويذكر البعض أن إقامتها استغرقت ٢٣ عامًا وأن الهرم الأكبر احتاج إلى ٣٥٠ ألف عامل لبنائه ، وأن طعام العمال تكلف ٢٢ مليونًا من القروش المصرية . وأن فتحة الهرم الثانى والثالث المغلقين يحتوى أحدهما على جثمان زوجة الملك والآخر على جثمان ابنته (وهى معلومات خاطئة نقلها الطهطاوى إلى قرائه) .

ويورد الطهطاوى ما أبداه السيوطى (المتوفى ١٥٠٥) من الاهتمام بالأهرام ، رغم أن المسلات الموجودة بالصعيد تبدو أكثر قيمة . ويضيف الطهطاوى أن الفرنج أخذوا مسلة إلى روما ، كما نقلت أخرى « فى أيامه » إلى باريس ، ويعلق على إهداء محمد على مسلة لفرنسا بقوله أنه مادامت مصر قد اختارت الأخذ بالحضارة والعلم على نحو ما تفعل الدول الأوروبية ، فإنه من الواجب الاحتفاظ بالتحف والأعمال التى تركها الأجداد للمصريين .

ولما كان « تخليص الإبريز » قد طبع فى المطبعة الأميرية ببولاق فقد وزع مجانًا على طلاب المدارس والموظفين ، وطبعت الترجمة التركية للكتاب عام ١٨٣٩ ، ولعلها أثرت فى الشباب العثمانى الذى اتجه إلى المطالبة بالحكم الدستورى ، وفى عام ١٨٣٥ ، تولى الطهطاوى تأسيس ونظارة مدرسة الألسن ، وتولى بعد ذلك إدارة قلم الترجمة ، وتحرير « الوقائع المصرية » .

وقد تضمنت المقدمة التى كتبها شيخ الأزهر حسن العطار لكتاب « تخليص الإبريز » بعض النقد ، ولكن لين سمع أن الكتاب وصف بأنه يحكى قصة إفساد فضائل الغرب للمؤلف فى بلاد الكفار [٧٩] . ولعل الطبعة الثانية من الكتاب (١٨٤٩) قد سبقت ما تعرض له الطهطاوى من إهمال فى عهد عباس حلمى الأول الذى كان معاديًا للنفوذ الأوروبى – وخاصة الفرنسى – واستبدل برجال محمد على بعض رجاله . فأغلق عباس مدرسة الألسن ، وقلم الترجمة ، والوقائع المصرية ، وباع المطبعة الأميرية ، ونفى الطهطاوى إلى الخرطوم . وقد خشى الطهطاوى أن تدركه الوفاة هناك ، وخاصة أن نحو النصف من زملائه الذين نفوا معه قد ماتوا [٨٠] . ولكن ما لبث أن أنقذه تولى سعيد الحكم خلفًا لعباس الذى مات مقتولاً ، فعاد إلى مصر مرة أخرى ، وأعيد إلى الخدمة .

دبلوماسية محمد على فى مجال الآثار :

كانت الآثار - عند محمد على باشا - مجرد أداة مساومة تستبدل بها الدبلوماسية والعون التقنى الأوروبى . غير أن هناك إشارات إلى مواقف للباشا كانت أقل نفعية منها : فزعه عندما شاهد استخراج مومياء بقرية القرنة ، واختياره الهرم كرمز يتوج الصفحة الأولى من جريدته الرسمية (الوقائع المصرية) عام ١٨٢٩ ، (انظر الشكل ١٥) [٨١] . ويشاع أن الأوربيين وحدهم رأوا فى الأهرام رمزاً لمصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، وأن اللوتس الفرعونية الجديدة التى تتوج جامع محمد على بالقلعة ربما تعكس التأثير الأوروبى وليس الإلهام المحلى المباشر [٨٢] . لعل امتداح محمد على لرسوم شامبليون للآثار كان مجرد تصرف دبلوماسى ، غير أن طلب الباشا إلى العلماء الفرنسيين أن يقوموا بترجمة نقوش مسلة الأسكندرية وكتابه تاريخ مختصر للعصر الفرعونى يشير إلى وجود فضول ثقافى حقيقى عند محمد على [٨٣] .

وفى العام ١٨٣٠ ، قدم شامبليون التماساً إلى محمد على لحماية الآثار المعرضة للخطر ، مشيراً إلى اختفاء ثلاثة عشر معبداً من الوجود خلال الثلاثين عامًا التى انقضت على الحملة الفرنسية . ونحى شامبليون باللائمة على الفلاحين ، وتجار الآثار ، وجامعى الآثار . وأكد للباشا أن « كل أوروبا سوف تعلم بالإجراءات التى قد يتخذها سموه للحفاظ على المعابد والقصور والمقابر وجميع الآثار التى تشهد بمتانة معطيات مصر القديمة ، والتى تعد - فى الوقت نفسه - أجمل ما تتحلى به مصر الحديثة » [٨٤] .

وعلى كل استمر تعرض الآثار للدمار ، ونبه مينو - القنصل الفرنسى العام - محمد على باشا إلى أن معبد دندره تقتلع حجارته لتستخدم فى بناء مصنع للنسيج بقنا ، وتمنى مينو على الباشا أن يوقع بالفاعلين عقوبة صارمة ليتاكد أن « أحداً من أولئك المتوحشين » لن يجرؤ على استخدام حجارة المعابد فى بناء « مصانع حقيرة » [٨٥] . وعندما علم محمد على باستمرار تعرض الآثار للدمار مرة أخرى ، علق الاتهام فى رقبة الأوربيين الذين لا سلطان عليهم .

ففى ١٥ أغسطس ١٨٣٥ ، أصدر محمد على أمرًا وجه فيه أصبع الاتهام إلى سوابق تصرفات الأوربيين فى هذا المجال ، ليبرر خطر تصدير الآثار ، ويأمر بجمعها لتعرض فى القاهرة : « ومن المعلوم أن الأوربيين لديهم مبان لحفظ الآثار ، والأحجار المنقوشة ، والنقوش ، وغيرها من الأشياء الأخرى ، التى يتم حفظها بعناية وعرضها على أهل البلاد وزوارها من الأجانب . . . ومثل هذه الأبنية تجلب الشهرة للبلاد التى تقيمها » (٨٦) .

ونص الأمر على إرسال الآثار التى يتم جمعها إلى الطهطاوى ناظر مدرسة الألسن بالأزبكية ، وأن على الطهطاوى وحككيان اختيار الموقع المقترح لإقامة المتحف فى مقابل المدرسة ، وأسند تصميم المبنى إلى حككيان ، حكم كونه مهندسًا ، كما أسندت نظارة المتحف إلى يوسف ضياء أفندى ، الذى كان عليه – أيضًا – القيام بدورات تفتيشية سنوية إلى المواقع الأثرية بالصعيد ، فقام ضياء أفندى بجولة تفتيشية ، وعين ممثلين له بالصعيد لتجميع ما يتم العثور عليه من آثار وإرساله إلى القاهرة ، ورغم إشارة أمر محمد على إلى أن أهل البلاد وزوارها يشاهدون الآثار بالمتحف ، اقتصر دخول المتحف على « السياح من زوار البلاد » .

ولو قدر لهذه الخطة أن تنفذ ، لسارت مصر مع اليونان جنبًا إلى جنب فى تحقيق السيطرة والحماية الوطنية للآثار . فقد أسس متحفها الوطنى عام ١٨٢٩ ، والإدارة المختصة بالآثار فيها فى ١٨٣٣ ، وصدر أول قانون خاص بالآثار فيها عام ١٨٣٤ ، وأسست الجمعية الآثارية اليونانية عام ١٨٣٧ . وفى فرنسا أدى الاستيلاء على التحف والأيقونات الدينية الملكية أيام الثورة إلى إقامة متحف لها بدير الجراند أوجستان فى تسعينات القرن الثامن عشر . وأدت عودة البوربون إلى الحكم فى فرنسا إلى إشاعة نوع من الحنين إلى العصور الوسطى . وفى عام ١٨٣٠ قام فرنسوا جيزو – المؤرخ والوزير الدائم للوى فيليب – بتعيين مفتش للآثار التاريخية ، وبعد ذلك بأربعة سنوات ، أسست الحكومة الفرنسية « لجنة الآثار التاريخية » . أما فى بريطانيا ، فقد أدى الاهتمام بحقوق الملكية الفردية إلى تأخير تعيين مفتش مسئول عن الآثار القديمة ، حتى تم ذلك عام ١٨٨٢ (٨٧) .

ويعتبر المصريون - أحياناً - الأمر الصادر فى ١٨٣٥ حجر الأساس لإقامة مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى [٨٨] . ولكن المصادر الفرنسية تشير إلى أن الهدف من صدوره هو عرقلة جهود القنصل الفرنسى العام مينو لجمع الآثار المصرية وتصديرها خارج البلاد . وعلى كل ، كان من سوء الطالع أن الأمر الذى أصدره محمد على لإنشاء ١٨ مصنعاً للملح الصخرى (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) أدى إلى تدمير الإيوان التاسع بمعبد الكرنك وتحويله إلى أحجار استخدمت فى بناء أحد تلك المصانع [٨٩] . وأبدى القنصل الأمريكى چورج جليدون سعادته بهزيمة محمد على فى « المسألة الشرقية » ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، لأن ذلك يؤدى إلى توقف بناء المصانع مما يقلل من نهب الآثار وتحويلها إلى مواد بناء [٩٠] .

وشجع نهم الغرب إلى الآثار الأوربيين - من القناصل إلى أقل الناس شأناً - على السخرية من حظر تصدير الآثار ، فقد قام شامبليون نفسه بقطع لوحة من مقبرة سيتى الأول المكتشفة ، كما انتزع مينو لوحة الملوك من معبد أبيدوس ، واستطاع بريس داڤين أن يرشى رجال الجمارك بالإسكندرية لتصدير لوحة الملوك دون الحاجة إلى مساعدات القنصل .

وكانت المسلات أعظم الآثار شأناً وأكثرها اجتذاباً ، وقد حملها الرومان معهم غنيمة إلى روما والقسطنطينية . وقد اقترح الجنرال ديزيه على نابليون أن يأخذ إحداها معه إلى باريس [٩١] . وبعد إجلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١ ، تحدث الضباط الإنجليز عن أخذ إحدى مسلات الإسكندرية معهم احتفالاً بالنصر على الفرنسيين . وتغيرت الأذواق عند أوائل القرن الثامن عشر ، عندما اقترح بوادى مايبه نقل عمود پومپى - وليس إحدى المسلات - إلى باريس . واقترح دروڤتى على محمد على باشا أن يكسب ود الملك لوى الثامن عشر بإهداء فرنسا إحدى مسلات الإسكندرية . واستطاع شامبليون أن يساومه على المسلة الأحسن حالاً بمعبد الأقصر ، وأخيراً وصلت المسلة إلى باريس لتقف شامخة فى ميدان الكونكورد عام ١٨٣٦ . ورفض الإنجليز أن يتحملوا نفقات نقل المسلة التى وعدهم بها محمد على ، ولكن إرازمس ويلسون - الخيِّر - تحمل نفقات نقلها وإقامتها على ضفاف التيمس [٩٢] .

وفى عام ١٨٤١ ، نشر القنصل الأمريكى جليدون – عضو الجمعية المصرية – كتابه « التماس إلى آثاريى أوروبا بشأن تخريب آثار مصر » ، وتساءل ساخراً : « لماذا لا نقيم حائطا من الحجر الجيرى فى كل موقع أثرى ، حتى يحفر عليه – كل سائح إنجليزى متجه إلى الهند أو قادم منها – اسمه ؟ » ولعل السياح الذين يضيقون ذرعًا بالآثار التى زاروها يمضمون الوقت فى كتابة أسمائهم على النحو الذى كان يفعله الوندال فى زخرفة حوائطهم (٩٣) .

واتهم جليدون مينو باستحواذه على لوحة الملوك الخاصة بمعبد أبيدوس من قبيل المنفعة المادية وليس اهتماماً بالآثار . ووجه اللوم إلى دروفتى وسولت لصراعهما حول « تمثال جرانيتى لأبى الهول ، وليس صراعهما حول الفرعون الذى أمر بنحته ، ولكن حول السعر الذى يجلبه عندما يباع فى أوروبا » (٩٤) ، ولكن جليدون أعاد النظر فى موقفه هذا ، فامتدح شامبليون « لإنقاذه الآثار من جحورها ، لتنعم بالأمان فى المتاحف الأوربية » . ووصف سولت بأنه « رجل نبيل وعالم » ، واستنكر جليدون صدور الأمر الخاص بالآثار عام ١٨٣٥ واعتبره خادعًا ، يمثل « عملاً جديداً من أعمال الاحتكار » الذى يعرقل التجارة الحرة برعاية الحضارة ، ويقيم متحفًا بمصر ! وطالب بإصدار فرمان عثمانى يجعل من القناصل « أمناء على الآثار » ، ويأمر المصريين بإطاعة أمرهم فيما يتصل بحماية الآثار (٩٥) . ولعب جليدون دوراً مهمًا فى نشر الاهتمام بمصر القديمة فى الولايات المتحدة فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ونشر – أيضًا – الفكرة القائلة بأن قدماء المصريين كانوا مبدعين (٩٦) .

وفى العام ١٨٤٢ ، ذكر محمد على لليبسيوس أن مشروع إقامة المتحف المصرى قد فشل ، وبرر ذلك بالقول بأن مصر الحديثة لازالت فى « بدايات الحضارة » . ولكن تقييم ويلكنسون لذلك الموقف كان فجًا ، فقد قال :

« إقامة متحف بمصر فكرة خيالية محضة ، فبينما يؤدى حظر تصدير الآثار من مصر إلى الإضرار بالعالم ، لا تحقق مصر مغنمًا . فالحفائر تتم دون حاجة إلى معرفة أو جهد ، ومن يعملون فيها يخدعون الباشا ولا يهتمون بإقامة المتحف . . . وبعد وضع الحظر كعقبة فى طريق الأوربيين ، لن يقيم الباشا متحفًا » (٩٧) .

وبعد ذلك ببضع سنوات ، تلقى لينان دى بليفون أمرًا من الحكومة المصرية عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨ - ١٨٤٩ م ليقوم بالتفتيش على مواقع الآثار المصرية ، وأن يشحن إلى القاهرة ما يراه عرضة للنهب من جانب السياح والتجار . ولكن جهوده فى هذا الصدد لم تكلل بالنجاح .

واستخدم إبراهيم باشا نجل محمد على ، رجلاً تركيًا للتنقيب عن الآثار بالأقصر ، وقام بطرد المنقبين الآخرين . وقلل ويلكنسون من قيمة المجموعة التى نتجت عن هذا العمل ، وتجمعت فى قصر إبراهيم ، فقد احتوت على « خليط من المومياوات المحطمة والتوابيت وبعض اللوحات غير الكاملة ، ومجموعة متنوعة من حطام الآثار » .

وبعد عصر محمد على ، اهتم عباس الأول بالآثار ، فأمر اثنين من المهندسين بالقيام بالتفتيش على المواقع الأثرية بالصعيد ، وأمر ناظر ديوان المدارس بإعداد تقرير عن المواقع الأثرية القريبة من القاهرة [٩٨] . ويذكر جاستون ماسبيرو أن عباسًا نقل مجموعة الآثار التى كانت بالأزبكية إلى القلعة عام ١٨٥١ [٩٩] ، ولكن مصدرًا آخر يؤكد أن عباسًا أصدر أمرًا فى أكتوبر ١٨٤٩ بنقل مدرسة الألسن إلى الناصرية (السيدة زينب) ، ولما كانت الحاجة ماسة إلى مكان أرحب بسبب ضيق المكان هناك ، فقد تم نقل مجموعة الآثار إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وعلى كل ، قام عباس الأول بإهداء المجموعة إلى السلطان عبد العزيز ، وأهدى خلفه سعيد ما بقى منها إلى ماكسمليان - أرشيدوق النمسا - عام ١٨٥٥ . وكان اتجاه الوالى العثمانى فى مصر إلى اعتبار الآثار المصرية هدية مناسبة للسلطان ، جديدًا فى بابه . وفى استانبول أيضًا ، بدأت الحكومة الاهتمام بالآثار والمتاحف وما تمثله من تراث . ويقبع نصيب ماكسمليان من الآثار بمتحف الآثار التاريخية بڤيينا الآن .

الوساطة الأرمينية ، يوسف حككيان :

تعلم يوسف حككيان (١٨٠٧ - ١٨٧٥) بأوروبا ، شأنه فى ذلك شأن رفاعة الطهطاوى ، وكان محبًا للآثار ، أقبل على تعلم اللغات التى تساعد على اتصال مصر بأوروبا . وإذا كان الطهطاوى المصرى المسلم استخدم موقعه كموصل بين الثقافة

الأوربية وبلاده فى حفز مواطنيه على الاهتمام بمصر القديمة ، فقد كان حككيان على نقيضه تماماً ، فقد كان أرمينياً كاثوليكياً ، ولد باستنبول ، ونأى به تعليمه فى بريطانيا بعيداً عن وطنه الثانى مصر . وعندما طرده عباس الأول من وظيفته ، اشتغل بالتنقيب عن الآثار تحت رعاية بريطانية ، ومد يد العون للأوربيين من زوار مصر ، وكتب كثيراً عن مشكلة التوفيق بين ما جاء بالكتاب المقدس والإطار الزمنى للعصر الفرعونى ، وكانت مشكلة ملحة عند أهل الغرب ، وتغلب عنده الميل إلى الثقافة الأوربية على انتمائه الشرقى ، حتى أن أوراقه الخاصة مودعة بالمكتبة الوطنية البريطانية بلندن ، وليس القاهرة .

كان حككيان واحداً من بين مجموعة صغيرة من الأرمن الذين لعبوا دور الوساطة مع الغرب ، واحتلوا وظائف كبرى فى مصر فى القرن التاسع عشر . وكان الأرمن - الذين زاد عددهم عن الألفين عام ١٨٤٠ - ينقسمون إلى قسمين : أحدهما يتبع الكنيسة الجريجورية (الأرثوذكسية) ، والآخر يتبع الكنيسة الأرمينية الكاثوليكية وقد جلب محمد على والد حككيان - الأرمنى الكاثوليكى من استانبول ليعمل لديه مترجماً فى مطلع عهده ، ولعب أرمينى آخر جاء إلى مصر من استانبول - أيضاً - هو بوغوص يوسفيان - دوراً مهماً فى خدمة محمد على فتولى نظارة « ديوان التجارة والأمور الأفرنكية » وخلفه أرمينيان آخران فى منصبه فى الأربعينيات . وقد زكى هؤلاء الأرمن عند محمد على ، افتقارهم إلى الجذور الاجتماعية المصرية ، وإتقانهم التركية واللغات الأوربية ، واختار بوغوص يوسفيان أربعة من الطلاب الأرمن ليوفدوا إلى باريس ضمن البعثة التعليمية الأولى التى انضم إليها الطهطاوى عام ١٨٢٦ ، وكان نوبار باشا - أول رئيس وزراء لمصر فيما بعد - عضواً بالبعثة التعليمية التى ذهبت إلى فرنسا عام ١٨٤٤ (١٠٠) .

ظل يوسف حككيان باستانبول بعد ما رحل والده إلى مصر للعمل فى خدمة محمد على ، ولم يغادرها إلا بعد موافقة محمد على على تحمل نفقات تعليمه بانجلترا . وعندما وصل إلى لندن عام ١٨١٧ كان فى العاشرة من عمره حيث تلقى نبأ وفاة والده . وأشرف صامويل بريجر - التاجر ونائب القنصل السابق بالإسكندرية - على تعليمه العام الذى استغرق سبع سنوات ، تعلم خلالها الإنجليزية واليونانية واللاتينية ، وعلى

تعليمه الهندسى الذى استغرق خمس سنوات . وحتى يقف يوسف حككيان على جوهر التقدم الصناعى والتجارة الحرة ، قام بجولات استطلاعية للقنوات والجسور ، ومصانع الغزل والنسيج بما نشستر وجلاسجو ، وشهد مولد عصر السكك الحديدية [١٠١] . وضمن مذكراته اقتراحات لتحديث مصر التى لم يكن قد رآها بعد : « أظن أن بناء بواخر نيلية ، وعربات لنقل الركاب على الطريق بين القاهرة والإسكندرية مشروع جيد . ولابد من إنشاء خطوط حديدية تيسر سبيل تحريك القوات العسكرية ونقل البضائع . . . وخطوط البرق وما يشابهها من وسائل الاتصال التى تستخدم فيما بين لندن وبورتسموت يجب تركيبها بين القاهرة والإسكندرية . كما يجب استخدام الأنابيب لمد المدن بالمياه ، ولابد من العناية بالسجون . . . [١٠٢] » .

وعندما أمره محمد على بالعودة إلى مصر عام ١٨٣٠ ، وكان يوسف حككيان قد تفرنج تمامًا حتى أنه نسى اللغة التركية ، وأصبح يتحدث من خلال مترجم . وقد أدهشه مالقيه من استهجان فى مصر لاستمراره فى ارتداء القفازات والجوارب [١٠٣] ولم يستطع حككيان أن يخفى تحيزه لثقافته الإنجليزية ، فيقول : « كان الزاد الذى حملته معى إلى مصر ، رفاهية اليونان ، واضطراب الترك ، وصوت المقارع للسادة أكلة الضفادع » [١٠٤] .

كان حككيان سريع التعلم ، وما لبث أن اكتسب قدرًا مما يتسم به رجال البلاط من مرونة ، كان محمد على يسرع الخطا فى طريق التصنيع ، مما أعطى للمهندسين أولوية عنده . وشغل حككيان بالتفتيش على المصانع ، والبحث فى جدوى استغلال المناجم ، وتصميم المبانى وإدارة مدرسة المهندسخانة ، وأضاف التركية والعربية والفارسية إلى اللغات التى يعرفها (الإنجليزية – الفرنسية – اليونانية – اللاتينية)، ثم بدأ يتعلم الإيطالية والألمانية والأرمينية . وكان إتقانه للإنجليزية يعطيه وزنًا خاصًا فى حاشية محمد على التى تتحدث التركية [١٠٥] ، لأن بوغوص بك يوسفيان « ناظر ديوان التجارة والأمور الأفرنكية » ومساعدة أرتين تشراكيان كانا يعرفان الفرنسية والتركية ويجهلان الإنجليزية [١٠٦] ، فقام حككيان بترجمة المراسلات الإنجليزية إلى الفرنسية ليتولى بوغوص وأرتين ترجمتها إلى التركية وعرضها على محمد على .

ولكن دراسته للهندسة لم تعلمه احترام الآثار وتقدير قيمتها ، فقبل قدومه إلى مصر كتب فى يومياته :

« إذا كانت الأهرام الواقعة بجوار القاهرة تتكون من كتل من الجرانيت والأحجار الأخرى ، فمن المفيد اقتلاع تلك الأحجار ، واستخدامها فى بناء الجسور وغيرها من المبانى ذات النفع العام ، ويكتفى بالإبقاء على هرم واحد أو هرمين فى موضعهما إلى الأبد . . . ولما كانت جوانب الهرم منحدرة ، فإن اقتلاع الأحجار الضخمة من القمة إلى القاعدة على التوالى يصبح ممكنًا ، وقد يمد خط حديدى تدفع عليه حاويات الحجارة من عند قاعدة الهرم إلى النيل . . . ويجب أن نأخذ كل ما يقال عن عدم اقتلاع أحجار الهرم بنوع من التراضى . ويمكن الإبقاء على التماثيل والأعمدة والمعابد واللوحات الرخامية . . . » [١٠٧] .

وفى ١٨٣٦ ، عندما اعتزم محمد على اقتلاع أحجار الهرم لاستخدامها فى بناء القناطر الخيرية ، فزع مينو (القنصل الفرنسى) ، وقدم إليه التماسا قال فيه :

« لقد حققت شهرة عظيمة لنفسك بفضل ما قمت به من جلائل الأعمال . . . ولما كان الرأى العام قويًا فى البلاد المتحضرة ، فسوف يثور ضد تخريب الآثار . فالأوربيون ينظرون إلى الأهرام باعتبارها أعظم آثار باقية للجنس البشرى القديم ، وهى تعد فى التراث القديم إحدى عجائب الدنيا السبع . . . وأمر هذه الآثار يعنى جميع شعوب العالم . . . وهى فوق ذلك كله تعنى للفرنسيين الكثير منذ قال بونابرت كلمته الخالدة فى المعركة التى حملت اسم الأهرام : تذكروا أن أربعين قرنًا (من التاريخ) تنظر إليكم من فوق قمم الأهرام . . . ويجب على حكام البلاد أن يحفظوها لتنتقل إلى الأجيال القادمة سليمة وخالدة ، بعد أن تنتهى حياتهم القصيرة على الأرض » [١٠٨] .

وبعد ما وصل حككيان إلى مصر ، تغيرت نظرته إلى الآثار تمامًا تأثرًا بالأوربيين ، وأصبح من أقوى الدعاة للمحافظة على الآثار . وكان من بين مؤسس « الجمعية المصرية » . وخلال تنقله فى ربوع البلاد فى مهام تتصل بالعمل ، قام برسم المعابد واللوحات ونسخ النقوش الهيروغليفية ، ولا زالت أوراقه الخاصة مصدرًا مهمًا للمتخصصين فى المصريات . وقدم – في يومياته – وصفًا رومانسيًا لكوم أمبو :

« عندما رسا قاربنا أمام هذه الحوائط الشامخة ، لم أملك سوى إطلاق العنان لمشاعرى أمام ذلك الصرح الذى يطل علينا باعتبارنا غرباء لا نستحق الاستحواذ على الآثار ، فلا يجب أن نهمل الصروح التى أقامها الأقدمون . . . إن كل ما يهمنا فى خرائب الآثار هو قدرتها على إنتاج الملح الصخرى » (١٠٩) .

وفى إدفو ، راح حككيان يبدى انزعاجه من « التراب والقذارة المتراكمة بفعل سكانها الحاليين ، فالمعبد يئن تحت تلك الأكواخ البائسة التى أقاموها فوقه ، ولو كان ذلك فى بلد أوروبى لنفضت عنه الأتربة وقامت بترميمه . . . » (١١٠) .

ومع مضى الأربعينات ، تكشف يوميات حككيان عن تصاعد اغترابه التام عن مصر ، وتبنيه الفكرة الشائعة بين الأوربيين عن تعصب المسلمين (١١١) . ودارت فى ذهنه أفكار النموذج الأوروبى لحرية العبادة ، وإلغاء الرق ، والآثار : « ألا يمكن - لوجه الله - أن ينقل كل معبد إلى إنجلترا أو فرنسا بواسطة ساحر ، مع اتخاذ إجراءات صارمة للحفاظ على الآثار فى مصر ، ولابد أن تتدخل القوى الثلاث الكبرى لفرض حرية العبادة وتصفية الرق ، وحماية الآثار » (١١٢) .

ومع تزايد شعور حككيان بفقدان الأمان ، ازداد اغترابه عن المجتمع المصرى . فقد حرص محمد على على تزكية الخصومات بين الأرمن العاملين معه ليقينه أن مراسلات الأرمنى لا يستطيع قراءتها إلا واحد من قومه (١١٣) . وكان زواج حككيان من شقيقة أرتين بك تشراكيان (بانومانيكاڤا) دعمًا لمركزه فى بداية الأمر ، ولكن مع تولى عباس الأول السلطة انتابت حككيان الهواجس من نوبار (رئيس الوزراء فيما بعد) قريب بوغوص يوسفيان ، لدسه ضده عند الباشا (١١٤) . وقد نصح أرتين صهره حككيان بالتزام الحذر . وأشار حككيان فى يومياته إلى أنه كان باستطاعة أرتين وأخيه خشرڤ الارتكان إلى الحماية الفرنسية والعثمانية . ولكن أرتين فر إلى استانبول عام ١٨٥٠ عندما اتهم بالفساد ، تاركًا وراءه حككيان يعانى من الفزع وفقدان الحماية ، وقد ذكر فى يومياته أن الرجال والنساء كانوا يختفون ببساطة تامة فى عهد عباس (١١٥) .

ولجأ حككيان إلى القنصل العام موارى ، وأنتونى هاريس - زميليه فى الجمعية المصرية - كما لجأ إلى بريجز الذى أشرف على تعليمه بإنجلترا ، طالبًا الحماية

البـريطانيـة . وتم وضع ترتيب تم بموجـبـه تعـاقـد ليـونارد هورنر – ممثل الجـمـعـيـة الچـيولوچيـة الملكيـة – مع حككيـان ليقـوم بالتنقيب عن الآثار فى عين شـمس لحـساب الجـمـعيـة ، وبذلك اكتسب الحـمـاية البـريطـانيـة ، وكان للقنصـل مـوراى دالة عند عـبـاس الذى فـضـل المشـروع البـريطانى لإقـامــة سكك حـديد الإسكندرية – القـاهرة ، على المشروع الفرنسى الخـاص بشق قناة السـويس ، ولذلك وصل عبـاس إلى درجـة تقديم دعم مـادى لحـفـائر حككيـان ، فـزوده بمهندس وبالعمـال المسـخـرين للعـمل مـجـانًا ، وبالأدوات اللازمـة للحفر . وحـــرص حككيـان ألا يثيـــر شـــك حارسه ، فقد ذكر أن مـوظف القصـر « لم يخف عنى أن هنـــاك انطباعًا عامًا أن الـهدف مـن حفـــائر عين شـمس اسـتـخـراج كنوز الذهب ، وسـألنى عمـا أنوى فـعله بالكنوز التى قد أعـثر عليـها فأجيب بأننى سوف أرسلها لخزانة الوالى » (١١٦) .

بدأ حككيان حفائر عين شمس من يونيو ١٨٥١ (١١٧) ، كمـا قام فيمـا بعد بحفائر فى منف – لحساب هورنر – فيما بين ١٨٥٢ – ١٨٥٤ . وسـاعدته معرفته بالچيولوچيا إلى القيام بأول حفائر اسـتـخدم فيـها علم الطبقات فـى مصر ، وكان ذلك سـابقًا لماربيت الذى احـتـفظ بمـجـرد قـوائم بما تم العـثور عليـه (١١٨) وكان هـورنر يعـتـقد أن التـراكم السنوى لطمى النيل فوق الآثار المصرية قد يحسم الخلاف بين دراسى الكتاب المقدس وأولئك الذين ينتقدون بحدة التحقيب الزمنى لما جاء بالكتاب المقدس . ومن ثم رأى أن مسلة عين شمس الخاصـة بسنوسرت الأول (الأسرة الثانية عشر) وتماثيل رمسيس الثانى الضخمة فى منف (الأسرة التاسعة عشر) أماكن مناسبة لبداية العمل فى هذا الاتجاه . ونشر هورنر نتيجة الحفائر التى أثارت المتخصصين فى الكتاب المقدس الذين حـددوا بدء الخليقة بحـوالى عام ٤٠٠٤ قـبل الميـلاد ، وحـدد زمـان مـاقـبل التـاريخ بما كشفت عنه حفائر حككيان فى منف بالعام ١١٥٠٠ قبل الميلاد .

واعتزل حككيان التنقيب عن الآثار عام ١٨٥٤ ، واهتم بتـعريف سـبيل الأوربيين الذى انهمر على مصر لزيارتها ، بتراث هذه البلاد . فكتب الكثير عن الحساب الزمنى لمدة فيضـان النيل ، وعن الكتاب المقدس ، وما نيتو ، والنظريات الخيالية حول الحكمة الخفية فى الآثار . وقد تمت طباعة عمله حول هذا الموضوع بشكل خاص فى لندن عام ١٨٦٣ بعنوان « رسالة فى تقويم الآثار القديمة » .

وقد تأثرت سمعة حككيان كثيراً لأنه لم يدرج ضمن علماء الآثار الوطنيين ، فقد بدأ عثمانياً فى وقت كانت فيه مصر تتباعد عن استانبول ، وأدت تربيته الإنجليزية إلى اغترابه عن المجتمع المصرى ، وعن اهتمام المؤرخين الوطنيين ، لقد كان يتمتع بالحماية البريطانية دون أن يحمل الجنسية ، وكان كاثوليكيًا بعيداً عن الكنيسة الأرمينية الجريجورية . وفى عالم المصريات تعد رسومه الأثرية وحفائره التى وظفت علم الطبقات ذات قيمة ، ولكن تحوله عن المجال - مثل بيازى سميث - جعل وجوده باهتًا فى التخصص الذى كان فى مرحلة التكوين . ولا تزال أوراقه الخاصة فى المكتبة البريطانية فى حاجة إلى دراسة استكشافية .

وفى الوقت الذى بدأ فيه حككيان التنقيب عن الآثار فى منتصف القرن ، كان الفرنسيون والألمان والإنجليز قد قاموا بعمل جسات أثرية ، وعثروا على مجموعات كبيرة من الآثار المصرية ، وتعمقت المعرفة بالهيروغليفية ، وصحح إطار جدول مانيتو للأسرات الفرعونية . وكان محمد على يرى فى الآثار مجرد أدوات تستخدم فى المساومات الدبلوماسية ، غير أن الطهطاوى ساعده على اتخاذ الخطوات المترددة (الأولى لحماية التراث الفرعونى . وتهيأ المسرح لظهور مارييت الذى سيعيد تكوين مصلحة الآثار ويقيم المتحف على أسس متينة ، وليقوم الطهطاوى بحملته التى دعت المصريين إلى تبنى التراث الفرعونى . وفيما بين ١٨٥٠ - ١٨٨٢ نشرت تلك التطورات أشرعتها فى مواجهة سحب العاصفة السوداء للإمبريالية الغربية التى تجمعت فى الأفق . وفى عام ١٨٤٩ كتب حككيان الذى كان متأثراً بالإجماع الأوروبى ، تحذيراً جاء فيه :

« إن من المقدر لمصر ألا تبقى هكذا فى ظلال الجهل وترزح تحت ثقل البربرية ، تلك البلاد التى نقلت إلى أوروبا فى العصور القديمة شعلة الحضارة المقدسة . وإن عاجلاً أو آجلاً سنضطر إلى فتح الأبواب أمام ضغوط الحضارة الأوربية والدول ، وإلا فسوف يقومون بفتح تلك الأبواب عنوة » [١١٩] .

الهوامش

(١) Gerald P. Verbrugghe and J.M. Wickersham, Berossos and Manetho, introduced and translated (Ann Arbor, 1996).

(٢) John David Wortham, British Egyptology 1549 - 1906 (Newton Abbot, Devon, 1971), 15 - 16.

(٣) On Sandays, see W.R. Dawson, Who Was Who in Egyptology, 3rd. er., revised by M.L. Bierbier (London 1995), 260 - 61; and George Sandys, A Relation of a Journey Begun Arno Dom. 1610 (London 1915; reorint of 2nd. ed - Amesterdam 1973).

(٤) Sandys, Relation, 128; Erik Iverson, The Myth of Egypt and Its Hieoglyphics in European Tradition (Copenhagen, 1961), plate 7, Facing 48, and on 164 n. 82; Ency. Britannica (Edinburgh, 1771), 3 : 519; John A Wilson, Sings and Wonders upon Pharaoh, A History of American Egyptology (Chicago 1964), 37.

(٥) Who Was Who in Egyptology, 3 : 176.

(٦) Garth Fowden, The Egyption Hermes : A historical Approach to the Late Pagan Mind (Princeton, 1986); Erik Iverson, The Myth of Egypt and Its Hierogliphics in European Tradition (Copenhagen 1961); Fxancis Yates, Giordano Bruno and the Hermetic Question, (Chicago 1946).

(٧) Joscelyn Godwin, Athanasius Kircher, A Renaissance Man and the Quest For Knowledge (London 1979).

(٨) تم حصر عدد الكتب ونسبتها إلى جنسيات أصحابها استنادًا إلى :
Martin Kalfatovic, Nile Notes of a Howadji : A Bibliography of Travellers' Tales From Egypt (Met u chen, N.J., 1992).

(٩) فيما يتعلق باستكشاف الصعيد ، راجع :
Claude Traunecker and Jean - Claude Golvin, Karnak : Résurrection d'un site (Paris 1984), 35 - 99; Carré, Voyayeurs 1 : 29 - 118.

(١٠) Benoit de Maillet, Description de l'Eypte . . . composée sur les mémoires de M. de Maillet, ancien consul de France an Caire, Par l'abbé le Mascrier (Paris, 1735), 147 - 48.

(١١) Who Was Who in Egyptology, 3 : 312, 338; وفيما يتعلق بأنف أبى الهول ، انظر :
Alberto Siliotti, The Discovery of Ancient Egypt (Cairo, 1998), 36 - 37, 42 - 43.

(١٢) Volney, Voyage en Syrie et Égypte, pendent les années 1783, 1784 et 1785, 2 vols., 2 nd ed., (Paris, 1787).

(١٣) Carrré, Voyagenrs, 1 : 67 - 68.

(١٤) Ulrich Haarmann, "Medieval Muslim Perceptions of Pharaonic Egypt", in Ancient Egyptan Literature : History and Forms, ed., Antonio Loprieno (Leiden, 1996), 605 - 27; H.A.R. Gibb, tras., Ibn Battuta : Travels in Asia and Africa 1325 - 1354 (London, 1953), 53.

(١٥) لاحظ مايكل كوك إهمال المسلمين لمصر القديمة ، ويؤكد ذلك هاأرمان ولكنه يشير إلى إعجاب المسلمين بسحر الفراعنة ، انظر :
Micheal Cook, "Pharaonic History in medieval Egypt", Studia Islamica 57 (1983) 67 - 113; Ulrich Haarman, "Regional Sen timent in Medieval Islamic Egypt", Bulletin of SOAS, 43 (1980) : 55 - 66.

(١٦) تاريخ الطبرى فى خمسة أجزاء ، وانظر مادة « فرعون » بدائرة المعارف الإسلامية .

(١٧) Ahmad M.H. Shboul, Al-Mas'udi and his World : A Muslim Humanist and his Interest in Non - Muslims (London, 1979) : and Tarif Khalid, Arabic Historical Thought in the Classical Period (Cambridge, 1994), 131 - 81 .

(١٨) بالإضافة إلى دراسة هاأرمان سالفة الذكر ، راجع مادة « هرم » بدائرة المعارف الإسلامية ، ٢ : ١٧٣ ؛ ومادة « المقريزى » ، ٦ : ١٩٣ – ٩٤ .

(١٩) Ulrich Haarmann, "In Quest of the Spectacular : Noble and Learnd Visitors to the Pyramids around, 200 A.D. "in Islamic Studies Presented to J.Adams, ed., Wael Hallaq and Donald P. Little (Leiden 1991), 57 - 67; Haarmann' edition of Abu Jafar 91 - Idrisi, Anwar uluw al-Ajram Fi-1 Kashf an Asrsr al-Ahram, (Beirut 1990).

(٢٠) "Egyptiens (Philosohie des)," Encyclopédie raisonné des Connstatt, 1966, reprint of 1751 - 1780 ed. Paris), 5 : 434.

(٢١) تعمتد الدراسات الأخيرة التى تناولت الحملة الفرنسية على مصادر فرنسية من بينها :
Henry Laurens, L'Expédition d' Egypte 1798 - 1801 (Paris 1989); André Roymond, Egyptiens et Français au Caire 1798 - 1801 (Cairo 1998).

(٢٢) من بين نقاد التحقيب بيتر جران وكين كونو (انظر ما سبق ذكره بالمقدمة) .

(٢٣) Carré Voyag eurs 1 : 76 - 73.

(٢٤) de Maillet, Description de l,Egypte, iv .

(٢٥) أحدث الدراسات الخاصة بهذا العصر هى دراسة خالد فهمى :
All the Pasha's Men, Mohamed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt (Cambridge, England, 1998).

(٢٦) Gabriel Guémard, Histoire et Bibliograbhie critique de La Commission des sciences et arts et de l'Institut d'Egypte (Cairo 1936),

(٢٧) La Decade Egyptienne, vol. 1, (Year 7, 1798), 11 - 12.

(٢٨) عن دينون راجع كتابه :

Voyage dans la basse, et l'haute : Egypte, Description de l'Egypte, 2 vols., (Paris, 1802).

(٢٩) Jean - Clande Golvin, "L'Expedition de l'Haute Egypte : a la découverte des ou la révélation de l'archi tecture pharaonique "in Henry Laurens, l'Expedition d'Egypte (Paris, 1989), 333 - 50.

(٣٠) الاقتباس مأخوذ من : Golvin, "L'Expedition", 344

(٣١) أشار إلى غياب فترة العصور الوسطى من وصف مصر Irene Bierman, "The Time and Space of Medieval Cairo", (unpublished paper, 1998). وهناك دراسة مهمة عن تاريخ نشر « وصف مصر » هي :

Michael W. Albin, "Napoleon's Description de l'Egypte : Proplems of Corporate Authorship", Publishing History 8 (1980) : 65 - 85.

وقد أعيدت طباعة اللوحات فى ألمانيا طباعة ممتازة فى كولون عام ١٩٩٤ .

(٣٢) Description, Fourier, "Preface historique", iii; Edward Said, Orientalism (New York, 1978), 80 - 87.

(٣٣) Description, vol. 1 : Antiquités : Planches (Paris 1809), وقد أعيدت طباعتها لغلاف كتابين آخرين نشرا فى ١٩٨٤ ، ١٩٨٧ .

(٣٤) Iverson, Myth, 132 - 33.

(٣٥) Claude Traunecker, "L'Egypte antique de la Description", in Laurens, Expedition, 351 - 70.

(٣٦) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ٣ : ١ ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٨ .

(٣٧) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ٣ : ٥٧ – ٥٨ ، نفس الطبعة (وقد آثر المترجم الرجوع إلى النص الأصلى الذى نقل المؤلف ترجمته من تحقيق موريه لعجائب الآثار) .

(٣٨) فيما يتعلق بهاملتون انظر: Who Was Who 3 : 188:

وفيما يتصل باللورد إيلجن انظر : William St-Clair, Lord Elgen and the Marbles (London 1967).

(٣٩) J.J. Halls, The Life and Correspondence of Henry Salt, 2 vols. (London 1834), 2 : 301, see alo Who Was Who 3; 370 - 371 .

(٤٠) For Caviglia, see Who Was Who 3 : 88; For Belzoni, his Narrative of the Operations and Recent Discoveries (London 1820), Who Was Who 3 : 40 - 41; Stanley Mayes, The Great Belzoni (London 1959).

(٤١) On Rifoud, see Who Was Who 3 : 358; Ronald T. Ridely, Napoleon's Procnsw in Egypt L The Life and Times of Bernardino Drovetti (London 1998).

(٤٢) On Barker, Cambpell, Murray, Mimaut and Sabatier, see Who Was Who 3 : 30 - 31, 81 - 82, 302 289, 369; On Cochelet, see George Gilddon, An Appeal to the Antiquaries of Europe on the Destruction of the Monuments of Egypt (London 1841), 107.

(٤٣) Who Was Who, 3 ; 217; 8 : 457.

(٤٤) Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egilto (Alexandria 1937), 144 - 45.

(٤٥) On Ricci, Passalacqua, Athanasi and Burckhardt, see Who Was Who 3, 356, 321, 21, 74.

(٤٦) Dhombres, Naissance, 223 - 33.

(٤٧) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ٤ : ٤٣٩ – ٤١ طبعة دار الكتب ١٩٩٨ ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن .
(وقد فضل المترجم رد الاقتباس إلى أصله لأن المؤلف نقله عن ترجمة T. Philipp and M. Perlmann أما ما ورد بين قوسين في النص فمن عند المؤلف والمترجم) .

(٤٨) Bruce Trigyer, A History of Archaeological Thought (Cambridge, Mass., 1989), 39 - 40.

(٤٩) Who Was Who 3 : 454 - 55; Alexander Wood and Frank Oldham, Thomas Young. Natural Philosopher, 1773-1829 (Cambridge, 1954); Richard Par;inson, Cracking Codes, The Rosetta Stone and Its Decipher (Berkley, Calif., 1999), 31 - 41.
والكتاب الأخير يقدم تقييماً لجهود كل من يانج وشامبليون .

(٥٠) H.Hartleben, Champollion, sein Leben und sein Werk, 2 vols. (Berlin 1906); Jean Lacouture, Champollion. : Une Vie de Lumières (Paris, 1988),

(٥١) Anne - Frabçoise Ehrhard "Champollion et les Frères Humboldt'" L'Egyptologie et les Compollion ed. Michel Dewachter and Alain Fouchard (Grenoble, 1994), 95 - 115.

(٥٢) Robert Marichal, "Champollion et l'académie", Bulletin de la Société Fronçaise d'Egyptologie 95, (1983) : 12-31; On Jomard, see also Who Was Who 3, 218-19.

(٥٣) Jason Thornp son, Sir John Gardner Wilkinson and his Circle (Austin, Tex., 1992). On Lane. see : Leila Ahmed, Edward W. Lane (London, 1978); Edward William Lane, Description of Egypt, ed., Jason Thompson (Cairo 2000) : On Hay See, Selwyn Tillet, Egypt Itself : The Career of Ropert Hay, Esquire of Limplum and Nunraw, 1799 - 1861 (London 1984).

(٥٤) Thompson, Wilkinson, 184.

(٥٥) Compiled From Kalfatovic, Nile Notes.

(٥٦) النص مقتبس من :

Kent Weeks, The Lost Tomb : The Greatest Discovery in the Valley of Kings Since Tutakhamun (Cairo 1998), 68.

(٥٧) On Rosellini, see Who Was Who 3 : 262 - 63.

(٥٨) William H. Stiebing Jr., Uncovering the Past : A History of Archaeology (Buffalo, N.Y., 1993), 95 - 190.

ويقدم هذا الكتاب صورة مختصرة للجهود المبكرة فى الكشف عن آثار الرافدين ، أما العرض التفصيلى فتجده فى :

Seton Lloyd, Foundations in the Dust : The Story of Mesopotamian Exploration, 2nd ed. (London 1980); Brian Fagan, Travellers, Archeologists and Monuments in Me soptamia. (Boston 1979).

(٥٩) On Minutoli, see Who Was Who 3 : 289; On Lepsius see Georg Ebers, Richard Lepsius : A Biography, trans. Z.D. Underhill (New York, 1887); E. Freier and W.F. Reineke, eds., Karl Richard Lepsius (1810 - 1884), (Berlin, 1988).

(٦٠) Carré, Voyageurs, 1 : 301 - 323.

(٦١) On Leemans, see l'Egyptoloque Conrade Leemans et sa Correspondance, ed.,W.F. Leemans (Leiden 1973) and Who Was Who 3 : 242 - 43.

(٦٢) Christiane Ziegler, Le Louvre : Les Antiquités Égyptiennes (Paris 1990), 5 - 6; Tod Porterfield, The Allure of Empire : Art in the Sevice of French Imperialism 1798 - 1836 (Prineeton, N.J., 1998), 81 - 116; Mc Clellan, Inventing the Louvre : Art, Politics and the Origins of the Modern Museum in Eighteenth - Century Paris (Combridge, 1994).

(٦٣) Louis Keimer, "Le Musée égyptologique de Berlin", Cahiers d'histoire egyptienne, Série 3, Fasc. 1 (Nov 1950), 27 - 41; Thomas W. Gaehtgens, "The Museum Island of Art and archaeology, ed., Gwendolyn Wright (Washington, D.C., 1966), 52 - 77.

(٦٤) Donald Malcolm Reid, "The Egyptian Geographical Society". Poetics Today 14, no. 3 (Fall 1993), 539 - 72; T.W. Freeman, A History or Modern British Geography (London 1980).

(٦٥) Laws and Regulations of Egyptian Society (Alexandria, n.d), 1; See also Philip Sadgrove, "Travellers' Rendezvous and Cultural Institutions in Muhammad Ali's Egypt" in Travellers, ed. Starkey and Starkey, 257 - 66.

(٦٦) Laws and Regulations of the Egyptian Society, 1,2,8.

(٦٧) حول تاريخ الجمعية انظر :

L. Auriant, "Les Origines de l'Institut egyptien, La Société égyptienne (1836 - 59), "Journal des savants (1926) : 217 - 27.

(٦٨) Fifth Report of the Egyptian Society (n.p,m ca 1841), 2.

وهناك قائمة بأسماء الأعضاء على كتاب

Linant de Bellefonds, Mémoire sur le Lac Moéris (Alexandria 1843).

(٦٩) British Library, Additional Manuscripts 37, 449, Hekekyan Papers, Vol2 : 45 (4 July 1842), on the split, see Yacoub Artin, "Lettres inedites du Dr. Perron á M.J. Mohl" BIE, ser. 5, 3, Fasc. 2 (1909): 144 - 46.

(٧٠) I. G. Wilkinson, A Handbook for Travellers in Egypt (London 1847), 113; Artin, "Lettres", 146.

(٧١) حول رفاعة الطهطاوى راجع :

Gilbert Delanoue, Moralistes et Politiques musulmans dans l'Egypte du xixe siècle (1798 - 1882) 2 vols. (Cairo 1982) 2; Anouar Louca, Voyageurs et écrivains egyptiens en France an XIX siècle (Paris 1979).

وانظر أيضًا : صالح مجدى ، حلية الزمن بتاريخ خادم الوطن : سيرة رفاعة رافع الطهطاوى ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٨) : وأحمد بدوى : رفاعة رافع الطهطاوى ، ط ٢ القاهرة (١٩٥٩) .

(٧٢) Louca, Voyageurs, 25 - 27 .

(٧٣) Louca, Voyageurs, 61 - 62 .

(٧٤) قام أنور لوقا بترجمة « تخليص الإبريز » إلى الفرنسية (باريس ١٩٨٨) ، وقدم ديلانو فى كتابه Moralistes ملاحظات بيلوجرافية عن الطبعات والترجمات المختلفة .

(٧٥) Jean - Jacques Luthi, Introduction à la littérature d'éxpression Française en Égypte (1798 - 1943), (Paris 1974) 103 - 5, 268; see also Louca, Voyageurs, 26.

(٧٦) Anouar Lonca, "Rifaa al-Tahawi (1801 - 1873) et La Science Occidentalle" in D'un Orient l'autre (Paris 1991), 2 : 213.

(٧٧) رفاعة رافع الطهطاوى ، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز (القاهرة ١٩٩٤) ، ٢٧٠ .

(٧٨) انظر ، الطهطاوى ، تلخيص ، ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٧٩) من خطاب شخصى من جيسون طومسون إلى المؤلف بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٩٣ .

(٨٠) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية (القاهرة ١٢٨٦ / ١٨٦٩) ، ٢٦٥ اقتبسه المؤلف من كتاب : Delanoue, Moralistes 2 : 404

(٨١) إبراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية (القاهرة ١٩٤٢) ، ٣٥ - ٣٦ ، وانظر أيضًا :

Mohammed al-Asad, "The Mosque of Mahamued Ali in Cairo", Muqarnas q (1992) : 55, n. 24.

(٨٢) Asad, "Mosque", 48.

(٨٣) Jean - François Champollion, Lettres écrites d'Egypte et de Nubie, en 1828 et, 1829 (Geneva 1973, reprintot 1833 Paris ed.), 42, 409, 429 - 54.

(٨٤) Champllion, Lettres, 456 - 57; Entire Memo 455 &,

حول الجهود الأولى التى بذلت فى المتحف ومصلحة الآثار ، راجع :

G. Maspero, Guide du visiter au Mussé du Cairo, 4 th ed., (Cairo, 1915), ix-x.

(٨٥) Gasten Wiet, Mohamed Ali et les Beaux - Arts, (Cairo ca. 1949), 24.

(٨٦) انظر نص الأمر فى دار الوثائق القومية ، فهرس بطاقات الدار ، درج رقم (١) آثار ، ومحافظ الأبحاث رقم ١١٨ آثار ، وقد قام جاك تاجر بنشر ترجمة هذه الوثائق وغيرها مما يتصل بالآثار فى :

"Ordres supérieuer relatifs à la Conservation des antiquités et la Création d'un mussée au Caire", Cahiers d'histoire Egyptienne, ser 3., Fasc, 1 : 13 - 25.

(٨٧) Hans Huth, "The Evolution of Preservationsm in Europe" Journal of the American Society of Architectural Historians (July/Oct 1941) : 5 - 12; Paul Léon, La vie des monuments Française : Destruction, restauration (Paris 1951).

(٨٨) من خطبة لسوزان مبارك ، الأهرام ١٦ ديسمبر ١٩٩٨ ؛ وحول وجهة النظر الفرنسية ، راجع ، . Maspero, Guide, ix

(٨٩) Traunecker and Golvin, karnak, 1336.

(٩٠) Wiet, Mohamed Ali, 30; Gliddon, Appeal, 69.

(٩١) Carré, Voyageurs I : 57, n. 3.

(٩٢) Bernadette Menu, "L'es Frères Champollion, "L'Egyptologie et Les Champollion, ed. Dewachter and Fouchard, 77 - 94; Jean Vidal, "L'absent de l'obelisque" in Lacoutufe, Champollion, 473 - 92; Erasmus Wilson, Cleopaxra's Needle (London 1877) .

انظر أيضاً : دار الوثائق القومية ، فهرس بطاقات الدار ، آثار ، درج ١ ، من محمد على للكتخدا ، معية تركى ، دفتر ٤٢ ، أمر ٦١١ ، المحرم ١٢٤٧ .

(٩٣) Gliddon, Appeal, 142 - 44.

(٩٤) Gliddon, Appeal, 52; and Gliddon, "Ancient Egypt".

(٩٥) Gliddon, Appeal, 127, 146 - 48.

(٩٦) Robert J.C. Young, Colonial Desire : Hybridity in Theory, Culture and Race (London 1995), 124 - 29. On Gliddon, see Who Was Who 3, 169.

(٩٧) I.G. Wilkinson, Modern Egypt and Thebes, 2 vols, (London 1843).

(٩٨) Ehud Toledano, State and Society in Mid-Nineteenth. Century Egypt (Cambride 1990), 88-90, 272.

(٩٩) Maspero, Guide, x; Dia "Abou-Ghazi", The First Egyptian Museum", Annales du Service des antiquités de l'Egypte [ASAE]) 67 (1991) : 1 - 13; John Muray' Handbook for Travellers in Constantinople, Brusa and the Troad (London 1900), 72.

(١٠٠) انظر كتاب : محمد رفعت الإمام ، الأرمن فى مصر فى القرن التاسع عشر ، (القاهرة ١٩٩٥) .

(١٠١) أوراق حككيان جميعًا مودعة بالمكتبة البريطانية ، مجموعة المخطوطات الإضافية ، انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى .

"The Hekekyan Papers" in Political and Social Chang in Modern Egypt, ed. P.M. Holt (London 1968), 68 - 75.

(١٠٢) أوراق حككيان ، ١ : ٥٠ (٢٤ يوليو ١٨٢٩).

(١٠٣) أوراق حككيان ، ٣ : ٦٥ (يونيو ١٨٤٥).

(١٠٤) أوراق حككيان ، ٢٤ : ٤٥٨ (١٨٥٨).

(١٠٥) أوراق حككيان ، ١٤ : ٥٩ (٢ فبراير ١٨٣٧).

(١٠٦) Who Was Who 3 : 456 - 99.

(١٠٧) أوراق حككيان ، ١ : ٨٢ - ٨٣ (١٩ أغسطس ١٨٢٩).

(١٠٨) Wiet, Mohamed Ali, 31 - 34.

(١٠٩) أوراق حككيان ٢ : ٤٨٩ (٢٩ سبتمبر ١٨٤٤).

(١١٠) أوراق حككيان ٢ : ٤٨٩ (٣٠ سبتمبر ١٨٤٤).

(١١١) أوراق حككيان ٣ : ٣٦ (١٨٤٥).

(١١٢) أوراق حككيان ٢ : ٤٨٩ (أول أكتوبر ١٨٤٤).

(١١٣) أوراق حككيان ٣ : ٣٥ (١٢ يونيو ١٨٤٥).

(١١٤) أوراق حككيان ٥ (أوائل عام ١٨٥١).

(١١٥) أوراق حككيان ٥ : ٤٨ - ٥٠ (٢٩ أبريل ١٨٥١).

(١١٦) أوراق حككيان ٥ : ٦٩ (٥ يونيو ١٨٥١).

(١١٧) أوراق حككيان ٥ : ٦١ (أواخر مايو ١٨٥١).

(١١٨) Thompson, Wilkinsom, 249, n. 25,

(١١٩) النص مقتبس من تقرير عن التعليم عام ١٨٤٩ ، ذكره Dykestra, "Joseph Hekekyan", 165 .

الفصل الثانى

توماس كوك
من الاستكشاف إلى السياحة

فى كتاب المويلحى « حديث عيسى بن هشام » الذى نشر فى مطلع القرن العشرين ، نجد تعليقًا يورده المؤلف على لسان مصرى ، معلقًا على تواجد السياح الأوربيين بملهى ليلى بالقاهرة :

« . . . هؤلاء سياح الغربيين أهل المدنية والحضارة ، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة ، فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرة العقاب من شماريخ رضوى وثبير إلى جنادب الرمل وضفادع الغدير . وإن نظروا إليهم من طريق العلم ، فنظرة معلم الإسكندر عالم العلماء ، إلى صبى يتهجى فى العين والياء ، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة فنظرة « فيدياس » صانع التماثيل والدمى إلى بَنَّاء يقيم أكواخ القرى ، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى ، فنظرة صاحب المفاتيح التى تنوء بالعصبة إلى أجير ينضح عرقًا تحت القربة . . . تلك دعواهم فى نفوسهم بأفواههم .

وهم فى رحلتهم إلى الشرق على ضربين : أهل الفراغ والجده الذين أبطرهم الغنى ، وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية ، ولم يبق فى أعينهم جديد .. . . فأصبحوا هائمين على وجوههم فى الأقطار والبلدان ، وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من الداء بالتنقل فى البلاد المنحطة عنهم فى درجات المدنية ، والإقامة فى الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية .

والضرب الثانى : منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض ، يستعملون علومهم ، ويعملون أفكارهم فى احتلال البلدان ، وامتلاك البقاع ومنازعة

الناس فى موارد أرزاقهم ، ومزاحمة الخلق أرضهم وديارهم ، فهم طلائع الخراب ، أدهى على الناس فى السلم من طلائع الجيوش فى الحرب » [١] .

وسياح المويلحى الغربيين ، الذين لا يجدون ما يفعلون سوى التجول هنا وهناك ، هم موضوع هذا الفصل . ويختلف هذا الفصل عن بقية الكتاب فى أنه لا يروى سوى نصف قصة التواصل الغربى المصرى من منظور غربى خالص . وتشير الفقرة المقتبسة من « حديث عيسى بن هشام » أن المصريين يرون إمكانية أن يكون للسياحة تاريخ فى بلادهم ، ولكن ذلك يخرج عن نطاق هذا الكتاب . والدراسات الاستكشافية تعانى نقصاً شديداً ، والمصادر الأولية حول رؤية المصريين للسياحة فى القرن التاسع عشر محدودة جداً ، والكثير من المصريين الذين عملوا بمجال السياحة المتنامى كانوا من الأميين ، كما انشغل معظم كتّاب ذلك العصر بأمور أخرى .

وعلى النقيض من ذلك ، هناك وفرة كبيرة فى المصادر الأوربية عن السفر والسياحة فى مصر . فقد مكّنت الثورة الصناعية قطاعات من الغربيين من توفر وسائل ومتعة السفر ، عندما أصبحت البواخر والقطارات تربط العالم . واجتذبت مصر الكثير من راغبى السفر إلى الشرق ، فقد تخيلها الغربيون باعتبارها أرض التاريخ القديم والعراقة ، أرض الفراعنة ، والكتاب المقدس ، وهيرودوت ، وألف ليلة وليلة . وفى السنوات الأخيرة ، أدى الحنين إلى « الزمن الجميل » زمن السياحة إلى مصر قبل ١٩١٤ إلى صدور كم هائل من الكتب التى تتراوح بين كتب لصور طاولات المقاهى إلى الدراسات الجادة . ويعتمد هذا الفصل على هذه الكتب والمصادر الأولية التى اعتمدت عليها لتوضيح كيف أن السياحة الحديثة ، والمتاحف ، وعلم الآثار قد شبت عن الطوق معًا على أرض مصر [٢] . فقد كتب الآثاريون كتب الدليل السياحى أو كتبوا بعض فصولها ، وقاموا بتأسيس المتاحف فى بلادهم وفى مصر وهم يفكرون فى خدمة السياح الذين لم يغيبوا عن بالهم ، ونظموا أجنحة مصر فى المعارض الدولية ، واستثاروا فضول القراء بقصص المغامرات والاكتشافات . وقد تحول معظم من أقبلوا على شراء هذه المواد إلى سيّاح ، وتحول القليل من السياح - بدورهم - إلى آثاريين .

المكتشف ، والرحالة ، والسائح :

« إنك تنظر إلى ظهر رجل من أبناء البلاد ، معمم ، يرتدى قفطانًا طويلاً أزرق اللون ، ويتمنطق بحزام أحمر، وقدماه البنيتان مكشوفتان ، فتقول « ياله من شرقى نموذجى ! » وعندما يستدير نحوك ، وتقرأ عبارة « حمال كوك » ، يقول لك « إنك تسافر مع كوك يا سيدى » ، ويسألك « كله تمام » ... ويكون كل شىء على ما يرام ... إن مندوب كوك هو أول من تلقاه فى مصر ، فهو يستقبلك ، ويصحبك فى رحلتك ، ويودعك عند السفر . . . » .

نقلاً عن ستيفنز كما وردت بكتاب چون پاندى « قصة توماس كوك » .

لقد بدأ استخدام البواخر والقطارات فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، فبدأت بذلك ثورة فى دنيا السفر ، أخرجت مصر والشام وغيرها من بلاد العالم خارج أوروبا من عالم المستكشفين والرحالة المغامرين إلى عالم السياح العاديين .

ففى مطلع القرن الثامن عشر ، اعترف الدكتور صامويل جونسون أن « من لم يزر إيطاليا يشعر بعقدة نقص تجاه الآخرين ، لأنه لم ير ما يجب على الإنسان أن يراه » [٣] . وفى القرن التالى فعل توماس كوك وولده چون ما لم يفعله غيرهما ، فأضافا الأهرام إلى قائمة « ما يجب على الإنسان أن يراه » . وقد أثار امتعاض النخبة الأرستقراطية أن توماس كوك وولده وسعوا من دائرة السياح لتشمل من جاءوا من الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى بأعداد ملحوظة .

ويذهب چيمس بوزارد إلى أن السياحة الحديثة وما حققته من دفعة ، تعود إلى مجال واحد برز فى شمال أوروبا والولايات المتحدة مع الثورة الصناعية والديموقراطية ، وركز الرحالة على البلاد المتخلفة ليميزوا أنفسهم عن السياح حتى يكونوا أكثر حساسية ومتعة واقتناعًا . وهذا التمييز بين الرحالة والسائح يعود إلى افتراض وجود تمييز طبقى وحساسية شديدة ، وأحيانًا تميز ثقافى . ويقول إيڤلن ڤوج : « السائح هو الرفيق الآخر » ، ويرد پول فوسل بقوله : « كلنا سياح الآن ، ولا مفر من ذلك » [٤] .

وكانت القاهرة والإسكندرية بالنسبة للأوربيين فى القرن الثامن عشر لا تدخل فى مجال المكتشفين ، وإنما تدخل فى اهتمام الرحالة المغامرين . وهناك الكثير من الروايات عن الإسكندرية والقاهرة والأهرام . وفى أعقاب الحملة الفرنسية وتكوين محمد على لحكومة مركزية قوية انضم الصعيد حتى أسوان إلى جدول الرحالة ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح على جدول السياح العاديين .

أما چون لويس بوركهارت الذى اكتشف (من وجهة نظر الغرب) بترا - المدينة النبطية - فقد مد نشاطه جنوب أسوان ، وقام باكتشاف النوبة حتى قرب الشلال الثالث - أى ما يمثل اليوم الحدود المصرية السودانية - مما جعلها فى متناول الرحالة . وقد اشتمل دليل ريفو السياحى الرائد والخاص بمصر عام ١٨٣٠ على النوبة السفلى (٥) ، ووادى حلفا قرب مسقط الشلال الثانى ، الذى ما لبث أن أصبح « الخط الذى يقف عنده الرحالة الذين ينشدون استكشاف المناطق الصعبة والخطرة » (٦) .

الباخرة والقطار وزمن الرحلة :

ظهر مصطلح « السائح » فى الإنجليزية لأول مرة عام ١٧٨٠ ، وما لبث مصطلح « السياحة » أن ظهر عام ١٨١١ ، فقد حبست الحروب النابليونيين البريطانيين فى جزرهم ، واستفاد مغامر كاللورد بيرون من قوة البحرية البريطانية ليستبدل بالجولة التقليدية فى فرنسا وإيطاليا الرحلة إلى اليونان والبلقان (٧) . ووجد مصطلح «سائح» طريقه إلى الفرنسية عام ١٨١٦ ، فى الوقت الذى كانت فيه موجة من السياح البريطانيين تجتاح أوروبا بعد الحروب النابليونية ، وانضمت كلمة « سياحة » إلى الفرنسية عام ١٨٤١ ، وهو العام الذى شهد أول رحلة نظمها توماس كوك فى وسط إنجلترا .

ونظم أول خط بحرى لنقل الركاب بالبواخر بين دوڤر وكاليه عام ١٨٢١ ، وفى نهر الراين عام ١٨٢٨ ، وفى نهرى الرون والدانوب فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر (٨) ،. وهو نفس العقد الذى شهد إقبالاً على مد الخطوط الحديدية

فى غرب أوروبا والولايات المتحدة ، كما شهد ظهور « جدول مواعيد القطارات » ، وكتب الدليل السياحى واستخدام البرق الكهربى (التلغراف) . وأدى التوسع التدريجى لمجموعات السياح من الطبقة الوسطى إلى تحويل ما كان قاصراً على النخبة إلى حركة سياحية جماهيرية ، «وحيثما كانت الباخرة ترسو على الشاطىء ، تراجع الرحالة المغامرون إلى الداخل ، وأخذ الخيال الرومانسى فى التلاشى . . ولكنه ثمن بخس لنشر الحضارة » على حد قول ثاكيراى (٩) .

لقد احتاج هنرى سولت إلى قضاء ستة شهور فى الطريق - فى ١٨٠٢ - ١٨٠٣ - حتى يصل إلى كلكتا قادماً من لندن عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ولذلك ليس غريباً أن تحاول شركة الهند الشرقية البريطانية أن تقيم خطاً برياً لنقل الركاب والبريد عبر مصر ، لتختصر ٤١٪ من طريق كلكتا - لندن عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل إلى ١٠٧٠٠ ميل . وحتى فى البحر المتوسط ، استغرقت رحلة الطهطاوى من الإسكندرية إلى مرسيليا عام ١٨٢٥ شهراً بالسفينة الشراعية ، قضى بعدها ١٨ يوماً أخرى فى الحجر الصحى . وأدى سوء الأحوال الجوية إلى إطالة زمن الرحلة البحرية التى حملت ويلكنسون من مالطا إلى الإسكندرية عام ١٨٣٣ إلى ما يزيد على الشهر (١٠) .

وقد غيرت البواخر ذلك تماماً ، ففى عام ١٨٣٧ ، حصلت شركة « پننسولار آند أورينتال P & O » على عقد لنقل البريد إلى الهند عن طريق جبل طارق ومالطا والإسكندرية ، وفى عام ١٨٤٢حصلت على مرسوم ملكى يرخص لها بحمل البريد الحكومى إلى الهند على خط البواخر الذى مدته الشركة بين السويس وبومباى . وفى العام ١٨٤٣ وصلت بواخر الشركة القادمة بين ساوث هامبتون إلى الإسكندرية فى رحلة استغرقت خمسة عشر يوماً . وأدى استخدام طريق أقصر عبر فرنسا ومنها ببواخر شركة « مساجيرى ماريتم » من مرسيليا إلى الإسكندرية ، أدى إلى اختصار زمن الرحلة ما بين ثلاثة وأربعة أيام (١١) .

ونظم ثوماس واجهورن وصلة برية من الإسكندرية إلى السويس فى خمسة أيام ، جعلت بالإمكان الوصول من لندن إلى بومباى فى ٤١ أو ٤٢ يوماً . وقفز عدد المسافرين عبر مصر من ٢٧٥ مسافراً عام ١٨٤٤ إلى ثلاثة آلاف مسافر عام ١٨٤٧ .

وما كان غريبًا على نابليون ، طلبه ثاكيراى من فندقه بالقاهرة : « بالمقارنة بواجهورن ، ذبح نابليون المماليك عند الأهرامات ، ولكن واجهورن هزم الأهرام ذاتها ، وقربها من إنجلترا شهرًا ، وجلب الإنجليز إليها . . . يروح واجهورن جيئة وذهابًا فى الفناء مشـــغولاً بعمله ، لقد غادر بومباى صباح الأمس ، وشوهد فى البحر الأحمر يوم الثلاثاء ، ويتناول العشاء مساء اليوم فى ريجنت پارك (بعد دقيقتين من رؤيتى به بالفناء) ولا شك أنه الآن فى مالطا أو الاسكندرية ، وربما كان فيهما معًا »[١٢] .

وقـــد أقيـــم نصب تذكارى تخـــليدًا لهـــذه الســـرعة فى مدينة السويس فيما بعد [١٣] .

وفى عام ١٨٣٤ ، اقترح البريطانيون إقامة خط حديدى يربط القاهرة بالسويس لتسهيل النقـــل البـــرى ، ولكن محمد على رفض الاقتراح ، وجـاء نجلـه عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) فـمنح چورچ ســتـيـفنســون ، ابن رائد السكك الحديدية روبرت ستيفنسون ، امتياز مد الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة ، ثم امتد الخط إلى السويس عام ١٨٥٨ . وبحلول عام ١٨٧٣ ، كانت القطارات السريعة تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية فى أربعة ساعات ونصف بعد أن كانت الرحلة تستغرق أربعة أيام [١٤] . وأقيمت شبكة أخرى من الخطوط لا صلة لها بالطريق إلى الهند ، ولكنها اتصلت بنقل القطن إلى ميناء التصدير ، غطت الدلتا وبعض مناطق الصعيد . وصحب البرق الكهربى بناء السكك الحديدية [١٥] .

وكان فرديناند ديلسبس صديقًا لسعيد فى صباه ، وعندما تولى الأخير الحكم منحه امتياز حفر قناة السويس ، وتغلب ديلسبس على الاعتراضات البريطانية والعثمانية ، وبدأ الحفر عام ١٨٥٩ . وجاء افتتاح القناة بعد ذلك بعشر سنوات ليضع مصر فى نقطة التقاء التجارة الأســـيوية - الأوربيـة . وفقد بذلك الخط الحديدى أهميته ، وبدأت تظهر كتب الدليل الســـياحى الخاصة بمصر وحدها بعد أن كانت تشركها مع الهند فى رحلة سياحية واحدة [١٦] .

وقد وضع دليل ويلكنسون السياحى عام ١٨٤٧ إطار رحلة مداها ثلاثة شهور لزيارة مصر ، فالرحلة من القاهرة إلى الأقصر بالمراكب النيلية كانت تستغرق عشرين

يومًا فى المتوسط ذهابًا وإيابًا ، يضاف إليها ١٤ يومًا لزيارة الشلال الثانى . وكانت تلك الرحلة التى تمتد إلى ثلاثة شهور تكلف الفرد ٨٠ جنيهًا إسترلينيًا أو ١٢٠ جنيهًا لشخصين . وفى عام ١٨٨٠ ، كان باستطاعة السائح أن يقوم بنفس الرحلة من لندن إلى الشلال الثانى والعودة فى ستة أسابيع ، رغم أن دليل مورای السياحى أوصى السائح بقضاء ما بين شهرين ونصف الشهر وخمسة شهور ، لتغطية كل ما يمكن رؤيته بمصر (١٧) .

المال ، والمتعة ، والطبقة الاجتماعية :

كانت الجولة السياحية الكبرى تربط بين أرستقراطية القرن الثامن عشر فى بريطانيا - الذى عاشوا فى وهم العصر الأغسطى - والذين اشتركوا فى المغامرة على الطريقة الفرنسية ، وحب الفن الإيطالى والآثار الرومانية (١٨) . وعلى مر القرن التاسع عشر انضم إلى الطبقة الأرستقراطية فى الإقبال على السياحة قطاع متزايد من أبناء الطبقة الوسطى الذين جنوا ثمار الثورة الصناعية ، وأقبلوا على السياحة من أجل المتعة أو الثقافة . وخرج توماس كوك ، رسول سياحة عصر الصناعة الذى ظهر من المنجم والمصنع وبلاد السكك الحديدية ، وسط إنجلترا ، وعمل كوك جاهدًا ليسحب متعة السياحة لتغطى الدرجات الأدنى من السلم الاجتماعى . وانضم إلى البريطانيين فى الجولات السياحية الأوربية ، الأمريكيون من رجال الدين والكتاب والفنانين ، فقد وجد الأمريكيون فى السياحة متعة استهلاكية الطابع . فالدراسة أو الكتابة أو الرسم فيها علاج لمخاوف البيوريتان من خشية الميل إلى إشباع الشهوات (١٩) .

وقد صنعت شركة بواخر P & O أسعار السفر على خطوطها حسب النوع ، والطبقة الاجتماعية ، والتمايز العرقى / الوطنى . وفى عام ١٨٤٧ ، كانت أجرة السفر من إنجلترا إلى عدن ٧٧ جنيهًا إسترلينيًا للرجل الارستقراطى ، و ٨٢ جنيهًا للسيدة ، و ٣٧ جنيها للخادمة الأوربية ، و ٣٥ جنيهًا للخادم الأوروبى ، و ٣٠ جنيهًا للخادمة من أهالى المستعمرات ، ٢٦ جنيهًا للخادم من أبناء المستعمرات . ويبدو أن المقصورات الخاصة بالنساء كانت أغلى ثمنًا ، أنيقة ، أو لعلها كانت أفخم من مقصورات الرجال .

وحتى بين الخدم روعى التمييز بين الأوربيين وغيرهم ، ليبقى كل فى موقعه . وبحلول عام ١٨٥٨ كانت أجرة السفر بالدرجة الثانية من ساوثها مبتون إلى الإسكندرية ، والتى استخدمها هواة الاقتصاد فى النفقة ، كانت تزيد قليلاً عن أجرة سفر الخدم . وفى عام ١٨٨٠ وحدت أجور السفر بالدرجة الثانية وأجور سفر الخدم ، وفى عام ١٨٩٥ ، توقف دليل بايدكر السياحى عن ذكر أجرة سفر الخدم [٢٠] . كذلك اختفى التمييز فى أجور السفر على أساس النوع .

وقام توكاس كوك بتنظيم رحلات لمحدودى الدخل وأبناء الطبقة العاملة إلى « معرض لندن الكبير » عام ١٨٥١ ، وذلك للتغلب على خشية زبائنه من أبناء الطبقة الأولى من الاختلاط بالسوقة . ويعد صدور قانون الإصلاح فى ١٨٦٧ ، ذلك القانون الذى وسع من دائرة من لهم حق الانتخاب من الرجال ، نظم كوك رحلة سياحية إلى مصر لأول فوج من أبناء الطبقة الوسطى ، ولكن كوك لم يستطع أن يجعل أسعار السفر عبر البحار فى متناول الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى ، وأبناء الطبقة الدنيا إلا من سافروا منهم كخدم أو جنود أو بحارة [٢١] .

مولد كتاب الدليل السياحى الحديث - موراى ، بايدكر ، چوان :

مع ازدياد سرعة ، وانضباط ، ورخص أسعار وسائل السفر ، قام ثلاثة من المنظمين بتبنى نصيحة عملية لتلخيص ما يمكن مشاهدته فى الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر ، مما أدى إلى اختراع كتاب الدليل السياحى . فقد ورث كل من چون موراى الثالث (١٨٠٨ - ١٨٩٢) وكارل باديكر (١٨٠١ - ١٨٥٩) دور طباعة وتوزيع كتب ، بينما بدأ أدولف چوان (١٨١٣ - ١٨٨١) حياته العملية محامياً وصحفياً . وكان مجال السياحة الذى يحيطه الشك يفت فى عضد المؤلفين ، ويجعلهم يترددون فى تقديم كتب تشرح جغرافية وطبيعة البلاد التى تتجه إليها السياحة ، والمعلومات الخاصة بها ، لحث القراء على الإقدام على مغامرة السفر . وكانت بعض نشرات الرحلات السياحية تعكس خبرات كتابها ، بينما كان بعضها الآخر يقدم معلومات عن المناخ والطرق ، والنباتات ، أو الشعوب ، واللغات ، والطعام والعمارة ، والآثار [٢٢] .

وعلى نقيض النشرات السياحية ، يخضع مؤلف كتاب الدليل السياحى لمطالب المحرر . ولما كان قراء تلك الكتب هم من يعتزمون السفر سائحين ، فإنهم يحتاجون إلى معلومات دقيقة عن الأسعار ، وقيمة صرف العملة ، والطرق ووسائل المواصلات ، وأماكن الإقامة ، وألوان الطعام ، والحالة الصحية ، وبعض النصائح المهمة ، وما يمكن شراؤه من أشياء تذكارية . وقد رتبت كتب الدليل السياحى المواقع حسب أهميتها ، وقدمت حقائق موضوعية صحيحة . وخرجت تلك الكتب صغيرة الحجم ، يسهل حملها فى اليد (hand book) أو فى الجيب (livre de poche) ، وكتبت ليستعين بها السائح مباشرة فى المواقع التى يقوم بزيارتها .

وكما يتضح من الجدول رقم ٦ (انظر الملاحق) ، ظهرت كتب الدليل السياحى الأولى الخاصة بمصر فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، كان أولها عام ١٨٣٠ ، وثانيها فى ١٨٣٥ ، وظهرت خمس طبعات أخرى من تلك الكتب فى الأربعينات ، وست طبعات فى الخمسينات . ولم يطبع سوى كتاب واحد عام ١٨٨٢ وهو العام الذى شهد الاضطرابات التى صحبت الثورة العرابية والاحتلال البريطانى ، وكان ذلك الكتاب من مطبوعات وزارة الحربية البريطانية ، ومن الطريف أنه كان بالفرنسية وليس الإنجليزية . وطبعت أربع كتب فقط فيما بقى من عقد الثمانينات مما يعكس حالة القلق بالنسبة لاستمرار الوجود الاحتلالى فى مصر واندلاع الثورة المهدية بالسودان ، ولكن نهاية العصر الفيكتورى وخلال العصر الذهبى الإدواردى ظهرت ٨٢ طبعة من كتب الدليل السياحى الخاصة بمصر فيما بين ١٨٩٠ - ١٩١٤ .

وكان ريفو (١٧٨٦ - ١٨٥٢) أول من أدلى بدلوه فى هذا المجال بكتابه الذى حمل عنوان « جدول مصر والنوبة وملحقاتها » (نشر فى باريس ١٨٣٠) . ولد ريفو فى مارسيليا ، ودرس النحت ، وخدم بجيش نابليون بإسبانيا قبل قدومه إلى مصر عام ١٨١٢ ليقضى فيها أربعة عشر عاماً كمساعد لدروفتى فى جمع الاثار . ولما كان ريفو ذا قدرات علمية وأدبية ، فقد قاد كتابه السياح من الإسكندرية إلى القاهرة إلى الأهرام فيما بين الجيزة والفيوم ، وصعوداً مع النيل إلى طيبة وأسوان والشلال الثانى . وتضمن رحلات اختيارية جانبية إلى الدلتا والبحر الأحمر وسيناء . وخصص فصولاً من الكتاب لجغرافية البلاد ، وسكانها ، وعاداتهم [٢٣] . واحتوت ملاحق الكتاب على

٤١ صفحة من كلمات عربية باللهجة الصعيدية ، وسبع صفحات لكلمات نوبية . لقد كان كتاب ريفو أول محاولة فى مجال لم توضع بعد أصوله ، ولذلك افتقر إلى الخرائط ، واكتفى بإعطاء معلومات سطحية عن الآثار ، ولم يشر إلى حل شامبليون للرموز الهيروغليفية ، وأسرف في ذكر مواقع لا تهم السائح من قريب أو بعيد .

واستجاب جاردنر ويلكنسون للتحدى الفرنسى بدليله السياحى الأكثر علمية ، والذى نشر عام ١٨٣٥ بعنوان « طبوغرافية طيبة ، ونظرة عامة إلى مصر » ، وقام ويلكنسون بتوقيع مقدمة الكتاب فى طيبة عام ١٨٣١ ، ولا ندرى كيف تلقى قرّاء الكتاب ممن يعتزمون زيارة مصر ، اعتذار المؤلف عن تأخر الكتاب فى الصدور بسبب تفشى الكوليرا ، ووفاة الناشر الذى اعتزم نشر الكتاب ، مما أدى إلى تأخر الطبع حتى ١٨٣٥ .

وكان تأخير طبع الكتاب خيراً ، فقد تمكن ويلكنسون أن يجد ناشراً مناسباً هو چون موراى . كان چون موراى الثانى لا زال مسئولاً عن دار النشر ، ولكن چون موراى الثالث (١٨٠٨ - ١٨٩٢) كان مشغولاً بتطوير كتب موراى الشهيرة للدليل السياحى . فقد أحس أن الإنجليز الذين تدفقوا على أوروبا زائرين بعد موقعة وترلو فى حاجة إلى دليل جيد مناسب ، فألف موراى الصغير كتاب « دليل المسافرين إلى هولندا وبلچيكا وبروسيا وشمال ألمانيا وعلى الراين من هولندا إلى سويسرا » (١٨٣٦) ، وقد أدخل هذا الكتاب المصطلح الألمانى « Handbuch » إلى الإنجليزية . وقد أحرزت دار موراى شهرة عن طريق كتب الدليل وليس عن طريق الكتب الأخرى [٢٤] . وما لبثت الدار أن أصدرت كتباً أخرى لإرشاد السياح . وكان ويلكنسون أحد ثلاثة من أعضاء « الجمعية الجغرافية الملكية » الذين كلفهم موراى بتأليف سلسلة من تلك الكتب .

كان كتاب ويلكنسون « طبوغرافية طيبة ونظرة عامة إلى مصر » سابقًا على أول كتاب نشر فى سلسلة موراى للدليل السياحى الأوروبى . وتضمن كتاب ويلكنسون مائتى صفحة عن تاريخ طيبة القديمة منها ٦٠ صفحة عن « عادات وتقاليد قدماء المصريين » و٢٥ صفحة عن « الإنتاج فى مصر الحديثة » وهنا فقط قفز ويلكنسون إلى الإسكندرية

نقطة الدخول الوحيدة إلى مصر للقادم من أوروبا ، ووصف الطريق على النيل صعوداً إلى أسوان ، متجاوزاً طيبة التى عالجها بإسهاب من قبل . وكان نصيب الإسكندرية خمس صفحات ، والقاهرة ثماني عشرة صفحة ، وأهرام الجيزة ١٢ صفحة .

وتضمنت الطبعة الأولى من كتاب ويلكنسون الملامح التى أصبحت أساسية فى كل كتاب دليل سياحى بمصر : مفردات إنجليزية – عربية ، قسم عن الهيروغليفية ، قائمة بخراطيش الفراعنة ، وجدول زمنى لحكام مصر حتى الغزو العثمانى ، أضيف إليها فى الطبعة الثانية الولاة العثمانيون وأسرة محمد على إلى زمن صدور الطبعة .

ورغم أن الطبعة الثانية من كتاب ويلكنسون (١٨٤٣) لم تكن قد أدرجت ضمن سلسلة موراى للدليل السياحى فقد كانت قريبة الشبه بها من حيث الإخراج ، وأصبح العنوان « مصر الحديثة وطيبة » ويبدأ الرحلة بالإسكندرية (٨٥ صفحة) والقاهرة (١٨٥ صفحة) ، وجاءت طبعة ١٨٤٧ من الكتاب ضمن سلسلة موراى ، وحملت عنوان « كتاب الدليل للمسافرين إلى مصر » ، وفى الطبعة الثالثة من الكتاب فى سلسلة موراى (١٨٦٧) حل اسم موراى محل ويلكنسون ، وحملت الطبعة الرابعة اسمهما معًا . وفى ١٨٥١ ظهر دليل موراى للسياحة فى سوريا وفلسطين . وتحدث توماس كوك عن الحجاج إلى الأراضى المقدسة الذين كانوا « يحملون الإنجيل فى يد ، ودليل موراى فى اليد الأخرى » [٢٥] .

وفى فرنسا ، صدر أول دليل سياحى لچوان عن منطقة الألب (١٨٤١) ، وتبع موراى فى تناول خط سير الرحلة [٢٦] ، وتبع ذلك صدور دليل چوان لمناطق أخرى من فرنسا . وفى الخمسينات أصدر چوان دليل سياحى لإنجلترا بالفرنسية وكذلك لألمانيا وإسبانيا . وأعقب ذلك إصداره لدليل « الشرق » بما فيه مصر (١٨٦١)[٢٧] ، وجاء بعده دليل اليونان ١٨٨٨ – ١٨٩١ .

وكما فعل سميث فى إنجلترا ، أوجد الناشر الفرنسى چوان ولوى هاشيت سوقًا لكتب الدليل السياحى بإقامة أركان لبيعها فى محطات السكك الحديدية ، وميز لون الغلاف الأحمر كتب دليل موارى وبايدكر ، وحملت كتب چوان اللون الذى جعلها تعرف فيما بعد « بالدليل الأزرق » .

وتناول دليل جوان للشرق (١٨٦١) مصر وسيناء ، ومالطا ، واليونان ، وتركيا الأوربية ، وتركيا الإسلامية ، وسوريا ، وفلسطين ، و« بترا العربية » . وكان نصيب مصر مائتى صفحة من بين ١١٠٠ صفحة ضمها الكتاب . وبعد مقالات افتتاحية ، تبع جوان الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة ثم صعوداً بالنيل حتى الشلال الثانى متناولاً رحلات جانبية على طول الطريق . ولما كان الكتاب موجها للقارئ الفرنسى فقد خصص صفحة لكل من معركة أبى قير والأهرام ، وحدد موقع البيت الذى أقام فيه بونابرت بالأزبكية ، والموقع الذى اغتيل فيه كليبر ، وقدم شرحاً مطولاً للاكتشافات الأثرية التى قام بها مارييت فى السرابيوم (٢٨) .

وفى ألمانيا ، أسس كارل بايدكر داراً للنشر عام ١٨٢٧ فى كوبلنز على نهر الراين ، وهى محطة على طريق خط بواخر كولن - مينز النهرى الذى افتتح فى تلك السنة (٢٩) . وتأثراً بموراى ، أصدر بايدكر كتاب الدليل الأول عن ألمانيا والنمسا عام ١٨٤٢ ، وأصدر أول دليل بايدكر عن مصر بالألمانية فى ١٨٧٧ ، وبالإنجليزية فى ١٨٧٨ .

ولما كان كوك يعمل فى مجال السياحة وليس النشر ، باع لعملائه - فى بداية الأمر - دليل هنرى جيز (منافس موراى الذى لم يعمر طويلاً) . وفى ١٨٧٦ أصدرت الشركة « دليل كوك السياحى لمصر والنيل والصحراء » . وبعد ذلك بعشر سنوات تبنَّى كوك دليلاً أعده عالم المصريات بالمتحف البريطانى إرنست بادج (٣٠) الذى بلغت عدد طبعاته ١٢ طبعة بحلول عام ١٩١٢ .

وبينما عكس دليل ريفو ذروة سيطرة القناصل ، وغلب عليه طابع العمل البدائى ، جاء كتاب دليل ويلكنسون نتاجًا لعمل خبير بالمصريات . وسار بقية علماء المصريات على نهج ويلكنسون ، فقد أعد مارييت دليلاً لزوار احتفالات افتتاح قناة السويس ، وكتب بادج دليلاً لكوك . وفى عصر انتصار العلم تضمن دليل بايدكر فصولاً كتبها كبار المتخصصين مثل عالم التاريخ الطبيعى چورچ شيڤا ينفورت ، والكابتن ليونز من مصلحة المساحة المصرية ، وخبير العمارة الإسلامية يوليوس فرانز ، والمستشرق كارل بيكر ، وعلماء المصريات صامويل بيرش ، وچورچ ايبرز ، وچورچ شتايندورف .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن أوروبا كانت فى قمة الهيمنة والقوة ، وتقدم المعرفة ، فلن يدهشنا عدم وجود دليل سياحى عربى لأوروبا فى القرن التاسع عشر . كانت هناك رحلات مثل رحلة الطهطاوى التى قدم فيها المجتمع الفرنسى وعاداته ، ولكن لم يكن هناك كتاب دليل سياحى ، ليس لأوروبا فحسب ، بل ولمصر ذاتها . وقد استقى مرقس سميكة - مؤسس المتحف القبطى - معلوماته عن الآثار المصرية من دليل موراى ، ودليل بايدكر ، ولفتت رحلة لتوماس كوك إلى صعيد مصر شارك فيها سلامة موسى ، لفتت انتباهه إلى التاريخ الفرعونى لبلاده [٣١] .

فنادق القاهرة والإسكندرية :

كان زوار مصر من الأوربيين - حتى ثلاثينات القرن التاسع عشر - يضطرون للإقامة فى منزل أو فندق متواضع ، إذا عجزوا عن العثور على مكان للإقامة ببيت قنصل بلادهم أو أحد التجار المقيمين بمصر من أبناء بلادهم . وبعد ذلك العقد من الزمان قامت فنادق يديرها الأوربيون ، لتقدم الإقامة المريحة الملائمة لنزلائها . وكان البريطانيون الذين يصلون إلى الإسكندرية - فى ١٨٤٣ - يقيمون بفندق « أوروبا » (الذى امتلكه هيل ثم انتقلت ملكيته إلى راى) مقابل أربعين قرشًا فى اليوم . وتولى الفرنسيون إدارة « فندق الشرق » الذى امتلكه كولومب . وكان « فندق أوروبا » لا يزال الاختيار الأول للسائح فى دليل موراى عام ١٨٨٠ ، يليه « فندق أبَّات » [٣٢] .

وفى القاهرة عام ١٨٣٠ ، وجه ريفو السياح إلى الحى الفرنجى إلى جوار شارع الموسكى ، حيث كان هناك بيت ضيافة لرجال الدين الكاثوليك ، يستقبل الزوار للإقامة مقابل ما يتراوح بين سبعة وثمانية قروش فى اليوم . وكان هناك خان أوروبى صغير بالقرب منه يحصل من السائح على ١٢ قرشًا فى اليوم . وفى العام ١٨٤٣ حل « فندق الشرق » المتسع الأرجاء بالأزبكية محل فندق هيل بالحى الفرنجى ، واستخدمه المسافرون بالطريق البرى من الهند وإليها مقابل خمسين قرشًا للإقامة الكاملة فى اليوم الواحد . وفى عام ١٨٤٦ تحول اسم الفندق إلى « شبرد » ليحمل اسم رجل الأعمال البريطانى الذى امتلكه [٣٣] .

واختـار الفرنسيـون والطليـان الإقـامة « بفندق جيـاردينو » – الذى كـان يملكه دوميرج – بالحى الفرنجى مقابل ثلاثين قرشًا فى اليوم (٣٤) . وقد أشاد دليل موراى فى ١٨٥٨ وفى ١٨٨٠ بفنادق شبرد ، وويليامز ، والشرق ، وكانت تقع جميعًا بالأزبكية (انظر الشكل ١٦) . وتقـاطر البريطانيون والأمريكيون على « فندق شبرد » ، بينما فضـل الفرنسيون « فندق الشرق » . وبعد توسع فندق شبرد ليضم ٣٥٠ غرفة ، كان لا يزال يحتل قمة قائمة الفنادق عام ١٩٠٨ فى دليل بايدكر . أما أولئك الذين لم يكن يلائمهم وسط حى الأزبكية ، فقد فضلوا فندق « الجزيرة بالاس » الذى يقع بجزيرة بالنيل ، أو فندق « ميناهاوس » بالأهرام الذى ظهر بالدليل لأول مرة عام ١٨٨٩ ، وتضمنت قائمة الفنادق بدليل بايدكر عام ١٩٠٨ « فندق سميراميس » الذى ضم ثلاثمائة غرفة ويقع على النيل بالقرب من دار المعتمد البريطانى (٣٥) .

الفرامانات والزى ، الأعلام والأسلحة النارية :

وتسجل كتب الدليل السياحى التغيرات الأساسية فيما بين العشرينات والخمسينات فيما يتعلق بالفرامانات ، والزى ، والأعلام والأسلحة النارية بالنسبة للسياح الغربيين . ففى عام ١٨٣٠ نصح ريفو قراءه بأن يقوم كل منهم بزيارة قنصل بلاده عند وصوله الى مصر ، حتى يرتب له القنصل مقابلة مع محمد على باشا ليعطيه فرمانًا يرخص له بالتجول فى البلاد وربما التنقيب عن الآثار : وفى عام ١٨٤٧ توقف تقليد مقابلة الباشا للحصول عل فرمان . وبعد ذلك بوقت طويل ، ذكر بايدكر عام ١٩٠٨ ، « لا تعد جوازات السفر ضرورية ويكفى المرء أن يقدم بطاقة الزيارة التى تحمل اسمه ليتمكن – عمليًا – من إنجاز أعماله فى داخل البلاد » (٣٦) . ولكن الحرب العالمية الأولى ما لبثت أن وضعت نهاية لذلك .

وحتى العقد الأول من القرن التاسع عشر ، جرت العادة على أن يرتدى الأوربيون الزى المحلى حتى لا يثيرون انتباهًا إليهم غير مطلوب ، وربما الشكوك والعداء . وقبل ذلك كان « الفرنجة » يغامرون بالخروج إلى الشوارع بزيهم الغربى فى الإسكندرية وحدها . وكان ارتداء زى الأتراك يبرز اختلاف الزوار الأوربيين عن المصريين ، ويبرر

عدم استخدامهم العربية التى لا يتخذها الترك لغة للحديث . وقد ارتدى كل من بوركهارت وبلزونى ، ولين ، وويلكنسون ، وشامبليون ، وروسيللينى ، وبريس داڤين ، ارتدوا جميعًا العمامة والجلباب وأطلقوا لحاهم على طريقة الترك . واتخذ بعضهم لنفسه اسمًا عربيًا .

وفى العام ١٨٣٠ ، نصح ريفو قراءه بارتداء الزى المحلى ، ولكن سولت انتقد ويلكنسون – قبل ذلك بسنوات – لتوقعه تدخل القنصل لحماية من يرتدون زيًا تركيًا من الزاور الأوربيين (٣٧) وفى العام ١٨٣٥ نصح ويلكنسون بارتداء الزى المحلى فى القاهرة وواحات الصحراء الغربية ، والبحر الأحمر ، ولكنه ذكر عدم وجود ضرورة لذلك بالصعيد ، وعلى الطريق البرى (القاهرة – السويس) . وفى أواخر الثلاثينات ، كان تمسك اللورد ليندساى بزيه الأوروبى دليلاً على تحسن وضع الأوربيين : « لم يعد هناك وجود للشتائم التى كانت توجه للمسيحيين فى السابق . . . فباستطاعة المسافرين التنقل بالزى الفرنجى بأمان تام . ترى ماذا كان باستطاعة سانديز وليثجواى أن يقولا ؟ هل كان باستطاعتهما التنبؤ فى أيامهما ، أنه فى العام ١٨٣٦ يستطيع بريطانيان أن يسيرا معًا علنًا فى القاهرة ، يتقدمهما خادم محلى يفسح لهما الطريق مناديًا بكلمات لا تفرق بين الدواب والبشر ؟ » (٣٨) .

وفى عام ١٨٤٧ ، أعلن ويلكنسون أن من يرتدى الزى المحلى ولا يتحدث العربية يصبح مثارًا للسخرية (٣٩) .

وفى العام ١٨٣٥ ، أوصى ويلكنسون المسافر الأوروبى أن يرفع علم بلاده على (الدهبية) القارب الذى يبحر به فى النيل ، حتى يتحاشى مضايقات قوارب الحراسة المسلحة . وتباهى منديس كوهين بأنه كان أول أمريكى يرفع العلم الأمريكى على صفحة النيل عام ١٨٣٢ . وشجعت القنصلية البريطانية مواطنيها على تسجيل الأعلام الشخصية المثلثة الشكل لكل منهم حتى يستطيع كل منهم التعرف على قارب صديقه دون مشقة (٤٠) .

وكان المسافر الأوروبى – فى أوائل حكم محمد على – يحمل السلاح ويستأجر فردًا أو اثنين من « الإنكشارية » لحراسته . وجاءت نصيحة ريفو – عام ١٨٣٠ –

تجنب التجول فى مصر دون سلاح ، فى غير موضعها ، لأن محمد على كان قد أقر النظام فى ربوع البلاد حتى النوبة جنوبيًا . وفى العام ١٨٤٣ ، لم يورد ويلكنسون ذكرًا لضرورة حمل الأسلحة النارية دفاعًا عن النفس ، أما الأمر بالنسبة لسوريا وفلسطين فكان مختلفًا ، فأصر دليل موراى على ضرورة أن يحمل السائح الأوروبى السلاح ، وأن يتخذ لنفسه مرافقًا من أبناء البلاد . وفى عام ١٨٩٥ وصف بايدكر السفر إلى مصر بأنه آمن تمامًا كما هو الحال فى أوروبا ، ونصح السياح بعدم الحاجة إلى حمل السلاح إلا إذا كان السائح من هواة الصيد (٤١) .

مخالطة أهل الشرق :

وحفلت كتب الدليل السياحى بنصائح عامة ذات طابع عنصرى ، حول ما أسماه بايدكر « مخالطة أهل الشرق » . كان التراجمة يقدمون خدماتهم لزوار مصر منذ أيام هيرودوت الذى ذكرهم باعتبارهم محرفين وجهلة . وفى عام ١٨٣٥ ، استخدم ويلكنسون مصطلح « الترجمان » للوسيط الذى يستخدم فى التفاهم مع النخبة الحاكمة التى تتحدث التركية ، ورأى عدم وجود حاجة إليهم ، ونصح السائح بأن يستأجر خادمًا أوربيًا من مالطا أو خادمًا مصريًا من حى الفرنجة بالقاهرة ممن يجيدون الحديث بالفرنسية والإيطالية . وبحلول عام ١٨٧٣ ، لم يجد دليل موراى أن هناك ضرورة لاستخدام اللغة التركية وذكر أنه من الممكن - لقاء أجر معلوم - استئجار ترجمان يتحدث الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية لترتيب الرحلة إلى الصعيد ، فيقوم الترجمان بدوره بتأجير المركب والخدم وجلب المؤن الضرورية للرحلة (٤٢) .

وكان بعض أولئك التراجمة من الجنود الفرنسيين أو الإنجليز السابقين الذين أسروا أو فروا من الخدمة أيام الحروب النابليونية . فقد التقى فرنسوا أوجست رينيه دى شاتوبريان « مماليك فرنسيين » فى خدمة محمد على ، أحدهما كان يدعى إسماعيل رشوان (واسمه الأصلى پيير جارى) الذى رافق الكونت دى فوربان فى جولته عام ١٨١٧ . ومن أشهر البريطانيين من هؤلاء عثمان أفندى ، وهو أسكتلندى ، كان فى صباه طبالاً أو ممرضًا ، وقع فى الأسر عندما قام البريطانيون بغزو مصر

١٨٠٧ (حملة فريزر) ، وتم استرقاقه وتحول إلى الإسلام ، ونجح القنصل البريطانى سولت فى التدخل لإعتاقه ، ولكنه رفض العودة إلى اسكتلندا . وقد عمل مساعداً لبوركهارت ، ومترجمًا وحارسًا للقنصلية البريطانية ، وتولى تأجير البيوت بالقاهرة ، وأدى خدمات لروبرت هاى وغيره [٤٣] .

وحذر دليل موراى السياح من الجلبة التى ستواجههم عند زيارتهم لأهرام الجيزة :

« يشكو الزوار من حشود القرويين الذين يتجمعون حولهم مثل سحابة من الذباب ، يلحون عليهم فى قبول خدماتهم المزعجة ، مما يسبب للزوار الضيق والانزعاج . ومن واجب الترجمان الذى يرافق السائح أن يضع حداً لهذا باختيار عدد معقول من الأدلة ، ولا يسمح لغيرهم بالاقتراب من السياح . . . ولا يجب أن يعطى لهم شيء أثناء وجود السائح بالهرم ، ويجب مقاومة أى مطالب لهم بحزم » [٤٤] .

وهناك رسم هزلى من السبعينات عن « الحمارين والسياح الأجانب » يعبر عن المفهوم الشائع بين الأوربيين عن « مخالطة أهل الشرق » (انظر الشكل ١٧) .

وقد عكست الصلات بين السياح وأهالى البلاد - غالبًا - حدة التمايز النوعى ، فتبين إحدى اللوحات سائحين - رجل وإمرأة - محمولين عبر مخاضة ماء كانت موجودة قبل رفع مستوى طريق أهرام الجيزة عام ١٨٦٩ (انظر الشكل ١٣) ، وهناك صورة فوتوغرافية نادرة تبيِّن نساء العصر الفيكتورى وهن يسحبن من ظهورهن بحبال حول خواصرهن لصعود الهرم (انظر الشكل ١٩) ، وسوف نتناول الرؤية الخيالية للمرأة الشرقية عند الرجل الغربى فيما بعد . فقد كان أبرز ما جاء برحلة جستاف فلابير ، تلك الرحلة التى قضاها مع الراقصة كوچك هانم بإسنا ، وليس زيارته للكرنك أو الأهرام [٤٥] .

وحذر دليل بايدكر من إعطاء « البقشيش » دون مقابل ، عندما راح يعدد الطباع الصبيانية لبعض « أبناء البلاد » : « يعتبر الشرقى العادى السائح الأوروبى مغفلاً ، بل - أحيانًا - يعتبره مجنونًا ، فالشرقى لا يقدر قيمة السياحة ومتعتها ، فالسياح غالبًا ما يدفعون الكثير من أجل تحقيق متعة وقتية بثمن باهظ ، ولا يدركون أن بذور الطمع الذى لا نهاية لها قد بذرت ، لتؤتى أكلها لمن يخلفهم ، وتفسد من أخلاق المتلقين أنفسهم . لذلك لا يجب إعطاء البقشيش إلا فى مقابل خدمة . . .

ويجب أن نتذكر دائماً أن المصريين يحتلون أكثر الدرجات دنواً فى سلم الحضارة مقارنة بمعظم أمم الغرب ، ويعد الجشع أحد الأسباب الرئيسة لفشلهم ، ولكن إذا وضع السائح عيوبهم فى اعتباره ، وعاملهم بالكثير من الحزم ، لوجد أنهم لا يفتقرون إلى الإخلاص والأمانة ورقة الحاشية » (٤٦) .

وفى العام ١٨٣٠ ، حذر ريفو السائح من شراء الآثار المزيفة ، واتهم فلاحى الصعيد ويهود القاهرة بترويجها ، وبعد ذلك بخمس سنوات جاء بدليل ويلكنسون أن أسعار الآثار بقرية القرنة (مقابل الأقصر) قد تضاعفت بسبب تزايد عدد السياح الوافدين إلى مصر منذ العام ١٨١٦ (٤٧) .

ومع تعاقب عقود القرن التاسع عشر ، استنكرت كتب الدليل السياحى الرق ، وطقس « الدوسة » حيث يمر الشيخ الصوفى بحصانه فوق أجساد مريديه . وذكر ريفو – دون حرج – أن سعر الجارية السوداء الجميلة فى العاشرة من عمرها يتراوح بين ٦٠٠ – ٨٠٠ قرشاً بالقاهرة ، بينما تبلغ قيمة الجارية الجركسية ستة آلاف قرشاً أو تزيد ، وقد اشترى كل من لين وويلكنسون جارية ، وعداً ذلك من قبيل الإحسان ، وما لبث لين أن تزوج الجارية التى اشتراها (٤٨) . وذكر دليل موراى لعام ١٨٥٨ ، أنه منذ قيام سعيد بإلغاء تجارة الرقيق ، لم يعد سوق العبيد بالقاهرة مكاناً يستحق الزيارة (٤٩) .

وأعلن دليل موراى فى ١٨٥٨ ، ومرة أخرى فى ١٨٨٠ ، أن : « لا يستطيع الأوروبى مشاهدة حفل « الدوسة » دون أن يشعر بالفزع والاشمئزاز . وفى تلك المناسبة يمتطى شيخ السجادة حصاناً . . . وتجرى الطقوس فى الأزبكية حيث يرقد على الأرض ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ من المريدين ملتصقين ببعضهم البعض ، ويمر الشيخ بحصانه فوقهم . . . ويقيم هذا الاحتفال البرهان على التعصب الوحشى الذى لا يصدقه من لم يره رأى العين » .

وفى دليل بايدكر للعام ١٨٣٥ ، وصف حفل « الدوسة » بأنه « عادة بربرية » تم إلغاؤها على يد الخديو توفيق ، ولكن يقال أن أتباع « الطريقة العلوانية » يمارسون أحياناً مضغ جمر الفحم وابتلاعه ، وابتلاع قطع الزجاج المكسور ، ويمارسون « الرقص الوحشى » (٥٠) .

السياح والأوربيون المقيمون ، الجنسيات والأعداد :

يذكر ريفو - عام ١٨٣٠ - أن القاهرة افتقرت إلى الصحف والبورصات ، والأكاديميات ، ودور العرض المسرحي ، وأن الأوربيين يجتمعون عادة في حديقتين : إحداهما بالقنصلية الفرنسية ، والأخرى في دير قبطي حيث يقيم الكاثوليك صلواتهم ، وأكد دليل موراي ذلك عام ١٨٥٨ ، فذكر أن « القاهرة لا تكاد تقدم للسياح أماكن عامة للترويح عن أنفسهم »[٥١] ، ولكن تدفق السياح الذين يسعون لتجربة حظهم على النيل ، سرعان ما غير ذلك . فقد زاد تعداد الأوربيين ومن تمتعوا بحمايتهم نحو عشرة أضعاف بالإسكندرية من ٤٨٢٤ عام ١٨٤٨ (٥٪ من سكان المدينة) إلى ٤٢,٨٨٤ عام ١٨٧٨ (نحو ربع سكان المدينة)[٥٢] . وفي عام ١٨٧٣ تضمن دليل موراي قائمة بالقنصليات ، ومكاتب البريد الأوربية والمحلية ، ومكاتب البرق ، والبنوك ، والمقاهي ، والمطاعم ، ومحلات بيع الكتب ، والمصورين ، والصيدليات ، والأطباء ، وأطباء الأسنان ، والترزية ، وتجار المواد التموينية ، والجواهرجية ، والحلاقين ، بالقاهرة والإسكندرية . كذلك تضمن الدليل كنائس الروم الكاثوليك ، والإنجيليين ، والبرسبتاريين الأسكتلنديين والأمريكان ، واللوثريين ، والبروتستانت الفرنسيين ، واليونان الارثوذكس ، واليونان الكاثوليك ، والموارنة ، والأرمن ، والمعابد اليهودية بالمدينتين . وكان دليل ويلكنسون في الأربعينات قد أوصى السائح بأن يحضر معه « الأشياء اللازمة لرحلته بمصر » لأنه يصعب الحصول عليها بالبلاد . وفي العام ١٨٧٣ ، كان كل ما يلزم السائح من أغراض متوفراً بالقاهرة والإسكندرية ، رغم أن الأسعار لم تكن دائماً مناسبة . وفي دليل بايدكر عام ١٨٩٥ ، لم يجد صاحبه أن هناك ما يدعو للإبقاء على تلك القوائم[٥٣] .

وفي العام ١٨٧٣ ، قدرت إيمليا إدواردز أنه من بين كل « دهبية » راسية بالأقصر ، كان البريطانيون يشغلون ١٢ والأمريكان ٩ والألمان ٢ ، وشغل الفرنسيون والبلچيك واحدة لكل[٥٤] . وقد بيّنا في ملاحق هذا الكتاب (الجدول ٧) توزيع السياح حسب الجنسيات وفق ما أورده مؤلفو كتب الدليل السياحي لمصر ، (الجدول ٨) يبين الأوربيين المقيمين بمصر تمتعوا بحماية دولهم ، (الجدول ٩) يلخص المادة

الواردة فى الجداول من ٦ – ٨ . فقد كانت هناك علاقة بين حجم الجالية المقيمة بمصر من أبناء البلد الأوروبى ومكانها فى مجال السياحة . ولم يكن لليونانيين وجود كسياح ، ولكن كانت لهم أكبر جالية فى مصر . ولم يصدر سوى دليل سياحى واحد بالإيطالية ، رغم أن الجالية الإيطالية بمصر تحتل الموقع الثانى من حيث الحجم ، بينما فاق البريطانيون – الذين احتلت جاليتهم المركز الثالث من حيث الحجم – غيرهم فى عدد كتب الدليل السياحى ، وفى السياح حتى تفوق عليهم الأمريكان فيما بعد .

وترجع هذه العلاقة العكسية بين حجم الجاليات الأوربية المقيمة فى مصر ، ونصيب بلادها من حركة السياحة ، ترجع إلى سرعة تطور بريطانيا والولايات المتحدة على طريق الصناعة ، وما صاحب ذلك من اتساع حجم الطبقة الوسطى التى توفر لها الرخاء المادى الذى يتيح لها فرصة السفر والسياحة . أما اليونان وإيطاليا (وخاصة فى الجنوب) فقد كان حظهما من الصناعة قليل ، فكانتا مستوردتين للسياح ومصدرتين للأيدى العاملة .

كتب ثيوفيل جوتييه عام ١٨٤٠ « الإنجليز فى كل مكان ما عدا لندن ، التى لا تجد فيها إلا الإيطاليين والبولنديين » (٥٥) . ولعل بعض من كان يفتقدهم من سكان لندن توجهوا إلى مصر لقضاء جانب من فصل الشتاء هناك ، وحيث كان السياح البريطانيون منتشرين فى كل مكان بأعداد كبيرة . وربما زاد عدد السياح الأمريكان على عدد البريطانيين فى عقد الثمانينات ، عندما احتل الأمريكان المقدمة فى عدد كتب الرحلات التى نشرت عن مصر بالإنجليزية . وعلى كلٍّ فقد كان عدد الأمريكان المقيمين فى مصر عام ١٩٠٧ لا يتجاوز ٥٢١ فرداً .

ورغم طول المدى الزمنى للروابط الفرنسية – المصرية ، نشر البريطانيون من كتب الرحلات وكتب الدليل السياحى ما فاق ما نشره الفرنسيون ، ولم يزد عدد كتب الرحلات الفرنسية عن مصر على عدد ما نشر بالإنجليزية إلا فى الستينات التى شهدت عصر ديلسبس ونابليون الثالث وولع الخديو إسماعيل بالثقافة الفرنسية .

لقد تدفق الأمريكان عبر الأطلنطى بعد انتهاء الحرب الأهلية التى شغلتهم طويلاً ، تماماً كما فعل الإنجليز عندما عبروا القنال الإنجليزى بعد ووترلو (٥٦) . وارتفع عدد

كتب الرحلات الأمريكية التى كتبت عن مصر ، ولكن لم ينشر دليل سياحى أمريكى لمصر قبل الحرب العالمية الأولى (٥٧) . ويبدو أن السياح الأمريكيين اكتفوا بما كان ينشره موراى وكوك وبايدكر .

وبدأ الألمان ينشرون العديد من كتب الرحلات عن مصر فى عقد الأربعينات ، ورغم أن الألمان لم يواكبوا العدد المتزايد من كتب الرحلات التى نشرها الأمريكيون بعد الحرب الأهلية ، ولكن كتب الدليل السياحى الألمانية عكست الاهتمام بالعالم الخارجى بعد توحيد ألمانيا عام ١٨٧١ .

كتب چورچ ستيفنس عام ١٨٩٨ يقول : « حقق البريطانيون والأمريكان الغلبة فى هذا الميدان ، ولكن اللافت للنظر بروز الألمان فى هذا المجال . فمنذ عشر سنوات كنت تستطيع القول أنه لم يتوفر لديهم المال ولا الخبرة للسفر إلى أبعد من نابولى ، واليوم تراهم فى كل مكان . لقد استمعنا إلى صوت أغنية قادمة من باخرة من بعيد ، فإذا هى ألمانية » (٥٨) . ومثل دليل بايدكر السياحى عن مصر بالإنجليزية أحد قنوات التأثير الألمانى .

القراءات والأماكن الموصى بها :

لعل ويلكنسون كان حسن الظن بقرائه عندما اقترح عليهم أن يحملوا معهم مجموعة من الكتب لهيرودوت.وغيره من المؤلفين القدامى (الكلاسيكيين) ، وشامبليون ، وكتب الرحالة الذين زاروا مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكتاب لين عن المصريين المحدثين ، وكتاب ويلكنسون - نفسه - عن قدماء المصريين ، وقد أصبح ذكر قائمة القراءات التى يوصى السائح بقراءتها نموذجًا يحتذى به فى كتب الدليل السياحى الصادرة عن موراى وبايدكر .

وأوصى ويلكنسون السائح أن يحمل معه سدسية (آلة لقياس الأجرام السماوية) ، وأفق صناعى ، وكرونومتر (لقياس الزمن) ، وسحَّارة ، وبارومتر (لقياس الضغط الجوى) ، وترمومتر (لقياس درجة الحرارة) ، ومقياس مترى (٥٩) . وتذكَّرنا هذه

الوصية بطريقة الرجال الهواة من خارج الجامعات - مثل لايل ، وداروِن ، ولين ، ويلكنسون ذاته - فى إجراء معظم بحوثهم فى العصر الڤيكتورى . وقد تضمن دليل ويلكنسون / موراى (من الأربعينات حتى السبعينات) قائمة « بنقاط معينة فى حاجة إلى فحص » تعبيراً عن فن السفر ، فالذين أوقفوا حياتهم على القيام برحلات ، قاموا بذلك طلبًا للحقائق أكثر من سعيهم للشهرة أو المنفعة ، أو التسلية ، أو التعلم أو جمع الآثار ، أو الاستعداد لاحتراف مهنة . وقد أورد كتاب ليوپولد برشتولد « مقال فى توجيه اتجاه وتحديد مجال استطلاع الرحالة الوطنيين » (نشر ١٧٨٩) أسئلة على الرحالة أن يبحث عن إجابة لها ، بلغ عددها ٢٤٤٣ سؤالاً ، ولعله كان آخر كتاب من نوعه (٦٠) .

واقترح دليل ويلكنسون / موراى على القارئ التنقيب عن الآثار فى عين شمس ، وعند أبى الهول بالجيزة ، وفى مدينة سايس بالدلتا ، وأن يقوموا بنسخ السقوف الفلكية بوادى الملوك ، وكل الرموز والكتابة الهيروغليفية فى مقبرة واحدة ، والنقوش على الأعمدة التسعة والسبعين بمعبد إدفو ، وأسماء الملوك وتماثيلهم فى « أثيوبيا العليا » . وحث الدليل القراء على البحث عن النقوش المثلثة على الأحجار التى أعيد استخدامها فى مساجد القاهرة ، والأقواس المدببة التى ترجع إلى مطلع العصر الإسلامى فى أسوان ، وموقع المستعمرة اليونانية فى نوكواتيس ، وموقع الإسكندرية القديمة ، وتبدو هذه المقترحات بالغة الغرابة الآن ، لأن السائح ، وعالم الآثار يسير كل منهم اليوم فى طريق منفصل عن الآخر ، وعند العام ١٨٧٣ ، أقر دليل موراى بوضوح أن قائمة توصياته التى حذفت معظمها بتلك الطبعة كانت تمثل نوعًا من المفارقة التاريخية ، لأن « مارييت وغيره قد أجابوا بالفعل عن الكثير مما ورد بقائمة الأسئلة التقليدية ، وأن الآثار المصرية قد وضعها الخديو فى متحف وجعل مارييت مسئولاً عنه ، كما لم يعد مسموحًا لأى فرد ، أن ينقب عن الآثار فى أى مكان يشاء دون الحصول على ترخيص بذلك ، كما أصبح تصدير الآثار للخارج محظوراً » (٦١) . واختفت القائمة تمامًا من طبعة ١٨٨٠ .

من بلد الأوبئة إلى منتجع صحى :

كان المرضى من البريطانيين يهربون من الشتاء القارس فى بلادهم إلى البحر المتوسط طلبًا للشفاء ، عندما مات كينس بروما فى عام ١٨٢١ . وبعد ذلك بأربع سنوات ، ترك إدوارد لين عمله فى مجال النقش متجهًا إلى مصر لأسباب صحية . ولكن الأوربيين – أيضًا – يذكرون مصر باعتبارها بلاد الطاعون الذي يرد ذكره بالكتاب المقدس ، وقد قضى بوركهارت نحبه بمصر عام ١٨١٧ بسبب الدوسنطاريا ، كما أن زوجة سولت ، والناشر الذى كان ويلكنسون يعتزم نشر دليله عنده ، ماتا بالطاعون . وقد ذكر كينجليك فى كتابه « إيوثن » أن كل من التقاه بالقاهرة تقريبًا فى العام ١٨٣٥ حصده الطاعون (٦٢) . وقضت الكوليرا على ابن صامويل شيبرد الطفل ، وعلى زوجة ماربيت . (لأسباب مجهولة) ، أقيمت المحاجر الصحية فى مارسليا ، وليجورن وچنوا والبندقية ، كما أقيم نطاقٌ على الحدود الشرقية لإمبراطورية الهابسبورج لمنع دخول الوباء الذى كان متفشيًا فى الشرق الأوسط . ولم يتم اكتشاف انتقال ميكروب الطاعون عن طريق براغيث الفئران إلا فى العام ١٨٩٨ . وخصص ويلكنسون تسع صفحات من دليله للحديث عن إجراءات الحجر الصحى بجزيرة مالطا التى استغرقت ما بين ١٩ و ٢٤ يومًا يقضيها المسافر إلى أوروبا(٦٣) . وكانت الطرق البحرية المباشرة بين الإسكندرية وإنجلترا تتمتع بميزة قضاء فترة الحجر الصحى خلال الرحلة .

وعكست المحاجر الصحية الاعتقاد الذى ساد عند الأوربيين – فى القرن السابع عشر – أن الطاعون مرض معد . وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قدم معارضو هذه الفكرة تحديًا عمليًا لها ، إذ قام كلوت بك– الطبيب الفرنسى الذى تولى نظارة مدرسة الطب فى عهد محمد على – بحقن نفسه بدم أحد ضحايا الطاعون ثلاث مرات ليقيم الدليل على أن الطاعون غير معد . وفى شمالى أوروبا ، ساعدت الثورتين التجارية والصناعية على ترجيح كفة انعدام العدوى بالطاعون . فقد أشار الدكتور چون باورنج فى تقريره عن مصر وكريت عام ١٨٤٠ إلى ما تتعرض له التجارة من تكلفة طائلة بسبب الحجر الصحى الذى يتعرض له المسافرون والتجار . وساند أنصار التجارة

الحرة بمدرسة مانشستر القائلين بانعدام العدوى الذين كانوا ينصحون بالتخلص من النفايات بطريقة صحية ، وتجديد الهواء ، والاهتمام بالسكن ، وتقويم العادات .

وعلى كل ، أدرك الإيطاليون بحكم الخبرة أن الأوبئة تصل بحراً وتنتشر براً ، وأقام الأطباء الإيطاليون محاجر جديدة بالإسكندرية وبلاد الشام فى الثلاثينات ، وكانت فرنسا - التى لها شواطىء على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى - منقسمة حول هذه القضية . وكان حلم ديليسبس الكبير بشق القنوات لخدمة التجارة الدولية قد قربه من أفكار كلوت بك .

وعلى أية حال ، اختفى الطاعون من مصر بعد العام ١٨٤٤ بصورة غامضة . ولكن دليل ويلكنسون / موراى عام ١٨٤٧ ، كان لا يزال يذكر بالتفصيل إجراءات الحجر الصحى بجزيرة مالطا وميناء مارسيليا وفى إيطاليا التى تم إغلاقها بعد ذلك بقليل . وفى دليل موراى عام ١٨٥٨ ورد ذكر الطاعون باعتباره « وباء سابق » [٦٤] .

وقبل أن ينحسر الطاعون ، لعبت البواخر والخطوط الحديدية دوراً مهما فى نقل الكوليرا من موطنها بالبنغال إلى أقطار بعيدة . وساعدت شبكة الرى - التى شهدت توسعاً فى مصر - على نقل هذا الوباء الذى ينتقل عن طريق الماء . وقد حمل الحجاج الوباء معهم من الحجاز إلى مصر عام ١٨٣١ ، وذلك الوباء الذى استمر معهم حتى ١٨٣٧ ، ثم انتقل إلى أوروبا وأمريكا . وقد أصاب وباء الكوليرا مصر ١١ مرة فيما بين ١٨٣١ - ١٩٠٢ . وجلب الحجاج الهنود الوباء معهم إلى مكة ١٨٦٥ ، وانتقل إلى الحجاج المصريين الذين أدى استخدامهم للخط الحديدى السويس - القاهرة - الإسكندرية فى رحلة العودة إلى انتشار الوباء بسرعة فى جميع أنحاء البلاد . وقد نجح عالم البكتريولوچى الألمانى روبرت كوخ فى تتبع ميكروب الكوليرا فى مصر خلال وباء ١٨٨٣ واستطاع أن يضع يده عليه بالهند فى العام التالى [٦٥].

وأدى وباء الكوليرا (١٨٣١ - ١٨٣٢) إلى تكليف محمد على للقناصل بتشكيل مجلس للصحة ومحجر بالإسكندرية تحت إدارة طبيب إيطالى . ودفع وباء (١٨٤٦ - ١٨٥٠) الأوربيين والعثمانيين والمصريين إلى إرسال مندوبين إلى أول مؤتمر صحى دولى عقد بباريس عام ١٨٥١ ، وعقد المؤتمر الدولى الصحى الثانى باستانبول عام ١٨٦٦ .

وتبع ذلك وقوع وباء كوليرا آخر أدى إلى وضع نظام حجر صحى دولى على الساحل المصرى للبحر الأحمر (٦٦) .

ورغم العودة الدورية للكوليرا ، أدى اختفاء الطاعون إلى تمهيد الطريق لكى تصبح مصر منتجعًا للأوربيين ، ففى العام ١٨٥٩ نشر ريل كتابًا بالألمانية بعنوان « مصر منتجعٌ للمرضى فى فصل الشتاء » ، وجاءت لوسى دف جوردون عام ١٨٦٢ لتستشفى فى مصر من مرض السل ، لتنشر الدعاية لجو مصر الشتوى الصحى ، قبل أن يتغلب عليها المرض بعد ذلك بسبع سنوات (٦٧) .

وأوصى دليل موراى عام ١٨٧٣ بزيارة مصر ، « مرضى السل الرئوى ، والربو الشعبى ، وحالات التهاب المفاصل المزمنة ، وانتفاخ أمعاء البطن ، والإرهاق العصبى ، وقصور الدورة الدموية نتيجة حالة مرضية متقدمة بالقلب . . . والأمراض السرية بمختلف أنواعها ، وتضم الغدة » (٦٨) .

وبحلول عام ١٨٥٨ ، اجتذبت عيون حلوان الكبريتية الأتراك والأوربيين الذين ينشدون الاستشفاء من أمراضهم ، وعند نهاية القرن أنشئ فندق ميناهاوس بالهرم وكذلك فنادق الأقصر وأسوان كمنتجعات صحية بكل منها أطباء وممرضات مقيمون من الأوربيين (٦٩) .

الاتجاه إلى الصعيد - الدهبية ، الباخرة ، القطار :

حققت السياحة فى الصعيد تقدمًا على ثلاثة مراحل خلال القرن التاسع عشر ، ارتبطت كل واحدة منها بوسيلة نقل معينة هى : الدهبية ، والباخرة ، والقطار ، وكان الإبحار إلى الصعيد بالدهبية بطيئًا ، مكلفًا ، قاصرًا على السياح الأثرياء ، ففى ١٨٥٨ كان إيجار الدهبية الكبيرة لثلاثة أو أربعة مسافرين ، بمقصورتين ، أو ثلاث مقصورات مجهزة ، وحمام ، يتراوح بين ٥٠ - ٧٩ جنيهًا إسترلينيًا شهريًا . أما الدهبية المتوسطة الحجم التى يعمل بها طاقم من عشرة أفراد (من بينهم طباخ وترجمان) ، فكانت تحمل شخصين من السياح إلى الشلال الثانى ذهابًا وإيابًا بتكلفة

قدرها ٢٠٠ جنيهًا لمدة شهرين . وكانت الرحلة من القاهرة إلى الأقصر والعودة تستغرق أربعين يومًا وتكلف ١١٠ جنيهًا ، أما الرحلة إلى أسوان ذهابًا وإيابًا فتستغرق خمسين يومًا ، وتكلف ١٥٠ جنيهًا . وكان جدول زيارة الأقصر يتضمن التوقف لمدة عشرة أيام لزيارة الآثار ، ولكن إذا هبت ريح معاكسة ، فقد يؤدى ذلك إلى إطالة زمن الرحلة كثيرًا (٧٠) .

وقد أوصى دليل ويلكنسون للعام ١٨٤٣ بضرورة غمر المركب المستأجر بالماء تمامًا ثم تفريغه قبل القيام بالرحلة لتخليصه من الفئران والحشرات ، ونصح السائح بأن يحمل معه مصيدة فئران حديدية ، وقفص من الدجاج ، وبقسماط ، لأن الخبز لا يتوفر فى القرى على الطريق . وقدم للقارئ نموذجًا لعقد استئجار الدهبية الذى يجب أن يبرم فى القنصلية (٧١) .

وفى عام ١٨٥٨ ، أصبحت الباخرة بديلاً للدهبية ، ولكنها لا تقوم برحلة القاهرة – أسوان والعودة التى تستغرق عشرين يومًا إلا إذا توفر عدد كاف من السياح الراغبين فى السفر . وكانت التكلفة الإجمالى للرحلة للفرد عشرون جنيهًا ، وعشرة جنيهات للخادم المرافق لسيده . وبحلول عام ١٨٧٣ ، أصبحت رحلات البواخر تسير بانتظام طوال الموسم السياحى . وأدى استخدام البواخر فى رحلات الصعيد إلى خفض زمن الرحلة إلى النصف أو حتى الثلث ، وحررت السياح من الخضوع لحركة الرياح ، وأدخلت نظام الجداول الزمنية الذى اقترن بعصر الصناعة (٧٢) .

وعند العام ١٩٠٠ ، كان القطار قد اختصر زمن الرحلة إلى الصعيد وتكلفتها اختصارًا كبيرًا . فبعد أن وصل الخط الحديدى إلى المنيا عام ١٨٦٧ وإلى أسيوط عام ١٨٧٤ توقف مد الخطوط الحديدية جنوبًا مدة عقدين من الزمان ، ورغم أن الهدف من الخط هو توفير وسيلة نقل للسكر المنتج هناك ، فإن السياح كان باستطاعتهم السفر بالقطار حتى أسيوط ، حيث يستأجرون دهبية أو باخرة لإكمال الرحلة جنوبًا ، والعودة إلى أسيوط لمتابعة السفر إلى القاهرة بالقطار ، وأدت حملة استرداد السودان بقيادة كتشنر إلى مد الخط الحديدى إلى أسوان عام ١٨٩٨ – وأصبح باستطاعة السائح أن يتجه بالباخرة من أسوان إلى وادى حلفا حيث مد كتشنر خطًا حديدًا من أبو حمد إلى

الخرطوم [٧٣] . وفى عام ١٩٠٨ كان رحلة القطار بعربات النوم تستغرق ١٤ ساعة من القاهرة إلى الأقصر ، تضاف إليها ست ساعات ونصف للوصول إلى أسوان ، وبذلك أمكن ضغط الرحلة السياحية القاهرة - الأقصر لتستغرق بضعة أيام [٧٤] . وبذلك اختصر القطار زمن الرحلة بالباخرة إلى النصف أو الثلث ، تماماً كما فعلت الباخرة مع الدهبية من قبل . وانقرضت سياحة الدهبية ، أما الباخرة التى عانت من مشكلة الوقت والتكلفة فقد ظل استخدامها دليلاً على الفخامة والمتعة مقارنة بالقطار .

وفى نفس الوقت ، صحب البرق الكهربى (التلغراف) الخطوط الحديدية فى العالم كله ، وتجاوزها أحياناً إلى أصقاع لا تصل إليها . وقد ربط أول خط دولى للبرق بين بريطانيا وفرنسا عام ١٨٥١ فى وقت معاصر للمعرض الكبير ، وفتح خط البرق بين كلكتا وبومباى عام ١٨٥٤ مما ساعد البريطانيين على قمع « التمرد » بعد ذلك بثلاث سنوات ، ولكن أخبار الثورة لم تصل إلى لندن إلا بعد أربعين يوماً . وقد مدت العديد من الكابلات لربط لندن بالهند عبر الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٦٥ ، وذلك قبل عام من مد الكابل البحرى عبر الأطلنطى بنجاح ، وخلال أزمة فاشودة عام ١٨٩٨ ، كان كتشنر على اتصال دائم بلندن بفضل خط البرق أم درمان - القاهرة ، أما غريمه چان باتست مارشان فقد كان محروماً من تلك الميزة معزولاً عن باريس [٧٥] .

وفى عام ١٨٨٠ ، كانت رحلة الباخرة العادية التى تحمل ما بين ٢٥ - ٣٠ سائحاً ، معهم طبيب وترجمان ، تتوقف ثلاثة أيام فى الأقصر ويوم واحد فى أسوان . وفى ١٨٧٣ عقد دليل موراى مقارنة بين متعة الرحلة بالدهبية والرحلة بالباخرة الأرخص سعراً ، على النحو التالى :

« باستطاعة من يريدون زيارة مصر فى أقصر وقت ممكن . . . التوجه من لندن إلى الشلال الثانى والعودة فى ستة أسابيع . . . إن السفر بالقارب الخاص بك يجعلك سيد نفسك ، لأنه إلى جانب وجودك وسط مجموعة من الناس الذين لا تعرفهم ، فإن عليك أن تفعل كل شىء فى وقت محدد ، ولا يترك لك إلا وقت معلوم من الساعات أو الدقائق لزيارة المواقع الأثرية . إن الميزة الوحيدة للباخرة هى اقتصاد الوقت والمال . . . أما كل من لديهم الوقت والمال فنقول لهم : اختر الدهبية ، وإياك والباخرة » .

وكتب جابرييل شارمز : « طالما كنت محشوراً على ظهر باخرة مع مائة من الإنجليز رجالاً ونساءً ، علينا أن نغادر الباخرة معًا فى كل مكان نتوقف فيه ، ونصعد معًا فى وقت واحد ، ولا تتاح لنا رؤية الأثر الذى يعجبنا سوى دقائق معدودات ، وشعورنا بأننا جميعًا نمثل شحنة واحدة ، لم يجعلنى أشعر بالرضا لحظة واحدة » (٧٦) .

وعلى حين عبَّر الدليل السياحى لموراى عن تقديره للرحلة بالباخرة ، يفترض دليل بايدكر عام ١٩٠٨ أن « السائح العادى » قد يستخدم الباخرة أو القطار - أما السياح الذين لا يحسبون للوقت والمال حسابًا ، فإن استئجار الدهبية يبدو ممتعًا . كان توماس كوك - عندئذ - قد توسع فى سوق النقل السياحى الفاخر بامتلاك سبع بواخر و ١٣ دهبية شراعية ، وكانت الدهبية « نيتوكريس » أرقاها من حيث الفخامة تؤجر شهريًا بمبلغ ٤٠٠ جنيهًا إسترلينيًا لأربعة أفراد ، وبذلك يتكلف الفرد ضعف ما يكلفه السفر فى رحلة بالباخرة : القاهرة - أسوان والعودة لمدة عشرين يومًا ، إذ كانت الأجرة للفرد ٥٠ جنيهًا (٧٧) .

وقد أدى استخدام الدهبيات والبواخر كأماكن للإقامة ، أدى إلى تأخير الطلب على الفنادق السياحية بالأقصر وأسوان . وأوصت الطبعات الأولى من دليل ويلكنسون السائح بأن يحمل فراشًا معه ، ومقشة ليكنس الأرض عند مقابر الجيزة والإيوان الأول بالكرنك حتى يجهز مكانا لفراشه . ولكن اللورد ليندساى لاحظ فى ١٨٣٦ - ١٨٣٧ - أن « ما يمنع النساء الإنجليزيات من قضاء الشتاء فى طيبة كما يفعلن الآن فى باريس وروما ، هو عدم وجود فندق فى مدينة سيزوستريس ، ولو أقيم فندق هناك لحقق أرباحًا كبيرة »(٧٨) . وفى عام ١٨٧٧ أقدم توماس كوك على خطوة جديدة فافتتح « فندق الأقصر » - الذى امتلكته شركته - وذلك بدلاً من تزويد السياح بقسائم للإقامة فى الفنادق الأخرى هناك . وفيما بعد ، باعت الشركة الفندق لمديره پانون الذى كون إمبراطورية خاصة به فى مجال الفندقة شملت « جراند هوتيل » و « كتراكت هوتيل » بأسوان ، وكذلك فندق « ونتر پالاس بالأقصر » (٧٩) .

الرسم وقصص الرحالة ، والصور، وبطاقات البريد :

تفقد السياحة الخارجية نصف متعتها ، ما لم تتح للأهل فى الوطن فرصة التعرف على ما حققه السائح فى رحلته ، فيرمقونه بالإعجاب والحسد معاً . وكان سياح العصر الڤيكتورى من البريطانيين ينقلون تجاربهم إلى الأهل من خلال ما كانوا يرسلونه من خطابات ، وكتب الرحلات ، والكتب العلمية ، والرسم ، والصور الفوتغرافية ، وبطاقات البريد .

لقد دفعت أحلام الاستشراق الرومانسية بالكثير من الرحالة صوب الشرق ، كان الكثير منهم ينشد التخلص من قبح المدن الصناعية فى بلادهم ، ولكن الثروة والقوة التى حققتها الثورة الصناعية هى التى أتاحت لشرائح واسعة من الطبقة الوسطى القدرة على السفر . وكان باستطاعة الأرستقراط الذين يبحثون عن « البدو المتوحشين النبلاء » أن يتصوروا أن الزمن قد عاد بهم إلى الوراء إلى مجتمع يختلف نظامه الفطرى عن نظامهم « الأفضل » .

أما زبائن سياحة الشرق ، فكانوا ينشدون اقتفاء آثار الأبطال الحقيقين أو الخياليين ، فنشر چون موراى الثانى أعمال بايرون ، ووالتر سكوت ، ونشر چون موراى الثالث كتب الدليل السياحى التى أوردت اقتباسات من تلك الأعمال الرومانسية [٨٠] ، « كان كل رجل إنجليزى يحمل دليل موراى ليستقى منه المعلومات ، وبايرون ليتزود منه بشحنة عاطفية ، وعن طريقهما يهتدى إلى ما يجب أن يعرفه ويحسه فى كل خطوة يخطوها » [٨١] . ورغم أن شيلى لم يتجاوز حدود إيطاليا إلا أننا لا يمكن أن ننسى السطور التى كتبها عن مصر : « التقيت مسافراً من بلاد عتيقة . . . اسمى أوزيما ندياس ملك الملوك ، انظر إلى أعمالى ، يا صاحب العظمة ، والبأس » ، وأضافت زيارات ألكسندر كينجليك ، ووليم ثاكيراى ، وأنتونى ترولوب لمصر إضافات إلى أدب الرحلات المصرية ، تماماً كما فعل الكتاب الفرنسيون : شاتوبريان ، والفونس – مارى – لوى دى لامارتان ، وجيرار دى نرڤال ، وفلوبير ، وبتوفيل جوتييه . وانفرد من بين الكتاب الأمريكان : هيرمان ملڤيل ، ومارك توين ، ورالف والدو إمرسون ، بمد نطاق رحلاتهم الأوربية لتستوعب مصر .

ولما كانت كتب الدليل السياحي ، وكتيبات المتخصصين قد توزعت بين وظيفة قصص الرحلات ذات الطابع الخيالي ، ووصف الآثار ، فقد تحرر أدب الرحلات - أو أجبر على التحرر - ليتخذ لنفسه وجهات جديدة . فقد خرج كتاب ألكسندر كينجليك (Euthen) الذي نشر عام ١٨٤٤ على التقليد الوصفي لكتب الرحلات ، حيث عبر عن عدم اهتمامه « بالخرائب » الأثرية التي لا نرى لها وجوداً عنده (٨٢) . وابتدع جيرار دي نرفال الرحلة الشرقية الممتعة مركزاً على القاهرة ، متجاهلاً آثار الصعيد ، مبرراً ذلك بقوله : « إن عادات المدن الحية أكثر اجتذاباً للمراقب من خرائب المدن الميتة » (٨٣) . وعبر فلوبير عن مخاوف سائح متأخر عندما كتب لصديقه جوتييه : « عليك بالإسراع ، فلم يمر وقت طويل حتى يختفي الشرق من الوجود ، ولعلنا نكون آخر المستمتعين به » (٨٤) .

وعبر وليم ثوكيراي ومارك توين عن لوعة الحاج الورع عند المشاهد التي لابد أن يراها ، فقد ركبت المجموعة السياحية التي ضمت ثاكيراي القارب البخاري في رحلة نيلية ، وما كادت تبدو لهم الأهرام « حتى حاول بعضنا أن يعبر عن انبهاره ، ولكن بدأت خدمة الإفطار فاندفع الجميع نحو القهوة والفطائر . . . ثم نظرت الى جاري عساه أن يكون أكثر تحمساً مني ، ولكن خريج كلية ترنتي بجامعة اكسفورد كان مشغولاً باللحوم الباردة ، والسياسي البريطاني كان مهتماً بعناقيد العنب . . . والحقيقة أن أحداً منهم لم يتأثر بمشاهدة منظر الأهرام » (٨٥) . وما يورده ثاكيراي وتوين عن مشهد الأهرام يوكد أن الاختلاط بالناس تجاوز الاهتمام بالآثار ذاتها .

أما من كانت لهم موهبة الرسم ، فقد حملوا معهم إلى بلادهن لوحات ظلت موضوعاً للدراسة لزمن طويل ، من حيث موضوعها وليس أسلوبها ، وتحديد نوعها : الكلاسيكية الجديدة ، والرومانسية ، والواقعية ، والانطباعية ، وما بعد الانطباعية ، وغيرها ، فقد جرت أيدي هؤلاء برسم « الشرق » . وكان بعضهم لم يزر أي من بلاده ، وبعضهم الآخر - مثل يوجين ديلاكروا - زار بلاداً كثيرة ليس من بينها مصر . ومن بين رسامي الشرق الذين استمدوا إلهامهم من مصر : برز البريطانيان داڤيد روبرتس ، وچون فردريك ، والفرنسيان چيروم ، ويوچين فورمانتان . وقد استخدمت ليندا نوكلين منهج إدوارد سعيد في تحليل الرسم الاستشراقي ولكن چون ماكنزي يحذر من التوسع في إدانة الفنانين المستشرقين (٨٦) .

وبعد منتصف القرن التاسع عشر ، بدأ التصوير الفوتغرافي يتحدى الرسم كوسيلة من وسائل نقل المشاهد التي يراها السائح إلى الوطن . وعندما أعلن لوى داجير في باريس عام ١٨٣٩ عن طريقته لالتقاط الصور على ألواح نحاسية مكسوة بالفضة ، وردت مصر على الفور في ذهن العلماء : « لو كانت لدينا هذه الطريقة عام ١٧٩٨ ، لكنا نضع أيدينا اليوم على سجلات مصورة دقيقة مما حرم منه الوسط العلمي العالمي نتيجة طمع العرب وعدوان بعض السياح . . . ولاستطعنا أن نصور الملايين من النصوص الهيروغليفية التي تغطي فقط واجهات المعابد في طيبة ومنف والكرنك التي يحتاج تسجيلها إلى عشرين عاماً ومجموعات عديدة من الرسامين ، وهو عمل يستطيع القيام به الآن رجل واحد . . . وسوف تتفوق الصور الجديدة والألوان المحلية على عمل أكثر الفنانين مهارة » [٨٧] .

وفي خريف نفس العام (١٨٣٩) جاء إلى مصر فردريك جروبل فسكوبه ويصحبته رسامه هوراسفينيه ، وانضم فسكوبه إلى السويسرى بيير چولى ديلو بتنييه حيث قاما باستخدام طريقة داجير في التقاط الصور الفوتغرافية بمصر وفلسطين ، ونتج عن ذلك نسخة موجبة محفورة . ونشر نيقولا ليريبور كتاب « رحلات مصورة بطريقة داجير (١٨٤٠ - ١٨٤٤) » ، واعتمد هيكتور - هورو في كتابه « بانوراما مصر والنوبة » (١٨٤١) على مصورات چولى بطريقة داجير .

كما أعلن عام ١٨٣٩ - أيضًا - عن الطبع الحرارى الذى أنتج عدة نسخ موجبة من ورق سالب مبلل ، أمام « الجمعية الملكية » بلندن . وأوفدت الحكومة الفرنسية - فيما بعد - ماكسيم دى كامب الذى قام برحلة بصحبة صديقه جوستاف فلوبير لالتقاط صور حرارية نشرها عام ١٨٥٢ في كتابه « مصر والنوبة وفلسطين وسوريا » . وقدم المصور الحرارى فيلكس تينار كتابه « مصر والنوبة » (١٨٥٤ - ١٨٥٨) باعتباره تحية فوتغرافية لكتاب « وصف مصر » .

وأدى اختراع عملية الكولوديون المبلل على الزجاج (عام ١٨٥١) إلى تشجيع المحترفين على إنتاج صور فورتوغرافية في متناول القدرة الشرائية لأبناء الطبقة الوسطى ، واستخدم فرانسس فربث هذه الطريقة الجديدة في ثلاث رحلات قام بها إلى

الصعيد فى أواخر الخمسينات . وفى عام ١٨٦٢ ، اصطحب ولى عهد انجلترا - أمير ويلز - معه فى رحلته النيلية المصور فرانسس بيدفورد ، وافتتح أنطونيو بيتو ستوديو بالأقصر لبيع الصور للسياح ، وبدأت عائلة بونفيل بيع الصور المصرية عام ١٨٧٠ . ولم يرد بدليل موراى عام ١٨٥٨ أى ذكر لمصورين أو محلات لبيع الكتب بمصر ، ولكن طبعة عام ١٨٧٣ تذكر أوتو شوفت وهيبوليت دى ليل كمصورين بالقاهرة ، وتزكى شركة پاسكال سيبا ومحلين لآخرين لبيع الكتب باعتبارها أماكن لتوزيع مطبوعات فريت .

وجلبت التسعينات معها بطاقة البريد التى تباع ببنس واحد بعد أن كانت تباع بشلن واحد ، كما جلبت آلة تصوير كوداك المحمولة باليد وأفلامها الحرارية ، وأصبح باستطاعة أى هاو يحمل تلك الآلة أن يلتقط صوراً ، يحمضها ويطبعها فيما بعد عودته لبلاده [٨٨] .

وقد تعددت استخدامات التصوير الفوتوغرافى - بالطبع - خارج مجال صناعة السياحة . وقبل نهاية القرن بسنوات ، بدأ علماء المصريات والآثار فى استخدامه فى عملهم ، وأصبح التصوير الفوتوغرافى أداة أساسية للتنقيب العلمى عن الآثار فى أوائل القرن العشرين .

صناعة السياحة ، توماس كوك وولده :

« السلطان صاحب السيادة الاسمية على مصر ، أما السيادة الحقيقية فللورد كرومر ، والخديو هو الحاكم الاسمى للبلاد ، أما حاكمها الحقيقى فى نهاية الأوبرا الهزلية فهو توماس كوك وولده »

(اقتباس من ستيفنس ، أورده چون پادنى فى كتابه : توماس وولده)

جاء مولد چون موراى الثالث ، وتوماس كوك (١٨٠٨ - ١٨٩٢) فى العام ١٨٠٨ ، ليجعل من ذلك العام عاماً ميموناً بالنسبة لمستقبل السياحة [٨٩] . عاش كوك طفولة شقية صعبة ، ولم ينل سوى تعليماً عاماً محدوداً . وفى العام ١٨٤١ ، افتتح

مطبعة فى ليستر لطباعة بعض كتيبات النصائح الخلقية الدينية ، وقاد رحلته الأولى بالقطار لمجموعة من أصحاب ذلك الاتجاه الدينى لحضور سباق كان يجرى على بعد ١١ ميلاً من ليستر . وشهد نفس العام ظهور طبعة برادشو لجداول مواعيد القطارات وتأسيس شركات سوف يقدر لها أن تنمو لتصبح « شركة خط كونارد » ، وشركة الأمير كان إكسبريس (شركة ويلز فارجو) [٩٠] .

وحمل كوك عقيدته الإنجيلية المعمدانية معه إلى مجال السياحة محاولاً أن ينظم رحلات للتهذيب الخلقى تضم عملاء من مختلف الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى قدر الإمكان ، فنظم رحلة لعمال وسط إنجلترا لزيارة « المعرض الكبير » بلندن ١٨٥١ وبعد ذلك بأربع سنوات عبرت رحلاته القنال الإنجليزى لزيارة معرض باريس . وفى عام ١٨٦٤ قاد أول مجموعة سياحية عبر الألب إلى إيطاليا ، ونقل مقر نشاطه إلى « فليت ستريت » بلندن . وفى الستينات شملت رحلات كوك إلى سويسرا رجال دين ، وأطباء ، ومصرفيين ، وموظفين ، وتجار ، ورجال صناعة من ذوى الدخول المتوسطة التى تراوحت بين ٣٠٠ - ٦٠٠ جنيهًا فى العام . وما كادت الحرب الأهلية الأمريكية تضع أوزارها ، حتى شرع توماس كوك يستكشف السوق السياحية عبر الأطلنطى . وفى العام ١٨٦٩ نظَّم أول رحلة إلى مصر وفلسطين ، ضمَّنها مشاهدة حفلات افتتاح قناة السويس . وتبع بمجموعته من السياح أمير ويلز فى رحلته إلى الصعيد ، وذلك فى باخرتين قام بتأجيرهما لهذا الغرض . وباستكمال مد السكك الحديدية عبر أمريكا فى نفس العام ، ومد الخط الحديدى بومباى - كلكتا بعد ذلك بقليل هيأ الفرصة لكوك لتنظيم رحلة حول العالم فى ٢٢٢ يومًا عام ١٨٧٢ - ١٨٧٣ ، وربما كانت هذه الرحلة مصدر إلهام للكاتب الفرنسى چول ڤيرن ، الذى كان كتابه « حول العالم فى ثمانين يومًا » ينشر منجمًا على صفحات جريدة « الطان Temps » .

كانت الرحلات الطويلة فى القرن الثامن عشر قاصرة على الرجال وحدهم ، وضمت المجموعات فى رحلات توماس كوك العائلات ؛ معلنًا نفسه « وصيفة السفر للنساء اللاتى يفتقرن إلى الحماية » . (كانت المجموعة التى ورد ذكرها فى القصة القصيرة لأنتونى ترولوب « أنثى بلا حماية فى الأهرامات » قد وصلت قبل أن تصبح خدمات كوك متاحة بعدة سنوات) [٩١] . وقد أطلق دليل ويلكنسون تحذيرًا عام ١٨٤٣

« عندما تكون هناك نساء فى الرحلات النيلية ، لابد أن يرتدى المراكبية سراويل طويلة ، ويؤمرون بألا يخلعونها عند النزول فى الماء » . وقد صدمت مجموعة كوك الأولى فى الرحلة النيلية عندما شاهدوا رهبان أحد الأديرة يستحمون فى النيل عرايا ، وطلب من النساء أن يمكثن فى داخل الباخرة حتى يتم عبور تلك المنطقة » (٩٣) .

وبدأ چون ماسون كوك (١٨٣٤ - ١٨٩٩) مساعدة أبيه توماس فى عمله منذ صباه ، ولم يتجاوز فى تعليمه المرحلة الابتدائية ، وقد آمن چون بأن يكون العمل بالسياحة من أجلها وحدها دون أن يتضمن غرضًا دينيًا ، وقد اصطدم بوالده صدامًا عنيفًا ، وأجبره على التقاعد غير الرسمى عام ١٨٧٨ وأدى ذلك إلى إطلاق يد الشركة فى تنظيم رحلات للأثرياء والأرستقراطيين ، والأمراء من أعضاء الأسرة المالكة ، الذين كان يتندرون ويسخرون من مجموعات كوك التى ضمت محدودى الدخل . وفى العام ١٨٨٥ أقام كوك فرعًا للنشاط فى مجال مربح آخر هو فرع « الحج » لتنظيم رحلات الحج للهنود المسلمين إلى مكة .

وعلى صعيد السياحة البريطانية فى إقليم البحر المتوسط ، جاءت مصر فى المركز الثالث بعد فرنسا وإيطاليا - قياسًا بعدد طبعات كتب الدليل السياحى - ولكنها سبقت اليونان وفلسطين وإسبانيا والجزائر . وفى عام ١٨٥٨ كان دليل ويلكنسون / موراى يطبع للمرة الرابعة عندما أصدر موراى دليل فلسطين وسوريا . وعند قيام الحرب العالمية الأولى كان موراى وبايدكر معًا قد أصدرا إحدى عشرة طبعة من كتب الدليل السياحى عن اليونان ، واثنتا عشرة طبعة عن إسبانيا ولم ينشر كوك شيئًا . وأصدرت الشركات الثلاث معًا ١٦ طبعة عن فلسطين قبل الحرب ، وهى قليلة قياسًا بمصر التى صدر من كتب الدليل السياحى عنها ٢٥ طبعة ، وعن إيطاليا ١٠٦ طبعة (٩٣) .

وحققت رحلات كوك الشتوية فى شرقى المتوسط توازنًا مع رحلاته الصيفية إلى أوروبا . وفى عام ١٨٩٢ ، بدأ چون ماسون كوك يزود عملاؤه بدليله السياحى للبحر المتوسط بما فى ذلك مصر (٩٤) . وقد ذكرنا - فيما سبق - أن كوك كلف بادچ عالم المصريات بإعداد دليل سياحى لمصر ، وافتتح كوك مكاتب له فى فندق شيبرد بالقاهرة ، وفى يافا عام ١٨٧٣ ، ولكن رحلات فلسطين وسوريا كانت لا تزال تتم فى مخيمات ، وكان الانتقال بالجياد ، ولذلك كانت متخلفة كثيراً عن مصر .

وفى العام ١٨٧٠ - الذى حصل فيه كوك من الخديو إسماعيل على امتياز النقل النيلى - قام كوك بتشغيل باخرة و ١٣٦ دهبية فى رحلات الصعيد ، وبعد عشرين عاماً أصبح عدد البواخر ١٥ باخرة ، وعدد الدهبيات ٣٠ دهبية .

وفى العام ١٨٨٠ ، وقع على مبارك - ناظر الأشغال العمومية - على امتياز قصرى يعطى كوك الانفراد بنقل الركاب بالبواخر على خط القاهرة - أسوان - وادى حلفا فى الموسم السياحى (نوفمبر - مارس) ، وبموجب هذا الامتياز التزمت الحكومة بتوفير البحارة والصيانة لسبع بواخر ، والتزم كوك بتقديم ١٥٠ راكبًا من القاهرة إلى أسوان ، و ٦٠ راكبًا من أسوان إلي وادى حلفا فى كل موسم ، فاذا لم يوف بذلك تعرض للغرامة (٩٥) .

وقد برهن امتياز كوك على أنه كان نذيراً بوقوع الاحتلال البريطانى بعد ذلك بعامين . فبعد هزيمة عرابى فى معركة التل الكبير بسبعة أسابيع ، قام چون ماسون كوك بزيارة موقع المعركة مباركًا للضباط الإنجليز . واعتباراً من العام ١٨٨٥ ، كان يقضى جانبًا كبيراً من الشتاء بمصر ، وتحول من تأجير البواخر والدهبيات إلى امتلاك أسطوله الخاص منها ، فاشترى أربعًا من بواخر الدرجة الأولى فى ١٨٨٦ - ١٨٨٧ ، وفى العام التالى أنشأ ترسانة للصيانة ببولاق . وأدى ذلك إلى إفلاس شركة النقل النيلى السياحية المنافسة « هنرى جيز » بعد وفاة صاحبها عام ١٨٩٠ بوقت قليل ، وضمن كوك فى الموسم السياحى المنتهى فى مارس ١٨٩٥ « ٧٤٢ سائحًا » حجزوا أماكنهم على بواخره النيلية (٩٦) .

وقد أطلق كوك اسم الفرعون « رمسيس » على واحدة من بواخره الجديدة الأربع ، أما الأخريات فسماهن : « توفيق » و« البرنس عباس » ، و« البرنس محمد على » (٩٧) ، وفى العام ١٨٩١ نظم كوك رحلة نيلية للخديو توفيق من أسيوط إلى الشلال الثانى ذهابًا وإيابًا . وعند وصوله إلى الأقصر قام توفيق بافتتاح مستشفى الأقصر الخيرى لعلاج أبناء الأقصر الذى أقامته الشركة (٩٨) .

وعندما مات توفيق عام ١٨٩٢ ، سار بحارة كوك فى جنازته ، ونعته صحيفة الشركة (الرحالة) « لتحرره من التدخل ، وولائه لأعز أصدقائه - بريطانيا » .

وعلقت الصحيفة الآمال على ولده عباس الثانى الذى قضى خمس سنوات بأوروبا ، ونشرت صورة له وأخيه مع توماس كوك عندما قاما بزيارة إنجلترا عام ١٨٨٦ (٩٩).

وقامت بواخر كوك بنقل شارلز جوردون من نهاية الخط الحديدى عند أسيوط ، فى رحلته المصيرية إلى الخرطوم ، ونقلت ولسلى فى مهمته الفاشلة لنجدة جوردون ، ووضعت كل إمكانات النقل النهرى لديها فى خدمة حملة كتشنر لاسترداد السودان . وفى العام ١٨٩٨ ، أرهق چون ماسون كوك نفسه فى قيادة رحلة القيصر ڤيلهلم الثانى (حفيد الملكة ڤيكتوريا) إلى الأراضى المقدسة . ومات سيد السياحة الذى كان يعمل فوق طاقته بعد عودته من تلك الرحلة إلى إنجلترا . وقام فرانك وإرنست كوك ، ولدا چون كوك بإدارة أعمال الشركة التى ظلت بيد العائلة لجيل آخر قبل أن تنتقل ملكيتها عام ١٩٢٨ - إلى شركة عربات النوم الدولية البلچيكية .

ويرى أحد المؤرخين أن « تأثير كوك فى مصر كان خيرًا خالصًا ، فقد جلب لمصر مجالاً جديدًا ، وأتاح فرصة العمل لعدد كبير من المصريين » ، ولا يتفق هذا مع رأى المويلحى فى « حديث عيسى بن هشام » الذى أوردناه فى بداية هذا الفصل . ويستخلص پيمبل رؤيته لسياحة البحر المتوسط فى العصرين الڤيكتورى والإدواردى : « من المؤسف أن نقر بأن مستوى حسن النوايا والتفاهم الدولى ما كان ليهبط إلى هذا الحد ، وربما ارتفع ، لو بقى الإنجليز فى بلادهم يزرعون حدائقهم » (١٠٠) . وسواء كان ما فعله توماس كوك نافعًا أو خبيثًا ، فإن صناعة السياحة التى أقامها كوك بمصر جاءت لتبقى ، وليكون لها دور كبير فى حياة مصر فى القرن العشرين ، حتى أن البطريرك القبطى كيرلس السادس بدأ حياته العملية كاتبًا بشركة كوك (١٠١) .

واعتبر أوجست مارييت السياح الأوربيين الذين تدفقوا على مصر بأعداد متزايدة ، اعتبرهم جمهوره . ويعالج الفصل الثالث إنجاز مارييت فى تأسيس مصلحة الأنتكخانة والمتحف المصرى . وبدأ المصريين أيضًا يبدون اهتمامًا بالحضارة الفرعونية التى خلبت لب الأوربيين ، ويعالج الفصل أيضًا محاولات الطهطاوى وعلى مبارك وعالم المصريات الألمانى هنريش بروجش لجعل دراسة المصريات وتاريخ مصر القديم متاحة للمصريين .

الهوامش

(١) محمد المويلحى ، حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن ، (القاهرة ١٩٦٤) ، ٢١٣ (اختار المؤلف هذا النص من الترجمة الإنجليزية للكاتب روجر ألن ، وهى ترجمة غير دقيقة إذا ما قورنت بالأصل – المترجم).

(٢) Timothy Mitchell, "Worlds Apart : An Egyptian Village and the International Tourism Industry", Middle Wast Report (September - October - 1995), 8 - 11, 25; Dean Mac Cannell' The Tourist : A New Theory of the Leisure Class (New York, 1976); Tom Selwyn ed., The Tourist Image : Myths and Myth Making in Tourism (Chichester, England, 1996).

(٣) كما صدرت فى
James Buzard, The Beaten Track : European Tourism, Literature and the Ways to Culture 1880 - 1918 (Oxford 1933), 110.

(٤) كما ورد فى جيمس بوزار سالف الذكر ، ١ ، ١٣٢ .

(٥) Jean Leclant, "Le Voyage en Nubie (1813 - 1913) in D'un Orient L'autre, 2 vols. (Paris 1991), 1 : 405 - 13.

(٦) Adolphe Jounne and Émile Isambert, Itinéraire descriptif, historique et archaeologique de l'Orient (Paris 1861), 1094.

(٧) Oxford English Dictionary, 2nd. ed. (1989); Helen Angelomatis - Tsougarakis, The Eve of Greek Revival : British Travelers ercéptions of Early Nineteenth, Century Greece (London 1990).

(٨) Grand Larousse de la langue Française (Paris 1971 - 1987), 7 : 6142.

(٩) Patrick Brantlinger, Rule of Darkness : British Literature and Imperialism, 1830 - 1914 (Ithaca, N.Y., 1988), 138.

(١٠) Daniel R. Headrick, The Tentacles or Progress : Technology Trans fer in The Age of Imperialism 1850 - 1940 (London 1988), 26.

(١١) Headrick, Tentacles, 39 - 41; Wilk. 1843, 2 : 473 - 76.

(١٢) W.M. Thackéray, The Paris Sketchbook of Mr. M. A. Titmarsh : The Irish Sketchbook and Notes of a Journey From Cornhill to Grand Cairo (New York, n. d.), 719, 720.

(١٣) E.A.W. Budge, Cook's, Handbook For Egypt and the Sudan, 2nd. ed. (London 1906, 411 - 12.

(١٤) John Murray, A Hand - Book For Travellers in Egypt (London 1858) 112 - 13; Murray, A Handbook For Travellers (London 1873), 111.

(١٥) Wiener, Egypt, 64 - 76; Daniel R. Headrick, The Invisible Weapon : Telecommunications and International politics 1851 - 1945 (New York 1991) 1 - 115.

(١٦) المعلومات الواردة هنا عن كتب الدليل السياحى الخاصة مأخوذة من كتاب :

Oleg V. Volkoff, Comment on visitait du Nil : Les Guid de l'Egyte, (Cairo IFAO, 1967.

(١٧) Wilk. 1847, 2; Murr. 1858; 2; John Murray, A Hand - book For Travellers in Lower and Uper Egypt, 2vols, (London 1880) 1: vix.

(١٨) Buzard, Beaten Track, 121.

(١٩) William W. Stowe, Going Abroad : European Travel in Nineteeth - Century American Culture, (Princeton 1994), 7.

(٢٠) Wilk, 1847 : xvi; Murr. 1858 ix-x; Murr 1880, 1 : xv, Karl Baedeker, Egypt : Handbook For Travellers, 6 th ed., (Leipzig 1895, 1 - 2.

(٢١) John Pemble, The Mediterranean Passion : Victorians and Edwardians in the South, (Oxford 1987), v.

(٢٢) فيما جاء بهذه الفقرة والتالية لها ، انظر :

Ali Behdad, Belated Travellers : Orientalism in the Age of Colonial Dissolution (Durham, N.C., 1994), 39 - 47.

(٢٣) On Rifaud, see Who Was Who 3 : 358.

(٢٤) Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Johann Gottfried Ebel, Introduction pour un voyageur qui sepropose de parcourir la Suisse, 2 vols., (Basel 1975); On the Murray's guidebooks, see W.B.C.Lister, A Bibliography Of Murray's Hand books for Travellers (Dereham, England 1993).

(٢٥) مقتبس من : Piers Brendon, Thomas Cook : 150 Years of Popular Tourism (London 1991), 120.

(٢٦) Mordmann, "Guides", 529 - 67.

(٢٧) Joan. 1861.

(٢٨) Joan 1861 : 968 - 60, 922-93, 1005-8.

(٢٩) Baedeckar's Egypt, 8th ed. (London 1929; reprint 1985).

(٣٠) Edmund Swinglehurst, Cook's Tours : The Story of Popular Travel (Poole, Dorset, England 1982), 45.

(٢١) Marcus Simaika, "Excerpts From Memoires of Marcus H. Simaika, C.B.E., F.S.A. (1864 - 1944.

مخطوط طرف د. سمير سميكة ؛ سلامة موسى : تربية سلامة موسى .

(٢٢) Wilk. 1843, 1 : 101; Murr 1880, 1 : 115 - 116.

(٢٣) Jean - Jacques Rifaud, Tableau de l'Egypte, 61 - 62; Michael Byrd, Samuel Shepheard of Cairo : A Portrait (London 1957).

(٢٤) Rifaud, Tableau, 61 - 62, Wilk. 1843, 1, 202 - 4.

(٢٥) Murr. 1858, 114 - 15; Joan. 1861, 958; Murr. 1880, 1 : 157 - 58; Karl Baedecker, Egypt : Handbook for Travellers, 6th. ed. (Leipzig1908).

(٢٦) RiFand, Tableau, 32 - 35; Wilk. 1847 : 8; Murr 1873, 8, Baedecker 1908, v.

(٢٧) Rifoud, Tableau, 56 - 58; Thompson, Wilkinson, 1, 45 - 47.

(٢٨) Lord Lindsay, Letters on Egypt, Edom, and the Holy Land (London 1838) 1 : 44 - 45.

(٢٩) Wilk. 1847, 7.

(٤٠) I. G. Wilkinson, Topography of Thebes and General View of Egypt (London 1835).

(٤١) Rifand, Tableau, 88; Brebdon, Cook, 120; Baedecker 1895, x.

(٤٢) Baedecker 1908, xxviii - xxv, Wilk. 1835, 559; Murr. 1873, 119; Frances Karttu-nen, Between Worlds : Interpreters, Guides and Survivors (New Brunswick 1994)

(٤٣) Jean - Joel Brégeon, l'Egypte Francaise au jour le jour 1798 - 1801 (Paris 1991)

(٤٤) Murr. 1858, 160.

(٤٥) Carré, Voyageurs, 2 : 108.

(٤٦) Baedecker, 1895, xxii.

(٤٧) Rifaund, Tableau, "Avis", Wilk. 1835.

(٤٨) Rifaud, Tableau, 104; Thompson, Wilk 52 - 54.

(٤٩) Wilk 1843, 1 : 245 - 51; Murr. 1858, ci.

(٥٠) Murr. 1858, 140; Murr. 1880, 1 : 215; Baedecker 1895, ci.

(٥١) Rifaud, Tableau, 64; Murr. 1858, 117.

(٥٢) Michael Reimer, Colonial Bridgehead : Government and Society in Alexandria, Egypt 1807 - 1882, (Boulder, Colo., 1997), 108.

(٥٣) Murr. 1873; 1 : xix-xx; Wilk. 1843, 1 : 85 - 89.

(٥٤) Amelia Edwards, A Thousand Miles up the Nile, 2nd ed. (New York, ca 1881), 370.

(٥٥) Théophile Goutier, Voyage en Espagne, (Paris 1929).

(٥٦) Buzard, Beaten Path, 219.

(٥٧) لاحظ أن دليل ماكميلان لفلسطين ومصـــر المنشور بنيويورك ١٩٠١ لم يذكر عند ڤولكوف .

(٥٨) G.W. Steevens, Egypt in 1898 (London 1998).

(٥٩) Wilk. 1843, 1 : 89; Wilk. 1835, 560.

(٦٠) Justin Stagl, A History of Curiosty : The Theory of Travel 1550 - 1800 (Chur, Switzerland 1995).

(٦١) انظر قائمة المقترحات سالفة الذكر فى Murr. 1873, 46; Murr. 1858, 46 .

(٦٢) Alexander Kinglake, Eothen (Lincoln, Nebr., 1970), 272.

(٦٣) حول الطاعون فى الشرق الأوسط ، انظر :

Daniel Panzac, Quarantaines et Lazarets : l'Europe et la peste d'Orient (xviie - xx siécles) (Aix - en - Provence, 1986); Laverne Kuhnke, Lives at isk : Public Hcalth in Ninetecuth - Century Egypt (Berkeley, Calif. 1990), esp. 70 - 87.

(٦٤) Wilk. 1847, xviii - xxv, Murr 1858, 7.

(٦٥) Kuhnke, Lives, 49 - 66, 101 - 7; Panzac, Quarantaines, 117 - 21.

(٦٦) Kuhnke, Lives, 49- - 66, 101 - 4; Panzac, Quarantines, 95 - 96, 120 - 121.

(٦٧) Volkoff, Guides, 104; K. Frank, Lucie Duff Gordon (London 1994).

وانظر كتابها رسائل من مصر ، الترجمة العربية (القاهرة ١٩٧١).

(٦٨) Murr. 1873, 12,4.

(٦٩) Murr. 1858, 226, Murr. 1880, 1 : 278; Pemble, Mediterranean, 246 - 47.

(٧٠) كان السياح قبل ذلك يستخدمون مراكب متواضعة أقل كلفة تسمى خانقة .

(٧١) Wilk. 1843, 1 : iv,ii, 210 - 13.

(٧٢) Murr. 1858, 122; Murr. 1873, 120, 318 - 19; Murr. 1880, 2 : 386; Baedecker 1908, 197 - 98.

(٧٣) Winer, Egypte, 90 - 122.

(٧٤) Baedecker 1908, 197 - 98.

(٧٥) Headrick, Tentacles, 97 - 116; Headrick, Invisible Weapon, 1 - 92.

(٧٦) Murr. 1873, xiv, 318; Gabriel Charmes, Cinq Mois au Cairo et dans la Basse - Egypt (Cairo, 1880,), 221 - 22.

(٧٧) Baedecker 1908, 196, 200.

(٧٨) Wilk. 1842, 1 : 319, 2 : 134; Lindsay, Letters, 1 : 39 - 40.

(٧٩) Murr. 1880, 2 : 450; Brendon, Cook, 136 - 37, 231 - 32.

(٨٠) Buzard, Beaten Path, 123.

(٨١) William Wetmore Story, Roba di Roma, 2nd. ed. (London 1863), 1 : 7 as quoted in Buzard, Beaten Path, 120.

(٨٢) Robin Fedden, English Travellers in the Near East (London 1958), 16.

(٨٣) Carré, Voyageuers, 2 : 13.

(٨٤) Behdad, Belated Travellers, 92, 53 - 72.

(٨٥) Thackeray, Notes, 717; Thackeray, Innocents Abroad or the New Pilgrim's Progress (New York 1929, 509 - 17.

(٨٦) Linda Nochlin "The Imaginary Orient", Art in America (May 1983), 118 - 31, 187 - 91; John Mackenzie, Orientalism : History, Theory, and the Arts (Manchester, 1995), 43 - 70.

(٨٧) Kathleen Stewart Howe, ed., Excursions along the Nile : The Photographic Discovery of Ancient Egypt (Santa Barbara Museum of Art, 1993), 22 - 23; see also Deborah Bull and Donald Lorimer, Up the Nile : A Photographic Excursion : Egypt1839 - 1898 (New York, 1979); Carney E.E. Gavin, The Image of the East : Nineteenth - CenturyNear Eastern Photographs by Bonfils From the Collections of Harvard Semitic Museum (Chicago, 1982).

(٨٨) John M. Mac Kenzie, Propaganda and Empire : The Manipulation of Public Opinion, 1880 - 1960 (Man chester 1984) 19 - 21; see also Frank Staff, Picture Postcards and Travel : A Collector's Guide (Guideford, England 1979), 44.

(٨٩) G.W. Steeven quoted in John Pudney, The Thomas Cook Story (London, 1953), 212.

(٩٠) Brendon, Cook, 12.

(٩١) Brendon, Cook; and Anthony Trollope, "An Unprotected Female at the Ryramids", The Complete Shorter Fiction, ed. Julian Thompson (New York 1992), 82 - 103.

(٩٢) Wilk. 1843, 1 : iv; Brendon, Cook, 124; Buzard, Beaten Track, 148 - 50.

(٩٣) Brendon, Cook, 120; Pemble, Mediterranean, 49.

(٩٤) Rev. J. Burns, Helpbook for Travellers to the East including Egypt, Palestine, Turkey, Greece and Italy, with tourist arrangements by Th. Cook (London 1872).

(٩٥) Thomas Cook Archives, Egypt (General), Nile Fleet, Nile Hotels, Boulac, 9 July 1880.

(٩٦) Swingle hurst, Cooks Tours, 97.

(٩٧) Thomas Cook Archives, The Excursionist, 12 Sep. 1887, 3; and 1 February 1888.

(٩٨) Luxor Hospital For Natives in Upper Egyt,Leaflet.

(٩٩) The Excursionist, 12 Sep. 1887; and, Eebruary 1892, 7.

(١٠٠) Pundey, Cook, 212; Buzard, Beaten Path, 335; Pemble, Mediterranean, 274,

(١٠١) Otto Meinardus, Two Thousand Years of Coptic Christianity (Cairo 1999).

الفصل الثالث

علم المصريات فى عصر إسماعيل
ماريت والطهطاوى وبروجش (١٨٥٠ - ١٨٨٢)

« وعلى تلك الأحجار كتابة بخط المعبد القديم الذى لا يستطيع المصرى قراءته ، ولكن بعض الفرنجة حل ألغازه فى القرن الثالث عشر (الهجرى / التاسع عشر الميلادى) إلى حد ما »

(الطهطاوى : أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل)

بعد أقل من عامين من كتابة الطهطاوى لتلك العبارات ، قرت عينه بمشاهدة افتتاح مدرسة بالقاهرة لتعليم المصريين قراءة اللغة المصرية القديمة (مدرسة اللسان المصرى القديم) ، وأسندت نظارتها إلى عالم المصريات الألمانى المرموق هنريس بروجش . ولكن عداء ماريت للمدرسة كان السبب الرئيسى وراء إغلاقها بعد خمس سنوات من افتتاحها ، ولكن بعد أن تمكنت المدرسة من وضع أحمد كمال وزميل أو زميلين بعده ، على طريق المصريات .

وخلال تلك السنوات من عهدى سعيد وإسماعيل ، كان ماريت يقيم أركان مصلحة الأنتكخانة والمتحف المصرى ، ولكن الإشادة به كمؤسس لهما ، يغفل المحاولة التى ارتبطت بمحمد على والطهطاوى عام ١٨٣٥ ، وهى محاولة لم يقدر لها النجاح (١) . وعلى كلٍّ ، فقد كان على ماريت أن يبدأ من جديد عام ١٨٥٨ ويشكل جهد ماريت الإطار الزمنى لهذا الفصل ، فقد وصل إلى مصر عام ١٨٥٠ ، وتوفى بها فى يناير ١٨٨١ ، قبل وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى بعام ونصف العام . ويبين الجدول ٢ علماء المصريات الأوروبيين فى ذلك العصر ومقابلهم من المصريين :

الجدول رقم (٢)

علماء المصريات الناشطين فيما بين ١٨٥٠ و ١٨٨٢

الأوربيـــــــون	المصـــــــريـــون	الحكام ومدة حكمهم
ويلكنسون ١٧٩٧ - ١٨٧٥	رفاعه الطهطاوى ١٨٠١ - ١٨٧٣	عباس الأول ١٨٤٨ - ١٨٥٤
ليمانز ١٨٠٩ - ١٨٩٣	يوسف حككيان ١٨٠٧ - ١٨٧٥	سعيد ١٨٥٤ - ١٨٦٣
دى روچيه ١٨١١ - ١٨٧٢	محمود الفلكى ١٨١٥ - ١٨٨٥	
ماريبت ١٨٢١ - ١٨٨١	على مبارك ١٨٢٣ - ١٨٩٣	
بروجش ١٨٢٧ - ١٨٩٤		إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩
إميليا إدواردز ١٩٣١ - ١٨٩٢		
دويمشن ١٨٣٣ - ١٨٩٤		
إيبرز ١٨٣٧ - ١٨٩٨		
ناڤيل ١٨٤٤ - ١٩٢٦		
جريبو ١٨٤٦ - ١٩١٥	أحمد نجيب ١٨٤٧ - ١٩١٠	توفيق ١٨٧٩ - ١٨٩٢
ماسبيرو ١٨٤٦ - ١٩١٦	أحمد كمال ١٨٥١ - ١٩٢٣	

وخـــلال تلك السنوات ، كانت الأمتــان القديمتــان الجديدتان : اليونان وإيطاليا ، قـــد وضعتا الحفـــائر الأثريـــة تحت رقابة الدولة ، وقامتا ببناء متاحفهما الوطنية . وعلى نقيض ذلك ، كانت مصر الواقعة على الجانب الآخر الإسلامى من البحر المتوسط مهيـــأة للوقـــوع فى براثن الهيمنة الأوربية ، وكان ماريبت - شأنه فى ذلك شأن غيره

من الموظفين الأوربيين – يعمل فى خدمة حكومة الخديو ، وهو أيضاً مواطن مخلص لدولة إمبريالية تسعى باطراد لتقويض دعائم الاستقلال الذاتى الذى تمتعت به مصر .

وفى نفس الوقت ، قامت المتاحف الوطنية فى باريس ، ولندن ، وبرلين ، ونيويورك ، تعبيراً وتجسيداً للرأسمالية الصناعية ، والقومية ، والديمقراطية . وفى مصر – كما فى المستعمرات – كان تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة) والمتحف أداة للاختراق والسيطرة الأوربية ، وإن كانت هناك أدوات أكثر وضوحاً ، لذلك الاختراق والسيطرة تمثلت فى السكك الحديدية والبواخر ، وقناة السويس ، وخطوط البرق ، وتجارة القطن ، والديون الدولية ، والسياحة ، والنشاط التبشيرى ، والامتيازات الأجنبية ، والمحاكم المختلطة ، والقوة العسكرية الغربية ، غير أن المتاحف فى البلاد المستعمرة أو شبه المستعمرة مثل مصر لم تكن – بصورة قطعية – « أداة استعمارية » . فقد شجع الأوربيون على إقامتها وزيارتها لدوافع متعددة ، وكذلك فعل المصريون .

وقد نضجت الأسواق الدولية التى تقدم ساحات أرحب للعرض مما يتاح فى المتاحف ، بعد « معرض لندن الكبير » عام ١٨٥١ بعقد من الزمان ، فتناقصت أجور السفر نتيجة ابتداع سياحة المجموعات على يد توماس كوك ، وتم تمثيل مصر بعصورها الفرعونية والإسلامية والحديثة فى كل الأسواق والمعارض الدولية على مدى العقود الستة التالية . ولكن ، ترى من مثل مصر فى تلك المعارض التى تعبر عن احتفاء الغرب بالقومية ، والإمبريالية ، والرأسمالية الصناعية ، والنزعة الاستهلاكية ، وماذا كان الغرض من تمثيلهم لها ، وما ترتب على ذلك من نتائج ؟ نظم مارييت جناح مصر فى معرضين دوليين بباريس ، وقام بإرسال المعروضات إلى معارض لندن ، وڤيينا ، وفيلادلفيا وساعد فى توجيه الاحتفالات الكبرى الفخمة بافتتاح قناة السويس . وبعد الاحتلال البريطانى لمصر أصبحت مصر تمثل فى المعارض والأسواق الدولية من خلال منظمين ووكلاء أوربيين وشوام ممن يعملون على تسويق « الشرق » للمستهلكين فى الغرب .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت الجمعيات العلمية والمتاحف ، ودوائر الأثرياء المنتفعين هم الذين يوفرون الرعاية لعلماء المصريات بأوروبا . وفى النصف

الثانى من القرن أصبحت « المصريات » تخصصًا أكاديميًا بفضل ريادة الجامعات الألمانية فى هذا المجال . وفى مصر - التى لم تقم بها جامعة على الطراز الغربى إلا بعد ما يزيد على نصف القرن - أقام الخديو ، وناظر المدارس على باشا مبارك مدرسة متخصصة فى علم المصريات (مدرسة اللسان المصرى القديم) ، وكتب الطهطاوى كتابًا بالعربية فى تاريخ مصر القديم ، واهتم على مبارك فى موسوعته « الخطط التوفيقية » بلفت الأنظار إلى المواقع الأثرية الفرعونية . واتخذت جريدة « الأهرام » - كبرى الجرائد العربية حتى اليوم - اسمها وشعارها ، وحمل كل طابع بريد صدر فيما بين ١٨٦٧ - ١٩١٤ الهرم وبجواره أبى الهول رمزًا لمصر .

وظهرت فى مصر جمعيتان علميتان هيمن عليهما الأوربيون ، هما : « المجمع العلمى المصرى » الذى تأسس بالإسكندرية عام ١٨٥٩ ، و « الجمعية الجغرافية الخديوية » التى تأسست بالقاهرة في ١٨٧٥ لدعم نشاط إسماعيل التوسعى فى أفريقيا ، وإن كانت الهيمنة الأوربية فى الجمعية الأخيرة أقل وطأة ، وقد لعبت الجمعيتان دورًا فى تعزيز دور المتحف ومصلحة الآثار - فى نشر ثمار علم المصريات ، وشارك أعضاء الجمعيتين فى مؤتمرات الاستشراق والجغرافيا التى بدأت تعقد فى أوروبا - بانتظام - منذ السبعينات . وكان الكثير من المصريين يصرفون جل اهتمامهم إلى الثقافة العربية الإسلامية ، ولكن رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومحمود الفلكى شجعوا مواطنيهم على ولوج باب هذه الجمعيات ذات الطابع العلمى رغم سيطرة الغربيين عليها ، لكونها قنوات ضرورية لنشر المعرفة .

النهضة المبتسرة فى عهد إسماعيل :

بلغت الرعاية الرسمية للنهضة العربية ذروتها فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، وقد أدت الكوارث المالية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية التى حاقت بمصر فى السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل إلى خلعه ، وجاءت الثورة العرابية والاحتلال البريطانى ، فحجبت تلك الأحداث الإنجازات الثقافية التى حققتها نخبة صغيرة . لقد ارتكب اسماعيل العديد من الأخطاء ، ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الإمبراطوريات

الأوربية كان تضم إلى حظيرتها بلاداً فى كل عام - فيما بين ١٨٧١ - ١٩١٤ - تبلغ مساحة كل منها ما يعادل مساحة فرنسا [٢] ، فإن إلقاء مسئولية الكارثة التى حدثت على عاتق إسماعيل وحده يصبح نوعًا من التضليل .

بدأ سعيد السير على طريق الاستدانة من أوروبا - المحفوف بالمخاطر - شأنه فى ذلك شأن الحكام من معاصريه فى إستانبول وتونس . وأدى حصار الشمال لموانى الجنوب فى الحرب الأهلية الأمريكية إلى الارتفاع الكبير فى أسعار القطن المصرى عند بداية عهد اسماعيل مما أدى إلى وجود شعور وهمى بالرخاء . ولما كان إسماعيل شديد الميل للظهور بمظهر الحاكم المستنير الذى يسير على النهج الأوروبى ، فقد أراد أن يحقق كل شىء دفعة واحدة : يقيم إمبراطورية أفريقية ، ويستكمل مشروع قناة السويس ، ويقيم قاهرة على النمط الباريسى ، ويبنى قصر عابدين وغيره من القصور ، ويشق الترع للرى ، ويمد الخطوط الحديدية ، وينظم المدارس الحكومية ، ويبسط سيطرته على المحاكم . وبرهن الموظفون الأوربيون الذين استخدمهم إسماعيل للاستفادة بخبرتهم فى المصالح الخاصة بالشرطة (الضبطية) ، والبريد ، والسكك الحديدية ، والبرق ، والمحاكم المختلطة ، والجيش ، برهنوا على أنهم كانوا ركائز مهدت الطريق للإمبريالية . وعندما حان موعد سداد الاستحقاقات ، لم يجد إسماعيل مفراً من بيع حصة مصر فى أسهم شركة قناة السويس - التى كلفتها غاليًا - إلى بريطانيا ، تلك الصفقة التى أوقفت - إلى حين - التدهور نحو الإفلاس .

إن البحث عن جذور النهضة فى القرن التاسع عشر فى أعمال علماء الأزهر مثل حسن العطار [٣] ، وربما الجبرتى ، يعد تصحيحًا للفكرة الشائعة عن دور الغرب الحركى فى إيقاظ الشرق الراكد . ولكن مع تعاقب عقود القرن ، لم تزدهر النهضة فى الأزهر ، ولكنها ازدهرت فى المجالات الجديدة أو القديمة التى تم إصلاحها مثل الصحافة ، والمدارس الأميرية ، ومدارس الإرساليات التبشيرية والبعثات التعليمية التى أوفدت إلى أوروبا ، ومكاتب البرق ، وقلم الترجمة ، والقضاء ، والمحاماة ، وتجارة التصدير . فالطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومحمود الفلكى كانوا نتاجًا لإصلاحات محمد على التعليمية ، كما كانوا وراء ما تحقق بعد ذلك من تغيير .

إن التحـرك الذى قادتـه بريطانيـا فى ١٨٤٠ - ١٨٤١ لطى بساط سيطرة محمد على على الشام ، دشن عصر الانكماش الذى استمر طوال عهد عباس الأول ، ثم جاء سعيد ليعكس الاتجاه ، ويفتح الباب على مصراعيه أمام طلاب الثراء من الأوربيين ، وكان ديليسبس أول من دخل الباب حاملاً مشـروع قناة السـويس . وجـاء المجمع « المجمع العلمى المصرى » ، ومصلحة الأنتكخانة والمتحف المصرى ، نتاجًا لتدفق الأوربيين على مصر ، وأصدر إسماعيل أوامره بإقامة المؤسسة الثقافية تلو الأخرى : الكتبخانة الخديوية ، والجمعية الجغرافية الخديوية ، ودار الأوبرا الخديوية ، ومدرسة دار العلوم ، وغيـرها من المدارس على اختلاف مستوياتها ، وقامت محاولة لإصلاح الأزهر ، ووجهت بمقاومة من علمائه جعلت إسماعيل ، وعلى مبارك يسقطانه من اعتبارهما فى لائحة المدارس التى صدرت عام ١٨٦٧ ، والتى كانت حجر الزاوية فى النشاط الثقافى فى عهده . وحلت اللغة العربية محل التركية كلغة رسمية للبلاد ، ووصلت الصحافة العربية والأوربية فى مصر إلى درجة من النضج .

وعند نهاية حكم إسماعيل ، عبَّرت الصحافة وأعضاء مجلس شورى النواب عن أفكارهم المستقلة . وقام المصلح جمال الدين الأفغانى بالتدريس على هامش الأزهر ، فالتف حوله الشبان المسلمون من أمثال محمد عبده وسعد زغلول ، وكذلك المسيحيون الشوام من الصحافيين . وحملت صحيفة « الجوائب » - التى كان يحررها أحمد فارس الشدياق بإستانبول - إلى مصر أخبار الغليان السياسى فى إستانبول الذى أدى إلى صـدور الدستور العثمانى عام ١٨٧٦ ، وقيام التجربة البرلمانية التى امتدت حتى ١٨٧٨ .

وكان الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وأحمد كمال ، يمثلون أجيالاً مختلفة ، ولهم اهتمامهم بعلم المصريات فى عهد إسماعيل فقد تعلم من استفادوا بالإصلاح التعليمى فى عهد محمد على ، تعلموا لغة أجنبية واحدة على الأقل ، لأنها كانت مفتاح الترقى فى وظائف الحكومة . وأصبح هؤلاء لا يفكرون فى إطار الانتماء الإسلامى فحسب ، بل فكروا أيضًا فى أمة مصرية تمتد جذورها الفرعونية فى أعماق التاريخ .

كان الطهطاوى قد بلغ الثانية والستين من عمره عندما تولى إسماعيل الحكم ، وكان على مبارك فى الأربعين ، بينما كان أحمد كمال تلميذاً فى الثانية عشرة من عمره . وكان التعليم المتاح فى صبا الطهطاوى هو « الكتّاب » والأزهر ، ولكن تعيينه واعظاً للبعثة الموفدة إلى باريس عام ١٨٢٦ - كما رأينا - ساعده على أن يضيف إلى ثقافته بعداً جديداً مما تعلمه فى فرنسا .

وكان والد مبارك - الشيخ الأزهرى - يتمنى أن يحذو ولده حذوه ، ولكن الصبى على مبارك فر من أسرته ليلتحق بالمدارس الجديدة بعد ما رأى ضابطاً كبيراً أسمر البشرة مثله ، فأدرك أن الوظائف المهمة لم تعد للترك وحدهم . وهكذا شق طريقه فى مجال التعليم الحديث : من المرحلة الإبتدائية (المبتديان) إلى الثانوية (التجهيزية) ، إلى مدرسة المهندسخانة ، إلى المدرسة المصرية بباريس ، فالأكاديمية العسكرية الفرنسية فى متز ، ثم قضى عاماً فى الخدمة بالجيش الفرنسى[٤] .

اتجهت الحياة العملية لكل من الطهطاوى وعلى مبارك وجهة مختلفة لبضع سنوات ، فقد نفى عباس الأول رفاعة الطهطاوى إلى الخرطوم ، وكافأ على مبارك لقيامه بتقليص نظام التعليم الذى أسهم الطهطاوى فى بنائه . وفقد مبارك الحظوة عند سعيد فأرسله للمشاركة فى حرب القرم ثم تولى مناصب متواضعة تخللتها فترات استيداع قصيرة ، بينما أنقذ سعيد رفاعة الطهطاوى وأعاده من منفاه بالخرطوم ، وجعله ناظراً للمدرسة الحربية ، ولكن الطهطاوى عانى أيضاً من تقلبات سعيد . وفى عهد إسماعيل لمع نجما على مبارك والطهطاوى مع اختلاف فى الدرجة ، فلما كان مبارك صديقاً لإسماعيل منذ أيام الدراسة فى باريس ، فقد أصبح باشا ووزيراً (ناظراً) للأشغال العمومية ، والمدارس ، والأوقاف ، والمواصلات والسكك الحديدية ، أما الطهطاوى فلم يتجاوز رتبة البكوية ، ولكنه جعل العقد الأخير من عمره منتجاً من خلال إدارته لقلم الترجمة (الذى بعث من جديد) ، وتأليفه الكتب الدراسية ، والإشراف على تعليم اللغة العربية بالمدارس ، وتحرير مجلة « روضة المدارس » .

كان رفاعة وعلى مبارك رجلى النهضة ، تحتل « المصريات » عندهما موضع الأهمية وسط العديد من الاهتمامات الأخرى ، وقد استطاعا أن يستخدما المدارس

لتكوين الجيل الجديد الذى انتمى إليه أحمد كمال ممن أتيحت لهم فرصة التخصص فى «المصريات» . وقد تعرف أحمد كمال على كتب الطهطاوى من خلال دراسته بالمدارس ، وكان لمدرسة اللسان المصرى القديم الفضل في تخصصه بهذا المجال ، وهى المدرسة التى أسسها مبارك فى عهد إسماعيل . وعلى عكس هذين الرائدين ، تعرف أحمد كمال على الغرب من قراءاته ومن الأوربيين المقيمين فى زيارة عابرة . وإذا كانت فرصة اللقاء قد أتيحت للطهطاوى وكمال لكان مثل هذا اللقاء جسراً يربط قرناً يبدأ بانتباه الطهطاوى إلى أهمية الآثار فى العشرينات ، وإعادة تأسيس مدرسة المصريات المصرية عام ١٩٢٣ ، وهو العام الذى شهد وفاة أحمد كمال . وعاش كمال حياته العملية فى عهد الاحتلال البريطانى ، وهو ما سنتناوله فى الفصل الخامس .

إعادة تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة) :

ولد مارييت فى بولون - سير - مير عام ١٨٢١ ، بعد مولد مبارك بعامين ، وعندما بلغ الحادية عشر من عمره مات شامبليون . وقام چاك - جوزيف شامبليون فيجى بنشر العمل المتميز وغير المكتمل الذى تركه أخاه الأصغر دون أن يحقق تقدماً فى دراسة فقه اللغه المصرية القديمة ، ومات كل من نستورلوت وروسيللينى فى أعقاب وفاة شامبليون . وقام ليون دوبوا - خليفة شامبليون في اللوڤر - بقطع الصور الملونة للآلهة من إحدى البرديات وقام بتأطيرها ، مهملاً النص باعتباره نفاية لا لزوم لها . ولكن إيمانويل دى روچيه - الذى أصبح أميناً للقسم المصرى باللوڤر عام ١٨٤٩ - ومارييت ، استطاعا عند منتصف القرن أن يعيدا الفرنسيين إلى مكانهم فى علم « المصريات » [٦] .

حصل مارييت على شهادة الثانوية (البكالوريا) الأدبية ، وعمل بالتدريس ، والصحافة ، ولكن وراثته لأوراق قريبه نستور لوت حولت اتجاهه نحو « المصريات » ، فصرف سبع سنوات فى كفاح متصل لدراسة القبطية والهيروغليفية بشكل إقليمى منعزل حتى نال وظيفة متواضعة باللوڤر عام ١٨٤٩ . ولما كان متحف اللوڤر ينظر بعين الحسد إلى مجموعة المخطوطات القبطية التى جلبها - فى الثلاثينات - روبرت كيرزون

وهنرى تاتَّام إلى المتحف البريطانى ، فقد أوفد ماربيت إلى القاهرة عام ١٨٥٠ للبحث عن المخطوطات القبطية القديمة ، ولكن البطريرك القبطى كان لا زال يتذكر ما فعله كيروزون وتاتام ، فرفض التعاون مع ماربيت (٧) .

فقامر ماربيت بما كان معه من مخصصات مالية ، كما قامر بمستقبله ، بحثًا عن السرابيوم الذى وصفه الرحالة اليونانى إسترابو ، فراح يقتفى أثر تماثيل أبى الهول التى عثر عليها فى سقارة ، والتى شاهدها فى الحدائق الأوربية بالإسكندرية والقاهرة ، وقام بالتنقيب فى طريق أبى الهول الذى يقود إلى مقبرة عجول أبيس . وبلغ حماس الغرفة الفرنسية بباريس حد الموافقة على المخصصات اللازمة لنقل ما تم العثور عليه من آثار إلى اللوفر قبل أن يحصلوا على موافقة عباس الأول على تصديرها . وقد ثارت ثائرة عباس ، وأرسل الحراس إلى سقارة لوقف عمليات التنقيب التى يقوم بها ماربيت ، ويرجع ذلك إلى تحريض القنصل العام البريطانى شالز موراى ، والمبشر الإنجليكانى البارون دى هربر ، وهم جميعًا من جامعى الآثار . فكلف ماربيت أحد مساعديه بصناعة لوحات قرابين مقلدة لإقناع عباس بتنفيذ أوامره ، واستمر فى التنقيب سرًا فى الليل . وأخيرًا استطاع أرنو ليموْين القنصل الفرنسى العام أن يصل مع الباشا إلى حل وسط ، يستطيع ماربيت بموجبه أن يرسل إلى اللوفر ٥١٥ قطعة أثرية ، ويستمر فى التنقيب ، وما يتم العثور عليه مستقبلاً يبقى فى مصر (٨) . وقبل أن تنفد مخصصاته المالية عاد ماربيت إلى بلاده ، ولكنه كان قد اكتشف معبد الوادى الخاص بخفرع بالقرب من تمثال أبى الهول بالجيزة .

وكافأ اللوفر ماربيت على جهوده بترقيته إلى وظيفة أمين مساعد بالمتحف ، وكان رئيسه دى روجيه فى مطلع الأربعينات من عمره ، مما يعنى استحالة وصوله إلى منصب الأمين ، كان ماربيت يعيش أحلام اليقظة مع مغامراته ، وقرر تفضيل دراسة الفن على دراسة فقه اللغة . وفى عام ١٨٥٧ انتهز الفرصة ليقوم بالتنقيب عن الآثار لحساب سعيد باشا الذى تولى الحكم خلفًا لعباس الأول ، وذلك حتى يقوم سعيد بإهدائها إلى الأمير نابليون عند زيارته التى يعتزم القيام بها لمصر . وكان سعيد قد أهدى كل ما بقى لدى الدولة من قطع أثرية إلى الأرشيدوق ماكسمليان – ولى عهد النمسا – عام ١٨٥٥ « وهى مودعة الآن بمتحف التاريخ القديم بفينا » (٩) . فقد أقنع ديليسبس ، والقنصل

الفرنسى العام ريمون ساباتييه سعيداً بأنه يجب ألا يقل كرمه مع فرنسا عمَّا فعله سلفه مع النمسا . وقام سعيد بتجهيز ماربيت بباخرة وفريق من عمال السخرة ، مما أسعد ماربيت ، وجعله يقسم العاملين معه إلى فرق قامت بالحفر فى الجيزة ، وسقارة ، وأبيدوس ، وطيبة ، والفنتين فى وقت واحد . ووقعت زيارة الأمير نابليون خلال عمليات التنقيب ، ولكن سعيد استمر فى متابعة العمل ، وأهدى كل ما تم اكتشافه من آثار إلى اللوفر .

وبدعم من الإمبراطور نابليون الثالث ، ومساندة من جانب ديليسبس وساباتييه ، حث بونار باشا سعيداً على تكليف ماربيت بإعادة تأسيس مصلحة الآثار المصرية ، وتولى كوينج بك - الإلزاسى ، سكرتير سعيد ومعلمه السابق - تولى أمر التفاصيل . ففى أول يونيو ١٨٥٨ ، أصبح ماربيت « مأمور الأنتيكات » براتب سنوى قدره ثمانية عشر ألف فرنـــك (أى ما يوازى ٧٢٠ جنيها إسترلينيًا) (١٠) ، وذلك قبل عام من قيام ألكسندر كاننجهام بتأسيس الإدارة الخاصة بالآثار فى الهند (١١) . وقد تنوعت الأسماء التى أطلقت على مصلحة الآثار المصرية فهى : مصلحة الأنتيكات ، ومصلحة الأنتيكخانة ، ومصلحة الآثار . وأنعم الوالى على ماربيت برتبة البكوية من الدرجة الثانية ، وأعطاه حق الانفراد بإجراء الحفائر الأثرية ، وخصص له باخرة نيلية ، ومنحه سلطة تسخير كل ما يحتاج إليه من الأيدى العاملة ، وعلق ماسبيرو على ذلك ساخراً :

« إن هذا بمثابة استحواذ على مصر بحجة خدمة البحث العلمى » (١٢) .

وقام الفرنسيان بونفرى وجابيه بالعمل كمساعدين لماربيت ، وأعار اللوفر الرسام تيودور ديفريا ليقوم بنسخ النقوش ، كما عمل لويجى فاسالى مع ماربيت زمنًا طويلاً ، وبدأ إميل - الأخ الأصغر لهنريش بروجش - حياته العملية فى مصلحة الآثار المصرية (١٣) . وكون ماربيت فرقًا للتنقيب فى ستة مواقع مختلفة من الجيزة إلى أسوان . وجاء أول ذكر لهذا النشاط فى مجلة المتاحف Jouranl d'entrée فى يونيو ١٨٥٨ (١٤) . وقد اقترح ماربيت - فى بداية الأمر - قوة عمل تتكون من ٢٣٨٠ رجلاً ، يعمل ٢٠٠ منهم بالكرنك ، وما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ فى إدفو ، و٧٥٠ فى إسنا ، و ٤٠٠ بالجيزة ، ولكنه تلقى نصيحة بالاقتصاد فى قوة العمل لأن التنقيب عن الآثار يختلف عن حفر القنوات (١٥) . وفى وقت من الأوقات كان لديه تفويض بتجنيد سبعة آلاف عامل (١٦) .

ولعل ضحايا السخرة الذين عملوا فى حفائر مارييت ربطوا بين العمل فى الآثار ، والعمل الذى كان جاريًا فى شق قناة السويس . فكلاهما كان شقاءً وبؤسًا مصدره الأوربيون وسعيد ، وإسماعيل ، دون أن يفيد العمال المسخرون شيئًا . وتولى العمال تجميع المسخرين للعمل بين القرى ، وتقاضوا رشاوى من الفلاحين الميسورين لإعفائهم من السخرة التى كان الفقراء وحدهم ضحاياها (١٧) .

وكما فعل پول إميل بوتا وأوستن هنرى لايارد فى بلاد الرافدين قبل ذلك بسنوات ، قام مارييت باستخدام مجموعات عمل كبيرة للتنقيب عن القطع الفنية والنقوش . ولم يكن قد ظهر بعد الاهتمام بالجسات الأرضية ، وتجميع الملاحظات عن ميدان العمل ، وإعداد التقارير العلمية التفصيلية . ولم يكن عمل هنريش شليمان فى اصطياد كنوز طروادة وميسيناى فى السبعينات ، أفضل من ذلك . وفى عام ١٨٦٤ استخدم مارييت ألف عامل لتنظيف حوائط المعبد حتى تتاح لدى روچيه فرصة إبراز النقوش أمام زائر مرتقب (١٨) . وعبر فليندر پترى عن شكواه من أن مارييت ترك مساعديه الأوربيين ورؤساء العمال من المصريين يحفرون لحسابهم لمدة شهور فى كل مكان ما عدا الجيزة وسقارة . وتسربت الآثار التى عثر عليها مارييت إلى السوق لأنه كان لا يدفع مكافأة لمن يعثر عليها ، وكان رؤساء العمال يجذبون انتباه مارييت إلى المواقع غير المهمة بوضع قطع فيها مشتراة من السوق (١٩) . وفى إيطاليا كان جيسيب فيوريللى وبيترووروسا يقومان فى الستينات بحفائر علمية فى بومبى وروما ، كما قام ألكسندر كونز النمساوى وإرنست كرونيوس الألمانى - فى السبعينات - بحفائر فى اليونان طوروا فيها أسلوب التنقيب ، مما جعل مارييت على درجة كبيرة من التخلف .

وعندما مارس مارييت سلطته ، توقفت الحفائر التى كان يقوم بها فى مصر أوربيون آخرون ، وتم حظر تصدير الآثار دون ترخيص . وصدرت أوامردورية إلى موظفى مصلحة الآثار بتطبيق الحظر على التنقيب عن الآثار ، ولكن المصريين استمروا فى استخراج « السباخ » وبيع الآثار ، وحرق حجارة المعابد لإنتاج الجير . ورفض مارييت طلبًا تقدم به فلاح عام ١٨٨٠ للترخيص له باستخدام حجارة الأهرام فى بناء بيت (٢٠) .

وفى عام ١٨٦١ ، بلغت ديون سعيد ثمانية ملايين جنيهًا إسترلينيًا مما اضطره إلى الاختباء فى يخته هربًا من الدائنين ، وكان قد رهن موارد الدولة مقدمًا ، وأحال الكثير من الموظفين إلى الاستيداع أو فصلهم من وظائفهم ، وأنقص عدد الجيش إلى ٢٥٠٠ جندى ، وباع المعدات العسكرية ، فحث ماريت باريس على التغلب على لندن بتقديم قرض جديد لسعيد قائلاً : « إن من يقدم القرض لسعيد سوف يلف الحبل حول رقبته (وكان تلك كلمات الوالى نفسه) ، وبعبارة أخرى ، سوف يصبح سيد مصر » [٢١] . وانتهز نابليون الثالث الفرصة للضغط على ماريت حتى يحصل من سعيد على مساعدة للبحث عن مصادر لسيرة يوليوس قيصر - التى كان يكتبها - وعلى مخطوطات قبطية من الأديرة المصرية ، وتجاهل ماريت الملاحظة التى أبداها نابليون الثالث عندما قال له أن الآثار التى يكدسها فى بولاق سوف تكون فى وضع أحسن لو حصل عليها اللوفر . ورغم أن المموِّلين البريطانيين والألمان - وليس الفرنسيين - قدموا القرض لسعيد ، عبر الأخير عن ارتياحه بمنح ماريت البكوية من الدرجة الأولى ، ووعده بدعم مطبوعاته ، وتقديم المعونات للمتحف ، ومنحه معاشًا ، وجعله مفوضًا عامًا لدى « معرض لندن الدولى » عام ١٨٦٢ .

على الرغم من نجاح ماريت فى الحد من تدفق الآثار المصرية على أوروبا ، لم يستطع أن يحول دون خسارة مسلتين أخريين . ففى العشرينات ، أهدى محمد على لكل من بريطانيا وفرنسا واحدة من المسلتين القائمتين بالإسكندرية ، واستبدل الفرنسيون بالمسلة المهداة لهم أخرى أفضل حالاً انتزعت من معبد الأقصر حصلوا عليها فى ١٨٣١ - ١٨٣٢ ، ونصبت بميدان الكونكورد . وحذر ويلكنسون بلاده من الإهانة التى قد تلحق بها إذا حصل الفرنسيون على مسلتهم قبلهم ، ولكن صديقه روبرت هاى رأى أن المهانة تتحقق بقبول بريطانيا للمسلة المعروضة عليها ، فى حين أن فرنسا حصلت على مسلة أفضل . وعارض ويلكنسون - فيما بعد - فى نقل المسلة إلى لندن على أساس أن الغرض الأصلى لها كان مجهولاً - وسخر ثاكراى من المشروع ككل قائلاً :

« ذهبنا لمشاهدة المسلة الشهيرة التى أهداها محمد على للحكومة البريطانية التى لم تبد قبولها للهدية صراحة . . . وإذا كانت حكومتنا تتعامل مع الموضوع ببرود ، فإن

تحمسنا له يعد من قبيل عدم الولاء لحكومتنا . أتمنى أن تقدم حكومتنا للمصريين عمود الطرف الأغر حتى يرقد هذان العملاقان القبيحان فى التراب جنباً إلى جنب » (٢٢) .

ولم يتم نقل المسلة إلا عام ١٨٧٧ عندما قام الطبيب البريطانى إرازمس ولسون بتمويل عملية النقل ، وتم نصب المسلة على كورنيش نهر التيمز فى السنة التالية .

وأدى ذلك إلى حفز الأمريكان على الحصول - بدورهم - على مسلة ، فأهداهم إسماعيل المسلة الباقية بالإسكندرية تقديراً لما أداه الضباط الأمريكان السابقون (الذى خدموا فى الحرب الأهلية) من خدمات خلال عملهم فى جيشه ، وأثار ذلك ثائرة مارييت الذى احتج على هذا التفريط الذى لم يترك لمصر سوى خمس مسلات ، ورغم أن بمصر الآن « متحفين ، أحدهما متحف بولاق ، والآخر هو جميع أراضى مصر . . . زد على ذلك أن هناك مبدأ عالمى معمول به فى جميع المتاحف ، هو أن ما تحصل عليه المتاحف لا تستطيع أبداً التنازل عنه ، وأن على مصر أن تطالب اللوفر بتمثال ڤينوس دى ميلو ، وتطالب المتحف البريطانى بإعادة حجر رشيد إليها ، وتطالب متحف نيويورك بأحد آثار مجموعة أبوت ، لأن شيئا فى الدنيا لا يعادل هذه الهدية من حيث القيمة . فلماذا تعامل مصر معاملة مختلفة ؟ . . . لقد انتهى الزمن الذى استطاع فيه اللورد إيلجن أن يحمل معه لوحات الأجرام السماوية ، فمصر لديها أقدم أرشيفات ماثلة للعيان فى التاريخ الإنسانى ، وهى وثائق تشهد بمجدها القديم وهى تعتزم الاحتفاظ بها » (٢٣) .

وقد صدق مجلس النظار (الوزراء) على المنحة التى قدمها إسماعيل لأمريكا بعد تردد ، رغم أن الخديو فقد عرشه قبل أن تقوم الحكومة الأمريكية بنقل المسلة فى أواخر ١٨٧٩ . وقد تم نصب المسلة فى سنترال پارك بنيويورك فى يناير ١٨٨١ ، وهو الشهر الذى فارق فيه مارييت الحياة ، وقد نجح مارييت - على الأقل - فى استصدار قرار من مجلس النظار نص على أنه « من الآن فصاعداً لا يتم إهداء أثر مصرى لأى دولة أو أى مدينة خارج الديار المصرية » (٢٤) .

المتحف المصرى – ماربيت فى بولاق :

على مر قرن من الزمان قامت ثلاث من بلاد البحر المتوسط المتباينة – هى : اليونان ، والدولة العثمانية ، ومصر – بتأسيس مصالح خاصة بالآثار ، وإقامة متاحف أثرية ، وكان لشمال غرب أوروبا أثر كبير فى تلك الحالات الثلاث ، ولكن المتاحف كانت بمثابة المسرح الذى بلور أبناء تلك البلاد هويتهم القومية من خلاله .

وأحرزت اليونان قصب السبق بإقامتها لمتحف أيجينا الوطنى عام ١٨٢٩ ، حتى قبل أن تنجز القوى الكبرى مهمتها بإجبار الدولة العثمانية على قبول استقلال اليونان ، فقد فرضت الدول أوتو الأول الباڤارى ملكًا على ذلك البلد الصغير المشتت ، وجاء أوتو الأول من ميونخ حيث كانت الكلاسيكية الجديدة فى أوجها . وكان مؤسسو مصلحة الآثار اليونانية (١٨٣٣) ، والمتحف الوطنى للآثار (١٨٣٤) من الألمان أيضًا . وقد اتخذ المتحف الوطنى للآثار من الهيفايستيون مقرًا له حتى عام ١٨٧٤ عندما انتقل إلى المبنى الجديد الذى صممه الألمان على الطراز الكلاسيكى الجديد . لقد كان معظم اليونانيين يستمدون هويتهم من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بقدر أكبر من ذلك الماضى القديم الذى بعثه أهل غرب أوروبا والأمريكيون . وكان التوافق بين التراثين (الوسيط والقديم) يحتل مركز الجدل فى الهوية القومية اليونانية الحديثة [٢٥] .

لقد تنقل متحف الآثار القديمة فى كل من إستانبول والقاهرة من مكان لآخر ، ولكنهما بدأ بداية ملائمة تمامًا . فلم تكن مجموعة القاهرة التى بدأ تكوينها عام ١٨٣٥ ، أو مجموعة إستانبول التى بدأت فى كنيسة القديسة إيرين البيزنطية عام ١٨٤٥ ، متاحة للجمهور . ولم يعمر المتحف السلطانى العثمانى الذى أسس عام ١٨٦٩ طويلاً ، وكان مديره بريطانى يدعى چولد ، فما لبث أن ألغى ليعاد تأسيسه بعد ثلاث سنوات وتسند إدارته إلى ألمانى يدعى ديتير ، قام بنقل المجموعة إلى جنلى كشك بطوب قابى سراى ؛ ووضع مشروع قانون للآثار ، وبدأ فتح المتحف للجمهور يوميًا عام ١٨٧٥ ، وخصص يوم الأربعاء لزيارة النساء .

واستطاع متحفا القاهرة وإستانبول أن ينجوا من الإفلاس في أواخر السبعينات عام ١٨٨١ الذى شهد وفاة المدير الأوروبى لكل منهما ، وتفرقت بهما السبل بعد هذا التاريخ . فقد استطاعت الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى أن تسند إدارة الآثار لأحد أبنائها وهو الرسام التركى عثمان حمدى . أما مصر التى وقعت بين براثن الاحتلال البريطانى ، فقد استمرت مصلحة الآثار والمتحف فيها فى قبضة الفرنسيين [٢٦] .

قام ماريت بتكديس مجموعة بولاق فى المقر القديم لشركة النقل البرى التى أنهى الخط الحديدى وجودها . وكان المقر الذى يقع على شاطىء النيل (بالقرب من مبنى التلفزيون ومبنى وزارة الخارجية الآن) مناسب تمامًا لتفريغ القطع الأثرية الثقيلة التى تنقل من الصعيد بالمراكب على صفحة النيل .

وفكر ماريت - فى البداية - أن يتخذ من الإسكندرية مقرًا للمتحف الذى يعتزم بناءه لهذا الغرض مستقبلاً [٢٧] ، ولكن خط سكك حديد الإسكندرية - القاهرة هبط بزمن الرحلة إلى بضعة ساعات ، وجعل من السهل على القادمين بالبحر التوجه إلى العاصمة . وبدأ ماريت يتخير موقعًا بالأزبكية حيث فندق شيبرد وغيره من الفنادق والمحلات والمقاهى التى تجتذب العديد من الأوربيين .

غير أن وفاة سعيد المفاجئة في يناير ١٨٦٣ وهو فى الحادية والأربعين من عمره ، أزعجت ماريت ، ولكن سرعان ما بعث الطمأنينة فى نفسه . وعلى حد تعبير ماسبيرو شعر ماريت بالغبطة عندما وجد فى إسماعيل « إنسانًا له تطلعات خيالية مبهرة تفوق تطلعات ماريت نفسه . . . [٢٨] . وفكر فى مشروعات أكبر بعد ما أسكرته كلمات إسماعيل » فقد تحدث إسماعيل عن مجمع ضخم يقام بالأزبكية يضم متاحف للآثار اليونانية ، والعربية ، والفرعونية ، فإذا أضيف إليه المجمع العلمى المصرى مع تعيين مدير متفرغ له وأمين لمكتبته ، وإقامة مكتبة عامة ، كل ذلك يحول المجمع « إلى مركز علمى مصرى حقيقى » . وأدت إقامة حى الإسماعيلية فى غضون احتفالات افتتاح قناة السويس ، إلى جذب حركة بناء المساكن الحديثة غربًا نحو النيل ، وغير ماريت رأيه فى الموقع الملائم لإقامة المتحف المصرى ، فاختار الطرف الجنوبى من الجزيرة [٢٩] المواجهة لبولاق ومعسكرات قصر النيل (انظر الخريطة ٢) .

وفى الوقت نفسه ، هيأ ماربيت مبنى بولاق ليكون متحفاً متواضعاً بصفة مؤقتة ، وتم وضع أساس المتحف الجديد فى صيف ١٨٦٠ ، وكان من المتوقع أن تفرغ من بنائه شركة إيطالية خلال عام ووصلت بالفعل إلى الإسكندرية المشغولات الزخرفية الحديدية الخاصة بالواجهة « ذات الطراز العربى الجميل » قادمة من باريس . وفيما بعد ، كتب ماربيت :

« لم يعد باستطاعتك أن تميز مقرنا القديم فى بولاق ، ففى وسطه الآن مبنى كبير على الطراز الفرعونى يضم ١٢ غرفة بنيت وفق خطتى . هذا هو متحفنا المؤقت ، لا أستطيع القول أننا سنقيم هناك مثل الملوك ، ولكن لدينا على الأقل مجموعتان من صالات العرض انتظاراً للمتحف الفعلى . وقد اتخذت الزخرفة الخارجية والداخلية الطابع المصرى القديم ، وسوف تتخذ القطع الأثرية مواقعها قريباً . . . وسوف يتم افتتاح المنشآت الجديدة فى الأول من أكتوبر » (٣٠) . وذهب منتقدو ماربيت إلى تقدير تكلفة تلك المنشآت بمئات الألوف من الفرنكات ، ولكن ماسبيرو يقدرها بستين ألفا ، تحمل ماربيت جانباً منها من جيبه الخاص (٣١) .

وقام إسماعيل بافتتاح متحف بولاق فى ١٦ أكتوبر ١٨٦٣ بحضور أمين المتحف الفرنسى وأحد الشيوخ المقربين إلى نابليون الثالث ، ولعله كان أول مبنى يقام فى مصر على الطراز الفرعونى ، وكان يتكون من مبنيين : أحدهما للمتحف ، والآخر لإقامة ماربيت ، وكانت له حديقة يمرح فيها غزاله الأليف . وفيما بعد أقنع ماربيت اسماعيل بإضافة قاعتين أُخريين للعرض لإبهار الضيوف الأوربيين المدعوين لحضور احتفالات قناة السويس (٣٢) .

وقد رتب ماربيت المعروضات على النسق الذى اتبعه روچيه فى الجناح المصرى باللوفر ، مع تخصيص أقسام للديانة والآثار الجنائزية ، وأدوات الحياة العادية ، والآثار التاريخية . (وقام – فيما بعد – بتخصيص القسم الخامس لعرض آثار يونانية ورومانية ، وقبطية) . وقد اتبع ليبسيوس نظاماً مشابهاً للعرض فى متحف برلين تضمن الآثار التاريخية وأدوات الحياة اليومية ، والأساطير . وكان ماربيت يفخر بأن مجموعة بولاق – على نقيض المجموعات المصرية فى أوروبا – مسجل على كل منها مصدره الأصلى .

وأقر ماربيت باعتماده - أحيانًا - الناحية الجمالية فى العرض أكثر من اهتمامه بالناحية « العلمية » ، ودافع عن نفسه بالقول بأن هدفه من ذلك اجتذاب المصريين لزيارة المتحف (انظر الشكل ٢٠) :

« إننى مطالب كاثرى - طبعًا - أن أتجنب طريقة العرض التى لا تفيد من الناحية العلمية ، ولكن المتحف على النحو الذى نظمت به معروضاته يرضى أولئك الذين أقيم من أجلهم ، فهم إذ يترددون عليه تدفعهم الرغبة فى المعرفة التى لا تتخذ طابع الدراسة ، وإننى أقول دائمًا أن غرس محبة الآثار المصرية (عند الزوار) يعنى أن هدفى قد تحقق » [٣٣] .

واستطرد ماربيت شارحًا أن « متحف القاهرة لم ينشأ من أجل السياح وحدهم ، فقد قصد الوالى من إنشائه أن يكون متاحًا لأبناء البلاد - حتى يتعلموا تاريخ بلادهم . ولا يعنى ذلك الإنقاص من قدر الحضارة التى أدخلتها أسرة محمد على إلى بلاد النيل ، قائلاً أن مصر لا زالت فى بداية الطريق وأن الأمر يتطلب وقتًا حتى يستوعب الجمهور المصرى الآثار والفنون . ففيما مضى دمرت مصر آثارها ، ولكنها تحترم اليوم تلك الآثار ، وغدًا ستعشقها » [٣٤] .

قام عبد الله أبو السعود - تلميذ الطهطاوى - بترجمة دليل المتحف الذى أعده ماربيت إلى اللغة العربية ، وهو يبدأ بالبسملة والصلاة على النبى ، ثم يذكر الهدف من الدليل وهو شرح محتويات المتحف الذى أنشأه ماربيت للمصريين حتى يعلموا ما كان عليه أجدادهم [٣٥] . ولا تتوفر لدينا معلومات كافية عن مدى استفادة المصريين بالمتحف ، فهناك صورة رسمها فنان ألمانى تظهر فيها نساء منقبات مع بناتهن ، ونساء أوربيات فى الفناء الأمامى للمتحف (انظر الشكل ٢١) .

وقد وضع ماربيت الزوار الأوربيين والمصريين فى اعتباره عندما أكد أن قدماء المصريين لم يكونوا وثنيين مشركين ، بل كانوا يؤمنون « بإله واحد ، حى لا يموت ، خالق لا مخلوق ، لا يُرى ، ولكنه موجود فى أعماق خلقه ، فهو خالق كل شىء فى الوجود ... » [٣٦] . وكان اعتقادهم بآلهة أقل شأنًا بمثابة تجسيد لقدرات الخالق .

ويظل الموقف الشخصى لكل من سعيد وإسماعيل تجاه الآثار محيراً ، فقد صحب سعيد مارييت معه على باخرته وسأله عن الموقع الذى يمكن أن يؤدى الحفر فيه إلى العثور على الآثار ، لاستيائه لعدم العثور عليها . ولم يزر سعيد المتحف سوى مرة واحدة بصحبة الكونت دى شامبور المطالب الشرعى بالعرش الفرنسى ، وقضى الزيارة التى استغرقت ٤٥ دقيقة فى خيمة حريرية بفناء المتحف مستغرقًا فى التدخين والحديث إلى القنصل الفرنسى ، ولم يهتم بمصاحبة الكونت أثناء تفقده للمعروضات [٣٧] .

ووفقًا لما يذكره ماسبيرو لم يدخل إسماعيل المتحف مع ضيوفه الفرنسيين عند افتتاحه « فهو كشرقى أصيل يخيفه ويفزعه الموت ولذلك يبتعد عن المكان الذى تعرض فيه المومياوات . وقد ظل بحديقة المتحف - بينما كان المحتفلون بداخله - يتسلى بالفرجة على القردة ، وقفزات (فينت) غزالة مارييت » [٣٨] وتكشف هذه الطرف التى يرويها المستشرقون الكثير عن مارييت وماسبيرو وقرائنهما الغربيين ، بقدر ما تفعل بالنسبة لسعيد وإسماعيل .

تاريخ الطهطاوى عن مصر قبل الإسلام :

اعتمد الطهطاوى على أعمال مارييت اعتماداً تامًا فى حملته لجذب أنظار المصريين نحو مصر القديمة . فقد أعاد إسماعيل رفاعة الطهطاوى إلى موقعه السابق ناظراً لقلم الترجمة ، عشية توليه الحكم ، وأسندت اليه فيما بعد مهمة الإشراف على تدريس اللغة العربية بالمدارس ، ورئاسة تحرير مجلة « روضة المدارس » .

وكان ثلاثة من تلاميذ الطهطاوى (أحدهم عبد الله أبو السعود) ، قد ترجموا فى ١٨٣٨ - ١٨٣٩ كتابًا فرنسيًا عن مصر القديمة ، نشر بالعربية تحت عنوان « بداية القدماء وبداية الحكماء » وتولى الطهطاوى مراجعة الترجمة والتقديم لها [٣٩] . وعاد أبو السعود إلى الموضوع مرة أخرى فى ١٨٦٤ - ١٨٦٥ بترجمة لكتاب مارييت « نظرة على تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى » ، ونشرت الترجمة العربية بعنوان « كتاب قدماء المصريين » ، وقد طلب إسماعيل ترجمة هذا الكتاب -

كما يقول أبو السعود – لأن « الخديو يريد أن يوقظنا من سباتنا العميق بدراسة تاريخ أجدادنا ، حتى نستعيد مجدهم الغابر ، ونهتدى بسنتهم ، فنعمل معًا كمصريين أصلاء ، ووطنيين حقيقين من أجل نهضة مصر » (٤٠) .

وذهب عبد الله أبو السعود إلى أن حب الوطن يعنى العمل معًا لتحقيق صالح أبناء الوطن دون النظر إلى الأصل أو العرق . ولم يقبل أبو السعود بالشلال الأول كمعلم لحدود مصر الجنوبية مدافعًا بذلك عن حركة التوسع التى قام بها إسماعيل ، لأن مهمة تحضير « المتوحشين الوثنيين » فى أقصى جنوب حوض النيل تقع على عاتق مصر (٤١) . وحملت الصحيفة التى أصدرها عن عبد الله أبو السعود عام ١٨٦٧ – بدعم من إسماعيل – عنوان « وادى النيل » الذى يعكس الوعى المصرى الذى جمع بين الاعتزاز بالفراعنة والإمبراطورية السودانية الجديدة . وبالإضافة إلى ذلك ، تولى أبو السعود التدريس بدار العلوم ، والكتابة فى « روضة المدارس » ، وترجم دليل المتحف الذى وضعه ماربيت إلى العربية .

وكتب رفاعة الطهطاوى أول كتاب قدم مسحًا مستفيضًا لتاريخ مصر القديم ، نشر بعنوان : « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » ، ويتناول تاريخ مصر فى العصور الفرعونية ، واليونانية – الرومانية ، والبيزنطية ، وصولاً إلى الفتح الإسلامى ، وبعد وفاة رفاعة (عام ١٨٧٣) بعام واحد ، قام ابنه على فهمى رفاعة بنشر العمل الذى لم يكمله والده ، وهو كتاب « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » الذى تناول سيرة النبى محمد حتى البعثة (٤٢) .

وتمامًا كما فعل فى كتابه « تخليص الإبريز » قبل ذلك بثلاثة عقود ، صدَّر الطهطاوى كتاب « أنوار توفيق » بمقدمة يدفع بها عن نفسه هجمات المحافظين . وقد أشاد الشيخ مصطفى العروسى – شيخ الأزهر – ببراعة الطهطاوى فى الفنون التاريخية ، ولكن الشيخ محمد الدمنهورى – أحد علماء الأزهر – امتدح الكتاب لاحتوائه على أمثلة لفضلاء الرجال الذين خدموا الوطن منذ آلاف السنين . وذهب أحمد خيرى – السكرتير الخاص للخديو – إلى أن معرفة الأوربيين للهيروغليفية جعلت بالإمكان أن يتخلص المرء – غير ملوم – من المصادر العربية المليئة بالإسرائيليات .

وامتدح على مبارك الكتاب لاستناده إلى الشواهد المستمدة من علم الآثار الأوروبى والدراسات اللغوية بدلاً من تكرار الحكايات الخيالية القديمة . واستهل الطهطاوى كتابه بآية قرآنية تعظِّم من شأن العقل الإنسانى ، وامتدح الخديو « حامى حما الوطن ، الذى أعاد لمصر مجدها التليد ، وجدد حاضرها الإسلامى » (٤٣) .

وضع الطهطاوى التاريخ الوارد « بالكتب السماوية » جانبًا ، وقسم تاريخ البشرية إلى تاريخ عام يعالج كل الأمم ، وتاريخ خاص تناول أمة واحدة مثل مصر ، والعراق القديم ، والأكراد ، والفينيقيين ، وفارس ، والهند ، واليونان . ورأى أن مصر ليست كغيرها من الأمم التى يتألق نجمها فى عصر من العصور ثم يأفل تمامًا ، فقد احتفظت مصر بحيويتها عبر سبعين قرنًا ، وكانت فى عصر الفراعنة بمثابة الأم لجميع أمم العالم الأخرى ، وذاعت شهرتها فى عهد الإسكندر والبطالمة والرومان كمصدر للعلم والحكمة . وأصبحت مصر بعد ذلك مركز الحضارة الإسلامية ، فهزمت ممالك الفرنجة ، واستردت منهم بيت المقدس ، وأوقعت ملك فرنسا فى الأسر . ولعبت مصر دورًا أساسيًا فى نشر الحضارة فى الغرب ، وهزمت الغزاة الفرنسيين فى بداية القرن الحالى (التاسع عشر) ، وهى تستعيد الآن مجدها بفضل أسرة محمد على (٤٤) .

وتضمن الكتاب نحو ١٢ فصلاً تمهيديًا تناولت جغرافية مصر ، ومصادر مياه النيل ، والفيضان ، ومقاييس النيل ، والزراعة فى مصر القديمة ، والترع ، والبحيرات ، والزهور ، والنباتات ، والمعادن ، والمركز الإقليمى لمصر . وتناول فى فصل من ثلاث صفحات الآثار مؤكدًا على تفرد الأهرام ، والمسلات ، وأبى الهول والنقوش الهيروغليفية ، والعمود الأثرى بالإسكندرية (٤٥) . وأشار الطهطاوى إلى المسلة التى حصلت عليها فرنسا من مصر ونقلتها إلى باريس ، ورغم انتمائه إلى الصعيد ، لم يشر إلى آثاره العظيمة فى أكثر من ثلاثة سطور . وأشار إلى الأمر الذى أصدره محمد على عام ١٨٣٥ لجمع الآثار ، ملتمسًا تبريرًا له بإحدى الآيات القرآنية .

وقد مزج الطهطاوى بين ما جاء بالقرآن والكتاب المقدس ولوحة الأسرات التى أعدها مانيتو للبطالمة حكام مصر الذين يتحدثون اليونانية ، فاعتبر الملك الأسطورى مينا هو حفيد نوح مصرايم بن سام . وسار الطهطاوى على نهج مارييت من حيث

التحديد الزمنى للملك مينا بالعام ٥٦٢٦ قبل الهجرة (الموافق للعام ٥٠٠٤ قبل الميلاد) ، رغم إشارته إلى أن بعض العلماء الأوربيين قد يهبطون بهذا التقدير ألفان أو ثلاثة آلاف عام [٤٦] .

وتتبع الطهطاوى حكم كل ملك من ملوك الثلاثين أسرة التى أوردها مانيتو ، ولاحظ أن حل رموز الهيروغليفية على يد الأوربيين ساعد على قراءة أسماء بناة الأهرام الثلاثة بالجيزة قراءة صحيحة ، وإن كان لم يتم التحقق مما إذا كانوا قد عاشوا قبل إبراهيم أو بعده [٤٧] . ومن المفترض أن تكون إشارة الطهطاوى إلى هيرودوت ، وسترابو ، وديودور الصقلى مستقاة من شامبليون ، وماربيت ، وغيرهما من الأوربيين المحدثين ، واقتفى الطهطاوى أثر ماربيت فى تأكيد المعلومات من خلال الشواهد الأثرية لدعم أو نفى ما جاء بالمصادر الأدبية اليونانية ، وحاد عن ماربيت بأسلوبه الأدبى الزخرفى ، وبالدروس الأخلاقية التى قدمها استناداً إلى القرآن ، وبالرجوع إلى مصادر عربية كالمسعودى ، والمقريزى ، وابن عبد الحكم ، والسيوطى .

ويعكس كتاب « أنوار توفيق » محدودية المعرفة الأوربية بتاريخ مصر القديم عندئذ ، فلم تكن هناك شواهد أثرية متاحة عن الأسرتين الأولى والثانية ، والأسرة الخامسة ، وأوائل الفترة الوسطى التى أعقبت « الدولة القديمة » ، واعتبر الطهطاوى الهكسوس « رعاة الأغنام » عرباً ، وكانت معلوماته عن حتشبسوت وأمونحتب الرابع وثورته الدينية ونقله العاصمة إلى تل العمارنة ، معلومات محدودة ، وتبع ماربيت فى اعتبار رمسيس الثانى ، سيزوستريس اليونانيين ، وقبل بروايات هيرودوت الباهتة عن فتوحاته . ولاحظ الطهطاوى أن البعض يرى أن رمسيس – سيزوستريس يعادل هيرميس تريسمجستس وإدريس الذى يرد ذكره فى القرآن . وقدم عرضاً للجدل حول تحديد فرعون موسى ، مزكيا مرنبتاح أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر [٤٨] .

ولم يهتم الطهطاوى بتقديم المقابل (بالتقويم الجريجورى) لما أورده من تواريخ قبل الهجرة ، فلم تهتم المطبوعات العربية بذكر المقابل للتاريخ الهجرى بالتقويم الجريجورى (الميلادى) إلا نحو العام ١٩٠٠ ، وقد تبع الطهطاوى نهج ماربيت فى كتابه « نظرة على تاريخ مصر » فى الإشارة إلي تواريخ ما قبل الهجرة بدلاً من قبل

الميلاد وأوائل التقويم الميلادى ، ولكنه أشار إلى أن حساب السنين قد تم حسب السنوات الشمسية ، وبذلك يصبح عام ٢٣١٤ قبل الهجرة موافقًا للعام ٢٣١٤ بالسنوات الشمسية ، رغم أن التقويم الهجرى تقويم قمرى . وقد أضاف محقق طبعة « أنوار توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل » التى ظهرت فى القرن العشرين ، المقابل الميلادى للتاريخ الهجرى ، وأشار إلى أن تداخل سنوات حكم الأسرات التى وردت بقائمة مانيتو زاد من المدى الزمنى للعصر الفرعونى ألفى عام [٤٩] .

وأورد الطهطاوى نصوص بعض نقوش أهرام سقارة مستنتجًا منها أن قدماء المصريين كانوا من الصابئة . ويشير محقق « أنوار توفيق » إلى أن الصابئة قوم من حران بالعراق ، اعتنقوا دينًا سابقًا على الإسلام ، يقدس الكواكب . ويستخدم المصطلح أيضًا للدلالة على جماعتين فى صدر الإسلام إحداهما مسيحية والأخرى وثنية ، لا تتوفر عنهما معلومات كافية [٥٠] . ولما كان القرآن يعتبر الصابئة شأنهم شأن المسيحيين واليهود « من أهل الكتاب » ، فقد كانت نسبة قدماء المصريين إلى الصابئة تقرب الأمور إلى أذهان المسلمين من المصريين المحدثين – وربما الأقباط أيضًا – لتحقيق التواصل مع التراث الفرعونى .

وجاءت نهاية الكتاب بالفتح الإسلامى لمصر عام ١٨ هـ / ٦٤٠ م لتعكس رؤية المسلمين لرسالة النبى محمد باعتبارها حدًا فاصلاً بين عهدين . غير أن الطهطاوى لم يشعر بالتناقض الذى وقع فيه عندما تبع مارييت فى الحديث عن عصرين رئيسيين فى مصر ما قبل الإسلام : عصر وثنى (جاهلى) انتهى بصدور مرسوم تسودوريوس عام ٢٤١ هـ / ٣٩١ م بتحريم العبادات الوثنية وإغلاق المعابد ؛ والعصر المسيحى (القبطى) الذى استمر ٢٥٩ عامًا حتى وقوع الفتح الإسلامى . وكان هذا مناسبًا لمارييت ، ولكنه قد يعنى بالنسبة للمسلمين أن العصر المسيحى لم يكن من الجاهلية ، وعندما يتحدث الطهطاوى عن « القرون الوسطى » التى تبدأ بالفتح الإسلامى ، نجده يتبنى – ربما دون وعى – التقسيم الغربى للعصور إلى ثلاثة : قديم ، وسيط ، وحديث دون أن يضع فى حسبانه المشكلات المتصلة بتطبيق هذا التقسيم على التاريخ الإسلامى [٥١] .

أتاح نشر كتاب « أنوار توفيق وتوثيق بنى إسماعيل » للقارئ العربى مرجعًا فى تاريخ مصر الفرعونى ، ولكن نصيبه من الكتاب لم يتجاوز الخُمس ، فقد خصص الطهطاوى صفحات كثيرة للعصور التالية : الإسكندر ، والبطالمة ، والرومان حتى عهد تيودوريوس ، والبيزنطيين من عهد تيودوريوس حتى الفتح الإسلامى ، ثم حول بؤرة اهتمامه إلى الجزيرة العربية ليتحدث عن العرب قبل الإسلام ، وبذلك حظى الألف عام من تاريخ مصر اليونانى الرومانى والبيزنطى بما يوازى ثلاثة أضعاف ما خصصه الطهطاوى للعصر الفرعونى .

وفى العام ١٨٦٥ ، تلقت مطبعة بولاق أمرًا بطباعة خمسمئة نسخة من كتاب الطهطاوى « تاريخ مصر » للمدارس . ولما كان كتاب « أنوار توفيق » قد نشر عام ١٨٦٨ ، ربما كان الأمر يخص إعادة طبع كتاب « بداية القدماء » . وقد رشح الشيخ محمد عبده كتاب « أنوار توفيق » ككتاب دراسى للشباب المصريين ، ولكن لا تتوفر لدينا معلومات عن كيفية تلقيهم للكتاب[٥٢]. ولم يعد نشر الكتاب إلا عام ١٩٧٧ .

وفى ظل رئاسة الطهطاوى لتحرير مجلة « روضة المدارس » كان من بين كتابها أربعة – على الأقل – من العلماء المعنيين بنشر التراث الفرعونى بين المصريين المحدثين ، هم : الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله أبو السعود ، وهنريش بروجش . وكان مجلس تحرير المجلة يضم ستة من المصريين إضافة إلى بروجش [٥٣] . وكان مبارك وأبو السعود من كتاب المجلة ، وتولى على فهمى رفاعة مساعدة والده فى تحريرها . وكانت للطهطاوى خبرة سابقة بالصحافة منذ توليه رئاسة تحرير « الوقائع المصرية » . واتخذت « روضة المدارس » من المجلتين الفرنسيتين : « المجلة الموسوعية » و « المجلة الأسيوية » نموذجًا فضفاضًا لها [٥٤] ، فتنوعت موضوعاتها من الإنسانيات إلى العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية . وكان تطبع منها فى البداية ٣٥٠ نسخة زيدت فيما بعد لتصبح ٧٠٠ نسخة .

وبافتتاح « مدرسة اللسان المصرى القديم » قبل صدور « روضة المدارس » ببضعة شهور ، أتيح لهنريش بروجش أن يشهد مولدها ، فنشر بها دراسة فى تاريخ النقود مترجمة إلى العربية ، ونصوص المحاضرات التى ألقاها بدار العلوم [٥٥] .

وقام تلميذ له يدعى محمد على بنشر ترجمة بعض النصوص الهيروغليفية ، وقدم الصحفى القبطى ميخائيل عبد السيد دراسة فى « عادات قدماء المصريين » (٥٦) .

التنافس فى حقل « المصريات » بالقاهرة – الفرنسيون ، والألمان ، وغيرهم :

كان عقد الستينات بمثابة « عقد فرنسا » تحت سماء مصر بفضل ميل سعيد وإسماعيل إلى الثقافة الفرنسية ، وقناة السويس ، وإنجازات مارييت ، ومكانة نابليون الثالث . ودخلت كلمة « الإمبريالية imperialism » اللغة الإنجليزية فى الخمسينات ، وارتبطت غالبًا بالإمبراطورية الفرنسية الثانية (٥٧) . فقد أدت مواقف نابليون الثالث فى حرب القرم ، والمكسيك ، والهند الصينية ، ومصر إلى الربط بين هذا المصطلح والتوسع فيما وراء البحار . وشهد عقد الستينات عددًا أكبر من كتب الدليل السياحى لمصر بالفرنسية فاق عدد ما نشر منها بالإنجليزية (٥٨) . وكانت الإمبراطورة أوجينى نجمة احتفالات قناة السويس فى نوفمبر ١٨٦٩ ، فجاء ذلك تعبيرًا عن المكانة التى اكتسبتها فرنسا على ضفاف النيل .

وبعد ذلك الحدث بعشرة شهور ، مزقت بروسيا الجيش الفرنسى ومعه الإمبراطورية الثانية فى موقعة سيدان ، وفتحت بذلك الطريق أمام بسمارك لتوحيد ألمانيا ، وقيام الرايخ الثانى بقيادة بروسيا . وأدى الحصار الألمانى إلى احتجاز مارييت فى باريس لعدة شهور ، وعندما استطاع السفر ، هرع إلى بولاق ليقف فى وجه أى تحد من جانب الألمان لصدارة فرنسا فى مجال الآثار هناك (٥٩) .

ولم يكن البريطانيون يثيرون قلق مارييت فى مجال « المصريات » ، فقد كانت اللغة الفرنسية أول اللغات الأوربية التى صاغت مصطلحات هذا الحقل المعرفى الجديد ؛ وبدأ مصطلح « مصرياتى Egyptologue » (أى المشتغل بالآثار المصرية) يظهر عام ١٨٢٧ الذى شهد افتتاح شامبليون للقسم المصرى باللوفر ، ولحق به مصطلح « المصريات Égyptologîe » حوالى عام ١٨٥٠ . ولم يستخدم مصطلح « مصرياتى » بهجائه الفرنسى ككلمة مستعارة فى الإنجليزية إلا على يد كاتب إنجليزى عام ١٨٥٦ ، وبدأ استخدام الإنجليزية لكلمة « مصريات » (بهجائها الإنجليزى) عام ١٨٥٩ ، لينتشر بعد ذلك استخدامها فى الستينات . وقد مثّل الإنجليز فى هذا المجال – دون أن

يحمل اسمًا ما – كل من سولت وويلكنسون وهاى ولين ، فى مصر فى العشرينات والثلاثينات . وفى أيام ماريت كان صامويل بيرش أبرز عالم مصريات بريطانى ، واحتل مكانه فى التكريم بين رواد علم المصريات على واجهة المتحف المصرى الذى أقيم عام ١٩٠٢ ، إلى جانب شامبليون ، وليبسيوس ، وروسيللينى رغم أنه لم يزر مصر مطلقًا . وكادالبريطانيون من الدبلوماسيين والتجار والمولين أن يكونوا سلبيين . وكان من سوء طالع فرنسا – ومصر – أن ٦٦٪ من البضائع التى تمر عبر قناة السويس – التى رعاها الفرنسيون – فى السنة التالية لافتتاح القناة ، بضائع بريطانية ، وبحلول عام ١٨٨٠ وصلت النسبة إلى ٨٠٪ ، كما بلغت نسبة وارداتها إلى مصر ٤٤٪ (٦٠) .

وشغلت « المشكلة الألمانية » الفرنسيين الوطنيين بعد عام ١٨٧٠ ، ولكن لم يستقر الرأى بينهم على كيفية مواجهة التحدى الألمانى ، فكان چورج كليمنصو يعتبر التوسع الإمبريالى فيما وراء البحار نوعًا من الإلهاء عن مسألة الحدود الألمانية وإعادة بناء الوطن ، وكان چول فيرى ومجالس الوزراء الجمهورية من الانتهازيين – فى بداية الثمانينات – والحزب الاستعمارى (الذى كان يمثل ائتلافًا من الموانى ، والعسكريين والمعمرين ، والمبشرين والجمعية الجغرافية) تمسكوا بالتوسع الخارجى فيما وراء البحار كمقوى ضرورى لتفجير طاقة التقدم فى فرنسا ذاتها (٦١) .

واتخذت « الرسالة الحضارية » لفرنسا طابع العجلة من جديد بعد عام ١٨٧٠ مع وجود ماريت فى المقدمة ، ولابد أن يكون قد استاء من سماع الشائعة التى رددها الألمان دائمًا من أنهم سيسعون لجعل زميله القديم هنريش بروجش خلفًا له فى إدارة مصلحة الآثار والمتحف . فقد كان لدى بروجش خبرة بالعمل فى القنصلية البروسية بالقاهرة ، كما كان يتولى نظارة « مدرسة اللسان المصرى القديم » بالقاهرة ، ووفرت كفاءته العلمية لعلم المصريات الألمانى مكانة فى القاهرة لم تعرفها بلاده منذ أيام ليبسيوس .

وبعد عودة ليبسيوس إلى برلين عام ١٨٤٦ ، ما لبث الألمان أن أصبحوا فى وضع يسمح لهم بمنافسة الفرنسيين فى قيادة علم المصريات . واتخذ ليبسيوس من المتحف المصرى ببرلين وجامعة برلين قاعدتين لتكوين وتدريب الجيل الثانى من الألمان

المتخصصين فى المصريات . وكرمه القيصر ڤيلهلم الأول بدعوته لتناول الشاى معه ، واجتذبت دائرة تألق ليبسيوس المستشرق ماكس مولر ، والأخوان جريم ، والجغرافى كارل ريتر ، والمؤرخ ليوبولدڤون رانكه ، والفيلسوف فردريش شيلنج ، ومؤرخ الرومان تيودور مومسن (٦٢) . حتى ماسبيرو أشاد به واعتبره « معلمنا جميعاً » (٦٣) .

وبينما كان بسمارك يقوم بتوحيد ألمانيا بزعامة بروسيا ، وبلغت حلقات الأبحاث والمعامل الألمانية درجة جعلتها موضع حسد العالم ، كان مجال المصريات يبنى نفسه كتخصص أكاديمى ، فأنشئت كراسى الأستاذية فى مختلف أنحاء ألمانيا : جامعة جوتنجن (١٨٦٨ ، وشغله هنريش بروجش) ، وجامعة ستراسبورج (١٨٧٢ ، وشغله يوهان دوميشن) ، وجامعة هايدلبورج (١٨٧٢ ، وشغله أوجست إيسنلور) ، وانضمت أسماء بروجش ودوميشن وإيبرس إلى جانب اسم ليبسيوس على اللوحة التى حملت أسماء رواد المصريات على واجهة المتحف المصرى بالقاهرة (٦٤) . وحمل بروجش هذه الإشراقات الألمانية فى مجال المصريات معه إلى القاهرة ، وكان يصغر ليبسيوس بسبعة عشر عاماً ، ولم يتعامل معه ليبسيوس كأحد حوارييه بل عده منافساً له ، فقد حصل بروجش على الدكتوراه من برلين ، ولكنه علم نفسه بنفسه أكثر مما تعلمه من ليبسيوس ، وبعد أن قام بروجش بعدة دراسات فى باريس ، حصل على منحة زمالة بروسية للبحث فى مصر ، فأجرى حفائر فى سقارة بجوار حفائر مارييت لمدة ثمانية شهور ، وبعد أن قام ببعثة دبلوماسية فى بروسيا ، وأسس أول مجلة ألمانية فى المصريات عام ١٨٦٣ ، عاد إلى القاهرة قنصلاً عاماً لبروسيا ، وأخيراً أسس كرسى للمصريات بجامعة جوتنجن عام ١٨٦٧ من أجله ، ولكنه عاد الى القاهرة بعد عامين ليتولى نظارة « مدرسة اللسان المصرى القديم » (٦٥) .

وشهد عام ١٨٦٤ حادثاً أدى إلى إساءة علاقة ماريت مع الألمان ، فقد نسخ دوميشن لوحة الملوك التى اكتشفها عمال ماريت فى أبيدوس ، وأرسل النسخة الى ليبسيوس الذى نشرها دون أن ينوه بجهد ماريت . واعتبر ذلك ماساً بالشرف الوطنى وسط الصخب الذى أثير حول هذه المسألة ، حتى أن دوميشن وصل إلى درجة تحدى ماريت لمبارزته (٦٦) .

ولكن صداقة ماريبت وبروجش ساعدت على تهدئة العاصفة ، وفى أواخر يونيو ١٨٧٠ استقلا باخرة واحدة من الإسكندرية إلى مارسيليا لقضاء إجازة الصيف . وعندما وصل ماريبت إلى باريس فى ٦ يوليو ، كان لوى أدولف تير يبذل آخر محاولة يائسة لمنع الجمعية الفرنسية من إعلان الحرب على بروسيا ، ومع تردد أصداء الحرب الفرنسية - البروسية كان هناك شيخ سودانى يرقبها من بعيد ، ويزعم أنه « يعلم جيداً أن ملك الألمان قد توفرت لديه الموارد التى تجعله قادراً على سحق الفرنسيين بفضل الكنوز التى عثر عليها الخواجة ليبسيوس فى مرو وأرسلها إلى بلاده » (٦٧) . وحشد أعداء ماريبت جهودهم أثناء غيابه بباريس بسبب الحصار ، داعين إسماعيل أن يستبدل به بروجش ، ولكن بروجش نأى بنفسه عن تلك المؤامرات ، ورد عليه ماريبت قائلاً :

« إنك بالنسبة لى لست ألمانيا ، إنك بروجش وحسب ، ولست بحاجة لشرح موقفك من تلك الأحداث . لقد أثرت على مشاعرى كمواطن فرنسى ، ولكنها لم تبدل من مشاعرى كإنسان ، وخاصة نحوك . إننى أحبك كصديق حق ، وقد أحببتك دائماً بحماس طبيعى لا يقضى عليه شىء ولن يقضى عليه شىء » (٦٨) .

وبعد ذلك بعامين قام ماريبت بتوظيف إميل شقيق بروجش الأصغر مصوراً بمصلحة الآثار ، وقدر له أن يخدم بمصلحة الآثار سنوات طوال .

وأدت وفاة دى روجيه عام ١٨٧٢ إلى خلو مكانه فى كلية فرنسا ومتحف اللوفر ، ولكن ماريبت لم يهتم بالسعى لنيل أى من الوظيفتين وتركهما لماسبيرو وفرنسوا شابان وقال أن الواجب يدعوه إلى التمسك بموقعه « فى مصر فى مواجهة النفوذ الألمانى الذى يضغط بمختلف الوسائل » (٦٩) .

وعندما قام چورچ بانكروفت « مؤلف تاريخ الولايات المتحدة ، ثوكيديدس أمريكا » بزيارة مصر ، وجده ماريبت منحازاً للألمان إلى حد نكران مساعدة فرنسا للأمريكان فى الحصول على الاستقلال (٧٠) . وعندما أصبح بانكروفت سفيراً فى برلين - فيما بعد - انضم إلى دائرة ليبسيوس ، وكانت تلك الروابط « الأنجلو سكسونية » التى تجذب الأمريكان إلى أبناء عمومتهم الألمان أمراً طبيعياً ، فقد انضم بريطانيان هما

النحات جوزيف بونومى ، والمعمارى چيمس وايلد إلى بعثة ليبيسوس . . . وكان الدبلوماسى البروسى البارون ڤون بونس - عاشق المصريات - ميالاً للإنجليز ومتزوجاً من إنجليزية ، وأصبح سفيراً لبروسيا فى لندن (٧١) .

ولم يكن وارداً أن يسعى الطليان لإدارة مصلحة الآثار بالقاهرة ، لقد كانت اللغة الإيطالية هى الأكثر شيوعاً فى البحر المتوسط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وفى عام ١٨٤٥ كانت أول صحيفة « La Spetatore Egiziano » (المشهد المصرى) أول صحيفة ذات شأن فى مصر بعد صحف الحملة الفرنسية التى انتهى أمرها ، وصحيفة « الوقائع المصرية » ، وقد صدرت ثلاث صحف إيطالية أخرى بمصر فى الخمسينات (٧٢) . وفى نفس الوقت الذى صدرت فيه ثلاث صحف فرنسية أيضاً ، وحتى الستينات كان الفرنسيون يعتبرون اللغة الإيطالية هى لغة التجارة والإرساليات التبشيرية فى شرق البحر المتوسط (٧٣) . وتولت شركة إيطالية إدارة البريد فى مصر ، وتولى إيطاليان إدارة الخدمة الصحية ، والإحصاء . ولكن اعتباراً من ١٨٦٧ ، حلت الفرنسية محل الإيطالية كلغة ثانية على طوابع البريد المصرية ، وفى السبعينات أصبحت الفرنسية لغة المحاكم المختلطة ، ولغة « الرقابة الثنائية » الأنجلو - فرنسية على المالية المصرية ، وكذلك لغة الطبقات العليا من الأجانب فى مصر .

وأضفت أسماء روسيلينى ، ولوچى ڤاسالى ، وأماديو بيرون مسحة إيطالية على لوحة التكريم بواجهة المتحف المصرى بالقاهرة . فقد نشر بيرون قاموساً للقبطية عام ١٨٣٥ قبل أن يركز جهوده فى الدراسات اليونانية . وجاءت وفاة روسيلينى المبكرة لتنهى عمله الذى كان واعداً . وعمل ڤاسالى (١٨١٢ - ١٨٨٧) مساعداً لماريت بالمتحف المصرى ، وكان أكبر منه سناً ، ولا يصلح لخلافته فى منصبه (٧٤) . أما النجم الحقيقى الإيطالى فى علم المصريات فكان جيسب بوتّى الذى عين عام ١٨٩٢ مديراً للمتحف اليونانى - الرومانى بالإسكندرية ، الذى أصبح مركزاً للثقافة الإيطالية .

علم « المصريات » للمصريين – بروجش ومدرسة اللسان المصرى القديم :

أراد إسماعيل وعلى مبارك أن يكوّنا فريقاً من الشباب المصرى المتخصص فى الآثار المصرية القديمة للعمل إلى جانب الأوربيين بمصلحة الأنتيكات (الآثار) والمتحف المصرى . وعارض ماربيت هذه الفكرة خوفاً على منصبه ، ولكن التنافس الفرنسى – الألمانى فى حقل الآثار المصرية أوجد ثغرة فى صفوف الأوربيين هيّأ للمصريين فرصة إيجاد موقع لقدمهم فى مجال « المصريات » . وفى خريف ١٨٦٩ تعاقد على مبارك مع هنريش بروجش للعمل لمدة خمس سنوات ناظراً « لمدرسة اللسان المصرى القديم » براتب قدره خمسمائة فرنك شهرياً [٧٥] . وتضمنت ميزانية عام ١٨٧١ – ١٨٧٢ تخصيص ١٠٠٩ جنيهاً مصرياً لثلاثة أساتذة ، و ١١٢ جنيهاً مصرياً للمنح الدراسية للطلاب [٧٦] .

ورحب إسماعيل بعودة بروجش إلى مصر ، وكان ذلك بحضور على مبارك ، حيث تذكرا أيام الدراسة فى باريس ، وتحدث مبارك عما حققه من تقدم فى إعداد موسوعته « الخطط التوفيقية » . ولابد أن يكون بروجش على صلة بالطهطاوى بحكم كونه عضواً بمجلس تحرير « روضة المدارس » التى تولى رفاعة الطهطاوى رئاسة تحريرها ولعلهما تعاونا معاً فى « المجمع العلمى المصرى » .

افتتح بروجش المدرسة فى بيت كان مهجوراً ، بالقرب من متحف بولاق ، وبدأت المدرسة بعشرة طلاب تم اختيارهم من بين طلاب المدارس الأخرى من بين أصحاب أعلى الدرجات فى اللغة الفرنسية [٧٧] . ومن الغريب أن يتضمن الأمر الخاص باختيار الطلاب شرط أن تكون بشرتهم سمراء كأبناء الصعيد والسودان [٧٨] ، فهو يعيد إلى الأذهان المحاولة الفاشلة التى قام بها محمد على لتزويد جيشه بالسودانيين . وعلق بروجش على ميل بشرة بعض الطلاب إلى البياض بأنهم ربما كانت أمهاتهم من التركيات . ورغم أن الفرنسية كانت لغة التدريس بالمدرسة ، فقد عين بروجش أخاه إميل لتدريس الألمانية بالمدرسة ، وتولى بروجش تدريس اللغة المصرية القديمة ، وأرسل البطريرك القبطى من تولى تدريس القبطية للطلاب [٧٩] ، كما تولي أحد الأزهرين تدريس اللغة العربية ، وكان بروجش يأخذ الطلاب معه فى رحلات ميدانية إلى الصعيد

من حين لآخر . واصطحب معه - فى رحلة علاج إلى أوروبا - طالبين من طلاب المدرسة بهدف توسيع أفقهما ، تاركًا الآخرين يتابعون الجدول المقرر للدراسة . ولما كانت الرطوبة تمثل إحدى سوءات مبنى المدرسة ، فقد تم نقلها إلى مجمع المدارس بدرب الجماميز .

ونهج بروجش نهج ماربيت والطهطاوى فى محاولة جعل العقيدة المصرية القديمة تبدو فى صورة مقبولة أمام المسلمين . وعندما اكتشف أن بعض صفات آمون إله طيبة ، وبتاح إله منف ، وغيرهما من المعبودات تتفق تمامًا مع التسعة والتسعين اسمًا من أسماء الله الحسنى فى الإسلام ، أكد أن قدماء المصريين عبدوا إلهًا واحدًا ، وأن صفات الرب الواحد تكمن تحت سطح التعددية التى تبدو فى الديانة المصرية القديمة [٨٠] .

ولجأ إسماعيل وعلى مبارك إلى ألمانى ليتولى إدارة « الكتبخانة الخديوية » التى أقيمت عام ١٨٧٠ ، قبل الحرب الفرنسية - البروسية ببضعة شهور ، وهى الحرب التى دعمت مكانة الألمان بالقاهرة .

ففى عام ١٨٧٢ ، أصبح لودڤيج شتيرن - التلميذ السابق لبروجش - ناظرًا للكتبخانة الخديوية . وقد درس شتيرن علم المصريات بجامعة جوتنجن ، كما درس اللغات العبرية والعربية ، والحبشية وختم حياته العلمية خبيرًا بالسلتية ، وأمينًا للمخطوطات بالمكتبة الملكية فى برلين [٨١] . وأعقب شتيرن أربعة من المستشرقين الألمان فى إدارة دار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية) على التوالى ، فأصبحت الدار - بذلك - مركزًا للنفوذ الثقافى الألمانى حتى عام ١٩١٤ .

وتسبب تعيين بروجش مفوضًا عامًا لتمثيل مصر فى « معرض ڤينا » عام ١٨٧٣ إلى التأثير على طاقة عمله فى مدرسة اللسان المصرى القديم . وفى ١٨٧٦ ، أصبح - مرة أخرى - مفوضًا لمصر فى « معرض فيلادلفيا الدولى » . وأثر قرار الحكومة المصرية بإدخال تدريس الألمانية ضمن برامج الدراسة بالمدارس المصرية فى أعقاب حرب السبعين على طلاب « مدرسة اللسان المصرية القديم » الذى وقع عليهم عبء القيام بتدريس الألمانية بالمدارس بحكم كونهم من أوائل من درسها من المصريين ، واقترح أن يختار بروجش خمسة من الطلاب يوفدون إلى بروسيا أو النمسا ليتم

إعدادهم لتدريس الألمانية ، ولكن الاقتراح لم ينفذ ، غير أن أحمد كمال وستة من زملائه طلاب « مدرسة اللسان المصرى القديم » عينوا مترجمين ومعاونين بديوان المدارس عام ١٨٧٢ . وأغلقت المدرسة عام ١٨٧٤ أثناء وجود بروجش بالخارج ، وتم نقل ما تبقى من طلابها ، وكانوا خمسة أفراد ، إلى وظائف بمصلحة السكك الحديد ونظارة الجهادية [٨٢] .

واتخذ من غياب بروجش لتمثيل مصر بمعرض ڤينا ذريعة لإغلاق المدرسة [٨٣] ، ولعل عداء مارييت للمدرسة منذ نشأتها كان من بين أسباب إغلاقها . ويثير تقرير بروجش التساؤل حول مدى التزام مارييت بجذب اهتمام المصريين إلى تاريخهم القديم :

« كان الخديو راضيًا تمامًا عن عملى ، كذلك كان وزير التعليم سعيدًا بعملى ، مما جعلنى موضع حسد نظار المدارس . . . وشعر صديقى القديم مارييت بالقلق من أن يشمر الخديو عن ساعده ويعين خريجى المدرسة فى متحفه ، وعبثًا حاولت تبديد مخاوفه ، فقد استمرت هواجسه حتى أنه أمر موظفيه بمنع أى مصرى من نسخ النقوش الهيروغليفية ، وكان مثل هؤلاء يُطردون ببساطة من المعبد » [٨٤] .

وقد قرر مفتش سويسرى أن خريجى مدرسة اللسان المصرى القديم ضعاف فى اللغة والتاريخ ، وينقصهم « التوافق العلمى » ، وأن ما يناسبهم العمل فى الوظائف الدنيا بالمتحف ومصلحة الآثار [٨٥] ، وجاء رفض مارييت قبولهم للعمل بمصلحته ليقضى على مبرر وجود المدرسة . وبعد ذلك بسنوات ، التقى پترى أحد خريجى المدرسة بينها ، كان « يتكلم الإنجليزية بمستوى متوسط » ، وكان يعمل سكرتيرًا لمهندسى إنجليزى ثم لمدير المديرية التى تقع فيها منف ، ولكنه كان عاطلاً عن العمل [٨٦] ، وقد نجح أحمد كمال وأحمد نجيب فى العودة إلى العمل فى مجال الآثار المصرية القديمة غير أن مارييت نجح - إلى حين - فى إحباط أول محاولة قامت بها الحكومة المصرية لتكوين فريق من المصريين للعمل فى مجال « المصريات » .

مصر القديمة والجمهور المصرى :

كانت هناك مؤشرات تدل على أن اهتمامًا متواضعًا مطردًا ، أخذ يظهر عند المصريين ، بتاريخ مصر القديمة ، وذلك خارج إطار مصلحة الآثار والمتحف المصرى ومدرسة اللسان المصرى القديم ، ففى أغسطس ١٨٦٧ صدرت جريدة « الأهرام » وقد اتخذت من هرمين وأبى الهول شعارًا لها فى قمة صفحتها الأولى ، وكان محرراها سليم وبشارة تقلا من الشوام المسيحيين المهاجرين إلى مصر ويميلان لفرنسا . وقدمت الأعداد الأولى للجريدة تاريخًا مشوهًا لأهرام الجيزة ، فذكرت ما يقال من أنها شيدت لحفظ المعرفة من الفيضان ، أو لخزن الغلال ، أو مراقبة النجوم ، وأنه يقال أن خفرع ابن خوفو الأول وضع حجر الأساس للهرم الأكبر الذى تم بناءه فى عهد خفرع الثانى (٨٧) .

وفى عام ١٨٦٧ استبدل بالطغراء والزخرفة العربية الإسلامية رسمًا لهرم وأبى الهول على طوابع البريد المصرية التى صدرت قبل ذلك بعام واحد . ولعل الهرم وأبى الهول كانا يعكسان أفكار الأوربيين عنهما باعتبارهما رمزًا قوميًا لمصر ، ولكن كان الأمر يتطلب موافقة الخديو على هذا الاختيار . وكانت هناك شركة إيطالية للبريد تعمل فى مصر قبل تأسيس مصلحة البريد عام ١٨٦٥ التى تولى إدارتها موتزى مدير شركة البريد الخاصة القديمة . وكانت الخطابات الواردة من مصر إلى الغرب حاملة الهرم وأبى الهول فيما بين ١٨٦٧ – ١٩١٤ تؤكد الصفة القومية لتلك الرموز . وقد حملت تلك الطوابع اسم السلطان العثمانى – صاحب السيادة الشرعية – حتى عام ١٩١٤ عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وقطعت بذلك روابطها الاسمية بالدولة العثمانية (٨٨) .

وحتى جمال الدين الأفغانى – الفارسى المولد – داعية الجامعة الإسلامية استخدم أحيانًا الفخر بمصر القديمة فى إثارة المشاعر الوطنية عند المصريين ، إذ يقول : « انظروا إلى أهرام مصر ، ومعابد منف ، وخرائب طيبة ، وهياكل سيوه ، وقلاع دمياط ، كلها تشهد بصلابة أباءكم ، وعظمة أجدادكم » (٨٩) . وكتب تلميذه الشيخ محمد عبده سلسلة من المقالات عام ١٨٧٦ يربط فيها بين عظمة مصر القديمة ونهضة مصر فى عهد الخديو إسماعيل (٩٠) .

وفى العام ١٨٦٢ ، كتب أحد كبار الملاك المصريين ذوى الجذور التركية - الشركسية ، نصيحة لولده باللغة العربية ، أبدى فيها استياءه من استخدام الزى ، والعادات ، والطب ، والأفكار الغربية . وحبَّذ إرتداء الزى الوطنى التقليدى إلا إذا دعت الخدمة فى الحكومة إلى ارتداء الأفندية الزى الغربى ، وفضَّل استخدام التقويم الإسلامى الهجرى ، ونصح بدراسة اللغات الإسلامية قبل دراسة اللغات الأوربية . غير أن قائمة حكام مصر التى أوردها لم تبدأ بالفتح الإسلامى ، ولكنها تبدأ بالفراعنة [٩١] . فحتى هذا الرجل المحافظ الذى ينتمى إلى نخبة كبار الملاك استوعب بالفعل أن مصر القديمة مكون أساسى من مكونات التراث القومى .

علم « المصريات » فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية الخديوية :

بتأسيس « المجمع العلمى المصرى » عام ١٨٥٩ ، أقام الأوربيون المقيمون بمصر جمعية علمية على الطراز الغربى على أرض مصر . وكان المجمع على مدى أربعة عقود منبرًا للحديث عن مصر القديمة ، واستمر بعدها فى ذلك بتركيز أقل .

وكانت مثل هذه المحافل العلمية فى أوروبا ذات طابع وطنى ودولى معًا . واعتقد فلاسفة القرن الثامن عشر بوجود جامعة أوربية يطلق عليها « جمهورية الأدب » وهى - عند ڤولتير « جمهورية عظمى » [٩٢] . وفى القرن التاسع عشر ، ناضلت الأوساط الغربية الاشتراكية والدينية والعلمية من أجل إبقاء جسور الصلات الدولية مفتوحة عبر ساحة القوميات المتصارعة . ونظر دعاة النزعة الدولية إلى مجتمعاتهم - غالبًا - على أنها « غربية » وحسب .

وقد أدى وضع مصر كبلد شبه مستعمر إلى تعقيد الصورة داخل « المجمع العلمى المصرى » ، فقد كان المجمع تحت رعاية الخديو ، ولكن الأجانب يسيطرون عليه سيطرتهم على البلاد ، وهنا كان على الأوربيين أن يتواصلوا مع الجاليات الأوربية الأخرى أكثر مما يفعل زملاؤهم فى أوروبا فى الجمعيات ذات الطابع القومى . كان الأعضاء يعملون « للعلم ذاته » ، ولكن أنظارهم لم تتحول عن موضع كل فرد فى

التنافس الأنجلو - فرنسى ، أو الفرنسى - الألمانى ، وغيرها من المنافسات الأوربية التى ازدحمت بها الساحة .

ووراء تلك المنافسات الأوربية ، قبعت موضوعات الإمبريالية والعنصرية . فقد أدى افتتاح قناة السويس إلى تدفق الأوربيين على مصر ، ونتج عن ذلك تزايد أعداد كنائسهم ، ومدارسهم ، ومستشفياتهم وصحفهم ، ونواديهم ، وجمعياتهم الخيرية . وقد جرب الأوربيون الأقل التزامًا باتجاه جالياتهم - حدود نزعتهم الدولية فى المجمع العلمى المصرى ، ومصلحة الآثار ، والمتحف المصرى ، والكتبخانة الخديوية ، والجمعية الجغرافية الخديوية ، والمصالح الحكومية الأخرى ، ولكن خطوط المثالب القومية والأوربية - المصرية لم تكن بعيدة تمامًا عن السطح .

لقد نظر مؤسسو « المجمع العلمى المصرى » عام ١٨٥٩ إلى المجمع الذى أسسه نابليون بمصر (على نسق المجمع العلمى الفرنسى بباريس) كإطار مرجعى لهم ، وبدرجة أقل وضوحًا إلى « الجمعية المصرية » التى أُسست عام ١٨٣٦ . كان المجمع العلمى الفرنسى يضم عددًا من الأكاديميات بكل منها عدد محدد من المقاعد . وكان الالتحاق به يتم بالانتخاب ، غالبًا عند خلو مقعد لوفاة شاغله . وكانت غالبية أعضاء « الجمعية المصرية » من البريطانيين ، ولكن عضويتها كانت مفتوحة على الأقل للغربيين . وكان چومار - الذى بلغ الثالثة والثمانين من عمره - هو الصلة الوحيدة بين « المجمع العلمى المصرى » الذى اختفى من القاهرة عام ١٨٠١ ، و« المجمع المصرى » الجديد (٩٣) .

فقد كتب من باريس موافقته على قبول العضوية الفخرية ، وفى عام ١٨٦١ أصبح رئيسًا فخريًا للمجمع . ولعل لينان دى بلفون كان الوحيد من بين أعضاء « الجمعية المصرية » السابقين ، الذى انضم إلى المجمع الجديد (٩٤) .

ورغم رعاية الحكومة المصرية للمجمع العلمى الثانى ، ونزعته الدولية ، فإن قائمة العضوية تكشف عن تفرد الفرنسيين وتهميش الوجود المصرى لعدة عقود من الزمان . واحتل الأمير نابليون رأس قائمة الأعضاء الفخريين عام ١٨٥٩ . وتعاقب على الرئاسة الشرفية للمجمع أربعة من الفرنسيين يليهم الأرمنى المتمصر (يعقوب أرتين) فيما بين

١٨٦١ - ١٩١٧ ، كما تولى الفرنسيون الرئاسة الفعلية ومنصب نائب الرئيس طوال الأعوام الثلاثين الأولى من عمر المجمع ، وكانت الفرنسية هى لغة التعامل والعمل بالمجمع ، مع قبول الإنجليزية ، والإيطالية والألمانية .

ويشير الجدول رقم ١٠ (انظر الملاحق) إلى أنه فى عام ١٨٥٩ ، بلغت نسبة العضوية الشرفية للفرنسيين ٦٠٪ ، ونسبتهم بين الأعضاء المقيمين ٤٣٪ ، والمراسلين من خارج الشرق الأوسط ٣٨٪ . وجاء بعدهم الإيطاليون - عشية توحيد إيطاليا - بمسافة كبيرة . وشغل أنطونيو كولو تشى - طبيب العائلة الخديوية - مركز نائب الرئيس لخمس سنوات ، وتولى الرئاسة لمدة عشر سنوات . وكان اختيار كونج بك - سكرتير سعيد ومعلمه السابق الألزاسى المولد - أول رئيس للمجمع تأكيد لرعاية الوالى له . فقد زار سعيد المجمع ، وامتدحه لأنه « بعث المعرفة على ضفاف النيل التى يكمن فيها سر عظمة مصرنا القديمة ، مهد الآداب والعلوم والفنون » [٩٥] . وكان ماريت أحد أول نائبين للرئيس ، أما الآخر فكان بريطانياً .

واتخذ المجمع مقره الأول بالإسكندرية ، الميناء الرئيسى للبلاد ، حيث تقيم جاليات أوربية كبيرة ، وكان الثغر قد تطور فى عهد محمد على ، وأعادت قناة السويس البحر المتوسط إلى المجرى الرئيسى للتجارة الدولية . ويسر خط القاهرة - الإسكندرية الحديدى لرجل يقيم بالقاهرة مثل ماريت أن يصبح من الأعضاء المقيمين . وكان وراء اختيار الإسكندرية مقراً للمجمع - بالطبع - ذكريات مكتبة الإسكندرية القديمة ومتحفها .

وأعلن المجمع أن عضويته متاحة للجميع بغض النظر عن الأصل العرقى والاجتماعى - دون أن يشمل ذلك النوع - كما أنه مفتوح لكل الحقول المعرفية . وتعهد المجمع بتقديم النصائح العلمية للحكومة فيما يتعلق بالمحاصيل ، والماشية ، والأمراض التى تصيب الإنسان ، شأنه فى ذلك شأن المجمع الأول ، والسان سيمونيين الذين أرادوا استعمار مصر فى الثلاثينات [٩٦] . وعقد المجمع اجتماعاً شهرياً من الخريف إلى الربيع ، وهو الوقت الذى يسافر فيه الأثرياء من الأجانب المقيمين فى البلاد لقضاء الصيف فى أوروبا .

واستطاع المجمع أن ينجو بنفسه خلال الأزمة المالية والسياسية التى عانتها مصر فيما بين ١٨٧٥ – ١٨٨٢ ، بصعوبة بالغة . وفى عام ١٨٨٠ عدل المجمع لائحته ، وانتقل إلى القاهرة فى موقعه الحالى بالطرف الشمالى من شارع القصر العينى فى مواجهة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وكان يضم خمسين عضواً من المقيمين ونحو المائة من الأعضاء الفخريين ، وعدد غير محدود من الأعضاء المراسلين . وجأر مارييت – رئيس المجمع عندئذ – بالشكوى لأن إفلاس الدولة حرم المجمع من الإعانة السنوية التى كانت تبلغ ١٥٠٠ فرنك منذ عام ١٨٧٥ . وبمجرد استقرار الاحتلال البريطانى فى مصر قام نائب الرئيس إدوارد روجرز – الذى كان موظفًا بالحكومة المصرية – بحث المستشار المالى أوكلاند كالفن على مضاعفة قيمة الإعانة السنوية (٩٧) .

ولكن ماذا عن الأعضاء المصريين ؟ كان من بين الأعضاء المقيمين المؤسسين سبعة من المصريين (١٤٪) منهم نوبار باشا الذى أصبح – فيما بعد – رئيسًا للوزراء ، ومحمود الفلكى ، ورفاعة الطهطاوى (٩٨) . وكان محمود الفلكى هو العضو المصرى الوحيد بمجلس الإدارة المكون من ١٨ عضواً ، وخدم الطهطاوى فى لجنة النشر مع عضوين آخرين من الأوربيين ، وهو الموقع الذى خلفه فيه محمود الفلكى ، وانضم على مبارك إلى المجمع فيما بعد ، ولكنه لم يلعب دوراً فعالاً (٩٩) .

ومن الغريب أن « الرجل الأمريكى المقيم بالقاهرة الذى يرد ذكره فى كل كتاب عن المدينة » فى الستينات ، لم ينتم إلى المجمع (١٠٠) . أما يوسف حككيان فقد كان فريداً بصحبة الأعضاء الغربيين « بالجمعية المصرية » ، مغتربًا عن مصر ، البلد الذى تبناه ، وكان حريصاً على كشف مستوره أمام أصدقائه الأوربيين . وعندما وقع « التمرد » فى الهند (ثورة ١٨٥٩) ، كتب حككيان إلى صديق بريطانى : « لابد أن تعملوا على نزع سلاح الهنود ، وتجبروا الأهالى على العمل فى مد الخطوط الحديدية، وإقامة خطوط البرق ، وشق القنوات المحلية فى كل اتجاه ، واملأوا الأنهار بالبواخر ، إننى لا أقبل أن يكون أبناء البلاد جنوداً ، عليكم حشد مائة ألف جندى بريطانى بالجبال على أهبة الاستعداد للتحرك بالقطارات إلى الوادى كما تنهمر السيول من الجبال . . . » (١٠١) . وقد صادق حككيان مارييت عندما كان ينقب عن الآثار فى منف ، وقام بتقديم إدوارد ناڤى ، وبروجش لفردنان ديلسبس ، وتبادل الرسائل مع السير

شارلز لايل عن الچيولوچيا ، وأرسل إلى لوسى دف جوردون قاموساً عربيًا ، والتقى أمير ويلز عند زيارته لمصر ، وحتى المستكشف هنرى ستانلى استعان بحككيان للاستعلام عن أحوال أسرة امرأة يونانية كان يأمل الزواج بها . وقد لعب قريبه يعقوب أرتين - فيما بعد - دوراً مشابهاً ، وكذلك فعل مرقص سميكة .

وقد بدأ تركيز المجمع العلمى المصرى على مصر القديمة منذ كان ماربيت نائبًا للرئيس بقراءة تقارير الآثار فى الموسم الأول ، وتولى ماربيت رئاسة المجمع لمدة سبع من سنواته الإحدى والعشرين الأولى ، وكان رئيساً فخريًا لمدة أحد عشر عامًا أخرى ، واستخدم ماربيت المجمع للإعلان عن الكشوف الأثرية التى تقوم بها مصلحة الآثار ، وحذا حذوه من خلفوه فى إدارة المصلحة . وقد ألقى بروجش بحثًا بالمجمع كما ألقى ليبسيوس ثلاثة بحوث . وتولى رئاسة المجمع واحد من غير العاملين فى مجال المصريات ، خلفًا لماربيت بعد وفاته لفترة قصيرة ، ثم تولى ماسبيرو الرئاسة حتى عودته لفرنسا عام ١٨٨٦ .

وكانت اثنتان من الأوراق الخمسة التى ألقاها محمود الفلكى بالمجمع تتصل بالمصريات ، إحداهما عن أحد الفروع القديمة للنيل ، والأخرى عن الإسكندرية القديمة ، وتولى محمود الفلكى مهام نائب الرئيس لمدة اثنى عشر عامًا . وقد حصل محمود الفلكى على فرصة متأخرة للدراسة بفرنسا عندما رشحه تلميذه السابق بالمهندسخانة ، على مبارك لعباس الأول لدراسة الفلك . ومكث محمود الفلكى بأوروبا تسع سنوات ، وعاد إلى مصر فى نفس السنة التى شهدت تأسيس المجمع العلمى المصرى . وأبحاث الفلكى التى نشرها بالفرنسية مبعثرة فى عدد من المجلات الأوربية ، ومن بينها بحث عن التقويم عند العرب قبل الإسلام ، والموازين والمكاييل فى مصر الإسلامية ، وحفائر وخريطة الإسكندرية القديمة ، والجدول الزمنى للهرم وعلاقته بالشعرى اليمانية . وتولى نظارة المعارف فى الوزارة التى شارك فيها عرابى عام ١٨٨٢ ، ولكنه نجا بنفسه سياسيًا عند وقوع الاحتلال البريطانى ، وعاد لتولى نفس المنصب فى وزارة نوبار ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ، ومات خلالها فى مكتبه . وامتدح أرتين - رئيس المجمع - محمود الفلكى إلى جانب ماربيت ، وماسبيرو وچورچ شڤاينفورت باعتبارهم من أعضاء المجمع الذين يستحقون خلافة مونج وچاك ليبير ، وكلود برتوليه أعضاء المجمع الذى أقامه

نابليون فى مصر [١٠٢] . وبعد وفاة الفلكى لم يقم المصريون بالمساهمة فى الحديث عن المصريات بالمجمع حتى تم انتخاب أحمد كمال عام ١٩٠٤ .

وتم تهميش « المصريات » بصورة أكبر فى الجمعية العلمية الرئيسية فى ذلك العصر ، وهى « الجمعية الجغرافية الخديوية » ، غير أن هذه الجمعية جديرة بالذكر لكونها كانت تمثِّل ملمحًا بارزًا من المشهد الثقافى ، وتلعب دور المنبر الأصغر لعلم المصريات . وقد أسسها إسماعيل عام ١٨٧٥ لإضفاء الشرعية على توسعه فى أفريقيا ، وبث الدعاية له . وكان أول رئيس لها المستكشف الألمانى چورچ شڤاينفورت عالم التاريخ الطبيعى . وقد تولى أيضًا رئاسة المجمع العلمى المصرى ، وكتب فصلاً عن « أصول الأوضاع الحالية للمصريين » نشر بدليل بايدكر [١٠٣] .

وقد اختلف الأعضاء الأول للجمعية الجغرافية الخديوية عن المجمع العلمى المصرى فى أمرين : غلبة الإيطاليين ، والوجود الأمريكى لأول مرة . وكما يتضح من الجدول رقم ١٠ (بالملاحق) فقد فاق عدد الإيطاليين عدد الفرنسيين الذين احتلوا المركز الثانى بين المؤسسين ، واحتكر إيطاليان رئاسة الجمعية لفترة طويلة ، فتولى الرئاسة الدكتور أونوفريو أباتى (١٨٩٠ - ١٩١٥) ، وفردريكو بونولا (١٨٨١ - ١٩١٢) ، فقد كان المستشارون الإيطاليون أصحاب حظوة عند الأسرة الحاكمة طوال تاريخها ، وكان أباتى طبيب الأسرة الحاكمة منذ عهد سعيد ، وكان أيضًا واحدًا من نائبى رئيس المجمع العلمى المصرى من ١٨٨٢ حتى ١٩١٠ [١٠٤] .

وإذا كان المجمع العلمى قد خلا من الأمريكان ، فإن الضباط الأمريكيين الذى خدموا فى جيش إسماعيل كان لهم حضور بارز فى السنوات الثمانى الأولى من عمر الجمعية . فقد ساعد هؤلاء الضباط فى اكتشاف السودان ورسم خريطته ، وأصبح الجنرال شارلز ستون رئيسًا لأركان الجيش المصرى . وقد أجبرت الأزمة المالية إسماعيل على الاستغناء عن الضباط الأمريكان ، ولكن ستون استمر موجودًا ، ورأس الجمعية الجغرافية من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٣ ، ولم يعد إلى بلاده إلا عندما أبلغته سلطات الاحتلال البريطانى أنه لم يعد له مكان بالجيش المصرى [١٠٥] .

وكان عدد المصريين ٢٥ عضواً من بين مؤسسى الجمعية البالغ عددهم ١٤٠ عضواً . ويشير فهرس مجلة المجمع العلمى المصرى (١٨٨١ - ١٨٨٧) إلى أن المصريين قدموا أربعة بحوث من مجمل ما قدم من البحوث التى بلغ عددها ٣٢ بحثًا . وحضر محمود الفلكى المؤتمر الجغرافى الدولى بڤينا عام ١٨٨١ ، وكان نائبًا لرئيس الجمعية الجغرافية مرتين ، وتولى رئاستها خلفًا للچنرال ستون .

وقد بدأت « الجمعية الجغرافية الخديوية » بمجموعة من الهواة مع القليل من المتخصصين فى مختلف المجالات الأخرى ، شأنها فى ذلك شأن الجمعيات الجغرافية التى نشأت بالغرب . وكانت تلقى بها أحيانًا بحوثًا فى الآثار ، فقد تحدث بروجش أمامها عن اللغة النوبية ، وعن المحاجر الفرعونية بوداى الحمامات . وقد منحت الجمعية عضويتها الشرفية لماريت قبل وفاته بشهور ، كما منحتها لديلسبس وآخرين [١٠٦] . وتضمن فهرس مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (١٨٨٨ - ١٨٩٣) قائمة بخمسة بحوث عن مصر فى العصر الفرعونى ، والعصر البطلمى ضمن البحوث التى شملتها القائمة وعددها ٣٢ بحثًا [١٠٧] .

وعلى عكس المجمع العلمى المصرى الذى كان عملاً أوربيًا ، كان تأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية « وجمعية المعارف » - التى أنشئت بمباركة من إسماعيل - نابعًا من مبادرات محلية ، ولم تكن معنية بالآثار والمصريات . واعتمدت « جمعية المعارف » على اشتراكات الأعضاء ، واشترت مطبعة ، ونشرت كتب التراث العربى والإسلامى ، وقد انهارت الجمعية عندما حصل إسماعيل على فرمان توريث العرش لأبنائه ، وعندما فر بعض أفراد الأسرة والحاشية إلى إستانبول ممن كانوا يدعمونها ماديًا [١٠٨] .

تمثيل مصر فى المعارض الدولية ، روائع الفراعنة :

كون الكثير من الغربيين انطباعهم المباشر عن مصر من خلال المعارض الدولية التى أقيمت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولعب ماريت وهنريش بروجش الدور الرئيسى فى تنظيم المعروضات المصرية فى عدد من تلك المعارض التى كان

الغرض من إقامتها خدمة التقدم الصناعى ، والرأسمالية ، وتنمية النزعة الاستهلاكية . وكان « معرض لندن الكبير للصناعات الدولية » الذى عقد عام ١٨٥١ الأول فى ذلك المجال الذى اختار له الإنجليز والفرنسيون اسم « المعارض الدولية » ، وسماه الأمريكان « الأسواق الدولية » وكانت تلك المعارض مفتوحة أمام الجمهور العريض الذى يتجاوز حدود الجمعيات العلمية والمتاحف ، ولذلك جمعت تلك المعارض بين مجالات مختلفة ، فهى تتضمن بعضًا من صفات المتحف ، والسوق ، كما تتضمن حديقة للملاهى ، كذلك لعبت تلك المعارض دورًا تمهيديًا للسياحة الخارجية .

وكانت « الجمعية الملكية للفنون » فى بريطانيا تعرض المصنوعات فى معارض محلية منذ العام ١٧٥٦ ، كذلك يرجع تاريخ المعارض المحلية الفرنسية إلى العام ١٧٩٧ . واتجه الأمير ألبرت - رئيس الجمعية الملكية للفنون - وهنرى كول ، الكاتب والموظف الحكومى ، إلى التحرك نحو الساحة الدولية بإقامة « معرض لندن الكبير » عام ١٨٥١ . كان شأن مدرسة مانشستر للعمل الحر مرتفعًا ، وتمت تغطية معظم تكاليف المعرض من التبرعات والشركات الخاصة ، ورسوم الدخول . وخشى المحافظون من سوء تصرف جمهور العامة ، ولكن الطبقة العاملة ، أو من كانوا يسمون « أهل الشلن » حضروا المعرض فى جماعات التزمت الهدوء . وأقيم حفلا الافتتاح والختام بقصر « جوزيف باكستون كريستال پالاس » المقام من الصلب والزجاج ، وحضرت الملكة ڤيكتوريا فى مقصورتها الخاصة عند نهاية المحور الرئيسى للمعرض لتتلقى التقدير الإمبراطورى الرمزى عند الجناح الهندى الذى اختير له موقعٌ إستراتيجى عند ملتقى المحاور ، وانتشرت المعروضات البريطانية فى مختلف أرجاء المعرض ، وكان لكل دولة غربية أخرى جناحها الخاص بها . وتردد على المعرض ستة ملايين زائر على مدى ١٤٠ يومًا ، وعندما نقل المعرض إلى سيدينام بقيت معروضات كريستال پالاس حتى احتراق المبنى عام ١٩٣٦ . وتفيض كتب التاريخ فى وصف الزينات التى شهدتها سيدينام فى الأجنحة اليونانية ، والرومانية ، والبومبية ، والبيزنطية ، والرومانسيكية ، والقوطية ، وفنون عصر النهضة ، والصينية ، والمغربية ، والمصرية [١٠٩] .

وقد أرسلت تونس و « تركيا » - وهوما اصطلح الأوربيون على إطلاقه على الدولة العثمانية - مفوضًا عن كل منها للمعرض الكبير [١١٠] ، وحضر شاه فارس المعرض

بنفسه ، ولم يكن الجناح المصرى رسميًا ، لأن الدولة العثمانية اعترضت على المشاركة المصرية المستقلة ، كما أن عباس الأول لم يكن فى موضع يجعله مضطرًا إلى إبهار الغرب بالآثار والفنون المصرية كدليل على التقدم . واختار الدليل الرسمى للمعرض فاتحة له التحنيط والنماذج الإثنولوچية مع صورة « القائمين بالتحنيط من المصريين » . واحتوى الجناح المصرى على مطبوعات بولاق ، وملابس ، وسروج ، ومحاصيل غذائية ، وشرائح من « المرمر الشرقى » وذكر الدليل أن « الطبيعة حبت مصر بالزراعة والتجارة وليس الصناعة ، فى إطار تقسيم منطقى للعمل » (١١١) . وبرزت الآثار الفرعونية وحدها مع انتقال المعروضات إلى سيدينام ، فهناك طريق للأسود يقود إلى واجهة معبد على الطراز البطلمى ، كتب عليه بالهيروغليفية « فى العام السابع عشر من حكم ڤيكتوريا ، ملكة الأمواج (البحار) أقيم هذا القصر الذى زود بألف تمثـال ، وألف من النباتات ، وغيرها ، ليكون بمثابة كتاب يطلع عليه أهل جميع البلاد » (١١٢) . وأقام جوزيف بونومى نسخة من التمثال المزدوج بأبى سمبل توسط الجناح المصرى (انظر الشكلين ٢٤ و ٢٤) .

وجاءت الاستجابة الفرنسية لتحدى « المعرض الكبير » فى عهد نابليون الثالث عندما أقيم « المعرض الدولى » فى شامپ دى مارس عام ١٨٥٥ ، حيث قام السان سيمونى فردريك لوپلاى بتقديم مشروع سوسيولوچى لعرض المصنوعات البشرية . ألقت وفاة الأمير ألبرت بظلالها على معرض لندن الدولى الثانى الذى أقيم عام ١٨٦٢ ، عندما أرسلت كل من مصر واليابان معروضاتها رسميًا لأول مرة ، ولما كان ماربيت مفوضًا رسميًا من قبل سعيد بذلك المعرض ، فقد أرسل إلى لندن قطعًا أثرية من المجموعة التى كونها ببولاق من أجل المتحف الذى لم يكن قد افتتح بعد ، ورافق ماربيت سعيدًا فى زيارته لباريس ، وأقام معه بقصر التويلرى ، ثم صحبه إلى لندن لمشاهدة المعرض (١١٣) .

وحقق معرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ ، انتصارًا لكل من نابليون الثالث ، ورائد التجديد الحضرى البارون هاوسمان ، والخديو إسماعيل ، وماربيت ، وفى تلك المرة أقام لوپلاى دائرة عرض خارجية بالمبنى الرئيسى خصصت للآلات ، وأخرى داخلية تستعرض تطور التقدم الحضارى من العصر الحجـرى حتى ذلك الوقت ، وجمع

القسم « الشرقى » بين الجناح المصرى ، وحرملك باى تونس ، والحمامات التركية ، والكشك العثمانى ، وبيت الشاى الصينى ، فى مكان واحد (١١٤) .

ولما كان إسماعيل حريصًا على ذيوع لقب الخديو الجديد الذى حصل عليه ، وتأكيد استقلاله عن إستانبول ، فقد أوكل إلى مارييت مهمة تقديم معروضات تحقق الإبهار ، فخصص قسمًا محدداً من الجناح المصرى لكل من مصر القديمة والوسيطة ، والحديثة ، كما عرض ديليسبس ما أحرزه العمل فى قناة السويس من تقدم متسارع . وصمم مارييت القسم الفرعونى على طراز مقصورة الإمبراطور تراجان بجزيرة فيلة ، مع إضفاء لمسات عليه من الدولة القديمة والدولة الحديثة وعصر البطالمة . وقام طريق أبى الهول ليقود الزائر إلى ذلك القسم الذى توسطه تمثال خفرع الشهير المصنوع من الديوريت والتمثال الخشبى « شيخ البلد » من متحف بولاق .

وزين السلاملك الإسلامى ، أو حجرة استقبال الرجال بمشكاوات يعلوها هلال ذهبى ، ووضعت به تماثيل نصفية لإسماعيل . وقدم محمود الفلكى لوحات الخرائط الخاصة بالإسكندرية قديمًا وحديثًا ، وخرائط بينت الجيولوچيا والصناعة والتجارة والرى ، كما تضمن الجناح المطبوعات العربية والتركية التى صدرت من مطبعة بولاق تعبيراً عن التنوير والصحوة الثقافية فى ظل الأسرة الحاكمة . أما القسم الثالث فاتخذ شكل الوكالة ذات المشربيات التى تميز بيوت القاهرة . ووضعت عشر لوحات مصورة لمناظر لرجال ونساء يعملون بالزراعة والصناعة . واحتوى قسم السويس الفرعونى الحديث على نموذج مجسم للبرزخ ولوحات للخرائط مبين عليها مدن القناة .

ولكن ، ما الذى كان معبراً عن الحقيقة ، وما الذى كان شكليًا ؟ ضمت الوكالة بعض الحرفيين وزوج من الجمال ، وآخر من الحمير . وشارك الخديو إسماعيل وديليسبس فى العرض ، فقد وقف ديليسبس فى القسم الخاص بالسويس ، واستقبل الخديو إسماعيل نابليون الثالث وأوچينى فى السلاملك .

واعتذرت الإمبراطورة عن عدم قبول دهبية فخمة حملت اسم « بنت النيل » ، هدية من إسماعيل ، وانتهى بها المطاف إلى أن تهدى للأمير نابليون ، ورغم أن الكاتب الرومانسى تيوڤيل چويتييه حضر افتتاح قناة السويس فيما بعد ، إلا أنه أعلن أن

زيارته للجناح المصرى كانت رحلته الحقيقية إلى مصر . وفى باريس ، شاهد چوتييه فتح إحدى المومياوات ، كما شاهد خمسمائة جمجمة انتزعت من المومياوات ورتبت زمنيًا حسب النظرية الأنثروبولوچية الشائعة عندئذ ! .

وعندما أبدت الأمبراطورة أوچينى ميلها إلى أخذ مجوهرات إحدى الملكات الفرعونيات وبعض التماثيل الفرعونية ، أحالها إسماعيل إلى مارييت ، فعرضت عليه إدارة المطبعة الإمبراطورية الفرنسية أو المكتبة الوطنية ، أو مقعد بمجلس الشيوخ ، أو إدارة اللوڤر أو أن يلعب دورًا فى مساعدة زوجها فى كتابة سيرة قيصر. ولكن مارييت رفض صراحة أن يعطيها أى من آثار مجموعة بولاق ، مضحيًا بما قدمته له من عروض مؤقتة . وقد عاد إسماعيل وديليسبس ، ومارييت ، وعلى مبارك من باريس بأفكار حول تنظيم احتفالات افتتاح قناة السويس التى أقيمت بعد ذلك بعامين .

وكانت احتفالات افتتاح قناة السويس التى أقامها إسماعيل وديليسبس ، ومارييت ، وعلى مبارك فى خريف عام ١٨٦٩ ، بمثابة رد مصرى على المعارض الكبرى ، فقد حشدت الاحتفالات موارد الدولة والموارد الخاصة من أجل إبهار العالم ، تضمن إقامة أجنحة مؤقتة ، وجذب مجموعة من النجوم الدولية . وأعد مارييت دليلاً بهذه المناسبة ، وصحب ملوك وأمراء أوروبا - بنفسه - فى جولتهم بصعيد مصر . كما اقترح الإطار لما أصبح يعرف فيما بعد بأوبرا عايدة لڤردى ، فرسم الحوادث منذ عهد رمسيس الثالث ، وصمَّم الملابس على ضوء المناظر التى جاءت بالمقابر الفرعونية ، ورسم بنفسه ، بالألوان المائية ، الستائرالخلفية للعرض الدولى الأول بدار - الأوبرا بالقاهرة فى ديسمبر ١٨٧١ (١١٥) .

وفى عام ١٨٧٣ ، أقامت ڤينا أول معرض دولى فى البلاد المتحدثة بالألمانية ، فاختار إسماعيل هنريش بروجش - الذى عمل مساعداً لمارييت فى باريس ١٨٦٧ - مفوضاً عاماً لمصر فى ذلك المعرض ، وكان مارييت مرتاحًا تمامًا وهو يرافق أوجستا - إمبراطورة الهبسبورج - فى زيارتها للجناح المصرى ، بعدما احتاط للأمر ، فلم يرسل إلى ڤينا سوى نماذج مقلدة للآثار والقليل من القطع ذات القيمة المحدودة ، ولكن انتشار وباء الكوليرا أدى إلى إلحاق الفشل بذلك المعرض الدولى .

وعبر الولع بالمعارض المحيط الأطلنطى ، فأقيم معرض مئوية فيلادلفيا عام ١٨٧٦ ، وتولى الأنثروبولوچيون من معهد سميثونيان تنظيم معروضات المبنى الرئيسى على أساس عرقى ، فوضعوا فى المركز الأول الأنجلو سكسون (الإنجليز والأمريكان) ، واللاتين (وخاصة فرنسا) ، والتيوتون . وظهر الأمريكان السود بصورة مهينة يؤدون دورهم فى الجنوب . وقامت حشود من الأوغاد البيض بمضايقة الزوار الأتراك ، والمصريين والأسبان ، واليابانيين ، والصينيين (١١٦) . ورغم معاناة الأزمة المالية ، حرصت مصر ، وتونس والدولة العثمانية على المشاركة فى المعرض ، ونظم بروجش الجناح المصرى تحت شعار « من أقدم الشعوب إلى أحدثها » . وكان للجناح المصرى واجهة معبد فرعونى ، وقدمت مطبوعات بولاق - مرة أخرى - الدليل على التقدم الحديث .

وجاء معرض باريس الدولى عام ١٨٧٨ استمرارًا لدائرة من المعارض الفرنسية على مدى أحد عشر عامًا ، بلغت ذروتها عام ١٩٠٠ . وفى محاولة لنسيان كابوس الحرب البروسية الفرنسية ، وكوميونة باريس ، والانقلاب الذى دبره الرئيس ماكماهون عام ١٨٧٧ ، قامت فرنسا بإنشاء بناء ضخم فى شامب دى مارس ، على مساحة ٤٤ إكر . وقامت الأجنحة مختلفة الطرز بجوار بعضها البعض على « طريق الأمم Avenue des Nations » لمسافة تقرب من نصف الميل ، وبلغ عدد زوار المعرض ١٣ مليونًا (١١٧) .

وكاد إسماعيل أن ينسحب - تقريبًا - من المعرض بسبب الحرب التركية - الروسية التى أرهقت ميزانيته المتداعية أصلاً ، وتبددت أحلام ماربيت فى إقامة أقسام مصر القديمة والوسيطة والحديثة ، ولكن ديليسبس وشركة قناة السويس شاركا بجناح على الطراز الفرعونى الحديث ، واقتصر وجود مصر على مساحة محدودة بسراى تروكاديرو ، فتم عرض مستنسخات من مناظر مقابر بنى حسن ، ورأس خفرع ونموذج لبيوت الحرفيين القديمة ، وواجهة منزل بالمشربيات ، وبعض الخزف ، والسيوف والدروع التى صنعت على أنها تمثل العصور الوسطى ، وقدمت المجوهرات ، والسجاد ، والمطرزات على أنها تمثل العصر الحديث . وجاء بدليل المتحف « يمكن القول أن البلاد تخلو تمامًا من الصناعة » (١١٨) ، وعكست الخرائط التى علقت بالجناح ضم مصر

للأراضى السودانية عند خط الاستواء ، فى وقت كانت فيه مصر ذاتها على وشك التعرض للغزو الغربى .

تقديم « المصريات » ، المؤتمر الدولى للمستشرقين :

ساعدت الثورة التى حدثت فى مجال النقل والمواصلات ، على جعل إقامة المعارض الدولية ، والرحلات السياحية التى نظمها كوك ، أمرًا ممكنًا . ولكنها أطلقت - أيضًا - حركة المؤتمرات الدولية التى بلغت النضج فى السبعينات ، وكان المتطلب الآخر لنجاح تلك الحركة هو وجود شبكة من المنظمات الوطنية - وهى هنا الجمعيات الأسيوية ، والشرقية ، والجغرافية - وقد ظهرت تلك المنظمات منذ العشرينات . وبحلول عام ١٨٧٠ كانت الجمعيات الاستشراقية قد تم تأسيسها جميعًا ؛ فقد أنشئت الجمعيات الجغرافية القومية ، والجمعيات الأسيوية بباريس (عام ١٨٢٢) ، وفى بريطانيا العظمى وأيرلندا (عام ١٨٢٣) ، وفى أمريكا (عام ١٨٤٢) ، وفى ألمانيا (عام ١٨٤٥) . وبوجود مصلحة الآثار ، والمتحف المصرى والمجمع المصرى والجمعية الجغرافية الخديوية ، أصبح إسماعيل مستعدًا - أو على الأقل الأوربيون فى مصر - للمشاركة فى حركة المؤتمرات الدولية .

وتبلورت فكرة عقد مؤتمر دولى للمستشرقين فى الجمعية الإثنوجرافية بباريس [١١٩] ، وشهدت تلك المدينة عقد أول مؤتمر عام ١٨٧٣ ، وشكلت « المصريات » قسمًا مهمًا من اجتماعات المؤتمر لمدة قرن من الزمان من تأسيسه ، وإن كان الشائع فى القرن العشرين الفصل بين « المصريات » والاستشراق ولكن مؤسسات مثل « الجمعية الشرقية الأمريكية » و « المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة » ، و « المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو » أبقت على التداخل بين المجالين ، وفى عام ١٩٧٣ انفصل علماء المصريات عن « الموتمر الدولى للمستشرقين » الذى اضطر لمجاراة الظروف المتغيرة ، فحول اسمه إلى « المؤتمر الدولى للدراسات الأسيوية والشمال أفريقية » .

وقد ظهرت كلمة « مستشرق » بمعنى المتخصص فى اللغات والآداب الشرقية ظهرت فى اللغة الإنجليزية عام ١٧٨١ ، ولم تظهر كلمة « مصرياتى » حتى عام ١٨٥٩ ، ولم يشع استخدامها إلا فى السبعينات عندما بدأت « المصريات » تقف على أقدامها كتخصص مستقل [١٢٠] .

وبدأ الأوربيون المشتغلون بالآثار المصرية فى مصر يغيرون من عادات لباسهم حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فقد كان الرواد من المستشرقين الآثاريين : شامبليون ، وروسيلليني ، وويلكنسون ،ولين ، وبريس دافين يطلقون لحاهم ، ويرتدون الملابس التركية . وكان ذلك المظهر مفيداً وموفراً للأمن فى أيامهم ، رغم أنهم عندما كانوا يعرضون هذا الزى فى بلادهم تبرز دائمًا تساؤلات حول الهوية ، والتخفى ، وادعاء الخبرة بالثقافات الأجنبية . وعندما أصبحت « المصريات » تخصصاً محدداً ، وزاد قدوم الغربيين إلى مصر ، ولم يعد علماء المصريات من أمثال ماسپيرو وپترى يظهرون بالزى « الشرقى » . ولم يكن المشتغلون بالمصريات بحاجة إلى اللغة العربية حتى يثبتوا كفاءتهم . غير أن المستشرقين الذى اختبروا أنفسهم بالاندماج مؤقتًا داخل المجتمع « الآخر » الذى لازال موجوداً ، استمروا فى التخفى فى الزى المحلى لفترة أطول .

وثمة ملاحظة لا تبعث علي الارتياح بالنسبة لمسألة التعريف : فالمصريات كانت ولا تزال تعنى دراسة مصر القديمة ، والمصطلح يعنى بوضوح استبعاد مصر الإسلامية ومصر الحديثة من دائرة الدراسة ، وهناك فكرة غربية أخرى تؤكد الاستمرارية فى تاريخ مصر وتعارض الانقطاع ، وهى بدورها لا تبحث علي الارتياح ، فهى تفترض أن جوهر الفلاح المصرى لم يتغير منذ العصور القديمة . فهذه الفرضية تصب فى فكرة الشرق الراكد غير المتغير الذى يعد نقيض الغرب الحركى المتغير . ويبدو أن هذا ما كان يعنيه أحد المستشرقين عندما التقط صورة لفلاح مسترخى الرأس ليؤكد التشابه بينه وبين مومياء تم اكتشافها فى طيبة (انظر الشكل ٢٥) .

وتضمنت أعمال « مؤتمر المستشرقين الدولى الأول » الذى عقد بباريس عام ١٨٧٣ سبعة أوراق بحثية فى المصريات ، وواحدة فى الدراسات القبطية ؛ وكان من بين

الثمانية أصحاب تلك الأوراق سبعة من الفرنسيين منهم ماسبيرو وشاباس ، أما الثامن فكان صامويل بيرش . وكانت القوات الألمانية لازالت تحتل الأراضى الفرنسية حتى ١٦ سبتمبر ١٨٧٣ ، ولذلك لم يكن منظمو المؤتمر فى حالة مزاجية تسمح لهم بدعوة الألمان للمشاركة . ورغم ذلك سدد ٣٥ ألمانيًا اشتراك المؤتمر (لم يحضر المؤتمر كل المشتركين الذين بلغ عددهم ١٠٦٤ مشتركًا) ، واشترك ليبسيوس فى المناقشات وهو جالس بين صفوف الحضور . وكان الخديو إسماعيل ، ومحمود الفلكى ، ويعقوب أرتين وستة آخرين من المصريين ، ضمن قائمة المشتركين من مصر الذين بلغ عددهم عشرين مشتركًا ، وكان من بين الأحد عشر الآخرين ماربيت ، وهنريش بروجش ، وألبرت دانينوس . ويلفت النظر أن اسم شفاينفورت ورد كممثل للجمعية الجغرافية التى لم تكن قد تأسست بعد (١٢١) .

ويختلف الباحثون حول رد فعل المصريين على تمثيل بلادهم فى المعارض الدولية و« مؤتمر المستشرقين الدولى » فيذهب تيموثى ميتشل - الذى استخدم مدخلاً صعيديًا أو ما بعد الحداثة - إلى تأكيد عدم ارتياح المصريين وإحساسهم بالحرج ، بينما يرى كارتر فيندلى أن رد فعل المصريين والعثمانيين كان إيجابيًا وباهتًا . ويستقى كل من ميتشل وفيندلى أدلتهما من مؤتمر المسستشرقين الدولى الذى عقد فى ستوكهلم وكريستيانا (أوسلو الآن) والمعرض الدولى بباريس عام ١٨٨٩ الذى يقع فى الفترة التى يعالجها الفصل السادس من هذا الكتاب (١٢٢) .

وكان باحث يابانى نشيط ، شارك فى مؤتمر المستشرقين الدولى قد دحض الفكرة القائلة بأن المستشرقين الغربيين وحدهم هم القادرون على مناقشة « الشرقيات » ، وأشاد الجنرال نزار أغا - السفير الفارسى - بالمستشرقين لاكتشافهم أن لغة الفردوسى ودارا وكسرى تنتمى إلى عائلة اللغات الأوربية ، قائلا : « بفضل تقدم فقه اللغة المقارن أصبح باستطاعة الفرس اليوم أن يفصحوا عما كانوا يوقنون به من قبل ، وهو أنهم ينتمون إلى نفس العنصر الذى ينتمى إليه الأوربيون ، وأنهم أشقاء الأمة النبيلة التى افتتحت هذا العام الأعمال الدولية الكبيرة العظيمة لمؤتمر المستشرقين » (١٢٣) .

وقد تولى صـامويل بيـرش - عـالم المصريات - رئاسة مؤتمر المستشرقين الدولى الثانى الذى عقد بلندن عام ١٨٧٤ (انظر الجدول ١١ بالملاحق ، وانظر أيضًا الشكل ٢٦) ، ومزج فى كلمته بين الزهـو الإمبريالى ودولية العلم عند حديثه عن لندن قائلاً :

« إنها متميزة لتوسعها ولانكبابها على دراسة الشرق الذى تربطها به آلاف الروابط : المصالح التجارية ، ونشر الحضارة ، وأعمال التبشير ، وواجب حكم البلاد الشرقية التابعة لها ذات اللغات المتعددة والمواقع المتباينة فى الشرق . . .

والمستشرقون أيضًا جميعهم رجال ينتمون إلى عائلة واحدة . . . طلاب علم ، تختفى وتُنسى عندهم كل أنواع التمييز على أساس العرق والدين والجنسية . وحتى النقد لا يجب أن يكون أو أن يصبح ذاتيًا ، طالما كان غرض العلم توسيع آفاق العقل ، والتماس الحقيقة التى يصعب الوصول إليها فى معظم الأحوال ، ولا لوم إن أخطأ الطريق إليها » [١٢٤] .

وقد عكست أقسام المؤتمر التصنيف السائد على أساس لغوى عرقى ، فإلى جانب قسمى الآثار والإثنولوچى ، هناك الأقسام السامية ، والحامية ، والطورانية ، والآرية . وأعلن بيرش أن « قسم الحامية سوف يمثل التقدم الذى أحرزه علم المصريات منذ تم اكتشاف طريقة حل وقراءة اللغة التصويرية لمصر القديمة عام ١٨١٧ » [١٢٥] . ويعنى هذا التاريخ اعترافًا بجهد توماس يانج ، وإغفالاً لشامبليون ، ولكن لم يكن هناك فرنسى بين الحضور حتى يعلن احتجاجه على ذلك . واستحوذ ليبسيوس وخمسة من الألمان الآخرين ، على قسم المصريات ، تمامًا كما فعل الفرنسيون فى الدورة الأولى للمؤتمر فى العام السابق . وكان بروجش يمثل مصر رسميًا بالمؤتمر ، بينما كان بيرش لا يزال عالم المصريات البريطانى الوحيد بالمؤتمر ، وقد دعا زملاءه السبعة إلى ورشة عمل بمنزله [١٢٦] . وانتقل مؤتمر المستشرقين الدولى الثالث إلى سان بطرسبورج عام ١٨٧٦ ، ومثل مصر فيه ماربيت كعضو مراسل فى اللجنة التنظيمية للمؤتمر ، وفى المؤتمر الرابع الذى عقد فى فلورنسا عام ١٨٧٨ إنتهى التنافس الفرنسى - الألمانى ، وتولى ماربيت رئاسة « قسم المصريات واللغات الأفريقية » الذى اختص بمصر وحدها

من الناحية العملية . وكان أصحاب الأوراق البحثية التى ألقيت هم ألمانى ، وسويسرى (نافى) ، وإيطاليان (أحدهما أرنستوشيا باريللى) ، ولم يكن بينهم مصرى أو أوروبى مقيم بمصر (١٢٧) .

هكذا وفر « مؤتمر المستشرقين الدولى » - منذ بدايته حتى الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ - منبراً مهمًا لتخصص المصريات حديث النشأة . فإلى جانب كبار المتخصصين من أمثال ماسبيرو ، وبيرش ، وليبسيوس ، وبروجش الذين وضعوا أصوله ، غامر القليل من الهواة بتقديم أوراق بحثية ، وكان التنافس الفرنسى - الألمانى ماثلاً على مسرح المؤتمر وخارجه ، بينما افتقر المصريون إلى من يوصل صوتهم إلى قسم المصريات بالمؤتمر ، فلم يكن قد ظهر بعد متخصص مصرى فى ذلك العلم .

نذر العاصفة ، إسماعيل وماربيت فى السبعينات :

حقق إسماعيل وماربيت انتصارات فى أول الأمر ، ثم منيا بالنكبات فيما بعد . كيف يستطيع شخص واحد أن يكتشف السرابيوم ويؤسس مصلحة الآثار والمتحف المصرى ، ويرتب العروض المصرية فى المعارض الدولية ، ويضع ترتيبات احتفالات افتتاح قناة السويس ؟ ، كانت المآسى فى حياة الرجل تترى ، أزهقت الكوليرا روح زوجته ، ومات ستة من بين أولاده العشرة فى حياته ، وعانى من مرض السكر عدة سنوات حتى قضى نحبه (١٢٨) .

ولم يكن ماربيت يحظى بالأمان فى وظيفته ، فكما قال أحد الفرنسيين « ماربيت بك جزء من الأسرة الخديوية فى السراء والضراء ، في نفس مستوى ناظر الإسطبلات وكبير الأغوات . كان عالم مصريات يقف فى طريق يحتاج إلى منجم منظم استعراضات بارع ، وجد نفسه فى موقع بين الأحمق والطبيب » (١٢٩) . وبعد وفاة ماربيت ، فقدت مصلحة الآثار وضعها الخاص تحت جناح الخديو ، ففى عام ١٨٨٣ أصبحت تابعة لنظارة الأشغال العمومية .

وكـان خـصــوم مـارييت يرددون – همســا – أن مــارييت عـميل للرقـيب الفـرنســـى ، يبـيع الآثار سـراً ، وأنه كـان يكدس الآثار فى بولاق ليـزيد من ثروته الشخصية . وتأثر إسماعيل بذلك ، فانتزع الباخرة من مارييت وألغى صلاحياته فى تسخير العمال (١٣٠) . وفى عام ١٨٦٧ كانت لديه مخصصات مالية لا تكفى سوى لاستئجار بضع مئات من العمال .

وفى عام ١٨٧٣ ، لم يكن هناك مال يكفى للحفائر ، والمطبوعات وتوسعات المتحف ، وتأخر صرف راتبه زمنًا طويلاً ، إضافة إلى فقده للباخرة ، فألف كتابًا حقق رواجًا ، عنوانه « رحلة فى صعيد مصر » يقع فى مجلدين (١٨٧٨ – ١٨٨٠) استخدم عائده فى سداد ديونه – وفى عام ١٨٧٨ قام وزير الأشغال الفرنسى بوزارة نوبار بتـوفير ألف جنيـه لينفقها مارييت على أهم الحفائر التى كان بحاجة لاستكمالها ، وقـــدمت له وزارة التعـليم العام الفرنسية معونة قدرها عشرة آلاف فرنك (١٣١) .

كانت أحلام مارييت فى النشر عظيمة مثل حفائره الأولى بمصلحة الآثار ، ولكنها جميعًا تحطمت على صخرة التمويل والوقت . فالحفائر وأعمال المتحف ، والأسفار ، والتخطيط للمعارض الدولية ، والمغامرات الدبلوماسية ، كل ذلك لم يترك له وقتًا كافيًا للعمل العلمى . وحرمته وفاة ديڤريا المبكرة من العون الذى كان فى أمس الحاجة إليه لطباعة النقوش .

وأعلنت الحكومة عن عطاءات فى مارس ١٨٧٣ لتشييد متحف كبير بالجيزة ، متجاهلة نذر الإفلاس التى لاحت فى الأفق . وكـان من المقرر أن يتم البناء فى أول أكتوبر بتكلفة قدرها١٨٦ ألف فرنك . وخصصت أكاديمية النقوش والفنون بباريس جائزة قدرها عشرين ألف فرنك لتصميم واجهة المتحف . ولكن بعد إعلان حقيقة الحالة المالية لمصر فى صيف ذلك العام خلال معرض ڤينا ، اختفى مشروع المتحف المقترح مثلما اختفت مدرسة اللسان المصرى القديم من الوجود (١٣٢) .

ووفقًا لما يذكره كرومر : « بلغت الفوضى المالية وبؤس الناس الذروة فى صيف وخريف عام ١٨٧٨ »(١٣٣) . وقامت بريطانيا وفرنسا بتجريد إسماعيل من أملاك عائلته ، وأجبرته على تعيين نوبار رئيسًا للوزراء مع تولى بريطانى وزارة المالية وفرنسى وزارة

الأشغال العمومية ، وغمر الفيضان متحف بولاق ومقر إقامة مارييت فى أكتوبر ١٨٧٨ مما أدى إلى دمار الكتب والمخطوطات والآثــار . ولم يتحقق اقتراح نقل المتحف إلى مدرسة البنات - التى لم يكتمل بناؤها - بمجمع وزارة الأشغال العمومية ، وهو - على ما يبدو - المكان الذى حصل عليه المجمع العلمى المصرى عام ١٨٨٠ .

وفى صيف ١٨٧٩ ، أجبرت بريطانيا وفرنسا السلطان عبد الحميد الثانى على خلع إسماعيل وتولية ولده توفيق حكم مصر . وبذل ماريت جهوداً فى إصلاح وتنظيف المتحف الذى أعيد افتتاحه عام ١٨٨٠ . ولم يكن قد بلغ الستين عندما مات فى يناير ١٨٨١ بسبب السكر ، وذلك قبل عام ونصف العام من قيام ثورة عرابى ، ووقوع الاحتلال البريطانى . وشهدت سنى عمره الأخيرة بعض النقاط المضيئة ، فقد انتخب عام ١٨٧٨ عضواً بأكاديمية النقوش والفنون الجميلة بباريس ، ومنح رتبة الباشوية فى ٥ يونيو ١٨٧٩ قبل خلع إسماعيل ببضعة أسابيع ، وأخبره الأخوان بروجش - وهو على سرير الموت - بنصوص الأهرام العجيبة التى عثر عليها بهرم أوناس بسقارة .

انتهى عصر إسماعيل وماريت الذى كان متوهجًا . وبعد العام الذى شهد الثورة العرابية والغزو البريطانى ، جاء كرومر وماسبيرو وإلى جانبهما بترى - صاحب الفكر المستقل - ليضعوا مساراً جديداً للآثار المصرية فى ظل الحكم الاستعمارى . ودخل التنافس الأنجلو - فرنسى فى مصر مرحلة جديدة ، دافعت فيه فرنسا عن وجودها فى ميدان الآثار وفى غيره من الميادين . . . ومع غياب الطهطاوى أخذ أحمد كمال وبعض زملائه على عاتقهم خوض المعركة لتأسيس علم مصريات مصرى .

الهوامش

(١) Mohamed Saleh and Hourig Sourouzian, The Egyptian Museum Cairo : Official Catalogue (Cairo, 1987), 9.

وعلى كل ، أشار هذا الكتالوج إلى الجهود الأسبق .

(٢) Michael Adas, Machines as the Measure of Men : Science, Technology and Ideologies. of Western Dominance (Ithaca, N.Y. 1989); see also F. Robert Hunter, Egypt under the Khedives : From Household to Modern Bureaucracy (Pittsburgh, 1984) :

انظر أيضًا : عبد الرحمن الرافعي ، عصر إسماعيل ، ط ٢ (القاهرة ١٩٤٨).

(٣) Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism : Egypt 1760 -- 1840 (Austin, Tex., 1979).

(٤) حول رفاعة الطهطاوى ، انظر : صالح مجدى ، حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن : سيرة رفاعة بك رافع الطهطاوى ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٨) ؛ أحمد بدوى ؛ رفاعة رافع الطهطاوى ، ط٢ ، (القاهرة ١٩٥٩) وحول على مبارك ، راجع سيرته الذاتية فى موسوعته : الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ مجلد (القاهرة ١٣٠٥ / ٨٦ – ١٨٨٧) ، ٩ : ٣٧ – ٦١ . وانظر أيضًا : Anouar Louca, Voyageurs et ecrivains

وكذلك : Glibert De lanone, Moralistes et Politiques Musulmans dan l'Egypte.

(٥) حول سيرة أحمد كمال ، راجع : المقتطف ، العدد ٦٣ (نوفمبر ١٩٢٣) ، ص ٢٧٣ – ٢٧٧ . وتوفيق حبيب ، « تاريخ الكشف عن الآثار المصرية وأعمال المرحوم أحمد كمال باشا » ، الهلال ، ٣٢ (نوفمبر ١٩٢٣) ، ص ١٣٥ – ١٤١ . وزكى فهمى ، صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير الرجال فى مصر ، مجلدان ، (القاهرة ١٩٢٦) ، جـ ١ ، ٣٢١ – ٣٢٦ .

(٦) On L'Hôte, Rosellini, Dubois and de Rougé, see Who Was Who, 3 : 253 - 254, 362 - 63, 130 - 31, 365-66 .

(٧) Elisabeth David, Mariette Pacha 1821 - 1881 (Paris 1994); Edouard Mariette, Mariette Pacha (Paris 1904); Auguste Mariett Pach, Le Séropeum de Memphis (Paris 1882); On Curzon and Tattam, See Who Was Who, 3 : 113, 410 - 11.

(٨) دار الوثائق القديمة ، محافظ الأبحاث ، ١١٨ ب آثار ، وتتضمن رسائل من لوموين إلى إسطفان بك بهذا الشأن فيما بين ١٨٥١ – ١٨٥٢ .

(٩) Gaston Maspero, Guide du visiteur au Musée du Cairo, 4th ed., (Cairo 1915), x; Abou - Ghazi, "Egyption Museum" ASAE 67 (1991), 9.

(١٠) دار الوثائق ، محافظ الأبحاث ، ١١٨ ب ، آثار ، رسائل متنوعة من ماريبت .

(١١) Bernard S.Cohen, Colonialism and Froms of Knowledge : The British in India (Princeton 1966), 9.

(١٢) Maspero, "Mariette", xcvi.

(١٣) Maspero, "Mariette", xcvi.

(١٤) May Trad, "Journal d'entrée et catalogue général", ASAE 70 (1984-85), 253 - 57.

(١٥) دار الوثائق ، محافظ الأبحاث ، ١١٨ ب ، آثار ، من ماريبت إلى كونج بك فى ١٨ أبريل ١٨٥٨ .

(١٦) Who Was Who 3 : 276.

(١٧) W.M.F. Petrie, Seventy Years in Archaeology, (London 1931), 46.

(١٨) Maspero, "Mariette", cxliv.

(١٩) Petrie, Seventy Years, 52 - 53.

(٢٠) Garnot, Mélanges, 1 - 2 .

(٢١) Maritte, Oeuvres, cxxxi; For this paragraph see cxxiii - cxxxi; and Landes, Bankers, 108 - 9.

(٢٢) William Makepeace Thackeray, The Paris Sketch Book of M. A. Titmarsh : The Irish Sketchbook and Notes of a Journey From Cornhill to Grand Cairo (New York, n-d.), 714; Jeason Thompson, Sir John Gardner Wilkinson and His Circle (Austin, Tex-1992), 192-93.

(٢٣) حرصت على إيراد هذا الاقتباس ، مخالفًا بذلك العرف الأكاديمى ، وقد تاهت البطاقة التى كتبتها عليها بين أوراقى فلم أستطع تحديد مصدرها ، ولعله من وثائق الخارجية الفرنسية بأرشيف نانت .

(٢٤) دار الوثـــائق القومية ، محفـــوظات مجلس الوزراء ، نظارة الأشغال ، مصلحة الآثار ١ / ٤ : متاحف ١٨٧٩ - ١٩١٤ ، ملف الحكومات الأجنبية والآثار المصرية ، طلب دولة أمريكا لمسلة ، ٢٠ أكتوبر ١٨٧٩ ، ويحتوى على مراسلات متبادلة بين شريف باشا - رئيس مجلس النظار - والقنصل الأريكى العام فارمان .

(٢٥) Maria Avgouli, "The Firsr Greek Museums and National Identity", in Museums and the Making of "Ourselves" : The Role of Objects in the National Identity,ed., Flora E.S. Kaplan (London, 1994).

(٢٦) استمر عثان حمدى مديرًا لمتحف استانبول حتى وفاته عام ١٩١٠ ، انظر :

Tülay Egril, Museums of Istambul (Istambul 1993).

(٢٧) دائرة الوثائق القومية، محافظ الأبحاث ، ١١٨ ب آثار، خطابات من ماريبت إلى كونج فى أبريل ١٨٥٨ .

(٢٨) هذا الاقتباس والاقتباسين التاليين له من :

Maspero, "Mariette", cxxiv, cxxv.

(٢٩) Maspero, "Mariette", cxcii.

(٣٠) فيما يتعلق بمتحف بولاق عامة راجع :

Auguste Mariette Bey, Notice des Principaux monuments exposés dans les galaries provisoirer du Muséee d'antiquités ègyptiennes de S.A. le Vice-Roi àBoulaq, 1st-5th eds., (Alexandria/Cairo 1864 - 74).

(٣١) Maspero, "Mariette", cxxxix.

(٣٢) F. de Saulcy. "Musée du Cairo", Revue archéologique,n-s. (May 1864) 9 : 313-22; Maspero, "Mariette", cxxxix - cxi.

(٣٣) Mariette, Notice, 1868, 10-11.

(٣٤) Mariette, Notice, 1868, 10.

(٣٥) أوجست ماريت بك ، وصف نخبة الآثار القديمة المصرية الموضوعة فى أنتكخانة التحف العلمية المصرية (القاهرة ١٢٨٦ / ١٨٦٩).

(٣٦) Marette, Notice, 1868, 20 - 21.

(٣٧) Maspero, "Mariette", cxxvii-cxxviii.

(٣٨) Maspero, "Mariette", cxl.

(٣٩) بداية القدماء وبداية الحكماء ، ترجمة مصطفى الظواربى ، ومحمد عبد الرازق ، وعبد الله أبو السعود (بولاق ١٢٥٤ / ١٨٣٨) ؛ أبو الفتوح رضوان ، تاريخ مطبعة بولاق (القاهرة ١٩٥٣) ٤٦٨ ، يورد ذكر تاريخ المصريين أو تاريخ قدماء المصريين بين كتب الطهطاوى (١٨٣٩) ؛ عايدة إبراهيم نصير :كتب عربية منشورة فى مصر فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٩٠) ٢٥٢ .

(٤٠) مقتبس من كتاب :

Arthur Rhoné, L'Egypte à petites journées : Le Caire d'autre Fois newed. (Paris, 1910), 3.

(٤١) يقدم الشيال عناوين مختلفة لهذه الترجمات ، انظر :

Shayyal, History, 41-43.

(٤٢) رفاعه الطهطاوى ، أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل ، فى الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ، تحقيق محمد عمارة ، المجلد ٣ ، تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٧٤) .

(٤٣) Yousef M. Choueri, Arab History and the Nation - State : A Study in Modern Arab Historiography 1820 - 1880 (London, 1989), 9 - 11.

(٤٤) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ١٤ – ١٥ ، ١٨ – ١٩.

(٤٥) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٣٣ – ٧٠ ، والفصل الخاص بالآثار ٦٣ – ٦٦ .

(٤٦) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٧٠ .

(٤٧) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٦٤ ، ٧٤ .

(٤٨) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ – ١٠٥ ، ١١٠ – ١١٣ .

(٤٩) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٧٣ .

(٥٠) ت . فهد ، مادة « الصابئة » دائرة المعارف الإسلامية ، ٨ : ٦٧٥ - ٧٨ .

(٥١) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٢٠ - ٢١ .

(٥٢) خليل صابات ، تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ، ط ٢ (القاهرة ، ١٩٦٦) .

(٥٣) محمد عبد الغنى حسن ، وعبد العزيز الدسوقى ، روضة المدارس ، نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية ، (القاهرة ١٩٧٥) ٤٤ - ٤٥ .

(٥٤) Louca, Voyageurs, 73.

(٥٥) حسن ، والدسوقى ، روضة المدارس ، ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٦٣ - ٢٦٥ .

(٥٦) حسن ، والدسوقى ، روضة المدارس ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٦٣ - ٢٦٥ ، ٢٨١ .

(٥٧) Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Grand Larouse de La langue française (Paris, 1971 - 1978).

(٥٨) انظر الجدول رقم (٦) بالملاحق .

(٥٩) Maspero, "Mariette", cixxx-xlxxxii.

(٦٠) D.A.Farnie, East and West of Suez 1854-1956. (Oxford, 1969), 751 - 52; A.G. Hopkins, "The Victorians and Africa : Reconsideration of the Occupation of Egypt, 1882", "Journal of African History, 27 (1986), 379.

فيما يتعلق بمصطلح « المصريات » راجع :

Dectionnaire de la langue française (Paris 1988), vol. 5 : 97.

(٦١) Cristopher M. Andrew and A.S. Kanya - Forstner, The Climax of French Imperial Expansion 1914 - 1924 (Stanford, 1981); Mathew Burrows, "Mission civilisatrice" : French Cultural Policy in the Middle East 1860 - 1914", Historical Journal 29 (1986), 109 - 35 .

(٦٢) Georg Ebers, Richard Lepsius, A Biography, trans. Z.D. Underhill (NewYork 1887), 275 - 76; Suzanne L. Marchand,Down From Olympus : Archaology and Philhellenism in Germany 1750 - 1970 (Princeton, N.J., 1996) 49, 108.

(٦٣) Ebers, Lepsius, 300.

(٦٤) حول تواريخ كراسى الأستاذية ، انظر تحت أسماء هؤلاء موسوعة

Who Was Who 3.

(٦٥) Louis Keimer, "Le Musée egyptologique de Berlin" Chiers d'histoire egyptienne, set3, Fasc. 1 (Nov. 1950), 30 - 36.

(٦٦) Maspero, "Mariette", cxlvi-cli.

(٦٧) Ebers, Lepsius, 157.

(٦٨) Maspero, "Mariette", clxxxii.

(٦٩) Maspero, "Mariette", cxc.

(٧٠) Mariette, Mariette, 117 - 119.

(٧١) On Bonomi Wild, and Bunson, see Who Was Who 3, 53 - 54, 442, 73.

(٧٢) Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egitto (Alexandria 1937) 151 - 53.

(٧٣) Jean - Jacques Luthi, Le Française en Egypte (Beirut, 1981).

(٧٤) L'Egittologo Luigi Vassalli (1812 - 1887, Disegni e documenti nei Civici Istituti Culturali Milanesi (Milan, 1994).

(٧٥) دار الوثائق القومية ، فهرست بطاقات الدار ، درج ١ آثار ، أمر صادر إلى ديوان المالية ، دفتر ١٩٣٩ ، رقم ١٤٠ ، ص ١٤٥ بتاريخ ١٥ صفر ١٢٨٩ ، وأفضل مصدر ثانوى هو كتاب أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨ ٠ ١٨٨٢ ، ٣ أجزاء ، (القاهرة ، ١٩٤٥).

(٧٦) Amal Hilal, "Les Premiers egyptologues égyotiens et la réforme", in Entre Réforme social et mouvement national : Identité et modernisation en Egypte (1882 - 1962_ ed. Alain Roussillon (Cairo, 1995).

(٧٧) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ٢ : ٥٧٠ – ٥٧١ يذكر أسماء الطلاب الذين برز من بينهم أحمد كمال وأحمد نجيب .

(٧٨) ورد فى أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ٢ : ٥٦٩ .

(٧٩) يذكر أحمد عزت عبد الكريم أن ميخائيل جرجس كان يدرس الحبشية بالمدرسة ، تاريخ التعليم ، ٢ : ٥٦٩ .

(٨٠) Brugsch, Leben, 299.

(٨١) Who Was Who 3, 404.

(٨٢) أحمـــد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم ، ٢ : ٥٧٢ ، ويذكر أن أمين سامى أخطأ فى كتابه « التعليم فى مصر » (القاهرة ١٩١٧) عندما ذكر أن المدرسة استمرت حتى ديسمبر ١٨٧٦ .

(٨٣) أحمد عزت عبد الكريم ، ٢ : ٥٧٢ ؛

Maspero, "Mariette", clxxvi, clxxxvi.

(٨٤) Brugsgh, Leben, 282.

(٨٥) J. Heyworth - Dunne, Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London, 1968), 355.

(٨٦) Petri, Seventy Years, 64.

(٨٧) يونان لبيب رزق ، الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، ١٢ – ١٨ أغسطس ١٩٩٣ . وإبراهيم عبده ، جريدة الأهرام ، تاريخ وفن ١٨٧٥ – ١٩٦٤ (القاهرة ١٩٦٤).

(٨٨) حول طوابع البريد ، انظر مادة Egypt فى :

Scott 2000 Standard Postage Stamp Catalogue, Countries of the World, vol. 2 : Countries C-F (Sidney, Ohio, 2000).

(٨٩) Charles Wendell, The Evolution of the Egyptian National Image From Its Origins to Ahmad Lutfi al-Sayyid, (Berkley, Calif., 1972), 169.

(٩٠) Angelo Sammarco, Histoire de l'Égypte moderne depuis Muhammed Ali jusqua'à l'occupation britannique 1801 - 1882 (Cairo, 1937), 324.

(٩١) مخطوط « إرشاد الولد » ، لكاشف زاده محمد عقيل بهارالى ، ويحمل أيضًا اسم محمد عقيل بن محمد كاشف ، دار الكتب المصرية .

(٩٢) David C. Gordon, Images of the West : Third World Perspectives (n.p. 1989), 15.

(٩٣) كان جومار فى الحادية والعشرين من عمره عام ١٧٩٨ ، ولم يكن عضوًا بالمجمع العلمى المصرى ، ولكنه كان وثيق الصلة به ، انظر :

J.E. Gorby, "Travaux de premier Institut d'Égypte (1798 - 1801)", Bulletin de la Société Française d'égypto logie, 66 (March, 1973), 36.

(٩٤) Jacques Ellul, Index des Communications et memeires publiés par l'Imstitut d'Egypte (1859 1952), (Cairo : IFAO, 1952).

(٩٥) Bulletin de l'Institut d'Egypte, I (1859), 2.

(٩٦) Livre d'ore de l'institut egyptien 1859 - 1899 (Cairo 1899), 3.

(٩٧) دار الوثائق القومية ، محافظ الأبحاث ، ١٣٢ ب ، المجمع العلمى المصرى .

(٩٨) وكان الآخرون : يوسف حزان حاخام الإسكندرية ، والطبيب شافعى بك ، ومحمد على ، وعبد الله افندى سعيد مأمور مصلحة التجارة بالإسكندرية .

(٩٩) Bulletin de l'institut, ser. 2,5 (1884 - 85), 167.

(١٠٠) المتحف البريطانى ، أوراق حككيان ، ٣٧ ، ٤٦٣ وغيرها .

(١٠١) المتحف البريطانى ، أوراق حككيان ٣٤ ، ٤٦٣ ، ١٦ ، ٦٧ .

(١٠٢) Livre d'or, 9; On al-Falaki see Pascal Crozet, "La Trajectoire d'un scientifique égyptien au XIXe siécle : Mahmoud al-Falaki (1815 - 1885), in Entre Reforme Sociale, ed. Roussillon, 285 - 310.

(١٠٣) Donald M. Reid, "The Egyptian Geographical Society : From Laymen's Society to Indigenous Professional Association "Poetics Today 14 (1993) 539 - 72.

(١٠٤) On Abbate and Bonola, see L.A. Balboni, Gl'Italiani nella civilta Egiziana de socolo XIXo, 3 vols. (Alexandria 1906) 3 : 28 - 30, 30-34.

(١٠٥) David Shavit, The United States in the Middle East : A Historical Dictionary (New York 1988), 337.

(١٠٦) Bulletin dea Société Khédivial geographique, 8 (May 1880), 34.

(١٠٧) Bulletin de la Société Khédivial geographique, 6 (nov. 1879) 5; 8 May 1880), 34; 12 (July 1893), 847-49.

(١٠٨) عبد الرحمن الرافعي ، عصر إسماعيل ، مجلدان ، (القاهرة ١٤٨) ، ١ : ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(١٠٩) هناك العديد من الكتب حول هذا المعرض وغيره من المعارض الدولية نشرت بالإنجليزية والفرنسية ، ولكن فيما يخص مشاركة مصر راجع :

Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, 1988); Zeynep Çelik, Displaying the Orient, Architecture of Islam at Nineteenth-Century World's Fairs (Berkeley. Calif 1992); Owen Jones and Joseph Bonomi, Description of the Egyptian Court (London, 1854).

(١١٠) History and Description of the Great Exhibition, 1 : 46.

(١١١) History and Description of the Great Exhibtion, 3 : 150, 147 - 52, 257.

(١١٢) Nicholas Warner, ed., An Egyptian Panorama : Reports From the 19th Century British Press (Cairo, 1994), 190.

(١١٣) David, Mariette, 144 - 46.

(١١٤) Auguste Mariette, Description du parc éyptien : Exposition universelle de 1867, (Paris 1867); Charles Edmond, L'Egypte à l'exposition Universelle de 1867 (Paris, 1867); Mitchell, Colonising, 17.

(١١٥) فيما يتعلق بنوبرا عايدة ، انظر : David, Mariette, 201 - 4.

(١١٦) Robert Rydel, All the World's a Fair : Visions of Empire at American International Expositions 1876 - 1916 (Chicago, 1984), 9 - 32; Ibrahim el-Mouelhy, "L'Egypte à l'exposition de Philadelphie (1876)" Cahiers d'histoire égyptienne 1 (1948), 316 - 26.

(١١٧) Auguste Mariette - Bey, Exposition Universelle de Paris 1879 : La Galarie de l'Égypte ancienne (Paris, 1878); Louca, Voyageurs, 190 - 92.

(١١٨) Mitchell, Colinising Egypt, 8 - 9.

(١١٩) K. Vollers, "Le IXme congrés international des Orientalistes tenu à Londres du 5 au 12 Septembre 1892", Bulletin d'Institut égyptien, Set 3, 3 (November 1892), 193.

(١٢٠) Oxford English Dictionary, 2nd, ed, (1989) vol. 10 : 931, vol. 5 : 97.

(١٢١) Memoires du Congrés international des Orientalistes, 1 re Session, 3 vols. (Paris 1873) 1 : 114 - 115, 3 : Cvii, cxxxvii, 42 - 43.

(١٢٢) Lonca, Voyageurs, 181 - 208; Mitchell, Colonising, 1-2, 180-81; Findley "Ottoman Occidentalist" American History Review 103 (1998) : 15 - 49.

(١٢٣) Memoire dn Congrés international, 2 : 315, III ff.

(١٢٤) Samuel Birch, "Inaugural Address", International Congress 2 London.

(١٢٥) Birch, "Inaugural Address", 13.

(١٢٦) كان الشخص الثامن نرويجي يدعى جينس ليبلين Jens Lieblein .

(١٢٧) Saint Petersburg, Travaux, 2 : vi.

(١٢٨) انظر شجرة العائلة فى .David, Mariette, 274

(١٢٩) David, Mariette 233 - 34.

(١٣٠) Maspero, "Mariette", xcliii.

(١٣١) Masper, "Mariette", ccli, ccxiii.

(١٣٢) Maspero, Mariette, cxccvi - vii.

(١٣٣) Cromer, Medern Egypt (New Yprk 1908), 28.

الباب الثانى

ظهر الإمبريالية وفجر الوطنية
١٨٨٢ - ١٩١٤

الفصل الرابع

كرومر والكلاسيكيات
التوظيف الأيديولوچى للتاريخ اليونانى - الرومانى

يبدأ هذا الكتاب بمشهد احتلال نابليون بونابرت مصر ، وقد تجسدت فى وعيه صورة الإسكندرية وقيصر ، ويختتم الكتاب باللورد كرومر متقاعداً يتحدث عن حكمه لمصر ، مقارناً بحكم نائب القنصل (الحاكم العسكرى) فى روما القديمة ، وجاء - بين المشهدين - القنصل هنرى سولت الذى وزَّع وقت فراغه بين قراءة المخطوطات اليونانية والآثار المصرية ، وكان فلوبير يقرأ الأوديسة باليونانية بينما كان مسترخياً على صفحة النيل فى طريقه من الصعيد إلى القاهرة ، ووقف الموظفون الإنجليز الذين تخرجوا لتوهم من أكسفورد وكامبردج على ضفاف النيل يسترجعون هيرودوت [1] . وأسس الأوربيون المتحف اليونانى الرومانى والجمعية الأثرية عام ١٨٩٢ ، ونظَّموا الاجتماع الثانى للمؤتمر الدولى للآثار الكلاسيكية بالقاهرة عام ١٩٠٩ .

وعنوان هذا الفصل غربى الميل ، لأن أحداً من المصريين لم يحاول - حتى ١٩١٤ - أن يجعل التراث اليونانى - الرومانى أساسياً فى تكوين الهوية القومية المصرية . وأعار المصريون ، الذين عاشوا فى مطلع القرن ، آذاناً صمَّاء للجدل الأوروبى حول الكلاسيكيات ، تماماً كما فعل الأوربيون بالنسبة لاعتبار عمرو بن العاص فاتحاً عظيماً أو أبى نواس شاعراً خالداً . فقد صاغ المسلمون المتدينون أفكارهم فى إطار النبى محمد والخلفاء الراشدين ، بينما كان العالم يبدى اندهاشه لعظمة بغداد أيام هارون الرشيد ، والقاهرة زمن المماليك . ولم تكن المسحة الكلاسيكية عند بونابرت تعنى شيئاً عند الجبرتى . وفى الثمانينات كان هناك حديثان ذاتيان على طرفى نقيض ، فقد لعب كرومر دور نائب القنصل فى القاهرة ، واستدعى محمد أحمد المهدى سيرة النبى

محمد فى الخرطوم . ولعل شارلز جوردون - الذى كان يفضل استخدام الشواهد الإنجيلية وليس الكلاسيكية - كان أقدر على فهم المهدى من كرومر (٢) .

ولم تُخرج الدراسات الكلاسيكية (اليونانية - اللاتينية القديمة) مصريًا يتطلع لأن يكون أمينًا للمتحف اليونانى - الرومانى بالإسكندرية حتى العام ١٩١٤ ، فلم يكن هناك - فى هذا المجال - أى مصرى يناظر أحمد كمال ، أو على بهجت أو مرقص سميكة ، غير أن بعض كبار الموظفين ، والكتاب والسياسيين الذين لهم شهرة وتنوع اهتمامات الطهطاوى ، قدموا إشارات عن التراث اليونانى الرومانى منهم الطهطاوى ذاته ، ومحمود الفلكى ، وعلى مبارك ، وجرجى زيدان ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفى السيد ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ومهّد ذلك الطريق لما شهدته العشرينات من القرن العشرين عندما أضاف طه حسين وأحمد لطفى السيد الدراسات اليونانية - اللاتينية القديمة باعتبارها أحد المكونات الحيوية للهوية القومية المصرية .

ومع استثناء المغرب - جزئيًا - لم يدرك أهل الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر التعبير المجازى الكلاسيكى الذى استخدمه الأوربيون عند الحديث عن الشرق الأوسط ، إلا إدراكًا محدودًا ، ونادرًا ما تذكر كتب التاريخ العامة عن مصر الأفكار المصرية الحديثة عن التراث اليونانى - الرومانى الذى كان أقل جاذبية من الحديث عن التراث الإسلامى أو العربى أو الفرعونى .

الخطاب الكلاسيكى فى الهوية الغربية :

منذ أيام بترارك حتى سارتر ، نافست الكلاسيكيات حتى الإنجيل من حيث الانتشار ، باعتبارها أداة مرنة للفكر الغربى (٣) . كانت تقرأ أعمال اليونان باعتبارها محافظة وليبرالية ، راديكالية ورجعية ، متدينة وملحدة ، عقلانية ورومانسية . ودخلت الجمهورية الرومانية فى مواجهة مع الإمبراطورية ، كذلك اليونان مع الرومان ، وأثينا مع إسبرطة ، أفلاطون مع أرسطو ، وحتى الأرسطيين ضد بعضهم البعض (٤) . وإتخذت الثورتان الفرنسية والأمريكية رموزًا رومانية ، وامتدح ماركس إنكار بروميثيوس للآلهة حتى أنه أعاد قراءة إيخليوس كل عام باليونانية (٥) .

غير أن بقاء الكلاسيكيات كمحور للتعليم الليبرالى الغربى فى مطلع القرن التاسع عشر ، يعود إلى الاتجاه المحافظ وليس الراديكالى . ففى مواجهة التحديات الديمقراطية والاستحقاقية التى جاءت من الطبقة الوسطى، رفعت المدارس البريطانية العامة من مستويات التدريس بها ، ووضعت وزارتا الداخلية ، والهند ، أسسًا للامتحانات (٦) . وفى إطار الحصار الذى ضرب حول المحسوبية والامتياز الطبقى ، أصبحت اليونانية واللاتينية بمثابة مفتاح الوصول إلى مستوى الطبقة العليا .

ولم تكن الكلاسيكيات موضع تقدير كل المتعلمين فى بريطانيا ، فقد شعر تشرشل بالأسى عندما حال جهله باليونانية بينه وبين الالتحاق بأكسفورد . وكان تعلم الكلاسيكيات عند ثاكيراى يذكره بزيت الخروع ، وسبق ذلك سياحة مارك توين المبتذلة فى اليونان ، عندما قال ساخرًا فى أثينا : « إننى أفضل أن أكسب مائتى جنيه فى السنة فى فليت ستريت ، على أن أصبح ملكًا لليونانيين ، تسبق اسمى كلمة باسيليوس حول عملتهم التعسة . . . إن رثاثة هذا المكان غلبت أيرلندا ، وكلمة (رثاثة) أقوى من الواقع » (٧) .

ومنذ العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية ، حدد الغربيون هويتهم فى إطار روما وليس اليونان ، وقد أطلق الآثارى البروسى يوهان ڤنكلمان حركة جمالية ثقافية عظمت من شأن المجتمع اليونانى باعتباره مجتمعًا حيويًا وشابًا ، على نقيض روما التى أضناها التمزق والإرهاق . وأصدر ڤنكلمان كتابًا عام ١٧٦٤ بعنوان « تاريخ الفن القديم » جعل منه مؤسسًا لتاريخ الفن الحديث ، ورائدًا لعلم الآثار الكلاسيكية ، وغالبًا ما خدم اتخاذ اليونان مثالاً ، أهداف دعاة القضايا البورجوازية والليبرالية .

وفعل كل من جوته ، ووزير التعليم البروسى المصلح ألكسندر ڤون همبولد الكثير لنشر هذا التحمس لليونان القديمة فى ألمانيا (٨) . ووعى الفرنسيون عظمة اليونان القديمة ، ولكن لغتهم ذات الأصل اللاتينى وإحساسهم بأنهم ورثة التاريخ الرومانى ، أبقاهم بعيدًا عن طريق التحمس لليونان القديمة الذى اتجه إليه الألمان (٩) .

وأصيب البريطانيون أيضًا بحمى اليونان القديمة ، يندفعون لمشاهدة مجموعة إيلجن بالمتحف البريطانى ، ويقيمون مبانى تبعث الطراز اليونانى من جديد ، وتسعدهم

أشعار بايرون فى عشق اليونان ، وكتب جون ستيوارت مل « إن معركة الماراثون كحدث فى التاريخ الإنجليزى تفوق معركة هاستنجز أهمية » [١٠] . واعتبر البريطانيون الإمبراطور أغسطس مستبداً مولعاً بالمكائد ، وڤيرچيل مجرد أحد أفراد حاشية الإمبراطور . وجاء هوميروس وأفلاطون فى بؤرة الضوء ، ورفع أصحاب الفكر الإصلاحى ديمقراطية أثينا إلى مرتبة أعلى من سلطوية إسبرطة . وعلى كل ، أظهرت دراسة حديثة تأثير روما القديمة فى مختلف دوائر الثقافة البريطانية حتى القرن التاسع عشر [١١] . وإن كانت الإمبراطورية الرومانية قد استعادت رونقها فى أعين الكثير من البريطانيين مع تصاعد « الإمبريالية الجديدة » فى الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر .

مصر من خلال عدسات الأوربيين الكلاسيكية :

تعكس صفحة العنوان فى « وصف مصر » صوراً كلاسيكية قوية ، فنابليون فى عربته الحربية مثل أبوللو والإسكندر ، فالإلهام والفنون والعلوم عائدة إلى مصر ، والنسر على رايات المعركة . وفى إشارة حافلة بالرموز ، يحمل سقف قسم المصريات باللوڤر اللوحة التى رسمها فرانسوا – إدوارد پيكو تحت اسم « دراسة وإلهامات الفنون تكشف أسرار مصر القديمة لأثينا » (انظر الشكل ٢٧) [١٢] . حيث تبدو أثينا امرأة ترتدى ثوباً ملكياً كلاسيكياً ، ومصر امرأة ترتدى ثوباً مثيراً يكاد ينزلق من على جسدها ، وهى تشم باسترخاء زهرة اللوتس .

وحمل نابليون معه فى حملته إلى مصر نسخة من الإلياذة (تماماً كما فعل الإسكندر) ، ونسخة من أناباسس (حكاية الأبطال الإغريق الذين شقُّوا طريقهم بالقوة وسط حشود الأسيويين للعودة إلى بلادهم) ، كما حمل معه نسخة من كتاب بلوتارخ « حياة متوازية » [١٣] . وقال بونابرت لجنوده : « إن المدينة الأولى التى سوف نراها بناها الإسكندر ، وسنرى فى كل خطوة نخطوها آثار أعمال علينا نحن الفرنسيين أن نحذو حذوها » [١٤] . ولما كانت الهيروغليفية لا تزال مجهولة ، فقد رأى علماء مصر بعيون هيرودوت ، وإسترابو ، وديودور الصقلى ، وبلينى العجوز ،

فاقتبسوا منهم على التوازى بين اليونانية واللاتينية التى ترد نصوصها فى « وصف مصر » . وحتى الفنانين الذين رسموا الآثار الفرعونية كان اتجاههم كلاسيكيًا . فالميدالية التى سكُت عام ١٨٢٦ بمناسبة صدور الطبعة الثانية من « وصف مصر » تصور محاربًا غاليًا - رومانيًا يعرى امرأة مُغرية تمثل مصر (انظر الشكل ٢٨) .

وبعد استكمال نشر « وصف مصر » عام ١٨٢٨ بعامين ، غزت فرنسا الجزائر . وقيل إن ورثة روما القديمة عادوا إلى شمال أفريقيا لنشر الحضارة فيها ، بعد « فترة عربية » مدمرة . وقيل للضباط الفرنسيين فى مراكش (المغرب) « دعوا السكان المحليين يعلمون أننا الرومان كنا هنا قبل العرب » [١٥] . وعلى مدى ما يزيد على القرن من الوجود الفرنسى فى الجزائر ، عكست التماثيل ، والعمارة ، والمتاحف ، وأسماء الشوارع ، والأدب ، وطوابع البريد ، وبطاقات البريد ، تلك النظرة [١٦] .

وبعد أن فتح شامبليون الطريق المباشر للتعرف على الفراعنة من النصوص الهيروغليفية ، بوقت طويل ، كان الأوربيون المشتغلون بالمصريات مازالوا يتمسكون بالكلاسيكيات . ففى برلين ، درجت مجموعة ليبسيوس على قراءة الأعمال اليونانية المهمة فى لغتها الأصلية فى مساء كل جمعة . وكان من بين من يداومون على الحضور : تيودور مومسن المتخصص فى اللاتينية ، واللورد راسل السفير البريطانى ، ورانجاب السفير اليونانى . وفى عام ١٩٠٣ حصل ألكسندر موريه على الدكتوراه فى المصريات وكانت تلك آخر رسالة قدمت فى فرنسا مكتوبة باللاتينية [١٧] .

ولا يستطيع المرء أن يقرر - أحيانًا - ما إذا كانت الكلاسيكيات قد وضعت رؤية الأوروبيين لمصر الحديثة فى إطار مشوه ، أم أن الأمر كان عكس ذلك تمامًا؟ يقول القس سايس :

« يتم تدريس جميع العلوم المحمدية بالأزهر على أساس القرآن ، تمامًا كما يحدث فى القاهرة الحالية ، وكذلك كانت الحال فى عين شمس عندما زارها هيرودوت ، فكانت كل ألوان المعرفة المصرية تدرس هناك . . . ولا شك أن نظرة الرحالة اليونانى إلى الأساتذة وتلاميذهم تماثل نفس النظرة عند السائح الإنجليزى الذى يمر عبر الجامع الأزهر »[١٨] . وهكذا تتداخل المرايا ، مع تداخل الخطابين الاستشراقى والكلاسيكى .

ولم يكن جميع المتخصصين فى المصريات يتأثرون فكريًا بالكلاسيكيات ، فقد كان اهتمام مارييت بالمواقع الأثرية اليونانية الرومانية محدودًا ، وقد استنكر مقولات هيرودوت :

« عجبًا لذلك الرحالة الذى جاء إلى مصر فى زمن كان الناس فيه يتحدثون اللغة المصرية ، ورأى بعينيه كل المعابد قائمة فى أماكنها ، وكان باستطاعته أن يسأل أول من يقابله عن اسم الملك الذى يحكم البلاد ، واسم الملك الذى سبقه ، والذى كان عليه أن يشير إلى أول معبد من أجل التاريخ والدين ، وكل ما هو مهم فى ذلك البلد المبهر للعالم . ولكنه بدلاً من ذلك كله يخبرنا - بكل أسف - أن خوفو بنى الهرم من ثمار الدعارة » (١٩) .

ولم يتقن پترى الكلاسيكيات مطلقًا . ويقول أن أمه ظنت أن « من الطبيعى أن تحشو ذهنه بقواعد اللغات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية معًا ، وهو فى سن الثامنة من عمره » ، وبلغت محاولاته فى اللاتينية عشر محاولات ، وفى اليونانية ست محاولات ، باءت جميعًا بالفشل عندما بلغ العاشرة من عمره ، فترك الدراسة ليتولى أمر تعليم نفسه (٢٠) .

وكان ماسپيرو عكس ذلك تمامًا ، فبعد بونابرت بقرن من الزمان ، أعطاه العثور على لوحة لاتينية فى فيله دفعة من الحماس الوطنى ، ويذكر النص كيف أن كورنيليوس حاكم مصر فى عهد أغسطس ، أخضع وادى النيل للحكم الرومانى حتى جزيرة فيله - وعندما لاحظ ماسپيرو أن كورنيليوس ولد على أرض غالية :

« تذكر على الفور النصوص الأخرى الأحدث التى نجدها على الجهة الداخلية من بوابة فيله الكبيرة ، فبعد مرور ١٨ قرنًا على الغالى كورنيليوس ، جاء غاليون آخرون إلى النوبة صدفة ، وحاولوا أن يتركوا تذكارًا لوجودهم هناك ، فنقشوا على الصخر كيف أنه فى العام السادس للجمهورية يوم ١٢ ميسيدور ، نزل الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية بقيادة بونابرت ، وبعد ذلك بعشرين يومًا حارب المماليك عند الأهرام ، وقام ديزيه - قائد الفيلق الأول - بدفعهم جنوبًا إلى ما وراء الشلال الذى بلغه فى ١٨ من نيڤوس ، العام السابع للجمهورية .

ويجب أن يرى المرء فى رحلة دينون ، ومجلدات وصف مصر كيف أكسبتهم ذكريات الماضى القديم حيوية وقوة ، والاعتزاز والفخر الذى شعروا به وهم يرفعون أعلامهم فوق الصخور التى قامت عندها الفرق الرومانية بإنجاز ما كان من قبيل المستحيلات . . . » [٢١] .

آراء المسلمين عن الإغريق والرومان قبل الطهطاوى :

لم يكن الأدب اليونانى واللاتينى القديم يمثل « الكلاسيكيات » عند مسلمى العصور الوسطى ، وكان بونابرت يعلم جيداً أكثر من علمه عن الظهور أمام المصريين بمظهر الإسكندر أو قيصر ، فبدلاً من ذلك جعلته دعايته العربية - دون نجاح - يبدو كمسلم معاد للكهنوت ، هاجم البابا العدو اللدود للإسلام ، وأنه صديق للسلطان العثمانى ، وأن هدفه الوحيد تحرير مصر من طغيان المماليك .

ولم يكن ذلك يرجع إلى جهل الجبرتى ورفاقه من علماء الأزهر بالحضارة اليونانية - الرومانية . فقد كانت الترجمات العربية الأولى من الفلسفة اليونانية ، والعلوم ، والرياضيات أساسية فى تحقيق التقدم الإسلامى فى تلك الميادين ، وأصبح المنطق الأرسطى أداة ضرورية للفقه الإسلامى [٢٢] . ونسج الأدب الإسلامى روايته الخاصة لأسطورة الإسكندر . ولكن مسلمى العصور الوسطى لم يرثوا الدراما أو الأساطير اليونانية (الميثولوجيا) ، كما لم يهتموا بالتاريخ الباكر لليونان ، فقبل الفتوح الإسلامية كانت المدارس المسيحية قد أهملت هذه الجوانب باعتبارها وثنية . وعلى أى حال ، جلب العرب معهم من الجزيرة العربية تراثهم الشعبى وأشعارهم ، والدين الجديد . ولذلك لم تظهر ترجمة الإلياذة إلى العربية فى بغداد على عهد هارون الرشيد عام ٨٠٤ ، ولكنها ظهرت فى القاهرة أيام كرومر عام ١٩٠٤ [٢٣] .

ولم يشعر المسلمون الأوائل بتهديد من جانب الوثنية اليونانية - الرومانية ، فقد انقضى أجلها قبل زمانهم . وفى القرن الحادى عشر ، ذكر البيرونى فى كتابه عن الهند آلهة اليونان والهنود . وهكذا استطاع المسلمون أن يرشّدوا ما أخذوه عن اليونان

الوثنية ، فأهملوا الفكر الدينى المشرك لعدم قدرة الناس على التفكير فيه بشكل مجرد بحيث يضمُّون اليونان إلى فئة الصابئة التى ورد نص قرآنى بشأنها وضعها فى عداد المؤمنين بالله ، أو النظر إلى الأفلاطونيين الجدد على أنهم موحدين على نمط التراث اليهودى (٢٤) .

ويعد مؤرخو العصور الوسطى من المسلمين بتواريخهم عن عصور ما قبل الإسلام عن اليهود ، والنصارى ، والوثنيين العرب والتراث الفارسى . ولم يكن الطبرى يعرف شيئًا عن تاريخ اليونان قبل فيليب ملك مقدونيا ، واكتفى بذكر البطالمة فى قائمته ، وبدأت معرفته بالتاريخ الرومانى بيوليوس قيصر الذى جاء بالرومان إلى مصر . وقطع استرسال الطبرى فى سرد قائمة الملوك من هرقل ، فالمسيح ولد فى عهد أغسطس ، ونيرون قام بذبح بطرس وبولس ، وقام تيتيوس بسحق ثورة اليهود وتحطيم بيت المقدس (٢٥) .

ولم يكن للاتينية جذور - على الإطلاق - فى شرق البحر المتوسط الذى صارع المسلمون البيزنطيين للسيطرة عليه ، وليس ثمة استثناء واحد لنصوص لاتينية تمت ترجمتها إلى العربية فى العصور الوسطى (٢٦) . وعند معظم المسلمين كانت « الروم » و« قيصر » ترتبط بالبيزنطيين ، وليس بالرومان الذين اختفوا من الوجود فى الغرب .

اليونان وروما القديمة عند الطهطاوى :

أبدى الجبرتى إعجابه بمكتبة « المجمع العلمى المصرى » ، ولكن مر جيل قبل أن يصبح شيخ أزهرى آخر فى وضع يمكنه من أن يقدم لأبناء بلاده اللمحات الأولى عما كان يعنيه اليونان والرومان عند الأوربيين ، ونتيجة انكبابه على الكتب التى أوصاه معلمه الفرنسى بقراءتها فى العشرينات من القرن التاسع عشر ، التقى رفاعه الطهطاوى باليونان والرومان عند كل منعطف . فقرأ كتابًا عن فلاسفة الإغريق ، وتاريخًا يتضمن فصولاً عن الأساطير اليونانية « زمن جاهليتهم » ، وكتاب مونتسكيو

« ملاحظات حول أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » ، وكتاب فينـــلون « مغامرات تليما خوس » ، وكانت الكتب التى اختار الطهطاوى قراءتها : راسين ، وروح القوانين لمونتسكيو ، والقاموس الفلسفى لڤولتير ، والعقد الاجتماعى لروسو ، كانت جميعًا تتناول تلميحات كلاسيكية [٢٧] .

وقدم العلماء الفرنسيون هدية لتلميذهم اللامع ، كتاب چان چاك بارثلمى « رحلات الشاب أناخارسيس فى بلاد اليونان فى منتصف القرن الرابع قبل العصر المسيحى » ويقع فى خمسة مجلدات (باريس ١٧٨٨) ، وكان هذا الكتاب المعبِّر عن الميل إلى اليونان ، والذى طواه النسيان رغم أنه كان واسع الانتشار فى زمانه ، كان يروى قصة خيالية لرحلة فى بلاد اليونان قام بها شاب من ثسيا (عند بحر الأدرياتيك) ، يلتقى خلالها أفلاطون وأرسطو وغيرهما من حكماء اليونان ، وقام الطهطاوى - فيما بعد - بتوزيع الكتاب على تلاميذه لترجمته إلى العربية ، ولكن المشروع لم يقدر له التنفيذ [٢٨].

وعندما تولى الطهطاوى نظارة قلم الترجمة فى عهد محمد على ، ثم فى عهد إسماعيل ، اختار من الكتب التى تترجم إلى العربية تاريخ الفلسفة اليونانية ، وكتاب مونتسكيو عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم ، وكتاب فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، واليونان والرومان [٢٩] .

لقد لفت كتاب الطهطاوى « أنوار توفيق الجليل » الذى نشر عام ١٨٦٨ ، الأنظار إلى مصر الفرعونية [٣٠] . ولكنه خصص للعصور اليونانية والرومانية والبيزنطية ضعف ما خصصه للعصر الفرعونى من صفحات الكتاب . واتخذ الطهطاوى موقفًا متعاطفًا مع اليونان منذ أيام الأسرة السادسة والعشرين ، عندما جاءوا إلى مصر كجند مرتزقة . ورأى أن بلاد اليونان تعكس كل الحضارات القديمة - بابل ، وآشور ، وفينيقيا ، وفارس ، والهند - ما عدا الحضارة المصرية . واتخذ موقفًا مماثلاً للكتاب الأوربيين فى القرن التاسع عشر عندما نقل حكاية هيرودوت عن سيزوستريس (رمسيس الثانى) وغزواته الواسعة فى أوروبا وآسيا ، كذلك الحكايات الإغريقية عن وجود جاليات مصرية فى عصر ما قبل التاريخ ببلاد اليونان . وأعلن الطهطاوى - ببساطة - « إن اليونان شقيقة لمصر » [٣١] .

وسار الطهطاوى على نهج الإغريق فى الهجوم على فرس الأسرة السابعة والعشرين باعتبارهم طغاة ، هاجموا الكهنة والمعابد المصرية . وذكر أن الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين حكمت « الوطن » المصرى مستقلة ، ثم ما لبثت مصر أن وقعت - مرة أخرى - فى يد الفرس ، ومهد ذلك السبيل للإسكندر والبطالمة ليلعبوا دور المحررين ، واستقبل كهنة سيوه الإسكندر باعتباره ابنًا لأمون رع . وامتدح الطهطاوى الاسكندر والبطالمة لبنائهم المعابد للمصريين ولآلهة اليونان ، وبنائهم الإسكندرية كمركز اتصال يربط أفريقيا وآسيا وأوروبا . وذكر أنه خلال عصر الإسكندر الأكبر والبطالمة وأيام الحكم الرومانى السوداء ، كانت مصر تحظى بالاحترام لتأثيرها المعنوى والثقافى . وكانت الإسكندرية مقرًا للكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة الذين برعوا فى مختلف العلوم . وخاصة فى دراسة العادات والتقاليد ، ونشرت ثقافتها بين جميع الأمم ، وكانت معارفها نافعة للمقيمين فيها والوافدين إليها [٣٢] .

ويشير الطهطاوى إلى أن مصر ازدهرت - خاصة - فى عهد أول ملكين من ملوك البطالمة . وقد كتب مانيتو تاريخ مصر القديم باليونانية ، وترجم اليهود التوراة إلى اليونانية ، وأعيد شق القناة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر ، وأقيمت المنارات والمدارس ومكتبة الإسكندرية . وعندما ذكر حجر رشيد الذى يحمل أمرًا أصدره بطليموس الرابع ، عرج الطهطاوى على شامپليون وفك رموز الهيروغليفية ، وعندما تناول فكرة كلوديوس بطليموس عن مركزية الأرض للكون ، أرجع الطهطاوى مركزية الشمس إلى فيثاغورس وكوبرنيكس والأوربيين المحدثين ، ولكن حذر من أن ذلك يتناقض مع ما جاء بالقرآن [٣٣] . وذكر أن صراعات البطالمة المتأخرين أضرت بمصر ، وإن كانت نخبة من الإغريق كانت تفرض حكمها على المصريين .

ومر الطهطاوى على التاريخ الرومانى من رومولوس وريموس إلى يوليوس قيصر فى صفحة واحدة ، ولا يكاد يذكر الحروب البونية . ولم يبد الطهطاوى أى عطف على آخر ملوك البطالمة ، على عكس الشاعر أحمد شوقى الذى صور كليو باترا فى روايته الشعرية « مصرع كليو باترا » (عام ١٩٢٨) على أنها كانت وطنية مصرية تعمل على تخليص بلادها من السيطرة الرومانية . وبذل جهدًا فى تبرئة الخليفة عمر بن الخطاب من تهمة حرق مكتبة الإسكندرية ، فذكر أنها أحرقت فعلاً عند حصار

يوليوس قيصـــر للثغر [٣٤] . ورغم التسامح الدينى الذى اتبعه الرومان وبنائهم المعابد حتى النوبة جنوبًا ، اعتبرهم الطهطاوى مستغلين ينشدون الاستيلاء على ثروة مصر . وعلى كل ، لم يسر الطهطاوى على نهج الغرب - بشكل نمطى - فى تقدير الأباطرة ، فالإمبراطور هادريان - مثلاً - كان جيداً ، وشهدت مصر الرخاء فى عهده [٣٥] .

ويذكر الطهطاوى مولد عيسى بن مريم فى عهد الإمبراطور أغسطس ، ولجوء العائلة المقدسة إلى مصر ، ونفى القرآن لما يعتقده المسيحيون من موت المسيح وقيامته ، ويبين كيف أن المسيحية حلت تدريجيًا محل ديانة « الصابئة » المصرية القديمة . ويشير إلى إضطهاد الرومان للمسيحيين ، وتحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية ، وبداية الأسرة الخامسة والثلاثين التى حكمت الإمبراطورية من القسطنطينية حتى الفتح الإسلامى ، مع تولى ثيودوسيوس الحكم وتحريمه عبادة الآلهة القديمة [٣٦] .

كان كتاب « أنوار توفيق » وكتاب « نهاية الإيجاز » الذى أعقبه يغطيان مقرر التاريخ فى السبعينات من القرن التاسع عشر الذى كان يتعلمه طلاب المدرستين التحضيريتين - رأس التين بالإسكندرية ، ودرب الجماميز بالقاهرة - بالفرقة الثالثة . وكان مقرر الفرقة الأولى يغطى تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، والفرقة الثانية يغطى تاريخ اليونان والعصر الهللينستى وعصر الجمهورية الرومانية ثم أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية . وكان مقرر الفرقة الثالثة يتناول تاريخ الإمبراطورية الرومانية حتى اعتلاء ثيودوسيوس العرش ، وغزو البرابرة ، وتاريخ ما قبل الإسلام ، وتاريخ أوائل العصر الإسلامى ، كذلك يتضمن تاريخ الأندلس وصقلية الإسلامية . أما الفرقة الرابعة فكانت تدرس التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى والحروب الصليبية ، والدولة العباسية ، والمماليك حتى الغزو العثمانى [٣٧] . ورغم أن مقررات التاريخ أسقطت مصر بعد عام ١٥١٧ ، ومعظم آسيا ، والتاريخ الأفريقى والأمريكى ، فقد فتح مجالاً واسعًا للرؤية أمام المصريين المحدثين .

وكان مقرر التاريخ فى السنوات الأربع بدار العلوم يعطى اهتمامًا بعصر ما قبل الإسلام ، واهتمامًا أكبر بالتاريخ العثمانى بعد عام ١٥١٧ ، وتاريخ أوروبا الحديث .

وفى تقرير عن عام ١٩١١ ، وجه اللوم إلى دار العلوم لتركيزها على التاريخ الأوروبى على حساب التاريخ الإسلامى [٣٨] .

وقد تناول الطهطاوى اليونان وروما القديمة فى أعمال أخرى غير كتابه « أنوار توفيق الجليل » ، ففى مقال نشر فى « روضة المدارس » عن عادات اليونان والرومان ، قرر الطهطاوى أن معاملة النساء هى معيار تقدم المجتمع [٣٩] . وفى عام ١٨٦٩ كلف الخديو إسماعيل الطهطاوى بالإشراف على ترجمة رواية أوفنباخ « هيلانة الجميلة » ليتم تمثيلها على المسرح الكوميدى بالقاهرة [٤٠] .

وفى كتابه « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » مزج الطهطاوى بين معرفته باليونان والرومان والفراعنة ، بما استمده من القرآن والحديث والمصادر الإسلامية الأخرى ، فأشار إلى سولون والإسكندر والبطالمة ، وامتدح وطنية البطالمة ، والرومان ، وأبطال الإسلام ، وذكر الحديث القائل : « حب الوطن من الإيمان » ليربط بين الإسلام والوطنية عند مواطنيه ، كما أورد المثل القائل « مصر أم الدنيا » [٤١] .

ورغم تبريره لإقدام محمد على على سحق ثورة اليونان من أجل الاستقلال ، على أساس أن اليونانيين هاجموا المسلمين والمساجد ، اعتقد أن هجرة اليونانيين إلى مصر سوف تؤدى إلى رخائها كما حدث فى الماضى ، وربط بين محمد على والإسكندر ، فكلاهما ولد خارج مصر ، وجاء إليها ليحكمها حكمًا يقوم على التسامح والعدل [٤٢] . وبعد أن تناول حكم أسرة الإسكندر الثانية والثلاثين ، أو « الأسرة المقدونية الأولى » قال أن الله أكرم مصر بفاتح مقدونى آخر هو محمد على باشا [٤٣]. وربما كان عليه أن يذكر أن (پللا) – بلدة الإسكندر – كانت تقع على بعد مائة ميل فقط من قولة التى جاء منها محمد على .

اليونان والإيطاليون ونهضة الإسكندرية فى القرن التاسع عشر :

كانت الخبرة المقدونية – العثمانية التى اكتسبها محمد على فى شبابه – فى بلاده الأصلية – قد جعلته على دراية بعالم التجارة والسياسة فى البحر المتوسط . لقد نقل البطالمة والرومان عاصمة مصر نحو ساحل البحر إلى ثغر الإسكندرية ، ولكن الحكام

العرب أعادوها إلى الداخل فى الفسطاط (قرب القاهرة) ، التى وقعت فيما بين منف وعين شمس . وعندما وصلت حملة بونابرت إلى الإسكندرية كانت قد اضمحلت ، وهبط سكانها إلى ٨٠٠٠ نسمة . وعمل محمد على على إحياء الثغر باعتباره بوابة مصر إلى الاقتصاد العالمى الذى تتحكم فيه أوروبا ، وذلك مع الإبقاء على القاهرة عاصمة للبلاد . وبنى « المقدونى الثانى » قصراً فى رأس التين ، كان يقضى فيه جانبًا من وقته ، وسخر الفلاحين فى حفر ترعة المحمودية لمد الإسكندرية بالماء العذب من النيل ، وإقامة خط اتصال نهرى يربطها بالنيل ، كما بنى أسطولاً بحريًا فى الترسانة التى أقامها هناك ، وأرسل منها قواته لإخماد الثورة فى بلاد اليونان التى قامت ضد الحكم العثمانى ، وبدأ الاهتمام بزراعة القطن باعتباره محصولاً نقديًا يمكن استخدامه فى سداد قيمة الواردات الأوربية .

وفى العام ١٨٢١ ، كانت الإسكندرية لا تزال مدينة صغيرة ، يتراوح تعداد سكانها بين ١٢ - ١٣ ألف نسمة ، وعند نهاية حكم محمد على - عام ١٨٤٨ - وصل تعدادها إلى ١٠٤ ألف نسمة ، وعند وقوع الاحتلال البريطانى - عام ١٨٨٢ - كان قد بلغ ٢٣١ ألف نسمة ، وعند استقالة كرومر عام ١٩٠٧ ، كان التعداد قد وصل إلى ٤٠٣ ألف نسمة . وتغيرت تبعًا لذلك نسبة الأوربيين والمتمتعين بحمايتهم بين سكان المدينة ، من أقل من ٥٪ عام ١٨٤٨ إلى ٢٥٪ عام ١٨٨٢ (٤٤) . واستمدت النخبة التجارية ، التى اجتذبها الاقتصاد المزدهر ، شرعيتها بالإسكندرية من الماضى اليونانى - الرومانى ، تمامًا كما حدث فى إيطاليا عصر النهضة ، وعلى كل ، كانت غالبية ملوك التجارة بالإسكندرية من الأجانب تقريبًا ، وكان هؤلاء هم الذين يعتبرون أنفسهم استمراراً للماضى القديم للإسكندرية ، وليس المصريين .

وكان اسم الإسكندرية ذاته يبقى على ذكرى مؤسسها حية فى الأذهان ، ومع وجود الآثار اليونانية - الرومانية مطمورة هناك ، كان التراث الكلاسيكى أكبر حجمًا منه بالقاهرة . وعلى كل فقد كانت الفسطاط والقاهرة الفاطمية إسلاميتان من حيث النشأة ، وكان الأوربيون يمثلون ٥٪ من سكانها عام ١٨٩٧ (٤٥) ، وهى نسبة لا تقارن بالوجودالأوروبى بالإسكندرية . وحجبت الآثار الإسلامية بالقاهرة ، والآثار الفرعونية بالجيزة على مقربة منها ، الأثر الرومانى المتمثل فى حصن بابليون بمصر القديمة .

وكان اليونانيون يمثلون أكبر الجاليات الأوربية بالإسكندرية ، فبلغت نسبتهم إلى الرقم الإجمالى للأجانب ٣٣٪ عام ١٨٩٧ ، و٤١٪ عام ١٩٠٧ (٤٦) . وفى الإسكندرية – كما فى غيرها من المدن المصرية – أصبح اليونانيون منتشرين فى تجارة البقالة ، والحانات ، وعملوا كمرابين يقرضون الأموال للفلاحين ، ووسطاء فى تجارة القطن . وجاء نمو الوجود اليونانى وانتعاش أحوال الجالية اليونانية تحت مظلة الحماية التى وفرتها لهم أسرة محمد على ، والقناصل الأوربيين ، ثم الاحتلال البريطانى ، فى حين كانت اليونان المستقلة تعانى الضعف والانقسام ، مشغولة بالبلقان وبحر إيجه والأناضول ، عن التفكير فى إحياء ادعاءاتها الإمبريالية فى مصر ، مكتفية بالحصول على حقوق الامتيازات الأجنبية عام ١٨٥٤ ، وعلى مقعد بمحكمة الاستئناف المختلطة عام ١٨٨٩ .

ووجد اليونانيون فى مصر أنه من الصعوبة بمكان تخليص تراثهم القومى من الأرثوذكسية ، وتراثهم الكلاسيكى من الحنين إلى بيزنطة ، تماماً كما حدث لمواطنيهم فى اليونان المستقلة حتى القرن العشرين (٤٧) . فقد كان اليونانيون المقيمون بمصر فى القرن الثامن عشر يرون أنفسهم – ببساطة – كأفراد ينتمون إلى « الملة » الأرثوذكسية اليونانية ، التى كان لها بالإسكندرية بطريركية ، وكنيسة ، ودير ، وتكية ، وخان للمسافرين .

وأصبحت الهوية اليونانية أكثر تعقيداً مع استقلال اليونان عام ١٨٣٠ ، وفتحت اليونان قنصلية لها بالإسكندرية عام ١٨٣٣ . وبعد ذلك بعشر سنوات تكونت الجالية اليونانية الأرثوذكسية بالإسكندرية بصفة رسمية ، وتم انتخاب مسئوليها ، وإقامة مدرسة ، ومستشفى . وعبثاً حاول البطريرك اليونانى الاحتجاج خشية أن يؤدى ذلك إلى تناقص سلطته . وجاء اختيار الطراز القوطى الحديث – وليس البيزنطى – لكنيسة إيڤانجليموس التى بدأ العمل بها عام ١٨٤٤ بالإسكندرية وتم عام ١٨٥٦ ، جاء ذلك الاختيار ليعكس الاتجاه نحو الغرب . وفى العام ١٨٨٧، غيرت الجالية اسمها إلى « الجالية الهللينية » لتميز نفسها عن غيرها من رعايا الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية من العرب . وسارت الجالية اليونانية بالقاهرة على نفس الدرب ، ولكن بخطى أبطأ ، فكونوا الجالية الأرثوذكسية اليونانية عام ١٨٥٦ ، ثم أعادوا تسميتها بالجالية « الهللينية » عام ١٩٠٤ .

وحتى قيام الأتراك بطرد اليونانيين من الأناضول عام ١٩٢٣ ، كان اليونانيون السكندريون - مثلهم فى ذلك مثل مواطنيهم ببحر إيجه - تداعبهم أحلام إقامة (إيديا الكبرى) أى اعادة تكوين الإمبراطورية البيزنطية بشرق المتوسط والبلقان . أما سكان بلاد اليونان أنفسهم ، فكانوا منقسمين بين من أضناهم الحنين إلى الماضى البيزنطى ، ومن يحلمون بالعصر الذهبى لليونان القديمة فى القرن الخامس قبل الميلاد الذى خلب لب أهل الغرب . ولكن اليونان السكندريون - مثل الشاعر قسطنطين كڤافى - كانوا يحنون إلى العصر البطلمى الهللينستى (٤٨) .

وكان من بين اليونان السكندريين المهتمين بالآثار الطبيب تاسوس ديمتريوس نيروتسوس (١٨٢٦ - ١٨٩٢) ، والتاجران الكبيران الكونت إستيفان زيزنيا (١٧٩٤ - ١٨٦٨) ، والسير چون أنطونيادس (١٨١٨ - ١٨٩٥) . درس نيروتسوس الطب بجامعة ميونخ ، ولكنه - أيضًا - أعد رسالة عن أسماء آلهة الرومان ، وألقى أوراقًا بحثية عن الإسكندرية القديمة أمام « المجمع العلمى المصرى » ، وأهدى إلى المجمع مجموعة الآثار الخاصة به . ولكن انتقال المجمع إلى القاهرة أدى إلى ضعف مشاركة اليونانيين فيه بعد وفاة نيروتسوس (٤٩) . وتمثلت فى زيزنيا الهوية القومية المركبة عند بعض السكندريين المنفتحين على العالم . ولد زيزنيا بجزيرة خيوس ، وحصل على الجنسية الفرنسية أثناء عمله فى مارسليا ، ولكنه أصبح رئيسًا للجالية اليونانية بالإسكندرية ، وقنصلاً عامًا لبلچيكا . ومنحت الملكة ڤيكتوريا وسام الفارس لأنطاونيادس - الراعى الرئيسى للمتحف اليونانى - الرومانى - الذى ترك قصره وحديقته لبلدية الإسكندرية (٥٠) .

وكانت الإسكندرية قد فقدت بعض المجموعات الرائعة من آثارها اليونانية - الرومانية التى ذهبت إلى أثينا وإلى غيرها من البلاد ، ولكن جليمونوپولو أعلن عام ١٩٠٧ أن مجموعته « تخص - من ناحية الحق - متحف الإسكندرية ، لأنه تم العثور عليها فى مصر ، وتم الحصول عليها لأغراض علمية بأموال اكتسبت من نفس البلد الكريم المضياف ، ولهذا السبب أرسلها إلى مستقرها ، ولا أعد ذلك هبة منى ، ولكنه ببساطة ردها لأصلها » (٥١) .

وأسست بالإسكندرية عام ١٩٠٩ « جمعية رجال علم الهللينية بالإسكندرية بطلميوس الأول » ، لتخليد ذكرى مؤسس الأسرة البطلمية ، كان أعضاؤها من الأطباء . وفي القاهرة أسست « جمعية هللنيون » - التي لم تعمر طويلاً - وحملت اسم معبد قديم أقيم في نوكراتيس بالدلتا حيث جاء مستوطنوها من ست مدن يونانية جمعتهم أرومة واحدة [٥٢] .

واتجه نستور چناكليس - ملك تجارة وصناعة التبغ - إلى محاولة استرجاع حضارة شمال أفريقيا اليونانية التي قرأ عنها في النصوص القديمة . ومازالت مزرعة كروم چناكليس قرب الإسكندرية - التي أممها عبد الناصر وتم تخصيصها أخيراً - تنتج نوعان من النبيذ أحدهما : فيض البطالمة ، والآخر الملكة كليو باترا . وقد أنقذ غياب الزراعة المعتمدة على المطر مصر من التعرض للخسارة الفادحة - مثلما فعل الفرنسيون - جرياً وراء وهم أن شمال أفريقيا كان مصدر إمداد روما بالغلال ، فقد فشل الفرنسيون في تحويل المغرب إلى مصدر رئيسي للغلال [٥٣] .

وكان للإيطاليين حضورقوى في المركز الثاني بعد اليونانيين بين المقيمين الأجانب بالإسكندرية (إذ بلغت نسبتهم ٢٥٪ من إجمالي المقيمين الأجانب عام ١٨٩٧) [٥٤] . وكان الإيطاليون يعملون بالبناء ، والحرف اليدوية ، وإصلاح الآلات الميكانيكية ، وكانت الأسرة الحاكمة - من إسماعيل حتى فؤاد - تتخذ مستشاريها من الإيطاليين الذين كانوا يحتلون مكانهم بين رجال الحاشية . ولما كانت إيطاليا ضعيفة ، تحتل المركز السادس بين دول أوروبا فلم يكن لديها أمل في التطلع لإشباع ميولها الإمبريالية في مصر . وبعد أن أزاحتها فرنسا من تونس ، ولحقت بها هزيمة منكرة في عدوا بالحبشة عام ١٨٩٦ ، لم يبق أمام إمبراطورية روما الجديدة التي تحلم بها إيطاليا سوى ليبيا وإرتريا - التي قامت بإحياء أسماءها القديمة - وكذلك جزء من الصومال . وقام موسوليني وحده بإرساء نظامه الفاشي على رموز رومانية ، وحلم - فيما بعد - بغزو مصر [٥٥] .

وأكدت إدارة المتحف اليوناني - الروماني - التي ظلت بيد الإيطاليين لمدة نصف قرن - الادعاءات الإيطالية الحديثة بنسبة تراث الإسكندرية القديم إليها . فقام عدد من

أعـيان الجالية الإيطالية السكندرية بجمع الآثار اليونانية – الرومانية والفرعونيـــة ، تداعب أحــلامـهم ذكريات يوليوس قيصـر ، ومـارك أنطونيو ، وأغسطس ، وهـادريان . وعلى سبيل المثال ، قام بيترو بوجيولى (١٨٣١ – ١٩٠٢) بتكوين مجموعة ، بُعثرت فيما بعد بــين متاحف القاهرة ، وبولونا ، وڤيينا ، ونيويورك [٥٦] .

وجاءت الجاليتان البريطانية والفرنسية فى المركزين الثالث والرابع – بعد اليونان والإيطاليين بفارق كبير – بالإسكندرية عند نهاية القرن [٥٧] . (وكان الكثير ممن ذكروا بالتعداد كبريطانيين فى حقيقة الأمر مالطيين ، كما كان الكثير ممن ذكروا كفرنسيين من التوانسة والجزائريين) . ولكن الاحتلال البريطانى لمصر ، والمكانة الثقافية لفرنسا ، وهيمنــة الفرنسيين على مصلحــة الآثــار ، أعطى لآراء رعاياهما فى مجال الآثار وزنـًا لا يستهان به .

محمود الفلكى ، حفائر وخرائط الإسكندرية القديمة :

كان مـحـمود الفلكى (١٨١٥ – ١٨٨٥) المصـرى الوحيـد الذى حظى باعتراف الأوربيين بعلمه – قبل الحرب العالمية الأولى – فى مـجـال الكلاسـيكيـات ، رغم أنه لم يتخصص – مثلهم – فى اليونانية واللاتينية . وكان مـحمود الفلكى عالمًا تتسع دائرة اهتمامه اتساعًا كبيرًا ، شأنه فى ذلك شأن الطهطاوى وعلى مبارك .

لقد كان مـحـمود أحـمد حـمدى الفلكى مصـريًا كعلى مـبارك ، صـعد من أصـوله الريفيـة عن طريق المدارس الحديثة التى أقـامتهـا الدولة حتى وصل إلى الوزارة ، فى وقت كانت فيه النخبة التركية – الشركسية تحتكر السلطة . ترك قريته بالدقهلية ليلتحق بالمدرسـة البـحـرية التى أقـامـها مـحـمـد على بالإسكندرية ، ثم بمدرسـة المهندسـخـانة بالقاهرة ، وبدأ عمله بالتدريس بالمدرسة الأخيرة عام ١٨٣٩، الذى شـهد التحـاق على مبارك بها طالبًا ، فتعلم الأخير على يديه (ولم يكن قد أضيفت صفة الفلكى إلى اسمه بعد) ، وذهب على مـبارك إلى فرنسا ليكمل دراسـتـه هناك ، وعـاد ليكسب ثقة عبـاس الأول . ويعزى إلى مبارك فضل إقناع عباس بإيفاد معلمه السابق محمود أحمد حمدى

إلى فرنسا لدراسة الفلك ، وكان - عندئذ - فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان إسماعيل مصطفى - واحدٌ من اثنين أوفدا معه فى هذه البعثة - حريصًا على إضافة صفة « الفلكى » مثله بعد العودة من فرنسا ، وقد قضى محمود أحمد حمدى أربع سنوات بمرصد باريس ، وخمسًا أخرى تنقل فيها بين مراصد أدنبره ، وبرلين ، وڤينا ، ودابلن ، وبروكسل ، قبل أن يعود إلى مصر ، وهو فى منتصف الأربعينات من عمره ليصبح مسئولاً عن مرصد العباسية (٥٨) .

وانفرد محمود الفلكى بين العلماء المصريين فى عصره بنشر بحوثه فى مجموعة متنوعة من المجلات العلمية الأوربية ، ومثَّل مصر فى المؤتمر الجغرافى الدولى المنعقد بباريس عام ١٨٧٥ ، وفى البندقية (ڤينسيا) عام ١٨٨١ . ويبدو أن محمود الفلكى قبل بالإجماع الأوروبى الواضح الذى يذهب إلى أن أوربا كانت المركز العالمى « للعلوم البحتة » ، وأن على علماء بلاد الأطراف أن يركزوا جهودهم على الأعمال الثانوية مثل جمع المادة ، وحل المسائل التطبيقية . فكانت مساهماته لا تتصل بالفلك تحديداً ، ولكنها تتعلق بمجالات عملية مثل : الطقس ، الجيوديسيا (دراسة شكل وسطح الأرض) ، المغناطيسية الأرضية ، الكرونولوجيا (التحقيب الزمنى) ، وعلم الخرائط ، والآثار . وناقش تثليث الهرم مع فلندر پترى ، ونشر بحثًا حول الموضوع . وقام بإجراء حفائر بالإسكندرية ، ورسم خريطة للمدينة فى العصور القديمة ، واهتم المستشرقون بدراسته للتقويم الإسلامى .

ولم ينافسه أحد من معاصريه المصريين فى الأنشطة التى قام بها فى « المجمع العلمى المصرى » الذى يهيمن عليه الأوربيون ، أو فى « الجمعية الجغرافية الخديوية » ، أو « لجنة حفظ آثار الفن العربى » ، فكان نائبًا للرئيس فى المجمع ، ورئيسًا للجمعية الجغرافية ، التى ألقى بها محاضرات ، على عكس غيره من قيادات الجمعية . وعكف محمود الفلكى على رسم خريطة للدلتا لمدة عشر سنوات ، طبعت بمطبعة بولاق عام ١٨٧١ .

وأجرى حفائر بالإسكندرية فى موسم ١٨٦٥ - ١٨٦٦ فى محاولة للكشف وإيضاح نقاط لتحديد خريطة المدينة فى العصور القديمة ، ونشر النتائج التى توصل إليها بمجلة المجمع العلمى المصرى ، وفى كوبنهاجن (٥٩) . ولم يهتم بذلك إلا القليل من

المصريين ، ولكن المشتغلين بالآثار الكلاسيكية استخدموا عمله - منذئذ - كأساس لمعرفة الطبوغرافية القديمة للمدينة (٦٠) .

جلادستون وكرومر والإمبريالية قديماً وحديثاً :

لولا الكلاسيكيات لكان رئيس الوزراء البريطاني الذى أمر باحتلال مصر عام ١٨٨٢ ، والقنصل البريطاني العام بالقاهرة ، يفتقران إلى الفصاحة ، فقد ألف وليم جلادستون سبعة مجلدات عن هوميروس ، وكان يلقى محاضرات عنه كلما التمس إلى ذلك سبيلاً (٦١) . وانتخبه مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع ، المنعقد بلندن عام ١٨٩٢ ، رئيساً لقسم العلاقات بين الشرق والأرخبيل اليونانى (٦٢) . وكان سبعة من بين أعضاء أول وزارة شكلها جلادستون من البارزين فى دراسة الكلاسيكيات بأكسفورد وكامبردج ، وكانت الاقتباسات من اللاتينية شائعة فى مجلس العموم فى زمانه . وكان جلادستون ، وسولسبورى ، ووزير الخارجية جرانفيل قد تلقوا الدروس الأولى فى الكلاسيكيات بمدرسة إيتون ثم فى كريست تشيرش كولدج بأكسفورد . وفى الجيل الثانى تأكدت سمعة أوكسفورد كمهد للإمبراطورية على يد رئيس الوزراء أسكويث ، وحاكم جنوب أفريقيا ألفرد ملنر ، ونائب الملك فى الهند چورچ كيرزون (٦٣) .

ويذكر جلادستون الآن كمؤمن بالهيمنة الإمبريالية غير الرسمية ، بسبب حديثه المضاد للإمبريالية . فقد كان نموذجاً لرجال منتصف العصر الڤيكتورى فى تعظيمه لهوميروس وتحقيره من شأن ڤرچيل - شاعر الإمبراطورية الرومانية - ومن شأن سيده أغسطس . ولكن ڤرچيل ، وأغسطس ، والإمبراطورية الرسمية عادت من جديد مع « الإمبريالية الجديدة » فى أواخر القرن التاسع عشر ، وبدا جلادستون العجوز بعيداً عن الإدراك . فقد لمست نبوءة أنخيسس بأن العظمة الثقافية من نصيب اليونان والإمبراطورية من نصيب روما ، لمست وتراً حساساً : « فعندما كان يقرأذلك رجلٌ إنجليزىٌ ممن عاشوا فى القرن الماضى ، فكيف لا ينصرف تفكيره إلى بلده ؟ إلى حظ بريطانيا ، أو كما اعتقد الڤيكتوريون المتأخرون - على نحو متزايد - أن القدر قد خص بريطانيا بعظمة وأعباء الإمبراطورية » (٦٤) .

وكتب چون سيلى الأستاذ بجامعة كامبردچ : « لا شك أنه كان ينظر فى وقت ما بعدم اكتراث إلى الإمبراطورية الرومانية لاتسامها بالطغيان ، ولأنها كانت – أحيانًا – كئيبة ونصف بربرية . . . (ولكن) هناك أشياء أخرى فى السياسة إلى جانب الحرية ، فهناك مثلاً الجنسية ، وهناك الحضارة » (٦٥). وكلمات مثل : مستعمرة « Colony » واستعمار « Colonialism » وسيادة « Dominion » وإمبراطورية « Empire » وإمبريالية « Imperialism » كلها مشتقة من جذور لاتينية (٦٦) .

وبدت بريطانيا مرتدية رداءها الكلاسيكى ، مدعمة بالمعرفة والقوة ، تستعرض إمبراطوريتها من فوق وزارة المستعمرات فى هوايتهول (٦٧) . ولم يكن باستطاعة فوكو أن يشرح ذلك بصورة أوضح مما فعلته مجلة پانش عندما رسمت بريطانيا فى صورة أثينا وقد ارتدت خوذة مقاتل – التى أصبحت صورة نمطية لبريطانيا (٦٨) – فى (كارتون) بمناسبة تكريم كتشنر كغازٍ للخرطوم عام ١٨٩٨ (انظر الشكل ٢٩) .

أصاب جلادستون الإجهاد من صقور الحرب – داخل وخارج وزارته – خلال الأزمة المصرية عام ١٨٨٢ ، ولعله أقنع نفسه بأن الاحتلال المؤقت ممكن ، ولكنه عندما أرسل القوات البريطانية إلى مصر ، كان يقرأ كتاب توماس ماكولاى « خطط روما القديمة » (نشر عام ١٨٤٢) (٦٩) . واستعاد كرومر معارضة سكيبيو وكاتو للغزو التوسعى خشية أن يؤدى ذلك إلى إفساد المجتمع « ولذلك ناضل الرومان ، أو ناضل بعض عقلائهم بشرف ورجولة لضبط شهوة تعظيم الذات ، كما فعل السيد جلاد ستون واللورد جرانڤيل اللذان كافحا من أجل إزاحة العبء المصرى عام ١٨٨٢ » (٧٠) .

وقبل ذلك بعام واحد ، اتهم صحافى بريطانى فرنسا بشن « آخر الحروب البونية » باحتلالها لتونس (٧١) . والآن وقد أصبحت هناك حامية بريطانية على ضفاف النيل ، تتحدى بريطانيا ادعاء فرنسا أنها الوريث الوحيد للإمبراطورية الرومانية فى شمال أفريقيا . وبأسلوب مجلة « پانش » المعهود ، قدمت رسمًا لكليوباترا تقف أمام قيصر – الذى يحمل ملامح جلادستون يتحير عما يفعل ، بينما الجنرال ولسلى يقدم له مصر عارية الصدر . (انظر الشكل ٣٠) .

كان من الممكن أن تنسب إلى كرومر مقولة سيسل رودس المفضلة « تذكر دائمًا أنك روماني » [٧٢] . ولد كرومر فى عائلة تشتغل بالمصارف - هى عائلة بيرنج - باسم إيڤلن بيرنج ، وتلقى تعليمًا عسكريًا فى مدرسة وولوتيش . ومن بين خلفاء كرومر فى مصر لورد كيتشنر وريجنالد ونجت تخرجا أيضًا فى وولوتيش (وكذلك شالز جوردون) ، بينما درس كل من هنرى ماكماهون والفيلدمارشال اللنبى فى سائد هيرست . وقد أحس كرومر دائمًا بالأسى لعدم تلقيه تعليمًا كلاسيكيًا ، فعلم نفسه بنفسه اليونانية واللاتينية ، وتشهد اليونانية واللاتينية التى أوردها - دون ترجمة - بكتابه « مصر الحديثة » بانضمامه إلى زمرة من يتقنون الكلاسيكيات ، وقد انتقد الرق فى الإسلام بنص يونانى ، واستنكر معاملة المسلمين للنساء بنص لاتينى ، وأبدى اشمئزازه من تيجران باشا - ناظر الخارجية المصرى - لأن عقليته « فرانكو - بيزنطية » ، ولأنه محدود الثقافة [٧٣] .

تلقى كرومر تدريبه الإمبريالى بالهند فى الأطراف البعيدة عن العالم الكلاسيكى ، وحتى هناك كان البريطانيون يلجأون إلى التراث الكلاسيكى ليعينهم على فهم كيفية حكم الهند [٧٤] . وبعد ذلك بسنوات « فى الجو الحار ولياليه الخانقة فى صيف مصر ، عندما كان كل فرد يبذل ما فى وسعه لالتماس نسمات الهواء البارد فى أى مكان ، كان كرومر وهارى بويل (السكرتير الشرقى) يجلسان بعد تناول العشاء فى شرفة القنصلية البريطانية بالقاهرة ، يقرآن بصوت عال - بالتناوب - فقرات من الإلياذة » [٧٥] .

وتولى كرومر - بعد تقاعده - رئاسة الجمعية الكلاسيكية بلندن ، حيث امتدح بأنه « شخص تجمعت فيه صفات الذكاء اليونانى ممتزجًا بالقدرة الرومانية على الإدارة البناءة » [٧٦] . والكتيب الذى نشره بعنوان « الإمبريالية قديمًا وحديثًا » ، يمثل نص الخطاب الذى ألقاه بالجمعية عند توليه رئاستها . وكتب اثنان من معاصرى كرومر - أيضًا - كتبًا قارنوا فيها بين الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الرومانية ، وكان ناقده فى البرلمان - النائب چون رۆبرتسون - يصر على أن الأمبراطورية أفسدت بريطانيا تمامًا كما فعلت فى روما [٧٧] .

ورفض كرومر كل موازنات غير سوية بين اليونان والإمبريالية البريطانية ، ونفر من الإسكندر لأنه « لم يكن يونانيـا حقيقيـا . . . وكان غازيًا أكثر منه مؤسسًا للإمبراطورية » ، ورأى أن « الإمبرياليين البريطانيين يجدون نوعًا من السلوى فى أن ما تعكسه تجربة أثينا لا يمكن استخدامه فى الجدل الذى يهدف إلى تأكيد أن المؤسسات الديموقراطية لا تتوافق بالضرورة مع أى سياسة إمبريالية عاقلة ، ولكنها تبين الآثار الفادحة التى تترتب على ديمقراطية أصابها الجنون » (٧٨) . وقد رجع إلى الكلاسيكيات ليؤكد الفكرة الشائعة عن فقدان الشرق الإحساس بالزمن ، وتقديم دروس أخلاقية عامة : « يؤكد لنا الرومان أن المصريين يفخرون بالعلامات الغامضة التى ساعدتهم على التدليس فى الضرائب . وكما كانت الحال فى زمن أغسطس كانت كذلك فى عهد إسماعيل ، وقد وقع إسماعيل ضحية الغش والرعونة فى استخدام القوة ، فحاقت اللعنة بالطاغوت المصرى » (٧٩) .

ولعب ألفرد ملنر – الذى خدم مع كرومر – بالعبارات الكلاسيكية عند وصفه لظاهرة التناقض فى مصر : « لازالت مصر كما هى ، مصر التى عرفها هيرودوت ، الموطن المختار لكل ما هو غريب ، غير قابل للتفسير ، ومتناقض » . وبعد بضع سنوات يسأل القارىء أن « يتخيل شعبًا من أكثر الشعوب فى العالم رقة وطيبة فى قبضة أكثر الأديان عزوفًا عن التسامح وتعصبًا » (٨٠) .

ولاحظ كرومر أن كلاً من بريطانيا وروما توسعتا بحثًا عن حدود طبيعية ، وحققتا الانتصار على صعاب كبيرة ، وجندتا قوات من الشعوب المغلوبة ، وأسبغتا السلام على رعاياهما . وسار على نهج توماس أرنولد فى القول بأن ما كان يعيب الرومان هو كونهم غير مسيحيين ، فقد كانت بيزنطة خارجة عن نطاق اهتمامه . ولذلك رأى الرومان أقل منـزلة من بريطانيا الحديثة فى مسألة الرق والنزعة الإنسانية ، ولم يشارك كرومر إدوارد جيبون انبهاره بالموضوع الممل الخاص بسقوط الإمبراطورية الرومانية .

وذهب كرومر إلى أن روما استوعبت رعاياها شرق اليونان ، بينما عجزت بريطانيا عن استيعاب رعاياها الأسيويين والأفارقة ، ورأى أن مرد ذلك أن روما

واجهت قبائل ، ولم تواجه أممًا لديها وعى ذاتى ، وأن الديانة الرومانية أفسحت مكانًا لمعبودات الشعوب المغلوبة ، بينما عجزت المسيحية عن تحقيق ذلك ، كما أن الرومان واليونان لم يعرفوا أبدا مشكلة التحيز للون (التمييز العرقى) ، وطمأن نفسه بالقول أن أيًّا من الدول الأوربية لم تنجح فيما فشلت فيه بريطانيا ، وأنه حتى اليونانيين المحدثين لم يتزاوجوا مع المصريين إلا نادرًا (٨١) .

وأشار إلى أن « العالم لم يتغير كثيرًا فى ألفى عام ، . . . وعندما أقرأ فى تاريخ الدكتور أدولف هولم الشهير أن اليونانيين بالإسكندرية حصلوا فى العهد البطلمى على امتياز الضرب بالعصى بدلاً من الضرب بالسياط ، ذكّرنى ذلك بأن أحفادهم ، شأنهم شأن غيرهم من الرعايا الأجانب ، يتمتعون بامتيازات ذات أهمية بالغة » (٨٢) .

وعندما بدأ رونالد ستورس العمل فى دار المقيم البريطانى قبيل نهاية عهد كرومر ، كان يستيقظ فى السادسة والنصف صباحًا ليقرأ هوميروس قبل الإفطار ، ويذكـر أن « الليدى كرومر سلمتنى دعوة باللاتينية تلقاها اللورد من جامعة أبردين . . . وطلب منى أن أعد ردًا على الدعوة بنفس اللغة ، وتعهدت بإنجازها وأنا أشعر بالغبطة ، ولم يكن لدى كتب من أى نوع ، ولكنى أعددت ردًا رومانيًا جيدًا ، وسلمته لها عندما حان وقت تناولها الشاى . ولم تغب سوى أقل من ساعة بعد تسلمها الرد ، وجاءت لتدعونى لتناول الغذاء وأخبرتنى أن اللورد رأى الرد بالغ الجودة ، وقد وجدت الرجل العجوز بالغ السرور بها ، وقال إنه أحس بشعور المنافق عند توقيعه لها . . . وقدم لى ترجمة مختارات يونانية ، وتمنى الإبقاء على اليونانية » (٨٣) .

وعندما استقال كرومر أمام الضغوط الهائلة ، وعاد إلى بلاده ، رد على منتقديه بمقولة يوريبيدس : « ألا ترى كيف أن البلاد ، عندما تلام على رغبتها فى التروى ، تنظر بحدة إلى من يهاجمها ؟ لأنها تحقق العظمة من خلال الكدح » وحتى لا تغيب وجهة نظره عن أحد ، أضاف ترجمة إنجليزية إلى النص اليونانى الأصلى (٨٤) .

وكان كرومر فخورًا كأى رومانى عندما يتفوق على قصيدة يونانية ، ولكن منطلقاته الكلاسيكية ضيقت مجال الرؤية عنده . ولم يحاول الرومان تعلم لغات الشعوب المغلوبة

فيما عدا اليونانية ، وكذلك فعل كرومر الذى كان يفخر دائمًا بأنه يعرف عن مصر كل صغيرة وكبيرة ، ولكنه لم يحاول أن يتعلم العربية .

وكغيره من الكثيرين الذين عشقوا اليونان القديمة ، وجد كرومر أنه من الصعب التسامح مع اليونانيين المعاصرين ، فبعد أن أكد مراراً أن « الكثيرين من اليونانيين ذوى النفوذ والاعتبار » جلبوا لمصر منافع عدة ، ألقى خطبة عصماء ضد : « الطبقة الدنيا من اليونانيين التى تمارس الربا ، وبيع الخمور ... فاليونانى من هذه الطبقة يضحى بحياته من أجل كسب ضئيل ، فلا ينتشر المرابون والبقالون اليونان فى كل قرية مصرية تقريبًا فحسب ، بل يشقون طريقهم فى مناطق نائية كالسودان والحبشة ... لقد زرت سراس جنوب وادى حلفا عام ١٨٨٩ ، وكانت عندئذ آخر نقاط تواجد الجيش المصرى ، وتقع وسط منطقة واسعة قفرة ، ولم يكن قد مضى أكثر من بضعة أيام على إقامة تلك النقطة ، ورغم ذلك وجدت هناك يونانيًا يبيع السردين والبقسماط ... فى حفرة داخل الصخور اتخذ منها محلاً مؤقتًا » [٨٥].

وأعلن أن أولئك المرابين اليونانيين الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا « يغرون الفلاح المصرى حتى يقترض منهم بفائدة باهظة ، ثم يحكمون - بعدئذ - قبضة القانون عليه ، ويحولونه من مالك إلى وضع القن . . . وبسبب أعمال اليونانيين وبتأثيرهم أقبل الفلاحون المصريون على شرب الخمر . . . لقد قال السيد جلادستون ذات مرة أنه من الأفضل للترك أن يجمعوا أغراضهم ويغادروا أوروبا . . . ولكنه قد يكون من الأفضل لتركيا والولايات التابعة لها لو جمع بعض من ينتسبون إلى الطبقة الدنيا من اليونان أغراضهم وغادروا الأراضى التركية (العثمانية) » .

المتحف اليونانى - الرومانى وجمعية آثار الإسكندرية :

كتب فورستر : « الإسكندرية الحديثة تكاد تكون مدينة بلا روح ، فهى تعتمد على القطن والبصل والبيض » [٨٦] . فليس بالإسكندرية جامع له مكانة الأزهر ، ولم تنشأ بها جامعة إلا عام ١٩٤٠ ، كما أن جريدة « الأهرام » تركتها إلى القاهرة عام ١٨٩٨ .

وفيما بين ١٨٥٩ - ١٨٨٠ قدم « المجمع العلمى المصرى » للسكندريين - وخاصة الأوربيين - منبرًا جاهزًا للحوار فى الكلاسيكيات . وغالبًا ما كان المتحدثون يقدمون أوراقًا فى موضوعات يونانية - رومانية ، ينشرها المجمع فى مجلته ، وفى الستينات أشار المجمع إلى حاجة الإسكندرية إلى متحف ، وأسس « اللجنة الدائمة للآثار » لحماية الآثار من الدمار الذى تتعرض له ، ومن نهب الرحالة والسياح (ولكن ما لبثت اللجنة أن أثبتت أنها أقل من أن تكون دائمة) . وحصل المجمع على مجموعة متواضعة من الآثار . ورغم أن المجمع لم يحتك سوى بقطاع صغير من النخبة الأوربية وبعض المصريين ، فإن انتقاله للقاهرة مع مكتبته ومجموعة الآثار ترك فراغًا فى الحياة الثقافية السكندرية (٨٧) .

وعندما كان القس سايس فى زيارة للقنصل البريطانى السير شارلز كوكسن عام ١٨٨٩ ، التقى جيسب بوتّى مدير المدرسة الإيطالية بالإسكندرية . وكان بوتّى منذ وصوله قبل خمس سنوات ، يقضى وقت فراغه فى مطابقة الأوصاف الواردة بالمصادر الكلاسيكية على ما بقى من آثار المدينة القديمة . وتحدث ثلاثتهم حول حاجة الإسكندرية الى متحف . وبعد ذلك اللقاء بعامين ، أسس كوكسون - عام ١٨٩١ - بالإشتراك مع مجموعة من الأفراد « الجمعية الأثينية » التى نجحت فى حشد مجموعة من المجلس البلدى وراء فكرة إقامة متحف يونانى رومانى (٨٨) .

وفى ١٨٩٢ عملت مجموعة من أعيان الأوربيين والمهنيين من خلال البلدية الجديدة لإقامة المتحف اليونانى - الرومانى ، ومكتبة بلدية الإسكندرية . واعترضت الحكومة على فكرة إقامة متحف بديره « هواه » ، وربما كان يوچين جريبو ومصلحة الآثار وراء ذلك الاعتراض ، ولكن الحكومة تراجعت عن موقفها فى إطار تعويض الإسكندرية عن الأضرار التى لحقت بالمدينة نتيجة مد الخط الحديدى ، الإسماعيلية - بور سعيد التى أدى إلى تحول جانب من التجارة عن ميناء الإسكندرية ، وأصدرت قرارها بالموافقة على المتحف (٨٩) ، على أن تتولى مصلحة الآثار الإشراف على المتحف ، وتتحمل بلدية الإسكندرية جميع تكاليفه . وأصبح بوتّى أول مدير للمتحف .

وكانت البلدية – التى تـأسست عام ١٨٩٠ – تقع تحت سيطرة النخبة التجارية الأوربية ، وكان نصف أعضاء المجلس الذى كان يتكون من ٢٨ عضواً يحتلون مقاعدهم بصفتهم الرسمية أو بالتعيين من الحكومة . وتولى التجار وأصحاب الأملاك من الأجانب انتخاب النصف الآخر وكان ثلاثة أرباع الناخبين من الأوربيين ، وقامت البلدية بفرض رسوم أنفقتها على البنية الأساسية للمدينة (٩٠) .

وكان من الطبيعى أن يلعب مؤسسو مكتبة البلدية والمتحف اليونانى – الرومانى بمشاعر الحنين إلى الماضى القديم للإسكندرية ومكتبتها . وقام كل من المتحف الحديث وجمعية الآثار ببناء مكتبتها العلمية الخاصة ، وتركوا لمكتبة البلدية مهمة خدمة القراء العاديين للكتب بمختلف اللغات الأوربية . إضافة إلى اللغة العربية . وتعاقب المديرون السويسرون على إدارة القسم الأفرنجى من المكتبة الذى كان يفوق القسم العربى من حيث الأهمية مدة خمسين عاماً (١٨٩٢ – ١٩٤٣) (٩١) .

وكان لأعضاء « الجمعية الأثينية » دور بارز إلى جانب اثنى عشر متحمساً ، فى إنشاء « جمعية آثار الإسكندرية » عام ١٨٩٣ لتوفير الدعم للمتحف الجديد . وكانت عضوية الجمعية تعبر عن الطابع المختلط للمدينة (الكوزموبوليتانى) وإن خلت الجمعية من المصريين ، أقباطاً كانوا أم مسلمين . وكان البريطانيون يمثلون الجانب الأكبر من الأعضاء :

القنصل كوكسون ، والأميرال بلومفيلد (مأمور الميناء) ، وموظفان بريطانيان آخران ، والمصرفى چون ريفز . ومن الإيطاليين بوتّى والمعمارى مانوساردى ، والسويسرى نوريسون ، والمصرفى اليونانى چورچ جوسيو ، وچاك دى منشه اليهودى المصرى الذى يحمل جنسية النمسا والمجر ، وعالم المصريات ألبرت دانينوس الذى كان يونانياً ذا خلقية جزائرية – فرنسية (٩٢) . وفى العام ١٨٩٧ أقامت الجمعية حفل تأبين لرئيسها جوسيو الذى مات فى الحرب العثمانية – اليونانية ، ولكن عزاءهم أنه عاش ليرى « حلماً يتحقق ، فقد اتصلت إسكندرية الخديويين الجديدة بإسكندرية البطالمة وقد شعر بالسعادة لتحقيق هذا الحلم » (٩٣) .

كان المتحف اليوناني - الروماني فريداً في نوعه بين متاحف الآثار المصرية الأخرى من حيث تمتعه بدعم جماعة منظمة ، فقد رعت « جمعية الآثار » المحاضرات والرحلات ، وبدأت عام ١٨٩٨ نشر مجلتها العلمية التي احتوت على مقالات بالفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية ، ولكن العربية واليونانية لم تلقيا قبولاً عند الأوربيين كلغتين للبحوث العلمية ، كذلك كانت رئاسة الجمعية للأوربيين وحدهم : بريطاني ، وفرنسي ، وإيطالي ، ويوناني ، وأسباني ، وأمريكي ، وذلك من تأسسها حتى ١٩٥٢ ، فلم ينتخب أي مصري رئيسًا لها ، وإن كان الأمير عمر طوسون قد اختير رئيسًا فخريًا للجمعية .

واتخذ المتحف اليوناني - الروماني لنفسه مقرًا له في أحد أركان مبنى البلدية الذي كان يقع شرقي وسط القسم الحديث من المدينة . وافتتح الخديو عباس حلمي الثاني المتحف في ١٧ أكتوبر ١٨٩٢ ، وعاد بعد ثلاث سنوات ليفتتح مبناه الجديد . وجاءت واجهة المبنى الجديد على الطراز الدوري (الإغريقي) الكلاسيكي الحديث لتلائم الفكرة الغربية الخاصة بالطراز المعماري الملائم للمتحف ، والوسط السكندري ، والآثار المحفوظة بالمتحف (انظر الشكل ٣١) [٩٤] ، وامتلأ المتحف الجديد تدريجيًا بالآثار التي جاءت من الحفائر التي قام بها المتحف بالإسكندرية الكبرى ، والهبات التي قدمها المواطنون ذوي العقلية الحضارية ، وما تم نقله من المتحف المصري من الآثار اليونانية - الرومانية .

وتولى بوتِّي إدارة المتحف حتى وفاته عام ١٩٠٣ ، قام خلالها بحفائر حول الإسكندرية الكبرى ، ونشر العديد من المطبوعات . وجاء اختيار إيفاريستو بريشيا (١٨٧٦ - ١٩٦٧) خلفًا له ليجعل من المتحف جيبًا ثقافيًا لإيطاليا في مصر الخاضعة للاستعمار . وقد درس بريشيا التاريخ القديم بجامعة روما ، وعاون عالم المصريات إرنستو شياباريللي في حفائره بالأشمونيين (عين شمس الكبرى) ، وسار في إدارته للمتحف (١٩٠٤ - ١٩٣١) على نهج بوتِّي في القيام بحفائر من حين لآخر ، وفي إصدار المطبوعات . وعندما انتقل بريشيا أستاذًا لكرسي الآثار الكلاسيكية بجامعة بيزا عام ١٩٣١ ، أبقى اختيار أخيل أدرياني (١٩٨٢ - ١٩٠٥) مديرًا للمتحف ، إدارته في أيدي الإيطاليين [٩٥] .

ولم تكن الخبرة بالآثار الكلاسيكية قاصرة على المتحف اليونانى - الرومانى وحده ، فقد كان هناك متخصصون بهذا المجال فى كل من المتحف المصرى ، والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، وفى العام ١٨٩٤ ، بدأ عالم الهللينيات پيير چوجيه العمل على البرديات اليونانية ، واستمر ناشطًا فى هذا الحقل لنصف قرن من الزمان (٩٦) .

وكان « صندوق الكشوف المصرى Egypt Exploration Fund » يتزعم العمل فى استكشاف كنوز البرديات اليونانية التى حفظتها رمال مصر الجافة من عاديات الزمان ، ووضعت لائحة الصندوق الآثار - اليونانية فى المرتبة التالية للعبرانية فيما يتم البحث عنه من أغراض . فقد بدأ الصندوق حفائره فى « أرض جوشن » شرق الدلتا ، اهتداء بالكتاب المقدس ، ولكن العثور على المدينة اليونانية نوكراتيس - التى تلقى الضوء على فترة غامضة من تاريخ الفن اليونانى - جاء فى المرتبة الثانية من حيث الأهميـة (٩٧) . وقام پتـــرى باكتشـــاف نوكراتيس لحســاب « صندوق الكشوف المصرية » عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ، وتابع حفائره - مستقلاً على مدى عقد من الزمان ، فاستخرج لفافة بردية هوميروس فى هوارة ، وصناديق مومياوات بطلمية مصنوعة من البردى المغطى بالنقوش فى جروب . ودخل إرنست بادچ السباق للحصول على البرديات للمتحف البريطانى ، فاشترى برديات تحتوى على دستور أثينا المفقود (٩٨) .

وأصبح كل من برنارد جرينفل وأرثر هانت - اللذان درسا الكلاسيكيات فى كوينز كوليدچ باكسفورد - من أبرز صيادى البرديات لحساب « صندوق الآثار المصرية » ، ففى ١٨٩٥ - ١٨٩٦ عثرا فى البهنسا بالفيوم على ما يزيد على ثلاثة آلاف بردية كان أغلبها برديات يونانية متنوعة ، وكان القليل منها برديات لاتينية ، وقبطية ، وعربية ، واستجاب الصندوق لهذا النشاط فخصص له « حساب البحوث اليونانية - الرومانية » (الفرع اليونانى - الرومانى الآن) الذى ساند حفائرها ماليًا لما يزيد على اثنى عشر عامًا ، ورتب أمر نشر ما تم العثور عليه .

وخلال فتـــرة الحرب العالمية الأولى التى توقفت خـــلالها الحفائر ، نشر جرينفل وهانت اكتشافـــاتهمـــا الغنيـــة . ولا زال « مشـــروع نشـــر برديات أوكسيرنخوس » (البهنسا) - الذى قاده إدجار لوبل - مستمرا حتى اليوم .

واتهم جرينفل وهانت بأن همهما الأول كان اصطياد البرديات على حساب أى شيء آخر ، فلم ينشرا خرائط المواقع التى تم العثور فيها على البرديات . ويشير من تصدوا للدفاع عنهما أن البرديات فى البهنسا كانت فى أكوام من القمامة لم يبق فيها حجر فى موضعه ، وأنه كانت لهما أولوياتهما فى وقت كان فيه الحفر العشوائى يلتهم المواقع بسرعة .

المهاجرون الشوام المسيحيون والكلاسيكيات اليونانية - الرومانية :

فى العام ١٩٠٢ ، كان هناك أربعة مصريين فقط من بين أعضاء « جمعية الآثار » بالإسكندرية البالغ عددهم ١٠٢ عضواً ، وكان بعض أولئك المصريين (مثل إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فيما بعد) أعضاء بحكم وظائفهم . وكان الأمير عمر طوسون المصرى الوحيد من تسعة من أعضاء الشرف [٩٩] . ولم تكن اللاتينية أو اليونانية تدرس بأى مدرسة مصرية حكومية [١٠٠] ، كما أن المصريين وجدوا صعوبة فى الانتساب إلى الحقبة اليونانية - الرومانية من تاريخهم قياسًا إلى العصور التاريخية الأخرى .

وساعد الشوام المسيحيون - حينًا من الزمان - على تقديم التراث اليونانى الرومانى للمصريين ، فقد عمل هؤلاء فى مجالات الترجمة ، والمسرح ، والصحافة ، والتجارة منذ السبعينات من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى ، كانت الفرص فى مصر متاحة ، كما أن صرامة الرقابة فى بلاد الشام فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى أجبرت بعضهم على الرحيل إلى مصر ، وكان الشوام محل ترحيب إسماعيل ثم الاحتلال البريطانى ، فراحت أحوالهم فى مصر ، سواء من كان منهم مدافعًا عن الاحتلال مثل فارس نمر وجريدته « المقطم » ، أو كان معارضًا له مثل أصحاب « الأهرام » أو من كان ميالاً لفرنسا ، أو من وقف بحذر على الحياد مثل جرجى زيدان صاحب « الهلال » ، وبلغ صعود نجم الشوام المسيحيين مداه حتى العام ١٩٠٠ عندما دخل الكثير من المصريين الميادين التى كانت مرتعًا لهم [١٠١] .

قام الشوام المسيحيون بترجمة ، وتعريب وإخراج المسرحيات الفرنسية التى تتناول موضوعات يونانية – رومانية . فقد جاء سليم النقاش وأديب إسحق من لبنان منتصف السبعينات ، وكوّنا فرقة مسرحية بدعم من إسماعيل ، وارتبطا بمجموعة جمال الدين الأفغانى ، واتجها لإصدار صحف عربية . وقام سليم النقاش بتعريب رواية لكورنيل بعنوان « مى وهراس » تضمنت إيحاءات عن آلهة الرومان ، وعندما ترجم إلى العربية الأغنية التى كتبها أنطونيو جيلا نزوى لأوبرا عايدة لفردى ، أخذ النقاش حذره بإسقاط الإشارة إلى إيزس وأوزيريس من الترجمة العربية ، وأعلن النقاش فى إهدائه العمل أن أعمال الخديو إسماعيل فاقت أعمال الإسكندر ، وخسرو ، وقيصر ، كما قدم شكره لأنطونيادس الثرى اليونانى على رعايته (١٠٢) .

وقبل قدوم أديب إسحق من بيروت إلى القاهرة ، قام بترجمة « أندروماك » لراسين إلى العربية فى نثر مسجوع بتكليف من القنصل الفرنسى ، وتعالج قصة أندروماك أرملة هيكتور الذى قتل أثناء دفاعه عن طرواده ، ووقعت فى يد پيّروس ضمن سبى الحرب ، ثم قتل پيّروس فيما بعد على يد أورستس . كما قام أديب إسحق بتعريب رواية راسين « الطيبى أو الإخوة الأعداء » لإخراجها كمسرحية عربية تم عرضها بالإسكندرية والقاهرة عام ١٨٧٨ ، وفيها يلقى أبناء أورستس حتفهم أثناء الصراع على عرش طيبة اليونانية .

وأخذ آل البستانى – البيروتيون – على عاتقهم مشروعين طموحين يتصلان بالتراث اليونانى – الرومانى هما : دائرة المعارف (ونشرت فى ١١ مجلداً بين عامى ١٨٧٦ – ١٩٠٠) ، وترجمة الإلياذة إلى اللغة العربية ، وكانت مصر حاضرة فى المشروعين (١٠٣) .

كان بطرس البستانى (١٨١٩ – ١٨٨٣) من الجيل الذى انتمى إليه على مبارك ، وكتب – مثله – دائرة معارف تكشف عن اتساع نطاق المعرفة عنده ، وقد ولد بطرس البستانى لأسرة مارونية لبنانية ، وتعلم فى معهد لاهوتى مارونى فى عين ورقة ، وتميز عن معاصره مبارك بدراسته للاتينية ، وعمل بالقنصليتين البريطانية والأمريكية فى بيروت ثم تحول إلى البروتستانتية ، وقام بالتدريس فى مدارس الإرسالية التبشيرية

الأمريكية ، وساعد المبشرين فى ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ، وتولى - أيضًا - تحرير مجلات عربية ، ثم أسس مدرسة خاصة به فى بيروت سماها « المدرسة الوطنية » ، ووضع قاموسًا عربيًا .

عاش بطرس البستانى حياته كلها فى لبنان ، ولكن مشروع دائرة المعرف الذى بدأه ، كان من بدايته حتى نهايته مشمولاً بالرعاية المصرية . فقد اعتذر اثنان من أعيان العثمانيين عن دعم المشروع مقدمًا ، ولكن الخديو إسماعيل وعد بشراء ألف نسخة من دائرة المعارف ، وأضاف ولى عهده توفيق ، والوزير المصرى مصطفى رياض باشا دعمهما للمشروع . وجاء العنوان الفرنسى للموسوعة تاليًا للعنوان العربى « دائرة المعارف » على صفحة الغلاف ليكشف عن المصادر الغربية التى استلهمها محرر هذا العمل ، وقد أصدر البستانى ستة مجلدات ببيروت ، ولكنه مات عام ١٨٨٣ ، فتولى ابنه سليم تحرير مجلدين آخرين ، ثم أدركته الوفاة فى العام التالى ، فتولى متابعة العمل اثنان من إخوة سليم هما نجيب وأمين البستانى ، وعاونهما قريبهما سليمان البستانى . وظهر المجلد التاسع عام ١٨٩٨ ، والحادى عشر عام ١٩٠٠ ، وقام جرجى زيدان بطباعة المجلدين الأخيرين بمطبعة « الهلال » بالقاهرة . وهنا توقف المشروع بعد أن غطى ثلثى حروف الأبجدية العربية .

وركزت « دائرة المعارف » على العلوم الحديثة ، والتكنولوجيا والتاريخ الأوروبى والتاريخ العربى ، وتبدأ مادة « تاريخ » بهيرودوت واليونانيين ، وبذلك نقلت التاريخ الإسلامى من مركز التميز ، لتجعل منه أحد مكونات تاريخ العالم . وكان البستانى مشايعًا للمركزية الأوربية ، فوصف أوروبا بأنها : « من أصغر القارات ، ولكنها أكثرها أهمية فى تاريخ الحضارة » (١٠٤) .

وكما قال ألبرت جورانى ، ربما كان كاتبًا مسلمًا ممن عاشوا فى العصور الوسطى يعيد ترتيب ثيودوسيوس بين ستة مداخل وثيقة الصلة ببعضها البعض من العالم الكلاسيكى فى مجلد واحد ، ويجعل المداخل الخمسة الأخرى لكل من ثيمستوكليس ، وثوكيديدس ، وتسييوس ، وثيوفراستوس ، وثيوكريتوس .

ودعا بطرس البســتانى إلى ترجمة هوميروس وڤرجيل إلى العربية فى وقت مبكر (عـام ١٨٥٩) ، وقـدم فى مـادة « هومـيروس » بدائرة المعـارف الجـدل الذى دار بين الأوربيين حول أصالة الشاعر وتاريخيته . واستجاب سليمان البستانى (١٨٥٦ - ١٩٢٥) - قريب بطرس - للدعوة عام ١٨٨٦ ، وخلال السنوات الثمانى عشر التالية أنجز ترجمة الإلياذة إلى العربية شعراً .

وفى جولات جديرة بالأوديسة ، بدأ سـليمان البسـتانى فى مدرسـة البستانى « المدرسة الوطنية » ببيروت ، وعمل ترجماناً بالقنصلية الأمريكية ، وطوَّف بالعراق وإيران والهند مشتغلاً بالتجارة ، وألقى عصا الترحال فى التسعينات فى استانبول ، وفى عام ١٨٩٣ أصبح مفوضًا عثمانيًا لمعرض كولومبيا بشيكاجو ، وقضى بالقاهرة السنوات العشر السابقة على الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٨ ، وعاد إلى بلاده ليتم انتخابه ممثلاً لبيروت فى مجلس المبعوثين العثمانى . وفى استانبول أصبح عضواً بمجلس النواب ثم بمجلس الشيوخ ، فوزيراً للتجارة والغابات ، قبل أن يستقبل احتجاجًا على الانقلاب المشئوم الذى وضع العثمانيين فى جانب الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، وفضل سليمان أن يقضى فترة الحرب فى سويسرا ، ثم عاد إلى مصر ، وأخيراً ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وبالإضافة إلى نشر المجلدين الأخيرين من دائرة المعارف قام جرجى زيدان بنشر الترجمة العربية للإلياذة فى مطبعة « الهلال » بالقاهرة ، وكان زيدان شامياً مسيحياً آخر له اهتمامات موسوعية ، وأسس مجلة « الهلال » الأدبية الرصينة بالقاهرة وفى عام ١٨٩٩ نشر كتابه « تاريخ اليونان والرومان » بالعربية [١٠٥] .

وتعرض المقدمة التى تقع فى ٢٠٠ صفحة من مجلد « الإلياذة » ترجمة البستانى الذى يقع فى ١٢٦٠ صفحة ، الجدل الأوروبى حول « المسألة الهوميرية » ، وانتهى إلى تغليب الرأى القائل بأن هوميروس كان شاعراً فرداً ، وقال أن الإلياذة عند الإغريق لها ما للشعر الجاهلى من مكانة عند العرب ، وذكر أنه بدأ الترجمة من الطبعتين الإنجليزية والفرنسية قبل أن يقرر العودة إلى الأصل اليونانى .

شارك المسلمون المصريون إخوانهم الشوام فى الاحتفال الذى أقيم بفندق شيبرد بمناسبة الترجمة العربية للإلياذة وكان من بين الحضور من الشوام : زيدان ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف (محرر المقتطف) ، وجبرائيل تقلا (محرر الإهرام) ، والشاعر خليل مطران ، وإبراهيم اليازجي . أما المصريون المسلمون فكانوا : الشاعرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ، ورئيسا الوزراء - فيما بعد - سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، واعتذر محمد عبده عن عدم الحضور ، ولكن تلميذه رشيد رضا - وهو مسلم شامى - ألقى كلمة احتفالية طويلة .

التجريب المصرى للكلاسيكيات اليونانية الرومانية :

أدرك الطهطاوى ورفاقه ما تعلقه أوروبا على الكلاسيكيات من أهمية ، وجاء هذا الإدراك مستقلاً عن الشوام ، وكان باستطاعة المصريين المضى قدمًا فى استكشافهم للكلاسيكيات - ربما بإيقاع أبطأ - دون حاجة إلى وساطة الشوام . فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أعمال مدرسة الطهطاوى ، قام تلميذه عثمان جلال بترجمة عمل عن الإسكندر الأكبر لراسين إلى العربية ، نشره فى كتاب من تحريره عام ١٨٩٣ - ١٨٩٤ [١٠٦] .

وأورد على مبارك معلومات عن العصر اليونانى - الرومانى جاءت مبعثرة فى الخطط التوفيقية . فعند حديثه عن «أخميم» مثلاً ، يعرف المدينة بأنها « پانوبولس » الإغريقية ، ويسير على نهج تقى الدين المقريزى فيما ذكره عن المعبد الذى كان قائمًا هناك فى العهد اليونانى الرومانى حتى القرن الرابع عشر ، وهنا يقحم أسطورة كادموس - الفينيقى - الذى جلب الحضارة إلى اليونان عصر ما قبل التاريخ ، ويذكر مبارك الزيارات التى قام بها لمصر هوميروس ، وهيرودوت ، وأفلاطون ، وليكورجوس ، وقد جره ذلك إلى الخوض فى مناقشة حول سقراط وأفلاطون ومدرسته ، وحول فيثاغورث وأناكساغورث [١٠٧] .

وقدم مبارك أكثر معلوماته عن العصر اليونانى تفصيلاً فى المجلد السابع من الخطط التوفيقية الخاص بالإسكندرية ، وأورد تاريخ مصر منذ الإسكندر حتى الفتح العربى فى عشر صفحات ، تناول فيها حكم كل ملك بطلمى انتهاءً بكيلوباترا ، ثم الغزو الرومانى ، وبواكير العصر المسيحى . وفى القسم الطبوغرافى الذى تلاه ، اعتمد على مبارك على المقريزى ، والمصادر الفرنسية ، ومحمود الفلكى فى معالجة الشكل القديم للمدينة ، والمواقع المميزة لها مثل : الميناء ، والمنارة ، والمسلات ، وقبر الإسكندر ، والمتحف ، والمكتبات [١٠٨] .

كذلك تعرف المصريون على التراث الكلاسيكى الغربى من خلال القانون الرومانى الذى جاء من خلال قوانين نابليون ، والذى كان يدرس بمدرسة الحقوق المصرية الحكومية ، وبمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة ، ومن خلال ممارسة العمل القانونى بالمحاكم المختلطة والقضاء الأهلى ، فالقاضى قاسم أمين - تلميذ محمد عبده الذى اشتهر عند مطلع القرن العشرين بكتابيه عن تحرير المرأة - ضمن فى دفاعه عن الإسلام فى مواجهة منتقديه الإشارة إلى الكلاسيكيات . وقد رفض قاسم أمين القصة القائلة بأن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بحرق مكتبة الإسكندرية [١٠٩] ، تماماً كما فعل الطهطاوى من قبل .

ومثلما فعل الأوربيون منذ عصر النهضة ، لعب الزعماء السياسيون المصريون بفكرة الماضى اليونانى - الرومانى كوسيلة لتأصيل تراثهم وسنداً للشرعية . فنجد صورة فوتوغرافية لمحمد شريف باشا وخلفه تمثال نصفى من العصر الكلاسيكى ، ولعله من ترتيب المصور ذاته ، ولكنه لا يخلو من دلالة (انظر الشكل ٣٢) .

وجرب المحامون الذين تزعموا الحزب الوطنى استخدام الخطاب الكلاسيكى فى مواجهة الغرب ، فقد قام مصطفى كامل - الذى أصدر « اللواء » عام ١٩٠٠ ، وأسس الحزب الوطنى عام ١٩٠٨ - بعقد مقارنة بين الرق فى الإسلام ، والرق عند الرومان . وألف محمد فريد - خليفة مصطفى كامل - كتاباً بالعربية عن « تاريخ الرومانيين » استخدم فيه تاريخ الغرب القديم سلاحاً ضد المحتل البريطانى ، ومن اللافت للنظر أن محمد فريد قام بتغطية تاريخ الجمهورية بالكتاب حتى نهاية الحروب اليونية ، مسقطاً

بذلك عهد الجمهورية المتأخرة وعهد الإمبراطورية (وهى الفترة التى وقعت فيها مصر تحت نير الحكم الرومانى) التى يراها كرومر غنية بالدروس . ودعا محمد فريد قراءه إلى الاقتداء بما تميز به الرومان من «حب الوطن» والاتحاد ضد الغزاة الأجانب (١١٠) .

وفى عرضــه الساخـر لكتاب محمد فريد « تاريخ الرومان » على صفحات جريدة « المقطم » المؤيدة للإنجليز ، ذكر فارس نمر أن الكتاب يوضح السبب الذى جعل رجال الحزب الوطنى يهاجمون فى مصر المسيحين الشوام باعتبارهم « دخلاء » . ترى من هم المعتدون الأجانب المعاصرين الذين يعنيهم محمد فريد ؟ - كتب نمو متسائلاً - هل هم العائلة الخديوية ؟ أم العثمانيون ؟ أم الأمة العربية التى غزت بلاد الأقباط ؟ أم أنه - ببساطة - كل أجنبى اتخذ من مصر موطنًا له ؟ .

وكما ذكرنا من قبل ، شهد عام ١٩٠٢ حدثًا يسجل الاختلاف بين الأوربيين والمصريين من حيث علاقة كل منهم بالتراث اليونانى - الرومانى . فقد افتتح الخديو عباس حلمى الثانى المتحف المصرى بحضور كرومر وماسبيرو . ولم يشغل بال كل من كرومر وماسبيرو تلك الكتابات التى جاءت على واجهة المتحف ، لأنهما لم يشعرا بغربة وهم يشاهدون الكتابة اللاتينية التى درج الغرب على أن يستخدمها فى العمائر ذات الدلالة التاريخية ، وربما استطاع عباس الثانى أن يقرأ اسمه مكتوبًا باللاتينية ، فقد درس بمدرسة تريزيانم بڤينا حيث لم يكن التلاميذ يتعلمون الكتابة والقراءة باللاتينية وحسب ، بل كان عليهم الحديث بها (انظر الشكل ٦) (١١١) . ولكن نفرًا قليلاً من المثقفين المصريين قد عرفوها ، فلم تكن تدرس بأى مدرسة حكومية مصرية .

المؤتمر الدولى للآثار الكلاسيكية فى القاهرة :

وجاء انعقاد « المؤتمر الدولى الثانى للآثار الكلاسيكية » بالقاهرة عام ١٩٠٩ اعترافًا ببروز مصر فى الخطاب الكلاسيكى الغربى . واحتلت مصر مكانًا رمزيًا شرفيًا بين اليونان وروما كبلد قديم ، فقد عقد المؤتمر الأول فى أثينا عام ١٩٠٥ ، ثم عقد المؤتمر الثالث بروما عام ١٩١١ . ولكن أعمال المؤتمر بالقاهرة عكست هامشية المصريين بالنسبة للدراسات القديمة اليونانية - الرومانية عند الغرب .

وعند انعقاد المؤتمر الأول ، قامت « المدارس الأثرية » الألمانية والنمساوية ، والبريطانية ، والفرنسية ، والأمريكية فى أثينا بمعاونة الحكومة اليونانية على استضافة المؤتمر ، وتولى ماسبيرو رئاسة قسم عن آثار ما قبل التاريخ والآثار الشرقية . وكان من علماء المصريات الآخرين بين الحضور پترى ولودڤيج بوركارد . كما حضر المؤتمر كل من پيير چوجيه وألان ويس ، عالما الكلاسيكيات اللذان عملاً طويلاً فى مصر . ومثلت بالمؤتمر مؤسسات علمية من ١٦ دولة أوربية ، والولايات المتحدة ، وتركيا . وكان السفير العثمانى بأثينا وقرينته هما التركيان الوحيدان بين الحضور بينما لم يكن هناك مصريًا واحدًا (١١٢) .

تولى ماسپيرو رئاسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر التى خططت لعقد المؤتمر الثانى بالقاهرة . وكان معه باللجنة پيير لاكاو من مصلحة الآثار المصرية ، ومديرى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة (إميل شاسينا) ، والمعهد الألمانى للآثار الذى أنشئ حديثًا بالقاهرة (بوركارد) ، وكذلك إيڤارستو بريشيا مدير المتحف اليونانى - الرومانى ، وموظف بريطانى . وبذلك كانت اللجنة تتكون من ثلاثة فرنسيين ، وبريطانى ، وألمانى ، وإيطالى . وقدمت بلدية الإسكندرية وجمعية الآثار بالإسكندرية مساعدتهما للجنة . وتضمن جدول المؤتمر ثلاثة أيام لجلسات العمل ألقيت فيها الأوراق البحثية ، وجولة بالإسكندرية ، وستة أيام بالقاهرة ، ثم أربعة أيام فى زيارة للأقصر ، ووعدت الحكومة المصرية بدعم المؤتمر بمبلغ يتراوح بين ألف وألفى جنيه مصرى ، وقدمت شركة كوك باخرة لرحلة الأعضاء بالصعيد وتخفيضات بالفنادق (١١٣) .

وشكل قسم الآثار السابقة على العصر الكلاسيكى نوعًا من الالتفات نحو الآثار الفرعونية ، وجاءت الآثار البيزنطية لتمثل ما بعد العصر الكلاسيكى ، أما الأقسام الأخرى فكانت : الآثار الكلاسيكية ، وعلم البرديات ، والنقوش ، الآثار الدينية ، والنميات (العملة) ، والجغرافيا . وقدمت الأوراق البحثية بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، ولم تكن اليونانية أو العربية من بين لغات المؤتمر .

وقد ترأس عباس حلمى الثانى لجنة التنظيم ، وألقى خطاب الافتتاح بدار الأوبرا الخديوية . وكان من بين أعضاء اللجنة رئيس النظار (الوزراء) بطرس غالى باشا ،

ورئيس النظار الأسبق مصطفى فهمى باشا ، والناظرين سعد زغول وإسماعيل سرى ، وأحمد زكي (سكرتير مجلس النظار) ، ويعقوب أرتين الذى تولى الترحيب بالضيوف بحكم موقعه كنائب لرئيس « المجمع العلمى المصرى » . وكان من بين أعضاء لجنة التنظيم أيضًا المستشارون الإنجليز الأربعة بالوزارات المصرية ، وماكس هرتز ممثلاً للجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربى ، وبرنارد مورتز مدير الكتبخانة الخديوية (١١٤) .

ولم يكن لدى مصر متخصصين من أبنائها فى الكلاسيكيات ، ولم يتقدم بورقة إلى المؤتمر سوى مصرى واحد هو عطية وهبى الذى قدم تفسيراً وطنيًا للفن القبطى ، مؤكداً على عمق جذوره فى الفن الفرعونى وليس البيزنطى (١١٥) ، وكان من بين من سجلوا من حضور المؤتمر البالغ عددهم ٩٠٦ شخصًا ، كان هناك ٢١ مصريًا فقط ، كان من بينهم على بهجت من متحف الفن العربى ، وخمسة من المتخصصين فى المصريات منهم أحمد كمال ومحمد شعبان . وكان الأرمنى البارز بوغوص نوبار (نجل رئيس الوزراء الأسبق) حاضراً ، كما حضر ثلاثة من الأقباط على الأقل هم : عطية وهبى ، وكلوديوس لبيب ، ومرقص حنا المحامى الوطنى الذى أصبح وزيراً فيما بعد . واستضافت الجامعة المصرية الجديدة بعض الجلسات وترأس مديرها الأمير أحمد فؤاد (الملك فيما بعد) حفل الختام (١١٦) . وبعد الحرب العالمية الأولى ، سيعمل فؤاد على تلميع صورته باستضافة العديد من المؤتمرات الدولية فى مصر .

التراث اليونانى – الرومانى عشية الحرب العالمية الأولى :

بعد المؤتمر الدولى الثانى للآثار – الكلاسيكية ، نشر محمود فهمى – خريج المدرسة التوفيقية للمعلمين ، والمدرس بمدرسة القضاء الشرعى – كتابه « تاريخ اليونان » . وسوف يتولى تدريس تاريخ الشرق القديم بالجامعة المصرية من ١٩١٣ حتى وفاته عام ١٩١٦ . وكان الغرض الذى دفع محمود فهمى لتأليف الكتاب هو تعريف القارىء العربى بتاريخ البلاد التى بدأت فيها الحضارة الغربية والأدب الغربى . وقال : إننا أخذنا عنهم الكثير زمن هارون الرشيد والمأمون ، ولكننا لا نعرف إلا القليل

عن تاريخهم . وقد اعتمد فهمى على الكتب المدرسية التى ألفها مدير المدرسة اليونانية بالقاهرة ومدرسى التاريخ بالمدرسة ، وقد بدأ الكتاب بالجغرافيا ، وتحدث عن هوميروس ، ثم تتبع تاريخ اليونان حتى هيرودوت « أبو التاريخ » وسقراط « سيد الفلسفة » ، وختم الكتاب بتقسيم إمبراطورية الإسكندر بين ورثته من قادة جيوشه (١١٧) .

ومن بين المقررات الأخرى بالجامعة المصرية ، قدم طه حسين للطلاب لمحات من تاريخ العالم الكلاسيكى ، وقام پيرس وايت بتدريس مسرحية شكسبير « أنطونيو وكيلوپاترة » فى إطار دراسة الأدب الإنجليزى ، ومن المفترض أن تكون دروس الأدب الفرنسى قد أسهمت أيضًا فى إبراز الأدب الكلاسيكى (١١٨) .

وكان أحمد لطفى السيد – محرر « الجريدة » وعضو مجلس الجامعة عام ١٩١٥ والذى تولى إدارة الجامعة بعد تحولها لجامعة حكومية عام ١٩٢٥ ، كان يرتاد – بدوره – التراث اليونانى ، ففى مقال نشره بالجريدة عام ١٩١٣ ، دعا إلى الاقتداء باليونانيين الذين لم ينسوا هويتهم القومية خلال القرون التى خضعوا فيها للحكم العثمانى ، وقادهم ذلك إلى تحقيق الاستقلال الوطنى . وكانت ملاحظته جديرة بالنظر فى وقت كانت فيه مصر خاضعة اسميًا للسيادة العثمانية . فقد رأى معظم المصريين والعثمانيين فى ثورة اليونان فى العشرينات من القرن التاسع عشر ضربة للدولة العثمانية وللدولة الإسلامية (١١٩) . وفى العشرينات من القرن العشرين ركز أحمد لطفى السيد جهوده على ترجمة أرسطو .

وفى عام ١٩١٢ ، نشر محمد لطفى جمعه ترجمة عربية لكتاب مكياڤللى « الأمير » الذى يتضمن الكثير من الإشارات الكلاسيكية . بعدما أوقف محمد على ترجمته ببضع عقود على أساس أن أهل فلورنسا ليس لديهم ما يمكن أن يتعلمه منهم (١٢٠) .

ومع وجود السكرتير الشرقى لدار المعتمد البريطانى رونالد ستورس فى هذا الموقع عام ١٩١٤ بما عرف عنه من اهتمام بالكلاسيكيات ، أصبح استخدام التراث اليونانى – الرومانى لإضفاء الشرعية على سيطرة الغرب على مصر منذ بونابرت إلى كرومر

فى أيدٍ أمينة . ترى ، من كان يتخيل ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، عندما قامت أوكسفورد وكامبردج بإسقاط اليونانية كمتطلب أساسى للدراسة ، أو يصدق أن اثنين من علماء الكلاسيكيات مثل فورستر وروبرت جريفز يدعوان إلى إرخاء بريطانيا لقبضتها الإمبريالية فيما وراء البحار ؟ ترى من كان يتوقع أن يتجه طه حسين النجم الصاعد فى سماء الأدب العربى ، بعد عودته من باريس عام ١٩١٩ ، إلى إدخال الدراسات اليونانية - اللاتينية القديمة فى التعليم المصرى ، وأن الجامعة المصرية الحكومية عام ١٩٢٥ سوف تفتح قسمًا للدراسات الكلاسيكية ؟ (١٢١) .

الهوامش

(١) J.J. Halls, The Life and Correspondence of Henry Salt, 2 vols., (London 1834) 2 : 196; Francis Steegmuller, Flaubert in Egypt : A Sensibility on Tour (Boston, 1972), 33.

(٢) The Journals of major-General C.G. Gordon, C.B., at Kartoum, ed., Egmond Hake, 2 vols. (London 1885).

(٣) Hugh Lloyd-Jones, Blood for the Ghosts : Classical Influences in the Nineteenth and Twentieth Centuries, (London 1982).

(٤) Turner, Greek Heritge in Victorian Britain (New Haven 1981)' François Hartog, The Mirror of Herodotus : The Writting of History, trans. Janet Lloyd (Berkeley, Calif. 1988).

(٥) Lloyd - Jones, Blood for the Ghosts, 144.

(٦) Turner, Greek Heritage, 5.

(٧) William Makepeace Thakeray, The Paris Sketch Book of Mr. M.A. Titmaray, The Paris Sketch Book and Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo (New York, n.d.) 630, 626; C.M. Bowra, Memoires 1898 - 1939 (London 1966), 331.

(٨) Donald Prezioisi, The Art of Art, History : A Critical Anthology (Oxford, 1998), 21 - 30; L. Marchand, Down from Olympus : Archaeology and Philhellenism in Germany 1750 - 1970 (Princetom. N. J., 1996).

(٩) Fritz Ringer, Fields of Knowledge : French Academic Culture in Comparative Perspective 1890 - 1920 (Cambridge, 1992), 144.

(١٠) ورد الاقتباس في Turner, Greek Heritage, 188.

(١١) Norman Vance, The Victorians and Ancient Rome (Oxford, 1997).

(١٢) Description, vol. 1, Antiquités Planches (Paris 1809), Frontipiece; D'un Orient l'autre, 2 vols. (Paris 1991).

(١٣) مارتن برنال ، أثينا السوداء ، المجلد الأول .

(١٤) الاقتباس ورد في J.C. Herold, Bonaparte in Egypt, 26.

(١٥) Paul Mac Kendrick, The North African Stones Speak, (Chapel Hill, N.C., 1980), 319.

(١٦) Abdallah Laroui, The History of the Maghrib : An Interpretation (Princeton, N.J., 1977); Jean - Claude Vatin., ed., Connaissan ce du Maghreb : Sciences sociales et colonisation (Paris. 1984); David Prochaska, Making Algeria French : Colonialism in Bone 1870 - 1920 (Combridge, 1990).

(١٧) Georg Ebers, Richard Lepsius, A Biography, trans. Z.D. Underhill (New York, 1987) 274 - 75.

(١٨) Rev. A. H. Sayce, The Egypt of the Hebrews and Herodotus (London, 1897), 242.

(١٩) H. V. F. Winstone, Uncovering the Ancient World (New York, 1986), 121.

(٢٠) W.M.F. Petrie, Seventy Years in Archaeology (London, 1931). 6-7.

(٢١) Maspero, "Une Inscription trilinguo de C. Cornelius", in his Causeries d'Égypte, 2nd. ed. (Paris, 1907), 95 - 101.

(٢٢) Dimirti Gutas, Greek Thought, Arabic Culture : The Graeco - Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (London, 1998).

(٢٣) Albert Hourani, Islam in European Thought, (Cambridge, 1991), 174 - 87 .

(٢٤) John Walbridge, "Explaining away the Greek Goods in Islam" unpublished, MESA, Washington, D.C., December 1995.

(٢٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، المجلد الرابع .

(٢٦) Charles Issawi, "Ibn khaldun on Ancient History : A Study in Sources", Priceton Papers in Near Eastern Studies, no. 3 (1994), 127 - 50.

(٢٧) Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du XIX siécle (1798-1882), 2vols. (Cairo, 1982) 2 : 619 - 20.

جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على (القاهرة ١٩٥١) ،١٢٥ .

(٢٨) Elie Kedourie, ed., Nationalism in Asia and Africa (New York, 1970) intro., 39 - 40 .

(٢٩) Ibrahim Abu-Lughod, The Arab Rediscovery of Europe, A Study in Cultural Encounters (Princeton, N. J., 1963) 50 - 51.

(٣٠) Jack Crabbs, The Writting of History in Nineteenth Century Egypt : A Study in Nattional Transformation (Cairo, 1984). 79.

(٣١) رفاعة الطهطاوى ، أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل (الأعمال الكاملة ، تحقيق عمارة ، بيروت ١٩٧٤) ١٥ ، ١٠٥ .

(٣٢) أورده الشيال فى دراسته The Egyptian Historiography

(٣٣) الطهطاوى ، أنوار توفيق الجليل ١٨٥ – ٨٦ و ٢١٥ – ٢٢٣ و ٢٧٤ – ٧٩ .

(٣٤) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٢٧٣ و ٢٤٧ – ٢٧٢ .

(٣٥) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٢٩٠ – ٢٩١ ، ٣٤٣ – ٣٤٥ ، ٤٧٣ – ٤٧٤ .

(٣٦) الطهطاوى ، أنوار توفيق ، ٢٩١ - ٢٩٣ ، ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ٣٣٤ .

(٣٧) أحمد عـزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر (القاهرة ١٩٤٥) ، ٢ : ٤٣١ .

(٣٨) Lois Aroian, The Nationalization of Arabic and Islamic Eduction in Egypt : Dar al "Ulum and al-Azhar, Cairo Papers in Social Science, vol. 6, Monograph 4 (Cairo 1983), 44 - 48, 54.

(٣٩) روضة المدارس ، ٤ ، عدد ١٠ ، ٩ .

(٤٠) Philip Sadgrove, The Egyptian Theatre in the 19th century (1799 - 1882) (Reading, Berkshire 1996) 47-48, 61.

(٤١) See, Crabbs, Writtings, 74-79.

(٤٢) Crabbs, Writtings, 77; Wendell, The Evolution of the Egyptian National Imge, 128-130.

(٤٣) الطهطاوى ، أنوار توفيق الجليل ، ١٩٤ - ١٩٥ .

(٤٤) عن الإسكندرية فى القرن التاسع عشر راجع كتاب :

Michael Reimer, Colonial Bridgehead : Government and Society in Alexandria. Egypt 1907 - 1882 (Boulder, Colo; 1997).

(٤٥) Janet Abu Lughod, 1001 Years of the City Victorious (Princeton, N.J. 1971), 98, 115.

(٤٦) Robert Ilbert, Alexandrie 1830 - 1930 : Histore d'un Communauté citadine, 2 vols. (Cairo, 1996) 1 : 395, 2 : 609 - 15; Alxander Kitroeff, The Greeks in Egypt 1919 - 1937 : Ethnicity and Class (London, 1989) First Chapter.

(٤٧) Gerasimos Augustinos, Consciousness and History : Nationalist Critics of Greek Society 1897 - 1914 (Boulder, Colo. 1997); G. P. Henderson, The Revival of Greek Thought 1620 - 1830 (Albany, N. Y., 1970).

(٤٨) On Cavafy, see John Rodenbeck, "Alexandrian Literature", the American Research Center in Egypt, nos. 156 - 57 (Winter/Spring 1992) 7 - 10.

(٤٩) Athanase G. Politis, L'Hellénisme et l'Égypte moderne, 2 vols, (Paris 1929 - 1930), 2 : 405 - 6.

(٥٠) Who Was Who 3, 457, 18.

(٥١) Ilbert, Alexandrie, 2 : 679.

(٥٢) Politis, L'Hellénisme, 2 : 420 - 24.

(٥٣) J. Dean O'Donnell Jr., Lavigerie in Tunisia : The Interplay of Imperialist and Missionary (Athens, Ga., 1979), 169; Kitroeff, The Greeks, 114.

(٥٤) عن الإيطاليين فى مصر ، انظر Ilbert, Alexandrie, 2 : 616 - 23.

(٥٥) Claudio Sergè, Fourth Shore, The Italian Colonization of Libya. (Chicago, 1974).

(٥٦) Who Was Who 3 : 345.

(٥٧) Ilbert, Alexandrie, 1 : 395.

(٥٨) هذه المعلومات مستقاة من :

Paçcal Crozet, "La Trajectoire d'un scientifique égyptien au XIXe Siécle : Mahmoud al-Falaki (1815 - 1885), in Entre Réforme social et mouvement national, ed. Alain Rousillon (Cairo, 1995), 285 - 310.

(٥٩) Crozet "Trajectoire", 21.

(٦٠) على سبيل المثال :

Christopher Haas, Alexndria in the late Antiquity : Topography and Social Conflict, (Baltimore, 1997), 360.

(٦١) Kenneth Rose, Superior Person : A Portorait of Curzon and his Circle (New York, 1969), 55.

(٦٢) K. Vollers, "Le IXme congrés international des orientalistes tenu à Londres, Bulletin del'intitut égyptien, ser. 3, no. 3 (November 1892) : 200.

(٦٣) Richard Symonds, Oxford and Empire : The Last Lost Cause? (New York, 1986).

(٦٤) Richard Jenkyns, The Victorians and Ancient Greece (Cambridge, Mass., 1980, 331.

(٦٥) J.R. Seeley, The Expansion of England (Chicago, 1971), 187 - 88.

(٦٦) Vance, Victorians, 222.

(٦٧) Thomas R. Metcalf, An Imperial Vision : Indian Architecture and Britains Raj (Berkeley, Calif., 1989), 5, 176 ff.

(٦٨) Raphael Samuel, ed., Patiotism : Making and Ilnmaking of British National Identity, vol. 3 (London 1989), 26 - 49.

(٦٩) H.C.G. Matthew, ed., The Gladstone Diaries, vol. 10 (Janary 1881 - June 1883) Oxford, 1990, lxxii.

(٧٠) The Earl of Cromer, Ancient and Modern Imperialism (NewYork, 1910), 22.

(٧١) A.M. Broadley, Tunis Past and Present : The Last Punic War, 2 vols. (London 1882).

(٧٢) Jenkyns, The Victorians, 333.

(٧٣) Cromer, Modern Egypt, 566, 633 - 34.

(٧٤) J.W. Mc Crindle, Ancient India as Described in Classial Literature (Westminster 1901).

(٧٥) Zetland, Lord Cromer (London, 1932), 287.

(٧٦) J.W. Mackail, Classical Studies (London, 1825), 12.

(٧٧) C.P. Lucas, Greater Rome and Greater Britain (Oxford, 1912).

(٧٨) Cromer, Imperialism, 7 - 8, 10 - 11.

(٧٩) Cromer, Modern Egypt, 586. 112.

(٨٠) Milner, England in Egypt (New York, 1970) reprint of 1920 edition, 2, 4.

(٨١) يقرن شارل عيساوى بين نظرة الفرنسيين لأنفسهم كمتابعة لرسالة الرومان الحضارية « بالسيف والمحراث » ، ونظرة الإنجليز إلى الهند ومصر من حيث عدم إقامة استيطان بريطانى مع فرض « سلام رومانى » جديد.

Charles Issawi, Empire Builders, Culture Makers and Cultural Imprinters", Journal of Interdisciplinary History 20 (1989), 189.

(٨٢) Cromer, Imperialism, 3 - 4.

(٨٣) Ronald Storrs, The Memoires of Sir Ronald Storrs (New York, 1937), 43.

(٨٤) Cromer, Imperialism, 7 - 11.

(٨٥) هذا الاقتباس والذى يليه من: Cromer, Modern Egypt, 654 - 55.

(٨٦) E.M. Forster, Alexandria : A History and a Guide, (New York, 1961).

(٨٧) Alan Rowe, "Le Cinquantenaire de la Société royale d'archéologyie 1893 - 1943" Bulletin de la Société archéologique d'Alexandrie, 36. (1946), 108 - 9.

(٨٨) Rev. A.H. Sayce, Reminiscences (London, 1923), 274 - 75.

(٨٩) G. Botti, Catalouge des monuments exposés au Musée greco - romain d'Alexandrie (Alexandria, 1900) iii - xiii.

(٩٠) Ilbert, Alexandrie, 1 : 278 - 300.

(٩١) Municipalité d'Alexandrie, Catalogue de la Bibliothèque municipale (section européen 1892 - 1926), vol., (Alexandria, 1926) xii - ix.

(٩٢) Bulletin de la Société archéologique d'Alexandrie, 4 (1902), 3, lists of the Founders.

(٩٣) Bulletin de la Socété archólogique d'Alexandrie, 1 (1898), 5.

(٩٤) Botti, Catalogue, viii - xiii.

(٩٥) On Botti, see Who Was Who 3 : 75 - 83; on Breccia, Who Was Who 3 : 63; On Adriani, Who Was Who 3 : 6.

(٩٦) كان من بين المتخصصين فى الكلاسيكيات بمصلحة الآثار إدجار ، وجوستاف ليفيفر ، انظر : Who Was Who وعن جوجيه نفس الموسوعة 3:221 .

(٩٧) T.G.H. James, ed., Excavating in Egypt : The Egypt Exploration Society 1882 - 1982 (London, 1982), 9.

(٩٨) On Grenfell and Hunt see, James, ed., Excavating, 161 - 76.

(٩٩) Bulletin dela Société archólogique, 4 (1902), 3 - 8.

(١٠٠) انظـر قـوائم المـواد الدراسية فى كتاب : أمين سامى ، التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ (القاهرة ١٩١٧) ، وكانت هنـاك مدرسـتان أجنبيتان (عام ١٨٧٥) تدرسان اللاتينية ، وثمان مدارس تدرس اليونانية انظر :

Hey worth - Dunne, Introduction, 423.

(١٠١) Thomas Philipp, Syrians in Egypt 1775 - 1975 (Stuttgart, 1985).

(١٠٢) Sadgrove, Egyptian Theaterë, 130 - 31, 140 - 41.

(١٠٣) التحليل التالى يعتمد على ما كتبه ألبرت حورانى عن موسوعة البستانى وعن سليمان البستانى والإلياذة فى كتابه :

Albert Hourani, Islam in European Thought (Cambridge, 1991) 164 - 73, 174 - 87.

(١٠٤) دائرة المعرف ، مادة « أوروبا » ، ٤ : ١٧٢ - ١٧٣ .

(١٠٥) Thomas Philipp, Gurgi Zaidan : His Life and Thought (Beirut 1979), 237,

(١٠٦) Sadgrove., Egyptian Theatre, 102 - 4.

(١٠٧) على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ مجلد (القاهرة ١٨٨٦ - ١٨٨٩) ٨ : ٢٥ - ٣٧ .

(١٠٨) مبارك ، الخطط ، ٧ : خاصة ٢ - ١٣ .

(١٠٩) Kassem. Amin, Les Égyptiens Résponse à M. le Duc d'Harcort (Cairo, 1894) 69, 60, 240.

(١١٠) عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل (القاهرة ١٩٦٢) ، ٣٦ ؛ محمد فريد (القاهرة ١٩٦٢) ٣٠ - ٣٢ . نشر عرض كتاب محمد فريد « تاريخ الرومانيين » بمجلة المقتطف ٢٧ (أول أغسطس ١٩٠٢) ٨٠٥ - ,٨٠٦

(١١١) رسالة شخصية تلقاها المؤلف من چون رودنبك .

(١١٢) Congrès international d'archéolôgie : Premiere session, Athens 1905, 5, 7, 12, 24, 43, 46 - 49, 238 - 41.

(١١٣) Comotes rendus du Congrès international d'archéologie classique : 2 me session - Le Caire (1909), 7, 53 - 57, 60 - 61, 74 - 77, 93 - 97.

(١١٤) Congrès, 1909, 58 - 60, 156 - 58, 172 .

(١١٥) Congrés, 1909, 262 - 63.

(١١٦) Comgrés, 1909, 9 - 52, 262 - 63, 294.

(١١٧) محمد فهمى ، تاريخ اليونان (القاهرة ١٩١٠) ٣ - ٤ . وأحمد عبد الفتاح بدر ، الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية (القاهرة ١٩٥٠) ١٣١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ .

(١١٨) أرشيف جامعة القاهرة ، محفظة ١٤ ، ملف ١٧٠ ، قسم الأدب ، ٢٥ أكتوبر ١٩١٠ .

(١١٩) Wendell, Evolution, 258 - 59.

(١٢٠) إلياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة ١٩٢٨) ١٦٩٢ . والشيال ، تاريخ الترجمة ٧٩ - ,٨١

(١٢١) طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر (القاهرة ١٩٣٧) .

الفصل الخامس

علم المصريات في عهد ماسبيرو وأحمد كمال

في عام ١٩٢٣ ، اقترح أحمد كمال أن تتاح للمصريين فرصة التدريب على فهم آثار بلادهم والاشتغال بها تمهيداً لتوليهم إدارة شئونها ، ولكن المدير العام لمصلحة الآثار لاحظ أنه - باستثناء أحمد بك - لم يبد إلا القليل من المصريين اهتمامهم بالآثار ، فرد أحمد كمال قائلاً : « نعم يا مسيو لاكاو ، خلال السنوات الخمس والستين التي أدار فيها الفرنسيون المصلحة ، ما هي الفرص التي أتحتموها لنا ؟ ! »

John A. Wilson, Signs and Wonders upon Pharoh

قبل هذه المحادثة باثنين وأربعين عامًا ، أتاح موت ماريت عام ١٨٨١ وتولى ماسپيرو - الأكثر مرونة - إدارة مصلحة الآثار خلفًا له ، أتاح الفرصة لأحمد كمال ليجد لقدمه موضعًا في علم المصريات . هذا التغير في الأجيال كان حاداً على غير العادة على نحو ما نرى في الجدول رقم (٣) .

فقد لاحظ ماسپيرو أنه بعد وفاة ماريت ، أصبح شابا Chabas الآن « آخر الأحياء (من الفرنسيين في حقل المصريات) من أبناء عصرنا البطولي »[1] . ومات شابا خلال عام ، ثم لحق به ليبسيوس في ألمانيا عام ١٨٨٤ ، وبيرش في بريطانيا عام ١٨٨٥ .

وإلى جانب ماسپيرو وأحمد كمال ، ضم الجيل الجديد من المشتغلين بالمصريات فلندرز پترى ، الذي بدأ عمله في منطقة الأهرام بالجيزة عام ١٨٨٠ ، وأدولف إرمان

الذى بدأ الاشتغال بالتدريس فى برلين عام ١٨٨١ ، وإرنست بادج الذى خلف بيرش فى المتحف البريطانى . وفى العام ١٨٨٢ الذى شهد الاحتلال البريطانى وتأسيس « صندوق الكشوف المصرية » ، بلغ ماسپيرو السادسة والثلاثين من عمره ، بينما كان أحمد كمال فى الحادية والثلاثين ، وبترى فى السابعة والعشرين ، وإرمان فى الثامنة والعشرين ، وبادج فى الخامسة والعشرين ، وفى الحقل السياسى كان إيڤلن بيرنج (لورد كرومر فيما بعد) وأحمد عرابى فى الحادية والأربعين ، بينما بلغ الخديو توفيق الثلاثين من عمره .

ومن منظور هذه الدراسة ، كان إرمان خارج المسرح فى برلين ، وكانت غزوات بادج الطائشة فى مصر قصيرة الأمد ، أما بترى فكان يقوم بالتنقيب كل شتاء تقريباً فى مصر لمدة أربعين عاماً ، وأوجد ثورة فى الأسلوب العلمى للتنقيب ، ودرَّب الكثير من العاملين فى حقل المصريات من المصريين ، كما درَّب عمال الآثار ، ولكنه أقل ظهوراً فى المركز من ماسپيرو بالنسبة لهذا الفصل . فقد تولى ماسپيرو منصب المدير العام لمصلحة الآثار لما يقرب من العشرين عاماً ، ومن أحمد كمال الذى ناضل بلا كلل لإرساء دعائم الوجود المصرى فى علم المصريات ، وإقناع أبناء بلاده بأهمية هذا المجال .

وانتهت هذه الحقبة فجأة عام ١٩١٤ ، عندما تقاعد كل من ماسپيرو وأحمد كمال ، وهرع كتشنر إلى بلاده ليدير المجهود الحربى البريطانى . واستبدل الإنجليز بعباس الثانى عمه حسين كامل ، لين العريكة ، وقطعوا الروابط الاسمية التى كانت تربط مصر بالدولة العثمانية ، وأعلنوا الحماية على مصر ، ومات كل من كتشنر وماسپيرو عام ١٩١٦ ، ولحق بهما كرومر عام ١٩١٧ ، وأحمد كمال عام ١٩٢٣ ، بينما عمَّر بترى حتى عام ١٩٤٢ ، ولكنه لم يعد بين طليعة علماء المصريات ، واتجه للتنقيب فى فلسطين .

ماسپيرو والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ومصلحة الآثار حتى ١٨٨٦ :

كان ماسپيرو المتميز النابه فى الثامنة والعشرين عندما وصل إلى مركز الأستاذية فى فقه اللغة المصرية والآثار فى الكوليج دى فرانس . ولد بباريس ، وشق طريقه صعوداً فى سلم التعليم من ليسيه لوى لوجران إلى مدرسة المعلمين العليا ،

ثم السوربون ، فمدرسة الدراسات العليا . وعندما بلغ الثامنة والعشرين ، كان سلفه في إدارة مصلحة الآثار مارييت - الذى تلقى تعليمًا متوسطًا - قد أصبح مساعدًا مؤقتًا في متحف اللوفر ، بينما كان أحمد كمال لازال يبحث عن عمل يتصل بالآثار .

وأهمل مارييت اقتراحًا تقدم به ماسپيرو لإقامة « مدرسة » فرنسية للآثار بالقاهرة ، خشية أن يؤثر تأسيسها على وضعه ومكانته . ولكن عندما كان مارييت على سرير الموت تأثرًا بمرض السكر في أواخر عام ١٨٨٠ ، بعث مسئولو التعليم فى فرنسا الاقتراح من مرقده . وكان ماسپيرو قد أشار إلى المدرسة الفرنسية بأثينا (تأسست ١٨٤٦) ، والمدرسة الفرنسية بروما (تأسست ١٨٧٥) كنموذج يحتذى ، وحذر من أن المنافسين الأجانب يتجاوزون الفرنسيين فى حقل الآثار بالشرق الأوسط . فقد قام بوتًّا فى الأربعينات بإثراء اللوفر بالتماثيل والألواح الأشورية ، ولكن نشاط الفرنسيين توقف فى العراق ، بينما استمر المتحف البريطانى فى إثراء مقتنياته من آثار العراق القديم ، وفى فلسطين يتقدم علماء العبرانية والفينيقية من الإنجليز والألمان ، وفى القاهرة قد تحاول ألمانيا أن تدفع بهنريش بروجش لخلافة مارييت فى إدارة مصلحة الآثار . وبإقامة وريث فرنسى فى الموقع تستطيع مدرسة القاهرة « تأكيد التفوق الفرنسى » (٢) .

الجدول رقم (٢)

الأثاريون فى عهد ماسپيرو وأحمد كمال ١٨٨١ - ١٩١٤

علماء مصريات غربيون	علماء مصريات مصريون	أثاريون أخـرون	علماء آخرون وشخصيات سياسية
هـ . بروجش ١٨٢٧-١٨٩٤		فرانز ١٨٣١-١٩١٥	على مبارك ١٨٢٣-١٨٩٣
إدواردز ١٨٣١-١٨٩٢			نوبار ١٨٢٥-١٨٩٩
إ . بروجش ١٨٤٢-١٩٣٠		بوتّى ؟ - ١٩٠٣	أحمد عرابى ١٨٤١-١٩١١
ناڤيل ١٨٤٤-١٩٢٦			يعقوب أرتين١٨٤٢-١٩١٤
ماسپيرو ١٨٤٦-١٩١٦			محمد عبده ١٨٤٩-١٩٠٥
پترى ١٨٥٣-١٩٤٢	أحمد نجيب ١٨٤٧-١٩١٠		توفيق (الحكم) ١٨٧٩-١٨٩٢
إرمان ١٨٥٤-١٩٣٧	أحمد كمال ١٨٥١-١٩٢٣		كرومر (قنصل) ١٨٨٣-١٩٠٧
شياپاريللى ١٨٥٦-١٩٢٨		هرتز ١٨٦٥-١٩١٩	عباس الثانى(حكم)١٨٩٢-١٩١٤
بادج ١٨٥٧-١٩٣٠			كتشنر (قنصل) ١٩١١-١٩١٤
دى مورجان ١٨٥٧-١٩٢٤		على بهجت ١٨٥٨-١٩٢٤	سعد زغلول ١٨٦٠-١٩٢٧
لوريه ١٨٥٩-١٩٤٦		برشم ١٨٦٣-١٩٢١	
بوركارد ١٨٦٣-١٩٣٨		سميكة ١٨٦٤-١٩٤٤	
دارسى ١٨٦٤-١٩٣٨			
برستد ١٨٦٥-١٩٣٥			
ريسنر ١٨٦٧-١٩٤٢			
لاكاو ١٨٧٣ - ١٩٦٣			
كارتر ١٨٧٤-١٩٣٩		بريشيا ١٨٧٦-١٩٤٤	
چانكر ١٨٧٧-١٩٦٢			

وفى ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٠ ، أصدر رئيس الوزراء الفرنسى چول فيرى قراراً بإنشاء « بعثة دائمة باسم المدرسة الفرنسية بالقاهرة » . وبعد ذلك التاريخ بعقد من الزمان ، أثيرت مطالب أخرى لإقامة « المدرسة الإنجيلية والآثارية الفرنسية بالقدس »، وفى عام ١٨٩٨ أصبحت المدرسة الفرنسية بالقاهرة ، والتى كانت تعرف أيضاً بالبعثة الأثارية ، « المعهد الفرنسى للاثار الشرقية بالقاهرة » ، وبدأ المعهد حفائره الأولى فى نفس السنة .

ووصل ماسپيرو إلى القاهرة ليصبح أول مدير « للمدرسة الفرنسية » ، وذلك قبل وفاة ماربيت ببضعة أسابيع ، وجاء بصحبته طالبان من طلاب المصريات ، ومعمارى يستمد إلهامه من الفن العربى ، ومستعرب . وعندما خلف ماسپيرو ماربيت مديراً عامًا لمصلحة الآثار المصرية ، تولى أحد الطالبين (أوروبان بوريان) إدارة المدرسة ، وفيما بين ١٨٨١ - ١٩٣٦ قدم المعهد الفرنسى للآثار الشرقية لمصلحة الآثار المصرية من تولوا إدارتها فيما عدا واحداً فقط هو دى مورجان [٣] . ولعبت مطبعة المعهد التى أنشئت عام ١٨٩٨ دوراً مهمًا فى إبراز الصورة العلمية للمعهد ، وبحلول عام ١٩١٠ ، كان مديرو وباحثو المعهد قد وصلوا إلى عشرين من المتخصصين فى المصريات ، وثمانية من المستعربين ، وستة من المتخصصين فى الهللينيات أو البيزنطيات ، وچيولوچى واحد ، وستة من الفنانين المعاونين [٤] .

وخلال مدة السنوات الخمس الأولى من إدارته لمصلحة الآثار ، أعاد ماسپيرو تنظيم المصلحة بالكامل ، واستمر فى أعمال فتح أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بالجيزة وسقارة ، وقام بنشر متون الأهرام ، كما تابع العمل فى تنظيف المعابد المصرية بالصعيد .

ونص قانون الآثار - الصادر فى عام ١٨٨٣ - على أن جميع الآثار والمتاحف ملكية عامة للدولة ، وألحق مصلحة الآثار بوزارة الأشغال العمومية . وعلى نقيض ذلك نص قانون الآثار الصادر فى إستانبول المستقلة عام ١٨٨٤ على تبعية مصلحة الآثار ومتاحفها لوزارة المعارف [٥] ، واعتبر الآثار جزءاً من الإرث الوطنى . وظلت مصلحة الآثار المصرية تابعة لوزارة الأشغال العمومية حتى حصلت مصر على الاستقلال

المنقوص ، مما سمح بانتقال تبعية مصلحة الآثار لوزارة المعارف عام ١٩٢٩ ، وبقيت كذلك حتى انتقلت تبعيتها إلى وزارة الثقافة والإرشاد والقومى عام ١٩٥٨ (٦) .

عودة علماء المصريات البريطانيين - پترى وصندوق الكشوف المصرية :

اتخـذت القـوات البريطانيـة من ثكنـات قصر النيل - جنوبى متحف بولاق - عام ١٨٨٢ ، مقراً لقيادتها . وكما فعلت قوات بونابرت قبلهم ، قام الإنجليز بتسجيل استحواذهم الرمزى على آثار مصر (انظر الشكل ٣٣) . وكان على ماسپيرو أن يحشـد كل مهاراتـه الدبلوماسية للحفـاظ على « الآثـار محمية فرنسية » (٧) . وغازل البريطانيين بوضع نهاية لاحتكار ماريبت للتنقيب ، وشجع « صندوق الكشوف المصرية » ، وپترى وآخرون على القيام بالتنقيب ، ورتب لهم الاحتفاظ بنصيب سخى مما يعثرون عليه من آثار ، ولم يكن البريطانيون قد عملوا فى حقل المصريات منذ أيام ويلكنسون ، وريتشارد ڤايس ، وچون بارنج فى الثلاثينات ، فيما عدا حالات استثنائية محـدودة مثل حفائر ألكسنـدر رينـد فى طيبـة ، وبيازى سميث واينمان ديكسون فى الجيـزة ، وقـام على الجابـرى بتقديم نوع من الرابطة الشخصية مع البريطانيين على مدى نصف قرن ، وكان قد بدأ عمله فى الحفائر كصبى يحمل السلة مع ڤايس ، ثم أصبح مساعداً لسميث وديكسون ، ووصفـه پترى بأنه « رفيقى الممتاز فى كل أعمالى » (٨) .

وازدهرت أعمال كل من پترى وماسپيرو تحت الاحتلال البريطانى ، كل بطريقته الخاصة الفريدة ، وقد اشتركا فى قضاء مواسم الشتاء الطويلة فى مصر ، وإجازات الصيف الطويلة فى بلديهما ، وفيما عدا الدراسة ، كان الرجلان على طرفى نقيض . كان پترى يعيش حياة خشنة فى الخيام بين المقابر ، ويأكل الطعام المعلب ، وكان ماسپيرو يعمل من مكتبه بالمتحف أو على ظهر باخرة المصلحة ، وتلقى تعليماً راقياً رفيعاً فى أفضل مدارس فرنسا ، بينما فشل پترى فى دراسة اللاتينية واليونانية ، واضطر أن يعلم نفسـه من خلال جمع العمـلات ، ودراسة الآثار ، ومسح المواقع البريطانية القديمة .

وعلى السواحل الشمالية للبحر المتوسط ، أصبحت الحفائر أكثر علمية فى السنوات الأخيرة من عمر مارييت ، فقد حدثت ثورة فنية فى هذا المجال لم يستطع اللحاق بها . ففى الستينات ، قام فيوريللى فى بومبى ، وروسا فى روما بوضع الحفائر على أسس علمية . وقام النمساويون (كونتزى) فى ساموثراس - فى بحر إيجه فى السبعينات - والألمانى (كورتيوس) فى أوليمبيا ، بتسجيل دقيق للطبقات الأرضية أثناء الحفر . ووافق كورتيوس على أن يترك كل ما عثر عليه فى اليونان مستعيضاً عن الحصول على القطع الأثرية باستعادة ما يتعلق بها من معلومات . وحتى شليمان الذى أزاح الأثرية فى طروادة وميسيناى برعونة تماثل رعونة مارييت ، حسَّن من مستواه فى الثمانينات ، بمساعدة ڤيلهلم دورفيلد المعمارى الأولمبى السابق (٩) .

واتسم پترى بالنزعة العلمية ، فلم يستعر مباشرة مثل تلك النماذج ، ولكنه اعتمد فى الحفر على أساس علمى على جهده الخاص . فكان يرسم خرائط الموقع ، ويسجل مواضع الأغراض التى يتم العثور عليها ، مبرزاً أهمية الأدوات الصغيرة التى تستخدم فى الحياة اليومية ، وطور طريقة تحديد عمر الفخار ، وأسرع بنشر تقرير عن كل موسم من مواسم الحفائر . ووضع الأسرتان الأولى والثانية ، كما وضع عصر ما قبل التاريخ فى مصر ، على الخريطة الأثرية (بالإضافة إلى جهد چاك دى مورجان فى هذا المجال) . ولعل ثراء الآثار التاريخية المصرية يفسر تأخر وصول التقدم الانقلابى فى آثار عصر ما قبل التاريخ فى أوروبا ، إلى مصر . وقام پترى بتدريب عمال من قرية قفط ، الذين قاموا بعد ذلك فى العمل معه ومع غيره فى جميع أنحاء مصر ، وكان يفضل العمل مباشرة مع رجاله بدلاً من الاعتماد على « ريس » عمال ، وبذلك قلل من تسرب القطع الأثرية إلى التجار بمكافأة من يعثر على القطع بجهده الخاص . وعلى كلٍّ ، فهو لم يهتم بتسجيل الطبقات الأرضية إلا قليلاً ، فيما عدا حفائر تل الحصى بفلسطين عام ١٨٩٠ (١٠) .

ولم يكن پترى متخصصاً فى الدراسات الإنسانية ، مدرباً على الكلاسيكيات ، بل كان فنياً أثرياً ، ومسَّاحاً ، فقد أولى الأغراض المنقولة مثل شقافات الآنية ، أهمية خاصة . على حين كان « الأرستقراطى ناڤيل يميل إلى قضاء الوقت فى طرح أسئلة تاريخية بنسخ وتفسير النقوش ، وبالنسبة له كان يفضل عدم الحديث كثيراً عن قاعدة

العمل فى الحفائر ، وعن جمع المعلومات عن الفخاريات وماشابهها ، فقد يلائم ذلك متخصص فى العلوم ، ولكنه ليس عمل الرجل المتخصص فى الإنسانيات» [١١].

وانتقد پترى الطريقة التى عمل بها مارييت ، ولجوئه إلى استخدام الديناميت ، واعتبرها عملاً وحشيًا ، كما انتقد عمل معاصره إميل أميلينو التى شوه مقابر الأسرات الملكية المبكرة فى أبيدوس . وكانت سعادته محدودة بالأعمال الميدانية التى يقوم بها ماسپيرو ، وإدوارد ناڤيل وأميل بروجش . ورغم ذلك ، ظل ماسپيرو ودودًا معه ، يحذره من أن يجلب القطع الثمينة التى يعثر عليها إلى المتحف حتى لا يستولى عليها إميل بروجش ، واقترح عليه أن يحتفظ بها فى جيوبه حتى يستطيع تهريبها من الجمارك [١٢] .

وقد رفض پترى الافتراضات المتفائلة المبكرة القائلة بوجود خط واحد للتطور الثقافى ، مثله فى ذلك مثل الكثير من معاصريه . وربط بين التطور الثقافى والتغير البيولوچى ، معزيًا التقدم إلى هجرة مبدعى الثقافة . واتفقت مثل هذه المعتقدات مع النزعة العسكرية المتشائمة والعنصرية عند كثير من القوميين الأوربيين فى زمانه ، وزادتها اشتعالا [١٣] .

وفضل پترى أن يعمل مستقلاً من خلال مؤسساته الخاصة - حساب البحوث المصرى ، « والمدرسة البريطانية للآثار بمصر » التى كانت موجودة عندئذ - ولكنه قام بحفائر لحساب « صندوق الكشوف المصرية » من حين لآخر خلال اثنى عشر عامًا ، وكان وراء تأسيس الصندوق عام ١٨٨٢ رجل البر الطبيب الجراح السير إراسمس ويلسون ، وريجنالد ستيوارت پول - قريب إدوارد لين ، وخبير النقود (العملات) بالمتحف البريطانى - والأديبة إميليا إدواردز .

ورغم انبهار إميليا إدواردز منذ طفولتها بألف ليلة وليلة ، وكتاب ويلكنسون « قدماء المصريين » ، إلا أنها كونت لها اسمًا في عالم الصحافة وفن الرواية . وفى الثانية والأربعين من عمرها قامت برحلة إلى مصر - وصفتها فى كتابها « ألف ميل صعودًا فى النيل (١٨٧٧) » - ودفعتها الرحلة إلى دراسة الهيروغليفية ، وتوجيه نشاطها كله إلى حقل المصريات ، وكان - حتى ذلك الحين - وقفًا على الرجال ، وبرعت

إميليا فى الدعاية للمصريات وجذب الاهتمام إليها ، ولولا إدارتها الحكيمة لما استطاع « صندوق الكشوف المصرية » الاستمرار (١٤) .

وكان إفلاس مصر عام ١٨٧٩ قد أدى إلى انقطاع كل المخصصات المالية التى كان ماربيت يعتمد عليها فى حفائره ، وأشار ناڤيل إلى أن الألمان ينقبون عن الآثار فى أوليمپيا وماكّان باليونان دون أن يعدهم أحد بأخذ قطع أثرية لمتاحفهم . وأنه ربما كان من الممكن أن يحث المتبرعين البريطانيين على دعم الحفائر بغرض الحصول على المعلومات وليس القطع الأثرية ، وخاصة إذا كانت تلك الحفائر تلقى الضوء على ما جاء بالكتاب المقدس ، وأن الأطراف الشرقية للدلتا التى يذكرها الكتاب المقدس باسم « أرض جوشن » تمثل أفضل التطلعات لمثل هذه الحفائر (١٥) . وسرعان ما غيرت « جمعية النهوض بالحفائر الأثرية بدلتا النيل » اسمها ليصبح « صندوق الكشوف المصرية » فى أبريل ١٨٨٢ ، وأعلنت أن هدفها توثيق حقبة القرون الأربعة التى عاشها العبرانيون بمصر والتى أدت إلى الخروج . وفى عام ١٩١٩ تغير اسم الصندوق ليصبح « جمعية الكشوف المصرية » .

وانتقد صامويل بيرش ، الأخصائى بالمتحف البريطانى ، صندوق الكشوف المصرية لأنه يمثل « دعائم الآثار العاطفى » ، ولم يكن مرد ذلك إلى معارضته للأهداف المرتبطة بالكتاب المقدس ، فقد كان بيرش نفسه الرئيس المؤسس « لجمعية علم آثار الكتاب المقدس » عام ١٨٧٠ . وكان وجه الاعتراض – عنده – أن صندوق الكشوف المصرية سوف يُثرى متحف بولاق الذى يديره الفرنسيون ، ولن ينال المتحف البريطانى شيئًا مما يتم العثور عليه (١٦) . فقد كان بيرش يأخذ على ماسپيرو وبُخله فى السماح بالحصول على الآثار المصرية ، وقد طلب ماسپيرو من « صندوق الكشوف المصرية» أن يشير فى طلبه للترخيص بالتنقيب أن ذلك يتم « لأغراض علمية محضة » ، دون الإشارة إلى الرغبة فى الحصول على ما يتم الكشف عنه من آثار . ولكنه عاد إلى « حث » الحكومة المصرية – التى كانت قد أصبحت فى قبضة الاحتلال البريطانى – على أن تعطى للمكتشفين نصيبًا سخيًا مما يعثرون عليه من الآثار على سبيل الهدية .

وفى عام ١٨٨٣ ، قام نافيل بالتنقيب فى تل المسخوطة لحساب صندوق الكشوف المصرية ، وذكر فى تقريره أن « الوفاق الودى مع ماسپيرو لا غبار عليه ، ولا يمكن أن تكون الأمور أفضل من ذلك ، والحق أنه مسموح لى بالحفر فى أى مكان أريد من الدلتا » [١٧] . وعند نهاية الموسم حاول الخديو ومجلس النظار إعاقة طريق « الهدية » المقترحة لصندوق الكشوف المصرية ، ولكن مناورات ماسپيرو نجحت فى تمريرها . وعند نهاية الموسم سارع نافيل إلى نشر تقريره بعنوان « مدينة پيتوم المخزنية وطريق الخروج (١٨٨٥) » ، وقد بعث التقرير السرور فى نفوس من يرون أن تل المسخوطة هى مدينة پيتوم التى ورد ذكرها بالكتاب المقدس (وهو استنتاج لم يعد يحظى بالقبول) ، وأن جانبًا من وادى الطميلات هو أرض جوشن . وأصبحت بعثات « صندوق الكشوف المصرية » معلمًا دوريًا من معالم المواسم الشتوية للحفائر فى مصر بفضل جهود نافيل ، وپترى ، وغيرهما .

واستمرت صداقة پترى لإميليا إدواردز بعد إنفصاله عن أعمال الصندوق وقيامه بالتنقيب مستقلاً ، وعند وفاتها عام ١٨٩٢ ، أوقفت ما يقوم بتمويل كرسى الآثار بالكلية الجامعية بلندن من أجله ، ليصبح بذلك أول كرسى أستاذية للمصريات فى بريطانيا . وبذلك كانت الحفائر البريطانية فى مصر ، وأول كرسى للمصريات فى بريطانيا مبادرات شخصية ، على نقيض ما حدث فى بلاد القارة الأوربية .

الأهرام والتقدم ، مصر القديمة عند على مبارك :

وفى العام ١٨٨٦ – ١٨٨٧ ، بينما كان ماسپيرو بباريس بعد انتهاء سنوات عمله الخمس الأولى ، وكان پترى وصندوق الكشوف المصرية يدعمان وجودهما فى مصر ، قام على مبارك بنشر « الخطط التوفيقية الجديدة » ، وهى موسوعة طبوغرافية تقع فى عشرين مجلدًا ، تربو صفحاتها المكتظة على الألفى صفحة . وغالبًا ما يتخذ المؤرخون من الخطط التوفيقية مرجعًا للعصر الإسلامى أو للقرن التاسع عشر ، ولكنها – أيضًا – تناولت مصر القديمة [١٨] .

واتخذ على مبارك من أعمـال المقريـزى والسـيوطى نموذجًا ، كما أن عنـوان « الخطط » يعكس صدى خطط المقريزى ، ويأتى عمل مبارك – أيضًا – بمثابة استجابة للعمل الفرنسى « وصف مصر » (ويسميها الخطط الفرنسية) ، وهو محاولة لتصوير ماضى مصر وحاضرها وتقديمها لأبناء بلاده [١٩] . فذهب إلى أن القاهرة لم تعد كما كانت من قبل بسبب تغير العهود وتقلبات الأزمان ، فلا يوجد بين أبناء مصر من يستطيع تفسير تلك التغيرات أو يقف على أسبابها ، أو يوجه الناس لفهم الآثار العظيمة للبلاد ، التى ننظر إليها ولا نعرف الظروف التى دعت إلى إيجادها ، ونتجول بينها ونحن نجهل من صنعها ، فكم من المساجد نسبت إلى غير من تولى بنائها ، وكم من المعابد نسبت إلى من لم تقع عيونه عليها . ولكن من واجبنا معرفة ذلك ، لأننا لا يجب أن نظل نجهل بلادنا ونهمل اثار أجدادنا ، فهى درس لمن يتعظ ، وتذكار لروح فعالة ؛ لأن ما تركه أجدادنا من آثار ينظر إلينا ويدعونا أن نقتفى أثرهم ، وننتج لزماننا مثل ما أنتجوه لزمانهم ، وأن نكافح من أجل أن نكون نافعين ، تمامًا كما كافحوا هم [٢٠] .

ونشر مبارك عمله الأدبى « علم الدين » عام ١٨٨٢ ، الذى يقول فيه البطل – الذى جعل منه ابنًا لشيخ أزهرى – إنه يشعر بالحرج فى أوروبا عندما يعجز عن الإجابة على سؤال عن مصر القديمة [٢١] . وقد بدأت « الخطط » معالجة هذه المشكلة استنادًا إلى مصادر إسلامية وأوربية ، فخصص مواقع طويلة من الكتاب لطيبة ومنف ، وتناول الكثير من المواقع القديمة الأخرى بقدر أكبر من الاختصار ، مثلما فعل مع عين شمس (هليوبولس) تحت مادة « المطرية » [٢٢] .

وتعبر مادة « منف » ، التى تحدث فيها عن الأهرام ، عن هوية مبارك كعالم مسلم ، فهو يورد مقتطفات طويلة من المقريزى والسيوطى عن الأهرام فى كتابات العصور الوسطى . وكان للأوربيين – أيضًا – تخميناتهم عن الأهرام التى ظنوا أنها ربما كانت صوامع للغلال ، أو مخابىء للكنوز ، أو ملاجىء للحفاظ على المعرفة من خطر الفيضان . وذكر مبارك أن چومار وماربيت وغيرهما من العلماء الأوربيين رأوا أن الأهرام مقابر ملكية . ويميل مبارك قليلاً نحو هذه النظرية ، ولكنه لا يتخلى تمامًا عن الأفكار التى رددها المقريزى والسيوطى .

وباعتباره مهندسًا ، أبدى مبارك إعجابه الشديد بنظام المقاييس الذى اتبعه بناة الأهرام ، واعتقد أنه كان أساسًا لكل مستويات القياس القديمة ، وذكر الحسابات التى قام بها چون تيلور وبيازى سميث عن الهرم . ولكنه لم يحذ حذوهم - كما فعل حكيان - بالقول بأنهم ألهموا الحكمة التى جعلتهم يحددون نسب الآثار القديمة . ولم يترك مبارك مجالاً للشك فى أن مصر القديمة كانت مصدر الحضارة الإنسانية فى يوم من الأيام ، تمامًا كما فعل الطهطاوى من قبل ، وأن مصر كانت مصدر إشعاع للعالم فى العصر البطلمى ، ثم عادت لتلعب نفس الدور فى العصر الإسلامى ، وقد شارك الطهطاوى نظرته إلى العصر العثمانى كعصر تدهور واضمحلال ، ولكنه امتدح محمد على وخلفائه لإعادتهم مصر إلى طريق التقدم . واعتقد الرجلان أن التفاخر بمصر القديمة يشكل مكونًا أساسًا للهوية الوطنية الحديثة . وعلى كلٍّ ، كان على الجيل التالى لمبارك والطهطاوى أن يواجه بشكل مباشر المعوقات التى وضعتها الإمبريالية البريطانية والفرنسية فى طريق محاولة المصريين اكتشاف واسترجاع تاريخهم القديم .

المناوشات فى حقل المصريات فى الطريق إلى فاشودة ١٨٨٦ - ١٨٩٩ :

استقال ماسپيرو من مصلحة الآثار عام ١٨٨٦ ، وعاد إلى باريس بسبب الحالة الصحية لزوجته ، وخلفه فى منصبه ثلاثة من الفرنسيين لمدة ١٣ عامًا قبل أن يعود إلى منصبه القديم مرة ثانية . وخلفاؤه هم : أوچين جريبو (١٨٨٦ - ١٨٩٢) ، وچاك دى مورجان (١٨٩٢ - ١٨٩٧) ، وڤيكتور لوريه (١٨٩٧ - ١٨٩٩) (انظر الجدول ١٢ بالملاحق) . وخلال تلك السنوات التى غاب فيها ماسپيرو تصاعد التنافس الإمبريالى الأنجلو - فرنسى حتى بلغ ذروته فى أزمة فاشودة بالسودان عام ١٨٩٨ .

كان جريبو (١٨٤٦ - ١٩١٥) يتولى إدارة البعثة الأثرية الفرنسية بالقاهرة عام ١٨٨٦ ، عندما استقال ماسپيرو - أستاذه السابق - وعاد إلى باريس . فصمم جريبو أن يدافع عن الهيمنة الفرنسية فى قطاع الآثار بالقاهرة مهما كان الثمن . واصطدم بإرنست بادچ - صنيعة صامويل بيرش - الذى جاء من المتحف البريطانى عام ١٨٨٦ ليشترى الآثار ، وليقوم بالتنقيب فى المقابر الصخرية بأسوان لحساب الكولونيل سير

فرانسيس جرينفل ، سردار الجيش المصرى ، الذى كان من هواة الآثار - مثل خليفته كتشنر [٢٣] .

وكان السير إيفلن بيرنج - الذى أصبح لورد كرومر عام ١٨٩٢ - يفضل التنازل لفرنسا فى مسألة الآثار مقابل الحصول منها على تنازلات فى أمور أخرى . فاعترض بحزم على نوايا بادج وأساليبه . واحتد بيرنج ذات مرة قائلاً : « أتمنى ألا تكون هناك آثار فى هذا البلد ، فهى تثير المتاعب فيها أكثر مما يحدث فى غيرها » [٢٤] . وقام باستدعاء بادج على الفور ، وحذره من القيام « بأى مشروع للتنقيب بواسطة أى ممثل لأمناء المتحف البريطانى . . . لأن الحفائر التى يقوم بها أى موظف بريطانى فى مصر تؤدى إلى تعقيد العلاقات السياسية ، وأن الاحتلال البريطانى لمصر لا يجب أن يتخذ مبرراً لتسريب الآثار من البلاد سواء كان ذلك إلى بريطانيا أو إلى غيرها » [٢٥] .

وقام البعض بتأييد بيرنج ، ولكن بادج « بيَّن له أن كل دولة كبرى (والكثير من الدول الصغرى) فى أوروبا لها ممثل فى مصر يشترى الآثار لحساب متاحف بلاده ، وأن لبريطانيا الحق أن يكون لها - على الأقل - ممثل يجمع الآثار لحسابها . . . واضطررت أن أذكره أننى لست واحداً من موظفيه ، وأننى أنوى الاستمرار فى تنفيذ تعليمات أمناء المتحف البريطانى ، وهنا انتهت المقابلة فوراً » [٢٦] .

ولكن بادج لجأ إلى الالتفاف حول قرارات جريبو وبيرنج . فقد تحفظ رجال مصلحة الآثار على مخزن بالأقصر - بأمر من جريبو - كان بادج قد كدس فيه مجموعة من الآثار التى جمعها . ولكن بادج ورجاله قاموا بنقب حائط المخزن من جهة مبنى تابع لفندق الأقصر المجاور له ، وقاموا بتفريغ المخزن - الذى شددت الحراسة عليه من الخارج . وقام البريطانيون المتحمسون فى الجيش والبوليس وشركة النقل بمساعدة بادج على تهريب المجموعة خارج مصر [٢٧] . وكان لدى بادج مبرراً جاهزاً : « فهذه الآثار كانت ستهرب من مصر بنفس الطريقة ، ولكن الفرق الوحيد هو اتجاهها إلى أحد المتاحف الأخرى بدلاً من المتحف البريطانى ، أو إلى بعض أصحاب المجموعات الخاصة بأوروبا وأمريكا » [٢٨] .

لقد كان « صندوق الكشوف المصرية » وپترى موضع ترحيب ماسپيرو ، ولكن جريبو أعلن رفضه « ترك الآثار المصرية للجمعيات البريطانية ، وأن يصبح مجرد خادم مطيع للسياح الإنجليز » (٢٩) . واعترض على اقتراح بيرنج السماح للبعثات الخاصة ببيع جانب من الآثار التى يقومون باكتشافها لتمويل أعمالهم فى التنقيب . ورفض اقتراحًا بتعيين مفتش آثار إنجليزى بالصعيد وآخر فرنسى بالدلتا ؛ واعتبره حيلة إنجليزية للسيطرة على المواقع الأثرية الغنية (٣٠) . ورد على اقتراح تعيين مدير مساعد لمصلحة الآثار ، تتحمل راتبه الجالية البريطانية ، ما دام معظم السياح من الإنجليز ، رد بأن زوار المتحف المصرى من المصريين يفوقون الزوار الغربيين عدداً ، كما أن السياح الأمريكان قد تزيد أعدادهم على أعداد السياح الإنجليز ، وأنه فى حالة تعيين مدير مساعد إنجليزى ، فهل يطالب الأمريكان بتعيين آخر بدورهم ؟ (٣١) .

وفى العام ١٨٨٨ ، أسست بلندن « جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة » لتمارس الضغوط على بيرنج والفرنسيين (٣٢) . وكان بيرنج قد نجح فى فرض « اللجنة الاستشارية للآثار » (أو « لجنة المصريات ») على جريبو فرضًا . وفى عام ١٨٨٩ ، ضمت اللجنة الكولونيل فرانسيس جرينفل ، وثلاثة آخرين من البريطانيين ، وجريبو ، وفرنسى آخر ، ومثل مصر الأرمينيان يعقوب أرتين وتيجران ، إضافة إلى مصطفى فهمى رئيس مجلس النظار ، وأبدى پترى استياءه لأن الأرمينيين سينضمان إلى جريبو فى تذليل العقبات التى تعترضه . ولم يكن ذلك هو كل ما حدث بالفعل ، ففى ١٨٩٠ و أكّد تيجران شفهيًا لباريس أن مصر لن تعين مديراً بريطانيًا للآثار المصرية فى مقابل موافقة فرنسا على قرض كانت مصر بحاجة إليه (٣٣) .

وقامت « جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة » بحشد الجهود – فى لندن – للمطالبة بتوفير الحماية للمواقع الأثرية بصورة أفضل ، وإقامة مبنى جديد يضم آثار متحف بولاق . ولا شك أن السياح كانوا يقومون بأعمال تخريبية . ففى ١٨٩٠ نشرت مجلة «جرافيك» صورة سائحات يحفرن على أعمدة المعبد بأزميل (انظر الشكل ٣٤)، وأنحت المجلة – المعروفة باتجاهها الشوفينى – باللائمة على أولئك الذين يشوهون الآثار « من ذلك النوع من النساء الذين هم عامة أمريكيات » (٣٤) .

كان الفيضـان قد أغرق متحف بولاق عام ١٨٧٨ ، وحتى فى الظـروف العادية « كان المبنى يغطيه الضباب الأبيض فى الصباح الباكر فى فصل الشتاء » . ولم يكن من النادر أن ترى قطرات الماء تجرى إلى أسفل على زجاج ڤاترينات العرض (من الداخل) التى تضـم مومياوات ملوك مصر » [٣٥] . وكان الحريق يثير القلق كالفيضان ، فمع ضيق المكان كانت المومياوات القابلة للاشتعال مكدسة فى توابيت فوق بعضها البعض من الأرض إلى السقف .

وعارضت « جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة » قرار الحكومة المصرية الصادر عام ١٨٨٧ لنقل المتحف بصفة مؤقتة إلى قصر بالجيزة . ولكن بيرنج أعلن صراحة أنه ليست هناك أموال لبناء متحف جديد ، فانتقل المتحف إلى الجيزة . ولم يتورع دليل كوك السياحى عن ذكر بناء إسماعيل لقصـر الجيـزة بتكلفـة باهظـة « لسكنى حريمه » [٣٦] . وكان القصر – على الأقل – بمنجاة من الفيضان ، وأقل تعرضًا للحريق ، وبه ساحات للعرض أوسع كثيرًا من مبنى بولاق [٣٧] . وفى ١٢ يناير ١٨٩٠ ، افتتح الخديوى توفيق متحف الجيزة (انظر الخريطة ٢) [٣٨] .

وأخيرًا وافق القنصل العام الفرنسى – سرًا – على ضرورة ترك جريبو – غير الدبلوماسى – لمنصبه ، ولكنه عندما اقترح ناڤيل اسم دانينوس ، المساعد السابق لماربيت ، خلفًا لجريبـو ، رد القنصـل الفرنسـى بأن دانينوس كان جزائريًا وأصبح « شرقيًا كما أنه لا يحمل اسمًا فرنسيًا ، ولم أتيقن بعد من ولائه لفرنسا » [٣٩] . ولما كانت البعثة الأثرية الفرنسية تخلو من بديل ملائم لجريبو ، قدم الفرنسيون چاك دى مورجان ، صنيعة إجزافييه شارم أحد كبار موظفى وزارة التعليم بفرنسا ، ولكن جريبو العنيد رفض الاستقالة من منصبه ، مما تطلب من شارم ودى مورجان والقنصل الفرنسى تنسيق جهودهم للقيام بمناورة انتهت بإبعاد جريبو من منصبه ، وعن مصر . وكان دى مورجان من خريجى مدرسة التعدين الفرنسية École des mines ، وارتحل كثيرًا ، وقام بالتنقيب فى الهند ، والملايو ، والقوقاز ، وفارس ، ورغم عدم تخصصه فى المصريات ، سرعان ما « أثبت قدرته على حماية مصالح المتحف المصرى بالقاهرة ومصلحة الآثار عامة ، دون أن يسرق أهل البلاد أو يضطهدهم ، أو أن يجعل اسمه ملعونًا فى كل مكان من الإسكندرية إلى وادى حلفا » . وتغاضى دى مورجان عن

القيام بحملات مداهمة ليلية لتجار الآثار ، كما كان يفعل جريبو » واعتمد على خبرته السابقة فى التعامل مع الشرقيين التى اكتسبها فى فارس وغيرها من بلاد الشرق ، فوصل إلى ترتيبات قائمة على الأخذ والعطاء مع الأهالى الذين ينقبون عن الآثار ، ومع التجار ، فكان يجزل العطاء للأهالى الذين يزودونه بالمعلومات التى تقوده إلى موقع يحقق نتائج جيدة » (٤٠) .

وسارع دى مورجان بفتح قاعات عديدة فى متحف الجيزة الجديد أمام الزوار ، ولكنه كان أميل إلى الحفائر من العمل بالمتحف ، بحكم كونه أصلاً مهندس مناجم ، فبنى لنفسه بيتًا فى دهشور ، وكشف مصطبة مروروكا فى سقارة ، واكتشف مجوهرات ملكية من عصور الدولة الوسطى فى دهشور ، ونقب فى معبد كوم أمبو ، وكلف چورچ ليجران بالتنقيب فى معبد الكرنك ، ويعزى إليه وإلى پترى فضل فتح صفحة عصر ما قبل التاريخ فى مصر بالحفائر التى أجراها فى عدة مواقع بالصعيد . وعلى أية حال ، جلب دى مورجان على نفسه عداء البعض ، فانتقد ماسپيرو طرقه العلمية فى الحفائر ، واتهمه بتدمير ستين مكعبًا صخريًا بكوم أمبو (كانت خالية من النقوش) لإقامة جسر يقى المعبد فيضان النيل ، كما اصطدم دى مورجان بچورچ فوكار – المفتش بمصلحة الآثار – متهمًا إياه بالتجسس لحساب الإنجليز ، وإقامة علاقات غير سوية مع النساء المسلمات ، ووصلت أصداء هذا الصدام إلى أثينا وباريس . فقد كان پول فوكار – والد چورچ – مديرًا المدرسة الآثار الفرنسية بأثينا ، وعضوًا بالمجمع العلمى الفرنسى ، وله اتصالات واسعة . فأوحى البعض إلى ناظر الأشغال العمومية بأن حفائر ما قبل التاريخ التى يقوم بها دى مورجان بحوث چيولوچية لا صلة لها بالآثار ، فأمره بالتوقف عن إنفاق أموال الوزارة على تلك الأعمال (٤١) .

كان كرومر ، و« صندوق الدين العام » ، قد نجحا فى كسب المعركة ضد الإفلاس ، وبدأ التخطيط لإقامة متحف جديد . ولكن بعض الفرنسيين اتهموا دى مورجان بالمبالغة فى صداقة الإنجليز (٤٢) ، ففاض به الكيل ، وترك منصبه عام ١٨٩٧ ، ليرأس بعثة آثار فى فارس ، حيث قضى خمسة عشر عامًا فى العمل هناك .

وخشى الفرنسيون أن يسعى الألمان لترقية إميل بروجش مساعد أمين المتحف المصرى ليحل محل دى مورجان ، ولكن مخاوفهم لم يكن لها ما يبررها (٤٣) ، وتم تعيين ڤيكتور لوريه مديراً عاماً لمصلحة الآثار ، وكان تلميذاً سابقاً لماسپيرو وعضواً سابقاً بالبعثة الفرنسية للآثار . ويذكر پترى أن لوريه « كان واقعاً تماماً تحت تأثير عارف أفندى الموظف الشاب الذى كان يرتدى معطفاً أنيقاً يزيحه للخلف ليكشف عن بطانته القرمزية البديعة بصورة تترك أثراً واضحاً على من حوله » (٤٤) . كما كتب پترى أن « لوريه عديم الذوق ، مكروه من الجميع : موظفى المتحف ، والمصلحة ، والأهالى . . . فهو رجل محدود الرؤية ، فعندما أبلغته أن موقعاً قد نهب ، رد قائلاً : مستحيل ، إن هناك قانوناً يمنع ذلك » (٤٥) . وقد انضم الفرنسيون إلى الأمريكان والبريطانيين وحتى الروس فى الضغط من أجل التخلص منه (٤٦) .

وأكد القنصل الفرنسى العام كوجوردو الحاجة الملحة « لاستعادة حقل المصريات هنا ، الذى يعد حقاً طبيعياً لنا بحكم كونه علماً فرنسى الأصل ، وما حقق مارييت من إنجازات ، فقد صنعت تضحيات فرنسا المعرفة بمصر القديمة ، من حملة الجنرال بونابرت حتى إقامة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة » (٤٧) .

وطلب كرومر من سايس أن يفاتح ماسپيرو (٤٨) ، الذى كانت عودته إلى منصبه السابق مديراً عاماً لمصلحة الآثار عام ١٨٩٩ ، مبعث ارتياح عام للجميع .

البحث عن موضع قدم فى « المصريات » ، أحمد كمال وجيله :

أدت الصراعات بين القوى الأوربية وبعضها البعض فى ذروة عصر الهيمنة الغربية ، إلى إتاحة الفرصة - أحياناً - للمصريين . فالوجود الألمانى بالقاهرة ممثلاً فى هنريش بروجش ، مكَّن أحمد كمال وعدد قليل من المصريين من دراسة المصريات رغم اعتراض مارييت . وفى التسعينات نهج جريبو نهجاً آخر ، فقام بترقية أحمد كمال من وظيفة سكرتير بالمتحف ليصبح أميناً مساعداً ، وذلك حتى لا يفسح الطريق لتعيين بريطانى فى هذه الوظيفة . فقد زعم جريبو أن عدد المصريين الذين يزورون المتحف

يعادل عشرة أضعاف زواره من الأجانب ، ونوّه بعلم أحمد كمال ، ومقدرته على مصاحبة زوار المتحف من المصريين والأوربيين على السواء [٤٩] .

ولد أحمد كمال بالقاهرة عام ١٨٥١ [٥٠] . جاء والده من أصول كريتية ربما للعمل فى خدمة محمد على . وتعلم بمدرسة المبتديان ثم المدرسة التجهيزية ، وأتاح له تفوقه فى اللغة الفرنسية فرصة الالتحاق بمدرسة اللسان المصرى القديم . وأقبل أحمد كمال على دراسة المصريات بشغف كبير . ولكن رفض ماربيت تعيين خريجى المدرسة بمصلحة الآثار دفع أحمد كمال للعمل مدرسًا للغة الألمانية بالمدارس ، والعمل مترجمًا لنظارة المعارف ، ثم بمصلحة البريد ، ومصلحة الجمارك .

وكان قد بلغ الثلاثين من عمره عندما استطاع الالتحاق بمصلحة الآثار بتزكية من رياض باشا رئيس النظار [٥١] ، فشغل وظيفة سكرتير مترجم بمتحف بولاق . وبعد ذلك بشهور قليلة ، عندما كان ماسبيرو يقضى إجازة الصيف فى باريس ، قام أحمد كمال بمساعدة إميل بروجش فى تنظيف التوابيت الضخمة للمومياوات الملكية التى عثرت عليها عائلة عبد الرسول قبل ذلك بسنوات فى تبة فوق الدير البحرى ، وقد قام بروجش – فيما بعد – بالتقاط صورة لأحمد كمال بجوار تابوت الملكة نفرتارى (انظر الشكل ٣٥) .

وخصص ماسبيرو خمسمائة جنيه مصرى لأحمد كمال ليتولى تجهيز مدرسة صغيرة – تُلحق بالمتحف – لتدريس المصريات ، وقد تم افتتاحها فى فبراير ١٨٨٢ كمدرسة داخلية بها خمسة تلاميذ . وتولى كمال إدارة المدرسة ، وتدريس المصرية القديمة ، والفرنسية ، والتاريخ ، براتب شهرى قدره ثمانية جنيهات . وقام معلمون مصريون بتدريس اللغة العربية ، والحساب ، والجغرافيا [٥٢] . وفى أبريل ١٨٨٢ ، اقترح ناظر الأشغال العمومية إضافة عشرة تلاميذ آخرين من بينهم أربعة تلاميذ أقباط « من أبناء أعيان الطائفة القبطية الذين يهتمون بالهيروغليفية لكونها لغة أجدادهم ، ولا زالوا يحتفظون ببعض تعبيراتها ، مما يسهل لهم دراستها » [٥٣] ، وسوف يعالج الفصل السابع من هذا الكتاب مسألة الميل القبطى تجاه « المصريات » .

وقد استمرت مدرسة الآثار قائمة بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى ، وتم تخريج الفصل اليتيم عام ١٨٨٥ . وكان السبيل الوحيد ، أمام ماسپيرو لتشغيل الخـريجيين هو إغلاق المدرسة ، وتخصيص ميزانيتها لتغطية مرتبات المفتشين الجدد . وقبل عودته إلى باريس عام ١٨٨٦ دبَّر ماسپيرو لأحمد كمال ٣٨ جنيهًا مصريًا ليشترى بها كتبًا لاستخدامه الشخصى (٥٤) .

ويتضح من حجم الرواتب عند نهاية ١٨٨٥ محدودية حجم مصلحة الآثار ، فقد كان المرتب السنوى للمدير العام ماسپيرو ألف جنيه مصرى ، بينما كان مرتب مساعدى أمين المتحف : إميل بروجش ٤٢٠ جنيهًا سنويًا ، وأوروبان بوريان ٣٠٠ جنيهًا سنويًا ، وحصل خمسة من المفتشين المصريين بالدرجة الثانية عل ٩٠ جنيهًا سنويا لكل منهم ، وخمسة مفتشين درجة ثالثة (هم خريجو مدرسة المتحف) حصل كل منهم على ٦٠ جنيهًا سنويًا . وكان راتب الناظر محمد خورشيد ٢٤٠ جنيهًا ، والسكرتير أحمد كمال ٢٤٠ جنيها ، وأمينا المخزن (مخزنجية) حصل أولهما على ٧٢ جنيهًا ، والآخـر ٤٥ جنيهًا سنويًا (٥٥) .

وعندما استقال بوريان عام ١٨٨٥ ليتولى إدارة البعثة الفرنسية للآثار ، طلب جريبو أن تتوفر فيمن يخلفه مؤهلات أخرجت المصريين من المنافسة هى : معرفة الهيروغليفية ، والهيراطيقية ، والديموقراطية ، والقبطية ، واليونانيـة ، واللاتينيـة (وهى مؤهلات لا تتوفر حتى لپترى) ولا تتوفر فى خريجى مدرسة بروجش ، ومدرسة أحمد كمال الذين تعلموا كل هذه اللغات ما عدا اليونانية واللاتينية ، وليس من الغريب أن يحصل على الوظيفة چورج دارسى ، تلميذ جريبو (٥٦) .

وعلى كل ، غير جريبو رأيه ، وقام بترقية أحمد كمال – عام ١٨٩١ – إلى وظيفة مساعد أمين ليسد الطريق على الإنجليز (٥٧) . وبعد ذلك بوقت قصير ، عندما كان أحمد كمال فى الأربعين من عمره ، سمع أن إميل بروجش سيستقيل من وظيفته التى تعد أرقى من الوظيفة التى حصل عليها أحمد كمال ، وأن الأجانب تتجه أنظارهم إلى الحصول على هذه الوظيفة ، فقدم أحمد كمال التماسًا إلى مصطفى فهمى – رئيس مجلس النظار – مطالبًا بالحصول على الوظيفة لأنه « المصرى الوحيد المتخصص فى

المصريات ، وتلميذ بروجش باشا . لقد انتظرت طوال ٢٢ عاماً فى خدمة الحكومة حتى أصبح أميناً مساعداً . بالنظر إلى خدمتى ، واستحقاقى ، والقانون المصرى ، أتشرف بالتقدم إليكم بصفة شخصية طالبًا مساعدتى فى الحصول على الوظيفة رغم كل المطالب الأجنبية » (٥٨) .

قدم أحمد كمال هذا الالتماس بالفرنسية ، وأضاف إليه مذكرة قصيرة بالعربية ذكر فيها أن دارسى الأمين المساعد الفرنسى له نفس المؤهلات العلمية ، ولكنه لا يعرف العربيـــة ، ومدة خدمته لا تتجــاوز ست سنوات بينما تبلغ سنوات خدمة كمال ٢٢ عاماً . وختم المذكرة بمناشدة وطنية رئيس النظار مساندة المصرى بدلاً من الفرنسى أو الإنجليزى . ولم يترتب على ذلك الالتماس شيئاً ، لأن بروجش ظل فى وظيفته حتى عام ١٩١٤ . وفى ظل إدارة دى ورجان خليفة جريبو ، كان أحمد كمال محظوظاً لاحتفاظه بوظيفته ، فقد قيل أن جريبو كان يسعى للتخلص منه ، ولم يتحدث إليه مدة عام كامل (٥٩) . وبعد عودة ماسبيرو وضع ثقته فى أحمد كمال ، وأسند إليه أعمال التنقيب والنشر ، ولكنه لم يقم بترقيته ، وتخطاه دارسى فى الترقية إلى منصب سكرتير عام المصلحة عام ١٩١٣ . كان أحمد كمال يكبر دارسى وجيمس كيبل الذى أصبح أميناً عام ١٩١٤ ، باثنى عشر عاماً (٦٠) .

وهناك خريج آخر من مدرسة بروجش ، لمع اسمه ، هو أحمد نجيب (١٨٤٧ - ١٩١٠) . وكانت ترجمته لكتاب بروجش فى نحو اللغة الهيروغليفية ، أول كتاب دراسى فى هذا المجال باللغة العربية . وأمام موقف ماريت من خريجى المدرسة ، اضطر أن يعمل مدرساً للتاريخ بالمدارس الحكومية ، وكان لا يزال بتلك الوظيفة عام ١٨٨٢ عندما كتب مقدمة لكتاب أحمد كمال « تاريخ مصر القديمة » . وفى عام ١٨٩٢ فتح التنافس الأنجلو - فرنسى الطريق أمامه ليشغل إحدى وظيفتى المفتش العــام للآثــار (وشغل الوظيفة الثانية فوكار) ، وحصل نجيب على البكوية وتقاعد عام ١٩٠٥ بسبب حالته الصحية ، وأصدر لفترة قصيرة مجلة « المنظوم » (٦١) .

وتتضمن قائمة بأسماء مفتشى الآثار عام ١٨٩٩ اثنين من خريجى مدرسة الآثار ١٨٨١ - ١٨٨٥ (تلاميذ أحمد كمال) هما : محمد شعبان ، الذى خلف أحمد كمال

فى وظيفـة الأمين المساعـد ، بعـد تقـاعـده والآخـر حسن حسنى . وكان على حبيب – مفتش آثار الدلتا – أقدم وأفضل المفتشين القدامى الذين عملوا مع مارييت وكان معظمهم من العسكريين السابقين ، وقد تقاعد على حبيب عام ١٩٠٧ . أما بقية المفتشين فكانوا من صف الضباط بالجيش الذى تكون بعد ١٨٨٢ ، أو صغار الموظفين ، بل إن أحدهم كان خادمًا (٦٢) .

علم المصريات والوجود المصرى فى « المجمع العلمى المصرى » :

أخذ ماسپيرو وخلفاؤه الثلاثة بالتقليد الذى وضعه مارييت باستخدام « المجمع العلمى المصرى » ومجلته منبراً للمصريات . وفيما بين ١٨٨٥ – ١٨٩٩ ، خصصت مجلة المجمع جانبًا كبيرًا من صفحاتها لتقديم كشاف عن مجموعات المتحف المصرى ، واشتملت سلسلة المذكرات المنفصلة التى أصدرها المجمع على موضوعات فرعونية . واختار المجمع ماسپيرو رئيسًا فخريًا له عند عودته إلى القاهرة عام ١٨٩٩ ، ولكن إصدار «حوليات مصلحة الآثار» قلل من اعتماد المصريات على مجلة المجمع (٦٣) .

وفى العام ١٨٩٠م ، تضاعفت نسبة المصريين من أعضاء المجمع لتصبح ٣١٪ ، بعد أن كانت ١٤٪ عند تأسيسه (٦٤) . وكان المصريون أكثر بروزًا فى قيادة المجمع ، وخاصة إذا اعتبرنا يعقوب أرتين (١٨٤٢ – ١٩١٤م) مصريًا ، فقد كان يلعب دور الوساطة بين المصريين والأوربيين ، تمامًا كما فعل خاله يوسف حككيان من قبل . وكان أرتين كاثوليكيًا فرنسى الثقافة ، يتمتع بالحماية الفرنسية فى مصر ، وكان ولده – أرتين سكياس – ضمن البعثة التعليمية فى باريس التى كان الطهطاوى عضواً بها ، وخدم محمد على فى « ديوان التجارة والأمور الإفرنجية » . وقضى يعقوب أرتين حياته كلها موظفًا بالحكومة المصرية ، وتولى رئاسة المجمع لعشرين عامًا فى الفترة الواقعة بين (١٨٨٩ – ١٩١٤م) ، وألقى تسعة أوراق بحثية أمام المجمع ، وأتاح للمستشرقين الزائرين فرصة استخدام مكتبته الخاصة الضخمة (٦٥) .

وكان يعقوب أرتين ، وحسين فخرى رفيقين متميزين ، فقد عمل حسين فخرى إلى جانب يعقوب أرتين نائبًا لرئيس المجمع لمدة اثنى عشر عامًا ، وفى (١٩٠٥ - ١٩٠٦ ، و ١٩٠٩م) ترك أرتين الرئاسة لفخرى . وفى مجال العمل ، خدم حسين فخرى طويلاً فى عهد كرومر ، ناظرًا للأشغال العمومية والمعارف ، وبذلك كان رئيسًا لوكيل نظارة المعارف يعقوب أرتين الذى كان يده اليمنى فيها . وكان حسين فخرى ، ورئيس مجلس النظار نوبار باشا، وناظرالخارجية تيجران يتخذون من عضوية المجمع العلمى المصرى نوعًا من الاستحقاق الأرستقراطى والوجاهة الاجتماعية ، ولا يجدون أنفسهم بحاجة إلى إبراز قدراتهم العلمية بتقديم أوراق بحثية ، كما كان يفعل أرتين ، الذى اختلف عنهم تمامًا . وكان تيجران يهوى جمع الآثار ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الأعيان [٦٦] .

وجاء اختيار على بهجت عضوًا بالمجمع عام ١٩٠٠م ، وأحمد كمال عام ١٩٠٤م اعترافًا ببروز سمعتهما العلمية . وفى عام ١٩٠٢م ، اختار المجمع كيرلس مكاريوس ليصبح أول عضو قبطى بالمجمع ، وقد قدم دراسات فى التقويم القبطى [٦٧] ، وبالإضافة إلى عضوية المجمع ، انضم أحمد كمال إلى عضوية « الجمعية الجغرافية الخديوية » . ونشر بحوثًا بمجلتها .

وكان الأوربيون لا زالوا يوجهون دفة المجمع ، فطوال الفترة (١٨٨٣ - ١٩١٤م) ، كان الأمين العام ، ومساعد الأمين العام ، وأمين الصندوق ، وأمين المكتبة منهم . وكان متوسط ما يقدمه المصريون من أوراق بحثية ، ورقة واحدة فقط فى العام . وهبطت نسبة المصريين فى عضوية المجمع عام ١٩٠٩م هبوطًا طفيفًا لتصل إلى ٢٧٪ بعد أن كانت ٣١٪ عام ١٨٩١م .

تمثيل مصر القديمة فى المعارض الدولية ومؤتمر المستشرقين الدولى :

لعب كل من ماربيت ، وديليسبس ، وبروجش الدور الأكبر فى تشكيل صورة مصر فى المعارض الدولية فى الستينات والسبعينات ، وإن كانت مقاليد الأمور بيد الخديو إسماعيل . ولكن تحت الاحتلال البريطانى ، لم تعد مصر تملك تحديد ملامح

صورتها فى المعارض الدولية حتى بشكل غير مباشر . ولما كانت الحكومة المصرية الخاضعة للاحتلال لا ترغب فى توفير النفقات اللازمة للاشتراك فى المعارض الدولية ، لم يستطع توفيق وماسبيرو وخلفائهما منافسة الخديو إسماعيل وماربيت فى قدراتهما . ففى معرض باريس الدولى عام ١٨٨٩م وقع تمثيل مصر خطأ على عاتق منظم فرنسى ، عكس « شارع القاهرة » الذى عرض النظرة الغربية تجاه الشرق ، التى سنناقشها فى الفصل السادس من هذا الكتاب . وعرض توماس كوك نموذجًا دقيقًا لمعبد إدفو(٦٨) . وقد تسبب هذا المعرض الذى أقيم احتفالاً بمئوية الثورة الفرنسية فى إثارة قلق الأنظمة الملكية ؛ ولذلك لم تشترك فيه ألمانيا ، والدولة العثمانية ، واكتفت بريطانيا ، وإمبراطورية النمسا ، والمجر ، وروسيا ، وإيطاليا ، والصين بتمثيل غير رسمى ، وترك المعرض لباريس « برج إيفل » .

وفى معرض كولومبيا بشيكاغو - الذى أقيم عام ١٨٩٣م متأخراً عن موعده بعام - أقيمت بوابة معبد فرعونى ومسلة أمام « شارع القاهرة » ذى الطراز العربى الإسلامى ، وتولى تنظيم الجناح المصرى منظمان أحدهما بلچيكى والآخر يونانى (٦٩) . وفى عام ١٩٠٠م ، اعتذرت الحكومة المصرية - مرة أخرى - عن عدم المشاركة فى معرض باريس الدولى ، وتولى هذه المهمة لبنانى متمصر هو فليب بولاد ، استخدم معمارى المتحف المصرى الذى كان يشيد بالقاهرة - مارسيل دورنو - الذى قام بتصميم جناح مصرى، مزج فيه بين ثلاثة أقسام فى بناء واحد : قسم على الطراز الفرعونى (يجمع بين طيبة ومنف) ، وقسمان على الطراز العربى الإسلامى (٧٠) . وقد تجاوب المصريون الذين زاروا المعارض الدولية التى أقيمت فى أواخر القرن مع تمثيل مصر الحديثة ، وليس القديمة ، كما سنرى فى الفصل السادس .

وفى معرض لويزنا للمشتريات الذى أقيم بسانت لويس عام ١٩٠٤م ، قامت مصر وتركيا ، وفارس ، ومراكش باختيار مفوض عام (أجنبى) ومندوب (مصرى) . وهيمنت الأنثروبولوچيا على ذلك المعرض الذى ضم نماذج حية من أهل الفليبين التى استحوذت عليها الولايات المتحدة حديثًا ، وعينة « عجيبة من اليابانيين قصار القامة البدائيين من الأينو » الذين وصفوا « بالأدب الجم والنظافة » ، وكان عنوان مصر البريدى بالمعرض « طرف قسم الأنثروبولوچيا » . واشتملت المعروضات فى قسم

« مصر وإنسان ما قبل التاريخ » على أدوات من العصر الحجرى جلبت من مصر ، كما كان هناك قسم « أرض اللوتس » التى وضعت فيها الحضارة بذرتها الأولى ، عرضت مقبرة كاملة ، ومومياوات وتوابيت لشخصيات ملكية ، وقط محن ، إضافة إلى الجعارين وغيرها من الرموز المقدسة لحضارة غابرة » (٧١) .

وعلى الصعيد العلمى ، استمر « مؤتمر المستشرقين الدولى » يطوف عواصم الدول الأوربية الكبرى ، فعقدت اجتماعاته فى : ڤيينا ، لندن ، باريس ، روما ، مع اجتماعات فى مراكز أوربية أقل شأنًا هى : ليبزج ، چنوا ، هامبورج ، كوبنهاجن ، أثينا . وعقد المؤتمر السادس اجتماعه فى المدينة الهولندية ليدن بعد وقوع الاحتلال البريطانى لمصر بعام واحد . وقام المؤتمر ذات مرة بالتوجه إلى موضوع دراسته ، فعقد اجتماعًا فى الجزائر (٧٢) .

واستمرت «المصريات» غالبة على أقسام الدراسات الأفريقية بالمؤتمر . وقد أورد چاك دى مورجان ذكر أحمد كمال بصورة إيجابية فى تقريره للمؤتمر العاشر الذى عقد بچنيف عام ١٨٩٤م ، ولكن لم يقم أى مصرى بإلقاء بحث أمام المؤتمر قبل سامى جبره الذى شارك فى المؤتمر الثامن عشر المنعقد فى ليدن عام ١٩٣١م . أما فى مجال الدراسات العربية الإسلامية ، فقد أسهم المصريون ببحوثهم منذ الثمانينات كما سنرى فى الفصل السادس .

مارسيل دورنو وتصميم المتحف المصرى بالقاهرة :

استقر رأى اللجنة التى اختارت - عام ١٨٩٥م - تصميم المتحف المصرى الجديد بالقاهرة على « الفنون الجميلة » الكلاسيكية الجديدة . وكان إسناد مهمة التصميم إلى معمارى مصرى أو التفكير فى طراز مصرى محلى ، أمرًا مستبعدًا . كان كرومر فى ذروة سلطته ، والمتاحف مؤسسات مستوردة ، والمعماريون يسيطرون على ميدان التشييد والزخرفة . والعمارة الإسلامية التقليدية تراجعت ، والطراز الإسلامى الحديث كان لا يزال فى بداياته . وجاءت لجنة التحكيم من الفرنسيين

والبريطانيين والإيطاليين . وجاءت غالبية المشاركين من هذه البلاد الثلاثة : ٢٦ متسابقًا إيطاليًا ، و ١٦ فرنسيًا ، و ١٦ بريطانيًا ، و ١٥ من جنسيات أخرى ممن تقدموا لمسابقة تصميم المتحف ، ولكن المشروعات الخمسة فى التصفية النهائية كانت جميعها فرنسية [٧٣] .

وكان باستطاعة لجنة التحكيم النظر إلى حصاد قرن من الطرز المتنافسة فى الغرب ؛ بما فيها الكلاسيكية ، والقوطية ، وبصيص من الفرعونية والإسلامية [٧٤] . واستمد مصممو المتاحف التى أقيمت فى أوروبا ، إلهامهم من روما واليونان . وارتبطت المتاحف بالكلاسيكية الجديدة فى أذهان أهل الغرب بتأثير المتاحف الأوربية التى أنشئت على هذا الطراز : متحف الفن القديم الذى صممه كارل فردريش شنكل ، ومتحف الفن الحديث الذى صممه فردريش ستولر ، فى برلين ، ومتحف الفنون الزخرفية الذى صممه ليوفون كلنتز ، فى ميونخ ، والمتحف البريطانى الذى صممه السير روبرت سميرك ، بلندن . ترى ، كيف يستطيع المرء أن يشاهد رخام إيلجن فى مكان أفضل من واجهة المتحف البريطانى ذات الطراز الأيوبى التى تردد منحوتاتها المثلثة أصداء « تقدم الحضارة » [٧٥] .

على كل ، فقد واجهت سيادة الكلاسيكية الجديدة تحديًا من جانب النزعة الرومانية ، بما فى ذلك تناسخ « الفنون الجميلة » بالطراز القوطى الڤيكتورى « الوطنى » ، والعودة المثالية للطراز القوطى على يد أوچين إيمانويل ڤيوليه لودوك ، وازدهرت صحوة الطراز القوطى فى بناء الكنائس ، والكليات فى الولايات المتحدة بصفة خاصة ، وأعلنت عن نفسها فى متحف العلم الجديد بأكسفورد (١٨٥٥ - ١٨٥٩م) ، وفى متحف الفنون الجميلة ببوسطن (١٨٧٦م) .

وكان باستطاعة من يشتغلون بالطراز الرومانى الذين وجدوا فى الطراز القوطى طرازًا طبعًا ، أن يحاولوا إحياء الطرازين الفرعونى والإسلامى ، ومن سخرية القدر أن الطرازين الأخيرين جاءا إلى مصر كواردات أوربية ، ولم ينبتا من التربة المحلية . ويبدو أن « القاعة المصرية » التى أقامها وليم بالوك على الطراز الفرعونى الجديد ببيكا ديللى ، قد تم تصميمها خصيصًا لأول عرض للآثار المصرية بلندن ، على يد بلزونى عام

١٨٢١م [٧٦] . واحتج شامپليون على خطة زخرفة غرف القسم المصرى باللوفر بزخارف يونانية رومانية بدلاً من الفرعونية [٧٧] ، ولكن قبضة الكلاسيكية كانت قوية (شأنها شأن الاستشراق) حتى أن أحد السقوف تمت زخرفتها بعمل فرانسوا إدوارد بيكو « آلهة الحكمة يكشفون مصر القديمة لأثينا » [٧٨] .

وتخفى الزخارف الخارجية لمتحف برلين الجديد (١٨٥٠م) غزلاً فرعونيًا مذهلاً [٧٩] ، كما أن الزخارف الفرعونية والإسلامية اختلطت دون تمييز فى أجنحة المعرض الدولية ، فأشرف مارييت على إقامة نماذج للمعابد المصرية فى معارض باريس الدولية فى ١٨٦٧ و ١٨٧٨م . وأدخل الطراز الفرعونى الجديد على زخرفة واجهة متحف بولاق . ورغم أن المتحف المصرى الذى صممه دورنو على الطراز الكلاسيكى الجديد ، كان يشيَّد بالقاهرة ، فقد أظهر المعمارى دورنو - نفسه - مهارته فى الجناح الفرعونى - الإسلامى الذى أقيم عام ١٩٠٠م بمعرض باريس الدولى .

كان المتحف المصرى فى مقره المؤقت بقصر إسماعيل بالجيزة فى التسعينات ، يحمل زخارف « نصف فرنسية ، نصف شرقية » الطراز (انظر الشكل ٣٦) . ويذكر بادج أنه « ليس من الممكن أن تحصل (الآثار المصرية) على مكان منقطع الصلة بها مثل هذا المكان ، فكانت المومياوات الضخمة لرمسيس الثانى وغيره من الملوك العظام ، تعرض فى وسط يدعو للأسى ، حيث طليت حوائط الغرف باللون الأزرق ، ذات كرانيش وردية اللون مذهبة ، وزينت السقوف بأطر تحمل رسومًا لكيوپيد وڤينوس ... إلخ » [٨٠] .

وقد دعمت النزعة الكلاسيكية الجديدة فى « الفنون الجميلة » ، وجودها فى الغرب ومستعمراته عند نهاية القرن . وصاحب ذلك الصعود الإمبريالى الذى ارتبط بكيرزون وملز ، وفردريك لوجارد ، ورودس ، وكرومر ، وكتشنر . فقد أقيم النصب التذكارى المتباهى بالقوة « ڤيكتوريا ميموريال » بمدينة كلكتا كأول نصب كلاسيكى فى الهند على مدى نصف قرن من الزمان ، إحياءً لذكرى أبطال بريطانيا فى الهند فى زى كلاسيكى [٨١] . وأقيمت واجهة كلاسيكية (عام ١٩٠٢م) لمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك ، وفى العام (١٩٠٧ - ١٩٠٩م) ، استبدل متحف بوسطن للفنون بواجهته

القوطية القديمة ، أخرى على الطراز الكلاسيكى الجديد . وفى إستانبول ، وقف متحف الآثار الذى صممه أنطوان ڤالورى على الطراز الكلاسيكى الجديد (١٨٩١ - ١٩٠٧م) ، غريبًا إلى جانب كشك شنلى المزين بالزخارف ، فى حرم قصر طوب قابى [٨٢] .

وحال وضع مصر الخاص فى ظل « الحماية المقنّعة » ، دون إقامة نصب إمبرالية مثل تلك التى أقيمت بكلكتا أو بنيودلهى . لقد احتلت دار المعتمد البريطانى موقعًا بارزًا على ضفة النيل ، ولكن بناءها كان متواضعًا نسبيًا . وجاء المتحف المصرى (الذى يطل الآن على ميدان التحرير) وثيق الصلة بالمبانى العامة ذات الهيئة الإمبريالية ، ولكن تلك الهيئة لم تكن بريطانية خالصة .

ولد مارسيل لازار دورنو (١٨٥٨ - ١٩١١م) فى نفس العام الذى أسس فيه سعيد وماريت « مصلحة الأنتيكات (الآثار) » ، تخرج فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس ، وقضى ١٢ عامًا فى شيلى يعمل معماريًا فى خدمة الحكومة هناك . وفى المرحلة المصرية من حياته قام بتصميم مبنى المتحف المصرى ، ومبنى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، والمستشفى الفرنسى ، كما صمم جناح مصر فى معرض باريس الدولى عام ١٩٠٠م [٨٣] .

وفى مطلع القرن العشرين ، كانت ثكنات قصر النيل - التى يحتلها الإنجليز - تنافس المتحف المصرى فى اجتذاب الأنظار ، ورغم أنها بنيت فى عهد سعيد ، فقد كانت ترمز إلى العصر الاستعمارى . وجاء المتحف ليضفى على الحى سمة أثرية : هناك شارع ماريت باشا الذى يمر بجوار المتحف حتى ميدان ماريت باشا ، وشارع الأنتكخانة المصرية يتجه شرقًا خلف مبنى المتحف . وفيما وراء المتحف عبر شارع الأنتكاخة ، كان المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - الذى صمم دورنو مبناه - يقدم خدماته للمشتغلين بالآثار (انظر الخريطة ٢) .

وجاء القوس المركزى للمتحف ، والقبة ، والأعمدة الأيونية ، والأعمدة البارزة من الحوائط ، والأجنحة المتوازنة ، والكرانيش ، والقاعات التى تلتف حول فناء تضيئه السماء ، جاء ذلك كله ليتفق تمامًا مع تقاليد مدرسة « الفنون الجميلة » (انظر

الأشكال ٢ و ٥ و ٦) . وقدمت التصميمات التى اتخذت شكل الجرة مع تواريخ الإنشاء لمسة من طراز الباروك فوق المدخل . وأنقذت الزخرفة الداخلية ذات الطابع الفرعونى محتويات المتحف من معاناة الغربة . وجاء القوس الرومانى والأعمدة الأيونية للمدخل على شكل بوابة ، بينما تقف حاتور أو إيزيس حامية حجر العقد ، وتقف الآلهة التى ترمز للصعيد فى جانب ، وتلك التى ترمز للدلتا فى الجانب الآخر من المدخل .

وقد قام الخديو عباس الثانى بوضع حجر الأساس للمتحف فى أول إبريل ١٨٩٧م [٨٤] ، ولكن حالت بعض الصعوبات دون افتتاح المتحف ، حتى تم ذلك فى ١٩٠٢م . وبلغت تكاليف إنشائه ٢٥١ ألف جنيه مصرى ، وعزى القنصل الفرنسى العام دورنو التأخير فى الافتتاح إلى سلوك الإنجليز . زعم دى مورجان أن الإنجليز انتهزوا فرصة غيابه عن القاهرة فى بعثة أثرية بسيناء لتبرير تدخلهم . واتهم دورنو وزارة الأشغال العمومية بمساندة شركة المقاولات الإيطالية التى أسند إليها البناء . وعندما كتب اسم دورنو على باب ثانوى ، وليس على الواجهة ، رفع قضية على الحكومة المصرية مطالبًا بثلاثمائة جنيه مصرى زيادة على أتعابه البالغ قدرها ألف جنيه [٨٥] . وهكذا عكس المتحف مدى اهتمام أوروبا بماضى مصر الفرعونى إلى حد إسقاط المصريين المحدثين من حسابهم ، بقدر ما عكس الصراع الأنجلو - فرنسى طويل الأمد فى المجالين السياسى والآثارى ، على ضفاف النيل .

ماسپيرو والوفاق الودى :

تنفس علماء المصريات والدبلوماسيون - البريطانيون والفرنسيون على السواء - الصعداء عندما عاد ماسپيرو إلى القاهرة عام ١٨٩٩م . وعدل ماسپيرو عن خطة سلفه فى النضال من أجل إبعاد البريطانيين عن مصلحة الآثار ، فمنحهم تمثيلاً سخيًا ، وأخيرًا كسب اعترافهم الرسمى بأن للفرنسيين اليد العليا فى مجال الاثار فى مصر . وقد سجل نقطة لصالحه عام ١٨٩٩م ، عندما لم يبد قلقه لوجود ثلاثة من البريطانيين فى « لجنة المصريات » إلى جانبه ، وفرنسى آخر ، وألمانى واحد ، وثلاثة

من المصريين [٨٦] . ولكن إلى أى مدى يمكن اعتبار الأرمينيين المتمصرين أرتين وتيجران ورئيس مجلس النظار – الأداة فى يد الاحتلال – ممثلين لمصر ؟ يظل سؤالاً يبحث عن إجابة .

وأجرى ماسپيرو فحصًا لأوضاع مصلحة الآثار المضطربة ، فوجد أن هناك مفتشين عامين بمقر المصلحة بالقاهرة هما : چورچ ليجران ، وأحمد نجيب ، وثمانية من المفتشين المصريين يتصفون بالإهمال لأنهم نادراً ما يغادرون القاهرة للتفتيش على المناطق التابعة لهم . فقام ماسپيرو بتعيين مفتشين عامين بريطانيين هما : كيبل للدلتا وهوارد كارتر للصعيد . وفى عام ١٩١١م ، عين ماسپيرو خمسة مفتشين : ثلاثة بريطانيين ، وفرنسى واحد ، وإيطالى واحد ، فتولى بريشيا – مدير المتحف اليونانى الرومانى – مسئولية منطقة الإسكندرية الكبرى ، وكامبل إدجار الدلتا ، وكيبل منطقة سقارة ، وليفڤر منطقة أسيوط ، وويجول الأقصر [٨٧] . ولكن ظل التوتر الأنجلو – فرنسى قائمًا ، يصل أحيانًا إلى درجة الاحتقان ، مثل اصطدام السياح الفرنسيين مع حراس منطقة سقارة التى يشرف عليها كارتر . وحاول ماسپيرو معالجة الأمر بأن يقدم كارتر اعتذاراً ، ولكنه رفض ، وفضل الاستقالة [٨٨] .

وحظيت حفلة افتتاح النصب التذكاري تخليداً لماريت فى حديقة المتحف (مارس ١٩٠٤م) بتقدير دولى كامل [٨٩] . ففى أوروبا كانت بريطانيا وفرنسا تقتربان من إبرام الوافق الودى الذى تم بعد أسابيع ، وكانت إحدى مواده تؤكد أن يكون مدير عام مصلحة الآثار المصرية فرنسيًا . واستمر الود بين الطرفين قائمًا فى عهد السير الدون جورست (١٩٠٧ – ١٩١١م) فحصل ماسپيرو على وسام فارس من بريطانيا عام ١٩٠٩م ، وعندما استقال كرومر من عمله فى مصر وتولى رئاسة « صندوق الكشوف المصرية » جامل فرنسا بوصفها « أم علم المصريات » [٩٠] . وعدلت فرنسا عن ادعائها حق الحصول على المسلة الباقية بمعهد الأقصر ، وتركت بريطانيا ادعاءها حق الحصول على تمثال رمسيس الثانى الضخم بميت رهينة ، وكان محمد علي قد أهداه لكاڤيجليا ، وستون عام ١٨١٨م [٩١] . وأثناء تقاعده ، نصح كرومر حكومة بلاده بعدم إقامة معهد بريطانى للآثار فى مصر ، لأن ذلك قد يستثير عداء الفرنسيين ، وكذلك « صندوق الكشوف المصرية » [٩٢].

وأدى سقوط عمود ضخم بالكرنك بعد عودة ماسپيرو ببضعة أيام فى ١٨٩٩م ، إلى تأييد قراره بالتركيز على صيانة الآثار والنشر العلمى ، وترك معظم أعمال التنقيب للبعثات الأجنبية (٩٣) . وكان دى مورجان قد أسند إلى ليجران العمل بالكرنك عام ١٨٩٥م ، ولا زالت « إدارة أعمال الكرنك » مستمرة إلى اليوم باسم «المركز الفرنسى المصرى لدراسة وترميم معبد الكرنك» (٩٤) ، وسارع ماسپيرو بإصدار « حوليات مصلحة الآثار » التى كان لوريه قد بدأها إعدادها ، كما نفذ خطة بوركارد للتعاون الدولى فى إعداد « كتالوج عام » للمتحف المصرى (٩٥) .

وجاء كتشنر (١٩١١ - ١٩١٤م) لينهى هذه الفترة من الوفاق فى مجال الآثار بمناوراته العنيفة ضد الآثاريين الفرنسيين . وكان كتشنر يهوى جمع الآثار (على عكس كرومر) فأعاد مرة أخرى عهد القناصل جامعى الآثار الذى بدأه سولت قبل ذلك بقرن . وفى العام ١٩١٣م خلق منصب سكرتير عام مصلحة الآثار على أمل أن ينجح فى تعيين كيب فيه (٩٦) . وفى ربيع ١٩١٤م أصاب الإرهاق ماسپيرو ، فاقترح على كتشنر اسم من يخلفه من الفرنسيين (٩٧) .

عودة الألمان والطليان :

غلب احتكار الفرنسيين والبريطانيين لأعمال التنقيب عن الآثار المصرية فى الثمانينات والتسعينات ، ولكن كا لبث الألمان والأمريكان والطليان أن دخلوا الميدان . وجاءت نقطة التحول فى (١٩٠٥ - ١٩٠٧م) بوصول العديد من البعثات الأمريكية ، وتأسيس « المعهد الألمانى للآثار » . فرغم الطموح الدولى لألمانيا بعد تحقيق وحدتها ، ومكانة جامعاتها ، وقيادتها لفقه اللغة المصرية ، لم يتم ترجمة ذلك كله بتحقيق وجود ألمانى دائم بالقاهرة فى حقل المصريات إلا بعد ستين عاماً من بعثة ليپسيوس . وقد تم تكريم إيبرس ، ودوميشن ، وهنريش بروجش ، على واجهة المتحف المصرى ، جنبًا إلى جنب مع ليپسيوس رغم أنهم لم ينظموا بعثات تنقبل ذات بال (٩٨) . أما استانبول والعراق التابع لها ، حيث كان للألمان نشاط فى الجيش وبناء الخطوط الحديدية ، فقد كانت لألمانيا اليد العليا فى مجال الآثار ، فكان مدير مصلحة الآثار والمتحف فى

استانبول ألمانيا فى السبعينات . ولكن ما قام به الألمان من أعمال التنقيب فى برجامون عام ١٨٧٨م ، وبعد ذلك فى بابل ، ثم فى بوغاز كوى (عاصمة الحيثيين) فيما بعد ، أثار حفيظة الفرنسيين (٩٩) .

كان إيرمان يعمل من برلين ، ولكن مشروع القاموس المصرى العظيم ، الذى بدأه عام ١٨٩٥م ، كان يحتاج إلى دراسات ميدانية للنقوش ، وزاد من الحاجة إلى معهد ألمانى للآثار بالقاهرة مثل معهدى روما وأثينا . وتولت « الجمعية الشرقية الألمانية » التى تأسست عام ١٨٩٨م مسئولية أعمال التنقيب فى الشرق الأوسط (١٠٠) ، وبدأ لودڤيج بوركارد ، وفريدريش بيسنج التنقيب فى معبد الشمس بأبى جروب فى نفس السنة . وفيما بعد ، قام بوركارد بالعمل لحساب الجمعية فى حفائره بأبى صير ، وتل العمارنة . وجمع مشروعه الطموح لإعداد كتالوج علمى لمقتنيات المتحف المصرى ، علماء المصريات من الألمان ، والفرنسيين ، والإنجليز ، والأمريكان ، معًا للعمل فى ذلك المشروع (١٠١) . وكان بوركارد - أيضًا - ملحقًا ثقافيًا بالقنصلية الألمانية بالقاهرة ، وعضواً بلجنة المصريات الحكومية ، وتم افتتاح « البيت الألمانى » على الضفة الغربية فى طيبة عام ١٩٠٤م ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أصبح بوركارد أول مدير لأعمال المعهد الألمانى للآثار فى مصر (١٠٢) .

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتجهض هذه البداية المبشرة بالخير ، فقد فرضت الحراسة على الممتلكات الألمانية ، واشتعل بعد الحرب النزاع حول قيام بوركارد بتصدير التمثال النصفى لنفرتيتى دون أن يشعر بذلك أحد . ورفض المصريون السماح بقدوم بعثات تنقيب أثرية ألمانية أو إعادة فتح المعهد الألمانى للآثار حتى عام ١٩٢٩م ، عندما احتل هيرمان يونكر مكان المنبوذ بوركارد . وكان يونكر ألمانيًا حصل على الدكتوراه من جامعة برلين ، ولكن كان يعمل بجامعة ڤينا منذ عام ١٩٠٧م . وقد رعت الأكاديمية البروسية حفائره الأولى بالنوبة ، ولكن أكاديمية ڤينا رعت حفائره بالجيزة فى (١٩١٢ - ١٩١٤م) ، ثم فى (١٩٢٥ - ١٩٢٩م) ، وأصبح أستاذًا للآثار المصرية القديمة بالجامعة المصرية فى الثلاثينات ، وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٩٣٩م ، رغم اتهام الإنجليز له بالعمل لصالح النازية (١٠٣) .

كانت إيطاليا الوحيدة الباقية من دول ما قبل الحرب العالمية الأولى التى لها تطلعات محتملة فى مصر ، وكان تولى بوتِّى إدارة المتحف اليونانى - الرومانى بالإسكندرية عام ١٨٩٢م انقلابًا ثقافيًا ، وجاءت خلافة بريشيا له عام ١٩٠٤م تأكيداً لتحول المتحف إلى معقل إيطالى ثقافى . وبينما قام كل من بوتِّى وبريشيا بالتنقيب فى الإسكندرية الكبرى عن الآثار اليونانية - الرومانية ، امتدت حفائر عالم المصريات الإيطالى - أرنستو شياباريللى (١٨٥٦ - ١٩٢٨م) إلى جميع أنحاء مصر فى اثنى عشر موسمًا فيما بين (١٩٠٣ - ١٩٢٠م) ، وكان أشهر اكتشاف له هو مقبرة نفرتارى بوادى الملكات ، وقد درس فى تورين ، وتتلمذ على ماسپيرو ، ثم أصبح رئيساً للقسم المصرى بمتحف فلورنسا ، ثم بمتحف تورين [١٠٤] .

وقد أثار استخدام الأمير أحمد فؤاد للأساتذة الإيطاليين بالجامعة المصرية قلق القنصلية الفرنسية . وفى عام ١٩٠٩م ، حذت إيطاليا حذو الدول الأوربية الأخرى ، فأسست معهداً للآثار بأثينا ، وكان هناك كلام عن النية فى إقامة معهد إيطالى للآثار بالقاهرة ، ولكن الغزو الإيطالى لليبيا عام ١٩١١م غطى على المشروع الأخير ، وأدى إلى إبعاد الإيطاليين من الجامعة المصرية [١٠٥] .

الظهور الأول للأمريكان :

لا تظهر أسماء أمريكية على واجهة المتحف المصرى بالقاهرة ؛ فقد كان إدوارد روبنسون رائد علم آثار الكتاب المقدس منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، كما أن « الجمعية الشرقية الأمريكية » يعود تاريخها إلى عام ١٨٤٢م ، ولكن الاتجاه نحو قيام الجامعات الكبرى والمتاحف برعاية علم الآثار جاء بعد الحرب الأهلية الأمريكية ، وفى السبعينات ، انضم أثرياء الصناعة الجدد إلى النخب القديمة المعنية بالديموقراطية فى تأسيس متاحف الفنون الكبرى فى بوسطن ، ونيويورك ، وفيلادلفيا . وقام الأمريكان الذين حصلوا على درجات الدكتوراه من الجامعات الألمانية باجتذاب حلقات البحث والمعامل بالكليات الجامعية نحو خلق الجامعة الأمريكية الحديثة .

ونحو نهاية القرن التاسع عشر ، أصبحت بضع جامعات ومتاحف معنية بالشرق الأدنى القديم وعلم المصريات ، واستهلت جامعة بنسلفانيا أعمال التنقيب الأثرى فى نيبور (بالعراق الآن) عام ١٨٨٨م ، بعد أن كانت قد أجرت استكشاف مسحى للرافدين فى العام السابق على ذلك العام . وفى عام ١٩٠٧م ، قام « متحف بنسلفانيا للآثار والأنثروبولوچيا » – الذى تأسس عام ١٨٩٠م – بمد أعمال التنقيب الأثرى إلى مصر . وقامت « جمعية أدب وتأويل الكتاب المقدس » – التى تأسست عام ١٨٩٥م – و« المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية » [١٠٦] ، بتجميع الموارد من عدة كليات وجامعات ، وفى عام ١٩٠٠م تولت الأخيرة رعاية أعمال البحث فى فلسطين .

وكما كانت الحال فى فرنسا وألمانيا ، سار علم المصريات الأمريكى فى طريق ارتاده من قبل علم الآثار الكلاسيكية ، فتولى تشارلز إليوت نورتون – الأستاذ بجامعة هارفارد – رئاسة « معهد الآثار الأمريكى » لمدة أحد عشر عامًا ، وكان المعهد مهتمًا بالكلاسيكيات ، وتأسس عام ١٨٨٢م ، وهو العام الذى شهد افتتاح « المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية » ، ثم أقيمت بروما « المدرسة الأمريكية للعمارة (١٨٩٤م) ، و« المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية » (١٨٩٥م) . وفى عام ١٩١٣م تم اندماج المدرستين فى « الأكاديمية الأمريكية بروما » [١٠٧] . وقد استلهم علم المصريات الأمريكى الألمان والبريطانيين أكثر من استلهامه الفرنسيين ، إذ توفى اثنان من بين الأمريكان الثلاثة الذين تتلمذوا على ماسپيرو وهما فى ريعان الشباب [١٠٨] ، وبقى الهاوى الثرى تشارلز ويلبور (١٨٣٣ – ١٨٩٦م) على هامش « المصريات » لعزوفه عن النشر ، رغم خبرته ، وقضائه موسم الشتاء باستمرار على ظهر دهبيته الفخمة فى النيل . وقد درس ويلبور فى برلين وباريس . ولعبت الجامعات الألمانية دورًا فى تكوين الجيل الأول من الأمريكيين المتخصصين فى « المصريات » فى ألمانيا فى التسعينات ، ثم بدأوا العمل الميدانى فى مصر .

ولما كانت بداية « المصريات » متواضعة فى الجامعات البريطانية ، فقد تأثر المتخصصون بالمصريات من الأمريكان « بصندوق الكشوف المصرية » ، وپترى . وجعل أعضاء الصندوق من الأمريكان المتحمسين ، من رحلة إميليا إدواردز لأمريكا

عام ١٨٨٩م ، لإلقاء الخطب حول نشاط الصندوق ، رحلة مكللة بالنجاح . وقبل أن تصبح قادرة على إيفاد بعثاتها الأثرية الخاصة بها ، لجأت متاحف بوسطن للفنون الجميلة ، والمتروبوليتان للفنون ، وجامعة بنسلفانيا ، وبروكلين ، إلى تكوين مجموعاتها من الآثار المصرية من خلال مساهماتها المالية فى « صندوق الكشوف المصرية » [١١٠] .

وقد حصلت سارة يورك ستيفنسون - أول أمينة (١٨٩٠ - ١٩٠٥م) لقسم مصر والبحر المتوسط بمتحف جامعة بنسلفانيا للآثار والأنثروبولوجيا - على قطع الآثار المصرية من خلال پترى وصندوق الكشوف المصرية . وقامت بزيارة مصر عام ١٨٩٨م لدراسة إمكانية إرسال بعثة أثرية لمتحف الجامعة . وكتبت تقول : «إن البريطانيين هم حلفاؤنا الطبيعيون » فى مجال المصريات ، وعرضت اقتراحًا تقدم به يعقوب أرتين لإقامة « محطة علمية لعلماء المصريات والمستشرقين والمتخصصين فى الآثار العربية والمسيحية من الأمريكان والبريطانيين » يمكنها أن توفر « تمثيلاً ميدانيًا للعلم الأمريكى ... فالأمم الأخرى حريصة على ذلك ، وتناضل بقوة لتنال نصيبًا من هذه الغنيمة العلمية الغنية ، ولكن أمريكا ليس لها وجود هنا » [١١١] ، ولم يتحقق ذلك إلا عام ١٩٢٤م عندما قام « المعهد الشرقى » بجامعة شيكاغو بإنشاء قاعدة دائمة أمريكية لعلم المصريات على أن مصر ، هى « بيت شيكاغو » بالأقصر . ولم يتم إنشاء « مركز البحوث الأمريكى بمصر » بالقاهرة إلا فى عام ١٩٥١م .

وتولى الخيرون من أصحاب الملايين رعاية البعثات الأثرية الأمريكية التى قامت بالتنقيب فى مصر ، وهم : فوب هيرست ، وتيودور داڤيس ، وإكلى برنتون كوكس (الابن) ، وچون روكلفر (الابن) ، ومؤسسه روكلفر . وقامت فوب هيرست - زوجة چورچ هيرست قطب صناعة التعدين ، ووالدة وليم راندولف هيرست بارون الصحافة - برعاية بعثة جامعة كاليفورنيا التى قادها ريسنر (١٨٩٩ - ١٩٠٥م) ، وقام تيودور دافيس بتمويل حفائره الخاصة فى وادى الملوك (١٩٠٣ - ١٩١٢م) بمساعدة خبراء من أمثال الإنجليزى پيرسى نيوبرى ، وآخرين ، وقدم كوكس التمويل اللازم لبعثات متحف جامعة بنسلفانيا حتى وفاته عام ١٩١٦م ، وتولى چون روكلفر (الابن) ، ومؤسسه روكلفر تمويل حفائر برستد ، والمعهد الشرقى الذى أسسه بجامعة شيكاجو .

وبدأ ريسنر التنقيب فى مصر عام ١٨٩٩م ، ودافيس عام ١٩٠٣م ، ولكن الفترة (١٩٠٥ - ١٩٠٧م) شهدت انطلاق العمل الميدانى الأمريكى على أيدى بعثات من هارفارد - بوسطن (ريسنر) ، ومتحف المتروبوليتان للفنون (ليثجو ، ثم لحق به هربرت ونيلوك) ، ومتحف بروكلن (هنرى دى مورجان) ، ومتحف جامعة بنسلفانيا (داڤيد راندول ماكلڤر ، ثم كلارنس فيشر) . وكان برستد يعمل ميدانيًا لحساب شيكاغو فى المسح الفوتوغرافى للنوبة (١٩٠٥ - ١٩٠٧م) ، فقد أصر على أن تسجيل النقوش المعرضة للضياع مهمة عاجلة تفوق أعمال التنقيب من حيث الأهمية . وفى عام ١٩٠٧م - أيضًا - بدأ نورمان وأنًّا دى جاريس ديڤز فى تسجيل مقابر طيبة لحساب قسم النقوش بمتحف المتروبوليتان للفنون .

وانتهت أعمال بعثة بروكلين ، وبعثة شيكاغو لمسح النوبة عا ١٩٠٧م بعد موسمين من العمل ، ولكن بعثات هارڤارد - بوسطن ، ومتحف المتروبوليتان للفنون ، ومتحف جامعة بنسلڤانيا ، استمرت حفائرها حتى الثلاثينات من القرن العشرين ، تخللتها فترات توقف قليلة . وقد أصبح معسكر هارڤارد (ريسنر) بالجيزة ، وبيت متحف المتروبوليتان ، وبيت شيكاغو بالأقصر من العلامات المميزة المألوفة فى حقل الآثار بين الحربين العالميتين .

وبرع كل من ليثجو ، وبرستد ، وريسنر ، فى أحد مجالات المصريات . فقد كان ليثجو أول أمين لقسم الفن المصرى بمتحف بوسطن للفنون الجميلة (١٩٠٢م) ومؤسسًا لقسم الفن المصرى بمتحف المتروبوليتان (١٩٠٦ - ١٩٢٩م) . وتميز برستد كعالم ومعلم وإدارى . وكان كرسى أستاذية المصريات بجامعة شيكاغو الذى شغله عام ١٩٠٥م ، أول كرسى للمصريات بأمريكا ، وأصبح المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو الذى أسسه بتمويل من روكلفر ، وافتتح عام ١٩١٩م ، مركز المصريات ودراسات الشرق الأدنى . وجمع ريسنر بين الأستاذية بهارڤارد ، وأمانة قسم الفن المصرى بمتحف بوسطن للفنون الجميلة ، ولكنه اكتسب شهرته من براعته فى التنقيب وتفوقه على پترى فى الأساليب الفنية للعمل ، ولم يقبل بأن يكون هده العمل تجميع الآثار للمتاحف ، ولكن التنقيب فى جبانات كاملة ، والحفر فى الطبقات الواحدة تلو الأخرى حسب الترتيب الزمنى ، مع تسجيل كل خطوة بالرسم والتصوير الفوتوغرافى ونشر التقارير العلمية التى تتضمن الإيضاحات [١١٢] .

وفى مذكرة مشهورة ، عرض القنصل العام الأمريكى فردريك پنفيلد – عام ١٩٠٩م – أن يتحمل نفقات نقل المسلة الباقية بمعبد الأقصر إلى وسط القاهرة ، لأنه يجب أن تكون بالقاهرة مسلة كما فى لندن ، وباريس ، ونيويورك ، وروما ، واستانبول ؛ لأن المسلة بالأقصر لا يراها إلا عدد قليل من السياح كل شتاء ، فإذا نقلت إلى القاهرة « لن يشاهدها الزوار الأجانب وحدهم ، بل سيشاهدها أعداد غفيرة من سكان البلاد كل يوم فى غدوهم ورواحهم » ، وقد رفض مجلس النظار العرض استناداً إلى آراء الآثاريين (١١٣) .

أعمال أحمد كمال :

« لم يبلغ المصريون بعد درجة كافية من الحضارة حتى يهتموا بالحفاظ على آثارهم القديمة ... وليس لديهم شعور – أى درجة من درجات الشعور – بالذنب ترتبط بهذا الجرم الذى يعد ذنباً مغفوراً ... نقول للمصريين : إننا حكومات متحضرة ، لذلك نهتم بآثاركم القديمة . فإذا تظاهرتم بأنكم أمة متحضرة ، فإن عليكم الاهتمام بها أيضاً » .

من حديث للورد كرومر ، جاء فى :

William Welch Jr., No Country For Genthleman

هذه الملاحظات التى ينحى بها كرومر باللائمة على المصريين ، تتجاهل نضال أحمد كمال من أجل جعل علم المصريات للمصريين ، فى جو استعمارى عدوانى . حمل أحمد كمال على كاهله مهمتين : تكوين نفسه تكويناً علمياً جاداً فى حقل المصريات ، وحث أبناء وطنه على تعريف أنفسهم فى إطار مصر القديمة . وجاءت بحوثه المنشورة بالفرنسية لخدمة المهمة الأولى ، أما ما نشره بالعربية فكان لخدمة المهمة الثانية . وقد أبدى ماسپيرو احترامه لأحمد كمال بضمه إلى الفريق الدولى الذى تولى إعداد « الكتالوج العام » للمتحف المصرى . وقد أنجز أحمد كمال مجلدات عن اللوحات

البطلمية والرومانية ، وعن منصات القرابين ، ومنحته مصلحة الآثار مكافأة قدرها مرتب شهر (٣٣ جنيهًا بالنسبة له) عندما نشر المجلد الأول (١١٤) .

وقد نشر أحمد كمال تسعة وعشرين مقالاً بالفرنسية بحوليات مصلحة الآثار خلال سنواتها العشر الأولى، أى ما يزيد على ضعف ما قام بنشره زملاؤه المصريون ، فلم ينشر زميله فى الدراسة أحمد نجيب سوى أربعة مقالات فى بضع سنوات منذ صدور المجلة حتى تقاعده . كذلك نشر اثنان من تلاميذ أحمد كمال السابقين (خريجى مدرسة الآثار ١٨٨١ - ١٨٨٥م) أحدهما محمد شعبان ، الذى نشر خمس مقالات فى عشر سنوات ، وما يزيد عليها قليلاً فى السنوات العشر التالية (١١٥) .

ومعظم تلك المقالات عبارة عن مذكرات وتقارير قصيرة حول ملاحظات التفتيش علي المواقع الأثرية ، وجهود محاربة التنقيب العشوائى ، وأحيانًا كان أحمد كمال ينشر تقريرًا عن متابعة الحفائر ، وكان هذا هو كل ما يستطيع عمله فى وقت كان فيه الغربيون يفتحون الأهرام ، ويحفرون فى مناطق هامة مثل الجيزة ، وسقارة ، والكرنك ووادى الملوك ، وقد رفض أحمد كمال - من حيث المبدأ - إصدار تصاريح التنقيب لغير المتخصصين فى المصريات ، ومن لا يمثلون متحفًا أو مؤسسة علمية . وأقر بأن ذلك يعنى استبعاد المصريين من التنقيب ، ولكن هؤلاء كانوا يبحثون عن الكنوز ولا تحركهم « النزعة العلمية » (١١٦) .

ولم تكن الأعمال العربية التى نشرها أحمد كمال معروفة لزملائه الغربيين . ويبدو أنه افترض وجود متخصصين ، وطلاب ، ومهتمين بالمعرفة من بين قراء العربية ، غير أن فئة المتخصصين من القراء كادت أن تكون موجودة .

وكان جانبًا من أعمال أحمد كمال العربية ، ترجمة عن اللغة الفرنسية على طريقة الطهطاوى ومدرسته . وكان انتقال المتحف إلى الجيزة يعنى أن ترجمة عبد الله أبو السعود لدليل المتحف الذى وضعه ماريت قد أصبحت عديمة الجدوى ، وقام كمال بترجمة الدليل الجديد الذى وضعه دى مورجان إلى العربية فى (١٨٩٢ - ١٨٩٣م) ، وبعد ذلك بعقد من الزمان ، عندما انتقل المتحف - مرة أخرى - إلى موقعه الحالى ، ترجم أحمد كمال الدليل الجديد الذى وضعه ماسپيرو ، ولم يكن ذلك عملاً هينًا ، فقد

جاء النص العربى والصور الملحقة به فى ٧٨٨ صفحة ، كذلك قام أحمد كمال بترجمة الدليل الذى وضعه بوتّى للمتحف اليونانى - الرومانى ، وجاءت الطبعة العربية فى ٦٣٩ صفحة [١١٧] .

وبحلول عام ١٩١٥م ، كان قد صدر من دليل ماسپيرو أربع طبعات فرنسية ، وخمس إنجليزية ، ولكن لم تتكرر طباعته بالعربية [١١٨] ، فهل كان ذلك يمثل فجوة فى الاهتمام النسبى بالآثار عند الأوربيين والمصريين ، أو جاء تعبيراً عن ترتيب الأولويات عند مصلحة الآثار المصرية التى يديرها الأجانب ؟ لقد رأينا من قبل شهادة جريبو عن إقبال المصريين على زيادة المتحف فى جماعات كبيرة ، وحذر دليل بايدكر السياح قراءه من زيارة المتحف يوم الثلاثاء ، لأن رسم الدخول المنخفض (خمسة قروش) يجلب حشوداً من « الزوار العرب من الطبقات الدنيا » ، وجرب ماسپيرو السماح بالدخول المجانى فى فصل الصيف بعيداً عن الموسم السياحى ، وعندما نتج عند ذلك اندفاع الحشود وقيام البعض بحك أجسامهم بالآثار اعتقاداً منهم أنها تشفى بعض الأمراض ، عدل ماسپيرو عن ذلك ، وقرر رسم دخول قدره قرش واحد فى موسم الصيف [١١٩] .

وألف أحمد كمال كتاباً بالعربية عن عين شمس القديمة قبل أن يتولى وظيفته الأولى بالمتحف . وعندما تولى التدريس بمدرسة الآثار المتواضعة فى أوائل الثمانينات ، ألف كتابين آخرين بالعربية : تاريخ مصر القديم ، وقواعد الهيروغليفية . ولسوء الحظ أغلقت المدرسة فى نفس السنة التى صدر فيها الكتاب الأخير . وألف أيضًا كتاباً بالعربية عن منف ، ومجلداً ضخمًا عن الحرف وغيرها من مظاهر الحياة فى مصر القديمة ، ودليل مطول عن النباتات المصرية . وقد زود كتبه برسوم لمناظر المقابر ، والنصوص الهيروغليفية ، وقدم قراءة لها بالحروف العربية ، ثم قدم ترجمة عربية للنص ، ولعل أحمد كمال كان يتوقع قراء عرب يمكن مقارنتهم بالقراء الأنجلو أمريكيين الذين أقبلوا على كتاب ويلكنسون « عادات وتقاليد قدماء المصريين » الذى شاع لعدة عقود ، قبل أن تصبح الكتابة عن مصر فى يد المتخصصين ، وتنتشر أعمالها [١٢٠] .

ويصف أحمد كمال فى أحد كتبه رحلة قام بها مع طلبة دار العلوم إلى الصعيد « لمعالجة عجز أبناء الوطن » عن تقدير قيمة الآثار ، ألف أحمد نجيب كتاباً عن مصر القديمة بتكليف من نظارة المعارف . وتضمن الكتاب نصًا هيروغليفيًا لقصة ، وقراءة لها بالحروف العربية ، ثم ترجمة عربية للنص أسفل كل سطر من سطور النص . كما كتب أحمد نجيب تقارير عن أحداث الحفائر التى قام بها دى مورجان (١٢١) .

وبعد عام ١٩٠٠م نال أحمد كمال اعترافًا بكفاءته العلمية بعد جهد مضن . فقد أصبح معروفًا فى الأوساط الأوربية من خلال كتاباته فى مجلة حوليات مصلحة الآثار ، وعمله فى « الكتالوج العام » للمتحف . وأدى اختياره عضواً بالمجمع العلمى المصرى إلى اتساع دائرة اتصالاته ، وزودوه بأداة جديدة لينشر أعماله .

وساعدته المحاضرات التى كان يلقيها بنادى طلبة المدارس العليا فيما بين (١٩٠٦ – ١٩٠٨م) ، والتى كانت تجتذب حضوراً كثيفًا ، على أن يبث أفكاره بين الطلاب وخريجى المدارس العليا . وقد تأسس النادى عام ١٩٠٥م ، وكان عدد أعضائه ٢٤٠ عضواً ، ثم قفز العدد إلى ٧٧٤ عضواً عام ١٩٠٩م ، وهى السنوات التى شهدت علو مد المعارضة ضد الإنجليز وخاصة ضد المحاكمات التعسفية فى دنشواى ، ورحيل كرومر ، وظهور الأحزاب السياسية ، ووفاة الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، وتأسيس الجامعة المصرية الأهلية (١٢٢) .

وفى عام (١٩٠٨ – ١٩٠٩م) ، نال أحمد كمال فرصة تدريس مادة تاريخ مصر القديم بالجامعة المصرية الجديدة ، ولا شك أن ماسپيرو – الذى كان عضواً بمجلس الجامعة – رشحه للتدريس ، وقامت الجامعة بنشر محاضرات أحمد كمال التى غطت تاريخ مصر القديم حتى الأسرة الخامسة عشر (١٢٣) . واستهل كمال كتابه بالبسملة والصلاة على النبى محمد#، وقدم تبريراًلنشر الكتاب ، وبدأ بالحديث عن عصر ما قبل التاريخ ، ولاحظ أن هناك اختلافًا بين الأوربيين حول أصل البشر ، وما إذا كانوا قد انحدروا من نسل آدم وحواء أم كانوا ثمرة تطور من الحالة الحيوانية ، وما إذا كانت جميع الحضارات ذات أصل واحد .

وقد اهتمت الجامعة بنشر محاضراته ، لأن « الأمم المتقدمة - كالعرب فى عصر العباسيين ، والأوربيين منذ عصر النهضة ، والآن أمريكا واليابان - استفادوا من حكمة مصر فى عصر الجاهلية ، وهو موضوع لا زال مجهولاً عندنا » (١٢٤) . وإذا كان الأجانب يأتون زرافات ووحداناً لمشاهدة الآثار الفرعونية ، فإنه يجب على المصريين أن يقدروا « تراث وطنهم العزيز » . وأبدى افتخاره بأن الكهنة المصريين نظروا إلى اليونان نظرتهم إلى الأطفال ، وأن الإغريق أشادوا بمصر باعتبارها مصدراً للكتابة ، والفلسفة ، والقانون ، والفنون والحضارة (١٢٥) .

وكانت المصادر الثانوية التى استخدمها أحمد كمال تتضمن أعمال بروجش ، وليبسيوس ، ومارييت ، وشاباس ، وماسپيرو ، وهيرودوت ، ومانيتو ، وديودور الصقلى . كما أشار إلى عمل على مبارك عند حديث عن النيل ، ولكنه أهمل ما ذكره مبارك عن الأهرام نقلاً عن المصادر العربية .

وقد سار أحمد كمال على نهج الطهطاوى ، وماريت من حيث اتباع التحقيب الزمنى الطويل ، فوضع الملك مينا الذى ذكره مانيتو عند العام ٥٦٢٦ بالسنوات الشمسية قبل الهجرة (٥٠٠٤ ق.م) . وفى كتاب تاريخ مصر القديمة الذى نشره أحمد كامل عام (١٨٨٢ - ١٨٨٣م) حدد الحوادث بالتقويم الشمسى قبل الهجرة كما في الكتب الدراسية عند الطهطاوى ، وماريت ، ولكن عند نشر كتابه الذى أصدرته الجامعة كان استخدام تواريخ ما قبل الميلاد شائعاً ، فلم يعد أحمد كمال يستخدم تاريخ ما قبل الهجرة .

وقد رتب فصول كتاب محاضراته بالجامعة على أساس موضوعات : النيل ، والبيئة على ضفتيه وفى الدلتا ، والدين ، والتقسيمات الجغرافية إلى ولايات ، والنظام الاجتماعى والسياسى ، واللغة ونظام الكتابة ، وشامپليون ، وفك رموز الهيروغليفية . أما الفصول التى رتبت على أساس الحقب الزمنية ، فتناولت الأسرات واحدة تلو الأخرى ، وحكماً تلو الآخر ، مستقياً مادته من الآثار وخراطيش الملوك . وقطع تسلسل تلك الفصول بأخرى لموضوعات مثل : « التجارة فى عصر منف » ، و« الفن المصرى القديم » .

وكان أهم إنجاز قام به أحمد كمال هو إقناع نظارة المعارف بافتتاح قسم للآثار المصرية القديمة بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٠م ، حيث قام بالتدريس مرتين أسبوعيًا لسبعة طلاب . أخذهم إلى المتحف المصرى ، وقادهم فى جولة بين آثار الصعيد . وتخرجت الدفعة الأولى عام ١٩١٢م ، والتحقت دفعة جديدة بالقسم [١٢٦] .

وعلى جبهة أخرى ، قام أحمد كمال وماسپيرو بتشجيع السلطات الإقليمية على إنشاء متاحف صغيرة بالمديريات . وقد وافق ماسپيرو ولجنة الآثار لأحمد خشبة باشا - أحد أعيان المديرية - بالتنقيب عن الآثار بجوار أسيوط ، وقد ذهب بعض ما تم العثور عليه من آثار إلى المتحف المصرى بالقاهرة ، وشجع على الاحتفاظ بما تبقى من الآثار لإنشاء متحف محلى . وقد أنشأت بلدية طنطا متحفًا بتشجيع من مصلحة الآثار (عام ١٩١٣م) ، وقررت المنيا أن تحذو حذوها [١٢٧] .

مصر القديمة فى مطلع القرن العشرين - الوعى الوطنى :

كما رأينا من قبل ، اختارت مجلة « السمير الصغير » عام ١٨٩٩م شعارًا لصفحة العنوان يمثل فلاحة توجه أولادها نحو « نور المعرفة » ، الذى يبرز فوق الأهرام وأبى الهول ، بينما الخديو وأربعة من رواد التعليم يشكلون إطارًا لهذا المشهد (انظر الشكل ٧) . ورغم أن ذلك يكاد يمثل نظرة المصريين للعالم فى ذلك الوقت ، فإنه يبين أن أحمد كمال لم يضع وحده قواعد الانتساب إلى مصر القديمة الذى شاع فى العشرينات من القرن العشرين .

كان الاقتصار على استخدام طوابع البريد التى حملت الأهرام وأبى الهول على الخطابات المرسلة من مصر إلى بلاد الغرب فى الفترة (١٨٦٧ - ١٩١٤م) ، توحى هناك بارتباط خدمة البريد ، وكذلك مصر بالآثار المصرية (انظر الشكل ٢٢) . وعندما قامت الحكومة المصرية الخاضعة للاحتلال البريطانى - فى يناير ١٩١٤م - بإصدار طوابع بريد متنوعة التصميم ، عكست ستة من بين عشرة تصميمات الآثار القديمة . وحملت أوراق النقد (البنكنوت) التى أصدرها البنك الأهلى المصرى فيما بين ١٨٩٩م

والحرب العالمية الأولى مناظر أبو الهول . والأهرام . ومعبد فيلة ، بين ما حملته من مناظر أخرى [١٢٨] . ولكن العملات التى كانت تمثل رمز السيادة فى العالم الإسلامى ، اتسمت بالتحفظ . فحتى العام ١٩١٤م ، ظلت تحمل طغراء السلطان العثمانى ، ونقوش أخرى بالخط العربى ، مع زخارف نباتية أو هندسية .

وربما كان الخيار الأصلى لتصميمات طوابع البريد وأوراق النقد أوربياً أكثر من كونه مصرياً . فقد كان الإيطاليون أول من أسس خدمة البريد بمصر ، كما أن حملة الأسهم من البريطانيين سيطروا على البنك الأهلى المصرى ، كما انفرد البريطانيون باتخاذ القرارات الهامة فى مصر فيما بين (١٨٨٢ - ١٩٢٢م) . غير أن هذه الرموز التى طال أمدها ، كان لها أثرها ، فلا زالت طوابع البريد وأوراق النقد فى مصر المستقلة تبرز الرموز الفرعونية حتى اليوم .

وقد حرص حكام مصر على الظهور بمظهر حماة الآثار الفرعونية ، على الأقل منذ صدور أمر محمد على عام ١٨٣٥م ، وعلى مدى القرن ، قاموا بزيارات للمواقع الأثرية ضمن برامجهم الاحتفالية . فقام الخديو توفيق فى مطلع عام ١٨٨٠م عشية تولية الحكم بزيادة استعراضية للصعيد ضمت موكباً كبيراً من ثلاث بواخد وعدد من القوارب المعاونة ، وتوقف لزيارة عواصم الأقاليم وأعيانها على طول الطريق ، كما زار معابد دندرة ، وإسنا ، وجزيرة فيلة ، والأقصر ، والكرنك [١٢٩] . وفى عام ١٨٨٦م ، حضر احتفالاً بمتحف بولاق بمناسبة عرض مومياء أحد فراعنة الدولة الوسطى [١٣٠] .

وجاءت زيارة توفيق للصعيد ١٨٩٠م على متن باخرة كوك ، فى صحبة سياح من الأمريكان . وكانت المحطة الأولى البدرشين لزيارة آثار منف وسقارة . أما محطات الآثار التالية فشملت دندرة ، والكرنك ، ووادى الملوك ، والرمسيوم ، وإسنا ، وإدفو ، وكوم أمبو ، وأسوان ، وفيلة . وقد ناقش مع حاشيته سبل تنمية السياحة من خلال شركة كوك [١٣١] . وفى العام التالى اصطحب توفيق مدير عام مصلحة الآثار جريبو فى رحلة نيلية فيما بين الشلال الأول ووادى حلف (انظر الشكل ٣٧) [١٣٢] .

ونظم جون كوك رحلة مجانية لطلبة دار العلوم ضمت ٥٠ طالباً على متن الباخرة « عباس » ، لزيارة الصعيد وآثاره ، أملاً فى أن تحظى الشركة فى عهد عباس الثانى

بالرعاية الخديوية ، كما كانت الحال فى عهد أبيه . وعندما مرت باخرة الطلاب بجوار باخرة چون كوك ، صعد الأخير على متنها وألقى على الطلاب كلمة جاء فيها :

« لقد التقيت الخديو الراحل ، ووجدته مستاءً ، لأن المصريين يتلقون تعليماً جيداً ، يؤهلهم لشغل الوظائف الكبرى ، ولكنهم مع مرور الزمن لا يقومون بزيارة الآثار القديمة ، وقال لى : إن القليل من المصريين يقومون بالسياحة فى بلادهم ، بينما نرى السياح يأتون من أمريكا وأوروبا هذه الآثار ... لذلك يجب أن تعرفوا تاريخ أجدادكم تمارسوا حياتكم العملية أسوة بهم ... » .

وخصص كوك أفضل تراجمته – الحاج محمد أبو عليوة – لمرافقة الطلاب فى هذه الرحلة (١٣٣) .

وقد أشرنا فيما سبق إلى قيام عباس الثانى بوضع حجر الأساس ، ثم افتتاح كل من المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية ، والمتحف المصرى بالقاهرة ، وقد فعل نفس الشىء بالنسبة لمتحف الفن العربى . ومنذئذ حرص كل حاكم مصرى على الظهور بمظهر حامى التراث الفرعونى والإسلامى .

وعبر رجلان نفيا من مصر عن الحنين للوطن من خلال الإشادة بماضى مصر الفرعونى ، رغم انحدارهما من أصول تركية – شركسية ، هما : محمود سامى البارودى ، والأمير إبراهيم حلمى . كان البارودى رئيساً لمجلس وزراء الثورة العرابية ، وقضى سبعة عشر عاماً فى المنفى بسيلان ، وعبر فى أشعاره عن حنينه لمصر ذاكراً الجيزة والأهرام وتحديها للزمن ، شاهدة على عظمة بُناتها ، ويشهد العالم بخلودها (١٣٤) .

أما الأمير إبراهيم حلمى فكان خريج الأكاديمية العسكرية الملكية (وولوتش) ، وشارك الخديو إسماعيل منفاه فى إيطاليا ، ونشر عام ١٨٨٦م كتاباً بالإنجليزية بعنوان : « أدب مصر والسودان من العصور القديمة حتى عام ١٨٨٥م » ، ورتب قائمة المصادر ترتيباً أبجدياً حسب الموضوع والمؤلف ، وشملت تلك القائمة المصادر العربية والمراجع بمختلف اللغات الأوربية التى تناولت جميع العصور ، وأهدى الكتاب إلى « الخديو إسماعيل » ، وقد جاء بمقدمة الكتاب :

« إن المعرفة المصرية بجميع فروعها كانت ذات قوة جذب ساحرة لكل مؤلف شهير ، فى كل عصر من العصور ، وسواء كانت مناسبة هذا الافتتان حكمة وردت فى التعاليم الهيروغليفية لكتاب الموتى ، أو تتعلق بمقولة تتصل بمسألة اجتماعية أو اقتصادية ، فهناك دائمًا معلومات مثمرة عن خلاصة المعرفة الفرعونية ، يقع عليها من يعرف كيفية الوصول رليها » (١٣٥) .

كذلك لعب النفى عقابًا على تأييد الثورة العرابية ، دورًا فى شحذ الشعور بالهوية المصرية عند محمد المويلحى ، فعندما عاد من منفاه ، كتب « حديث عيسى ابن هشام ، أو فترة من الزمان » نشرها منجمة على صفحات جريدة « مصباح الشرق » التى أسسها مع والده إبراهيم المويلحى عام ١٨٩٨م . وفى ذلك العمل يصطحب الراوية الخيالى أحد الباشاوات من أيام محمد على فى رحلة فى مصر وأوروبا ، معلقًا على مظاهر التغير الذى حدث فى الحياة والمجتمع ، بما فى ذلك الموقف من الآثار (١٣٦) ، وقد ظهر العمل فى شكل كتاب عام ١٩٠٥م ، وأعيد نشره فيما بعد .

وضمَّن المويلحى أراءه هذا العمل التخيلى ، فعند وصفه لزيارة الهرم ، يطرح العديد من الأراء : فالأهرام دليل على عظمة حضارة مصر القديمة ، وهى رمز للاستعباد والطغيان ، وهى مكان للمرح والرقص الفاحش ، وهى ، مصدر رزق للبدو الذين يتعيشون على الأهرام وابتزاز السياح . وعند وصفه لزيارة المتحف المصرى - وكان عندئذ بالجيزة - يطرح الفكرة القائلة بأن الآثار تقوم شاهدًا على عظمة مصر الفرعونية ، ويبدى أسفه لعدم وجود كتب بالعربية تحمل هذه الرسالة ، ويقدم شخصية أخرى ترى فى تلك الآثار أشياء بالية لا نفع منها سوى بيعها للأجانب ، ولا يقبل انتسابًا لغير العرب الكرام ، وينتقد إنفاق الملايين على الحفائر الأثرية وإقامة المتاحف فى بولاق والجيزة ، والمتحف الجديد الذى كان لا يزال فى مرحلة البناء .

وجاء نفى الشاعر أحمد شوقى فيما بعد ، عندما خلع عباس حلمى الثانى من منصبه ، ، وكان شوقى من حاشيته يلعب دور شاعر القصر . وقد ألقى قصيدة أمام مؤتمر المستشرقين الدولى بجنيف عام ١٨٩٤م تناول فيها أحداث وادى النيل ، مشيدًا بعظمة الفراعنة والبطالمة إلى جانب مجد الإسلام . ونوه بالوحدانية على يد موسى

وعيسى ومحمد ، ولكنه أشاد أيضاً بإيزيس ، ووضع الهكسوس ، والفرس ، والرومان ، والصليبيين فى مصاف الغاصبين الذين ما لبثوا أن أزيحوا من البلاد (١٣٧) .

ولم تكن أعمال أحمد كمال ، وأحمد نجيب هى وحدها فى متناول قراء التاريخ ، بل كانت هناك كتب عامة كتبها غير المتخصصين ، مثل أحمد حسن الذى كتب تاريخاً عاماً لمصر حتى الفتح العربى (١٨٨٨م) ، وحسين زكى مؤلف كتاب « تاريخ الشرق القديم » (١٩٨٢م) الذى خصص مجلداً لكل من مصر القديمة ، والعراق وبابل ، وفارس ، وميديا ، ومملكة صور (١٣٨) . وإسماعيل سرهنك ، مؤلف كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » (١٣٩) ، وهو كتاب فى تاريخ العالم يركز على الشئون البحرية خصص المجلد الثانى لمصر ، كان نصيب العصر الفرعونى منه ثمانى عشرة صفحة فقط من مينا إلى الإسكندر ، وتسعة عشر صفحات أخرى من الإسكندر حتى الفتح الإسلامى . واستخدم سرهنك مراجع عربية وأوربية من بينها مانيتو ، وعبد اللطيف البغدادى ، وماربيت ، وكذلك أحمد نجيب « الأثر الجليل » .

وقدم كتاب ميخائيل شاروبيم (١٨٥٣ - ١٩٢٠م) (١٤٠) « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » تفاصيل أكثر مما جاء فى سرهنك عن مصر القديمة ، فعالج حكم الأسرات الثلاثين حتى الإسكندر فى ١٧٨ صفحة مكتظة الأسطر . وشاروبيم قبطى قاهرى ، التحق فى سن الرابعة عشر بقسم المطبوعات الإفرنجية بنظارة المالية ، وعمل قاضياً بالمحاكم الأهلية ، وتقاعد عام ١٩٠٢م . وتناول المجلد الأول من كتابه مصر القديمة من نوح حتى الفتح العربى ، وتناول المجلد الثانى الفترة من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى عام ١٥١٧م ، والثالث من بداية الحكم العثمانى حتى تولية محمد على ، والأخير من محمد على حتى وفاة توفيق .

ويشبه المجلد الأول من كتاب شاروبيم كتاب « أنوار توفيق الجليل » للطهطاوى من حيث الترتيب ، والنطاق ، والمحتوى : فكلاهما يغطى تاريخ مصر حتى الفتح العربى . ويقدم شاروبيم فى الصفحتين الأوليين معلومات مستقاة من الإنجيل عن دم ، ونوح ، والطوفان ، واستقرار حام بن نوح فى أفريقيا ، ثم مصرائيم بن حام الذى أعطى اسمه لمصر ، وهو الاسم الذى عرفت به فى اللغات السامية . وكما فعل الطهطاوى ، قام

شاروبيم بالربط بين قصص الإنجيل ، ومينا الذى ذكره مانيتو « الذى يقال : إنه مصرائيم الذى ورد ذكره بالتوراة » (١٤١) . ويورد شاروبيم ما ذكره ليبسيوس ، وهنريش بروجش ، ومحمود الفلكى عن عمر الأهرام والغرض من بنائها (١٤٢) ، واستخدامه لعمل الفلكى يعزز جهد العلماء المصريين المحدثين فى البحث فى مصر القديمة . ويقدم شاروبيم تواريخ ما قبل الهجرة (مقدرة بالتقويم الشمسى) ، ولكنه يضيف إلى جانبها تواريخ ما قبل الميلاد على عكس ما فعل الطهطاوى . ومثلما فعل الطهطاوى ، تناول شاروبيم الأسرات الثلاثين التى ذكرها مانيتو ، ثم الإسكندر ، فالبطالمة ، والروم البيزنطيين ، ثم الفتح الإسلامى ، ويقطع السرد بإيراد مقالات فى موضوعات محددة .

ويورد شاروبيم ما ذكره يوسيفيوس من أن المؤرخين الإغريق لا يذكرون « ما جاء بالكتب السماوية » عن الخروج ، ثم خصص بضع صفحات لموسى ، جاعلاً الخروج فى عهد مونبتاح (الذى يخطئ فى هجاء اسمه) ابن رمسيس الثانى ، وقال : إن رمسيس الثانى يعادل سيزوستريس عند الإغريق ، ولاحظ أن « بعض المؤرخين » يذكرون « داناوس المصرى » الذى أسس المستعمرات فى اليونان على أنه شقيق رمسيس الثانى (١٤٣) .

وقد تجاوز الطهطاوى فى محاولة التوفيق بين الفراعنة الأسطوريين فى الفكر التقليدى العربى ، وقائمة مانيتو ، والآثار ، فالغازى الآسيوى مؤسس الأسرة الخامسة عشر - سالاتس - « معروف عند العرب بالوليد بن الرقة » ، وأبابى أو أيوفيس من الأسرة السادسة عشر يعرفه العرب باسم الريان بن الوليد الذى كان يوسف وزيراً له . واستخدم شاروبيم علم المصريات فى الرجوع إلى معاهدة رمسيس الثانى مع ملك الحيثيين ، ونقوش بيانخى بجبل برقة المودعة بمتحف بولاق وتصف غزوه لمصر (١٤٤) .

ويشارك شاروبيم الطهطاوى وافتخاره باعتراف اليونان بريادة مصر للحضارة ، ويسير على نهج الطهطاوى ومؤرخى الغرب فى إبراز طغيان الغزاة الفرس ، والترحيب بالإسكندر كمحرر . ويفرد شاروبيم صفحات للفترة من الإسكندر إلى الفتح العربى تعادل ما خصصه للفراعنة .

وفى مطلع القرن العشرين ، كان الوطنيون يأخذون على التعليم الخاضع للإنجليز إهماله تاريخ مصر القديمة ، وعندما سافر سلامة موسى إلى أوروبا بعد إتمامه الدراسة الثانوية عام ١٩٠٧م ، شعر بالحرج لعجزه عن الإجابة عن أسئلة حول مصر القديمة ، واتهم موسى الإنجليز بإقصاء تاريخ مصر القديمة من برامج الدراسة بالمدارس ، حتى لا يؤدى تدريسه فى المدارس إلى تغذية الروح الوطنية والمطالبة بالاستقلال [١٤٥] . ورأى مصطفى كامل - مؤسس جريدة « اللواء » والحزب الوطنى - فى مصر أول بلد متحضر فى التاريخ ، كانت لها السبق على الجميع [١٤٦] . وبعد وفاته فى ريعان الشباب ، خلَّد المصريون ذكراه بتمثال برونزى يستند إلى رأس أبى الهول ، لا يزال يزين ميدان مصطفى كامل .

أما لطفى السيد الذى ينتمى إلى حزب الأمة ، والذى ركزه جهوده على الإصلاح التدريجى وليس الاستقلال الفورى ، فقد التمس لرؤيته القومية جذوراً متينة فى مصر القديمة ، ودعا إلى زيارة المتاحف والمواقع الأثرية الفرعونية والإسلامية « لأننا فى حقيقة الأمر لا نعرف الكثير عن وطننا وأمجاده بقدر ما يعرف السياح » [١٤٧] . وكتب فى هذا السياق :

« لا أطالب كل مصرى أن يظهر قدرة على الملاحظة كشامپليون ، ولا معرفة بالآثار المصرية كماسپيرو ، ولا براعة فى الآثار مثل كمال بك . فما نحن بحاجة إليه محاضرات منتظمة ، وتعليم مستمر ، بالجامعة المصرية وغيرها من المنشآت العلمية ، من النوع الذى ييسر لأبناء مصر سبيل التعرف على الماضى المجيد ، ليس بطريقة علمية متعمقة ، ولكن على نحو ما يفعل السائح الأوروبى الذى يزور بلادنا من تحصيل للمعرفة عن تاريخنا وتاريخ أجدادنا » [١٤٨] .

وإذا أحصينا الكتب العربية التى نشرت عن مصر القديمة نجد أن هناك كتابين نشرا فى السبعينات ، وثلاثة فى الثمانينات ، وستة فى التسعينات ، و ٢٤ كتاباً فيما بين (١٩٠٠ - ١٩١٤م) . ويوحى الرقم الأخير بزيادة - وإن كانت متواضعة - فى الاهتمام بمصر الفرعونية ، لعله كان مشجعاً لأحمد كمال .

غير أن « علم المصريات للمصريين » – شأنه شأن الاستقلال – بدا محيراً عشية الحرب العظمى . فقد أدى رفض مصلحة الآثار المصرية توظيف خريجي قسم الآثار المصرية بالمعلمين العليا ، إلى إغلاق القسم عام ١٩١٣م . ومنى مشروع متحف أسيوط بفشل ذريع ، فقد تسربت الآثار التى تم الكشف عنها إلى الأسواق ، واضطرت مصلحة الآثار إلى إلغاء ترخيص التنقيب الذى أعطته لأحمد خشبة باشا . وفى الجامعة المصرية ابتعدت مادة « الشرق القديم » عن التركيز على مصر الفرعونية . وفى أوائل العشرينات قام طه حسين بتدريس التاريخ اليونانى – الرومانى مع الاهتمام بمصر فى العصرين البطلمى والرومانى (١٤٩) .

وعند تقاعد أحمد كمال عام ١٩١٤م ، لم يكن هناك من يخلفه على الساحة من المصريين ، وكان ولده حسن قد ذهب إلى إنجلترا لدراسة المصريات ، ولكنه اتجه إلى دراسة الطب هناك . ووجد تلميذا أحمد كمال : سليم حسن ، ومحمود حمزة (الذى تزوج ابنة كمال) وجدا نفسيهما يعملان بالتدريس بالمدارس الثانوية ، وحاولا الإبقاء على معرفتهما بالمصريات بالتردد على المتحف والارتباط بأستاذهما أحمد كمال . وحتى شفيق غربال – الذى أصبح مؤرخًا شهيراً لمصر الحديثة – عمل مدرسًا بالمدارس الثانوية ، وبدا أن المصريات ستفقد جيلاً آخر من المتخصصين (١٥٠) .

وجاءت ضربة أخرى عام ١٩١٦م ، عندما هاجم چورج دارسى – سكرتير عام مصلحة الآثار – مقالاً لأحمد كمال ، فلم ينقد ما تناوله من نقاط فحسب ، بل شكك فى كفاءته فى فقه اللغة المصرية القديمة ، وأدت العداوة الشخصية إلى زيادة حدة الصدام ، فقد كان دارسى الذى يصغر أحمد كمال بثلاثة عشر عامًا هو الذى تعرض لمنافسة من جانب أحمد كمال فى الترقية قبل ربع قرن من الزمان ، وغم أن دارسى انضم للمجمع العلمى المصرى قبل أحمد كمال بعشر سنوات ، وتخطاه فى الترقيات بمصلحة الآثار .

هاجم دارسى الدراسة التى قدمها أحمد كمال بالمجمع العلمى المصرى ، ونشرت بمجلته ، وكانت تعنى بتحليل أصول الرموز الهيروغليفية . ورأى كمال أن الكلمة اليونانية "Aiguptos" التى جاء منها اسم مصر يعود أصلها إلى مدينة قفط بالصعيد

"Coptos"، وليس إلى اسم معبد بمنف على نحو ما ذهب إليه هنريش بروجش . ويبدو أن وطنية كمال جعلته يبحث لكلمة « مصر » الاسم العربى لمصر عن جذور هيروغليفية بدلاً من أن ينسب المصطلح إلى جيران بلاده الساميين (١٥١) .

وقال دارسى : « إن أحمد كمال قدم عدداً من التأكيدات التى لا يقبل بها متخصص بالمصريات » ، وأن كمال وقع فى خطأ لغوى وتاريخى فادح عندما جعل للرموز الهيروغليفية ما يقابلها من بعض الحروف العربية ، وتعديله لترتيبها حسبما أراد ، واتهم كمال بإغفال السياق التاريخى للكلمات الهيروغليفية ، والمبالغة فى تأثير الساميين - بما فيهم العرب - على مصر القديمة (١٥٢) .

وقد تصدى أحمد كمال لدارسى كاتبًا ومحاضراً بالمجمع العلمى المصرى ، فقال : « إن اللهجات المصرية القديمة اختلفت من حيث درجات الصوتيات لبعض الرموز ، وأنه اتبع قواعد فقه اللغة فى تغير المعانى . ودافع عن القائمة الطويلة للكلمات العربية التى استخلصها من اللغة المصرية ، وأعلن أن « اللغة المصرية هى اللغة الأم للعربية ، وكذلك العبرية » (١٥٣) . وإذا كانت وطنية أحمد كمال قد أثرت على علمه ، فإن پترى لا يخلو من الذنب من هذه الناحية . ويجب النظر إلى ما فعله دارسى فى السياق الإمبريالى لذلك العصر .

وفى نفس العام - ١٩١٦م - أعلن أحمد كمال انتهاءه من كتابة ١٦ مجلداً من قاموس اللغة المصرية وما يقابلها من العربية والفرنسية ، الذى يقع فى ٢٢ مجلداً . وقابل حسن بن أحمد كمال بين العمل الفردى الذى قام به والده ، وعمل الفريق الذى قاده إيرمان فى برلين لإعداد قاموس ضخم للغة المصرية . واختفت خطة قاموس كمال بوفاته ، ولا يعرف مصير ما قام به من عمل يجمع بين العلم والوطنية ، وهكذا عندما عطلت الحرب العالمية الأولى الجهود العادية ، كان جيل ماسپيرو ، وپترى ، وايرمان ، وأحمد كمال قد ارتقى بعلم المصريات إلى مدى يفوق ما حققه ماربيت ، وليبسيوس ، وبيرش من قبل . وجاء التقدم الذى تحقق فى مجالات علم المتاحف ، وفقه اللغة ، والنقوش ، وتاريخ الفن ، والتاريخ ، والأساليب الفنية للتنقيب عن الآثار . ولكن الصورة من المنظور الوطنى المصرى لم تكن مشجعة . كان الاهتمام بمصر القديمة ينضح عن

النخبة المتعلمة ، ولكن كفاح أحمد كمال لجعل علم المصريات للمصريين منى بالفشل ، وشغل بعد تقاعده بالعمل على إعداد قاموسه . ولم يكن يعلم أن جهوده ستثمر فجأة بعد نهاية الحرب فى إصرار الوطنيين على بسط سيطرتهم على مصلحة الآثار ، وإعداد المصريين المتخصصين فى المصريات ، وفى الزهو الوطنى بإنجازات قدماء المصريين .

وفى مجال الآثار الإسلامية الأقل تقدمًا ، قامت « لجنة حفظ الآثار والفن العربى » عام ١٩١٤م بوضع خطة للمحافظة على الآثار الإسلامية والقبطية ، وعندما حرمت الحرب اللجنة من رئيسها ماكس هرتز فجأة ، برز على بهجت بجهده الشخصى كرائد للآثار الإسلامية ، وأول مدير مصرى لمتحف الفن العربى ، ويعالج الفصل السادس هذه التطورات .

الهوامش

(١) أرشيف الخارجية الفرنسية بنانت ، ملف IFAO رسالة من ماسبيرو بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) حول تأسيس المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، وتاريخه ، راجع :

IFAO, Livre du centenaire 1880 - 1980 (Cairo, 1980), vii - x; IFAO, Un Siècle de fouilles Françaises en Êgypte 1880 - 1980 (Cairo, 1981).

(٣) Livre du centenaire, xxi.

(٤) Michel Dewachter & Alain Fouchard, eds., L'Egyptologie et les Champollion (Grenoble, 1994), 367.

(٥) Stephen Vernoit, "The Rise of Islamic Archaeology", Muqarnas 14 (1997), 2,

(٦) A. Kjater, Le Régime juridique des Fouilles et des antiquités en Égypte (Caoro, 1960), 77.

(٧) Margaret Dower, Flinders Petrie : A Life in Archaeology, (Madison, Wis. 1995), 312.

(٨) Flinders Petriè, Seventy Years in Archaeology (New Yoek, 1969 reprint of 1932 ed.), 22.

(٩) Bruce G. Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, 1975), 196.

(١٠) Drower, Petrie, 429 - 30.

(١١) T.G.H. James, ed., Excavating in Egypt : The Egypt Exploration Society 1882 - 1982 (London, 1982), 28.

(١٢) Petrie, Seventy Years, 34, 77, 80.

(١٣) حول المظـاهر الإمبريالية والعنصرية فى مجال الآثار فى ذلك العصر ، راجع :

Trigger, History, 110 ff.

(١٤) Joan Rees, Amelia Edwards, Traveller, Novelist and Egypt ologist (London, 1998).

(١٥) Margaret-Drower, "Gaston Maspero and the Birth of Egypt Exploration Fund (1881 - 83)", Journal of Egyptian Archaeology 68 (1982), 300.

(١٦) Peter France, The Rape of Egypt, 151 - 54.

(١٧) Drower, "Gaston Maspero", 314.

(١٨) تعتمد هذه النقطة بصفة أساسية على دراسة :

Darrell Dykstra, "Pyramids, Prophets and Progress : Ancient Egypt in the Writtings of Ali Mubarak" Journal of the American Oriental Society 114 (1994) 54 - 65.

(١٩) J. E. Campo, "Mubark's Khitat", Unpublished Paper, MESA meeting, Beverly Hills, Calif., November 1989.

(٢٠) مبارك ، الخطط ، ١ : ٢ - ٣ .

(٢١) مبارك ، علم الدين ، ٤ أجزاء (الإسكندرية ١٨٨٢) ، ٢ : ٦٣٤ - ٦٣٦ .

(٢٢) علـى مبـارك ، الخـطـط ، ١٣ : ٦٩ - ٩٠ (طـيـبـة) ؛ ١٦ : ٢ - ٤٧ (منـف) ؛ ١٥ : ٤٧ - ٦٩ (هليوبولس).

(٢٣) E. A. Wallis Budge, By Nile and Tigris : A Narrative of Journies in Egypt and Mesopotamia on Behalf of the British Museum between the Years 1886 and 1913, 2 vols., (London 1920) 1:74 - 117.

(٢٤) A. H. Hayce, Reminiscences (London 1923), 285.

(٢٥) Budge, Nile, 1 : 81.

(٢٦) Budge, Nile, 1 : 117.

(٢٧) Budge, Nile, 1 : 130 - 31, 140 - 44, 147 - 48, 241, 334, 2 : 152.

(٢٨) Budge, Nile, 1 : 334.

(٢٩) Grange, "Archéologie", 364.

(٣٠) الأرشيف الفرنسى ، وزارة الخارجية ، نانت ، رسالة من جريبو إلى الخارجية فى ١٣ يناير ١٨٩١ .

(٣١) دار الوثائق القومية ، محفوظات مجلس الوزراء ، نظارة الأشغال العمومية ، مصلحة الآثار ، ٢ / ٤ متاحف ١٨٧٩ - ١٨٩٠ ، رسالتان من سكوت مونكريف وجريبو ، ٢٢ فبراير ١٨٩٠ .

(٣٢) James, Excavating, 29 - 30.

(٣٣) دار الوثائق القومية ، مجلس الوزراء الأشغال ، مصلحة الآثار ، متاحف ، مذكرة بتاريخ ٩ نوفمبر ١٨٨٩ « مشروع اللائحة الداخلية » .

(٣٤) The Graphic, 26 July, 1890, 13.

(٣٥) E. A. Budge, Cook's Handbook for Egypt and the Sudan, 2nd. ed. (London 1906), 427.

(٣٦) Budge, Cook's Handbook, 427 - 28.

(٣٧) James, Excavating, 29 - 30.

(٣٨) Dia Abou-Ghazi, "The Journey of the Egptian Museum From Boulaq to Kasr e-Nil" ASAE 67 (1991), 16.

(٣٩) الأرشيف الفرنسى ، وزارة الخارجية ، نانت ، رسالة من وزير التعليم للخارجية .

(٤٠) On de Morgan, see Who Was Who 3 : 297.

(٤١) David, Maspero, 188 - 90.

(٤٢) Sayce, Reminiscens, 306.

(٤٣) Werren R. Dawson, "Letters from Maspero to Amelia Ed wards" Journal of Egyp- tian Archaeology 3 (1947), 76.

(٤٤) Petrie, Seventy Years, 183; on Loret, see Who Was Who 3 : 260.

(٤٥) Petrie, Seventy Years, 186.

(٤٦) الأرشيف الفرنسى ، وزارة الخارجية ، نانت ، رسالة من القنصل بالقاهرة إلى الخارجية بتاريخ ١٦ مارس ١٨٩٨ .

(٤٧) Grange, "Archéologie", 356.

(٤٨) Sayce, Reminiscences, 306; David, Maspero, 192 - 201.

(٤٩) دار الوثائق القومية ، مضابط مجلس الوزراء ، نظارة الأشغال العمومية ، مصلحة الآثار ، أ ٣ / ٤ ، متاحف ١٨٧٩ - ١٨٩٠ ، مذكرة جريبو ٢٢ نوفمبر ١٨٩٠ ، انظر ترجمة أحمد كمال ، المقتطف ٦٣ ، (نوفمبر ١٩٢٣) ٢٧٣ - ٢٧٧.

(٥٠) اختلفت المصادر فى تحديد تاريخ مولده ، فذكرت عام ١٨٤٩ ، وعام ١٨٥١ ، ولكننا نرجح عام ١٨٥١ .

(٥١) تذكر إليزابيث داڤيد فى ترجمتها لمارييت باشا (باريس ١٩٩٤) ، ٢٤٨ أن ماريبت طلب أن يحل أحمد كمال محل مترجمه القديم ، وذلك فى ٢٥ فبراير ١٨٨٠ .

(٥٢) دار الوثائق القومية ، مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الأشغال العمومية ، مصلحة الآثار ، أ / ١ / ٤ متاحف ١٨٧٩ - ١٩١٤ ، مدرسة الآثار ١٨٨١ - ١٨٨٦ ، مذكرة بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٨٨١ .

(٥٣) دار الوثائق ، المصدر السابق ، وثيقة ٩٩ بتاريخ ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

(٥٤) دار الوثائق ، المصدر السابق ، رقم ٤٠٦ ، ٢١ يوليو ١٨٨٦ .

(٥٥) دار الوثائق ، المصدر نفسه ، رقم ٣٢١ ، ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥ ، مفتشو الدرجة الثانية هم: على حبيب ، وأحمد كخيا ، ومحمد مرزوق ، وتادرس ، وموتفيان ، وأحمد الساقى . ومفتشو الدرجة الثالثة هم : محمد شعبان ، وأحمد نجيب ، ومحمود حمدى ، وعبد الرحمن فهمى ، وحسن حسنى .

(٥٦) دار الوثائق ، المصدر نفسه ، رقم ٤٥٤ ، ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥ .

(٥٧) دار الوثائق ، المصدر نفسه ، رقم ١٦ ، ٢١ فبراير ١٨٩١ .

(٥٨) دار الوثائق ، المصدر نفسه ، ٤ / ٣ ب ، ٢٨ أكتوبر ١٨٩٢ .

(٥٩) توفيق حبيب « تاريخ الكشف عن الآثار المصرية وأعمال المرحوم أحمد كمال باشا » ، الهلال ، ٣ (نوفمبر ١٩٢٣) ، ١٣٥ - ١٤١ .

(٦٠) On Daressy and Quibell, see, Who Was Who 3 : 116, 435.

(٦١) عن أحمد نجيب انظر : الموسوعة المصرية ، تاريخ مصر القديمة وآثارها ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى (القاهرة د.ت) ، ٨٢ ، وكذلك Who Was Who 3, 306.

(٦٢) Gaston Maspero, Reports Sur la marche du Service des antiquités de 1899 à 1910 (Caro, 1912) xxiii - xxvi.

(٦٣) Nicolas Grimal, "L'institut d'Egypte et l'institut Française d'aechéologie Orientale", Bulletin de L'institut d'Egypte 70 (1989 - 90) 29 - 42.

(٦٤) Bulletin de L'institut d'Egypte, ser. 3, Fasc. 1 (1890) 219 - 24.

(٦٥) حول سيرة حياة يعقوب أرتين ، راجع : Stevenson بأرشيف متحف جامعة بنسلفانيا ، محفظة ١ ، ملف ٢ ك ، وحول حسين فخرى ، راجع :

Goldschmidt Jr., Biographical Dictionary of Modern Egypt (Boulder, Colo., 2000), 52.

(٦٦) " Daninos", Who Was Who 3 : 115.

(٦٧) Bulletin de L'institut d' Égypte, ser.5, Fasc. 3 (1909), 176 -77.

(٦٨) Thomas Cook Archives, Excur sionist, 25 May (1889).

(٦٩) هذه المعلومات مستقاة من مراسلات القنصل الفرنسى بالقاهرة المودعة بالأرشيف الفرنسى ، وزارة الخارجية ، نانت .

(٧٠) Richard D. Mandrell, The Great World;s Fair (Torinto, 1967).

(٧١) John Wesley Hansen. Official History of the Fair, Saint Louis (St. Louis,1904), 51.

(٧٢) أسقطنا هنا الاجتماعات التى غلبت عليها أعمال الهواة وليس العلماء (لندن ١٨٩١ - لشبونة ١٨٩٢م) .

(٧٣) المعلومات حول المشاركين فى المسابقة استقاها المؤلف من خطاب شخصى تلقاه من إريك جادى فى ١٦ يناير عام ٢٠٠٠م ، وعن نتيجة المسابقة من مراسلات القنصل العام الفرنسى مع وزارة الخارجية .

(٧٤) Zeynep Çelik, The Remaking of Istanbul : Portorait of an Ottoman City in 19th Century (Seattle, 1986), 126.

(٧٥) James J. Sheehan, Museums in the German Art World from the End of the Old Regime to the Rise of Modernism (Oxford, 2000).

(٧٦) Jean - Marcel Humbert, Michel Pantazi and Christiane Ziegler. gler Egyptomania : Egypt in Western Art 1739 - 1930 (Ottawa,1994).

(٧٧) Humbert, Egyptomania, 334.

(٧٨) Humbert, Egyptomania, 334 - 36.

(٧٩) Humbert, Egyptomania, 342.

(٨٠) E.A. Wallis Budge, The Nile : Notes For Travellers in Egypt, 4th. ed., (London 1895), 154.

فيما يتصل بقصر الجيزة ، راجع كتاب نهال تمراز :

Nihal S, Tamraz, Nineteenth. Century Cairene Houses and Palaces (Cairo, 1998), 30.

(٨١) Metcalf, Imperial Vision, 176 - 210.

(٨٢) Çelik, Remaking of Istanbul, 139 - 40.

(٨٣) J. S. de Sacy, "Dourgnon" Dictionnaire de biorgraphie Francaise (Paris, 1933), II (1967), 691.

(٨٤) أحمد شفيق ، مذكراتي في نصف قرن (القاهرة ١٩٣٦م) المجلد ٢ ، الجزء الأول ، ٢٤٣ .

(٨٥) الأرشيف الفرنسي ، وثائق الخارجية ، نانت ، مراسـلات من دى مورجـان ، وبورنو للخارجية الفرنسية (١٨٩٤ - ١٨٩٦م) .

(٨٦) Maspero, Rapports., 1899 à 1910, v-vi.

(٨٧) Maspero, Rapports ... 1899 à 1910, xx-xxii.

(٨٨) حول وجهات النظر الفرنسية ، راجع : وثائق الخارجية الفرنسية ، مراسلات القنصل العام بالقاهرة إلى الخارجية .

(٨٩) See Pamphlet Cérémonie d'inauauguration du monument (IFAO 1904)..

(٩٠) Egyptian Exploration Fund, Report on the 23rd Meeting 1908 - 1909 (London 1909), 18.

(٩١) David, Maspero, 225 - 27.

(٩٢) Fo 633/201 pp. 123 - 26, 131, 256 - 57, December 1911.

(٩٣) Maspero, Rapports ... 1899 à 1910, viii - xxx.

(٩٤) C. Traunecker and J. - C. Golvin, Karnak, (Paris 1989).

(٩٥) Maspero, Rapports ... 1899 à 1910, XIii, 25.

(٩٦) Grange, "Archeologie", 369 0 70.

(٩٧) Fo 633/23/p. 36, Maspero to Cromer, 12 May 1914.

(٩٨) On Ebers and Dumichen, see, Who Was Who 3, 136, 131 - 32.

(٩٩) حول أعمال التنقيب الألمانية والإنجليزية والفرنسية فى آسيا الصغرى والعراق والشام ، راجع : وثائق الخارجية الفرنسية – أرشيف نانت .

(١٠٠) Volkmar Fritz, "Deutche Orient - Gessellschaft"; Oxford Ency. of Archaeology in the Middle East, 5 Vols (N.Y. 1957) 2 : 146 - 47.

(١٠١) Fo 141/440/206, Reisner to Allenby, 24 September 1921.

(١٠٢) مذكرة بتاريخ ١٧ أبريل عام ١٩٢١م بوثائق الخارجية الفرنسية ، نانت بعنوان Note sur la Situation de l'IFAo.

(١٠٣) On Junker, see Who Was Who 3 : 222 - 23.

(١٠٤) Who Was Who 3 : 377 - 78.

(١٠٥) Donald Reid, Cairo University and the Making of Modern Egypt (Cambridge, 1990), 38 - 39.

(١٠٦) Bruce Kuklick, Puritans in Babylon : The Ancient Near East and American Intellectual Life 1880 - 1930 (Princeton, 1996) .

(١٠٧) Martha Sharp, "Achaeological Institute of America" "Oxford Ency. Of Arch. in the Near East", 1 : 187 - 88.

(١٠٨) Nancy Thomas, ed., The American Discovery of Egypt (Los Angles), 1995, 44.

(١٠٩) Who Was Who 3 : 62, 265, 351 - 52.

(١١٠) James, Excavating, 23 - 24.

(١١١) University of Pennsylvania, University Museum Archives, Curatorial Files, Box 1.

(١١٢) Michael Hoffman, Egypt Before The Pharaohs : The Prehistoric Foundation of Egyptian Civilization (Austinm 1991), 250 - 254.

(١١٣) دار الوثائق القومية ، مضابط مجلس الوزراء ، نظارة الأشغال العمومية ، مصلحة الآثار ١٨٩١ – ١٩٢٢م ، ب/٢/٤ ، بتاريخ ١٣ فبراير عام ١٩٠١م .

(١١٤) دار الوثائق القومية ، محفوظات مجلس الوزراء ، نظارة الأشغال العمومية ، مصلحة الآثار ، ١٨٩١ – ١٩٠٧م ، ب/٣/٤ ، بتاريخ ١٠ يونيو عام ١٩٠٥م .

(١١٥) أسهم من المصريين الآخرين فى مجلة حوليات مصلحة الآثار : حسن حسنى ، وصبحى عارف ، وحكيم أبو سيف ، ومحمود رشدى ، وتوفيق بولس ، وجرجس إلياس .

(١١٦) Maspero, Rapports ... 1899 a xxx - xxxi.

(١١٧) أحمد كمال ، (مترجم) ، الخلاصة الوجيزة ودليل المتفرج بمتحف الجيزة (القاهرة – ١٣٠١هـ) ، ودليل دار التحف المصرية بمدينة القاهرة (القاهرة عام ١٩٠٣م) ، والخلاصة الدرية فى آثار متحف الإسكندرية (القاهرة ١٣١٠هـ = ١٩٠١م) .

(١١٨) Maspero, L'Egyptologie (Paris, 1915), 25 - 26.

(١١٩) Baedekeo, Baedeker' s Egypt (Leipzig, 1897), 95.

(١٢٠) من أعمال أحمد كمال العربية غير ما ذكر آنفًا : ترويح النفس فى مدينة الشمس (القاهرة ١٨٧٩ – ؟؟؟؟) ، والعقد الثمين فى محاسن أخبار وبديع آثار الأقدمين من المصريين (القاهرة ١٨٨٢ – ١٨٨٣م)، والفرائد البهية فى قواعد اللغة الهيروغليفية (القاهرة ١٨٨٥ – ١٨٨٦م) ، والدر النفيس فى مدينة منفيس (١٩١٠م) ، وبغية الطالبين فى علوم وعوايد وصنائع وأحوال قدماء المصريين (١٣٠٩) ، واللآلى الدرية فى نباتات وأشجار القدماء المصريين (١٣٠٦) .

(١٢١) أحمد نجيب ، القول المفيد فى آثار الصعيد ، والآثار الجليلة لقدماء وادى النيل (القاهرة عام ١٨٩٥م) ، وعن أحمد نجيب ، راجع : إلياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة عام ١٩٢٨م) ، ٤٠٢

(١٢٢) حول محاضرات أحمد كمال ، راجع : حبيب « تاريخ الكشف » ، ١٣٧

(١٢٣) أحمد كمال ، الحضارة القديمة ، المجلد الأول (القاهرة عام ١٩١٠م) ، ويبدو أن المجلد الثانى لم ينشر .

(١٢٤) أرشيف جامعة القاهرة ، ب/ف ، محاضر اللجنة الفنية ، ٢ مايو عام ١٩٠٨م .

(١٢٥) أحمد كمال ، الكنز الثمين فى محاسن أخبار وبدائع القدماء المصريين ، ٣ ، ٤

(١٢٦) المقتطف ٦٣ (١٩٢٣م) ، ٢٧٥ – ٢٧٦

(١٢٧) Alain Roussillon, Entre Reforme Sociale ... 344 - 45.

(١٢٨) "Egypt", Scott 1991 Standard Postage Stamp Catalogue (Sydney. Ohio, 1990) 2 : 86; Standard Catalog Of World Paper Money vol 2, General Issues to 1960 (Iola, Wis., 1996), 373 - 74.

(١٢٩) Alfred J. Burtler, Court Life in Egypt (London 1887), 8 - 31.

(١٣٠) James Baikie, A Century of Excavation in the Land of the Pharaohs, London, n.d.), 161 - 62.

(١٣١) أحمد شفيق ، مذكراتى ، ١ : ٥٠٢ – ٥٠٩

(١٣٢) الأرشيف الفرنسى ، وثائق الخارجية ، نانت ، ١٦ فبراير عام ١٨٩١م .

(١٣٣) Thoma Cook Archives, Egypt (General), Nile fleet/153.

(١٣٤) Mounah A.Khouri, Poetry and the Making of Modern Egypt (1882 - 1922) (Leiden, 1971), 20.

(١٣٥) Prince Ibrahim Hilmy, The Literature of Egypt and the Soudan From the Earliest Times to the Year 1885, 2 vols. (London, 1886) 1 : vi.

(١٣٦) محمد المويلحى ، حديث عيسى بن هشام .

(١٣٧) أحمد شوقى ، الأعمال الشوقية الكاملة . ٤ أجزاء فى مجلدين (بيروت عام ١٩٨٨م) .

(١٣٨) أحمد حسن ، لب عن التاريخ العام (القاهرة عام ١٨٨٨م) ؛ حسين زكى ، تاريخ الأمم القديم (القاهرة عام ١٨٩٢م) : إلياس سركيس ، معجم المطبوعات ، ٣٨٢ ، ٧٧

(١٣٩) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ٣ مجلدات (القاهرة عام ١٨٩٥ – ١٩٢٣م) .

(١٤٠) ميخائيل شاروبيم ، رقيب على أحداث مصر : حوليات مصر السياسية (١٨٧٩ – ١٨٨٢م) ، تحقيق برنان لبيب (القاهرة عام ١٩٩٢م) ، ٩ – ١٠

(١٤١) ميخائيل شاروبيم ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ٤ مجلدات (القاهرة عام ١٨٩٨ – ١٩٠٠م) ١ : ٢٤

(١٤٢) شاروبيم ، الكافى ، ١ : ٤١

(١٤٣) شاروبيم ، الكافى ، ١ : ٨٩ – ٩٧

(١٤٤) شاروبيم ، الكافى ، ١ : ٦١ ، ٦٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٤١ ، ١٤٣

(١٤٥) سلامة موسى ، تربية سلامة موسى .

(١٤٦) Charles Wendell, Evolution, 265, 267.

(١٤٧) Wendell, Evolution, 272.

(١٤٨) الجريدة ، ٨ ديسمبر عام ١٩١٢م .

(١٤٩) كان المقرر الذى قدمه محمود فهمى استثناء فى هذا الصدد ، أرشيف جامعة القاهرة (ى ٦ / ف ٨٧) .

(١٥٠) عن حمزة وسليم حسن ، انظر : Who Was Who 3; 189, 192 - 193

(١٥١) BIE Ser. 5, 10, Fa Sc 1. (1916) 133 - 76.

(١٥٢) BIE Ser. 5, 10, Fa sc 2 (1916) 359 - 60, 192 - 93.

(١٥٣) BIE Ser. 5, 11, Fa sc 1 (1917) 331, 325 - 38.

الفصل السادس

الفن الإسلامي والآثار والاستشراق
لجنة حفظ الآثار وعلي بهجت

« لم تبلغ أي أمة الدرجة العالية التي بلغها العرب في العمائر الحجرية ، وبراعتهم في البناء لا يعادلها سوى عدم اهتمامهم بالحفاظ على ما قاموا ببنائه . . . فبمجرد أن ينتهي بناء مسجد أو قصر ، يتركونه (دون صيانة) حتى ينهار . . . والأتراك هم أقل الأمم على وجه الأرض احتفالاً بالفن ، لقد بنى محمد علي ، وعباس باشا ، وسعيد باشا ، وإسماعيل باشا جدرانًا أكثر مما فعل جميع من سبقوهم ، ولكن أي نوع من الجدران تلك ، يا سبحان الله ! لو كان أحدهم قد ألهم فكرة إقامة قصر على الطراز العربي ! . . . لوجد حوله أخيرًا كل أنواع الحفر على الخشب البديعة الصنع ، والسقوف ذات الزخارف الملونة والتصميم المتقن ، والمشربيات الرقيقة الأنيقة التي تحاكي أرق الخيوط . ولكنهم أهدروا هذه الكنوز التي كان يمكن جمعها بأقل جهد ممكن . . . ولكنهم الأتراك . . . حاقت بهم لعنة إله الفنون ! »

Gabriel Charme, Cinq Mois au Cairo et dans la Basse - Égypte.

عبَّر الصحافي الفرنسي جابرييل شارم عن آرائه تلك عام ١٨٨٠ ، قبيل تأسيس « لجنة حفظ آثار الفن العربي » ، والاحتلال البريطاني لمصر ، ويبدو أن تلك الآراء قد فصلت على قياس إدوارد سعيد . فشارم يعظم من شأن الفن « العربي » ، بينما ينتقد صنّاعه انتقادًا مرًا ، ويصب اللعنات على الأتراك لتهافت الذوق الفني عندهم ، ويهاجم أسرة محمد علي التي تحكم مصر لإهمالها الحفاظ على الموروث

التاريخى [١] . فالتدخل الأوروبى وحده كفيل بإنقاذ الموقف . فبالنسبة لشارم يسير الاستشراق ، والإمبريالية والحفاظ على التراث التاريخى معًا ، يدًا بيد .

ويبدو أن هذا الفصل الذى خصصناه لدراسة التواصل الأوروبى - المصرى فى لجنة ومتحف الفن العربى ، يدعم نظرية إدوارد سعيد ، ولكن الأدلة التى يقدمها تبدو أقرب إلى مؤرخين من أمثال : چون ماكنزى ومارك كرينسون ، الذين يرون الحاجة إلى معالجة أكثر انفتاحًا للتواصل بين الاستشراق والشرق ، تقوم على أسس تاريخية [٢] . فالإمبريالية فى مصر لم تكن وحدانية الطابع ، والأوربيون من أعضاء « لجنة حفظ آثار الفن العربى » لم يكونوا - ببساطة - أدوات فى خدمة النزعات الإمبريالية لبلادهم . فقد جاءت الشخصيات الرئيسية فى اللجنة فيما بين ١٨٨١ - ١٩١٤ من بلاد ليس لها فى مصر سوى تطلعات إمبريالية متواضعة ، ونعنى بذلك الألمانى يوليوس فرانتز ، والنمساوى - المجرى ماكس هرتز .

وعلى الجانب المصرى كان على بهجت يماثل أحمد كمال ، ولكن فى مجال الآثار الإسلامية ومتحف الفن العربى ، وكان عليه أن يناضل - مثل كمال - معركة الصعود بتكوين نفسه كمتخصص فى الآثار الإسلامية فى ظل سطوة الإمبريالية الغربية . وقد انضم على بهجت فى شبابه إلى جمعية سرية ، وكاد يفقد وظيفته نتيجة اصطدامه بمستشار المعارف البريطانى دوجلاس دانلوب . غير أنه تعلم من الأوربيين - مثلما فعل كمال - وعمل بجد واجتهاد لينال اعتراف الأوساط العلمية الدولية .

وعلاقة على بهجت بيعقوب أرتين تعكس التركيبة التى تجمع بين الأصل العرقى ، والعقيدة الدينية ، والوعى الوطنى فى الشرق الأوسط الحديث ، فعلى بهجت مصرى مسلم من أصول تركية ، بدأ حياته العملية فى متحف الفن العربى برعاية أرتين ، الأرمنى المتمصر الكاثوليكى ، وصديقه ورئيسه الوزير حسين فخرى . وقد يرفض الوطنيون أرتين وفخرى باعتبارهما من المتعاونين مع الإمبريالية ، ولكنهما أنقذا على بهجت من طغيان دانلوب ، ووجهاه نحو مستقبل لامع فى الفن والآثار الإسلامية .

وعمل على بهجت تحت رئاسة ماكس هرتز النمساوى - المجرى رئيس لجنة حفظ آثار الفن العربى ، وأمين متحف الفن العربى ، الذى انتهت خدمته فجأة عند وقوع

الحرب العالمية الأولى ، لأنه أصبح عدواً - فى أعين الإنجليز - بحكم كونه من رعايا دولة معادية لبريطانيا . وكان بهجت قد بدأ بالفعل حفائره فى الفسطاط - أول حاضرة عربية - إسلامية لمصر - تلك الحفائر التى ستجعل من بهجت رائداً للآثار الإسلامية ، وبرحيل هرتز أصبح بهجت مرشحاً ليكون أول مصرى يدير متحف الفن العربى .

وتمثل منشورات « لجنة حفظ الفن العربى » ، التى لم يهتم أحد بالرجوع إليها عند دراسة تاريخ مصر الثقافى ، تمثل مصدراً أساسياً لهذا الفصل . فقد احتفظ أوربيون من أعضاء اللجنة بمحاضر تغطى الكثير من تاريخها ، ولكن الأمر يتطلب قراءة فاحصة للتعرف على وجهات نظر المصريين من الأعضاء .

وكان اختيار المصطلح فى هذا الفصل محيراً ، ترى هل من الأفضل استخدام مصطلح « الفن العربى » الذى شاع منذ البداية ، أو استخدام مصطلح « الفن الإسلامى » الذى لا يعرف سواه اليوم ؟ فى أواخر القرن التاسع عشر ، آثر ستانلى لين پول استخدام مصطلح « فن السراقنة » على استخدام مصطلح « الفن العربى » ، ومصطلح « المحمدى » على مصطلح « المورى » ، وهى جميعاً مصطلحات بائدة اليوم . ولما كان تمييز مارشال هودجسون بين « الإسلامى » و « المتأسلم » لم ينل حظاً من الشيوع ، فلا يبقى أمامنا سوى الاختيار بين « الفن الإسلامى » و « الفن العربى » . واستخدام مصطلح « الفن العربى » يتضمن مخاطرة الاعتقاد بأن العرب ، والترك ، والفرس ، والبربر ، والعناصر الزنجية ، واستخدام المصطلح - أيضاً - يتنافى مع واقع الدولة العثمانية متعددة اللغات والأعراق ، وولاية مصر التابعة لها ، والدول الإسلامية السابقة عليها . وعلى كل ، يثير مصطلح « الفن الإسلامى » اليوم نفس النوع من التساؤلات التى حيرت هودجسون من قبل مثل : هل يستطيع المعمارى أو الحرفى المسيحى أن ينتج فناً إسلامياً ؟ لقد فضل هذا الكتاب عدم الاتساق العرضى على الاتساق السطحى الذى يغلف هذه الإشكالية . وسوف نستخدم مصطلح « الفن العربى » أحياناً عندما نتكلم عن المنظور الأوروبى المبكر لهذا الفن ، ومصطلح « الفن الإسلامى » عندما نتناول ما يعكس المنظور الحالى [٣] .

إرهاصات حفظ الآثار - القاهرة على طريقة هاوسمان :

لو قدر لإدمى فرانسوا چومار أن يزور القاهرة بعد ستين عامًا من رسمه لخريطتها بتكليف من بونابرت ، لما وجد صعوبة فى التعرف على المدينة . وكتب أرثر رونيه عام ١٨٦٣ الذى شهد تولية إسماعيل الحكم : « مدينة القاهرة لا زالت على حالها ، فعلى الأقل استمرت آثارها فى الوقوع - بهدوء - فى وهدة الخراب على طريقة الشرق الأبدية ، وعلى الأقل لم تبذل أى محاولة على طريق الأعمال التى يقال لها [تحسين] أو [ترميم] » (٤) .

ظلت طبوغرافية وسكان القاهرة على حالهما فى حكم محمد على ، على نقيض ما شهده ميناء الإسكندرية من ازدهار ، ورغم التغيرات بعيدة المدى التى حدثت فى عهده . قام محمد على بردم بركة الأزبكية وأزال المصاطب التى تعوق المرور ، وعمل على كنس الشوارع وإزالة النفايات ، ووسّع شارع الموسكى وزاد من طوله ، وبدأ شق شارع محمد على لربط الأزبكية بالقلعة . وأهمل عباس الأول فكرة شق الطرق ، وأضاف ضاحية العباسية العسكرية ، وسمح لشركة بريطانية ببناء الخط الحديدى الذى يربط القاهرة بالإسكندرية . وبدأ العمل فى حفر قناة السويس فى عهد سعيد - وحملت اسمه مدينة بورسعيد - غير أنه لم يدخل تغييرًا جذريًا على القاهرة (٥) .

وتم تغيير ذلك كله على يد إسماعيل ، الذى أدى اهتمامه بالتجديد الحضرى إلى تغيُّر وجه القاهرة ، ووضع أسس إقامة « لجنة حفظ الآثار » ومتحف الفن العربى . وراحت إميليا إدواردز تتحسر - عام ١٨٨٢ - على القاهرة القديمة ، « قبل عشرين عامًا . كانت قاهرة الخلفاء لا تزال كما هى ، فيما عدا عاديات الزمن بمآذنها الجميلة ومساجدها المنمقة ، وأسبلتها العامة ، وبواباتها العريقة ، رغم أنها كانت تتجه ببطء نحو التداعى فى بلد لا يبذل فيه أى جهد لوقف تقدم ذلك التداعى ، غير أنها كانت تبدو بديعة فى حالتها البائسة كما كانت فى أيام عزها » (٦) .

قام مخطط المدن البارون چورچ هاوسمان بمرافقة الخديو إسماعيل عند تفقده باريس الجديدة أثناء المعرض الدولى عام ١٨٦٧ (٧) . وكان على مبارك بصحبة إسماعيل فى تلك الجولة ، ودفع إسماعيل مبارك إلى تقليد عمل هاوسمان بالقاهرة لتناظر باريس نابليون الثالث . وقد ربطت بين إسماعيل ومبارك زمالة دراسة قديمة

عندما كانا معًا فى البعثة الدراسية بباريس فى الأربعينات ، فقاما بإقحام محمود الفلكى الذى درس - أيضًا - بباريس فى الخطة ، فكلف بوضع مخطط لتجديد القاهرة . وتضمن المخطط ميادين محورية تتفرع منها طرق شعاعية ، وحدائق عامة ، مع إنارة الشوارع بالغاز ، ومدها بالمياه ، وإقامة جسر عبر النيل ، وطريق يربط القاهرة بالأهرام ، وحتى دار للأوبرا على نسق لاسكالا فى ميلانو . وعندما استضاف إسماعيل كبار الشخصيات الأوربية لحضور حفلات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، كان باستطاعته أن يطلعهم - على الأقل - على ما ستكون عليه القاهرة التى خطط لها أن تعكس صورة باريس [٨] .

وتضمن حى الإسماعيلية الذى يقع بين الأزبكية والنيل طرقًا متفرعة من ميادين محورية ، وكان ميدان قصر عابدين ذو الطراز الكلاسيكى الجديد ، واحدًا من تلك الميادين . وتدهورت المدينة القديمة المكتظة بالسكان - التى أصبحت تعرف بقاهرة « العصور الوسطى » ، أو « بالإسلامية » أو « بالفاطمية » - عندما تبع علية القوم الخديو فى هجرته إلى الأحياء الحديثة . وكانت طرقها الضيقة غير المنتظمة تعج بالمشاة والدواب ، ولكن العربات ذات العجلات عادت إلى طرقها فى القرن التاسع عشر ، لأول مرة منذ عهد الرومان . وكان محمد على أول من استخدم عربة ركوب ، أوربية الطراز ، فى مدينة القاهرة ، وبحلول عام ١٨٧٥ كانت هناك تسعمائة عربة ركوب بالمدينة ، وضعف هذا العدد من عربات نقل البضائع [٩] . وهنا تم شق الطرق عبر المدينة القديمة لتيسير حركة العربات فيذكر آرثر رونيه :

« يعد شارع محمد على أحد (المنشآت) الكبرى بالقاهرة وموضع الفخر والاعتزاز . لقد خرج كالطلقة من الأزبكية دون أن يدرى أين يذهب ، ووجد نفسه بعد كيلو مترين يصب عند الميدان الذى يحتل جانبًا منه مسجد السلطان حسن الذى لم يستطع تفاديه . وخلال مسيرته جرف فى طريقه تلاً مليئًا بالبيوت والمساجد . . . ولاستكمال هذا الطريق بعد تفاديه مسجد السلطان حسن ، اقتطع ركنًا هائلاً من جامع الأمير قوصون (١٣٢٩) ، أحد أكبر وأجمل المساجد » [١٠] .

وأدان جابربيل شارم الأسرة الحاكمة لإهدارها الناحية الجمالية : « إن ما أخذه إسماعيل باشا على وجه الخصوص - من الفنون يمثل تركيبة غير مستساغة من أكثر

الأساليب الأوربيـة ابتـذالاً ، وأكثر الأسـاليب التركية بشاعة » [١١] . وكان الأوربيون من زوار القاهرة لا يبحثون عن باريس ، ولكن عما استقر في مخيلتهم عن « ألف ليلة وليلة » . وعبر لين بول عن حنينه لإنجلترا المفقودة ، وأمله في القاهرة التي ما زالت تنتمي إلى العصور الوسطى ، ولكنه أضاف :

« إن من حق الفنانين وعشاق القديم ، الذين يهتمون مثلي بالماضي أكثر من اهتمامهم بالمستقبل ، أن يشعروا بالأسى لتلك التغيرات التي تتم في مصر بتأثير الأوربيين ، ولكن . . . هذه التغيرات لا يمكن تفاديها ، وتعد محاولة سد الطريق في وجه تلاشي النظام القديم في القاهرة مضيعة للوقت ، تمامًا كما لو كنا نحاول تبديد انتصار الديمقراطية المعيبة في إنجلترا » [١٢] .

وحتى عندما حاول إسماعيل أن يبعث السرور في نفوس الأوربيين بترميم الآثار ، لم يحقق نجاحًا ، وفي ذلك تقول إميليا إدواردز :

« هناك طريقتان تتبعان في الترميم : أولهما أن يهدم البناء القديم ثم يعاد بناءه على أساس تقليد الأسلوب الإيطالي القوطي ، والأخرى أن يهدم جزئيًا ، وتنزع الزخارف الخشبية المحفورة من السقوف ، وينزع البلاط القيشاني الجميل من الحوائط ، ثم يوضع مكانها الأسمنت والجص ، وإحاطة الأخير بشرائح من الجرانيت المصقول أو الرخام . وفي كلتا الحالتين يباع البلاط للسياح وتجار الآثار ، وتتحول الزخارف الخشبية المحفورة إلى وقود للعمال . . . وقد تم ترميم مسجدي السيدة زينب والحسين حسب الطريقة الأولى ، وتقدم مساجد قيصون ، والمؤيد ، واليوسفي ، وأزبك ، كنماذج للطريقة الثانية » [١٣] .

وكان شارم أقسى في انتقاده :

« ربما كان التدمير الخالص والبسيط أفضل مائة مرة ! لأننا نستطيع أن نرى الرخام النادر بمسجد السلطان حسن يغطى بطلاء زائف يمثل الرخام . . . فقد قام وزراء إسماعيل بطلاء الآثار الرئيسية للفن العربي بهذا الطلاء البشع لاستقبال ضيوف احتفالات قناة السويس . اللهم اغفر لهم ، فهم لا يدرون ما يفعلون » [١٤] .

حفظ المواقع التاريخية فى أوروبا ، وتقدير الفن العربى :

كان ثمة اتجاهان فى أوروبا ، مهدا الطريق لقيام لجنة القاهرة ومتحف الفن العربى ، هما : حركة الحفاظ على المواقع التاريخية ، وزيادة تقدير الفن « العربى » . فقد أطلقت التغيرات التى خلفتها الثورتان الفرنسية والصناعية ، شعوراً قوياً بالحنين إلى الماضى ، تمثّل فى الدعوة إلى الحفاظ على المواقع الأثرية . وسعى فرانسوا جيزو – وزير لوى فيليب – إلى التماس الشرعية لملكية يوليو بدعم مزيج من ذكريات الثورة ، ونابليون ، والنظام الملكى القديم . وعينت الحكومة الفرنسية مفتشاً للآثار التاريخية عام ١٨٣٠ ، وأنشأت عام ١٨٣٧ « لجنة الآثار التاريخية » . وقد كانت جهود ڤيكتور هوجو وراء إقامة هذه اللجنة ، وخدم الروائى بروسپير ميريميه كبيراً للمفتشين باللجنة . وخاض أوچين إيمانويل ڤيوليه لودوك – كبير المعماريين باللجنة – معركة لإحياء الطراز القوطى فى العمارة ضد دعاة النزعة الكلاسيكية الجديدة الذين اتخذوا من « مدرسة الفنون الجميلة » ، ومجلس مبانى الدولة موقعاً لهم . وكانت فلسفة ڤيوليه لودوك ترمى إلى انتزاع الإضافات المتأخرة الغريبة من الأثر ، وأن يتم – عند الضرورة – إعادة بناء أجزاء منه مطابقة للنمط الأصلى .

وبحلول الخمسينات ، اضطر هاوسمان نفسه أن يقدم بعض التنازلات إزاء المواقع الأثرية عند إعادة تخطيط باريس (١٥) . وفى عام ١٨٨٧ ، صدر أول قانون فرنسى يجيز نزع ملكية المنشآت الخاصة ذات الطبيعة التاريخية .

ولم تعرف بريطانيا التى تبنت حرية العمل ، لجنة مماثلة للجنة الفرنسية للآثار التاريخية ، ولكن قام وليام مورس وبعض أتباع چون راسكين بتشكيل « جمعية الآثار القديمة » عام ١٨٧٧ . ودعا راسكين إلى ترميم الآثار وإبقائها على حالتها الراهنة ، متأثراً فى ذلك بڤيوليه لودوك . وفى العام ١٨٨٢ أنشأت بريطانيا « تفتيش الآثار القديمة » برئاسة اللفتنانت جنرال پت ريڤرز (١٦) ، وذلك بعد فرنسا بنصف قرن من الزمان . وتبع ذلك صدور قانون ضعيف لحفظ المواقع التاريخية عام ١٨٣٣ ، ولم يصدر قانون حازم لهذا الغرض إلا عام ١٩٣١ . وقد استوردت القاهرة اللجنة متأثرة فى ذلك بالنموذج الفرنسى ، مثلما كانت الحال بالنسبة للكثير من المؤسسات ، ولم يكن هناك بديل بريطانى فى الأفق بعد (١٧) .

كانت الإشارات الضمنية عن الكتاب المقدس ، والكلاسيكيات والفراعنة فى الفن الغربى ، جزء من سعى الغرب إلى الماضى الذى يدور فى مخيلته . فالأفكار الفنية التى صوَّر بها العرب أو الترك أو الفرس ، أبرزت - على النقيض - « الآخر الشرقى » الذى يكن مختلف صنوف العداء ، كما يعد غريبًا . فقد أضاف الرحالة المبشرين الكاثوليك إلى جولاتهم الدينية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، زيارة الخرائب الفرعونية والكلاسيكية ، ولكنهم نفروا من زيارة المساجد ، واعتبروها معاقل شاذة للتعصب والهرطقة ، وحتى لو أرادوا زيارة المساجد لم يكن مسموحًا - عندئذ - لغير المسلمين بدخولها . وقد شذ عن ذلك القنصل الفرنسى بينوا دى ماليه والفنان لوى فرنسوا كاساس اللذان أبديا تقديرهما لمساجد القاهرة ، وهو أمر مألوف فى القرن الثامن عشر . فقد كتب دى ماليه : « إن المرء لا يستطيع أن يبدى إعجابًا كافيًا بجمال تلك القباب ، وعظمتها ، ونسبها الهندسية ، وشموخها ، والفخامة المدهشة لبعضها . والزخارف الداخلية التى تزينها لا تقل جدارة بالاهتمام ، بعضها يتخذ طابع الإفريز (الكرانيش) ، والبعض الآخر يمثل زهورًا متداخلة ، وبعضها من الخشب المعشق ... »[١٨]. وعلى كلٍّ ، حذف دى ماليه من لوحاته المبانى الإسلامية ، وعبر عن ذوق كلاسيكى متحفظ ، عندما اقترح نقل عمود بومبى من الإسكندرية إلى باريس ، وليس مسلة كيلو باترا المغطاة بالنقوش الهيروغليفية التى قام برسمها . وكانت الأخيرة هى التى جذبت اهتمام خلفائه فى القرن التاسع عشر .

وبين كتاب دينون « رحلة إلى مصر » (١٨٠٢) المساجد مظللة على البعد [١٩] . وتضمن « وصف مصر » لوحات تفصيلية عن مسجد السلطان حسن ، وغيره من المساجد ، ولكن النص لم يحتو إلا على القليل عن العمارة الإسلامية . ويشكو شارم من أن « رفاق بونابرت » شغفوا بالخرائب الكلاسيكية والفرعونية ، ولكنهم « ذكروا القليل عن قيمة آثار القاهرة التى وردت باللوحات . . . وعندما صوَّروا مسجد السلطان حسن ، نسوا شيئًا واحدًا : الإفريز العظيم الذى يتوج هذا الصرح » [٢٠] . ويأتى غياب القاهرة الإسلامية من لوحة الغلاف لوصف مصر مؤكدًا لهذه النقطة .

ومع مرور عقود القرن التاسع عشر ، كان ثمة نوعان - على الأقل - من الاستشراق سعيًا وراء فهم جوهر الثقافة الإسلامية . وأحد هذين النوعين كان إدوارد

وليم أستاذًا فيه ، يقوم على فهم المجتمع الإسلامى من خلال النصوص العربية مثل القرآن ، وألف ليلة وليلة ، والنوع الآخر يتمثل فى الرسم والتصوير الفوتوغرافى ، ورسم العمارة والشوارع ، والطبيعة ، والأشخاص (وتصوير غالبًا « نماذج » عرقية) . وكانت كلمة « مستشرق » عند الفرنسيين تجمع بين الرسام والعالم . ورغم أن لين استخدم النصوص الأدبية لفهم جوهر المجتمع الإسلامى والمصرى ، فقد قدم الكثير من الرسومات . ويعتمد كتابه « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » على وسيلة استشراقية ثالثة هى التحقيق الشفاهى والملاحظات الإثنوغرافية [٢١] .

وقد اكتسبت « ألف ليلة وليلة » شعبية فى الغرب بفضل ترجمتها الفرنسية التى قام بها أنطوان جالاند (١٧٠٤ - ١٧١٧) ، وما تلا ذلك من ترجمتها عن الفرنسية إلى الإنجليزية ، ورجع كل من إدوارد وليم لين ، وريتشارد بيرتون إلى النص العربى عند قيامها بتقديم ترجمات منافسة للترجمة القديمة (نشرت فى ١٨٣٨ - ١٨٤١ و١٨٨٥ على التوالى) ، وقد قام لين بحذف الفقرات التى تناولت مشاهد جنسية صريحة ، أما بيرتون فقد أبقى عليها . وقام ستانلى لين پول فيما بعد بفصل ملاحظات عمه العظيم لين التى كتبها باستفاضة فى حواشى ترجمته لألف ليلة وليلة عن نص الترجمة ، وأعاد نشرها بعنوان : « المجتمع العربى فى العصور الوسطى : دراسات من ألف ليلة وليلة » (١٨٨٣) . وفى مجال الحديث عن التجارب الشخصية فى القاهرة ، أعلن لين پول أن إدوارد وليم لين « لم يقع فى أى مفارقات تاريخية : لأن المجتمع العربى الذى تحرك فيه صلاح الدين ، وبيبرس ، وبرقوق ، وقايتباى . . . بقى غالبًا على حاله دون تغيير حتى عصر محمد على ، عندما قضى السيد لين سنوات طويلة من العلاقات الحميمة مع سكان القاهرة . . . إن استمرارية التقاليد الاجتماعية العربية لم تنقطع عمليًا فى الغالب منذ بداية الخلافة حتى القرن الحالى . . . » [٢٢] . ومع وجود علماء يروجون لفكرة جمود الزمن فى الشرق ، ندر أن نجد سائحًا يكتب خطابًا لأسرته عن القاهرة المعاصرة دون أن يتمثل « ألف ليلة وليلة » .

ولعل تقدير الأوربيين للفن الإسلامى والعمارة الإسلامية لم يزدهر إلا عندما أرَّخوا لها ، واعتبروها من « العصور الوسطى » وقد صنف « وصف مصر » الآثار الإسلامية على أنها « حديثة » فوضعها ضمن « الدولة الحديثة » وليس « القديمة » . وجاء ابتداع

مصـطلح « أوروبا العصور الوسطى » فى القرن التاسع عشر ليفترض قياسًا على ذلك « إسلام العصور الوسطى » ، وبذلك لم تعد « الآثار العربية (أو الإسلامية) » تبدو متناقضة [٢٣] .

لم يحظ المستشرقون الفنانون من أمثال أوچين ديلاكروا ، وچان ليوجيروم ، وهنرى ماتيس ، بالاهتمام إلا فى وقت متأخر ، ولكن ما يهمنا هنا هم الفنانون الذى جاء تناولهم للعمارة الإسلامية بالقاهرة موثقًا بصورة قوية . فابتداء من الثلاثينات قـدمت الكتب التى حـفلت بالرسـومات توثيقًا تفصيليًا للفن « العربى » الذى أغفله « وصف مصر » ، وكان لكتاب پاسكال كوست «العمارة العربية أو آثار القاهرة » (باريس ١٨٣٩) فضل الريادة فى هذا المجال ، تخرج كوست فى « مدرسة الفنون الجميلة » ، والتحق بخدمة محمد على عام ١٨١٧بتوصية من چومار ، وأصبح فيما بعد كبير المعمارين فى حكومة الباشا ، فحصل على أمر من محمد على يصرح له بدخول وقياس ورسم مساجد القاهرة دون أن يعترض طريقه أحد [٢٤] . وقد زين صفحة غلاف الكتاب برسم لمنظر طبيعى للقاهرة على ضفة النيل ، وهو ما تجاهله « وصف مصر » (انظر الشكلين رقم ١ ورقم ٣٨) .

وتبع ذلك صدور كتاب روبرت هاى « تصاوير القاهرة » (١٨٤٠) ، ثم كتاب داڤيد روبرتس الشهير « مصر والنوبة » (٣ مجلدات ، ١٨٤٦ - ١٨٤٩) وأتاحت السنوات التى قضاها چون فردريك لويس بالقاهرة فى الأربعينات فرصة مواتية له لتسجيل مناظر الشوارع والأحوال الداخلية للقاهرة . وأسهم الفرنسيون بعمل پريس داڤين « الفن العربى استنادًا إلى آثار القاهرة » (٣ مجلدات ، ١٨٧٧) وفيما يتعلق بالآثار الإسلامية خارج مصر تأتى دراسة أوين چونز للحمراء بالأندلس (١٨٤٢ - ١٨٤٥) التى كان لها تأثيرها الخاص . وأدى ارتفاع أسعار تلك الكتب وضخامة حجمها إلى قصر اقتنائها على المكتبات والأثرياء . وفى منتصف القرن ، انضمت الفوتوغرافيا إلى الرسم فى تسجيل صور الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية وبحلول عام ١٨٩٠ حملت « مناظر الشلن » وبطاقة البريد التى تباع ببنس واحد صور مواقع القاهرة الإسلامية إلى دائرة أوسع من المتلقين [٢٥] .

وحتى محبى الفن الإسلامى من أمثال شارم ، ولين پول ، ويوليوس فرانتز كشفوا عن تحاملهم على الحضارة الإسلامية التى كانت فادحة العيوب ، فيعتــرف فرانتز بأن « إعجابنا بتناسق وذوق الزخارف التى لا تدانيها أى مدرسة فى العمارة ، لا يتوازن مع شعور بعدم الارتياح من الناحية الجمالية . . . إن السبب الرئيسى الذى جعل الفن العربى يعجز عن الوصول إلى مستوى رفيع من التطويع الفنى – على نحو ما نرى فى الزخارف – يجب أن نلتمسه فى الانهيار المبكر لإمبراطورية الخلافة العظيمة ، وفى الظروف السياسية التى أعقبت انهيارها ، واتسمت بالاضطراب ، وإلى الاتجاه الذى يتميز به الشرق الذى يفضل التمسك بالأشكال القديمة ، وعدم الميل إلى تغيير ما تم إنجازه من قبل . ولكن الكثير من الأرابيسك قد يكون مثيراً ، ومهما كان تأثيره على الفن الصناعى ، فلازلنا نفتقد فيه تصوير الكائنات الحية التى تتطلب ذكاءً وحماساً فعالاً » (٢٦) .

وتسبب إعجاب الأوربيين بالآثار الإسلامية – كما كانت الحال بالنسبة للآثار الفرعونية – إلى إسراع وتيرة دمارها . ويشكو شارم من أن « هواة الفن العربى المفرطين فى الحماس » يفقدون مساجد القاهرة مشكاواتها الزجاجية ، ومنابرها المطعمة بالعاج . واستنكر لين پول ما يفعله « السياح الهمج بحكم طبيعتهم وعملهم ، الذين لا يتوانون عن تدمير كل شيء ليأخذوا معهم تذكاراً لرحلتهم إلى البرابرة من أهلهم » (٢٧) .

الإمبريالية ومولد لجنة حفظ الآثار العربية :

أشاد جبرييل شارم بإفلاس إسماعيل – الذى كان كارثة عند المصريين – لأن ذلك الإفلاس يعوق إنجاز مشروعات التجديد الحضرى التى تؤدى إلى تدمير الآثار ذات القيمة الفنية العالية . ورأى شارم أن السيطرة الأوربية وحدها هى التى تستطيع الحفاظ على آثار القاهرة ، وأن البلد الذى يهمل آثاره لا يستحق الاستقلال ، ورأى أنه :

« من الواضح أن مصر تسعى لتفادى الصدمات التى تهدد الشرق ، وواجبه الأول (يقصد توفيق) أن يربط القوة الجديدة لأسرة محمد على بالتراث الوطنى العظيم المديد . . . فاليونان يبذلون أقصى الجهد حتى يجعلونا نصدق أنهم من سلالة بركليز وفيدياس ، فلماذا لا يحاول المصريون إقناع العالم بأنهم من سلالة صلاح الدين وقايتباى ، والسلطان حسن ؟ لقد فعلت الأكروبولس الشىء الكثير لتحقيق استقلال اليونان ، أكثر مما فعلته الأشياء الأخرى . . . فبفضل كنارس واللورد بايرون كان من حق تلك المملكة الهلينية الصغيرة أن تحظى برعاية أوروبا ، فلماذا لا تجلب مساجد القاهرة نفس هذه الخدمة لمصر ؟ وعندما يتم ترميم تلك المساجد يصعب إنكار حق بلد ، قادر على الحفاظ على تلك الأعمال ، فى الاستقلال » (٢٨) .

ولما كان شارم وطنياً فرنسياً ، لم يكن انفراد بريطانيا باحتلال مصر هو ما يعنيه بالطبع ، فقد احتل البريطانيون مصر ، بعد احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ ببضعة شهور . وعبر زاڤييه شارم – الضابط الفرنسى الكبير ، شقيق جابرييل – عن رؤية استشراقية إمبريالية فرنسية ، كغازى ووريث للحضارة « العربية » ، قائلاً :

« لقد أنقذنا أوروبا من الغزو العربى . . . ونحن اليوم نجتاح البلاد العربية و ... نحطم دولها التى وصفت بأنها دول « بربرية » ، حيث فقدت الحضارة العربية صلاحيتها بأكثر الأعمال الفوضية وحشية . ولكن يجب أن يلى عملنا العسكرى بناء سياسى ، وإدارى وعلمى . ولما كنا ورثة العرب ، فإن علينا أن نبحث فى تاريخهم عن أعمالهم العظيمة التى تستحق البقاء ، وعلينا أن نستعيد فنهم الذى طواه النسيان ، وكذلك اكتشافاتهم الأدبية والعلمية » (٢٩) .

وتعود أصول لجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربى إلى أمر صدر وسط انشغال إسماعيل بأعمال التجديد الحضرى عام ١٨٦٩ . وكانت الفكرة من اقتراح أوجست سالزمان ، وهو معمارى من رعايا النمسا والمجر ، كان يعمل بنظارة الأوقاف ، وقام يوليوس فرانتز – وهو ألمانى يعمل بنفس الجهة – طلب منه أن يجمع قطعاً أثرية لإقامة متحف فى جامع الظاهر بيبرس الذى كان يعانى الخراب (٣٠) . غير أن هذا الأمر لم ينفذ ، وحث القنصل البريطانى إدوارد روجرز مؤتمر المستشرقين الدولى (عام ١٨٧٤) ،

على إقامة لجنة لترميم وتسجيل الآثار والأعمال الفنية الشرقية ، ولكن لين پول أثار تحفظات عملية : فمثل هذا العمل لا تستطيع الاضطلاع به إلا الحكومات ، وقد فشل مرسوم بشأن برنامج مماثل فى بريطانيا . أضف إلى ذلك أن اسماعيل « المذنب الرئيسى فى قضية هدم آثار الفن العربى ، قد يتساءل : أليست الطرق الباريسية ، والڤيلات الإيطالية التى زرعت فى أرض مصر التاريخية أجمل من مساجد الخربة والبيوت المهدمة ؟ وهل باستطاعتنا - حتى لو كنا ملائكة - أن نجيب على مثل هذا السؤال ؟ » (٣١) .

ولم يأت توقيت إصدار الأمر الخاص بإقامة لجنة حفظ الآثار فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ ، مفاجئًا . فقد كان توفيق محاصرًا من العرابيين الذين تحدوا احتكار الأتراك الشراكسة للسلطة ، والتدخل الأوروبى معًا . وكان توفيق يبذل جهد اليائس لحشد التأييد الأوروبى لعرشه ، فلعل التجمع الصغير لهواة الفن الإسلامى يجعل كفة الميزان تميل لصالحه . وقد كتب شارم : « ما أعجب فكرة هيمنة ورقابة أوروبا على المالية المصرية بشكل مباشر ، التى امتدت إلى كل شىء غيرها - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - وحتى إلى الفن » (٣٢) .

قدم كتاب « القاهرة » للين پول وصفًا تفصيليًا لعمارة المدينة القديمة ، وأبدى تقديره « للنتائج البديعة التى حققها النفوذ البريطانى الذى مارسه اللورد كرومر » ، ويرى أنه « قد يكون وراء ذلك غرض وطنى خفى ، ولكنى مقتنع أنه لا توجد أمة أخرى تصلح لتعليم مصر كيف تمضى على الطريق ، سوى الأمة التى زرعت مستعمراتها فى كل مكان على وجه الأرض ، وبينت بحكمها الفريد للهند النتائج العظيمة التى يستطيع تحقيقها حكم الإنجليز للملل والنحل الأجنبية » (٣٣) .

وتضمن تشكيل اللجنة الذى أصدره توفيق ثلاثة من خبراء الفن الإسلامى هم : إدوار روجرز - الذى كان عندئذ مستشارًا بالحكومة المصرية - والمعمارى الفرنسى إمبرواز بودرى (الذى أشاد شارم بڤيلته التى أقامها على الطراز العربى بالقاهرة) ، والمعمارى الألمانى يوليوس فرانتز الذى كان يعمل بنظارة الأوقاف (انظر الجدول ٤) . كان هناك مستشرقون بريطانيون وفرنسيون وألمان يجمعون بين

المعــرفــة النصية والبصرية ، وكانت بلادهم تقترب من مرحلة حرجة فى التعامل مع عرابـــى . وفى يناير ١٨٨٢ انضم چول بورجوان إلى اللجنة ، وفى نوفـمبر من نفس العام ، أضيف إليـها پيرجران ، كبـير مـهندسى مـصلحـة التنظيم (التى تخـتص بالشـوارع والمبـانى) ، وبذلك ارتفع عـدد الفـرنسـيين من أعـضـاء اللجنة إلى ثلاثة ، وأصـبحـت الفرنسـية - لغـة الدبلوماسـيـة والمجـتمع المتفرنج فى مـصـر - هـى اللغـة المستخدمة فى أعمال اللجنة (٣٤) .

الجدول (٤)

المهتمون بالفنون والآثار الإسلامية والاستشراق

الأوربيون فى اللجنة	مستشرقون آخرون - علماء وفنانين	المصريون فى اللجنة
	ب . كوست ١٧٨٧ - ١٨٧٩	
	داڤيد روبرتس ١٧٩٦ - ١٨٦٤	
	روبرت هاى ١٧٩٩ - ١٨٦٣	
	إدوارد لين ١٨٠١ - ١٨٧٦	
	بريس داڤين ١٨٠٧ - ١٨٧٩	
إدوارد روجرز توفى ١٨٨٤		على مبارك ١٨٢٣ - ١٨٩٣
يوليوس فرانتز ١٨٣١ - ١٩١٥		
إمبرواز بودرى ١٨٣٨ - ١٩٠٦		
چول بورجوان ١٨٣٨ - ١٩٠٧		
		يعقوب أرتين ١٨٤٢ - ١٨١٤
		حسين فخرى ١٨٤٣ - ١٩١٠
هارى فارنول ١٨٥٢ - ١٩٢٩		
ستانلى لين بول ١٨٥٤ - ١٩٣١		
ماكس هرتز ١٨٥٦ - ١٩١٩		مصطفى فهمى ١٨٥٦ - ١٩٢٥
		على بهجت ١٨٥٨ - ١٩٢٤
		أحمد زكى ١٨٦٠ - ١٩٣٤
ماكس ڤان برشم ١٨٦٣ - ١٩٢١		مرقص سميكة ١٨٦٤ - ١٩٤٤

قـام بورجـوان بالتـدريس بمدرسـة الفنـون الجميلـة بباريس ، وألف كتابين عن التصميم المعمـارى العـربـى . كما كان زميلا « بالمدرسة الفرنسية » الجديدة . ورأى أن الفن الإسـلامى يمثل إنتـاج « الأجناس السـامـيـة » ، وأن « السـامـيين » يتضمنون « جنسًا عربيًا » . وكان الشرق عنده ثابتًا لا يتطور « لا يجب أن نتوقع أن نجد فى تاريخ فن الشرق مراحل مختلفة، مماثلة لتلك التى يتميز بها فن الغرب » ، وشرح ڤيوليه لودوك فى مقدمته لكتاب بورجوان « الفنون العربية » ، كيف أن العوامل الدينية والعرقية عند السكان الذين تمتزج أعراقهم ، أدت إلى التجريد الهندسى للفن العربى [٣٥] .

وعمل إدوارد روجرز – البريطانى الوحيد باللجنة – قنصلاً بالشام ومصر ، قبل أن يصبح موظفًا بالتعليم والمالية فى خدمة الحكومة المصرية ، وكان يجمع الآثار والعملات . ورغم أن يوليوس فرانتز تعلم جزئيًا فى النمسا ودفن بها بعد وفاته ، فقد نشأ فى عائلة ألمانية شمالية بروتستانينية ، واحتفظ بجنسيته الألمانية حتى وفاته . وبحكم كونه كبير المعماريين بنظارة الأوقاف وعضويته للجنة ، أشرف على الإصلاحات التى تمت فى الآثار وبدأ يجمع القطع الأثرية لمتحف الفن العربى . وعلى مدى ١٢ عامًا بعد تقاعده عام ١٨٨٨ ، واصل فرانتز قضاء الشتاء بمصر ، وحضور اجتماعات اللجنة [٣٦] .

ولم تستطع اللجنة أن تجتمع سوى مرة واحدة فى الأول من فبراير ١٨٨٢ قبل ثلاثة أيام من إسقاط وزارة شريف على يد العرابيين ، وتولى محمود سامى البارودى رئاسة مجلس الوزراء الذى دخله عرابى وزيراً للحربية [٣٧] ، وحظى الحفاظ على الآثار باهتمام كبير ، حتى أثناء تلك الظروف الحرجة ، فقد شارك فى اجتماع اللجنة وزيران من بين الوزراء السبعة الذين تشكلت منهم الوزارة : فتولى رئاسة اللجنة مصطفى فهمى ناظر الخارجية ، ومحمود سامى البارودى ناظر الحربية عندئذ ، بصفته عضواً . ويشير أحد المصادر إلى أن التوصيات التى اتخذتها اللجنة باصلاح المبانى الأثرية ، جاءت بناء على اقتراح البارودى الذى كان لديه « اهتمام مستنير » بالحفاظ على الآثار ، غير أن ذلك لم يرد بمضبطة اجتماع اللجنة .

واختير روجرز سكرتيراً للجنة ، ويعقوب صبرى - الموظف بالأوقاف - سكرتيراً مساعداً ، وفرانتز مسئولاً عن الأرشيف . وليس من الغريب أن اللجنة لم تجتمع مرة أخرى حتى ديسمبر ١٨٨٢ بعد ما انتهت الثورة العرابية ، واستقر الاحتلال البريطــانى ، وعاد الأوربيون إلى مصر التى لفها صمت الصدمة .

اللجنة فى عهد الاحتلال البريطانى :

عقد الاجتماع الثانى للجنة فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٢ ، قبل أسبوع واحد من رحيل عرابى ورفاقه إلى المنفى بجزيرة سيلان . ووجد الأوربيون من أنصار الحفاظ على الآثار فى الاحتلال البريطانى وسطا ملائماً للعمل ، رغم العسر المالى الذى عانت منه اللجنة حتى أواخر التسعينات . ولما كانت اللجنة تابعة لنظارة الأوقاف ، فقد رأس محمد زكى ناظر الأوقاف اجتماع ديسمبر ، وكان زكى قد ترك منصبه باستقالة وزارة شريف فى فبراير ، وعاد إليه فى أغسطس مع تولى شريف الوزارة بالإسكندرية فى حماية المدافع البريطانية . وغاب عن ذلك الاجتماع محمود سامى البارودى الذى كان مسجوناً مع عرابى بانتظار الترحيل إلى المنفى ، كما غاب عنه مصطفى فهمى ومحمود الفلكى ، ولعلهما كانا يمران بفترة احتجاب ، ولكنهما ظلا عضوين باللجنة ، وعادا إلى الوزارة قبل أقل من عام . أما ناظر الأشغال العمومية على مبارك فكان قد تخلى عن عرابى فى الصيف ، واختار الوقوف إلى جانب الخديو توفيق بالإسكندرية فى الوقت المناسب لينال نصيبه من وزارة شريف التى شكلت فى أغسطس . وصدر أمر جديد فى نوفمبر بضمه ، وبييرجران ، ويعقوب أرتين إلي عضوية اللجنة (٣٨) .

ورغم أن عدد المصريين من أعضاء اللجنــة زاد علـى عدد الأوربيين فيما عدا فترة قصيرة نحو عام ١٨٩٠ ، فقد سيطر الأوربيــون تماماً على عمل اللجنــة كما سيطرت « الحماية البريطانية المقنعة » على مصر ، فكان روجرز صاحب اليد العليا فى اللجنة الفرعية الأولى التى تولت حصر الآثار التى يجب الحفاظ عليها ، حسبما رآه الغربيون من الناحيتين الجمالية والأثرية . ورغم اعتقاد المستشرقين بأن جوهر الفن الإسلامى لا يرتبط بزمن محدد ، يتعارض مع نظريات التطور ، تم إيضاح الأسلوب

الفنى بدقة للعهود الطولونية ، والفاطمية ، والأيوبية ، والمماليكيةالبحرية والبرجية ، والعثمانية . وتولى فرانتز إدارة أمور اللجنة الفرعية الثانية بمعاونة بورجوان ، (وهى التى عرفت - فيما بعد - بالقسم الفنى) ، التى اختصت بإصلاح المبانى الأثرية وجمع الآثار لمتحف الفن العربى ، فكانت بذلك القلب النابض للجنة الأصلية .

فرض بيرنج على مصر نوعًا من التضييق المالى الصارم ، معطيًا الأولوية المطلقة لخدمة الدين العام المستحق للدائنين من الأوربيين ، وتغطية تكلفة الاحتلال . ففى العام ١٨٨٥ ، أنفقت « لجنة حفظ آثار الفن العربى » ٣٦٥١ جنيهًا من ميزانيتها البالغ قدرها ٣٨٨٩ جنيهًا على إصلاح أربعين من المبانى الأثرية أما باقى الميزانية فخصص لتغطية الرواتب ، وشراء مستلزمات المتحف ، وأثاث المكاتب . وتحملت نظارة الأوقاف - فى بداية الأمر - ميزانية اللجنة بكاملها . وبحلول عام ١٨٩٦ ، تحسنت ميزانية الحكومة ، وأصبح بيرنج (وكان عندئذ اللورد كرومر) مستعدًا لأخذ نفقات أخرى فى الاعتبار ، فوافق على ما جاء بتقرير ستانلى لين پول - العضو الفخرى باللجنة منذ عام ١٨٩٠ - من التوصية بأن يقوم « صندوق الدين العام » بتخصيص عشرين ألفًا من الجنيهات المصرية للّجنة ، وجعل كرومر من تقرير لين پول ملحقًا لتقريره السنوى [٣٩] .

وعندما بلغت اللجنة العام الخامس والعشرين من عمرها (١٩٠٦) كانت قد أنفقت ما جملته ٢٠٥,٥٠٠ جنيها مصريًا ، شملت ١٦٦ ألفًا من الأوقاف ، و ٣٩ ألفًا من الميزانية العامة للدولة ، و٥٠٠ جنيهًا من بطريركية الأقباط (بعد ما دخلت المبانى التاريخية القبطية فى اختصاص اللجنة) ، منها ٢٩ ألفًا للمرتبات والباقى لإصلاح المبانى التاريخية [٤٠] . واستمرت ميزانية اللجنة بمستوى محترم حتى الحرب العالمية الأولى التى فرضت ضغط الإنفاق الحكومى عامة .

وفيما يتعلق بفلسفة اللجنة الخاصة بالحفاظ علي المبانى التاريخية ، اقترح كاتب بريطانى مجهول (عام ١٨٨٢) أنه عند التعامل مع آثار القاهرة « كل ما يمكن عمله الآن هو المحافظة عليها بوضعها الحالى لأطول فترة ممكنة بالاستعانة بكل الوسائل العلمية ، لإصلاح الأجزاء التى تحتاج إلى ذلك ، وعدم التسرع فى الترميم ، ونسخ زخارفها ، وعمل نماذج لها ، وشدها بالدعامات ، وعمل مسح لها وهى لا تزال قائمة ، وبذلك يتم المحافظة على تصاميمها وزخارفها . . . » [٤١] .

وفى العام ١٨٩٥ ، كانت اللجنة تعالج الآثار معاملة مختلفة حسب الفترة التى تنتمى إليها . فالآثار « المبكرة والفريدة » مثل مساجد ابن طولون والفاطميين ، تم تثبيتها على حالتها الراهنة - ولعل ذلك جاء تلبية لراسكين - بينما تم إجراء إصلاحات أساسية للمبانى المماليكية والعثمانية العديدة (٤٢) ، وفقًا لما ذهب إليه ڤيوليه لودوك . وعلى كلٍّ ، تم فيما بعد تفكيك بقايا مسجد الصالح طلائع الذى ينتمى إلى العصر الفاطمى ، وأزيلت مئذنته التى ترجع إلى العصر العثمانى ، وتمت إعادة بنائه بالكامل وفق الطراز الفاطمى (٤٣) .

وسواء تم الحفاظ على الآثار بحالتها الراهنة حسب الشق الأول من سياسة اللجنة ، أو أعيد بناؤها وفق الشق الثانى ، فقد تم عزل المبانى الأثرية وحدها ، فتمت إزالة الدكاكين والمساكن التى أقيمت - عشوائيًا - حولها ، فقد كانت تلك المنشآت - فى نظر الأوربيين - تحجب تلك المبانى الأثرية عن النظر . وبذلك تحول حفظة الآثار إلى هادمين لغيرها من المنشآت التى ليست لها قيمة أثرية . واعترضت اللجنة - بالطبع - على إقامة أى مبانى تتعدى على تلك الآثار المعزولة . وأتيحت للسياح فرصة الرؤية التامة للآثار وتصويرها فوتوغرافيًا ، ولكن على حساب النسيج الحى الذى كانت تلك الآثار محاطة به ، فلم يدخل فى الحسبان الحفاظ على الأحياء التاريخية أو الاهتمام بالمناطق المجاورة للأثر سواء فى مصر أو فى الغرب .

وأدى تركيز اللجنة على المساجد والأضرحة إلى ترك المنازل الأثرية دون حماية ، ونزلت اللجنة - أحيانًا - عن موقفها إزاء خطط الهدم التى قامت بها مصلحة التنظيم لشق الشوارع وإقامة المبانى العامة ، ولكن ضم پيير جران - مدير عام المصلحة - إلى عضوية اللجنة أتاح لها فرصة سماع رأيها فى تلك الخطط .

وحمل رجل الأعمال چورج پانجالو معه إلى بلاده صلاحيات اللجنة ورؤيتها للأمور . وما كان بلزونى - جامع الآثار الفرعونية المغامر الذى عمل لحساب المتحف البريطانى فى العقود الأولى من القرن - ليعترض على ما فعله چورج پانجالو ، ولكن سياسة كرومر المالية الصارمة حالت دون اشتراك مصر فى معرض كولومبيا عام ١٨٩٣ بمدينة شيكاجو ، وأدى ذلك إلى فتح الباب أمام پنجالو لإقامة « شوارع القاهرة » بالمعرض

كمشروع استثمارى خاص . فقــام بالتعاقد مع ٢٥٠ من المصريين - من المشتغلين بالرقص الشــرقى والحمــارين إلى المؤذنين - ليلعبوا دور سكان « شوارع القاهرة » فى المعرض ، وجاب أنحاء القاهرة الحقيقية بحثًا عن التراث المعمارى حتى يضفى نوعًا من الأصالة على النموذج الذى يسعى لإقامته بالمعرض ، وكتب عن ذلك :

« كان تجّار الآثار يخربون القاهرة القديمة خلال العقود الثلاثة الماضية لحساب السياح والفنانين والمتــاحف . والآن جاء دورى للانضمام إلى أولئك المخربين ... ورغم ما أشعر به من خجل عندما أقول ذلك ، مضيت فى هذا العمل بهمة تفوق همة الوندال ...

وفى الكثير من الحالات كان من الضرورى أن أقوم بدفع مبالغ مالية مقدمًا فى مقابل انتزاع المشربيات من النوافذ والشرفات ، وكذلك الأبواب لتستبدل بها نوافذ وشرفات وأبواب جديدة حديثة الطراز . وفى حالات أخرى كنت أشترى المبنى بكامله ثم أنتزع منه مشربياته ، وأبيعه من جديد . وهكذا فى حوالى تسعة شهور تم انتزاع كل المشغولات الخشبية مما يزيد على ١٥ منزلاً ، كما أسهم ما يزيد على ٥٠ منزلاً أخرى بمشربياته وأبوابه ، وغيرها [٤٤] » .

وتعاقد ماكس هرتز - حامى حمى التراث الإسلامى المعمارى فى مصر - مع ذلك الذى وصف نفسه « بالوندال » ليكون مستشارًا له فى تصميم مشروعه « شوارع القاهرة » ، ولم تعترض اللجنة على ذلك على أساس أن هرتز قدم استشارته فى غير أوقات العمل الرسمية ، ولعل هرتز أقنع اللجنة بأنه لا ولاية لها على المبانى غير المسجلة فى قائمتها ، وأن تلك المبانى تتداعى بالفعل ، وأن إعادة تجميع المشغولات الخشبية التى تنتزع منها فى معرض كولومبيا يحفظها من الدمار الفورى .

تكوين على بهجت :

عنــد تأسيس اللجنــة عــام ١٨٨١ ، كان على بهجت قــد بلغ الثالثة والعشرين من عمره ، وبدأ يعمل مدرسًا للغة الفرنسية بالمدارس . جاء على بهجت من قرية بها العجوز التى تقع على مسافة بضعة أميال من بنى سويف حاضرة المديرية ، وكان

ينتمى إلى إحدى عائلات الأعيان شأنه فى ذلك شأن على مبارك ، ومحمد عبده ، وأحمد لطفى السيد ، ولكنه اختلف عنهم فى انحداره من أصل تركى ، فقد كان جده لأبيه - على أغا - يتولى منصباً بالشرقية فى عهد محمد على ، وحصل على ضيعة بقرية بها العجوز كمعاش له بعد تقاعده ، حيث كان مسقط رأس ابنه محمود بك على (والد بهجت) الذى كان موظفاً بمصلحة الدومين (الأراضى الأميرية) وتزوج من ابنة موظف تركى من قرية مجاورة . ويذهب مترجمو بهجت إلى أن العائلات التركية فى الأقاليم نفرت من مخالطة جيرانها من المصريين ، وأن بهجت أحب الوحدة ، ولم يتواصل اجتماعياً إلا نادراً ، وكان يتّسم بالحدة والصرامة (٤٥) .

وكانت المدارس الحكومية - أيام إسماعيل - تفتح أمام خريجها طريق الدخول فى زمرة النخبة فى الجيل التالى . وشق بهجت طريقه فى تلك المدارس : المبتديان بالناصرية ، المدرسة التجهيزية ، المهندسخانة ، ومدرسة الألسن . وتركت الدروس العربية التى تلقاها على الشيخ حسونة النواوى - الذى أصبح شيخاً للأزهر فيما بعد - أثراً كبيراً فى نفسه شأن فى ذلك شأن صديقه أحمد لطفى السيد (٤٦) . ولم يكن بهجت متميزاً فى دراسته ، ولكن إتقانه للغات الأوربية خدمه كثيراً . فقد تخرج فى مدرسة الألسن وقد أجاد العربية والفرنسية والألمانية والتركية ، مما يسّر له التنافس مع الشوام الذى احتكروا العمل كمترجمين فى عهد إسماعيل وفى عهد الاحتلال البريطانى .

وبدأ على بهجت عمله مدرساً للغة الفرنسية بالمدرسة التجهيزية فى ٩ أكتوبر ١٨٨١ ، بعد نجاح عرابى فى إسقاط وزارة رياض بشهر واحد ، وقبل تأسيس لجنة حفظ الآثار بعشرة أسابيع ، وكان راتبه خمسة جنيهات شهرياً . وبعد ذلك بخمس سنوات ، أصبح مفتشاً للغة الفرنسية بالمدارس الابتدائية التابعة للأوقاف ، ثم تولى تدريس الفرنسية بمدرسة الخديوية الثانوية ، وعند بداية القرن العشرين كان راتبه قد أصبح ٢٨ جنيهاً عندما أصبح كبير المترجمين بنظارة المعارف . وفى عام ١٩٠١ ترك خدمة المعارف بعد خدمة عشرين عاماً أهلته للحصول على معاش ، وتفرغ للعمل بلجنة حفظ آثار الفن العربى (٤٧) .

وقبل ذلك بحوالى العامين – فى يناير ١٩٠٠ – انضم على بهجت إلى اللجنة إلى جانب أعضائها الأوربيين التسعة ، والمصريين الإثنى عشر وكان من بين المصريين ثمانية من المسلمين وقبطيان وأرمينيان . جاء أربعة من الأعضاء المسلمين من نظارة الأوقاف ، واثنان من النظار (رئيس مجلس النظار مصطفى فهمى الذى كان حضوره اجتماعات اللجنة نادراً ، وحسين فخرى) ، وواحد من كل من مصلحة السكك الحديدية ، ونظارة الداخلية . وكان أحد الأقباط موظفًا سابقًا بالمالية ، والآخر موظفًا بنظارة الحقانية (العدل) . أما الأرمينيان فهما تيجران باشا ناظر الخارجية السابق ، ويعقوب أرتين وكيل المعارف . وكان أعضاء اللجنة من الأوربيين : ماسبيرو مدير عام الآثار ، وپول كازانوفا المستشرق بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، وفرنسى آخر على الأقل ، وألمانيان ، وإنجليزى واحد ، وإيطالى واحد ، وهرتز النمساوى – المجرى . ويتضح مسار حياة على بهجت العملية بعد التحاقه باللجنة من إلقاء نظرة فاحصة على العلاقات بين المصريين والأوربيين باللجنة ومتحف الفن العربى .

على مبارك وحفظة الآثار من الأوربيين :

كان على مبارك أول من اصطدم بالأوربيين من أعضاء اللجنة ، ورغم انضمامه إلى توفيق ضد عرابى ، ثم مشايعته للاحتلال البريطانى ، ينظر المصريون إليه اليوم كبطل وطنى للإصلاح الثقافى . وقد اختلف مبارك مع الأوربيين من أعضاء اللجنة فى اجتماعها الأول (ديسمبر ١٨٨٢) ، سواء كان ذلك بدافع وطنى ، أو بنظرة مهندس ضاق ذرعًا بحفظة الآثار الذين يعارضون رؤيته للتقدم ، فهو – على أية حال – كان وراء مشروع التجديد الحضرى الذى رعاه إسماعيل ، وهو الذى شق شارع محمد على ، فاجتاح فى طريقه مئات المنازل فى منطقة مكتظة بالمبانى . وجاء تكوين اللجنة ليضع حدوداً لحركته . (انظر الشكل ٣٩) .

كان أعضاء بعينهم من الأوربيين يتحكمون فى اللجنة من خلال تركيبة معينة تجمع بين الأهداف السياسية ، والخبرة ، والعمل الجاد . أما المصريون من الأعضاء ، فكان معظمهم أقل اهتمامًا بعمل اللجنة ، وربما كان مرد ذلك إلى انشغالهم بأمور

أخرى لها الأولوية عندهم ، أو لضيقهم بالهيمنة الأجنبية ، أو ضعف لغتهم الفرنسية ، أو افتقارهم إلى الخبرة الفنية . وأدى ذلك إلى تقوية ما أكده الأوربيون من أن مصر ليست مهيأة للحفاظ على آثارها . وعلى الصعيد الشعبى كانت اللجنة تواجه بالكراهية والمقاومة لهدمها الدكاكين والمنشآت التى أحاطت بالمبانى الأثرية ، وإن كان ذلك يحتاج إلى المزيد من الدراسة (٤٨) .

ولكن المصريين لم يهملوا الآثار على نحو ما اعتقد شارم ، ولين پول فقد توقف الجبرتى أمام تخريب الحملة الفرنسية لقلعة القاهرة ، فسجل النتائج السلبية التى ترتبت على هدمهم لبعض مبانيها مثل قصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى وبعض الجوامع والزوايا ، وتغييرهم لمعالم جامع الملك الناصر محمد بن قلاوون ، واعتبر الجبرتى تصرفهم هذا تصرف أعداء الدين (٤٩) .

كان معظم المصريين يرتبطون دينيًا بالمبانى الأثرية دون أن تعنيهم القيمة التاريخية أو الفنية لتلك المبانى ، فالناس على اختلاف مراكزهم الاجتماعية يقدرون الأزهر ، وجامع السيدة زينب ، والإمام الشافعى ، والسيد أحمد البدوى (بطنطا) . فالإيمان بالقرآن ورسالته ، وبالنصوص الدينية الأخرى يكشف عن مدى الارتباط بطراز معمارى معين أو زخرفة فى مبنى مجدَّد مهما كان قديمًا أو جميلاً من وجهة نظر الغربيين . فمعظم المصريين يعتبرون المساجد مراكز للعبادة أو الدراسة ، وشعروا بالامتعاض من اتجاه الآثار إلى الاهتمام بإبراز جمالها وتاريخها أو حمايتها كأثر من أجل توفير المتعة للسياح والعلماء .

وقد شهدت المساجد – على مر القرون – أعمال هدم ، وتوسيع ، وإعادة بناء . . فلماذا يجمد وضع المبنى ، بعدما تجاوز الزمن والغرض والطراز الذى كان يمثله فى الأصل ؟ فالقلل ، والنسيج ، والمشربيات ، وأعمال الزخرفة ، والحلى التى توضع اليوم فى متحف الفن العربى كانت تستخدم فى الحياة اليومية للأغنياء والفقراء ، والآن بعدما اجتاح مصر الطراز الغربى فى العمارة ، والأثاث ، واللباس ، يأتى الأوربيون بسطوتهم وبتأثرهم بالتطور الصناعى والسياسى فى بلادهم ، ليتدخلوا للحفاظ على « الفن العربى » الذى اعتبروه جميلاً ، وأصيلاً ، و« تقليديًا » . لعل « الحفاظ » – فى حد ذاته – يحتاج إلى إيضاح .

لقد وافق على مبارك على ما ذهب إليه المستشرقون من أن القاهرة قد تداعت فى فى العصر العثمانى ، فأشار إلى الخرائب وأكوام النفايات الضارة بالصحة ، « حتى أرسل الله محمد على باشا » ليصلح من شأنها (٥٠) . ولكن مبارك عارض المستشرقين عندما أشاد بالمبانى ذات الطراز الغربى التى أقامتها أسرة محمد على ، باعتبارها علامة على الحضارة والتقدم .

ففى « الخطط التوفيقية الجديدة » ، لم يقم مبارك باستخدام « الإحداثات الدالة ، أو ما كان يسمى بالذاكرةالبصرية . . . فالقاهرة عنده كانت مدينة مواقع ، جرى فيها تواصل اجتماعى ، وكانت الذاكرة الجمعية فيها فاعلة ، فهى ليست مجرد مدينة مواقع أو مناظر » (٥١) .

وإذا أمعنا النظر فيما بين سطور مضابط اللجنة ، نستشف نوعًا من المقاومة من جانب مبارك أولاً ، ثم من جانب المصريين ، فى مواجهة الهيمنة الأوربية ، ففى اجتماع ديسمبر ١٨٨٢ ، اقترح مبارك إزالة السبيل القائم بالقرب من باب زويلة لإعاقته حركة مرور العربات ودواب الحمل ، ورد الأوربيون بأن عمل اللجنة هو المحافظة لا للهدم . وتشير المضابط إلى أن مبارك لم يحضر سوى اجتماع واحد أو اثنين بعد ذلك ، ولا نجد بالمضابط ما يشير إلى تعليقات أخرى أبداها فى الإجتماع ، ثم استقال من اللجنة بحجة تزايد أعباءه الوزارية . وبعد ذلك بسنوات عندما أصبح ناظرًا للمعارف ، رفض طلب اللجنة نقل متحف الفن العربى إلى الغرف الخالية بمبنى النظارة ، وربما كان ذلك يشفى غليله (٥٢) .

كان على مبارك مستنيرًا ، مهتمًا بالماضى الإسلامى لبلاده . فقد تناولت « الخطط التوفيقية الجديدة » تاريخ البلاد وآثارها بتفصيل مستفيض ، فعبر مبارك عن الحنين إلى المجد الإسلامى الغابر ، وتحسَّر على الفسطاط ، وهو ينظر إليها من فوق مئذنة مسجد عمرو بن العاص (٥٣) .

ولا تدين « الخطط التوفيقية » للمصادر العربية وحدها ، ولكنها تدين أيضًا لوصف مصر والعديد من الكتب الأوربية فى القرن التاسع عشر . فقد تعلم مبارك فى باريس ، وترجم كتاب « تاريخ العرب » لسيديلو عن الفرنسية ، واتفق مع ما توصل إليه

مؤلف الكتاب - المتخصص فى العصور الوسطى - من استنتاجات حول تدهور أحوال العرب تحت الحكم العثمانى ، مشيداً بأسرة محمد على لانخراطها فى عصر الحضارة والتقدم (٥٤) . كذلك قدم على مبارك « المستشرق البريطانى » فى كتاب الروائى « علم الدين » ، بصورة إيجابية .

كان هناك - أو أصبح هناك - مصريون يهتمون بحفظ الآثار الخاصة بالفن الإسلامى ، ولكن كان عليهم أن يحاربوا على عدة جبهات فى وقت واحد . فإذا كانوا يريدون الاحتراف ، فعليهم أن يتتلمذوا على أيدى المعلمين الأوربيين ، فعدم المراعاة الكافية للأوربيين على الصعيد المهنى ، والإذعان لهيمنتهم السياسية ، بسبب النوازع الوطنية أو الاعتداد بالذات ، قد يؤدى إلى تدمير الحياة العلمية للمصرى . كذلك لم يكن يسهل عليهم إقناع إخوانهم المصريين أن الحفاظ على ما صنفه الأوربيون كتحفة من الفن والعمارة الإسلامية ، يجب أن تكون له الأولية على الحاجات الأخرى الملحة .

وقد يصوغ الأوربيون المدائح البليغة فى تحف الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية ، فى بلد خاضع لاستعمارهم ، ولكن سيطرتهم على ذلك المجال تعود إلى ما يعانون من القبح الناجم عن الصناعة فى بلادهم الأصلية . فلا يعرف أحد كيف يمكن الحفاظ على القديم وتحقيق التحديث فى الوقت نفسه . فعندما اندفع الخديو إسماعيل ومبارك نحو التحديث على الطراز الأوروبى ، رفضا السماح للحنين إلى الماضى أن يقف فى طريقهما . وانتصر المهندس على الآثارى فى شخصية مبارك ذات الجوانب المتعددة ، عندما قال : « هل نحن بحاجة إلى كل هذه الآثار مجتمعة ؟ ألا يكفى الإحتفاظ بعينة منها ؟ » فقد كان باب زويلة يستخدم من قبل لشنق المجرمين ، « ونحن لا نريد الحفاظ على هذه الذكريات ، بل علينا تحطيمها كما حطم الفرنسيون سجن الباستيل » (٥٥) .

وتلتزم مضابط اللجنة الصمت بالنسبة لحسين فهمى وكيل نظارة الأوقاف . فلا ندرى ما كان يدور بخلده وهو يستمع إلى المشادة التى وقعت بين مبارك والأوربيين . كان حسين فهمى زميلاً لعلى مبارك وإسماعيل فى باريس ، حيث درس الإدارة المدنية

والهندسية . وعند عودته إلى مصر أسندت إليه مهمة تصميم عمارة مسجد الرفاعى بتكليف من أم الخديو إسماعيل (الوالدة باشا) ، فجاء التصميم خليطًا من الطرز الأوربية والإسلامية . وقام أيضًا بتصميم المبانى الحكومية الأخرى ، وعبَّر فهمى عن حبه للفن الإسلامى عام ١٩٠٣ ، عندما أعادت الكتبخانة الخديوية تجليد المخطوطات القديمة ، واستغنت عن الأغلفة القديمة ، قام حسين فهمى بشرائها ليعرضها فى منزله « الذى كان أقرب ما يكون إلى متحف للفن العربى » (٥٦) .

التمثيل الوطنى الأوربى فى اللجنة :

جمعت بين أفراد تلك الحلقة الصغيرة من الأوربيين بالقاهرة ، الذين أحبوا الفن الإسلامى ، رابطة كوزموبوليتانية ، غير أنهم لم ينسوا جنسياتهم ، ومكانة بلادهم بين غيرها من بلاد أوروبا فى مصر ، من النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية .

كانت الفرنسية لغة العمل باللجنة ، ومصلحة الآثار المصرية ، والمتحف المصرى ، والمحاكم المختلطة ، والطبقة العليا فى المجتمع . ورغم ذلك كانت اليد العليا فى اللجنة والكتبخانة الخديوية للألمان حتى عام ١٩١٤ ، فالوجود النمساوى – المجرى ، والألمانى بنظارة الأوقاف يعود إلى أيام إسماعيل ، عندما قام نمساوى – مجرى بحشد الضغوط لتنفيذ الأمر الذى كان قد صدر عام ١٨٦٩ لحماية الآثار العربية ، وإقامة متحف للفن العربى . وعندما تأسست اللجنة بعد ذلك باثنى عشر عامًا ، كان فرانتز مازال موجودًا ليتولى مسئوليتها . وقد نجح هو وماكس هرتز فى توجيه اللجنة ومتحف الفن العربى لمدة ٣٣ عامًا . وجاء الجمع بين الكتبخانة ومتحف الفن العربى فى مبنى واحد عام ١٩٠٣ ليدعم المعقل الثقافى الألمانى فى مصر .

كان ماكس هرتز مجريًا يهوديًا ، جاء إلى مصر عام ١٨٨١ معلمًا خاصًا لأبناء أحد أصحاب الفنادق الأوربيين (كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد بسطت حمايتها على بعض اليهود السكندريين قبل عدة عقود من السنين) . وما لبث فرانتز أن ألحق هرتز بخدمة الأوقاف واللجنة ، ليعمل معه كمساعد معمارى . وورث هرتز الوظيفتين

بعد تقاعد فرانتز عام ١٨٨٨ . وظل متحف الفن العربى بعيداً عن اختصاصه لأربع سنوات حتى أضافه هرتز إلى مسئولياته بصفة رسمية عام ١٨٩٢ . وأدى انكباب فرانتز وهرتز على الاشتغال يوميًا بالعمارة الإسلامية والفن الإسلامى والمتحف ، إلى مساعدتهما على اكتساب خبرة ، كان معظم أعضاء اللجنة يفتقرون إليها ، ولما كانت اللجنة تجتمع خمس أو ست مرات سنويًا ، فقد قبلت - عادة - بآرائهما المهنية (٥٧) .

وكان اثنان من بين المستشرقين الألمان الخمسة الذين تعاقبوا على إدارة الكتبخانة الخديوية فيما بين ١٨٧٠ - ١٩١٤ ، عضوين باللجنة وهما : كارل ڤولورز ، وبرنهارد موريتز . كذلك كان دى مول - ممثل ألمانيا بصندوق الدين العام - عضواً باللجنة ، وضمَّت اللجنة - بالإضافة إلى هرتز - نمساويًا - مجريًا آخر ، هو الكونت تشارلز الوسكى ، الذى كان يقيم بإحدى ڤيلات بودرى ذات الطراز العربى .

وأدى تفوق الألمانية كلغة وسيطة فى حقل الاستشراق - بما فى ذلك الفن الإسلامى - إلى إضفاء أهمية ثقافية على الوجود الألمانى - النمساوى - المجرى باللجنة والكتبخانة الخديوية . ولكن كانت الأهمية السياسية لذلك الوجود محدودة ، حتى عندما سعى الألمان للاحتفاظ بمواقعهم فى الكتبخانة والمتحف المصرى فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى ، بعدما وافق الإنجليز - عام ١٩٠٤ - على أن يكون مدير عام مصلحة الآثار فرنسيًا ، وعدُوا الألمان بأن يكون مدير الكتبخانة ألمانيًا ، وقد أثارت تلك الاتفاقات غضب المصريين الذين لم يكن باستطاعتهم الاعتراض عليها ، كما أنها تمت من وراء ظهورهم . وعندما انتهت مدة عمل بونهارد موريتز مدير الكتبخانة عام ١٩١١ ، تدخل القيصر ڤيلهلم الثانى شخصيًا للحفاظ على التمثيل الألمانى فى المؤسسات الثقافية المصرية . ولكن البريطانيين رفضوا المرشح الألمانى لخلافة مورتيز فى منصبه ، وهو الدكتور كورت پروفر ، الذى كان سكرتيراً شرقيًا للقنصلية الألمانية بالقاهرة ، وخشى البريطانيون أن يضعه هذا المنصب « فى اتصال يومى مباشر مع المثقفين من شباب المصريين » . وفشلت جهود الحكومة المصرية لتعيين أحمد زكى - سكرتير مجلس النظار - مديراً للكتبخانة . وفى عام ١٩١٣ ، تولى المنصب مستشرق ألمانى هو الدكتور آرثر شاد ، الذى تم إبعاده عن

مصر عند قيام الحرب العالمية الأولى ، وقام پروفر وشاد بالخدمة مع المخابرات الألمانية فى فلسطين ، مستفيدين فى ذلك من قدراتهما اللغوية (٥٨) .

تعلم نفر قليل من المصريين اللغة الألمانية ، على عكس الأتراك فى مركز الدولة العثمانية . وكان من بين القلة الذى تعلموا الألمانية على بهجت ، وعباس الثانى ، وأحمد كمال . فقد درس عباس بمدرسة تريزيانوم بڤينا ، واختار أنطونيو لاسياك – الذى ولد نمساويًا مجريًا رغم كونه وطنيًا إيطاليًا – ليعمل مهندسًا معماريًا بقصره . كان توسع النمسا والمجر على حساب الدولة العثمانية فى البلقان يجعلها موضع بغض المسلمين ، ولكن الروابط العسكرية والسياسية والثقافية الألمانية مع إستانبول والأناضول والهلال الخصيب ، زوّدت بعضها البعض بعوامل القوة . وكان خط سكك حديد برلين – بغداد رمزًا لهذا التحالف ، وعندما قام القيصر ڤيلهلم الثانى بزيارة السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٩٨) أخذ معه إلى برلين من إستانبول والقدس ، كمية كبيرة من الآثار التى شغلت مساحة كبيرة من مبنى المتحف الإمبراطورى الجديد ببرلين (٥٩) .

وكان التنافس الأنجلو – فرنسى فى مصلحة الآثار والمعارف يطل برأسه – أحيانًا – فى لجنة حفظ الآثار العربية . ففى سياق ترويجه لتأسيس اللجنة ، ذكر شارم : « يحق لفرنسا أن تفخر لاكتشافها مصر الحديثة ، واسترجاعها لمصر القديمة الذى يمهد الطريق لمصر المستقبل : فهل نترك للآخرين إبراز مصر العربية ، وجعلها معروفة للعالم ؟ » (٦٠) .

ولم يتوان لين پول عن إبراز خشيته من الفرنسيين كتابة : « إن أصدقاءنا الفرنسيين الذين يعيِّروننا بعادة كتابة أسمائنا على الآثار (بينما معظم الأسماء الكبيرة البارزة أسماء فرنسية) ، هم أكبر المخربين للقاهرة ، فأين ذهبت الأبواب البرونزية المفقودة من المساجد ، وغيرها من كنوز الفن العربى ... التى لم نعد نراها ؟ إنها فى باريس . وإذا سألنا عن ذلك الهمجى الذى اقتلع مربعًا كبيراً من الفسيفساء بجامع برسباى بالقرافة الشرقية ، سيدهشنا البواب عندما يجيبنا : إنه ماربيت المستنير ، الذى ينحى باللائمة على السياح الإنجليز ، والذى قام بتخريب الفسيفساء ليرسل شيئًا منها إلى معرض باريس » (٦١) .

ويبدو أن كرومر لم يساوره القلق إزاء النفوذ الفرنسى فى اللجنة التى تعاقب على عضويتها مديرو مصلحة الآثار المصرية ، وباحثو المعهد الفرنسى للآثار الشرقية . فلم يزد عدد البريطانيين باللجنة على عدد الفرنسيين إلا فى الثلاثينات من القرن العشرين ، عندما كان التمصير قد بدأ .

وقد أزاحت وفاة روجرز عام ١٨٨٥ ، العضو البريطانى الوحيد باللجنة . ولكن ما لبث المستشار البريطانى لنظارة الأشغال العمومية (سكوت مونكريف ، ثم وليم جارستن) ، والمستشار البريطانى للمالية (إدجار ڤنسنت) ، أن قاما بملء هذه الفجوة . ورغم أنهما لم يكونا على درجة من العناية بالفن الإسلامى مثل روجرز ، فإن وجودهما باللجنة أقام جسراً متيناً بين اللجنة ودار المعتمد البريطانى . وكان انضمام المعمارى سومرز كلارك إلى اللجنة ، عندما اتسعت مسئولياتها لتشمل الآثار القبطية فى التسعينات ، يمثل إضافة واضحة . وانضم كذلك (عام ١٩١٠) هارى فارنول من « صندوق الدين العام ، وما لبث أن أصبح صاحب الصوت القيادى البريطانى فى اللجنة » (٦٢) .

ولم يكن لإيطاليا صوت باللجنة حتى انضمام المعمارى ألفونسو ما نيشالو إليها عام ١٨٩٧ ، وأصبح بوتّى أمين المتحف اليونانى - الرومانى عضواً مراسلاً (٦٣) . أما اليونان التى اتجهت إليها أنظار النخبة السياسية فى الغرب ، فلم تكن ممثّلة فى ميدانى المصريات ، والدراسات الشرقية ، على حد سواء .

متحف الفن العربى :

انتقل متحف الفن العربى - خلال عقدين من الزمان - من مكان لآخر ، فأقيم بمسجد الحاكم بأمر الله ، بالقرب من أحد أبواب القاهرة الفاطمية الشمالية . وكان المسجد خربًا فى مطلع الثمانينات ، عندما قامت نظارة الأوقاف ، ولجنة حفظ الآثار بإزالة الركام ، وسوت أرض الصحن ، ورمم القسم الأوسط من المصلى لإقامة المتحف وكان من المقرر إقامة مدرسة للفنون فى الصحن (٦٤) .

وقام فرانتز بحشد مجموعة من آثار التراث الفنى الإسلامى ، وقدم روجرز ويعقوب أرتين المشورة حول كيفية ترتيبها . وفى العام ١٨٨٣ ، أضافت اللجنة مبنى مؤقت فى صحن المسجد لاستيعاب الآثار التى تدفقت على المتحف ، وافتتح المتحف عام ١٨٨٤ ، ولم يعين سوى حارس . وعندما تبين للجنة أنه « لا يرتدى زياً مناسباً ، ولا يتسم بحسن السلوك ، وغير قادر على الشرح لزوار المتحف » ، قررت اللجنة البحث عن « أفندى متعلم ، تتوفر لديه القدرات المطلوبة ، ويجيد التحدث بالفرنسية » (٦٥) . وحتى عام ١٨٩٥ ، لم يكن هناك سوى نسختان من مخطوطتين من كتالوج المتحف . ففى ذلك التاريخ قام هرتز بطبع دليل فرنسى لمقتنيات المتحف ، وقام ستانلى لين پول بترجمته إلى الإنجليزية (٦٦) . وقد تم تنسيق المتحف على أساس المواد التى صنعت منها المعروضات : الزجاج ، والمعادن ، والخزف ، والخشب ، الخ . وقد ملأت المعروضات ثمانى غرف ، وممراً وملحقين .

وكان هذا المتحف المؤقت لا تقع عليه عيون السياح تقريباً فى وقت كانت فيه المجموعات الإسلامية بمتاحف الغرب أفضل قليلاً . فعندما أسس متحف بولاق ، استطاع مارييت أن يستلهم الأفكار الخاصة بالتنسيق من متاحف باريس ولندن وبرلين وتورينو ، ولكن مجموعات الفن الإسلامى كانت تتحسس طريقها فى أوروبا ومصر على السواء بعد جيل كامل .

فقد ذهبت الآثار الإسلامية التى عرضت بمعرض كرستال پالاس عام ١٨٥١ ، إلى متحف الفن الزخرفى ، الذى أصبح – فيما بعد – متحف ساوث كنسجتون ، ثم متحف ڤيكتوريا وألبرت . كما أن الآثار الإسلامية التى عرضت بمتحف باريس ١٨٦٧ – أيضاً – أثرت مقتنيات باريس من تلك الآثار . وفى أعقاب الاحتلال البريطانى ، أوفد متحف ساوث كنجستون ، ستانلى لين پول إلى مصر لشراء قطع أثرية مما كان معروضاً بالسوق عندئذ . وفى العام ١٨٩١ ، احتوى المتحف السلطانى للآثار فى مبناه الجديد بحديقة قصر طوب قابى ، على قسم للآثار الإسلامية (٦٧) . وأقام فردريش سار قسما إسلامياً بمتحف الدولة ببرلين عام ١٩٠٤ .

وبحلول عام ١٨٩٨ بدأ العمل فى بناء المتحف المصرى الجديد ، بعدما استطاع كرومر إقناع « صندوق الدين العام » بتخصيص ٤٥ ألف جنيه مصرى لإقامة بناء يضم الكتبخانة الخديوية ومتحف الفن العربى معًا . ولما كانت واجهة المتحف اليونانى - الرومانى بالإسكندرية قد صمّمت على شكل معبد دورى ، فلماذا لا تتخذ واجهة مبنى الكتبخانة ومتحف الفن العربى طابعًا إسلاميًا جديداً ، وخاصة أن الكتبخانة تضم مجموعات رائعة من أهم المخطوطات العربية والإسلامية فى العالم ؟

قام ألفونسو مانيشالو - المعمارى الإيطالى الذى انضم للجنة عام ١٨٩٧ - بتصميم المبنى (انظر الشكل ٤٠) الذى استلهم العمارة المماليكية مع بعض الملامح الأندلسية ، ورغم هذا التصميم والزخارف الإسلامية ، وكان المبنى يتفق مع الأفكار الغربية المتصلة بالمكتبات العامة والمتاحف ، واحتل المتحف الدور الأرضى ، بينما احتلت الكتبخانة - التى كان لها مدخلاً مستقلاً - الدور العلوى (٦٨) .

وكان موقع المبنى مناسبًا أيضًا ، بشارع محمد على بباب الخلق عند التقاء القاهرة القديمة بالقاهرة الحديثة (انظر الخريطة ٢) . وعلى بعد بضعة مربعات شرقًا يقع جامع المؤيد وباب زويلة . الذى يحرس مدخل القاهرة الفاطمية ، وإلى الغرب وقف قصر عابدين والمدينة الحديثة . ويقع المبنى عند تقاطع شارع محمد على مع شارع الخليج متخذًا موقعًا وسطًا بينهما . وعلى نقيض المتحف المصرى الذى كتبت لوحة تأسيسه باللاتينية ، لم تحمل لوحة تأسيس مبنى المتحف والكتبخانة سوى اسم عباس الثانى بالعربية وحدها .

وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣ ، قام الخديو عباس الثانى بافتتاح « هذا المبنى البديع ذى الطراز العربى » ، بحضور اللورد كرومر ، وقناصل الدول ، والنظار ، والشيخ حسونه النواوى شيخ الأزهر السابق والشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وشيخا الطريقة البكرية والطريقة الساداتية (٦٩) . وأصبح المتحف بحاجة إلى دليل جديد ، طبعه هرتز عام ١٩٠٦ .

أصبح من الواضح بعد الافتتاح أن محاولة تدبير ميزانية سنوية للمتحف من إيرادات أراضى الوقف المخصصة له قد باءت بالفشل . فقد كان من المتوقع أن تصل

الإيرادات إلى ٢٠٩٣ جنيهًا سنويًا ، ولكن كان متوسط إيراد أراضى الوقف فيما بين ١٩٠٠ – ١٩٠٤ لا يتجاوز ١١٦٠ جنيهًا سنويًا . واضطرت الحكومة أن تخصص للمتحف ميزانية سنوية قدرها ٢٠٣٥ جنيهًا من الموازنة العامة ، مع زيادتها مرة واحدة لتغطية العجز المتراكم (٧٠) .

وعندما كان المتحف لا يزال فى مكانه القديم فى التسعينات ، أعرب لين پول عن تشككه من أن يكون واحداً من بين كل مائة سائح قد سمع بوجوده . وأولئك الذين عرفوا طريقهم إليه كانوا يظنونه المتحف الفرعونى (٧١) . ولكن متحف الفن العربى لم يستطع منافسة المتحف المصرى رغم موقعه المتميز – كعلامة ثقافية بارزة سواء فى عيون الغربيين أو المصريين ، وتكلف بناء المتحف المصرى الجديد عام ١٩٠٢ أربعة أضعاف ما تكلفه مبنى الكتبخانة ومتحف الفن العربى . ولا زال المتحف المصرى اليوم علامة ثقافية بارزة فى ميدان القاهرة المركزى ، رغم تطاول فندق هيلتون ومبنى جامعة الدول العربية ومبنى المجمع عليه ، بينما يقع متحف الفن العربى فى مكان لا يقطعه السياح إلا نادراً . وحدد دليل بايدكر السياحى للعام ١٩٠٨ قيمة كل من المتحفين من وجهة نظر صناعة السياحة ، فخصص الدليل ٢٤ صفحة للمتحف المصرى وخريطة مطوية لطابقيه ، ولم ينل متحف الفن العربى سوى صفحتين ونصف الصفحة (٧٢) . وفى العام ١٩١٣ بلغ عدد زوار المتحف المصرى ٢٩,٨٧٩ زائراً ، ويمثل هذا العدد ستة أضعاف زوار متحف الفن العربى البالغ عددهم ٥١٦٦ زائراً (٧٣) .

العمارة الإسلامية الجديدة :

وجاء تصميم مانيشالو لمبنى متحف الفن العربى والكتبخانة ، والتصميم المعدل الذى وضعه هرتز لاستكمال مسجد الرفاعى ، ولمبنى نظارة الأوقاف الجديد ، جاء ليضع أعضاء اللجنة قرب مركز إحياء العمارة « العربية » أو الإسلامية بالقاهرة . وكلمة « إحياء » تفترض وجود تدهور سابق عليها ، فعند منتصف القرن التاسع عشر ، عزفت مصر عن اتباع الطرز المماليكية والعثمانية فى تشييد المبانى الرئيسية . وكان مسجد محمد على بالقلعة من حيث الطراز المعمارى نقلاً حرفيًا للمساجد

السلطانية باستانبول ، في تحد رمزى للسلطان الذى ناصبه محمد على العداء . ولكن حتى عندما كان بناء المسجد يسير على قدم وساق فى الثلاثينات ، كان الطهطاوى يسبح بحمد العمارة الباريسية « المتحضرة » باعتبارها نموذجًا يحتذى (٧٤) . وعبَّر لين عن حزنه لما ترتب على إغارة العمارة الأوربية على القاهرة من نتائج وخيمة . ففى عهد سعيد وإسماعيل ، أقبل أثرياء المصريين والأجانب على إقامة المبانى أوربية الطراز ، واحتكر الإيطاليون صناعة البناء والزخرفة فى مصر (٧٥) .

ولم يكن إحياء العمارة الإسلامية سوى طراز أوروبى مستورد آخر ، يمثل - بدرجة أقل - نهضة معمارية ذات طابع محلى . فقد كانت المنافسة فى الغرب - فى القرن التاسع عشر - قائمة على قدم وساق بين إحياء الطراز القوطى والرومانى واليونانى ، والكلاسيكية الجديدة التى تستلهم أفكارها من عصر النهضة ، وأولئك الذين لم يقبلوا بأى من تلك الخيارات ، اتجهوا نحو « الشرق العريق » . فصمم چون ناش الجناح الملكى فى برايتون (١٨١٥ - ١٨٢٣) متأثرًا بالعمارة المغولية بشكل كان ملفتـًا للنظر ، ولكن أول مبنى بلندن استلهم العمارة الإسلامية كان البهو الملكى Royal Panopticon (عام ١٨٥٣) . وتأثر أوين چونز بدراسته لقصر الحمراء بالأندلس عند تصميمه الزخارف الداخلية للمعرض الكبير بكرستال پالاس (١٨١٥) ، كما تأثر بالقصر الإسلامى الذى أعيد بناؤه فى سندام ، وساعد كتابه « قواعد الزخرفة » (١٨٥٦) على نشر التصاميم الإسلامية ، وأصبحت الأجنحة ذات الطراز المعمارى الإسلامى الجديد شائعة بجميع المعارض الدولية ، ومن بينها جناح « شوارع القاهرة » بمعرض كولومبيا - شيكاجو سالف الذكر (٧٦) .

وفى باريس ، تمسكت « مدرسة الفنون الجميلة » ، ومجلس المبانى الحكومية بالأفكار الكلاسيكية وأفكار عصر النهضة كمثال للجمال الكونى ، فى مواجهة اتجاه إحياء الطراز القوطى الذى دعا إليه ڤيوليه لودوك « ولجنة الآثار التاريخية » (٧٧) ، وتنبأ شارم عام ١٨٨١ بأنه « سيأتى الوقت الذى يضيق فيه شباب المعماريين ذرعًا بالطرز اليونانية والرومانية التى كررها السابقون عليهم ، وقتلوها بحثًا ، وأصبحوا على علم بنتائجها قبل مغادرتهم باريس ، ويأتون إلى مصر ليقفوا على اتجاه لا يزال غفلاً » (٧٨) .

وكان پاسكال كوست قد مزج فى العشرينات الزخارف الإسلامية والفنون الجميلة فى المبانى ذات الطابع الإيطالى التى صممها لمحمد على . كما صمم كوست مسجداً مستلهما الآثار المماليكية ، ولكن تلك التصاميم لم تعرف طريقها إلى التنفيذ (٧٩) . وكان جيمس وايلد - صهر أوين چونز - قد جاء إلى مصر ضمن بعثة الآثار المصرية التى قادها ليپسيوس ، ثم بقى فى مصر لدراسة العمارة الإسلامية ، وكُلِّف بوضع تصميم لكنيسة القديس مرقص الإنجيلية بالإسكندرية . وقد مزج بين الزخارف البيزنطية والإسلامية لتأكيد التراث المسيحى العريق للمدينة ، وليوحى للمسلمين بنزعة التسامح الدينى عند بريطانيا . وعندما عاد وايلد إلى لندن عمل مستشاراً لمتحف ساوث كنجستون فى الزخرفة الإسلامية (٨٠) .

وفى الستينات ، وضع يوليوس فرانتز تصميم قصر إسماعيل بالجزيرة بمساعدة كوريل دلروسُّو على طراز انتقائى إسلامى جديد . وقام ألمانى آخر هو كارل ڤون ديبتس باستكمال ملحق القصر وواجهته من الحديد الزهر التى اتخذت شكل الأقواس الأندلسية . وقام المعمارى النمساوى فرانتيسيك شمورانتز ببناء قصر بالإسماعيلية على عجل ليكون جاهزاً عند افتتاح قناة السويس . وعندما عاد إلى ڤيينا قام بتنسيق الأغراض التى جمعها من القاهرة للجناح المصرى الذى قام بتصميمه للمعرض الدولى عام ١٨٧٣ ، وفيما يتعلق بالعمارة المحلية فى مصر ، أشاد بالڤيلا التى أقامها أمبرواز بودرى لنفسه بالقاهرة على الطراز « العربى » وعند انتهاء القرن بدأ آخرون يحذون حذوه فى العمارة المحلية (٨١) .

بدأت ضاحية مصر الجديدة عام ١٩٠٦ ، وكانت حلمًا استعماريًا شرقيًا للبارون البلچيكى إمبان . وقام جاسبى - المعمارى البلچيكى - بتصميم « شارع عباس » ، وفندق « هليوبولس پالاس » الذى يعد علامة على الضاحية . وكما حدث فى الكثير من المبانى العامة التى شيدت على الطراز الإسلامى الجديد ، استخدمت العناصر الإسلامية فى الزخرفة ، ولكن النوافذ والشرفات الخارجية ، وقاعات الاجتماعات كانت جميعًا غربية الطراز ، واتسمت النزعة الانتقائية فى مصر الجديدة بالتمرد ، فالحدائق الخارجية اتخذت طابعًا أندلسيًّا بينما استلهمت البواكى والأعمدة العمارة الإيطالية أو الفرنسية (٨٢) .

وإذا كانت الأقواس الأندلسية تفتقر إلى الأصالة فى القاهرة ، فما هى البدائل ذات الجذور المحلية التى يرتكز عليها إحياء العمارة الإسلامية ؟ كان الطراز العثمانى مستبعداً عند سعيد وإسماعيل اللذان تركا مسافة بينهما وإستانبول . ولم يكن هناك سوى جامع ابن طولون ممثلاً للطراز الإسلامى السابق على العصر الفاطمى ، وكانت هناك بضعة آثار فاطمية لا تزال قائمة ، ولكن المنشآت المماليكية المبهرة كانت ماثلة فى كل مكان . ورغم أن المماليك لم يكونوا فى الأصل عرباً أو مصريين ، فإن إحياء العمارة المماليكية كان ملائمًا تمامًا للنهضة العربية - المصرية ، بعد قرون قضتها مصر كمجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية . وكان الطراز المماليكى فى أوروبا واحداً من بين عدة نماذج استشراقية ، ولكنه أصبح فى مصر بمثابة العودة للجذور المحلية ، تمامًا مثل إحياء الطراز القوطى فى العهد الفيكتورى بإنجلترا .

كلَّف عباس الثانى ماكس هرتز ليضع خطة جديدة (عام ١٩٠٥) لاستكمال مسجد الرفاعى قبالة جامع السلطان حسن المماليكى الطراز . وكان حسين فهمى - كما ذكرنا من قبل - قد وضع التصميم الأصلى للمسجد ، وبدأ بناءه عام ١٨٦٩ . وقد انهارت القبة أثناء عملية البناء ، ثم توقف العمل بسبب إفلاس إسماعيل . وقد ألقى رونيه باللوم على خليل أغا وعدَّه مسئولاً عن سقوط القبة لعدم استجابته لتحذيرات المهندس المعمارى . وقد تعاون هرتز مع كارلو فرجيليو سيلڤانى فى وضع تصميم مماليكى جديد لاستكمال بناء المسجد (٨٣) .

وعمل فى خدمة القصر بمصر ، معماريون أوربيون آخرون من المهتمين بالعمارة الإسلامية . وفى عام ١٩١٠ ، انضم أنطونيو لاشياك - كبير المعماريين بالقصور الخديوية - إلى لجنة حفظ الآثار ، وكان يعمل بالطراز الإسلامى الجديد ، وغيره من الطرز المعمارية الأخرى .

وبعد قمع ثورة الهند عام ١٨٥٧ ، فضَّل البريطانيون الطراز المعمارى « الهندو - عربى » ليعطوا انطباعًا بتوطيد أقدامهم فى البلاد مثلما فعل المغول الغزاة من قبل . أمَّا فى مصر ، فكان الاحتلال حديث العهد محاطًا بمنافسات شديدةٍ من القوى الأوربية الأخرى ، ولا يجد متسعًا لمحاولة تقديم بيان مماثل من خلال العمارة . وكانت

هناك سياسة معمارية أخرى فى الهند تفرض على الأمراء استخدام الطراز الهندو - إسلامى فى مبانيهم لأنهم كانوا يريدون تأكيد حداثتهم من خلال بناء قصور على الطراز الكلاسيكى الجديد (٨٤) . أما فى مصر ، فقد أقام إسماعيل قصر عابدين على الطراز الكلاسيكى الجديد ، وعبَّر عباس الثانى عن حداثته ببناء قصر المنتزة بالإسكندرية على الطراز الفلورنسى الجديد . وعلى كل ، أخذ الطراز الإسلامى الجديد يروج بين الطبقة العليا من المصريين فى العقد الأول من القرن العشرين . وعندما توفى على بهجت كان يعيش فى ڤيلا على الطراز « العربى » بالمطرية (٨٥) .

كان أحمد زكى - الموظف بالقصر الخديو وعضو لجنة حفظ الآثار محبًا للكتب وعالمًا فى الأدب العربى ، وقد اعتبر الطراز المعمارى الإسلامى الجديد الذى ابتدعه الأوربيون فاشلاً من الناحية الفنية . واختلف أحمد زكى مع هرتز حول الجهود التى بذلتها اللجنة و« مدرسة الفنون الجميلة » - التى أقامها الأمير يوسف كمال - لإحياء الفن « العربى » (٨٦) . وكانت المدرسة قد فتحت عام ١٩٠٨ ، وتولى إدارتها المثَّال جيلوم لاپلان ، يعاونه بعض مدرسى الرسم والعمارة من الأوربيين ، واستهجن لاپلان الاتجاه نحو استعارة الطرز المعمارية الأوربية ، وعمل على إحياء الفن العربى ، الذى قضى عليه العثمانيون - على حد قوله - على مدى أربعة قرون مضت ، وتولى الأمير يوسف كمال الإنفاق على المدرسة مدة عقدين من الزمان ، وكانت الدراسة مجانية كما أوفد الأمير المثال محمود مختار إلى باريس لإكمال دراسته ، وقد انضم الأمير يوسف كمال إلى عضوية « لجنة حفظ الآثار » لفترة قصيرة (٨٧) .

وعند نهاية القرن برز المعماريون المصريون من خلف الظلال ، وبدأوا يكلَّفون بأعمال كبرى . ترى ، هل كان تركيزهم على الطراز المماليكى الجديد بحثًا عن الأصالة التى تضرب جذورها فى أعماق مصر ؟ ، أم كان نوعًا من الكلاسيكية الجديدة المصرية ؟ أم كانوا مجرد مقلدين للنماذج المعمارية التى أقامها الأوربيون بالقاهرة والإسكندرية ؟ ربما كانوا يجمعون بين ذلك كله ، فلم تتم دراستهم إلا قليلاً . وبعد الحرب العالمية الأولى ، ستصبح العمارة الفرعونية الجديدة - التى كان للأوربيين فضل ريادتها - أيضًا - مشابهة فى غموضها .

مواقع المقاومة ، موظفو الأوقاف والقصر :

حضـر كل من الأوربيين الخمسة - بالقسم الفنـى للجنة - الاجتماعات بمتوسط ١٩ مرة فيما بين ١٨٩٤ - ١٨٩٥ ، بينما لم يحضر كل من المصريين الأربعة بنفس القسم اجتماعات اللجنة إلا خمس مرات خلال نفس الفترة (٨٨) ، وربما كان ذلك نوعًا من المقاومة السلبية ، أو خشية مواجهة الخبراء الأوربيين ، أو بسبب قلة الاهتمام ، أو نتيجة ضغط العمل ، كلها أسباب ربما أسهمت معًا فى الحد من مواظبة المصريين من الأعضاء على حضور اجتماعات اللجنة . لقد عبَّر المصريون الآخرون من أعضاء اللجنة - غالبًا من موظفى الأوقاف وممن لهم صلات بالقصر - عن مقاومتهم الضمنية للهيمنة الأوربية على اللجنة ، وذلك فى السنوات التى أعقبت ترك على مبارك لها . ولما كانت مضابط الاجتماعات بيد الأوربيين ، يحتاج الباحث إلى قراءة ما بين السطور ليستشف تلك المعارضة المقنَّعة .

لقد قام محمد على بوضع يده على الكثير من الأوقاف المحبوسة على دور العبادة ، مما أدى إلى الإسراع فى تداعى العديد من الأوقاف فى اختصاص إدارة حكومية ، ارتقى بها اسماعيل إلى مستوى الوزارة (النظارة) ، وفى العام ١٨٨٤ ، هبط بها توفيق إلى مستوى « المصلحة » لينأى بها عن مجلس النظار (الذى كانت قبضة الإنجليز عليه قوية) ، وليجعلها تابعة له مباشرة : وأتاح ذلك لتوفيق ، وعباس الثانى - من بعده - موارد مالية بعيدة عن تدخل الإنجليز ، استخدمت لأغراض الرعاية . وبذلك كان كبار موظفى الأوقاف من رجال القصر ، وليس من قبيل الصدفة أن رؤساء الوزارة (فيما بعد) : حسين رشدى ، وعدلى يكن ، وأحمد زيور ، وإسماعيل صدقى ، تولى كل منهم منصب مدير عام مصلحة الأوقاف ، فلم يكن كرومر يتدخل فى شئون الأوقاف أو الأزهر خشية رد الفعل الدينى . وأعاد كتشنر الأوقاف إلى مستوى الوزارة عام ١٩١٣ ، ولكنه فشل فى مسعاه لكف يد القصر عن التحكم فى ميزانيتها (٨٩) .

وكانت رئاسة اللجنة لناظر الأوقاف ، كما كان أربعة من بين الأحد عشر عضواً الأصليين موظفون بالأوقاف (هرتز وثلاثة من المصريين) . وظهر نسق للتصويت باللجنة ، استطاع من خلاله الأوربيون ، والعضوان الأرمينيان ، وعضو مسلم واحد ،

التغلب على المقاومين ، وتحقيق استقلالية اللجنة عن الأوقاف . وفى عام ١٨٩٠ تجاوزت اللجنة اعتراضات الخديو ، وأنشأت مكتب فنى خاص لإصلاح الآثار . ولكن مهندس الأوقاف صابر صبرى ، وإسماعيل الفلكى ، وقفا إلى جانب ناظر الأوقاف على رضا فى التصويت على إلغاء المكتب الجديد ، غير أن الأوربيين الأربعة ، ويعقوب أرتين ، وحسين فخرى ناظر الأشغال العمومية هزموا اقتراح الإلغاء [٩٠] . ولعب فخرى وأرتين نفس الدور – فى مناسبات عدة – لمناصرة التكتل الأوروبى باللجنة . ورغم أن فخرى وأرتين أحسًا بالألفة فى الوسط الفرانكفونى باللجنة ، والجمعية الجغرافية الخديوية ، والمجمع العلمى المصرى ، بشكل يفوق الدوائر الناطقة بالإنجليزية ، فقد توصلا إلى تفاهم براجماتى مع المحتلين البريطانيين .

واتبعت « معارضة الأوقاف » المهزومة أسلوب المباغتة ، فعندما كان الأوربيون يقضون إجازة الصيف ببلادهم عام ١٨٩٣ ، دعا صبرى والفلكى إلى اجتماع عاجل للقسم الفنى ، وأضافوا إلى القسم أربعة من المهندسين المصريين بحجة متابعة الأعمال العادية خلال الصيف . وفى العام ١٨٩٧ ، احتج صبرى وعضوان آخران على تنظيف الآثار الحجرية باستخدام محلول البوتاسيوم واقترحوا بدلا من ذلك اتباع أسلوب الحك الشديد (السنفرة) لتنظيف تلك الآثار ، ولكن غالبية أعضاء اللجنة خذلتهم ، واتخذت قراراً بمنع « كشط أو حك أى حجر » . وقام القسم الفنى – أيضًا – بتأنيب صبرى لقيامه بإدخال تعديلات على تقرير عن الإصلاحات بعدما وقع عليه الأعضاء [٩١] .

وهزمت نفس الأقلية عندما أدخل فخرى والأوربيون من أعضاء اللجنة الآثار القبطية تحت حماية اللجنة عام ١٨٩٦ ، ووافق البطريرك على المساهمة فى إصلاح الآثار القبطية ، وألا تذهب أى من أموال الأوقاف إلى الكنائس ، وصوت الأوربيون الخمسة والأرمينيان وحسين فخرى إلى جانب ضم اثنين من الأقباط إلى عضوية اللجنة ، وتغلبوا بذلك على فيظلى – رئيس اللجنة – وصابر صبرى ، وإسماعيل الفلكى الذين رأوا ضم واحد فقط . ولكن لم تتم الموافقة على تغيير اسم اللجنة لتصبح « لجنة حفظ آثار الفن العربى والقبطى » [٩٢] . وسيعود الفصل السابع من هذا الكتاب إلى تناول دور الأرمن والأقباط خاصة فى اللجنة والحياة الوطنية .

على بهجت ، والوطنية ، والمستشرقون :

لولا اصطدام على بهجت بدوجلاس دانلوب - الإسكتلندى الصارم الذى أدار نظارة المعارف لحساب كرومر - لظل حتى تقاعده موظفًا مجهولاً بالمعارف . فقد حدث ذات مرة فى أواخر التسعينات أن أعد بهجت ووكيل النظارة أرتين يعقوب خطابًا لناظر المعارف حسين فخرى لتوقيعه ، فتورط حسين فخرى فى الخطأ عندما وقَّع الخطاب دون الرجوع إلى دانلوب مستشار المعارف ، فاضطره الأخير أن يسحب توقيعه - فيما بعد - فكتب على بهجت مقالاً بدون توقيع نشرته جريدة « المؤيد » المعارضة للاحتلال ، هاجم فيه دانلوب ودافع عن فخرى وأرتين . واكتشف دانلوب فعلة بهجت ، وكاد يدمر مستقبله لولا تدارك فخرى وأرتين للأمر ، فاتخذا - عن طريق لجنة حفظ الآثار - قرارًا بنقل بهجت إلى مصلحة الآثار ، بعيدًا عن متناول دانلوب [٩٣] .

وتعكس هذه الحادثة حقيقة وضع الوزير فى إطار جدلية الإمبريالية / الوطنية ، فالوزراء لا يملكون رفض « نصيحة » المستشار البريطانى ، كما كان الخديو عباس حلمى الثانى لا يملك تجاهل ممثل بريطانيا صاحب اللقب المتواضع « القنصل العام » . وكان دانلوب وكرومر - ولا يزالان - عدوين لدودين فى نظر الوطنيين المصريين .

كانت « المؤيد » التى يصدرها الشيخ على يوسف بمثابة المتحدث غير الرسمى بلسان عباس الثانى ، الذى شجع الطلبة والمهنيين على معارضة الاحتلال . وفى العام ١٨٩٦ ، انضم على بهجت ، ولطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، وطلعت حرب ، وأربعة آخرين إلى جمعية سرية لتحرير مصر . وأصبح طلعت حرب مشهورًا باعتباره مؤسس بنك مصر وشركاته ، وأصبح عبد العزيز فهمى قانونيًا بارزًا ، وأصبح لطفى السيد رئيس تحرير « الجريدة » مديرًا للجامعة المصرية ، ووزيرًا ، وموجهًا لجيل كامل من المصلحين . واشتم عباس وجود الجمعية فطلب من صفيه مصطفى كامل أن يحضر لطفى السيد إلى القصر ، وكانت ثمرة هذا الاجتماع ، أن أرسل عباس (فى ١٨٩٧) لطفى السيد إلى سويسرا للإقامة لمدة عام ليتأهل للحصول على جنسيتها ، عندئذ يعود إلى مصر لإصدار جريدة معادية للاحتلال تحت حماية الامتيازات الأجنبية . وحمل لطفى السيد معه بعض الكتب من على بهجت لتوصيلها إلى عالمين فى سويسرا :

المستشرق ماكس ڤان بيرشم ، وعالم المصريات إدوارد ناڤيل . وحضر لطفى السيد بعض محاضرات جامعة جنيف ، كما ساعد بيرشم فى أبحاثه [٩٤] . ولكن مشروع عباس لم يقدر له النجاح ، فقد وصل الشيخ محمد عبده - الذى كان على علاقة سيئة بالخديو - إلى جنيف وأصبح صديقًا حميمًا للطفى السيد ، فقطع الخديو معونته المالية للطفى السيد عندما بلغته أنباء تلك العلاقة . وعاد لطفى السيد إلى مصر تاركًا لمصطفى كامل مهمة بدء مرحلة من الصحافة المعارضة للاحتلال عام ١٩٠٠ من خلال جريدة « اللواء » .

كتب على بهجت مقالات نشرت بمجلة « الموسوعات » فيما بين ١٨٩٨ - ١٩٠١ ، وقعها أحيانًا باسمه ، وأحيانا أخرى بالاسم المستعار « آثارى » [٩٥] ، ورشحه يعقوب أرتين للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة لمساعدة الباحثين فى اللغة العربية ، والتقى على بهجت وماكس ڤان بيرشم فى ذلك المعهد ، الذى شجعه على خوض غمار الدراسات الشرقية ، وعلم المتاحف ، والآثار الإسلامية .

واستطاع فخرى وأرتين أن ينقذا بهجت من دانلوب بفضل علاقتهما الوثيقة بالدوائر الفرانكفونية والمؤسسات الثقافية بمصر . فقد ولد حسين فخرى لأسرة من النخبة « التركية » التى خدمت محمد على ، كان والده - جعفر صادق - قائدًا عسكريًا شركسيًا ، وكان حسين فخرى أصغر من أرتين - وكيل الوزراء الأرمنى - بعام واحد . وقد درس القانون بفرنسا لمدة أحد عشر عامًا وعمل بالنيابة هناك ، وعاد إلى مصر عام ١٨٧٤ قبل أن يؤسس نوبار وإسماعيل المحاكم المختلطة بوقت قصير ، وأعطى تأسيسها الأفضلية المطلقة لمن خبروا القانون الفرنسى ، وأصبح حسين فخرى ناظرًا للحقانية (وزيرًا للعدل) وهو فى السادسة والثلاثين ، ثم رئيسًا للنظّار فى سن الأربعين ، رغم أن وزارته لم تدم سوى ثلاثة أيام ، لأن عباس الثانى كلفه برئاستها دون استشارة كرومر . ولعل إجهاض وزارته أعطاه « شهرة لا يستحقها كوطنى » [٩٦] . ولكنه عاد بعد عام واحد عضوًا بوزارة مصطفى فهمى ، فظل ناظرًا للمعارف والأشغال العمومية لمدة ١٢ عامًا .

ولعب حسين فخرى دور الرئيس التركى لأرتين - المثقف والعالم والمترجم - فى لجنة حفظ الآثار ، والمجمع العلمى المصرى ، والجمعية الجغرافية . وخلال السنوات الطوال التى شغل فيها منصب نائب رئيس المجمع والفترة القصيرة التى تولى فيها رئاسته ، لم يقم فخرى بإلقاء بحث واحد ، بينما قدَّم أرتين فيضًا من التقارير ، والترجمات ، والأوراق البحثية (٩٧) .

وقد قام فخرى وأرتين بإلحاق على بهجت بلجنة حفظ الآثار فى بداية عام ١٩٠٠ ، ولكنهما لم يتمكنا من إلحاقه بوظيفة بمصلحة الآثار إلا بعد عامين . وحاولا تعيينه أمينًا لمتحف الفن العربى ، ولكن هرتز حصل على هذه الوظيفة فى يناير ١٩٠٢ (مع استمراره فى العمل كبيرًا للمعماريين والأوقاف وباللجنة) ، وحصل بهجت على وظيفة أمين مساعد للمتحف براتب قدره ٢٥ جنيهًا شهريا ، وقدر له أن يعمل ١٢ عاما تحت رئاسة هرتز (٩٨) .

كان فخرى شركسيًا ، وأرتين أرمينيًا ، وبهجت تركى الأصل ، وربما نظر الوطنيون إلى الأولين نظرتهم إلى المتعاونين مع الاحتلال ، وإلى بهجت نظرتهم إلى المهنى البعيد عن السياسية . فمن كان مثله كأحمد كمال وإسماعيل الفلكى ، وأحمد شفيق ، وأحمد زكى ، خالطوا الأوربيين فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية ، والجامعة المصرية عندما كان الاحتلال فى عنفوانه والإمبريالية فى ذروة هيمنتها . فإذا كانوا لم يبلغوا من الوطنية ما بلغه مصطفى كامل ، وما بلغه - فيما بعد - سعد زغلول ، فإن أحمد كمال وعلى بهجت تحدوا ادعاء الأوربيين بأنهم وحدهم أهل العلم والمعرفة والكفاءة فى الإدارة ، وبذلك وضع أحمد كمال وعلى بهجت الأسس الثقافية التى بنى عليها الوطنيون فيما بعد . وقد خطا بهجت خطواته الأولى على طريق الآثار الإسلامية عام ١٨٨٧ ، عندما ترجم الأعمال الأولى للجنة حفظ الآثار إلى اللغة العربية ، ويبدو أن أرتين كان وراء تكليفه بهذا العمل ، وفى عام ١٨٩٤ ترجم إلى العربية تقريرًا كتبه أرتين عن التعليم ، ويبدو أن تزكية أرتين له لدى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية كانت تهدف إلى إعطائه قدرًا من « التدريب العلمى » لباحث واعد لم تتح له فرصة الدراسة بأوروبا (٩٩) .

كان مـاكس ڤان بيرشم - الذى التقاه بهجت بالمعهد الفرنسى - مؤسس علم النقوش الإسلامية ، ولد لأسرة كلڤينية ثرية بجنيف ، وحصل على الدكتوراه فى الاستشراق من جامعة ليبزج ، وفى العام ١٨٨٧ جاء إلى مصر فى رحلة سياحية مع والدته . وبعد خمس أعوام من تلك الزيارة دعا إلى تنظيم حملة دولية لكتابة موسوعة للنقوش العربية تضاهى ما فعله أوجست بوخ لليونان وتيودور مومسن للاّتين . وحشد بيرشم كبار المستشرقين الذى عكفوا على النصوص الأدبية المتاحة بالمكتبات الأوربية . ورد على مقولة إرنست رينان المثبطة . « النقش ليس نصًا » ، بقوله : « إن دراسة الأثر دراسة جيدة أفضل من خير النصوص » ، وأشاد به ماسپيرو :

« كنت أظن حتى الآن مدرسة الاستعراب أخطأت الطريق برفضها أن ترى فى العربية ما هو أكثر من النحو والأدب ، يدرسانهما داخل مقصورة (مغلقة) . ولكن دراساتك بالقاهرة توضح ما يمكن عمله فى مجال الآثار ، وما يمكن أن يترتب على ما لا يزال باقيًا من تلك الآثار من تحديد لحقيقة الشرق الإسلامى » [١٠٠] .

بدأ پيرشم عمله فى الآثار كمستعرب يعمل فى بعثات تركز على آثار ما قبل الإسلام [١٠١] . وفى العام ١٨٩٥ أصبح عضوًا مراسلاً بلجنة حفظ الآثار ، ودعمت أكاديمية النقوش والآداب بفرنسا مشروعه لإعداد موسوعة للنقوش العربية من خلال المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة . ونشر المجلد الأول من « أعمال جمع النقوش العربية » عام ١٩٠٣ . وبعد ذلك بأربع سنوات ، جعلته لجنة حفظ الآثار عضوًا فخريًا ، ولم يكن صدر من مجموعة النقوش العربية سوى القليل عندما شب أوار الحرب العالمية الأولى ، وتفرقت السبل بالفريق العلمى الدولى الذى جمعه پيرشم . وبعد وفاة پيرشم عام ١٩٢١ ، نشر جاستون ڤييت ملحقًا بالمادة المصرية ، وأسهم فى العمل الأقل طموحًا من مشروع پيرشم ، والذى وقع فى ١٦ مجلدًا « تقرير زمنى عن النقوش العربية » (القاهرة ١٩٣١ - ١٩٥٤) ، ويعمل برنارد أوكين مع مركز البحوث الأمريكى بالقاهرة الآن على نشر جميع النقوش العربية بالقاهرة السابقة على العام ١٨٠٠ .

كان ڤان بيرشم فخوراً بحياد چنيف ونزعتها الدولية ، ولما كان أقل شبهة من زملائه البريطانيين والفرنسيين والألمان من حيث التورط فى أغراض إمبريالية ، فقد اتسعت دائرة أصدقائه متجاوزة كل الانقسامات والخلافات . كان صديقًا لخليل أدهم مدير عام متاحف استانبول ، وكانت علاقته بعلى بهجت حميمة ، حتى أنه اعتبره مساويًا له : « إننى مدين بالكثير لصديقى الذى تعاون معى على أفندى بهجت ، فقد قضى أيامًا كثيرة فى الكشف عن نقوش القاهرة وقراءتها معى . ووجدت فى إخلاصه الدائم ، ودقته وخبرته الأثرية ، بالإضافة إلى امتلاكه المتميز لناصية لغته الوطنية ، خير عون لى خلال قيامى بالبحث » (١٠٢) .

وفى عام ١٨٩٨ ، ألقى على بهجت أول بحث له أمام المجمع العلمى المصرى ، وكان فى الأربعين من عمره ، بفضل مساعدة أرتين وفخرى له ، للارتقاء من مجال الترجمة إلى البحث ، إلى عضوية لجنة الاستشراق . وجمعت ورقه البحث التى قدمها بهجت بين التراث النابليونى والماضى العربى الإسلامى فى تاريخ المجمع . فقد عثر فى أرشيف محكمة رشيد على عقد زواج الچنرال مينو الذى اعتنق الإسلام وتزوج من امرأة مصرية . وبعد عامين من تقديم بهجت لبحثه اختاره المجمع عضواً . وفى الفترة من ١٩٠٧ حتى ١٩٢٢ كان عضواً بلجنة النشر إلى جانب ثلاثة من الأوربيين . وعندما أصبح نائبًا لرئيس المجمع عام ١٩٢٣ ، وكان قد قدم عشرة بحوث هناك ، وكان من بين موضوعاتها : الحسابات العربية الخاصة بالأهرام ، وتراجم المكتشفين العرب ، وتاريخ وجغرافية مصر فى عصر المماليك ، وتقرير عن حفائره فى الفسطاط (١٠٣) .

وشارك الأعضاء الآخرون بلجنة حفظ الآثار أرتين وعلى بهجت اهتمامهما بالفن الإسلامى ، وكان من هؤلاء صابر صبرى ، وأحمد زكى ، وبوغوص نوبار . وربما كان فخرى وأرتين وراء انضمام بهجت إلى الجمعية الجغرافية التى احتكر الإيطاليون رئاستها لعدة سنوات قبل الحرب العالمية الأولى (١٠٤) .

كان النشاط بإحدى تلك المؤسسات الثقافية يستدعى الانضمام إلى غيرها ، ففى عام ١٩٠٨ ، انضم على بهجت إلى مجلس الجامعة المصرية الأهلية التى كان كرومر قد عارض مشروعها حتى لا تصبح مركزًا لتفريخ الوطنيين ، ولكن خلفه السير ألدون جورست كان قد توصل إلى تفاهم مع عباس الثانى الذى أسند إلى عمه أحمد فؤاد

مهمة إقامة وإدارة الجامعة (*) ، وكان من أعضاء مجلس الجامعة ماسپيرو ، ويعقوب أرتين ، وأحمد زكى ، والوزير حسين رشدى .

وحضر على بهجت إجتماعات مجلس الجامعة بانتظام حتى العام ١٩٢٢ ، عندما استقال لأسباب صحية ، وعمل سكرتيراً للمجلس فيما ١٩١٩ - ١٩٢٢ ، وكان المجلس يضم - فى عام ١٩١٩ - رئيس مجلس الوزراء حسين رشدى ، وأربعة ممن أصبحوا رؤساء مجلس وزراء فيما بعد (سعد زغلول ، عبد الخالق ثروت ، إسماعيل صدقى ، محمد محمود) ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمود فهمى المهندس بالأوقاف ، وفوكار مدير المعهد الفرنس للآثار الشرقية . وقد حضر سعد زغلول - مراقب الجامعة - اجتماع المجلس المنعقد فى مارس ١٩١٩ ، قبل اعتقاله بثلاثة أيام ونفيه من البلاد ، الذى أدى إلى انطلاق الثورة فى جميع أنحاء البلاد ضد الوجود البريطانى . وتولى بهجت القيام بعمل « مراقب الجامعة » أثناء غياب سعد زغلول بالمنفى (١٠٥) .

وأخيراً ، انضم على بهجت إلى جماعة « أصدقاء الفنون الجميلة » ، وأصبح عضواً بمجلس الكتبخانة (دار الكتب المصرية) ، وقام بترجمة تقرير الكتبخانة عن العام ١٩٠٨ ، إلى اللغة العربية . فهل مارس الحديث بالألمانية مع مديرى الكتبخانة من الألمان ، أو مع هرتز - رئيسه باللجنة ومتحف الفن العربى ؟ . لقد أثبت بهجت قدرته على الحديث بالألمانية بطلاقة عندما قام بعرض بعض مقتنيات متحف الفن العربى فى أول معرض للفن الإسلامى ، أقيم بمدينة ميونخ عام ١٩١٠ (١٠٦) .

تمثيل مصر فى المؤتمرات الدولية للمستشرقين :

كان المجمع العلمى المصرى ، عند على بهجت ، بمثابة نقطة انطلاق إلى دوائر الاستشراق بالخارج ، ففى العام ١٨٩٩ قرأ ورقة بالمؤتمر الدولى الثانى عشر

(*) كان مشروع الجامعة عملاً أهلياً وطنياً خالصاً ، لم يكن الخديو عباس حلمى الثانى طرفاً فيه ، وقد جاء اختيار الأمير أحمد فؤاد لرئاسة اللجنة بمبادرة من المؤسسين لدفع معارضة الخديو والإنجليز ، واجتذاب التبرعات من الأثرياء . (المترجم)

للمستشرقين المنعقد في روما ، كانت عن القلقشندى وكتابه : « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، الذى نشر فى القاهرة - فيما بعد - (١٩١٤ - ١٩٢٨) . وعلق فان بيرشم على البحث - فى الجلسة - متحدثًا عن أهمية الموضوع ، وعن الآمال المعلَّقة على صاحبه . وكان بهجت في صحبة أقطاب الاستشراق بذلك المؤتمر : إجناتز جولد تزهر ، وماكس مولر ، وإدجار جرانفيل ، وإذا عبر القاعة التى ألقى فيها بحثه ، وجد نفسه فى صحبة علماء المصريات من أمثال : إرمان ، وناڤيل ، وشيا باريللى ، وبرستد ، ولعله استمع إلى تقرير بوتّى عن حفائر المتحف اليونانى - الرومانى بالإسكندرية (١٠٧) .

كانت تلك أول مشاركة من جانب على بهجت فى القضية التى تبناها المستشرقون وعلماء عصر النهضة من العرب ، وهى دراسة ، وإحياء ، ونشر المخطوطات العربية . وفيما بعد ، اختار بهجت تاريخ البلاذرى ، الذى يتناول الفتوح الإسلامية الأولى ، لتتولى طباعته « جمعية نشر الكتب العربية » ، وحقق المخطوط الفاطمى « ديوان قانون الرسايل » (١٠٨) .

لقد تناول أنور لوقا ، وتيموثى ميتشل ، وكارتر فيندلى ، المؤتمر الدولى للمستشرقين باعتباره مكانا لتواصل المستشرقين والمسلمين (١٠٩) . فيذهب ميتشل إلى أن « الشرقيين » الذين شاركوا فى مؤتمرات المستشرقين ، قضوا على الانقسام بين الموضوعى والذاتى . فهل باستطاعة الشرقى أن يكون مستشرقًا ؟ ، وما مكان العالم « الشرقى » فى جمهورية العلم ، العالمية نظريًا ، التى يسيطر عليها الغرب من الناحية الفعلية ؟ .

لم يكن بهجت أول عربى يقدم بحثًا فى مؤتمر المستشرقين الدولى ، فقد أرسل إيليا القدسى - الشامى المسيحى - بحثًا من دمشق إلى المؤتمر السادس للمستشرقين الذى عقد فى ليدن عام ١٨٨٣ ، كانت عن « طوائف الحرف فى دمشق » . ووصلت ورقته بعد انفضاض اجتماعات المؤتمر ، ولكن المستشرق السويدى كارلو لاندبرج - القنصل العام السابق بالإسكندرية - امتدح طريقة القدسى فى عرض مادته التى ليست فى متناول الباحثين الأوربيين ، ونشر الورقة بنصها العربى ضمن أعمال المؤتمر .

وأراد لاندبرج بذلك أن يبيِّن « للشرقيين من خلال نشر تلك الورقة رغبتنا فى أن نراهم يشغلون أنفسهم قليلاً بالعلم من أجل العلم » . ولكنه ذكَّر العرب الذين ينوون المشاركة بأوراقهم فى المستقبل بضرورة الاهتمام التام بضبط النحو العربى (١١٠) .

أرسلت مصر - فى بداية الأمر - إلى المؤتمر السابع للمستشرقين الذى عقد فى ڤيينا عام ١٨٨٦ ، المتخصصين فى اللغة العربية ، بما فيهم الأزهريين الذين قاموا بالتدريس بدار العلوم . ونشرت الورقة التى قدمها حفنى ناصف عن اللهجات العربية ضمن أعمال المؤتمر (١١١) .

وحضر الشيخ حمزه فتح الله المؤتمر الثامن (عام ١٨٨٩) الذى قسم جلساته بين ستوكهلم وكريستيانا ، وتولى عبد الله فكرى باشا - ناظر المعارف السابق ، ومعلم أبناء الخديو - رئاسة الوفد المصرى . وتولى ولده محمد أمين فكرى - الذى تعلم فى باريس - أعمال السكرتارية والترجمة . وامتدت مهمة الوفد إلى زيارة لندن والمعرض الدولى بباريس ، بعد انتهاء أعمال المؤتمر . وتوفى عبد الله فكرى - بعد عودته - دون أن يكمل تقريره عن المهمة ، فلم يتجاوز ما كتبه ١٢ صفحة ، أكملها ولده محمد أمين فكرى ليصل بصفحات التقرير إلى ٨٠٠ صفحة (١١٢) .

وكان لاندبرج قد حث الخديو توفيق على إرسال الوفد ، وبذل جهده - كمضيف - لجعل أعضاء الوفد يحسون بمعاملة الزملاء ، وألقى عبد الله فكرى قصيدة عربية عند مقابلته لملك السويد ، ورد عليه لاندبرج بالعربية مادحًا الخديو توفيق . وقام أمين فكرى بإهداء ملك السويد كتابًا عربيًا عن جغرافية مصر يمثل مختصراً لخطط مبارك التى عاونه فى جمع مادتها (١١٣) . والتقى الوفد من المستشرقين جولد تزهر - الذى درس بالأزهر - وكان يتحدث العربية بطلاقة . وترأس المندوب العثمانى أحمد مدحت أحد الاجتماعات ، وترجم للمصريين ، كذلك كان هناك وفد فارسى أيضًا . وكان الخدم فى حفل الاستقبال يرتدون الزى المصرى ، وعزفت موسيقى أوبرا عايدة التى اعتبرها عبد الله فكرى اختيارًا مناسبًا للمؤتمر .

خصص أمين فكرى ٢٥ صفحة من كتابه لدحض مذكرة المستشرقين التى تدعو إلى استخدام العامية فى الكتابة بدلاً من الفصحى . وقد قرأ المصريون أوراقهم

بالعربية فى قسم اللغات الإسلامية والسامية بالمؤتمر ، ولكنهم ظلوا يلتزمون الصمت فى الجلسات التى لم يحضرها أحد ممن يعرفون العربية من الأوربيين للقيام بالترجمة . وكان أمين فكرى يرى أن تقدم جميع أوراق المؤتمر بلغة الشعوب التى يقوم المستشرقون بدراستها وليس باللغات الأوربية (١١٤) .

وعلى كلٍّ ، رأى البعض فى إلقاء الشرقيين لأوراقهم بلغتهم ، خطأً كبيراً . وتململ أحد علماء أوكسفورد قائلاً : « لم أسمع شيئًا جديداً بأن يصدر عن رجل متزن ، سوى . . . التقعر فى نطق الكلمات على نحو ما يفعل طلاب الأزهر بالقاهرة ، إن مثل هذه الاستعراضات فى المؤتمرات تنقص من قدرها » (١١٥) .

وألقى أحمد شوقى قصيدة أمام المؤتمر الدولى التاسع للمستشرقين المنعقد بلندن عام ١٨٩٢ ، وكان سعد زغلول من بين الحضور ، وكان ڤولرز يمثل الكتبخانة الخديوية فى المؤتمر ، وقدم - بعد عودته - تقريراً عن أعمال المؤتمر للمجمع العلمى المصرى (١١٦) ، ولكن أحمد زكى (١٨٦٧ - ١٩٣٤) ، الذى كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، بزَّ غيره من المصريين ، وكان ذلك شأنه فى المؤتمرات القليلة التالية . تخرَّج أحمد زكى فى مدرسة الإدارة العليا بالقاهرة ، وكان رجل القصر ، عمل سكرتيراً لمجلس النظار لفترة طويلة ، واكتسب لقب « شيخ العروبة » لتفقهه فى اللغة العربية ، وآدابها ،. وأغنت مكتبته الخاصة التى تركها دار الكتب المصرية ، ولكن الكتابات الغربية لم تعطه الاهتمام الكافى . ففى مؤتمر لندن للمستشرقين تحدث عن العهد الذى أعطاه النبى محمد للمسيحين فى سيناء ، وقال بتزويره ، وألقى تقريراً عن المخطوطات العربية بمكتبة الإسكوريال ، وترجم القصيدة التى ألقاها الشيخ حمزة فتح الله إلى الفرنسية . وقد اختير زكى ، وزميل فارسى ، وآخر هندى ضمن لجنة الستة عشر ، التى أنيط بها تقرير مكان عقد المؤتمر التالى (١١٧) ، مما ينفى مقولة تهميش « الشرقيين » فى تلك المؤتمرات ، وقد كتب أحمد زكى كتاباً عن المؤتمر وزيارته للندن ، وحضر المؤتمر العاشر بجنيف (١٨٩٤) والثالث عشر بهامبورج (١٩٠٢)، والسادس عشر بأثينا (١٩١٢) .

وفى العام ١٩٠٥ ، عبر مؤتمر المستشرقين الدولى البحر المتوسط إلى الجزائر حيث عقد المؤتمر الرابع عشر ، واختار المفتى الشيخ محمد عبده العلماء من المشايخ الذين مثّلوا مصر بالمؤتمر ، كان أشهرهم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى لم يلبث أن لمع نجمه فى الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل (١١٨) .

وعقد المؤتمر دورته السادسة عشر فى أثينا عام ١٩١٢ ، وبعد ذلك أدت الحرب العالمية الأولى إلى تعطيل اجتماعاته لمدة ستة عشر عامًا ، وشارك يعقوب أرتين فى المؤتمر الذى عقد فى باريس ١٨٧٣ ، كما كان ممن حضروا مؤتمر أثينا ، وألقى أحمد شوقى قصيدة ، مرة أخرى ، وأشاد الأمير أحمد فؤاد - مدير الجامعة المصرية - بالمنافع التى عادت على البلاد العربية على يد المستشرقين (١١٩) . وتحدث أحمد زكى عن تحمس المسلمين الأوائل لعلوم وفلسفة الإغريق ، وامتدح الصحوة الثقافية القائمة فى اليونان ومصر ، وتولى جولدتزهر وكريستيان سنوك هرجرونچى رئاسة الجلسات التى قدم فيها أحمد زكى ثلاثة ورقات ، وكان من بين المستمعين إليه : لوى ماسنيون ، وأوجست فيشر ، وداڤيد مرجليوث ، وهنرى لامن . وألقى حفنى ناصف ورقة عن ماريا القبطية زوجة الرسول ، وتحدث الشيخ أحمد الإسكندرانى عن الأدب الحديث المكتوب بالعامية المصرية (١٢٠) .

وهكذا ، على نقيض المصريات التى سيطر فيها الأوربيون وحدهم على أعمال مؤتمر المستشرقين الدولى فى مجالها طوال الأربعين عامًا السابقة على الحرب العالمية الأولى ، كان لعلماء الدراسات العربية - الإسلامية من المصريين حضور إلى جانب المستشرقين من أمثال : ألفريد ڤون كريمر ، وجولتزهر ، وإجناسيو جيدى ، ومايكل دى جوچيه ، وسنوك هرجرونچى ، وكارل بيكر ، ولوى ماسنيون ، وقدموا أوراقهم البحثية فى المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ الثمانينات حتى الحرب العالمية الأولى ، وكان بعض المستشرقين إمبرياليين فاجرين ، لم يرحبوا بمشاركة « الشرقيين » فى المؤتمرات التى كانت اجتماعاتها تحت سيطرة الغربيين ، ولكن الأمور لم تسر فى اتجاه واحد ، فلو شعر أحمد زكى بالإهمال والإقصاء لما داوم على حضور تلك المؤتمرات .

تمثيل مصر ، « شوارع القاهرة » فى المعارض الدولية :

كان من بين الرسائل التى أراد معرض باريس الدولى (١٨٨٩) توصيلها ، هى انتصار الإمبريالية الغربية على باقى بلاد العالم . وبالنسبة لمصر ، أغلق الاحتلال البريطانى الباب فى وجه تمثيل مصر بالمعرض ، فقد أدى التضييق فى الإنفاق المالى الذى مارسه بيرنج إلى منع ماسپيرو من مواصلة التقليد الذى اتبعه مارييت من عرض الآثار المصرية بالمعارض الدولية . وكانت شركة قناة السويس قد تحملت نفقات معرض باريس عام ١٨٧٨ بدلاً من إسماعيل ، ولكن فى عام ١٨٨٩ كانت شركة قناة بناما التى أقامها ديلسبس تعانى الانهيار ، والفضيحة .

وقام رجل أعمال فرنسى مقيم بمصر ، هو البارون ديلور دى جليو بتنظيم جناح خاص بمعرض باريس (١٨٨٩) [١٢١] ، باسم « شارع القاهرة » وأقام به نموذجًا مصغراً لمئذنة جامع قايتباى ، واستخدم فى إقامة الشارع الكثير من المواد الزخرفية التى انتزعت من البيوت القاهرية ، وتضمن العرض التجار والحرفيين ، واثنتين من الراقصات ، وخمسين حماراً أثاروا الصخب بدوابهم التى كانت أجرة ركوبها فرنك واحد : وتم إدخال تعديلات على « شارع القاهرة » على يد مستثمرين آخرين بمعرض شيكاجو عام ١٨٩٣ ، ومعرض باريس عام ١٩٠٠ .

وكتب بعض المصريين ممن زاروا معرض باريس الدولى عام ١٨٨٩ من أعضاء وفد عبد الله فكرى إلى المؤتمر الدولى للمستشرقين المنعقد فى ستوكهلم ، فقدم أمين فكرى وصفًا تفصيليًا للمعرض . كانت شركة توماس كوك ممثلة هناك ، وتولت ترتيب كل إجراءات سفر الوفد ، ولذلك خص أمين فكرى الشركة ومؤسسها بسرد سيرتهما بشىء من التفصيل [١٢٢] .

ورأى فكرى أن « شارع القاهرة » واقعى من عدة جوانب ، فرغم أن المسجد كان مجرد واجهة لمقهى به عدد من الراقصات المصريات والسودانيات ، والمنشدين من أرباب الطرق الصوفية ، وجه فكرى اللوم إلى الأوربيين لإفراطهم فى الإعجاب بالراقصات والإنشاد الصوفى فى مثل هذا الوسط ، وأبدى إعجابه بالتاجر

القاهرى مصطفى الديب ، الذى كان يبيع العطور وغيرها من المشغولات التى تباع بخان الخليلى (١٢٣) ، فقد غامر ذلك التاجر بالمشاركة فى المعرض ، وحقق أرباحًا مجزية . ورأى فكرى أن المعروضات المصرية « بقصر الصناعات المتنوعة » ، كانت بائسة ، ونحى باللائمة على الحكومة ورجال الأعمال المصريين لتضييعهم تلك الفرصة الجيدة .

وفى معرض شيكاجو الدولى عام ١٨٩٣ ، أقيمت بوابة معبد ضخمة ومسلة كمدخل لما يفترض أن يكون « شارع القاهرة » الإسلامية . وقد أخذ الفكرة الأساسية من معرض باريس الدولى ١٨٨٩ ، رجل أعمال بلچيكى يونانى الأصل ، استأجر عضو لجنة حفظ الآثار ، ماكس هرتز ليعمل مستشارًا له فى انتزاع المشغولات الخشبية والمشربيات من بيوت القاهرة ، وتصميم جناح المعرض ، وفى شيكاجو ، كان من المفروض أن يدخل الزوار إلى « البلاد العجيبة التى تسبق حضارتها التاريخ ، التى تستولى أعمالها وعجائبها على مخيلاتنا . . . هنا تجد أنواع البشر والحيوانات التى يراها الإنسان فى القاهرة الكبرى . هنا تجد المصريين ، والعرب ، والسودانيين ، والأفارقة ، والبرابرة ، والجمال ، والحمير . . . » (١٢٤) .

وفى أوروبا ، ترددت ألمانيا فى إقامة معرض دولى فى برلين عام ١٨٩٦ ، أو عام ١٩٠٠ ، ولكن الفرنسيين الذين فاقوهم خبرة سارعوا إلى الإعلان عن معرض باريس الدولى عام ١٩٠٠، واستقر رأى ألمانيا على المشاركة فى معرض بجناح يلفت الأنظار، ويثير المخاوف معًا ، واكتفت بمنافسة فرنسا فى الميادين الصناعية والعسكرية بمواقع أخرى ، وألقت كوابيس قضية دريفوس ، وانتصار بريطانيا فى فاشودة ، وتعاظم قوة ألمانيا ، بظلالها على المعرض الدولى بباريس ، فغصت أجنحة المستعمرات الفرنسية فى الهند الصينية ، وكمبوديا ، والسنغال ، وتونس ، والجزائر بالمئات من الحرفيين من أبناء تلك البلاد الذى فاق عددهم ما قد يوجد فى البلاد المستقلة (١٢٥) .

ولما كان كرومر يقف ضد مشاركة الحكومة المصرية بالمعارض ، قام رجل أعمال شامى متمصر هو فيليب بولاد بالاشتراك مع أبناء عمومته والتاجر المصرى مصطفى

الديب ، بإقامة جناح خاص بالمعرض باسم مصر [١٢٦] ، قام بتصميمه المعمارى مارسيل دورنو ، مهندس المتحف المصرى الجديد الذى كان يبنى بالقاهرة ، واشتمل التصميم على قسم بالطراز الفرعونى ، ووكالة إسلامية ، ملحق بها سبيل ، ونموذج لمعبد دندرة بالخارج ، ومسرح بالداخل للموسيقى والرقص .

ورأى أحمد زكى أن عمارة مصر وآثارها قد مثَّلت تمثيلاً مناسبًا ، ولكن المنتجات الزراعية والقطنية بالوكالة لم تكن تعكس تقدم مصر الصناعى والتجارى والعلمى ، وأبدى امتعاضه من الشيخ الذى ارتدى ملابس شيخ الأزهر وراح يكتب لزوار الجناح أسماءهم بالعربية . وأراد حذف الرقص الشرقى من « باليه عنتر » التى كانت تعرض بالجناح . كذلك انتقد أحمد زكى غياب الأصالة بالجناح العثمانى [١٢٧] .

وزار محمد المويلحى المعرض ضمن حاشية عباس الثانى ، وكتب عنه عام ١٩٢٧ فى وصف ألحقه بالطبعات المتأخرة من « حديث عيسى بن هشام » ، واختار للفصل « الافتراء على الوطن » عنوانًا ، قدَّم فيه آراءً متناقضة تجعل تحديد رأيه الشخصى من الصعوبة بمكان ، وأبدى استياءه من الراقصات ، والشخص الذى يمثل الشيخ الأزهرى ، وشيخ الكتاب الذى يضرب التلاميذ بجريد النخل ، ومنظر الفتاة التى ليس لها ذراعان وتغزل بقديمها . ورأى أحمد زكى أن عجز مصر عن تمثيل نفسها فى المعارض ، أتاح للمستشرقين الأوربيين أن يشوهوا صورتها بالتعاون مع نكرات المصريين . حتى برج إيفل - الذى كان علامة بارزة للمعرض - اعتبره يحاكى فى خيلائه برج بابل ، وقد زجت فضيحة قناة بناما بإيفل نفسه فى السجن .

اختلطت ردود أفعال أمين فكرى ، وأحمد زكى ، ومحمد المويلحى تجاه تمثيل مصر فى المعارض الدولية ، فقد مال فكرى وزكى إلى الإعجاب بها على عكس المويلحى ، ولكن أحدًا منهم لم يرض عن وقوع بلاده والقدرة على تمثيلها فى مثل تلك المعارض ، فى أيد أجنبية ، كما أن على بهجت شاركهم ذلك من منظور آخر ، عندما اكتشف جانبًا صغيرًا يعبِّر عن استقلال مصر الثقافى عشية نشوب الحرب العالمية الأولى .

على بهجت وكشف الفسطاط ونشوب الحرب :

« فتح عمرو بن العاص مصر ، وأسس الفسطاط تحت راية الإسلام ،
واكتشف على بهجت الفسطاط تحت راية العلم » .

Mustafa Abd El-Razeq, Ali Bey Bahgat 1854 - 1924",
Bulletin de l'Institut égyptien.

كان على بهجت فى الرابعة والخمسين من عمره ، عندما بدأ حفائره بالفسطاط عام ١٩١٢ ، تلك الحفائر التى جعلت منه رائد علم الآثار الإسلامية . فقد كان هرتز مشغولاً بالأعمال المعمارية ، ولعله أطلق يد بهجت فى إدارة متحف الفن العربى . ولعب بهجت دور قناة الاتصال بين لجنة حفظ الآثار والمصريين الذين لا يعرفون لغة أوربية ، فترجم دليل هرتز لمتحف الفن العربى إلى اللغة العربية (عام ١٩٠٩) ، وفى العام ١٩١٢ وصل بما تم طبعه من أعمال اللجنة باللغة العربية إلى العام ١٩٠٩ ، وللأسف ليس لدينا معلومات عن المصريين الذين استخدموا تلك الطبعات العربية المترجمة سواء بالنسبة لدليل المتحف أو أعمال « لجنة حفظ آثار الفن العربى » .

وفى عام ١٩١٢ - أيضًا - حصل بهجت على إجازة لمدة شهرين لمصاحبة طالب إلى باريس لدراسة التاريخ وعلم الآثار ، تمهيدًا للعمل بالمتحف (١٢٨) . وكان قد زار أوروبا من قبل ، ولكن الخبرة المباشرة بأوروبا كانت عنده - كما كانت عند أحمد كمال - محدودة ، وجاءت فى مرحلة متأخرة نسبيًا من العمر .

ويكشف التقرير الذى قدمه بهجت فى مايو ١٩١٠ عن رحلة قصيرة قام بها بالصعيد عن حدود فكرته - وكذلك اللجنة - عن علم الآثار فى ذلك الوقت ، فقد ذهب بهجت إلى هناك ليشترى أغراضًا للعرض بالمتحف من تجار الآثار بالأقصر وسوهاج ، فاكتشف أن الوقت لم يكن مناسبًا ، لأن الموسم السياحى قضى على ما كان عند التجار من قطع أثرية ، اشتراها السياح ، وحملوها معهم إلى بلادهم ، وأن التجار ينتظرون أن يزودهم الفلاحون الذين يحفرون من أجل « السباخ » بما يعثرون عليه من آثار ، عندما يعودون إلى العمل . واقترح بهجت أن يعود إلى هناك - مرة أخرى - فى

شهر نوفمبر بعدما ينتهى الفلاحون من جمع السباخ ، وقبل وصول السياح إلى الصعيد [١٢٩] .

وفى يوليو ١٩١٢ ، حانت فرصة مهمة حولت انتباهه إلى أمور أخرى . فقد نقلت الحكومة إلى اللجنة مهمة الإشراف على الفسطاط - العاصمة العربية الإسلامية الأولى لولاية مصر - التى كان الأوربيون يطلقون عليها « القاهرة القديمة » ، وأحيانًا يطلقون عليها « القاهرة القبطية » وإن افتقر المصطلح الأخير إلى الارتياح . وربما كانت الحفائر الألمانية فى سامراء بالعراق التى بدأها فردريش سار ، وتابعها إرنست هرتز فيلد لحساب متحف برلين (١٩١١ - ١٩١٣) ، قد دفعت إلى تحريك العمل بالفسطاط [١٣٠] . فالعمل المتوازى فى مشروع خط سكك حديد بغداد ، والصلات العسكرية الألمانية بتركيا ، والحفائر فى العراق ، تم جميعه فى سياق إمبريالى غربى . كما أن الحفائر التى جرت فى المواقع الإسلامية فى سمرقند على يد الروس (منذ ١٨٨٥) ، وقلعة بنى حمد بالجزائر على يد الفرنسيين (١٨٩٨) ، وربما أيضًا مدينة الزهراء على يد الإسبان (١٩١٠) ، كانت جميعًا تمثل نغمات حادة لمعزوفة التوسع الإمبريالى الأوروبى [١٣١] .

والشىء المميز فى الفسطاط هو أن من تولى حفائرها مصرى مسلم فقد أسندت اللجنة تلك المهمة إلى على بهجت .

وكانت الفسطاط قد هجرت منذ القرن الحادى عشر ، وأدى قربها من القاهرة إلى تحويل موقعها - بمرور الزمن - إلى كومة من النفايات ، تُجلب منها الأحجار للبناء ، ويصنع عندها الفخار وغيره من الصناعات ، ومكانًا للنهب . وقام جامعو السباخ بتقليب الموقـــع خـلال القرن التاسع عشر ، ولكن خلوه من الخرائب الفرعونية تحت آكامه ، أنقذه من الوقوع ضحية الاهتمام التدميرى للباحثين عن الآثار الفرعونية فى القرن التاسع عشر [١٣٢] .

وعلى كل ، لم يزود على بهجت باعتماد مالى مناسب للحفائر التى كلف بها . وكل ما كان يستطيع عمله هو إحكام الرقابة على الأفراد والشركات الذين كانوا يحفرون فى الفسطاط منذ وقت طويل لجمع السباخ . وأشار بهجت إلى ما حققه هذا النظام من

فوائد للجميع : فقد حصل متحف الفن العربى على قطع أثرية (معظمها قطع من الفخار المطلى أو غير المطلى) ، والأحجار ذات النقوش الهيروغليفية ذهبت إلى المتحف المصرى ، وحققت شركات السماد مكاسب ، واستفاد الفلاحون بالسباخ ، وغنمت الدولة تسوية الأرض التى يمكن استخدامها فى أغراض أخرى (١٢٣) . ويبين ذلك كيف أن مفهوم بهجت للآثار كان آخذًا فى الاتساع حتى بمعايير اليوم . فقد أصبح لا ينشد جمع القطع الأثرية وحدها ، بل يبحث عن بقايا المبانى والشوارع التى تساعد على إعادة تركيب الشكل الطبوغرافى للمدينة القديمة . واستمر بهجت فى العمل بالفسطاط فى العشرينات ، عندما ووجه بهجوم من الأجانب جعل لجنة حفظ الآثار تكلف عالمين فرنسيين بكتابة التقارير التى يتم نشرها عن النتائج التى توصلت إليها حفائره .

وفى الوقت الذى هزت فيه الحرب أوروبا ، ترددت أصداؤها فى لجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربى . فقد فقد هرتز منصبه باللجنة والأوقاف والمتحف ، لكونه من رعايا الأعداء ، وغادر البلاد ، واحتفظ بحقه فى المعاش ، وقدر هارى فارنول خدماته للجنة والأوقاف على مدى ٣٢ عامًا ، وأعلن أسفه لأن « ظروفًا خارجية حرمت اللجنة من خدمات هذا المعمارى والآثارى المتميز » ، وتمنى مرقص سميكه أن يتمكن هرتز من استكمال الطبعة الثالثة من كتالوج المتحف ، وقدم اقتراحًا – ربما كان سابقًا لأوانه – أن يصبح هرتز عضوًا مراسلاً باللجنة . وقد لجأ هرتز إلى سويسرا وتوفى فى مدينة زيورخ عام ١٩١٩ عن عمر يناهز الثالثة والستين (١٢٤) .

وكان من النتائج – غير المتوقعة – التى ترتبت على الحرب العالمية الأولى تولى المصريين إدارة متحف الفن العربى ودار الكتب المصرية (الكتبخانة) ، فتولى على بهجت إدارة المتحف ، وأحمد لطفى السيد إدارة دار الكتب خلفًا للمستشرق الألمانى آرثر شاد .

وقفت إيطاليا موقف المتفرج بعض الوقت ، ثم انضمت عام ١٩١٥ الى الحلفاء . وبذلك استطاع أخيل پاتريكولو – مساعد هرتز الإيطالى الجنسية – أن يحتفظ بوظيفته . وكان پاتريكولو يؤكد دائمًا أن الجمع بين الحفاظ على عمارة الآثار وإدارة المتاحف غير معروف فى أوروبا ، فالمحافظة على الآثار مهمة الخبير المعمارى ، وإدارة المتاحف تقع

فى إختصـــاص الآثارى [١٣٥] . وأصبح پاتريكولو كبير المعماريين باللجنة خلفًا لهرتز (رغم أنه لم يحمل اللقب فى بداية الأمر ، كما لم ينل مقعد هرتز باللجنة) ، ولكنه لم يرغب فى إدارة المتحف . وأدى ذلك إلى إفساح الطريق أمام على بهجت ليصبح مديراً لمتحف الفن العربى بعد طول انتظار ، وكان عندئذ – فى السادسة والخمسين من عمره . وكان نجاح على بهجت وأحمد كمال فى وقت علا فيه مد الإمبريالية ، نجاحًا صعب المنال ، تختلط فيه حلاوة النجاح بمرارة الكفاح من أجل تحقيقه . وعندما توفى على بهجت عام ١٩٢٤ ، شارك الأوربيون باللجنة نقاده فى الخارج فى إثارة الشكوك حول كفاءته ونزاهته . ولم يكن هناك بديل مصرى يستطيع أن يحل محله عند وفاته ، فعاد متحف الفن العربى مرة أخرى إلى السيطرة الأوربية ؛ من خلال المستشرق الفرنسى جاستون ڤييت الذى تولى إدارته خلفًا لبهجت . وفى عام ١٩٣٣ أدخل كريزويل فى مناهج الجامعة المصرية برنامجًا للدراسات العليا فى الآثار الإسلامية . وكان لڤييت وكريزويل – اللذان قبل كل منهما الآخر على مضض – حضور فعال فى لجنة آثار الفن العربى حتى مطلع الخمسينات من القرن العشرين ، رغم تناقص التمثيل الأوروبى باللجنة ، وقدِّر لأمناء المتحف المساعدين من المصريين – الذين تدربوا على يد ڤييت والذين تخرجوا فى الجامعة من خلال برنامج كريزويل الخاص بالدراسات العليا فى الآثار الإسلامية – قدر لهم أن يقضوا معظم سنوات خدمتهم تحت رئاسة الأوربيـــين ، تمامًا كما حدث لبهجت من قبل ، وترك لعبد الناصر مهمة تحقيق الاستقلال السياسى الوطنى ، والسيطرة الوطنية على المتاحف والآثار والمؤسسات التعليمية ، فى نفس الوقت . ومع ذلك ، ظلت القضايا القديمة متضمنة فى أطروحات جديدة – الاستعمار الجديد ، والهيمنة الثقافية ، وما بعد الحداثة ، وما بعد الكولونيالية ، وما بعد الاستشراق – برزت فى محاولة لإحكام القبضة من جديد [١٣٦] .

الهوامش

(١) Gabriel Charme, Cinq Mois au Caire et la Basse-Égypte (Cairo, 1880), 47 - 48, 57-58, 111.

(٢) Edward Said, Orientalism (New York, 1978); John Mackenzie, Orientalism : History, Theory and the Arts (Man chester, 1995); Mark Crinson, Empire Building : Orientalist and Victorian Architecture, (London, 1996).

(٣) Stanley Lane - Poole, Cairo : Sketches of Its History, Monuments, and Social Life (London, 1898 reprinted New York, 1973), 99 - 100; Marshall Hodgson, The Venture Of Islam, 3 vols., (Chicago, 1974) 1 : 57 - 60, 95.

(٤) Arthur Rhoné, "Coup d'oeil sur l'état present du Caire ancien et moderne" Gazette des Beaux Arts 24 (1881) 420 - 32; 25 (1882), 55 - 67.

(٥) Janet Abu-Lughod, Cairo : 1001 Years of the City Victorious (Princeton, N.J., 1971) 83 - 101; see also André Raymond, Le Caire (Paris, 1993), 289 - 305. Doris Behrens - Abouseif, Azbakiyya and Its Environs 1476 - 1879 (Cairo, 1985), 81 - 100 .

(٦) Amelia Edwards, "The Destruction of Cairo" Academy 546 (21 October 1882), 301.

(٧) Crinson, Empire Building, 172.

(٨) Abu-Lughod, Cairo, 103 - 13.

(٩) هناك كتاب يناقش اختفاء العربات ذات العجلات من العالم العربى فيما بين حكم الرومان والقرن ١٩
Richard Bulliet, The Camel and the Wheel (Cambridge, Mass., 1975).

(١٠) Rhoné : Coup d'oeil, 62.

(١١) Gabriel Charmes, "L'Art arbe au Caire", Journal des débats, 2 August 1881.

(١٢) Lane - Poole, Cairo, 290.

(١٣) Edwards, "The Destucuion of Cairo".

(١٤) Gabriel Charmes, Cinq Mois, 130.

(١٥) Hans Huth, "The Evolution of Preservtionism in Europe", Journal of the Anerican Society of Architectural Historians (July / October 1941), 5 - 12.

(١٦) Who Was Who 3 : 337.

(١٧) John Pemble, Venice Rediscovered (Oxford, 1995), 126 - 33.

(١٨) Carré, Voyageurs et écrivains, 1 : 62.

(١٩) John Sweetman, The Oriental Obsession : Islamic Inspiration in British and American Art and Architecture 1500 - 1920 (Cambridge, Mass., 1988), 115.

(٢٠) Charmes, "L'Art arabe"; Description, vol. 1. Antiquités.

(٢١) Leila Ahmed, Edward W.Lane (London, 1978).

(٢٢) Edward William Lane, Arabian Society in the Middle Ages : Studies from the Thousand and One Nights (London 1987).

(٢٣) Irene A. Bierman, "The Time and Space of Medieval Cairo" Unpublished Paper, New York 1998.

(٢٤) Pascale Coste, Architecture arabe ou monumens du Caire Mesurés et dessinées de 1825 (Paris, 1839).

(٢٥) Robert Hay, Illustrations of Cairo (London 1840); Sweetman, Oriental Obsession, 112-52; Mackenzie, Orientalism, 43 - 70.

(٢٦) Julius Franz Pasha, "Buildings of the Mohammedan", Baed. 1908, clix - clx.

(٢٧) Charmes, Cinq Mois, 120; Lane - Poole, Cairo, 103.

(٢٨) Charmes, "L'Art arabe", see also Charmes, Cing Mois, 46 - 47.

(٢٩) الأرشيف الفرنسي ، وزارة الخارجية ، نانت ، C177/D ، بتاريخ ٢ يناير ١٨٨٢ .

(٣٠) Rhoné, Gazette 24 (Année 25, 1882) : 63 - 64.

وانظـر أيضًا : زكي محمـد حسن « العناية بالآثار » في إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عامًا على وفاته (القاهرة ١٩٤٥) ، ٢١٥ .

(٣١) S.Lane - Poole, "Arab Art Monuments", Academy 6 (1874), 361.

(٣٢) يعتمد هذا الفصل تمامًا على :

D.M.Reid, "Cultural Imperialism and Nationalism : The Stuggle to Define and Control the Heritage of Arab Art in Egypt", IJMES 24 (1992) 57 - 76.

(٣٣) Lane - Poole, Cairo, viii, 292.

(٣٤) Comité de conservation des monuments de l'art arabe, Fascicule premier, Exercice 1882 - 1883, Procés - verbaux des séances, Fascicule no. 1 : 5.

سنورد ذكرها مختصرة فيما بعد على النحو التالي :

Comite 1, 1882 - 1883, PVSI.

(٣٥) Gülru Necipoglu, The Topkapi Scroll-Geometry and Ornament in Islamic Architecture (Santa Monica, Calf., 1995), 66 - 67.

(٣٦) On Rogers, see, Who Was Who 3 : 361; Heyworth-Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London 1968), 386, 429.

(٣٧) William Gregory, "Arab Monuments in Egypt", letter to the Times, reprinted in Architect 4, February 1882, 69; Comité 1, 1882 - 1883, PVSI (I February 1881) 7 - 13.

(٣٨) Comité 1, 1882 - 1883, PVS2 (16 December 1882), 12;

وانظر أيضًا : ألكسندر شولش ، مصر للمصريين ، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ - ١٨٨٢ ، ترجمة رءوف عباس (القاهرة ١٩٨٣) .

(٣٩) Comité 4, 1886, PVS 21 (10 March 1886), xv.

(٤٠) Comité 23, 1906, PVS 148 (18 December 1906), 112.

(٤١) "Protection", Architect, 4 August 1883, 66.

(٤٢) Comité 13, 1896, PVS 71 (14 November 1896), 104 - 11.

(٤٣) Bierman, "Medieval Cairo", 7.

(٤٤) Georges Pangalo, "The Story of Some Old Friends:, Cosmopolitan 23 (1897), 277 - 88.

(٤٥) حول سيرة على بهجت ، راجع : توفيق إسكاروس ، « على بهجت وفضله على علم الآثار العربية فى مصر » ، الهلال ٣٢ ، عدد ٨ (أول مايو ١٩٢٤) ٨٥٦ - ٦١ . وانظر أيضًا : دار المحفوظات العمومية ، ملفات الخدمة والمعاشات ، مخزن ١٠٥ ، دولاب ٣٧ ، عين ٣ ، محفظة ٧٦٧ ، ملف ٢١١٧٥ .

(٤٦) أحمد لطفى السيد ، قصة حياتى ، (القاهرة ١٩٦٢) ، ٢٥ .

(٤٧) ملف معاش على بهجت .

(٤٨) Comité 6, 1895, R 69, 121 - 28.

(٤٩) الجبرتى ، تاريخ مدة الفرنسيس فى مصر .

(٥٠) M. J. Reimer, "Cntradiction and Consciousness in Ali Mubarak's Description of Al-Azhar", IJMES 29 (1997), 55.

(٥١) Bierman, "Medieval Cairo".

(٥٢) Comité 1, 1882 - 1883, PVS 2 (16 December 1882), 14 - 16.

(٥٣) Jacqes Berque, Egypt, Imperialism and Revolution, (New York, 1972), 72 - 73.

(٥٤) Reimer, "Contradiction", 57 - 66 n. 24.

(٥٥) Marcel Clerget, Le Caire, 2 vols. (Cairo, 1934), 1 : 337.

(٥٦) Heyworth-Dunne, Eduction, 237.

(٥٧) توفيق إسكاروس « ماكس هرتس باشا » ، الهلال ١٠ (أول يوليو ١٩١٩) ، ٩٢١ - ٩٢٨ .

(٥٨) نجيب العقيقى ، المستشرقون (القاهرة ، ١٩٨٠) ، ٢ : ٣٩٨ - ٣٩٩ ، ٤٠٣ - ٤٠٤ . وانظر أيضًا : دار الوثائق القومية ، مضابط مجلس الوزراء ، نظارة المعارف ، رقم ٢٢ ، الكتبخانة الخديوية ، ١٩١٢ .

(٥٩) Rogers, From Imperialism to Islamic Archaeology, (Cairo, 1974), 55 - 61.

(٦٠) Charmes, "L'Art arabe".

(٦١) Lane - Poole, Cairo, 103.

(٦٢) On Clarke, see Who Was Who 3 : 100 - 101; On Farnall, see, Dictionary of National Biography, 1929 - 1940, 431.

(٦٣) بالنسبة للإيطاليين فى مصر ، انظر :

Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egypto (Alexandria 1937).

(٦٤) Karl Baedeker, Egypt : Part First, Lower Egypt with the Fayum and the peninsula of Sinai, (Leipzig, 1885), 280.

(٦٥) Comité 11, 1894, R 165 : 3 - 54.

(٦٦) Baedeker, 1895, 73.

(٦٧) Crinson, Empire Building, 65; Lane - Poole, Cairo, 114 - 18.

(٦٨) Tarek M.R. Sakr, Early, Twentieth - Century Islamic Architure in Cairo (Cairo, 1993), 22 - 23.

(٦٩) أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ، ٢ ؛ وانظر أيضًا :

Baedker, 1908, 88.

(٧٠) Comité 21, 1905, PVS (3 January 1905), 3 - 7' PVS (4 April 1905).

(٧١) Lane - Poole, Cairo, 98.

(٧٢) Bedeker, 1908, 58 - 60, 75 - 99.

(٧٣) Annuair Statistique de l'Egypt, 1914 (Cairo, 1914), 104.

(٧٤) Mona Zakarya, "L'Inscription du discours occidental l'urbanisme orientaux", D'un Orient l'autre, 2 vols. (Paris, 1991) 1 : 561.

(٧٥) Sakr, Islamic Architecture.

(٧٦) حول إحياء العمارة الإسلامية فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، انظر :

Sweetman, Oriental Obsession.

(٧٧) Gwen dolyn Wright, The Politics of Design in French Colonial Urbanism (Chiago, 1991), 200 - 201.

(٧٨) Charmes, "L'Art arabe".

(٧٩) Hill, "Pascal - Xavier Coste", esp. 30, 97, 144 - 46.

(٨٠) Crinson, Empire Building, 97, 190.

(٨١) Sakr, Islamic Architecture, 9; Charmes, Cinq Mois, 59.

(٨٢) Liliane Karnouk, Modern Egyptian Art : The Emergence of a Natinal Style (Cairo, 1899), 76 - 77.

(٨٣) Rhoné, Gazette, 1882, 64; Max Herz Bey, La Mosquée El-Rifai au Cairo (Milan, n.d.).

(٨٤) T.R. Metcalf, Imperial Vision, 56 - 58, 105 - 39.

(٨٥) Abd El-Razeq, Bulletin de l'instisut d'Egypt, 6, 103.

(٨٦) Ahmed Zaki Pacha, :Le Passé et l'avenir de l'art muslman en Egypt", L'Egypt Contemporaine 4, Fasc. 13 (1913), 1 - 32.

(٨٧) Guillaume Laplagne, "Des Aptitudes artistiques des Egyptiens...", L'Egypt Contemporaine 1, no. 3 (May 1910), 432 - 40.

(٨٨) Comité 13, 1896, PVS 69 (1896), 35 - 36.

(٨٩) Gabriel Baer, "Waqf Reform" in his Studies in the Social History of Modern Egypt (Chicago, 1969), 83 - 84.

(٩٠) Comité 10, 1893, PVS 58 (13 June 1893), 40, 44 - 45; PVS 59 (27 November 1893), 46.

حول حسين فخرى ، راجع : يوسف أصاف ، دليل مصر (القاهرة ١٨٩٠) ٢٤٩ – ٢٥٢ .

(٩١) Comité 10, 1893, R 153 (16 August 1893), 75; Comité 14, 1897, PVS 74 (a March 1897), 48; PVS 75 (6 April 1897), 73 - 75.

(٩٢) Comité 13, 1896, PVS 69 (Spring 1896), 30 - 33 - 35.

(٩٣) Abd El-Razeq, BIE 6 : 109.

(٩٤) لطفى السيد ، قصة حياتى ، ٣٤ – ٣٦ .

(٩٥) Abd El-Razeq, BIE q, 109.

(٩٦) A. Goldschmidt Jr., Historical Dictionary 107.

(٩٧) Jean Ellul, Indexdes Communications et mémoires pbliés par l'Instiut d'Egypte ((1859 - 1952) Cairo 1852.

(٩٨) Comitê 19, 1902, PVS 112 (23 January 1902), 3.

(٩٩) يوسف إلياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية ، ١٣٦٠ .

(١٠٠) Solagne Ory, "Max Van Berchem, Orientalist" D'un Orient l'autre, 2 : 11 - 24 .

(١٠١) Rogers, From Antiquarianism, 60.

(١٠٢) Max van Berchem, Matériaux pour un Corpus Inscrtionum Arabicurum vol. 19.

(١٠٣) Ellul, Index, passim.

(١٠٤) Reid, "The Egyptian Geographical Society", 539 - 72.

(١٠٥) أحمد عبد الفتاح بدير ، الأمير أحمد فؤاد ونشـأة الجامعة المصرية (القاهرة ، ١٩٥٠) ، ٢٣ – ٢٤ ؛ وانظر أيضًا ، أرشيف جامعة القاهرة ٢ ب / ف ١٣٥ ، مضابط مجلس الإدارة ٢٠ مارس ١٩١٩ .

(١٠٦) إسكاروس ، « على بهجت بك » ، ٨٥٨ ، ٨٦٠ .

(١٠٧) International Cong. of. Orientalists 12, Rone 1899, Actes 1.

(١٠٨) Abd El-Razeq, BIE 6, 110 - 112.

(١٠٩) Louca, Voyageurs, 181 - 237; Mitchell, Colonising Egypt, 1, 2, 6, 180 - 181.

(١١٠) ICO 12, 1899, Actes 2, Section 1 : 3 ff.

(١١١) K. Vollers, "Le Ixme Congrés ...", BIE, ser, 3, 3 (Nov. 1892), 197.

(١١٢) أمين فكرى بك ، إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا (القاهرة ١٨٩٢) .

(١١٣) محمد أمين فكرى ، جغرافية مصر (القاهرة ١٨٧٨) .

(١١٤) فكرى ، إرشاد ، ٦٧٤ - ٧٠١ ، ٦٤٧ .

(١١٥) الاقتباس مذكور فى : Mitchell, Colonising Egypt, 2.

(١١٦) Vollers, "Le IXme Congrés ...", 193 - 209 .

(١١٧) أحمد زكى ، السفر إلى المؤتمر (القاهرة ١٨٩٣) : أنور الجندى ، أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة (القاهرة - حوالى ١٩٦٤).

(١١٨) الوثائق الفرنسية ، وزراء الخارجية ، نانت. C 170 / Dossier 1 / 24 May 1912.

(١١٩) قصيدة « أثينا » فى الأعمال الشعرية الكاملة لأحمد شوقى ، ٢ : ٦١ .

(١٢٠) ICO 16 Athens, 1912, 41, 115, 117, 119, 120, 121, 122.

(١٢١) الوثائق الفرنسية ، وزارة الخارجية ، نانت. C 261, 24 Jan. 1897.

(١٢٢) فكرى ، إرشاد ؛ محمد عمر الباجورى ، الدرر البهية فى الرحلة الأوربية (القاهرة ١٨٩١)؛ ديمترى نعمة الله خلاط ، سفر السفر إلى مرد الحضر (القاهرة ١٨٩١).

(١٢٣) فكرى ، إرشاد ، ١٢٩ - ١٣١ .

(١٢٤) Rangalo, "The Story of Some Old Friends".

(١٢٥) R.D. Mandell, Paris 1900, The Great World's Fair (Toronto, 1967).

(١٢٦) بالإضافة إلى المراجع سالفة الذكر عن المعرض ، هناك ملف عن بولاد ومشروعه للمعرض فى وثائق الخارجية الفرنسية ١٤ ديسمبر ١٨٩٦ .

(١٢٧) أحمد زكى بك ، الدنيا فى باريس (القاهرة ١٩٠٠) ، ٩١ - ٩٤ . وانظر محمد المويلحى ، حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن ، ٣٣٠ - ٣٥ . ومحمد لبيب البتانونى ، رحلة الصيف فى أوروبا (القاهرة ١٩٠١) ، ١٠٢ - ١٠٣ . ويلوم الأخير الحكومة لتقصيرها فى تمثيل مصر بشكل لائق ، ويبدى امتعاضه من انفراد الشوام بالجناح المصرى .

(١٢٨) إسكاروس ، « على بهجت بك » ٨٥٨ ، ٨٦٠ .

(١٢٩) Comité 27, 1910, R 420 (15 June 1910) appendix, 94 - 95.

(١٣٠) Rogers, From Antiquarianism, 58 - 60.

(١٣١) Vernoit, "Rise of Islamic Archaeology", Muqarnas 14 (1997), 3 - 4 .

(١٣٢) Vernoit, "Rise of Islamic ...", 5.

(١٣٣) Comité 30, 1913, 115 - 17.

(١٣٤) Comite 31, 1914, PVS 215 (4 January 1915), 134 - 36.

(١٣٥) On Patricolo see FO 371 / 3202 / 137229 Herbert to Balfour, 14 July 1918.

(١٣٦) Reid, "Cultural Imperialism".

الفصل السابع

أحفاد الفراعنة

مرقص سميكة والتاريخ القبطى

يذكر مرقص سميكة (١٨٦٤ - ١٩٤٤) أنه زار الأنبا كيرلس الخامس - بطريرك الأقباط - ذات يوم من أيام شتاء عام ١٩٠٨ ، فوجده يشرف بنفسه على صهر الآنية الفضية القديمة التى تملكها الكنيسة لإعادة تشغيلها ، وكانت جميعها تحمل نقوشًا قبطية وعربية تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . كان سميكة - عندئذ - نائبًا لرئيس المجلس الملى للأقباط ، فعرض على البطريرك أن يدفع ١٨٠ جنيهًا هى قيمة الفضة بعد الصهر على أن يتم الحفاظ على تلك الآنية الفضية فى مخزن كبداية نحو إقامة متحف . فوافق البطريرك ، وبذلك بدأت نواة المتحف القبطى [1] .

هذا التحول الذى أصاب تلك الأوانى القديمة من كونها لا تساوى إلا قيمة وزنها من الفضة ، فأصبحت قطعًا أثرية لا تقدر بثمن ، يعكس تحولاً دراميًا فى الطريقة التى نظر بها الأقباط إلى ماضيهم ، وحددوا هويتهم الحديثة . كان مرقص سميكة ومن على شاكلته من الأقباط ، نتاجًا للإصلاح الاجتماعى ، بقدر ما كانوا دعاة له ، ولم ينشدوا الهروب من الحاضر إلى الماضى البائد ، فقد سعى المعارضون للأكليروس القبطى من أبناء الطائفة إلى إصلاح أحوالها ، والإعلاء من شأن الهوية القبطية والوطنية ، فى وجه معارضة رجال الكنيسة ، تمامًا كما حدث فى فرنسا القرن الثامن عشر واليونان فى القرن التاسع عشر ، وكان مرقص سميكه يتصدر الجهة المطالبة بالإصلاح حتى أدرك ضرورة الميل إلى المهادنة حتى يفوز بموافقة البطريرك على إقامة المتحف القبطى .

وكان شأن مرقص سميكة مع الآثار القبطية كشأن أحمد كمال مع الآثار الفرعونية ، وعلى بهجت مع الآثار الإسلامية ، رائداً يناضل من أجل إشعال الحماس لآثار وتاريخ فترة حيوية من التاريخ ، ومظهر من مظاهر الماضى الوطنى . ورغم أنه كان يصغر كمال بخمسة عشر عاماً ، وبهجت بست سنوات فقد شاركهما الوعى الذى تميز به ذلك الجيل ، فقد تعلم ثلاثتهم فى المدارس التى أوجدها الإصلاح ، كما تعلموا اللغات الأوربية التى ساعدتهم على تنمية اهتمامهم بالآثار ، وأكملوا تعلمهم قبل وقوع الاحتلال البريطانى ، وعاشوا معظم حياتهم العملية خلال السنوات الأربعين التى شهدت عنفوان الاحتلال (١٨٨٢ - ١٩٢٢) . وإذا كان كمال قد مات عام ١٩٢٣ ، وبهجت عام ١٩٢٤ ، فقد عمر مرقص سميكة حتى العام ١٩٤٤ .

ويلقى هذا الفصل الضوء على الحياة العملية لمرقص سميكة ، لدوره الأساسى فى علم الآثار القبطية ، ولأن مذكراته الشخصية غير المنشورة التى لم تستخدم من قبل تعد مصدراً غنياً لدراسة هذا الموضوع ، أما المصادر الأخرى ، فتشمل مجلتى « لجنة حفظ آثار الفن العربى » ، و« جمعية الآثار القبطية » ، وهما مجلتان معروفتان للمتخصصين فى الفن ، والعمارة ، والدراسات الدينية ، ولكنهما لم تستخدما من قبل لدراسة تاريخ مصر الحديث ، كذلك ساعدتنى المقابلات الشخصية على دراسة مرامى ومسيرة الدراسات القبطية قبل العام ١٩١٤ (٢) .

الأقباط حتى العام ١٨٥٤ :

يجل الأقباط القديس مرقص الذى جلب المسيحية إلى الإسكندرية فى القرن الأول ، ويعتبرونه المؤسس لكنيستهم ، ومع انتشار المسيحية حول البحر المتوسط فى القرنين الرابع والخامس ، أقيمت مجامع دورية للتفريق بين المعتقد الصحيح (الأرثوذكس) والهرطقة . وأدت الخلافات المسيحية فى مجمع مقدونيا عام ٤٥١ للميلاد إلى انفصال الكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية وروما عن الكنيسة القبطية . وأدى اضطهاد الإمبراطورية البيزنطية للأقباط إلى تمهيد الطريق للفتح الإسلامى لمصر خلال (٦٤٠ - ٦٤٢) . وبعد بضعة قرون من الحكم الإسلامى ، أصبح الإسلام دين الأغلبية ،

ورجحت كفة اللغة العربية على حساب القبطية كلغة للحديث والتعامل اليومى ، وتراجع استخدام القبطية لغةً للحديث إلى مناطق منعزلة بالصعيد ، ثم ما لبثت أن اختفت تماماً .

وفى العام ١٨٠٠ ، كانت أغلبية الأقباط تسكن الصعيد ، وخاصة فى مديريتى المنيا وأسيوط ، وكان معظمهم من الفلاحين ، شأنهم فى ذلك شأن مواطنيهم المسلمين . واشتغل أقباط الحواضر بالحرف اليدوية ، والوظائف الكتابية فى المالية والضرائب ، مع اشتغال القليل منهم بالأنشطة التجارية التى اجتذبت - أصلاً - اليونان الأرثوذكس والأرمن المسيحين .

وكانت التجارب السلبية التى عاناها الأقباط مع اليونان الأرثوذكس أيام الحكم البيزنطى ، والروم الكاثوليك القادمين من غرب أوروبا أيام الحروب الصليبية ، حيث لقوا منهما الاحتقار والالتهام بالهرطقة ، كانت وراء مشاعر الشك العميق فى إخوانهم المسيحيين القادمين من الشمال . فلم يؤيد الحملة الفرنسية إلا نفر قليل من الأقباط . ومن بين هؤلاء يعقوب حنا - أحد جباة الضرائب بالصعيد - الذى حول ولاءه من المماليك إلى الفرنسيين ، وأصبح الجنرال ديزيه لا يستطيع الاستغناء عن خدماته فى حملة الصعيد . وبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا ، قام الجنرال كليبر بتزويد يعقوب حنا بحرس من الجنود الفرنسيين مكون من ثلاثين جندياً ، وجعل منه قائداً لفيلق يضم ثمانمائة رجلاً من الأقباط . ولم يكن أمام يعقوب حنا مفر من الهرب عندما غادر الفرنسيون البلاد ، ومات على ظهر سفينة بريطانية وهو فى طريقه إلى أوروبا [٢] .

وعندما تولى محمد على حكم مصر ، لم يتمسك بالقيود التقليدية المفروضة على غير المسلمين من حيث الملبس ، وركوب الخيل ، غير أنه لم يحقق نجاحاً كبيراً فى التخفيف من اعتماد الحكومة على الأقباط ككتبة وجباة ضرائب .

وغلبت على مسيحيى الغرب - فى القرن التاسع عشر - فكرتان عن الأقباط : فهم لا يرونهم إلاهراطقة أحياناً ، وأحياناً أخرى يبدون قبولاً بهم كإخوان فى المسيحية. وأحس الغربيون - الذين التمسوا فى مصر أرض الإنجيل ، ومهد الآباء الأول للكنيسة - بخيبة الأمل فى الأقباط من أهل مصر ، تماماً كإحساس عشاق التراث الهلينى

الذين التمسوا فى اليونان المحدثين ، أبطال العصر القديم . فقد عكس دليل نلسون السياحى فى التسعينات التعصب الأوروبى الدفين تجاه الأقباط : « الأقباط أكثر الرجال قبحًا ، وهم أيضًا على درجة عالية من القذارة ، وعاداتهم تثير بالغ الاشمئزاز » [٤] . وكان إدوارد لين پول علـى نفس الدرجة من التطرف : « إن التعصب من أبرز سمات شخصية القبط ، فهم يضمرون بعض الكراهية لجميع المسيحيين الآخرين ، وهم حتى يتفوقون فى ذلك على كراهية المسلمين لغير المؤمنين بالإسلام . . . وهم - بصورة عامة - يمتازون بحدة الطبع ، وشدة البخل ، والنفاق البغيض ، يتذللون أو يطغون حسب الظروف » [٥] . وواصل ستانلى لين پول (قريب لين) تقاليد العائلة فى التحفظ تجاه الأقباط : « ينسب لمصر شرف اختراع الرهبنة والديرية ، المثير للجدل » [٦] .

واعترف لين أنه كان له « حظ مصادفة شخصية كنت أشك فى وجودها ، وهو قبطى يتمتع بعقلية متحررة ذكية » قدم له المعلومات التى استخدمها فى الملحق الخاص بالأقباط ، فى كتاب « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » [٧] .

ووجد ويلكنسون رهبان وادى النطرون « على درجة بالغة من الجهل » ، وعبر عن الاستنكار البروتستانتى الشائع للرهبنة ، ولكنه لاحظ أيضًا أن : « هناك روح من الوقار والطيبة ، فى مشية كبار الرهبان ، والآباء من كبار السن ، تعد ميزة مسيحية خالصة ، وتضع خطًا فاصلاً بين تواضعهم وغطرسة علماء الإسلام ، تدخل السرور على الزوار المسيحين الأجانب ، وتذكرهم بإيمان أولئك القوم الذين - رغم جهلهم وتشددهم - يرتبطون بالرب برباط الوحدة ، ولديهم مثل توجه حماسهم تجاه الرب وحده » [٨] .

ووجد بعض أهل الغرب المتأثرين بمصر القديمة - مثل ويلكنسون - من السبل فأُتيح لهم المزج بين مصر القديمة وهذا الإيمان العميق بالمسيحية . فتبيِّن اللوحة التى رسمها لوك أوليڤييه ميرسون عام ١٨٧٩ ، العائلة المقدسة تحت سماء تسطع فيها النجوم تتجه نحو أحضان أبى الهول المصرى الذى مد ذراعيه مرحبًا بها (انظر الشكل ٤١) .

النهضة والنكوص - البطريرك كيرلس الرابع وما بعده :

يذكر الأقباط البطريرك كيرلس الرابع (تولى ١٨٥٤ - ١٨٦١) بأنه كان « أبو الإصلاح » . لقد كان الأقباط يدفعون « الجزية » التى تفرض على غير المسلمين ، مقابل عدم تجنيدهم فى الجيش . ولكن عباس الأول جنّدهم فى الجيش [٩] ، واستمر سعيد فى تجنيدهم ، وألغى الجزية ، جاعلاً بذلك الحواجز الطائفية الدينية عرضة للتآكل بمرور الزمن ، غير أنه لم يسمح بقبول الأقباط بالمدارس الحكومية ، وكان عليه الانتظار حتى أصدر مبارك قراراً عام ١٨٦٧ ، أباح الالتحاق بالمدارس للجميع بغض النظر عن عقيدتهم الدينية . وفى عهد الخديو إسماعيل تم إيفاد بعض الأقباط للدراسة بالخارج على نفقة الدولة لأول مرة [١٠] . وأدخل إسماعيل - أيضاً - الأقباط فى « مجلس شورى النواب » وخلال نصف القرن التالى ، أقبل الأقباط على الالتحاق بمدارس الدولة ومدارس الأقباط ، كما استفادوا كثيراً بمدارس الإرساليات التبشيرية [١١] .

وبدأ كيرلس الرابع موجة الإصلاح القبطى الحديث الأولى عام ١٨٥٤ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى ثورة يوليو ١٨٥٢ ظهرت موجةجديدة من الإصلاح القبطى ، توجت كل عقد من العقود . وقاد العلمانيون كل موجة من موجات الإصلاح التى قاومها الأكليروس ، فيما عدا الموجة الأولى التى قادها كيرلس الرابع . وكان للإصلاح القبطى آليات الحركة الداخلية الخاصة به ، ولكنه اتفق مع نغمة وإيقا ع الإصلاح الوطنى فى مصر والدولة العثمانية .

جاء كيرلس الرابع من بين صفوف الفقراء من الفلاحين بالصعيد ، ودخل سلك الرهبنة ، وهو بعد شاباً فى ريعان الشباب ، فى دير القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقية . ولعله تأثر بحلقة دينية قصيرة الأمد نظمها مبشر إنجيلى بالقاهرة فى الأربعينات [١٢] ، ولكن إصلاحات محمد على كان لها أبلغ الأثر عنده . فقد أدت تلك الإصلاحات إلى تعامل الدولة مع الأفراد المسيحين واليهود مباشرة ، دون أن تلجأ إلى رئاساتهم الدينية ، مما أضعف دور بطريرك الأقباط وحاخام اليهود فى الوساطة بين طوائفهم الدينية والحكومة .

غير أن ضعف إيقاع عملية الإدماج تلك ، يعنى أن الأقباط لم يكن لهم مكان فى الجيش الجديد ، ولا فى المدارس العليا والبعثات التعليمية التى أوفدت إلى أوروبا ، وقلم الترجمة ، والمطبعة ، والوقائع المصرية . وعندما نصب كيرلس الرابع بطريركًا ، قرر أن تتولى الكنيسة مهمة جلب منافع الإصلاح للأقباط . فقام باستيراد مطبعة من بريطانيا ، وشن حملة على فساد رجال الأكليروس وجهلهم ، وفتح مدارس جديدة للأقباط ، ومد الصلات المسكونية مع اليونان الأرثوذكس ، والأرمن ، وربما الإنجيليين . وقد شاع الاعتقاد أن اتصال كيرلس الرابع بالكنيسة اليونانية الأرثوذكسية جعل سعيد يتخوف من التدخل الروسى فى مصر ، فدس السم للبطريرك عام ١٨٦١ (١٣) .

وكان من أعظم إنجازاته تأسيس « مدرسة الأقباط الكبرى » ، فقد رفض سعيد طلبه السماح بقبول الأقباط بالمدارس الحكومية ، لينضموا إلى مواطنيهم المسلمين الذين كانوا – عندئذ – يشغلون المراكز الدنيا فى الإدارة . وكان التعليم المتاح للأقباط – حينئذ – عند مستوى « الكتاب » ، حيث كان الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، والكتاب المقدس ، وبعض الحساب . ولم تكن هناك مدرسة قبطية من مستوى الأزهر .

ولعبت « مدرسة الأقباط الكبرى » – التى تعلم فيها مرقص سميكة – دورًا فى تكوين جيل كامل من نخبة الأقباط العلمانيين قبل أن تجعل مدارس الإرساليات التبشيرية ، والمدارس الحكومية ، التعليم متاحًا – على نطاق واسع – للأقباط . ويذكر سميكة أن المدرسة خرّجت ثلاثة ممن تولوا رئاسة الوزراء هم : بطرس غالى ، ويوسف وهبة ، ويحى إبراهيم (١٤) ، ومن بين الخريجين الآخرين : قلينى فهمى ، والمؤرخ ميخائيل شاروبيم ، والصحافى ميخائيل عبد السيد ، وعالم القبطيات والمصريات كلوديوس لبيب .

كان موقف البطاركة : ديمتريوس الثانى (١٨٦٢ – ١٨٧٠) ، وكيرلس الخامس (١٨٧٤ – ١٩٢٧) ، ويوحنا التاسع عشر (١٩٢٨ – ١٩٤٢) ، بالغ الحدة فى مواجهة المؤثرات الأجنبية التى قابلها كيرلس الرابع وسميكة ، والكثير من الأقباط العلمانيين . فقد جاء المشيخون المتحدون التابعون « للإرسالية الأمريكية »

« لاحتلال » مصر [١٥] ، فى نفس السنة التى تولى فيها سعيد الحكم ، ونصب فيها كيرلس الرابع بطريركًا . وهاجم ديمتريوس الثانى المشيخيين الدخلاء ، الذين يعتبرون الكنيسة القبطية مهرطقة ، وفاسدة ، وجاهلة . وساند كل من سعيد وإسماعيل البطريرك القبطى فى مواجهة أولئك الأجانب الذين يثيرون المتاعب . وواجه إسماعيل المدارس التبشيرية بمنح الكنيسة القبطية ١٥٠٠ فدانًا من الأراضى الزراعية لتنفق من ريعها على مدارسها وتعمل على تطويرها [١٦] ، وبفتح مدارس الحكومة أمام غير المسلمين فى ١٨٦٧ . (كانت الإرساليات الكاثوليكية تعمل بمصر قبل وصول المشيخين بوقت طويل ، ولكنهم كانوا أقل اصطداماً بالكنيسة القبطية) . ولكن إسماعيل كان بحاجة - أيضًا - لتحسين علاقته مع الولايات المتحدة التى أمدته بالخبراء العسكريين بعد الحرب الأهلية الأمريكية ، وساعدت الحماية الدبلوماسية الإرسالية الأمريكية على توطيد مقرها الرئيسى بأسيوط وبناء المدارس والكنائس فى مختلف أنحاء البلاد . وما لبث الأقباط الكاثوليك والبروتستانت (الإنجيليين) أن انفصلوا عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية .

اشترك مرقص سميكة مع جوقة المرتلين عند تنصيب الأنبا كيرلس الخامس ، الذى ما لبث أن استجاب لمطالب دعاة الإصلاح من العلمانيين بتأسيس كلية أكليركية ، وانتخاب المجلس الملى للمساعدة فى إدارة أمور الأقباط . وقام بطرس غالى بصياغة القانون الذى تم بموجبه إنشاء المجلس الملى عام ١٨٧٤ ، واختير نائبًا للرئيس تحت رئاسة البطريرك [١٧] . وكانت تلك المجالس شائعة فى الدولة العثمانية ، فقد سمحت بتأسيس مجالس ملِّية للأرمن ، وبرلمانًا عام ١٨٧٤ ، وإن كان مجلس شورى النواب الذى أسسه إسماعيل (١٨٦٦) أسبق وجوداً .

وما لبث كيرلس الخامس أن انقلب على المجلس الملى ، وقام بحله فى حركة مماثلة لما فعله السلطان عبد الحميد الثانى بالبرلمان والدستور العثمانى عام ١٨٧٨ . وبذلك انتهت المحاولة الثانية للإصلاح القبطى ، والتى كانت أول محاولة يقودها العلمانيون .

وعاد العلمانيون إلى الكفاح ضد البطريرك ورجال الأكليروس الرجعيين ، بعد ذلك التاريخ بعقد من الزمان للحد من سلطتهم التقليدية على الطائفة ، طالب الإصلاحيون بأن يظل المجلس الملى قائمًا على الدوام ليدير أوقاف الكنيسة والأديرة ، ومدارس

الأقباط ، وليتولى النظر فى قضايا الأحوال الشخصية المعلقة بالطلاق والميراث . وكان البطاركة والأساقفة - الذين جاءوا من أصول ريفية فقيرة ، وعاشوا رهبانًا فى أديرة الصــحراء - ينالون احترام الأقباط وتقديرهم لورعهم وزهدهم فى أمور الدنيا ، ولكن تنقصهم الثقافة وخبرة التعايش مع عالم أرحب نطاقًا من عالمهم المحدود .

كتب سميكة « إنه اعتراف مثير للخجل ، ولكننا يجب أن نقر بأن القلة القليلة من الأساقفة الحاليين ، جاءوا من عائلات محترمة » [١٨] . فقد انحدر معظم الرهبان من عائلات الفلاحين الفقراء فى الصعيد . ومن كان يتولى منهم منصبًا كبيرًا فى الكنيســة كان لا يستطيع مقاومة مطالب الأقارب الذين يسعون لتعويض حرمان الماضى . وتعكس انتقادات مرقص سميكة لرجال الاكليروس لكسلهم ، واعتبارهم هاربين من عالم العمل الحقيقى إلى مجال الفساد والدعة ، تعكس مقولات بروتستانتية مألوفة . فقد اتهم رجال الأكليروس بإهمال واجباتهم الدينية ، وبيع العدالة ، وإثراء الأقارب عن طريق نهب أموال الكنيسة [١٩] . أما كبار الملاك والمهنيين من أعيان الأقباط ، الذين انتخبوا لعضوية المجلس الملى ، فكانوا من الأثرياء ميسورى الحال ، الذين تلقوا تعليمًا أفضل ، ويتطلعون إلى أن تكون لهم كلمة نافذة فى شئون الأقباط . ففى العام ١٨٩١ ، كان سبعة من بين أعضاء المجلس الملى الإثنى عشر يحملون رتبة البكوية وباشا واحد هو بطرس غالى [٢٠] ، ولكن البطريرك والأساقفة وغيرهم من رجال الأكليروس كانوا يتحصنون بالكنيسة ، ولهم تأثير كبير على الجماهير القبطية ، وتمسكوا بمواقفهم المعارضة لمحاولات الإصلاح التى يتبناها المجلس الملِّى ، وكان لهذا الجمود ما يناظره فى السياسة الوطنية بين الوفد وأحزاب القصر بين عامى (١٩١٩ - ١٩٥٢) ، وكان له ما يوازيه فى الأزهر الذى جاء معظم طلابه - منذ ١٩٠٠ - من بين صفوف الفقراء ، أو من أصول ريفية [٢١] . فقد عارض معظم العلماء محاولات إصلاح الأزهر ، والمحاكم الشرعية ، والأوقاف ، خشية فقدان نفوذهم ومكانتهم . وكان الإصلاحيون من شيوخ الأزهر - من أمثال الشيخ محمد عبده - يمثلون حالات استثنائية ، شأنهم فى ذلك شأن الإصلاحيين من أساقفة الأقباط ، واستند كلاهما إلى تأييد نخبة العلمانيين ، وكان باستطاعة دعاة الإصلاح من الأقباط أن يلجأوا إلى الدولة لترجيح كفتهم ، ولكنهم تحسبوا لما قد يترتب على ذلك من فقدان الطائفة لاستقلالها .

تربية مرقص سميكة :

نشأ مرقص سميكة فى بيت جده لأمه ، بحارة الأقباط شمالى الأزبكية ، فى زمان لم تعد الحارة فيه تغلق أبوابها مساءًا لحماية سكانها ، وأصبح الأقباط يشعرون بدرجة كافية من الأمان تجعلهم يستطيعون الإقامة فى أى مكان يشاءون بالقاهرة . وكانت نشأة مرقص سميكة فى عائلة من عائلات أعيان القاهرة التى حققت ثراءً من خلال العمل فى خدمة الدولة والكنيسة . ولدت أمه بدمشق ، عندما كان والدها يعمل كاتبًا بمعية إبراهيم باشا بن محمد على فى الثلاثينات . ومن ناحية الأب ، تبرع أجداده ببعض المخطوطات والأشياء الثمينة الأخرى للكنيسة المعلقة (٢٢) .

وعلى مسيرة مائتى متر بشارع الواسعة من بيت جده ، كانت تقع البطريركية ، وكاتدرائية القديس مرقص ، ومدرسة الأقباط الكبرى . وكانت الدراسة مجانية بتلك المدرسة ، التى كانت تقبل التلاميذ من مختلف الديانات ، ولكن معظمهم جاءوا من عائلات الأعيان من الأقباط مثل سميكه . ويذكر أنه تعلم فى تلك المدرسة اللغات العربية والقبطية ، واليونانية ، ولكن التركية لم تكن من بين تلك اللغات ، فقد قل النفع منها فى عهد إسماعيل لأن النخبة الحاكمة كانت تميل نحو التعريب .

واختار مفتشو المدرسة اثنين من أشقاء مرقص سميكه للدراسة بمدرسة الحقوق تمهيدًا للالتحاق بخدمة الحكومة . وكما كانت العائلات المسلمة تخصص أحد أبنائها للالتحاق بالأزهر ، حاول والد مرقص سميكة أن يدفع به إلى الكنيسة ، ولذلك منعه من حضور دروس اللغة الإنجليزية بمدرسة الأقباط . وكان عبد السيد يتولى تدريس الإنجليزية بالمدرسة ، وكان محررًا لصحيفة « الوطنى » القبطية ، ومن نفر قليل من الأقباط الذى تعلموا بنفس المدرسة ، مدارس الإرسالية الأمريكية ، وكذلك بالأزهر(٢٣) . وخشى والد مرقص سميكه من أن يؤدى تعلمه الإنجليزية إلى اتجاهه إلى الحياة العلمانية ، ولكن إصرار مرقص واضرابه عن الطعام ، جعل والده يعدل عن موقفه . فدرس الإنجليزية ثم اتجه إلى « مدرسة الفرير » لدراسة الفرنسية . وكانت مخاوف والده فى موضعها ، فقد انصرف تمامًا عن التفكير فى العمل الكنسى (٢٤) .

كانت مدرسة الأقباط الكبرى والكلية الإكليركية توفران فرصة دراسة اللغة القبطية بمستويات أعلى من تلك التى يوفرها « الكتاب » القبطى ، ولذلك تعرف الأقباط على تراثهم من كتابات الأوربيين . فقد استخدم فصل سميكة بالمدرسة نسخة تاتام من الإنجيل القبطى - العربى الذى أهداه المؤلف فى مقابل المخطوطات التى حصل عليها من أديرة وادى النطرون . وكتب برسوم الراهب - معلم سميكة - أول كتاب فى النحو القبطى باللغة العربية . وتعلم كلوديوس لبيب (١٨٦٨ - ١٩١٨) - عالم المصريات والقبطيات - بنفس المدرسة . ويبدو أن رجال الكنيسة القبطية لم يكن يعنيهم أمر المصريات ، على نقيض رجال الدين البروتستانت فى الغرب ، الذين دعموا مجال الآثار لإثبات « صحة الإنجيل » فى مواجهة من ينتقدونه (٢٥) .

وعلى كل ، لم يعمل الإصلاح دائمًا فى تناغم مع الآثار والمحافظة عليها ، فقد اعترض المبشرون البروتستانت على وجود الأيقونات بالكنائس القبطية ، تمامًا كما فعل المسيحيون الأوائل عندما طمسوا بالملاط وجوه صور الآلهة بالمعابد الفرعونية . وعندما أعيد بناء كاتدرائية القديس مرقص ، أمر البابا كيرلس الرابع بحرق الأيقونات القديمة ، ومنع عمل غيرها . وفى العام ١٨٦٩ قامت زمرة من الشباب الأقباط ، الذين تأثروا بالمبشرين الأمريكان ، بالإغارة على الكنائس القبطية بأسيوط لتحطيم أيقوناتها ، فتم إلقاء القبض عليهم وإرغامهم على ردها إلى ما كانت عليه . ولكن لم يمض وقت طويل « حتى توقفت ورشة التصاوير عن العمل » ، على حد قول سميكة (٢٦) .

الإصلاح القبطى والاحتلال البريطانى :

كان مرقص سميكة فى الثامنة عشر من عمره عندما دخل الجيش البريطانى القاهرة ، وسرعان ما استفاد بمعرفته للإنجليزية فعمل سكرتيرًا لسيدة إنجليزية كانت تدير مستشفى تطوعى لعلاج الجرحى البريطانيين ، وفى العام ١٨٨٣ بدأ حياته العملية كاتبًا بمصلحة السكك الحديدية ، ولم يكن ذلك غريبًا ، فبعد ذلك بجيل (عام ١٩١١) بلغت نسبة الأقباط العاملين فى السكك الحديدية والبرق (التلغراف) ٤٨٪ من جملة العاملين بتلك المصلحة (٢٧) .

وأسهم الاحتلال البريطانى فى المحاولة الثالثة لإصلاح أحوال الطائفة القبطية ، ففى مايو ١٨٨٢ ، كان بطرس غالى أول قبطى يصل إلى رتبة الباشا يعمل وكيلاً لنظارة الحقانية ، وتبنى - مرة أخرى - قضية الإصلاح القبطى . تعلَّم بطرس غالى بمدرسة الأمير فاضل (وكان والده يعمل مباشراً بدائرة الأمير) ، ومدرسة الأقباط التى أنشأها كيرلس الرابع تجارة السقايين ، ومدرسة الألسن . واستخدام معرفته بالعربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية فى الوساطة بين الأقباط والدولة ، والخديو عباس الثانى والمعتمد البريطانى ، وبين المصريين والأوربيين . وكان عضواً بمجلس الوزراء منذ ١٨٩٣ حتى تم اغتياله عندما كان رئيساً للوزراء عام ١٩١٠ . وعلى طول هذا الطريق كون ثروة شخصية عن طريق شراء أراضى الدومين بأنشاص بالشرقية [٢٨] .

ساندت « جمعية نشر المسيحية بمصر » - وهى مؤسسة إنجيلية - الأقباط العلمانيين فى دعوتهم للإصلاح فى أوائل الثمانينات . وكانت تستند إلى أساس يثير التساؤل ، جاء على لسان متحدث رئيسى بأحد الاجتماعات الأولى شن فيه الهجوم على « هرطقة الأقباط المدمرة للروح » [٢٩] . كان كيرلس الخامس رئيسًا للمجلس الملِّى بحكم القانون ، ولكن رفضه الاعتراف بالمجلس حال دون انعقاده . وفى عام ١٨٨٤ تم حل المجلس الملى مرة أخرى ، وفى عام ١٨٩٠ قامت « جمعية التوفيق القبطية » برابع محاولة للإصلاح . ورغم أن مرقص سميكة كان فى منتصف العشرينات من عمره ، فقد فاز بعضوية المجلس الملِّى . وعندما رفض كيرلس الخامس - مرة أخرى - الاعتراف بالمجلس ، حاول بيرنج (المعتمد البريطانى) ، ومصطفى فهمى (رئيس الوزراء) ، وبطرس غالى ، إخضاع البطريرك بنفيه إلى أحد أديرة وادى النطرون . وكلَّفت هذه الغربة مصطفى فهمى منصبه ، كما دمرت مكانة البريطانيين . وألغى رياض - الذى خلف مصطفى فهمى - قرار نفى البطريرك ، وعاد كيرلس الخامس إلى القاهرة ليلقى ترحيب المنتصر ، وثارت ضجة - أيضًا - حول القس الإنجليكانى چورچ هورنر ، الذى كان يبحث فى مجموعة المخطوطات القديمة بالبطريركية ، وكان بطرس غالى ، وبيرنج ، ومرقص سميكة ، قد رتبوا له مهمة الاطلاع على تلك المخطوطات ، ولكن سرت شائعات حول وجود مؤامرة إنجليكانية للاستيلاء على الكنيسة القبطية ، وأن للقس هورنر يد فيها .

وبعد عودة البطريرك كيرلس الخامس من المنفى شكل لجنة استشارية من أربعة من المشايعين له لتحل محل المجلس الملِّى ، و« لم يجرؤ أحد أن يتحدث عن الإصلاح » [٣٠] . وأعاد البطريرك افتتاح الكلية الإكليركية ، ولكن هيئة التدريس كانت ضعيفة وكذلك كانت حال طلابها .

وثمة ما يوازى إجهاض محاولة الإصلاح هذه ، بالنسبة للأزهر ، فبعد تشدق الخديو عباس بالحديث عن الإصلاح ، إذا به يعين شيخًا للأزهر من المحافظين . ويئس محمد عبده من إمكانية إصلاح الأزهر فاستقال من مجلسه . وكذلك تشبه محاولة الدولة انتزاع السيطرة على الأوقاف من علماء الأزهر ، صراع المجلس الملِّى مع البطريرك للسيطرة على الأوقاف القبطية [٣١] .

وأعاد دعاة الإصلاح القبطى تنظيم صفوفهم ببطء من أجل القيام بمحاولة خامسة للإصلاح . وفى عام ١٨٩٥ أنشأوا جريدة لمواجهة صحيفة بتشجيع تادرس شنودة المنقبادى – عضو جمعية التوفيق المؤيد للمجلس الملِّى – على إصدار صحيفة «مصر» التى جمعت بين الدعوة للإصلاح القبطى ، وتأييد سياسة الاحتلال البريطانى [٣٢] .

إعادة تقييم الماضى القبطى من منظور أوربى :

لم تكن اللغة القبطية بحاجة إلى من يقوم – مثل شامپليون – بحل رموزها ، لأنها بقيت – إلى جانب العربية – لغة النصوص الدينية والتراتيل الكنسية للكنيسة القبطية . وبدأت الدراسات الجادة للغة القبطية فى الغرب فى القرن التاسع عشر على المخطوطات التى جلبها الرحالة معهم . وشجع الڤاتيكان هذا العمل لأسباب تبشيرية ، ورعى نشاط الفرنسسكان وغيرهم من المبشرين العاملين بين صفوف الأقباط . وقام إثناسيوس كيرشر (١٦٠٢ – ١٦٨٠) – اليسوعى الألمانى الذى أقام بروما لمدة طويلة – بدراسات مستفيضة لكل من الهيروغليفية والقبطية . وكان اشتغاله بالهيروغليفية متواضعًا (فقد اعتقد أنها طريقة رمزية خالصة للكتابة) ، ولكن عمله فى القبطية أصبح أساسًا لجميع الدراسات الأوربية القبطية [٣٣] .

وهكذا ترعرعت الدراسات القبطية فى أوروبا فى حجر دراسات الكتاب المقدس ، والدراسات اللاهوتية ، وربيبها : الاستشراق . وقام المتخصصون فى « المصريات » – منذ أيام شامپليون – باستخدام القبطية كأداة لفهم الهيروغليفية . وتحدث چومار قليلاً عن الأقباط فى « وصف مصر » ، وتناولهم وليم لين فى ملحق بكتابه الشهير « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » ، وفى الثلاثينات من القرن التاسع عشر قام كل من روبرت كيرزون ، وهنرى تاتام (انظر الجدول ٥) بتهريب المخطوطات القبطية وغيرها التى اكتشفت بالأديرة المصرية إلى بريطانيا . وكما رأينا من قبل ، كان قدوم مارييت إلى مصر عام ١٨٥٠ لشراء مخطوطات قبطية وغيرها من المخطوطات لحساب اللوفر [٣٤] .

ورسم سومرز كلارك صورة قاتمة لحال الآثار القبطية بمصلحة الآثار قبل عودة ماسپيرو إلى إدارة المصلحة عام ١٨٩٩ :

« كان الموقف الفكرى للمتخصص فى المصريات تجاه أى دراسة للآثار المصرية لا تتم على طريقته – فى ذلك الوقت – أبعد ما يكون عن الصفة العلمية ، كما كان مسبباً للإحباط . ولم يكن مدير عام الآثار يتحدث سوى باشمئزاز عن (الأقباط التافهين) . كان فى منتهى القسوة والبربرية التى لا داعى لها فى مدينة حابو ، فقد تم تحويل أحد إيوانات ذلك البناء الضخم الأخّاذ إلى كنيسة فى عهد متأخر ، فأقيمت الأعمدة ، وبناء حجرى نصف دائرى للمذبح . . . فلم تعجب تلك الصفحة من التاريخ جناب المدير العام ، وما قد تشير إليه من أدلة ، فقام بانتزاع الأعمدة بمشقة وكلفة كبيرة . ولم يفعل ذلك وحسب ، بل لم يعن بنشر تصميمها ورسوماتها ، والمعلومات الوصفية لها ، وعلينا الآن أن نبحث عن الكيفية التى حاول بها أولئك المسيحيين إعادة تنظيم الإيوان لاستخدامهم الخاص ، بالرجوع إلى الرسم الوارد بكتاب وصف مصر » [٣٥] .

ولا زالت هناك بعض الصور الفوتوغرافية لبقايا الكنيسة القبطية قبل أن تتم إزالتها من الموقع (انظر الشكل ٤٢) .

جدول (٥) علماء القبطية وقيادات الأقباط

علماء أوروبيـــون	علمـــــاء	علمانيـــــون	البطاركة – مدة الخدمة
تاتام ١٧٨٨ – ١٨٦٨			
كيرزون ١٨١٠ – ١٨٧٣			
كلارك ١٨٤١ – ١٩٢٦			
		بطرس غالى ١٨٤٦ – ١٩١٠	
أميلينو ١٨٥٠ – ١٩١٥			
بتلر ١٨٥٠ – ١٩٣٦		ميخائيل شاروبيم ١٨٥٣ – ١٩٢٠	
شتا يندورف ١٨٦١ – ١٩٥١	مرقص سميكة ١٨٦٤ – ١٩٤٤	قليني فهمي ١٨٦٠ – ١٩٥٤	كيرلس الرابع ١٨٥٤ – ١٨٦١
كروم ١٨٦٥ – ١٩٤٩	كلوديوس لبيب ١٨٦٨ – ١٩١٨	ميخائيل عبد السيد ١٨٦٠-١٩١٤	ديمتريوس الثانى ١٨٦٢ – ١٨٧٠
كليدا ١٨٧١ – ١٩٤٣		مرقص حنا ١٨٧٢ – ١٩٣٤	
ماسبيرو ١٨٨٥ – ١٩١٥		ويصا واصف ١٨٧٣ – ١٩٣١	كيرلس الخامس ١٨٧٤ – ١٩٢٧

وأخـذت الدراسـات القبطيــة - فى الدوائـر الأوربية الأخرى - تحظى بالاهتمام فى الثمانينات والتسعينات ، فاشتغل كل من أميلينو ، وأوسكارڤون ليم ، وولتر كروم باللغة والأدب ، ونشر شتنا يندورف كتابًا مهمًا فى قواعد اللغة القبطية عام ١٨٩٤ . وبدأ الفن والعمارة القبطية يدخلان دائرة الاهتمام عام ١٨٨٠ عندما قدم إلى مصر الفرد بتلر ليعمل معلمًا لأبناء الخديو توفيق ، فخلبت لبه الكنائس القبطية . وفى عام ١٨٨٤ نشر كتابه « الكنائس القديمة فى مصر » ، الذى ذكر فيه أن « الآثار القبطية فى طريقها للفناء يومًا بعد يوم ، فلا يعرفها السياح الأوربيون ، ولم يهتم بها الأقباط أنفسهم إلا نادرًا ، ولم يتم عمل أى شىء مطلقًا لإنقاذها من الدمار » [٣٦] . وفى العام ١٩٠٢ ، نشر بتلر كتابه « الفتح العربى لمصر » .

بدأ حقل الآثار القبطية يجتذب الاهتمام بعد العام ١٩٠٠ ، فبعدما ترك سومرز كلارك العمل فى مجال العمارة بانجلترا عام ١٩٠٢ ، استقر فى مصر ، وتفرغ للبحث وكان ماسپيرو - على نقيض ماربيت - مهتمًا بالآثار القبطية ، وبدأ يعمل منذ عام ١٩٠٠ على تعويضها عما أصابها من إهمال . وخصص قاعة بالمتحف المصرى للآثار القبطية ، هى التى نقلت فيما بعد إلى المتحف القبطى [٣٧] . وأصبح ابنه چان - الذى مات فى الثلاثين من عمره على الجبهة الغربية للحرب - قد أصبح متخصصًا بالبيزنطيات وأعد كتالوجًا للبردى اليونانى بمتحف القاهرة . واشتملت الحفائر التى أجراها چان كليدا (١٨٧١ - ١٩٤٣) قبل الحرب الأولى ، على مواقع قبطية فى بويط ، ودير أبو حنس ، ودير القديس سمعان بأسيوط ، وأسيوط ، وأخميم ، وأديرة سوهاج ، وقد رعى تلك الحفائر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، ومصلحة الآثار المصرية ، ولجنة حفظ الآثار ، وشركة قناة السويس [٣٨] . وأسس بتلر ، وكلارك، وموريز (مدير الكتبخانة الخديوية) ، وماكس هرتز ، « جمعية تاريخ الآثار القبطية فى مصر » عام ١٩٠٣ ، ولكن يبدو أنها لم تعمر طويلاً [٣٩] .

إعادة تقييم الماضى القبطى - سميكة ولجنة حفظ الآثار :

كان المصريون الذين قدر لهم أن يلبوا دعوة بتلر إلى إنقاذ الكنائس القديمة يطـــورون اهتماماتهم ، وينمــون قـدراتهم للقيـام بهذا العمل ، وكان مرقص سميكة

– فى صباه – يحب زيارة المتحف المصرى ، وأهرام الجيزة وسقارة ، ومساجد القاهرة وكنائسها . وبعد ما انقشع غبار الاحتلال البريطانى ، رافق سميكة مخدومته الكونتيسة سترانجفورد عند زيارتها لتلك الأماكن . واعترف فى مذكراته بأنه تعرف على آثار بلاده من كتب موراى وبايديكر لدليل مصر السياحى ، وفى ذلك يقول : « رغم أن ذلك يمس مشاعرى الوطنية ، لابد أن أعترف بأننا ندين للأوربيين – وخاصة الفرنسيين – باكتشاف هذه الآثار ، ودراستها علمياً ، وترميمها » (٤٠).

وساعد الشقيق الأكبر لمرقص سميكة بتلر فى بحثه عن الكنائس القبطية ، وفى ١٨٩٠ زار مرقص الباحث البريطاني بأكسفورد (٤١) . وعرفه بتلر على سومرز كلارك ، المعمارى البريطانى المتخصص فى ترميم الكاتدرائيات . وقد بدأ كلارك اهتمامه بالمصريات والعمارة القبطية كهواية ، ثم انكب على دراستها بعد تقاعده فى بيته الذى بناه فى الكاب ، ونشر كتابه « الآثار القبطية فى وادى النيل » عام ١٩١٢ (٤٢) .

ونبه سميكة كلارك إلى أن أعيان القبط يستبدلون بالكنائس القديمة ، عمائر على الطراز « اليونانى الحديث » المغطى بالرخام الإيطالى . وأن ذلك يتم بحسن نية ، ولا يلقى معارضة من جانب البطريرك ، وكبار العلمانيين ، بما فيهم بطرس غالى . فقام كلارك بنشر مقالة احتجاجية نارية بجريدة التايمز اللندنية . وفى العام ١٨٩١ ، رافق مرقص سميكة بيرنج فى جولة لزيارة كنائس القاهرة ، وحثه على وضع تلك الكنائس تحت رعاية « لجنة حفظ آثار الفن العربى » (٤٣) . وبعد ذلك بسنوات ، عبر سميكة عن تقديره لعمل بتلر بإهداء الدليل الذى أعده للمتحف القبطى إلى ذكراه ، وذكر أن كتاب بتلر « الكنائس القديمة فى مصر » ألهمه الدعوة إلى وضع الآثار القبطية تحت رعاية « لجنة حفظ الآثار » وتأسيس المتحف القبطى (٤٤) .

وكما رأينا فى الفصل السادس ، أسس توفيق لجنة حفظ الآثار عام ١٨٨١ ، وفى ١٨٩٤ اقترحت اللجنة أن تتولى مسئولية الحفاظ على الكنائس والأديرة القبطية الأثرية ، فخشى البطريرك كيرلس الخامس أن يؤثر ذلك على صلاحيته ، وبعد عامين من ذلك التاريخ ، عرضت اللجنة تخصيص ٢٠٠٠ جنيه مصرى لإصلاح الآثار القبطية

إذا شاركت الكنيسة بدورها فى تحمل جانب من التكلفة ، فوافق البطريرك بعد تردد . وتم ضم عضوين من الأقباط إلى اللجنة على نحو ما رأينا (٤٥) .

ويذكر سميكة أن البطريرك كيرلس الخامس « لامه » على ذلك التدبير ، وكان « عزاؤه الوحيد » أنه لم يدخل اللجنة . واتهم سميكة أحد العضوين القبطين باللجنة - نخلة البراتى - لهدمه برجًا رومانيًا فى حصن بابليون لتوسيع مدخل الكنيسة المعلقة ، وإزاحة الستائر والأيقونات عند إعادة تأثيثه لكنيسة مارجرجس ، فمنذ عام ١٨٧٩ ، أنفق نخلة البراتى ٦٠٠٠ جنيهًا من ماله الخاص فى إعادة تأثيث الكنيسة المعلقة ، ولكن الآثاريين البريطانيين ساءهم فقد البرج الرومانى ، وطالبوا كرومر بالتدخل لإنقاذ البرج الآخر (٤٦) . وفى عام ١٨٩٨ ، كتب كرومر إلى ستانلى لين - پول :

« إننى أكافح ضد البطريرك القبطى ، وأسعى لإيجاد نوع من السيطرة الأوربية على الكنائس القبطية من الناحية الأثرية ... ويؤسفنى أن أحدًا لم ينبهنى قبل ذلك لما حدث بقصر الشمع . وبمجرد قراءتى لخطاب سومرز عن الكنائس قمت بزيارة الموقع . لقد حدث ضرر كبير بالمكان تم بحسن نية ، ومن حسن الحظ أننى وصلت فى الوقت المناسب لإنقاذ البرج الرومانى الآخر من الدمار ، فالآثار القبطية على نفس درجة الآثار الرومانية من حيث الأهمية . ولابد أن أسعى لوضعها تحت إشراف هرتز بصورة أو بأخرى ، لأننى على ثقة من قدرته على ذلك العمل » (٤٧) .

وفى نفس الوقت ، بدأ مرقص سميكة يجد نفسه - تدريجيًا - أمام إختيار صعب : أن يستمر فى السعى للإصلاح القبطى ، أو يخفف من ذلك ، ويرمم الصدع الذى أصاب علاقته بالبطريرك كيرلس الخامس ، ويحاول الحصول على مساعدته لدخول لجنة حفظ الآثار ، ولإقامة المتحف القبطى . كان مرقص سميكة - عام ١٨٩٣ - واحدًا من بين المتشددين من أعضاء المجلس الملى الذى رفضوا التوقيع على التماس أعده بطرس غالى للمطالبة بعودة البطريرك من منفاه بوادى النطرون (٤٨) . والآن غير سميكة رأيه ، ونحى فكرة الإصلاح جانبًا ، وبدأ يتودد لكيرلس الخامس . وفى عام ١٩٠٥ ، أصبح عضوًا بلجنة حفظ الآثار ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس المتحف القبطى .

من الأرمن إلى الأقباط :

انتقل تمثيل المسيحيين فى قمة النخبة السياسية فى مصر من الأرمن إلى الأقباط خلال سنوات الحكم البريطانى (١٨٨٢ - ١٩٢٢) ، وانعكس ذلك التغير على عضويته لجنة حفظ الآثار . لقد لعب الأرمن والأقباط دور الوساطة بين المصريين المسلمين والأوربيين ، ولكن ظروف هاتين الطائفتين المسيحيتين فى مصر كانت مختلفة تمامًا . فالكثير من أفراد الطائفة الأرمنية الصغيرة الحجم قدموا إلى مصر فى القرن التاسع عشر ، ولم تكن لهم جذور قوية بها ، واعتمدوا على حماية الأسرة الحاكمة أو الدول الأوربية ، ولم يتورطوا فى الحركة الوطنية المصرية . أما الأقباط فكانوا على نقيضهم تمامًا ، يدَّعون أنهم أعمق المصريين جذورًا فى البلاد ، ويتخذون من العربية لغة لهم ، ونفروا من التعاون مع الاحتلال البريطانى ، وتضامنوا فى العمل الوطنى مع المسلمين فى النضال من أجل الاستقلال .

وفى التسعينات ، كان الأرمن الذين رجحوا كفة الأوربيين فى لجنة حفظ الآثار هما : تيجران (صهر نوبار رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية من ١٨٩١ حتى ١٨٩٤) ، ويعقوب أرتين وكيل المعارف ، وفيما يتعلق بمجلس الوزراء ، شكا كرومر من مقاومة تيجران الضمنية للاحتلال ، وعزا ذلك إلى عقليته « الفرانكو - بيزنطية » (٤٩) .

أما يعقوب أرتين (١٨٤٢ - ١٩١٩) ، فقد تواترت الإشارة إليه فى الفصول السابقة من هذا الكتاب ، قضى نصف حياته بلجنة حفظ الآثار ، ولذلك كان أهم من تيجران الذى كان عابر سبيل . وكان أرتين حفيدًا لمهاجر أرمنى من سيواس (بآسيا الصغرى) جاء إلى مصر للعمل فى خدمة محمد على نحو عام ١٨٠٨ ، وهو ابن أرتين بك شراكيان المترجم وناظر التجارة والأمور الأفرنجية فى الأربعينات ، وكان أيضًا قريبًا ليوسف حككيان، وتربى يعقوب أرتين فى فرنسا تربية كاثوليكية، وجاء إلى مصر كرعية فرنسية ولم يتعلم التركية والعربية إلا فى العشرين من عمره ، ولذلك كان تصنيفه كمصرى إشكاليًا فى حد ذاته . وكما كانت الحال بالنسبة لنوبار وتيجران ، شق يعقوب أرتين طريقه نحو القمة بإتقانه الفرنسية واستعداده للعمل مع الأوربيين . فكان معلمًا خاصًا لأبناء اسماعيل ، كما اشتغل سكرتيرًا خاصًا له . وكان يعمل فى خدمة المصالح الأوربية تمامًا من خلال عمله فى « لجنة التحقيق فى الديون » .

وبعد الاحتلال البريطانى ، تولى يعقوب أرتين رئاسة اللجنة التى نظرت دعاوى التعويضات عن الأضرار الناجمة عن الثورة العرابية . وفيما بين ١٨٨٤ - ١٨٨٨ كان وكيلاً للمعارف ، ولكنه اصطدم بناظر المعارف على مبارك ، فانتقل إلى مصلحة السكك الحديدية حيث النفوذ الأقوى للبريطانيين حتى خرج على مبارك من الوزارة (١٨٩١) ، فعاد وكيلاً للمعارف ، وكان يقيم فى بناية واحدة بجوار تيجران ونوبار فيما بين الأزبكية وباب الحديد (٥٠) .

وانضم يعقوب أرتين إلى لجنة حفظ الآثار فى نوفمبر ١٨٨٢ - عقب الاحتلال مباشرة - وكانت خطوته الأولى لفتح أبواب المقدسات الإسلامية عنوة باسم الفن أو العلم . أخذ يشكو من أن « أعضاء بعينهم » (يقصد المسيحيين) لا يسمح لهم بدخول المساجد أحياناً ، واستجابت اللجنة لذلك فزودت الأعضاء بميدالية برونزية تتيح لهم دخول أى مسجد (٥١) .

وقد عمر أرتين لما بعد ذروة النفوذ الأرمنى فى مصر ولجنة حفظ الآثار : فتقاعد تيجران بعد خروجه من نظارة الخارجية عام ١٨٩٤ ، وفى السنة التالية أنهى سقوط وزارة نوبار مشاركة الأرمن فى مجلس الوزراء ، وتقاعد أرتين من منصب وكيل المعارف عام ١٩٠٦ حتى لا يعمل تحت رئاسة ناظر المعارف سعد زغلول . وظل نشطاً فى لجنة حفظ الآثار ، والجامعة المصرية ، والمجمع العلمى المصرى حتى وفاته فى يناير ١٩١٩ ، قبل شهرين من اندلاع الثورة التى دشنت عصراً جديداً لم يترك للأرمن سوى مساحة سياسية ضئيلة .

وملأ الأقباط الفراغ السياسى الذى تركه الأرمن ، ففى عام ١٨٩٣ ، أصبح بطرس غالى أول قبطى يصل إلى الوزارة ، وظل بها حتى اغتياله عام ١٩١٠ عندما كان رئيساً للوزراء . وقد اتبع سنة الأرمن فى شغله لمنصب ناظر الخارجية ، وفى رئاسته لمجلس النظار ، وقد تعاون بطرس غالى مع الإنجليز ، ودفع حياته ثمناً لذلك على يد أحد الوطنيين . ومنذئذ أصبح وجود وزير قبطى بمجلس الوزراء حقيقة واقعية ثابتة . وامتص حكماء الأعيان الأقباط صدمة اغتيال بطرس غالى ، ووجهوا طائفتهم إلى التضامن مع المسلمين فى العمل الوطنى من أجل تحقيق الاستقلال .

وجاء التمثيل المسيحى بلجنة حفظ الآثار ، فى التسعينات . ولكن طال أمده فى اللجنة عنه فى الوزارة بسبب استمرارية وجود يعقوب أرتين . وبدأ الوجود القبطى باللجنة بعضوين اثنين عام ١٨٩٦ بعد وضع الآثار القبطية تحت إشراف اللجنة ، فكان ذلك خطوة باتجاه الوحدة الوطنية .

وعند عام ١٩٠٦ ، كانت الكنيسة قد أسهمت بمبلغ ٥٠٠ جنيه فى أعمال اللجنة فى مقابل ١٦٦ ألفًا من الجنيهات قدمتها الأوقاف فيما بين ١٨٨١ - ١٩٠٦ ، و٣٩ ألفًا قدمتها غيرها من النظارات [٥٢] . وكان التحاق مرقص سميكة باللجنة عام ١٩٠٦ علامة فارقة فى النشاط القبطى فى مجال حفظ الآثار القبطية ، وفى العشرينات كان صوت سميكة من أعلى الأصوات باللجنة .

تأسيس المتحف القبطى :

ويبدو أن البطريرك كيرلس الخامس وافق على المتحف القبطى فى مقابل قيام سميكة بكبح جماح الإصلاحيين بالمجلس الملى ، فبدون موافقة البطريرك لا يمكن إقامة متحف لأن مكانه ومقتنياته من ممتلكات الكنيسة . وقد ملأ المتحف الفجوة التاريخية بين المتحف المصرى والمتحف اليونانى الرومانى من ناحية ، ومتحف الفن العربى من ناحية أخرى . وكانت جميع المتاحف تحت إدارة الحكومة فيما عدا المتحف القبطى ، الذى كان تابعًا للكنيسة ، وكان مؤسسه مصريًا .

والمتحف القبطى يبرز ظاهرة فى التاريخ المصرى أكثر من عرضه لعصر معين ، فمن حيث السيادة السياسية لم يكن هناك حكم قبطى ، لأن مصر انتقلت من الحكم البيزنطى إلى الحكم الإسلامى ، ولم يعرف تاريخها دولة قبطية ، كذلك ليست هناك عملة قبطية . وكان عرض الآثار القبطية المبكرة فى المتحف اليونانى - الرومانى ، يضفى نوعًا من الغموض على الفترة الفاصلة بين ما يعرف بروما القديمة ، وما يطلق عليه الآثار المتأخرة ، وكانت إقامة متحف بيزنطى غير واردة فى بلد تشكلت هويته من خلال مقاومته للقسطنطينية والأرثوذكسية اليونانية . وكان عرض الآثار القبطية التالية

للعام ٦٤٠ بمتحف الفن العربى سواء مختلطة مع غيرها ، أو كمجموعة قائمة بذاتها فى قسم خاص بها إشكالية أيضًا ، ورغم تداخله الزمنى مع المتاحف الأخرى ، وصعوبة تحديد « العصر القبطى » ، سد « المتحف القبطى » ثغرة مهمة ، فى وقت كان المصريون فيه يناضلون من أجل تحديد هويتهم الوطنية الحديثة .

كان ماكس هرتز أول من طرح فكرة إقامة « متحف قبطى » على لجنة حفظ الآثار عام ١٨٩٧ ، واقترح استئذان البطريرك فى جمع رؤوس الأعمدة الحجرية المحفورة وغيرها من الآثار المهملة من الكنائس ، لتشكيل نواة المتحف [٥٣] . وكان البطريرك متقبلاً للأمر فى البداية ، واقترح أن يتولى نخلة البراتى – عضو اللجنة – الإشراف على تخزين الآثار التى تتجه إلى هرتز بمبنى ملحق بالكنيسة المعلقة [٥٤] ، ولكن المدى الذى بلغتـــه تلك الترتيبات قبل أن يتولى سميكة هذه المهمة ، ليس واضحًا ، ويبدو أن سميكة قد أغفل (فى مذكراته) أى دور لهرتز ونخلة البراتى فى فكرة إقامة المتحف .

وقد أُسس المتحف القبطى فى حوالى نفس الوقت الذى أسس فيه المتحف البيزنطى بأثينا ، الذى افتتح عام ١٩١٤ ، وذلك بعد تأسيس المتحف الوطنى للآثار بأثينا بنحو ثمانين عامًا ، مسجلاً الاعتراف الرسمى بعصر وتراث كان اليونانيون المعاصرون على استعداد تام للانتساب إليه [٥٥] .

ولم يكن ثمة مكان أفضل للمتحف القبطى من ذلك الموقع التاريخى الذى أقيم فيه بجوار الكنيسة المعلقة بحصن بابليون بمصر القديمة (الفسطاط ، انظر الخريطة ٢) ، وهناك بالجوار كنيسة القديس سرجيوس (التى يعتقد أن موقعها مكان إقامة العائلة المقدسة) ، وغيرها من الكنائس التاريخية الأخرى ، وسوف يتم توسيع المتحف ، وصممت واجهته على الطراز الفاطمى البديع المرصع برموز مسيحية ، وذلك فى فترة ما بين الحربين العالميتين . وأعاد الملك فاروق افتتاح المتحف عام ١٩٤٦ ، وأقيم فى فنائه نصب يحمل تمثالاً نصفيًا لمرقص سميكة (انظر الشكلان ٤٣ ، ٤٤) .

طـوَّف مرقص سميكة بالكنائس والأديرة « من رشـــيد إلى الخرطوم » [٥٦] عام ١٩٠٨ ، مزودًا ببركات البطريرك ، وكان يدفع للكنيسة ثمنًا رمزيًا لما يختاره من أشياء ، ولم تسهم الكنيسة – ماليًا – فى إقامة المتحف ، وجاءت التبرعات

التى أقيم بها المتحف من العلمانيين من الأقباط ، وبعض رجال الدين ، والأمير حسين كامل (السلطان فيما بعد) ، وأعضاء مجلس الوزراء ، والمستشارين الإنجليز ، وزملاء سميكة من أعضاء مجلس شورى القوانين . وقدمت الحكومة إعانة سنوية قدرها مائتى جنيه ، زيدت إلى ٣٠٠ جنيه عام ١٩١٨ ، وألف جنيه عام ١٩٢٥ ، و١٥٠٠ جنيه عام ١٩٣٠ (٥٧) .

وما لبث المتحف المتواضع أن أصبح مفخرة الأقباط ، وموقع احتفالى يعرض فيه حكام مصر المسلمين اهتمامهم برعاياهم من المسيحيين . وفى عام ١٩١٠ ألقى الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت كلمة فى الجامعة المصرية ، استنكر فيها اغتيال بطرس غالى ، وهاجم الوطنيين ، وأشاد بالحكم البريطانى لمصر . وعبَّر أعيان الأقباط عن شكرهم له بدعوته لزيارة المتحف القبطى ، واقترح قلينى فهمى إهداء أهم مخطوط قبطى لروزفلت ، ولكن سميكة رفض الاقتراح .

ولم يدخل المتحف أفق السياحة الغربية إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، فلا يرد ذكره بدليل بايديكر (١٩١٤) ، ولا ما كميلان (١٩١٦) . وساعدت زيارة السلطان فؤاد للمتحف عام ١٩٢٠ على معرفة الجمهورية ، وبعد ذلك بثلاث سنوات . اصطحب فؤاد الملك ڤيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا والملكة فى زيارة للمتحف (٥٨) .

الأقباط بين الملة والأمة :

لا يرد ذكر الإصلاح القبطى ، والمتحف القبطى فى الكتب التى تتناول تاريخ تلك الفترة الحافلة بالاضطراب السياسى ، السابقة على الحرب العالمية الأولى ، كان الأقباط يمرون بالمحاولة الرابعة للإصلاح بقيادة العلمانيين ، بعدما أصبحت سوء إدارة المدارس والأوقاف القبطية على يد اللجنة الاستشارية الرباعية التى أقامها البطريرك ، واضحة عام ١٩٠٥ ، حتى أن جريدتى « الوطن » و« مصر » اتحدتا فى المطالبة بإعادة إقامة المجلس الملِّى ، واستجاب البطريرك كيرلس الخامس وتم انتخاب مرقص سميكة عضواً بالمجلس الملِّى الجديد ، الذى تغيرت أفكاره ، فأصبح يرجع الصدام

الذى حدث عام ١٨٩٢ - ١٨٩٣ بين البطريرك والمجلس الملى ، إلى اشتطاط أعضاء المجلس (وكان واحداً منهم) ، فى سياستهم [٥٩] .

ولاحظ أحد الكتاب البريطانيين أنه « كان من الممكن جذب البطريرك قليلاً نحو الإصلاح ببعض اللطف والحيلة التى عرف بها رجل مثل مرقص سميكة باشا » [٦٠] ، وبيّن سميكة على صفحات مذكراته كيف تخلص من التوتر الذى شاب علاقته بكيرلس الخامس الذى كان متسامحًا مع رجال الإكليروس الفاسدين ، يغدق من أموال الكنيسة على أقاربه ، يسعى لتحويل المعادن إلى ذهب ليستخدمه فى بناء الكنائس ، ويجبر سميكة على الحفر تحت مذبح إحدى كنائس القاهرة ليستخرج « كنزاً » من تحتها [٦١] .

استقال كرومر عام ١٩٠٧ ، وحل بطرس غالى - بعد ذلك بعام - محل مصطفى فهمى رئيسًا للنظار ، فكان أول قبطى يتولى هذا المنصب ، ولكن الوطنيين المعارضين اعتبروه مسئولاً عن توقيع اتفاقية الحكم الثنائى المصرى - الإنجليزى فى السودان عام ١٨٩٩ ، وعلى رئاسته لمحكمة دنشواى التى قضت بإعدام الفلاحين (١٩٠٦) ، وإصدار قانون المطبوعات الذى كمم الصحف ، والسعى لمد امتياز شركة قناة السويس . ولم يكن بطرس غالى فريداً فى تعاونه مع الإنجليز ، فلم يختلف فى ذلك عن غيره من الأعيان المسلمين والأقباط فى تلك الأيام . فمن الأقباط كانت جريدتا « مصر » و « الوطن » وأخنوخ فانوس من أعيان أسيوط ، يدافعون صراحة عن الاحتلال ، وزين البطريرك كيرلس الخامس قاعة الاستقبال بصورتى إدوارد السابع وچورچ الخامس [٦٢] . وأسس أخنوخ فانوس - البروتستانتى ، خريج الكلية السورية البرونسنينية - « جمعية الإصلاح القبطى » و « حزب المصريين المستقلين » الذى طالب الحكومة والإنجليز بتقديم امتيازات للأقباط .

أما الحكماء من قادة الأقباط الآخرين فاختاروا العمل فى إطار التيار الوطنى ، فانضم ويصا واصف حنا إلى الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل الدى كان يطالب بالاستقلال الفورى . واختار فخرى عبد النور وسينوت حنا الانضمام لحزب الأمة الذى كان لطفى السيد وراء تأسيسه ، ضم كبار الملاك والمثقفين الذين رأوا فى الإصلاح

الاجتماعى تقدمًا تدريجيًا نحو الاستقلال ، وأكد كل من مصطفى كامل ، ولطفى السيد أن المسلمين والأقباط يكونون أمة مصرية واحدة . ولكن تدهورت علاقة الأقباط بالحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ ، وخاصة عندما قام أحد المنتمين إلى الحزب الوطنى باغتيال بطرس غالى عام ١٩١٠ . وبالغ المؤتمر القبطى - الذى نظمه فانوس وآخرون بأسيوط - فى تصعيد الخلاف وشق الصف الوطنى ، واستدعاء عقد مؤتمر إسلامى ردًا عليه (٦٣) .

كان سميكة يناور سياسيًا بين صفوف البريطانيين ، ومع البطريرك ، ودعاة الإصلاح العلمانيين بالمجلس الملِّى . ولا يكاد يخلو كتاب إنجليزى عن الأقباط فى مطلع العشرين ، من الإشارة إلى جهود مرقص سميكة . ويذكر سميكة أنه استطاع إقناع كرومر بتخصيص إعانة للمدارس القبطية الخاضعة لتفتيش المعارف ، وأنه أقنع مستشار المعارف دوجلاس دانلوب باستبدال أحد الإصلاحيين المتعلمين بفرنسا بناظر الكلية الأكليريكية صنيعة البطريرك (٦٤) .

وعلى صعيد العمل الوطنى ، عين سميكة عضوًا بمجلس شورى القوانين (١٩٠٦ - ١٩١٣) ، وبالجمعية التشريعية (١٩١٤) ، ويبدو أن علاقته بلطفى السيد وحزب الأمة كانت سطحية (٦٥) . وكان الأقباط الآخرون من أعضاء مجلس شورى القوانين : قلينى فهمى ، وسينوت حنا ، وكامل صدقى . وفى غضون تلك الأيام ، حصل سميكة على الباشوية (٦٦) .

شعر الأقباط بالحاجة إلى جمع الصفوف بعد اغتيال بطرس غالى ، وفى العام ١٩١٢ ، عمل اللورد كتشنر من خلال قلينى فهمى للوصول إلى حل وسط ، ضم بموجبه أربعة من الأكليروس بطريق التعيين إلى جانب ثمانية من العلمانيين المنتخبين أعضاء بالمجلس الملِّى ، وأعاق قيام الحرب العالمية الأولى واشتعال ثورة ١٩١٩ دون ظهور محاولة جديدة للإصلاح القبطى (٦٧) .

يروى هذا الفصل قصة صراع دام أربعين عامًا بين البطريرك كيرلس الخامس ، والعلمانيين من دعاة الإصلاح بالمجلس الملِّى ، غير أن ذلك لا يحجب ما حققه الأقباط من إنجازات فى التعليم ، والثروة ، والسياسة الوطنية عند قيام الحرب العالمية

الأولى . وتعد الإحصائيات الخاصة بتلك المحاولات موضع الشك بسبب تباين الدوافع عند الأطراف التى طرحتها فى خضم الصراع الطائفى (الفتنة الطائفية) . ولعل « الهلال » لم تتجاوز الحدود عندما ذكرت عام ١٩١١ - استناداً إلى إحصاء ١٩٠٧ - وعائدات الضرائب أن الأقباط يمثلون ٧٪ من سكان مصر ، ولكنهم يملكون ١٦٪ من العقارات الأراضى الزراعية ، و٢٥٪ من الثروة الوطنية (٦٨) .

أبناء الكنيسة القبطية أم أبناء الفراعنة :

كان باستطاعة الأقباط إرساء هويتهم الحديثة على بر آباء المسيحية الأوائل فى العصر الرومانى - البيزنطى (الذى كان عصر اضطهاد) ، أو على شاطىء مصر القديمة . وكانت الرؤية المتمركزة حول الكنيسة أكثر قبولاً عند رجال الدين وعامة الناس من الأقباط ، بينما شعر العلمانيون الذين تأثروا بالأفكار الغربية بإغراء الرجوع إلى الفراعنة .

لم يحكم الأقباط مصر فى يوم من الأيام ، وليس لديهم سوى الشهداء أو النساك من أمثال القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس موضع فخار واعتزاز . فالتقويم القبطى لا يبدأ بمولد المسيح أو قدوم القديس مرقص إلى مصر ، بل يبدأ بعصر « الشهداء » فى عهد دقلديانوس . بينما التاريخ الفرعونى - على نقيض ذلك - حافل بمظاهر الاعتزاز بمجد الأجداد والعظمة التى يتوقون للافتخار بها .

وسواء كان التأكيد على العصر الفرعونى أو على العصر المسيحى - كما ذهب سميكة و« جمعية الآثار القبطية » التى أسسها مريت غالى فى الثلاثينات - فقد كان العلمانيون هم الذين قادوا حركة الحفاظ على الآثار التاريخية القبطية وتأسيس المتحف القبطى - بينما كان البطريرك ورجال الاكليروس يستمدون شرعيتهم من خلافتهم للقديس مرقص ، ومن الاشتهار بالتُقى والزهد ، غير أنهم كانوا لا يدرون ما يعود به الإصلاح التعليمى من منفعة ، ولا يقدرون قيمة الآثار القبطية (٦٩) .

كان تادرس شنودة المنقبادى (١٨٥٧ - ١٩٣٢) علمانيًا من جيل سميكة ، متعمقًا فى الاهتمام بالماضى القبطى . استفاد مرتين من تحدى المبشرين الأمريكان للكنيسة القبطية ، فتعلم بالمدرسة الأمريكية الابتدائية بأسيوط ، ثم انتقل إلى المدرسة التى أقامها البطريرك ديمتريوس هناك لمواجهة البروتستانت . وما لبثت المدرسة القبطية أن أغلقت بعد وفاة البطريرك ، عندما كان تادرس فى الثالثة عشر من عمره ، فساعد والده فى تجارته حينًا من الزمن وشغل بعض الوظائف الحكومية بمديرية أسيوط . واشتغل بالتجارة واستصلاح الأراضى ، وساعد فى تأسيس « الجمعية الخيرية القبطية » بأسيوط . وانتخب عام ١٨٩٢ عضوًا بالمجلس الملِّى الإصلاحى . وفى عام ١٨٩٥ أسس جريدة « مصر » لسان حال الإصلاحيين ، كما أسس « جمعية حفظ التاريخ القبطى » بأسيوط عام ١٨٨٣ أو ١٨٨٤ ، وترجم كتاب بوتشر « تاريخ الكنيسة فى مصر » إلى اللغة العربية (٧٠) .

كان الاهتمام بالماضى القبطى والماضى الفرعونى من قبيل التباهى - غالبًا - وليس من قبيل الارتباط القصرى . وكلاهما كان سهل التوافق مع الوطنية المصرية ، فمعرفة اللغة القبطية لا تؤهل المرء للدراسات القبطية فحسب ، بل ودراسة مصر القديمة أيضًا . ولم ير سميكة فارقا كبيرًا بين ديانة مصر القديمة والمسيحية . وذهب إلى أن معظم المصريين المسلمين انحدروا من صلب الأقباط ، وأن جميع المسلمين المستنيرين يعرفون ذلك ، فكل المصريين أقباط : بعضهم مسلمون أقباط ، والبعض الآخر مسيحيون أقباط (٧١) .

وفى ربيع عام ١٨٨٢ ، اعترف ناظر الأشغال العمومية بالصلة بين الأقباط ومصر الفرعونية عندما اقترح إضافة عشرة تلاميذ إلى الخمسة الذين ضمتهم مدرسة أحمد كمال للآثار بالمتحف ، على أن يكون من بين العشرة أربعة من الأقباط (٧٢) . وجاء تأكيد بعض العلماء من أمثال ماسبيرو وبترى ، وسايس ، على انتساب الأقباط إلى الفراعنة ليضاعف من شعور الأقباط بالفخر . ففى حديثه أمام « نادى رمسيس » (وهو تجمع قبطى) ذكر ماسبيرو أن الأقباط يمثلون سلالة فرعونية خالصة . وأن المسلمين المصريين ينتسبون إلى نفس السلالة ، ولكن التزاوج مع العناصر الوافدة جعلهم أقل نقاء ، من الناحية العرقية ، من الأقباط . ونقلَ كل من سايس وبترى هذه

الرسالة العنصرية إلى مستوى بالغ الخطورة (٧٣) . فكتب يترى : « القرية القبطية نظيفة طرقاتها جيدة الكنس ، يجلس النسوة فى مداخل الدور يعملن أو يتحدثن معًا على مستوى بلاد البحر المتوسط المتحضرة ، وليست بالغة القذارة والفوضى كقرية المسلمين . . . ولن تصبح مصر أبدًا بلدًا متحضرًا إلا إذا حكمها الأقباط - إذا قدِّر لهم ذلك » (٧٤) .

وطرقت ملكة سعد - محررة المجلة النسوية « الجنس اللطيف » - هذا الطريق الخطر عام ١٩٠٨ ، عندما كتبت : « النساء المصريات درجن على دراسة العلوم ، والخطابة فوق المنابر ، وحكم الإمبراطورية (٧٥) . عندما كانت نساء البلاد الأخرى تعشن حياة العبودية والبؤس ، واستمرت حرية النساء مع قدوم المسيحية ، غير أنها تلاشت بعد الغزو العربى ، وفرض الخدر والحجاب على النساء .

وتكشف العناوين التى اختارها الأقباط لصحفهم عن تزايد انجذابهم نحو مصر القديمة . فقد اختار تقلا - المسيحى الشامى - « الأهرام » عنوانًا لجريدته ، أما الأقباط فاختاروا « الوطن » و « مصر » التى عكست قومية إقليمية مليئة بالإعتزاز بمصر القديمة . وحملت الصحف القبطية الأخرى عناوين فرعونية صريحة : رمسيس (١٨٩٣) ، و « فرعون » (١٩٠٠) ، و « عين شمس » (١٩٠٠) ، و « الآثار المصرية » (١٩٠٩) ، و « رمسيس » أخرى (١٩١١) (٧٦) .

واكتشف سلامة موسى - الكاتب القبطى - مصر القديمة عندما سافر إلى أوروبا . واهتم مكرم عبيد - السياسى الوفدى - بمصر القديمة عندما كان يدرس بفرنسا (٧٧) . فاكتشاف الوطن من خارجه ظاهرة شائعة فى القومية الحديثة .

ومزج كلوديوس لبيب (١٨٦٨ - ١٩١٨) بين « المصريات » و « القبطيات » مثلما فعل بعض علماء الغرب . درس القبطية بمدرسة الأقباط الكبرى وتعلم الهيروغليفية أثناء عمله بمصلحة الآثار ، وتركها عام ١٨٩٢ ليقوم بتدريس اللغة القبطية بالكلية الإكليريكية ، وأدار مطبعة البطريركية التى كانت تنشر كتبًا دينية ، وبدأ يعد قاموسًا للغة القبطية ، وفى عام ١٩٠٠ أصدر مجلة عربية - قبطية هى « عين شمس » . وبدأ الأقباط يطلقون على أولادهم أسماء فرعونية ، ولكن كلوديوس لبيب أصر على أن يتخذ أولاده الستة من القبطية لغةً للحديث فى المنزل (٧٨) .

ويعكس كتاب ميخائيل شاروبيم « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » - الذى يقع فى أربعة مجلدات - وطُبع فيما بين (١٨٩٨ - ١٩٠٠) ، اهتماماً قبطياً عميقاً بتاريخ مصر كله ، وليس بالعصر الفرعونى ، أو البيزنطى - القبطى وحدهما[٧٩] . ويغطى تاريخ مصر من أيام مصرائيم بن حام بن نوح حتى الخديو توفيق .

ورغم أن شاروبيم أدخل الأقباط فى إطار معالجته لتاريخ مصر الإسلامى والحديث ، فقد قدم تاريخاً قومياً ، وليس طائفياً ، وإطار تناوله لما قبل الإسلام يشبه تناول الطهطاوى لنفس العصر فى « أنوار توفيق » ، وربما كان معتمداً عليه . ونادراً ما أشار الطهطاوى إلى أسماء البطاركة الأوائل ، ولكن شاروبيم فعل ذلك منذ النصف الثانى من القرن الثانى ، عندما بدأوا يظهرون من بين ضباب الأساطير . ولخص الاضطهاد الرومانى - البيزنطى . ولم يفترض استمرارية التاريخ القومى المصرى منذ أقدم العصور فحسب ، بل وضع الأقباط فى مكانهم من ذلك التاريخ على مر العصور .

وعند الحرب العالمية الأولى ، كان المتحف القبطى المتواضع ، والكنائس التى قامت لجنة حفظ الآثار بإصلاحها ترمز لرؤية الأقباط للماضى والحاضر التى إختلفت عما كانت عليه قبل ذلك بنصف القرن . كان الأقباط أفضل تعليماً ، وأكثر ثراء ، واتصالاً بالعالم الخارجى من ذى قبل . وعكست الصراعات بين الأكليروس والمجلس الملِّى تصميم العلمانيين المتعلمين الأثرياء ، وتشدد الأكليروس . وكان التحول من وضع الأقلية التى تحظى بالتسامح إلى المواطنين المتساوين فى حقوق المواطنة يسير فى طريقه . وأحس الأقباط بالاعتزاز الشخصى بتراثهم الفرعونى ، ولكن كان عليهم أن يحذروا ما قد يجرهم إليه ذلك من القول بتميزهم على مواطنيهم من المسلمين .

الهوامش

(١) هذه المعلومات ، وغيرها مما سيرد بهذا الفصل عن مرقص سميك مستقاة من مذكراته الشخصية المنسوخة على الآلة الكاتبة ، والمودعة لدى أسرته ، وسنشير إليها فى هذا الفصل « بمذكرات سميكة » .

(٢) أجريت مقابلات شخصية مع مديرى المتحف القبطى : جودت جبره عبد السيد (فبراير ١٩٨٨ ، مارس ١٩٩٩) ، وفيكتور جرجس (مارس ١٩٨٨) ، وباهور لبيب (أكتوبر ١٩٨٧) ، كما قابلت مريت بطرس غالى (أبريل ١٩٨٨) ، وعالم المصريات لبيب حبشى (نوفمبر ١٩٨٢) ، وكمال الملاخ (أكتوبر ١٩٨٧) ، وأجريت مقابلة فى سولت ليك سيتى مع عزيز سوريال عطية (مارس ١٩٨٦) .

(٣) Jean - Joël Brégeon, L'Égypte Française au jour le jour 1798 - 1801 (Paris, 1991), 318 - 20.

(٤) Practical Guide to Alexandria, Cairo and Port - Said and Neighbourhood, (London, ca. 1896), by Nilson and Company.

(٥) E.W. Lane, Manners and Customs.., 555.

(٦) S. Lane - Poole, Cairo, 203.

(٧) E.W. Lane, Manners and Customs.., 535.

(٨) Wilkinson 1843, 1 : 387 - 88.

(٩) Ehud Toledano, State and Society in Mid - Nineteenth Centary Egypt (Cambridge, 1990), 187 .

(١٠) Doris Behrens - Abouseif, Die Kopten in der ägyptischen, 35.

(١١) حول الإصلاح القبطى فى تلك الفترة ودورهم السياسى ، راجع : طارق البشرى ، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية (القاهرة ١٩٨٢) .

(١٢) عن سيرة كيرلس الرابع ، انظر : جرجى زيدان ، تراجم مشاهير الشرق (القاهرة ١٩٢٢) ١ : ٢٧١ - ٢٨٠ .

(١٣) Samir Seikaly, "Coptic Communal Reform 1860 - 1914", Middle Eastern Studies 6 (1970), 250.

(١٤) مذكرات مرقص سميكة ، ١١ .

(١٥) Andrew Watson, The American Mission in Egypt 1854 - 1896 (Pittsburgh, 1898), 87.

(١٦) Heyworth - Dunne, Introduction, 422.

(١٧) مذكرات مرقص سميكة ، ٢٠ .

(١٨) A Coptic Layman [Simaika], "The Awakaning of Coptic Church", Contemorary Review 71 (1847), 737.

(١٩) "The Awakening", 737 - 38.

(٢٠) Seikaly, "Coptic Communal Reform", 262.

(٢١) عن الأزهر والموقف من الإصلاح ، انظر :

A.C. Eccel, Egypt, Islam and Social Change : Al - Azhar in Conflict and Accommodation (Berlin 1984) 290 - 92.

(٢٢) مذكرات موقص سميكة ، ١ – ٦ ، ١٥ .

(٢٣) عبد العزيز ، روضة المدارس ، (القاهرة ١٩٨٥) ، ٢٨١ – ٢٨٢ .

(٢٤) مذكرات مـرقص سميكة ، ٨ – ١٣ . وجرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ١ : ٢٧٧ ، ويذكر أن اللغة التركية كانت تدرس أيضًا .

(٢٥) مذكرات سميكة ، ٩ . وعن كلوديوس لبيب ، راجع : رمزى تادرس ، الأقباط في القرن العشرين ٥ أجزاء (القاهرة ١٩١٠ – ١٩١١) ٤ : ١٣٥ – ١٣٩ .

(٢٦) (Simaika), "The Awakening", 737 .

(٢٧) مذكرات سميكة ٧١ ، ٧٢ – ٨٣ .

(٢٨) رمزى تادرس ، الزقباط ، ٢ : ٦٢ – ١٤٢ .

(٢٩) E. L. Butcher, The Story of the Church of Egypt, 2 vols. (London, 1897), 2 : 410 .

(٣٠) مذكرات مرقص سميكة ، ٨٢ – ٨٨ .

(٣١) Eccel, Egypt, 169 - 71, 175 - 78.

(٣٢) مصطفى الفقى ، الأقباط في السياسة المصرية (القاهرة ١٩٨٥) ، ٣٢ ؛ فيليب الطرازى ، تاريخ الصحافة العربية ، ٤ مجلدات (بيروت ١٩١١ – ١٩٣٣) ، ٣ : ٩ – ١٢ .

(٣٣) Martin Krause, "Coptological Studies", Coptic Ency., 2 : 613 - 61 .

(٣٤) Robert Curzon, A Visit to the Monasteries of the Levant (New York, 1849), 1 - 105 .

(٣٥) Somers Clarke, Christian Antiqutties in the Nile Valley (Oxford, 1912), 189 - 90 .

(٣٦) A. J. Butler, Ancient Churches of Egypt, 2 vols. (London, 1884) 1 : 371 .

(٣٧) Christian Cannuyer, Les Coptes (Belgium, 1990), 193.

(٣٨) Who Was Who 3 : 101.

(٣٩) توفيق إسكاروس ، « ماكس باشا » ، الهلال ٢٧ (أول يوليو ١٩١٩) ، ٩٢٥ .

(٤٠) مذكرات سميكة ، ٢٩ ، ٧١ – ٧٢ .

(٤١) Butler, Ancient Churches, I : xiv.

(٤٢) Michael Hoffman, Egypt Before The Pharaohs, 352 .

(٤٣) مذكرات سميكة ، ٢٩ ، ٣٢ .

(٤٤) Marcus H. Simaika Pacha, Guide sommaire du Musée Copte et des, priciples églises du Caire (Cairo, 1937) preface.

(٤٥) Comite 11, 1894, PVS 63 (1894), 64.

(٤٦) مذكرات سميكة ، ٣١ - ٣٣ .

(٤٧) FO 633 / 8 Cromer to Lane - Poole, 2 January 1898, 15.

(٤٨) مذكرات سميكة ، ٨٦ - ٨٧ .

(٤٩) Cromer, Modern Egypt, 633.

(٥٠) أرشيف متحف جامعة بنسلفانيا ، أوراق سارة ستيفنسون ، رسالة من أرتين فى ١٠ أغسطس ١٨٩٧ .

(٥١) Comté 1, 1882 - 1883, PVS 7 (23 November 1883), 113.

(٥٢) Comité 23, 1906, PVS 147 (27 November 1906 1906), 113.

(٥٣) Comité 15, 1898, PVS 80 (4 January 1898), 4, 6.

(٥٤) Comité 15, 1898, PVS 81 (1898), 16.

(٥٥) Kaplan, ed., Museums and the Making of Ourselves, 256 - 58.

(٥٦) مذكرات مرقص سميكة ، ٤٢ .

(٥٧) مذكرات سميكة ، ,٤٦

(٥٨) مذكرات مرقص سميكة ، ٥٢ .

(٥٩) A. Dowling, The Egypian Church (London, 1909), Appendix 3.

(٦٠) Leeder, Modern Sons of the Pharaohs : A Study of the Manners and Customs of Copts of Egypt (London, 1918), 263.

(٦١) مذكرات سميكة ، ٢١ - ٢٤ .

(٦٢) Leeder, Modern Sons, 246.

(٦٣) حول أخنوخ فانوس ، راجع : يوسف أصاف ، دليل مصر ، ٣٥٣ - ٣٥٥ . وحول دور الأقباط فى حزبى الوطنى والأمة ، أبو سيف يوسف ، الأقباط والقومية العربية ، ١١١ .

(٦٤) مذكرات سميكة ، ١٣ - ١٤ ، ٨٩ - ٩١ .

(٦٥) أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ، ٢ جـ ٢ : ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٦٦) محمد خليل صبحى ، تاريخ الحياة البرلمانية فى مصر ، ٦ : ٥٢ ، ٨١ - ٨٢ .

(٦٧) Seikaly, "Coptic Communal Reform", 265 - 66.

(٦٨) Seikaly, "Coptic Communal Reform", 268.

(٦٩) Leeder, Modern Sons, 173 .

(٧٠) إلياس زاخورا ، مرآة العصر ، ١ : ٤١٤ - ٤١٧ .

(٧١) (Simaka), "Awakening", 734.

(٧٢) دار الوثائق القومية ، مضابط مجلس الوزراء ، وزارة الأشغال و مصلحة الآثار ، ١ / ٤ متاحف ، رقم ٩٩ ، ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

(٧٣) Seikaly, "Coptic Communal Reform", 269 - 70.

(٧٤) Petrie, Seventy Years, 223 - 24.

(٧٥) Beth Baron, The Women's Awaking in Egypt, 109 - 10.

(٧٦) فيليب طرازى ، تاريخ ، ٤ : ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ .

(٧٧) مصطفى الفقى ، الأقباط ، ٤٦ :Louca, Voyageurs, 70 .

(٧٨) تادرس ، الأقباط ، ٤ : ١٣٥ – ١٣٩ .

(٧٩) J. A. Crabbs Jr., The Writting of History, 133 - 36 .

الخاتمة

على مر الرحلة التى قطعها هذا الكتاب من ١٧٩٨ حتى ١٩١٤ ، قام بربط تاريخ علم الآثار المصرية - كما يكتب فى الغرب - بتاريخ دخول المصريين المحدثين فى ذلك المجال ، فوضع بذلك تاريخ الآثار والمتاحف فى سياقات أرحب أبعاداً لكل من الإمبريالية الغربية ، وتاريخ مصر القومى ، وجمع بين تخصصات أربعة فى علم الآثار ، غالبًا ما يدرس تاريخ كل منها على حدة . وتناول هذا الكتاب التوتر الذى اتسم به الالتزام الأيديولوچى بالإمبريالية والقومية من ناحية ، والمثل الخاصة بالمعرفة العالمية الموضوعية ، من ناحية أخرى ، آخذاً فى الاعتبار الاهتمامات البحثية والشعبية بالآثار فى كل من مصر والغرب ، ويوضح هذا الكتاب كيف أثر علم الآثار فى عملية بناء الهوية المصرية الوطنية .

ففى الغرب ، ألقى الافتتان العلمى والشعبى بالعصر الفرعونى ، بظلاله على الاهتمام بالعصور الأخرى من تاريخ مصر ، ويعكس دليل بايدكر السياحى فى تغطيته للمتاحف المصرية عام ١٩١٤ ، الأهمية النسبية للعصور المختلفة من منظور صناعة السياحة ، فقد خصَّص للمتحف المصرى ٤٢ صفحة ، وللمتحف اليونانى - الرومانى أربعة صفحات ، وصفحتين ونصف الصفحة لمتحف الفن العربى ، ولم يكن المتحف القبطى قد دخل دائرة اهتمام دليل بايديكر بعد ، وإن كان قد أشار إلى المجموعة القبطية بالمتحف المصرى فى بضعة أسطر ، وفى طبعة ١٩٢٩ ، أضاف ذلك الدليل صفحة واحدة عن المتحف القبطى ، ولكن نسب التغطية للمتاحف الأخرى ظلت تميل إلى جانب مصر القديمة .

وكانت المسافة التى قطعها علم المصريات الغربى فيما بين ١٧٩٨ - ١٩١٤ ، بالغة الطول . ففى أيام بونابرت ، قدَّم العلماء رؤية مضطربة لظلال مصر القديمة استناداً

إلى المصادر الكلاسيكية ، والكتاب المقدس ، والآثار التى اختفى نصفها تحت الرمال .
وعند العام ١٩١٤ كان العلماء يقرأون منذ وقت طويل كلمات المصريين القدماء أنفسهم .
فقد قام علماء المصريات بنسخ ودراسة آلاف النقوش ، وملأوا متاحف الغرب والقاهرة بمجموعات بالغة الثراء من الآثار الفرعونية . كما قاموا بالتنقيب على نطاق واسع ، وتحسنت الطرق الفنية للحفائر تدريجيًا ، ودخلت آثار ما قبل التاريخ مجال الإهتمام .

ومن الصعوبة بمكان رصد التغير فى أفكار المصريين عن الآثار والتاريخ طوال القرن التاسع عشر . فلا يزال إدراك معظم المتعلمين المصريين لمصر القديمة محجوبًا وراء ظلال الدراسات الإسلامية والعربية التقليدية ، ولا زالت « فرعون » و« فرعونى » كلمتين بغيضتين عند الكثير من المتدينين المحافظين حتى يومنا هذا . ولكن الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وأحمد كمال ، وكلوديوس لبيب ، تكونت عندهم رؤى مختلفة لمصر القديمة باعتبارها تمثل ماضى مجيد يحسد العالم المصريين عليه . ورغم الصعاب التى واجهت أحمد كمال فى زمن علا فيه مد الإمبريالية ، كوَّن نفسه فى مجال المصريات ، وساعد على إقناع أحمد لطفى السيد وغيره بأن الاعتزاز بمصر القديمة ضرورى للصحوة الوطنية .

وعلى ضفاف السين ، بدأ رفاعه الطهطاوى يراجع فكره عن هوية مصر ، وصاغ فلسفة سياسية ربطت الوطنية المصرية (التى تضمنت مكونا فرعونيًا) ، بالولاء للأمة الإسلامية ، والإخلاص لأسرة محمد على . ولعب الطهطاوى دورًا فى الجهود التى بذلها محمد على للحد من نهب الآثار ، وألف – بعد ذلك ثلاثة وثلاثين عاما – أول كتاب فى تاريخ مصر القديمة ، ينشر باللغة العربية .

وفى الجيل التالى ، كان لعلى مبارك ، ومحمود الفلكى ، اهتمامات موسوعية تجمع بين تاريخ مصر القديم والإسلامى معًا . ولعبا دورًا فى وضع أسس التعليم الحديث فى مصر .

واستطاع الفرنسيون الاحتفاظ لأنفسهم بالسيطرة على الآثار المصرية منذ إنشاء المصلحة الخاصة بها ، بفضل جهود ماربيت ودبلوماسية ماسبيرو . وسجلت واجهة المتحف الذى افتتح عام ١٩٠٢ « الغلو الاستشراقى الإمبريالى » عندما خلدت علماء

المصريات الغربيين ، وأهملت المصريين . وفى العام التالى تم افتتاح مبنى الكتبخانة الخديوية ومتحف الفن العربى ، ذى الطراز المماليكى ، وكان المستشرقون الأوربيون قد أقنعوا الخديو توفيق عام ١٨٨١ بتأسيس لجنة حفظ آثار الفن العربى ، وجاء متحف الفن العربى ثمرة لجهود تلك اللجنة ، من باب الافتتان « بالآخر الشرقى » ، وقامت اللجنة بالمحافظة على بعض المبانى الأثرية الإسلامية ، وترميم بعضها ، وإعادة بناء البعض الآخر .

وفى عام ١٨٩٢ أقامت الجاليات الأجنبية بالإسكندرية المتحف اليونانى - الرومانى ، الذى دخل تحت الإشراف « العلمى » لمصلحة الآثار المصرية ، وقامت نخبة الجاليات الأجنبية السكندرية بدعم المتحف من خلال « الجمعية الآثارية السكندرية » .

وفى إطار تلك المؤسسات التى تطلع المصريون المعنيون بالمصريات إليها ، تكوَّن ثلاثة من الرواد المصريين الذين قضوا معظم حياتهم العملية تحت ظلال الاحتلال : عالم المصريات أحمد كمال ، وعالم الآثار الإسلامية على بهجت ، ومرقص سميكة مؤسس المتحف القبطى ، هؤلاء الرواد الذين انتموا إلى جيل الثمانينات ، عزفوا عن الاتجاه الموسوعى للجيل السابق عليهم ، وسايروا التوسع الهائل فى المعرفة بالاتجاه نحو التخصص ، شأنهم فى ذلك شأن أبناء الغرب فى القرن التاسع عشر .

وإذا استرجعنا ظروف علم الآثار عند نهاية العام ١٩١٤ ، نجد أن الوطنيين المصريين لم يجدوا ما يبعث السرور عندهم . فقد فتحت بداية الحرب الطريق أمام على بهجت ليتولى إدارة متحف الفن العربى ، وتولى أحمد لطفى السيد إدارة (دار الكتب) ، ولكن تلك كانت حالات استثنائية . فقد كان حماس المصريين أن ينالوا موقعًا فى مصلحة الآثار ، ولجنة حفظ الآثار ، والمجمع العلمى المصرى والمتاحف فى العقود السابقة على الحرب ، مرهونًا ببقائهم تحت الهيمنة الأجنبية . فقد حالت معارضة الأوربيين دون تكوين جيل ثالث من المصريين المتخصصين فى المصريات . وتقاعد كل من أحمد كمال ، وعلى بهجت دون أن يخلفهم مصريون فى مواقفهم .

وإذا نظرنا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، نجد أن السياسات الإمبريالية والوطنية حددت اتجاه العمل فى مجال علم الآثار ، ولكن المجال ذاته كان له إيقاعاته.

الداخلية الخاصة به . وجاء اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون صدفة فى نفس السنة التى أعلنت فيها بريطانيا – من جانب واحد – استقلال مصر (٢٨ فبراير ١٩٢٢) ، ليربط علم الآثار بالسياسة برباط لم يستطع منه فكاكًا . وأتاح هذا « الاستقلال » المحدود لمصر فرصة الاحتفاظ بكل محتويات مقبرة توت عنخ أمون ، ووضع قيود أكثر حزمًا على تصدير الآثار ، والبدء فى تمصير العمل بالمتاحف ومصلحة الآثار ، وتدريس التاريخ الفرعونى بالمدارس ، وإقامة جامعة حكومية ، وفتح برامج جامعية لتدريب المصريين فى مجالات المصريات ، والكلاسيكيات والآثار والفنون الإسلامية .

ولكن التراجع الإمبريالى كان مخادعًا ، فمع وجود دريتون على رأس مصلحة الآثار – وكريزويل على رأس قسم الآثار الإسلامية بمعهد الآثار التابع للجامعة ، وجاستون ڤييت على رأس متحف الفن العربى ، وأدريانى على رأس المتحف اليونانى – الرومانى ، أحكم الأجانب سيطرتهم على تلك المؤسسات لجيل كامل آخر . لقد كانوا جميعًا علماء بارزين ، بذلوا القليل من الجهد لإخضاع الوطنيين .

وعرف الانتساب إلى مصر القديمة طريقة للبروز من خلال التيارات الوطنية الرئيسية ، ومن خلال وسائل الإعلام ، وتمثال نهضة مصر لمحمود مختار ، وضريح سعد زغلول ، وجدارية محمود سعيد بمبنى البرلمان ، وعلى طوابع البريد ، وأوراق البنكنوت ، ورواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، وثلاثية نجيب محفوظ .

وحصلت مصر على استقلالها التام ، وأحكمت قبضتها عل الآثار والمتاحف فى مطلع الخمسينات من القرن العشرين . فقد تعرض ڤييت للضغوط حتى اضطر لترك منصبه فى ربيع ١٩٥١ وغادر البلاد . وفى ديسمبر من نفس السنة أنهت آخر حكومة وفدية عمل كريزويل وغيره من الموظفين الإنجليز بالحكومة المصرية . وبعد ستة شهور أرسل « الضباط الأحرار » دريتون إلى بلاده ، عشية قيامهم بالثورة . وهكذا أصبح مصطفى عامر أول مدير مصرى لمصلحة الآثار ، بينما جاء تعيين محمد مصطفى مديرًا لمتحف الفن الإسلامى ليسد فراغًا تركه على بهجت من قبل .

والآن انضمت تماثيل نصفية لأحمد كمال وبعض علماء المصريات الآخرين إلى النصب التذكارى للعلماء الذى كان قاصرًا على الأوربيين تخليدًا لماريت فى فناء

المتحف المصرى (انظر الشكلين ٣ و ٤٥) ، وأطلق اسم كل من أحمد كمال وعلى بهجت على شارعين من شوارع القاهرة الفرعية ، ووازنت أوراق البنكنوت بين الآثار الفرعونية والإسلامية ، فخصصت وجهًا لكل منها فى سياق تحديد رسمى قوى للهوية الوطنية المصرية ، ولا نكاد نرى فى الأفق نهاية للاختلاف حول دور تراث مصر القديمة فى تحديد هوية مصر الحديثة .

وفى عام ١٩١٣ ، أصدرت سارة الميهية مجلة نسائية لم تعمر طويلاً حملت عنوان « فتاة النيل » ، ولم تكن سارة متعلمة تعليمًا غربيًا كما لم تسافر إلى أوروبا ، بل كانت مسلمة محافظة تعارض الدعوة إلى رفع الحجاب ، ولكنها وجدت وضع الأهرام إلى جوار النيل ، والشمس والهلال ، والنخيل ، وبيوت الريف على غلاف المجلة (انظر الشكل ٤٦) ، وسيلة طبيعية للتعبير عن هويتها ، فالأهرام ترافق النيل الخالد واهب الحياة لأرض مصر ، فجاء شعار المجلة رمزًا للاعتزاز بالماضى المجيد وللوطنية . ولكن الإسلام والتراث العربى لا زال أكثر عمقًا عند المصريين من تراث مصر القديمة ، وخبت جذوة « الفرعونية » كمكون من مكونات القومية المصرية .

ملحق بالجداول الإيضاحية

جدول (٦) كتب الدليل السياحى المصرى
حسب اللغات

التواريخ	الإنجليزية	الفرنسية	الألمانية	لغات أخرى
الثلاثينات	١	١	–	–
الأربعينات	٣	١	١	–
الخمسينات	٤	١	١	–
الستينات	٤	٨	–	١(بالإيطالية)
١٨٧٠ – ١٨٨٢	٥	٢	٣	–
١٨٨٣ – ١٨٨٩	٢	–	٢	–
١٨٩٠ – ١٨٩٩	١٩	٤	٣	–
١٩٠٠ – ١٩١٤	٣١	١٥	٩	١ (بالروسية)

المصدر : قمنا بعمل الجدول استناداً إلى كتاب :

Oleg V. Volkoff, Comment ou visitait la Vallée du Nil : Les Guides de l'Égypte (Cairo, 1967), 103 - 19.

وقد أسقطنا من الحصر الوارد بـه كتب الدليـل الخاصة بالمدن ، أو الأقاليم ، أو المتاحف .

جدول (٧) جنسيات مؤلفي كتب الدليل السياحي الخاصة بمصر

التواريخ	بريطانيون	فرنسيون	أمريكان	ألمان	نمساويون مجريون	إيطاليون	روس	آخرون
١٧٩٠ - ١٧٩٩	٣	٦	-	١	-	-	-	-
١٨٠٠ - ١٨٠٩	١٧	٧	-	-	-	١	١	-
١٨١٠ - ١٨١٩	٧	٤	-	٢	-	-	-	١
١٨٢٠ - ١٨٢٩	٢٠	٧	٢	٤	-	-	-	٤
١٨٣٠ - ١٨٣٩	٢٤	١٨	٤	٢	-	٢	-	٢
١٨٤٠ - ١٨٤٩	٤٥	١٣	١٠	٦	١	١	-	٢
١٨٥٠ - ١٨٥٩	٣٥	١٢	٢٥	٨	١	٣	-	٢
١٨٦٠ - ١٨٦٩	٢٧	١٥	١٥	٦	٢	-	٢	٤
١٨٧٠ - ١٨٧٩	٣٧	١٧	٣٦	١١	٢	-	٦	٦
١٨٨٠ - ١٨٨٩	٣٥	١٣	٤٧	٤	٢	٣	٨	٨
١٨٩٠ - ١٨٩٩	٢٤	٨	٤٨	٣	-	-	٢	٥
١٩٠٠ - ١٩١٤	٢٧	٩	٩٧	١١	١	-	٥	٨

المصدر : قمنا بعمل الجداول استناداً إلى كتاب :

M.R. Kalfatovic, Nile Notes of the Howadji, A Bibliography of Travelers' Tales From Egypt, From Earliest Times to 1918 (Metuchen, N. J., 1992).

جدول (٨)

المقيمون الأجانب فى مصر (والتابعون لحمايتهم) حسب الجنسية

(الأرقام بالألف)

التواريخ	يونان	طليان	بريطانيون	فرنسيون	نمساويون مجريون	روس	ألمان	مجموع الأجانب	تعداد سكان مصر
١٨٧١	؟	١٤	؟	؟	؟	؟	؟	٨٠	٥٢٥٠
١٨٨٢	؟	١٩	؟	؟	؟	؟	؟	٩١	٦٨٠٤
١٨٩٧	٣٨	٢٤	٢٠	١٤	٧	٣	١,٣	١١٣	٩٧١٥
١٩٠٧	٦٣	٣٥	٢١	١٥	٨	٢,٤	١,٨	؟	١١,٢٨

المصدر : تعداد سكان مصر عام ١٩٠٧ ، المنشورة بالقاهرة (١٩٠٩) ، ص ١٣٠ ، وكتاب :

A.E. Crouchley, The Economic Development of Modern Egypt (London, 1938), 256.

ملاحظة : كل الجنسيات الأوربية التى لا تظهر بالجدول والولايات المتحدة الأمريكية ، كان لكل منها حوالى أقل من الألف مقيم بمصر

جدول (٩) حجم الجاليات الأجنبية فى مصر ومؤشرات السياحة

(مرتبة حسب الأعداد)

الدهبيات بالأقصر ١٨٧٣	لغة طبعات كتب الدليل السياحى ١٨٣٠ - ١٩١٤	عدد الرحالة المؤلفين ١٨٨٠ - ١٩١٤	حجم الجالية فى مصر فى ١٨٩٧ و ١٩٠٧
١ - بريطانيا	١ - الإنجليزية	١ - الولايات المتحدة	١ - اليونان
٢ - الولايات المتحدة	٢ - الفرنسية	٢ - بريطانيا	٢ - الطليان
٣ - ألمانيا	٣ - الألمانية	٣ - فرنسا	٣ - البريطانيون
٤ - فرنسا وبلچيكا	٤ - الإيطالية والروسية	٤ - ألمانيا	٤ - الفرنسيون
		٥ - روسيا	٥ - النمساويون - المجريون
		٦ - إيطاليا	٦ - الروس
		٧ - النمسا والمجر	٧ - الألمان

ملاحظة : هذا الجدول يقدّم تلخيصًا للجداول من ٦ - ٨ .

جدول (١٠) عضوية « المجمع العلمى المصرى » و « الجمعية الجغرافية الخديوية »

فرنسيون	بريطانيون	ألمان	طليان	نمساويون مجريون	روس	سويديون	بلجيك	هولنديون	يونان	مصريون	أمريكان	أخرون	المجموع
المجمع العلمى المصرى – ١٨٥٩ أعضاء فخريون													
٢٨	٨	٤	٣	٣	٢	١	١	–	١	١	–	١	٦٣
أعضاء مقيمون													
٢١	٣	٢	٩	–	١	–	–	–	٣	٧	–	٤	٤٩
أعضاء مراسلون													
١٦	٢	٢	٨	١	١	١	–	–	–	٩	–	٢٣	٦٣
الجمعية الجغرافية الخديوية (جميع مستويات العضوية) ١٨٨١													
٢٧	١٥	٥	٣٧	٨	٢	١	٣	٢	٣	٢٥	٣	٤	١٤٠

ملاحظة : الأربعة (الآخرون) من أعضاء الجمعية الجغرافية كانوا من سويسرا ، والمراسلون من أعضاء المجمع العلمى (الآخرون) جاءوا من بلاد الشرق الأوسط خارج مصر ، وبينهم مصرى واحد .

جدول (١١) المعارض الدولية ، والمؤتمرات الدولية ١٨٥١ – ١٨٨٢

التاريخ	المعارض الدولية	المؤتمرات الجغرافية	المؤتمرات الاستشراقية	مؤتمرات أخرى
١٨٥١	لندن			١ – صحى ، باريس
١٨٥٣				٢ – احصائى ، بروكسل
١٨٥٥	باريس			
١٨٦٢	لندن			
١٨٦٣				الصليب الأحمر ، جنيف
١٨٦٥				١ – اتحاد التلغراف (باريس)
١٨٦٦				١ – الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والآثار (نيو شاتل)
١٨٦٧	باريس			٢ – صحى ، إستانبول
١٨٧٠				
١٨٧١		١ – أنتورب		
١٨٧٢				
١٨٧٣	ڤينا		١ – باريس	١ – اتحاد البريد ، برن
١٨٧٤			٢ – لندن	
١٨٧٥		٢ – باريس		
١٨٧٦	فلادلفيا		٣ – سان بطرسبرج	
١٨٧٧				
١٨٧٨	باريس		٤ – فلورنسا	
١٨٨١		٣ – ڤينسيا	٥ – برلين	
١٨٨٢				

جدول (١٢)
مديرو مصلحة الآثار المصرية
(الأنتيكات ، والأنتكخانة)
١٨٥٨ - ١٩٥٢

أوجست ماريت	١٨٥٨ - ١٨٨١
جاستون ماسپيرو	١٨٨١ - ١٨٨٦
أوچين جريبو	١٨٨٦ - ١٨٩٢
چاك دى مورجان	١٨٩٢ - ١٨٩٧
ڤيكتور لوريه	١٨٩٧ - ١٨٩٩
جاستون ماسپيرو	١٨٩٩ - ١٩١٤
پيير لاكاو	١٩١٤ - ١٩٣٦
إيتيان دريبوتون	١٩٣٦ - ١٩٥٢

جدول (١٣) المعارض الدولية ، والمؤتمرات الدولية ١٨٨٣ – ١٩١٤

التاريخ	المعارض الدولية الكبرى	المؤتمرات الاستشراقية	المؤتمرات الجغرافية	مناسبات ومؤتمرات دولية أخرى
١٨٨٣		٦ – ليدن		
١٨٨٦		٧ – ڤينا		
١٨٨٨		٨ – ستوكهلم وكريستيانا		
١٨٨٩	باريس		٤ – باريس (٤)	
١٨٩١			٥ – برن (٢)	
١٨٩٢		٩ – لندن (انقسام)		
١٨٩٣	شيكاجو	٩ – لندن (انقسام)		
١٨٩٥		١٠ – لشبونه جنوا (انقسام)	٦ – لندن (٦)	
١٨٩٦				١ – الألعاب الأوليمبية ـ أثينا
١٨٩٩		١١ – باريس ١٢ – روما	٧ – برلين (١)	
١٩٠٠	باريس			
١٩٠٢				١ – أثينا – الآثار الكلاسيكية
١٩٠٣		١٣ – هامبورج		
١٩٠٤	سانت لويس	١٤ – الجزائر	٨ – الولايات المتحدة (١)	
١٩٠٨			٩ – چنيف (٣)	
١٩٠٩				٢ – القاهرة – الآثار الكلاسيكية
١٩١١		١٥ – كوبنهاجن		
١٩١٢				٣ – روما – الآثار الكلاسيكية
١٩١٣		١٦ – أثينا	١٠ – روما (٣)	

جدول (١٤) تاريخ تأسيس معاهد الآثار الغربية فى بلاد البحر المتوسط

المكان	فرنسا	ألمـــانيا	الولايات المتحدة	بريطانيا	النمسا والمجر	إيطاليا
أثينـــــــا	١٨٤٦	١٨٧٤	١٨٨٢	١٨٨٦	١٨٩٧	١٩٠
رومـــــــا	١٨٧٣	١٨٢٩	١٨٩٥	١٨٩٩		٩
القـــاهـــرة	١٨٨٠	١٩٠٧	١٩٤٨			
القــــدس	١٨٩٠	١٩٠٢	١٩٠٠	١٩٢٠		
اســتــانبــول	١٩٣٠	١٩٢٩	١٩٧٤			

ملحق الأشكال
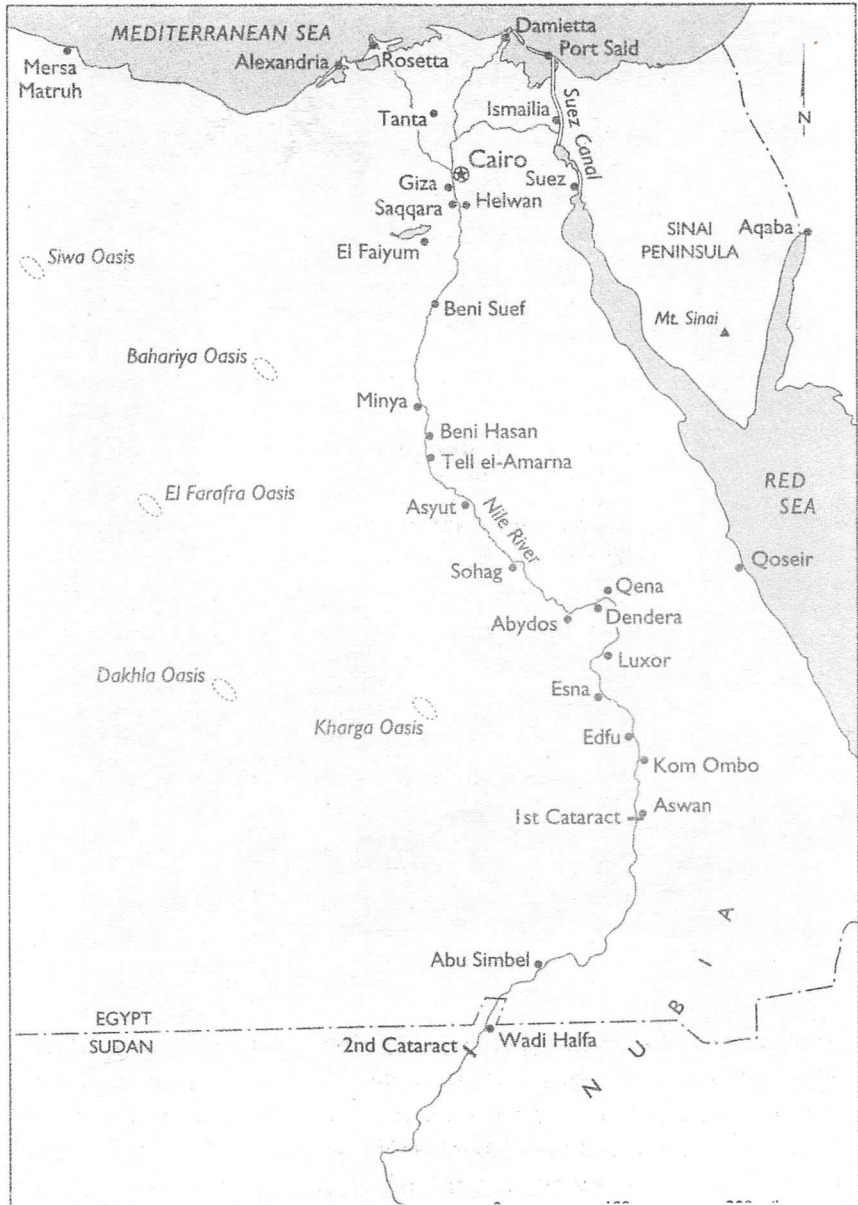
خريطة مصر حوالى عام ١٩١٤
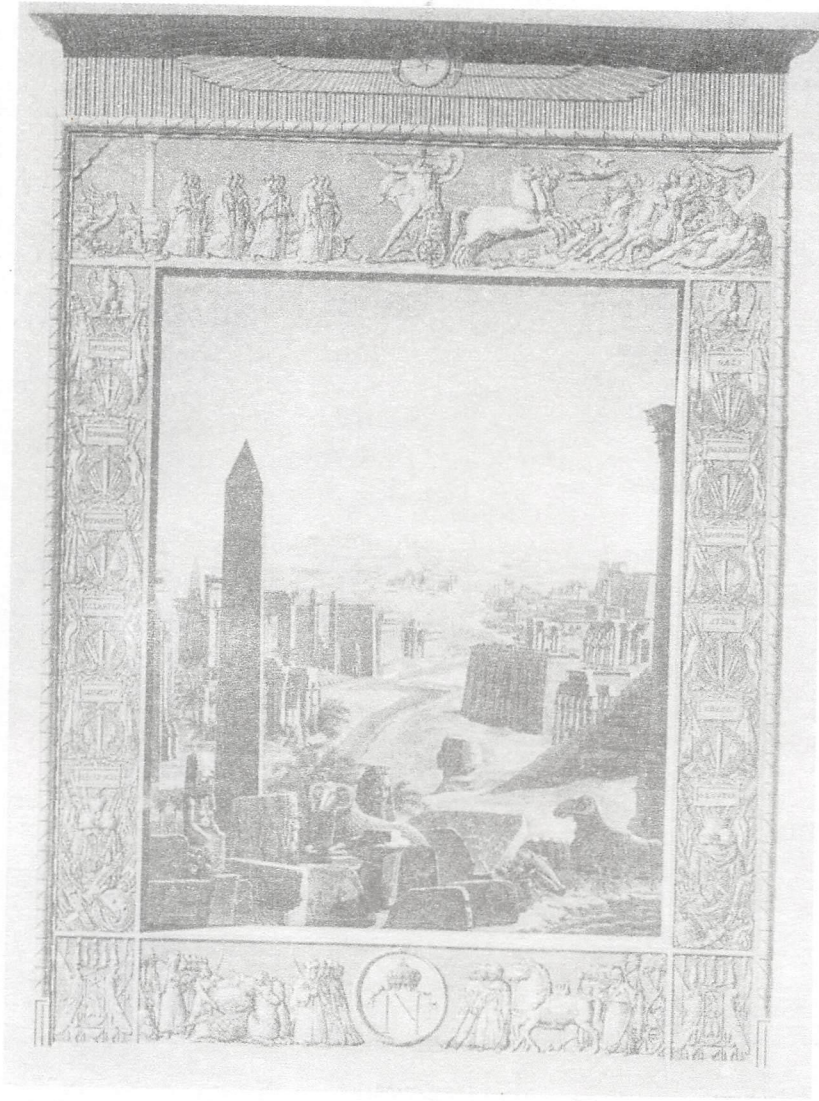
الشكل رقم (١) تأطير وتبنى مصر القديمة
صفحة العنوان لكتاب «وصف مصر» (١٨٠٩)
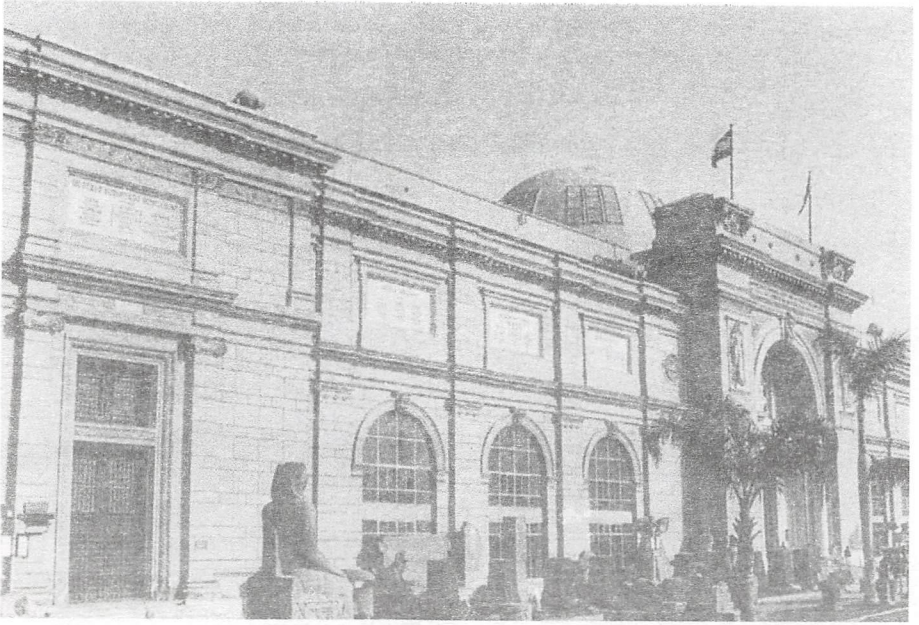
الشكل رقم (٢) تخليد علم المصريات الغربى - المتحف المصرى بالقاهرة
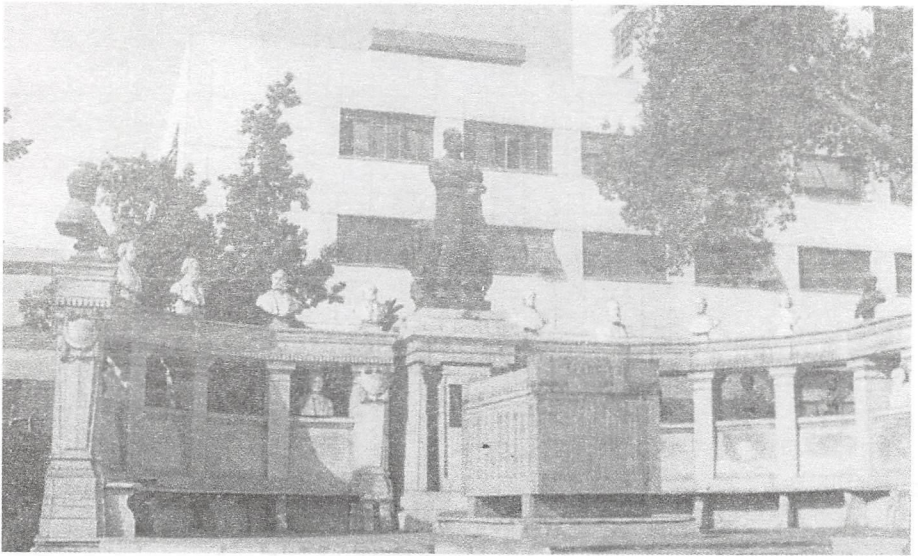
الشكل رقم (٣) تخليد أوجست ماربييت - النصب التذكارى والتمثال

الشكل رقم (٤) آباء علم المصريات من الغربيين - لوحة على واجهة المتحف المصرى بالقاهرة
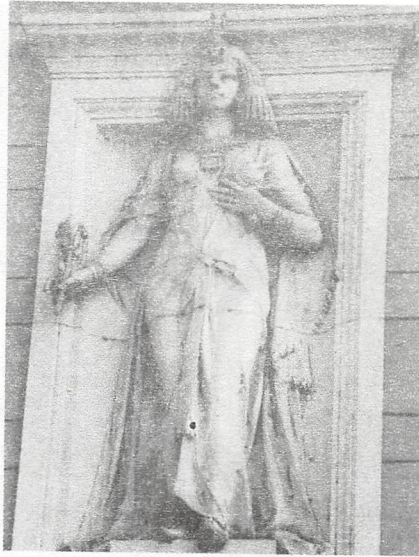
الشكل رقم (٥) منظر العباءة المبتلة - نحت تمثل الصعيد

الشكل رقم (٦) اللاتينية الإمبرالية . نقش على واجهة المتحف المصرى

الشكل رقم (٧) إعادة تأطير وتبنى مصر القديمة – صفحة العنوان لمجلة عربية (١٨٩٩)

الشكل رقم (٨) مصر بعيون كلاسيكية - أثناسيوس كيرشر يحل لغز أبى الهول

الشكل رقم (٩) مصر بعيون الكتاب المقدس - يوسف ينقذ مصر
لوحة آبل دويوجو (١٨٢٧)
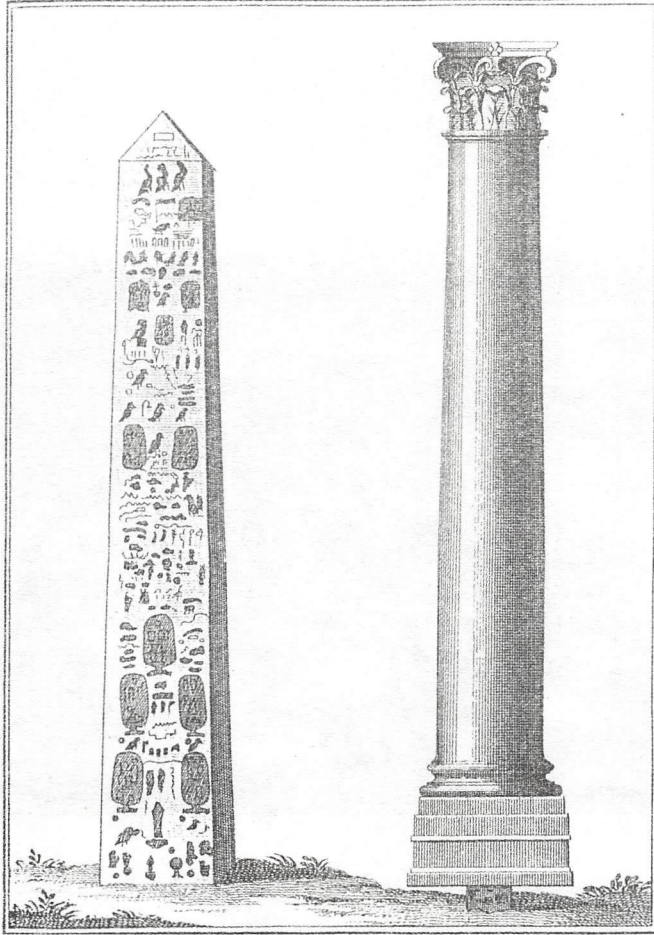
الشكل رقم (١٠) مالذى يجب أن يرسل لفرنسا
المسلة أم عمود بومبى ؟

الشكل رقم (١١) علماء الحملة الفرنسية محاصرون فوق عمود بومبى
لوحة جيلراى (١٧٩٩)

الشكل رقم (١٢) بعثة ليبسيوس على قمة الهرم الأكبر (١٨٤٢)
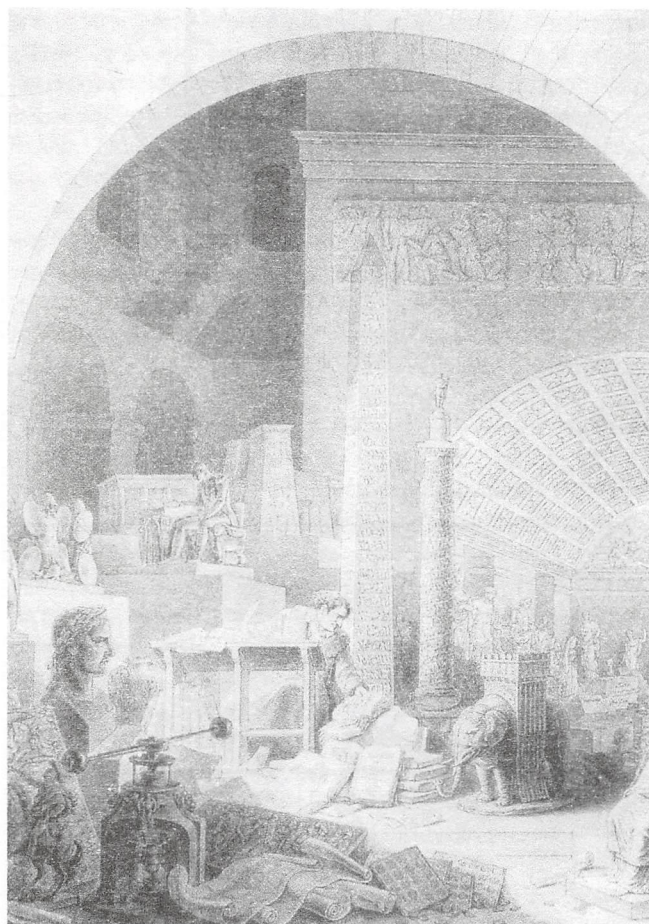
الشكل رقم (١٣) النهب النابليونى
لوحة بنيامين زيكس (حوالى ١٨٠٩ - ١٨١١)

الشكل رقم (١٤) رفاعة رافع الطهطاوى - مؤلف أول كتاب بالعربية عن مصر القديمة

ترينسه دن برقطعه عجه سفينه سى حكراسنه وامتعه
ه ايله جوبار بازركان اوزرينه يكرمى التى كونده
انكليز سفينه سى برمقدار امتعه حموله سيله قورتيسى
وز كونده وقورفه دن برقطعه شود صفينه سى بلا حموله
جولوق چوجوقلر ايله اون نفر مسلمان يولجيلر ايله
كان اوزرينه اون اوچ كونده وترينسه دن برقطعه عجه
حموله سيله ودانستاسى بازركان ذمتنه ايكى قطعه
يل فرانسه ايله نلكى بازركان اوزرينه اون التى كونده
لردر

قد ورد الى الاسكندريه سفينة نمساوية من ترينسه موسوقة بضاع
وخشبا وفيها ثلثون الف ريال فرانسا على ذمة الخواجا جوبارو وذلك فى سنة
وعشرين يوما وورد من مالطا فى ثمانية ايام سفينة انكليزية موسوقة بضاعة
على ذمة الخواجا قورتيسى وورد من كرفو فى ثلثة عشر يوما سفينة شو
على ذمة الخواجا دانستاسى بغيروسق فيها عشرة رجال من مسلمى المور
مع اولادهم وعيالهم ووردت سفينة نمساوية من ترينسه فى ستة عشر يو
موسوقة خشبا وقد بلغت معها الى الخواجا دانستاسى صاريد
والى الخواجا تلكى خمسة الاف ريال فرانسا وذلك فى اليوم الخامس عش
من شهر رمضان

الشكل رقم (١٥) الهرم رمزًا لمصر - عنوان أول جريدة مصرية (١٨٢٩)
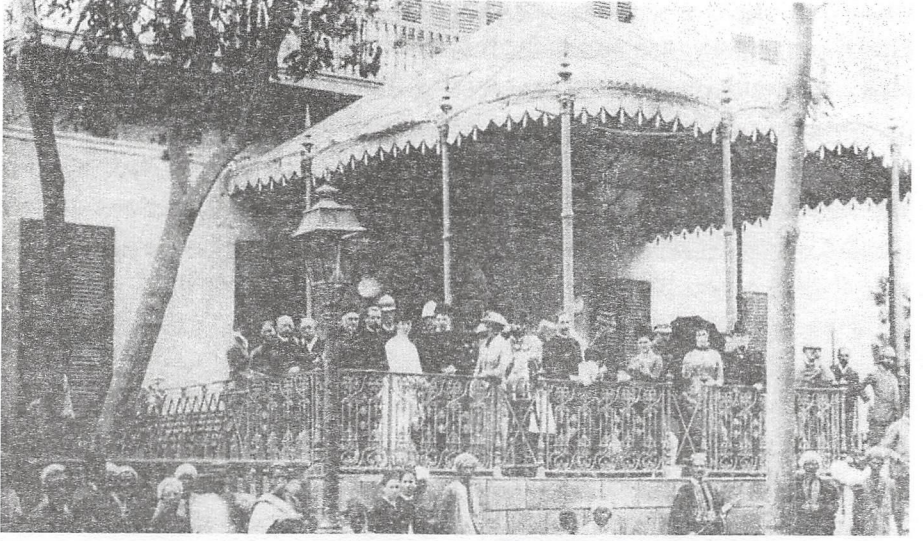
الشكل رقم (١٦) سياح بشرفة فندق شيبرد بالقاهرة

الشكل رقم (١٧) الحمارون والسياح الأجانب - رسم لرودولف هوبر يسجل مضايقة السياح (١٨٧٨)

الشكل رقم (١٨) رحلة إلى الهرم على النمط القديم
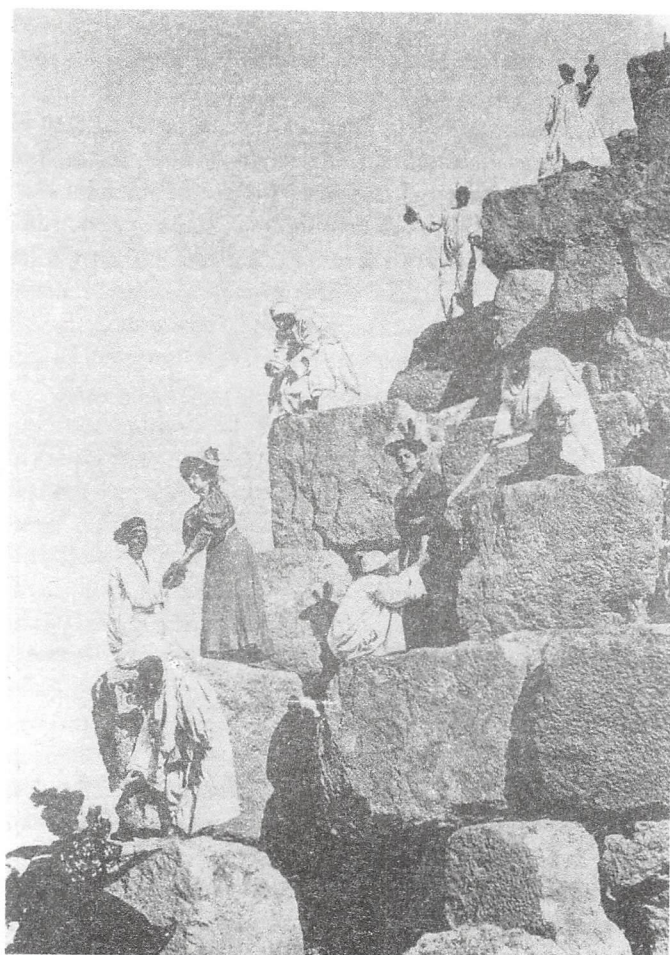
الشكل رقم (١٩) سائحات أمريكيات يتسلقن الهرم - لمصور مجهول
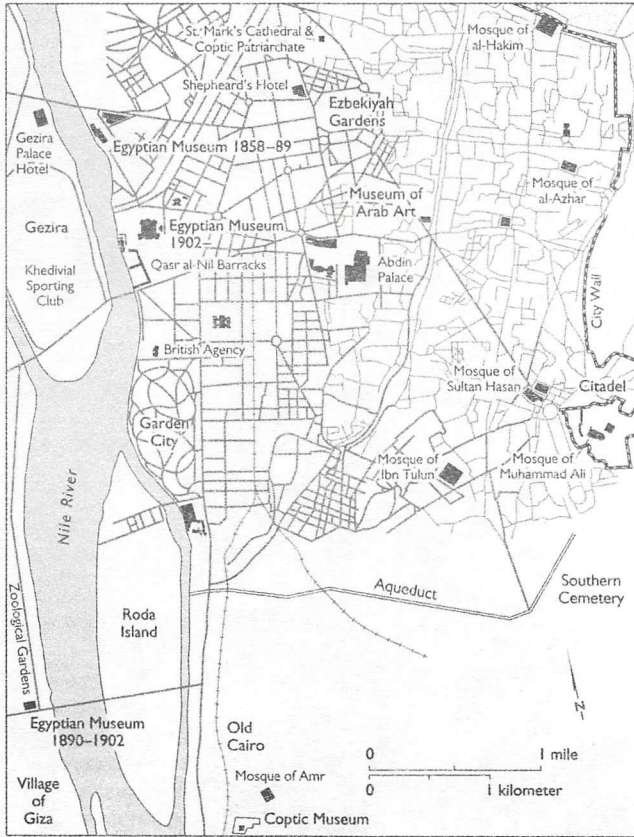
خريطة القاهرة حوالى عام ١٩١٤
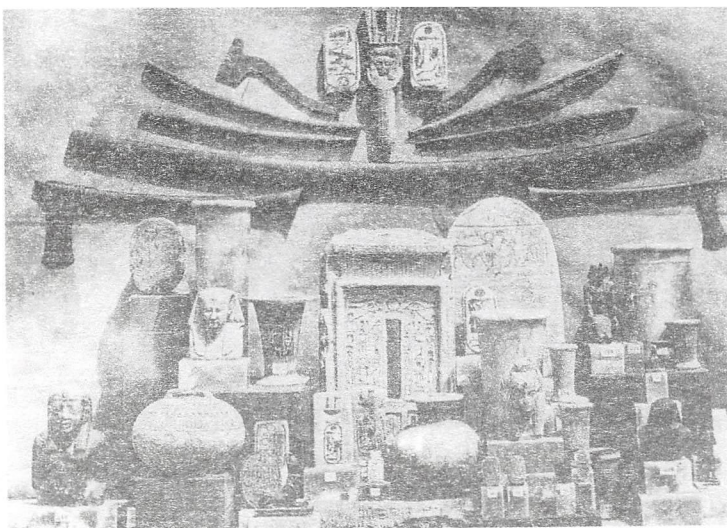
الشكل رقم (٢٠) الترتيبات الجمالية التى أقامها مارييت بمتحف بولاق

الشكل رقم (٢١) فناء متحف الآثار ببولاق - لنساء محجبات وسياح أجانب

الشكل رقم (٢٢) طابع بريد يحمل صورة الأهرام وأبو الهول
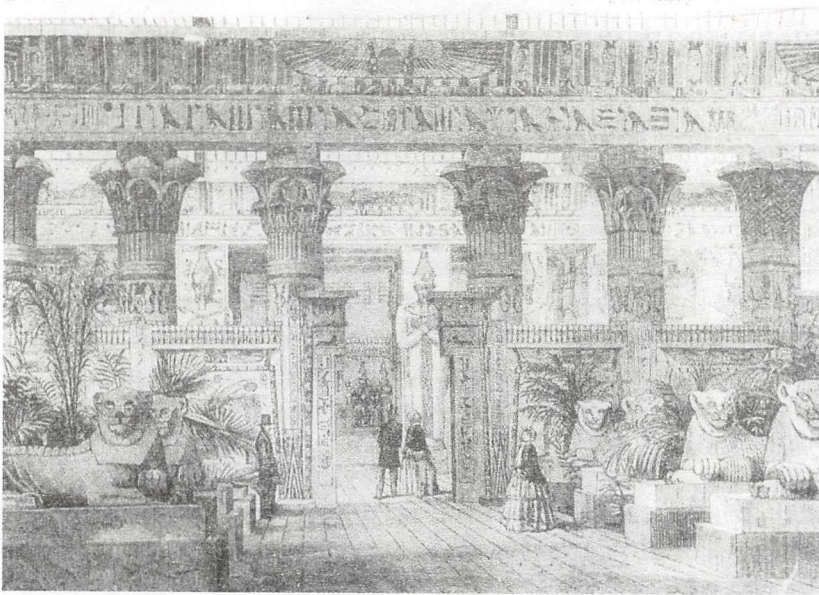
الشكل رقم (٢٣) مدخل الجناح المصرى بمعرض لندن - كريستال بالاس ١٨٥٤
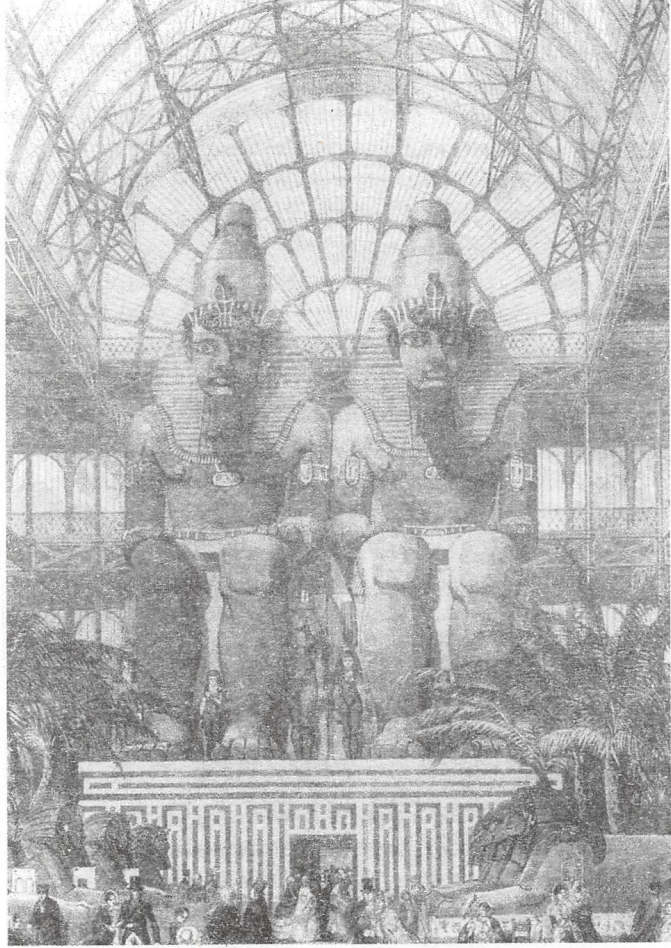
الشكل رقم (٢٤) نسخة لتمثالى رمسيس الثانى بأبو سمبل
١٨٥٤ كريستال بالاس لندن
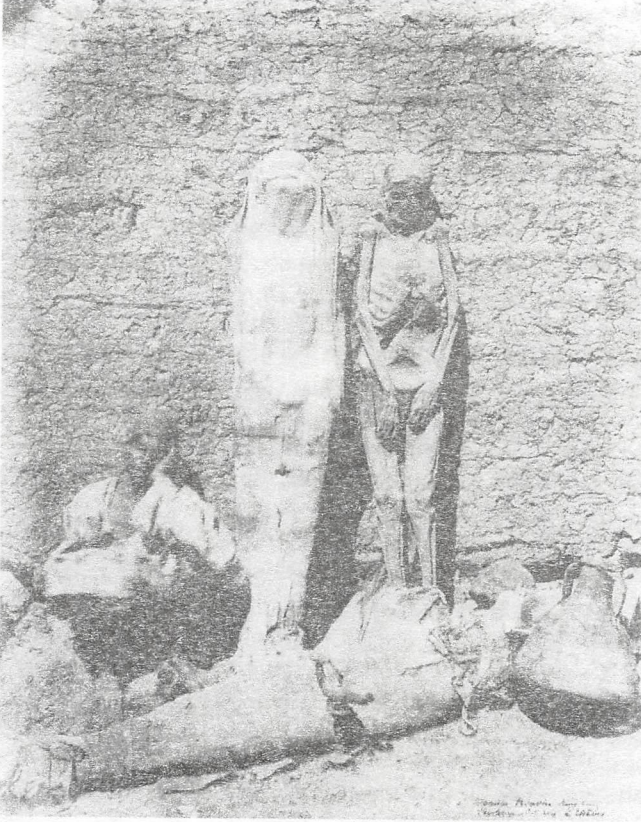
الشكل رقم (٢٥) مصر - هل هي قابلة للتغيير ؟
أوهام الاستشراق
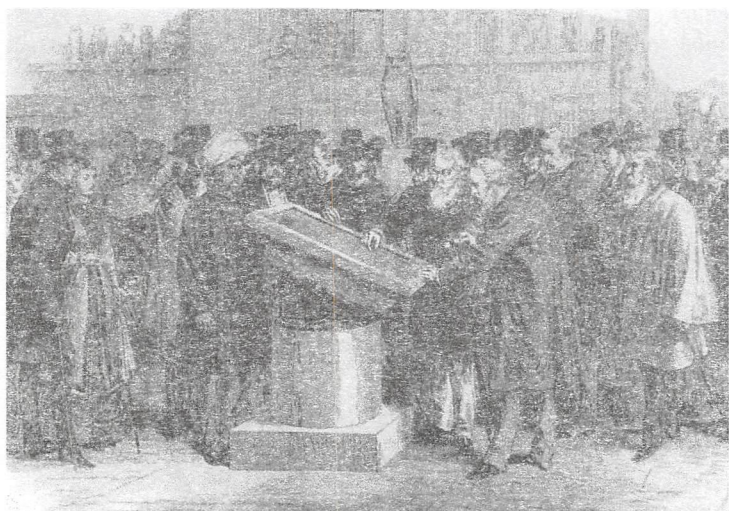
الشكل رقم (٢٦) «شرقى» فى مؤتمر المستشرقين الدولى
من صحيفة الإستراند لندن نيوز سبتمبر ١٨٧٤

الشكل رقم (٢٧) كشف أسرار مصر القديمة لأثينا - لوحة ١٨٢٧ فرانسوا - إدوارد بيكو

الشكل رقم (٢٨) جول المنتصر يكتشف مصر القديمة - ميدالية من تصميم بار ١٨٢٦

الشكل رقم (٢٩) بريطانيا فى عباءة كلاسيكيه
رسم بصحيفة باتش (١٨٩٨)

الشكل رقم (٣٠) كليوباترا أمام قيصر ، أو مأزق مصر
رسم بصحيفة باتش (١٨٨٢)

الشكل رقم (٣٢) شريف باشا - رئيس الوزراء - وخلف تمثال نصفى لإمبراطور رومانى

الشكل رقم (٣٣) جنود إسكتلنديون يحتلون أبو الهول فى الثمانينات

الشكل رقم (٣٤) جميلات يحفرن أسماءهن على آثار مصر
مجلة جرافيك يوليو ١٨٩٠

الشكل رقم (٣٥) أحمد كمال وتابوت الملكة أحمس نفرتارى

الشكل رقم (٣٦) قصر الخديو إسماعيل بالجيزة – مقر المتحف المصرى ١٨٩٠ – ١٩٠٢

الشكل رقم (٣٧) الخديو توفيق وحاشيته بمعبد فيلة
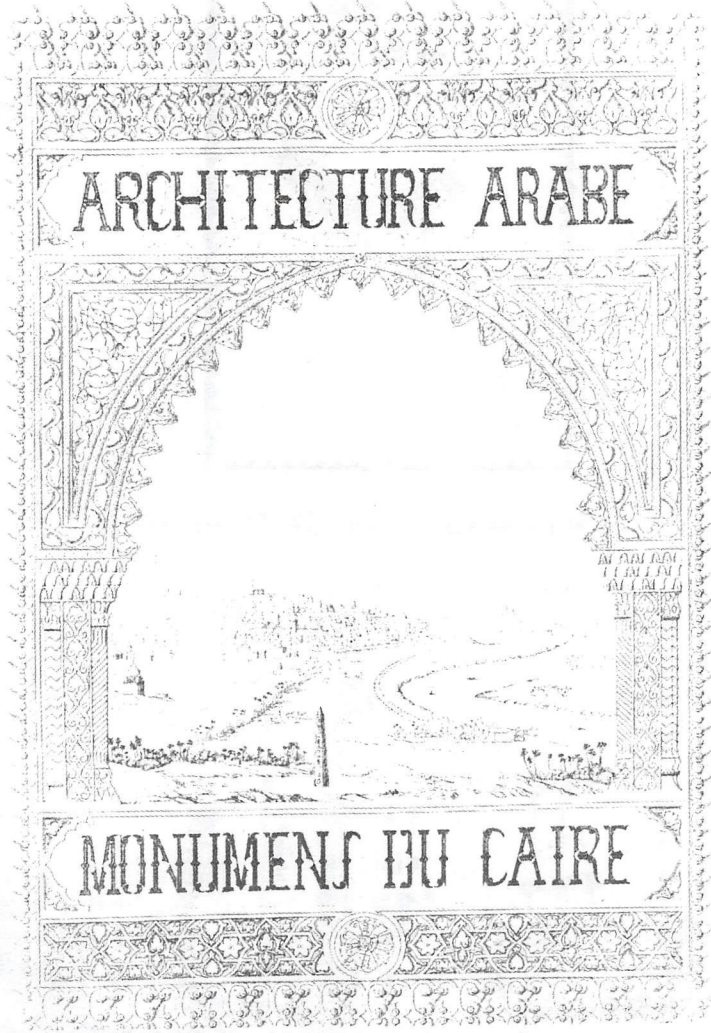
الشكل رقم (٣٨) بانوراما القاهرة عام ١٨٣٩ – عند المستشرق باسكال كوست

الشكل رقم (٣٩) على مبارك المهندس والمصلح والعالم
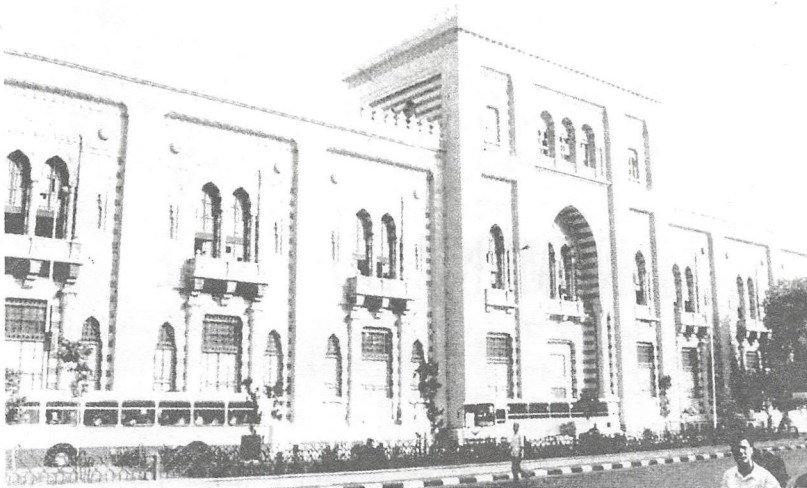
الشكل رقم (٤٠) متحف الفن العربى والكتبخانة الخديوية

الشكل رقم (٤١) مصر القديمة ترحب بالعائلة المقدسة – لوحة أوليفييه – ميرسون (١٨٧٩)

الشكل رقم (٤٢) بقايا كنيسة قبطية داخل معبد رمسيس الثانى – مدينة حابو

الشكل رقم (٤٣) المتحف القبطى

الشكل رقم (٤٤) مرقص سميكة مؤسس المتحف القبطى

الشكل رقم (٤٥) تمثال نصفى لأحمد كمال - النصب التذكارى لمارييت

الشكل رقم (٤٦) الأهرام والنيل رمزا لمصر - صفحة العنوان من مجلة «فتاة النيل» عام ١٩١٣

المؤلف فى سطور :

دونالد مالكولم ريد :

أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، الذى تخصص - منذ ما يزيد على ربع القرن - فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة ، وبدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر ١٩٧٥) ، وثنّى بكتاب عن « المحامين والسياسة فى العالم العربى ١٨٨٠ - ١٩٦٠ » (نشر عام ١٩٨١) ، وكان كتابه الثالث عن « جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة » (نشر عام ١٩٩٠) .

المترجم فى سطور :

رءوف عباس حامد :

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

-٣٨	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
-٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
-٤٠	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
-٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
-٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
-٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
-٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
-٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
-٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
-٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
-٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
-٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
-٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
-٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
-٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
-٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
-٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
-٥٥	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
-٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
-٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
-٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
-٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
-٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
-٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
-٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
-٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
-٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض .
-٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
-٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
-٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
-٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
-٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
-٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
-٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
-٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
-٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
-٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى
-٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
-٧٦	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم

٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبــة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان

١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

١٥٥-	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وألان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩-	الإيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	الفين كرنان	بدر الديب
١٨٩-	العمى والبصيرة	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣-	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد

١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى
٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣٣-	فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيرين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١-	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالرءوف اليمبى
٢٤٤-	الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤-	الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	ديكارت	ديڤ روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جرين	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض
٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال

٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر — س. س والترز — إبراهيم سلامة
٢٧٣- الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط — جوان أر. لوك — عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا — رومولو جلاجوس — محمود على مكى
٢٧٥- ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً — أقلام مختلفة — ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما — فرانك جوتيران — عبد القادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات: الصراع من أجل الحياة — بريان فورد — أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات — إسحق عظيموف — ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية — ف.س. سوندرز — طلعت الشايب
٢٨٠- من الأدب الهندى الحديث والمعاصر — بريم شند وآخرون — سمير عبدالحميد
٢٨١- الفردوس الأعلى — مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى — جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية — لويس ولبيرت — سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق — خوان رولفو — على البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً — يوريبيدس — أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامى — حسن نظامى — سمير عبد الحميد
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢) — زين العابدين المراغى — محمود سلامة علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى — انتونى كنج — محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى — ديفيد لودج — ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منجوهرى الدامغانى — أبو نجم أحمد بن قوص — محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة — جورج مونان — أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١) — فرانشسكو رويس رامون — السيد عبد الظاهر
٢٩٢- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢) — فرانشسكو رويس رامون — السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى — روجر ألن — نخبة من المترجمين
٢٩٤- فن الشعر — بوالو — رجاء ياقوت صالح
٢٩٥- سلطان الأسطورة — جوزيف كامبل — بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦- مكبث — وليم شكسبير — محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية — ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى — ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد — أبو بكر تفاوابليوه — مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية — جين ل. ماركس — هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١) — لويس عوض — جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢) — لويس عوض — جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- فنجنشتين — جون هيتون وجودى جروفز — إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣- بوذا — جين هوب وبورن فان لون — إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس — ريوس — إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد — كروزيو مالابارته — صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ — جان فرانسوا ليوتار — نبيل سعد
٣٠٧- الشعور — ديفيد بابينو — محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة — ستيف جونز — ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ — أنجوس جيلاتى — جمال الجزيرى
٣١٠- يونج — ناجى هيد — محيى الدين محمد حسن

٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤-	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	آ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢-	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليناور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٣٢٤-	اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	مصطفى فهمى
٣٣٥-	عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٣٤١-	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين

٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	ألان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩- ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور

٣٨٩-	من الأدب الباكستاني المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية	مايف بينشي	منى الدروبي
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	في قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيري
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقي نجاري راد	محمود سلامة علاوي
٣٩٧-	نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	سارتر	فيليب تودي	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	كامي	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهري
٤٠١-	الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسي	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان في القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامي عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوي بغورة
٤١١-	همس من الماضي	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفي بروفنسال	نخبة
٤١٣-	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخاري
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود سلامة علاوي
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ثريا شلبي

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أروينداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وربيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب	أرلر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦-	ربما كان قديساً	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون وديونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦-	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلانى كلاين	نخبة	حمدى الجابرى

٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارووبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	تشومسكى	جون ماهر وجودى جروبز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (جـ١)	جون فيزر وبول سيترجز	محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤-	سفر	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتپ الثالث	آنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	نخبة
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوچية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى — سعيد قانعى — يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث — رينيه جينو — عمر الفاروق
٦٢٥- الجرح السرى — جان جينيه — محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢) — نخبة — توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية — نخبة — عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع — تشارلس داروين — مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية — نيقولاس جويات — عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية — أحمد بللو — صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر — نخبة — بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا — دولورس برامون — رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه — نخبة — حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية — روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين — مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر — جودة عبد الخالق — سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة — جناب شهاب الدين — سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية — ف. روبرت هنتر — بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر — روبرت بن وارين — فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق — تشارلز سيميك — أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد — الأميرة أنّاكومنينا — حسن حبشى
٦٤١- برتراندرسل (مختارات) — برتراند رسل — محمد قدرى عمارة
٦٤٢- داروين والتطور — جوناثان ميلر وبورين فان لون — ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز — عبد الماجد الدريابادى — سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين — هوارد د.تيرنر — فتح الله الشيخ
٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية — تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف — عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية — سپهر ذبيح — عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر — جون نينيه — فتحى العشرى
٦٤٨- بورخيس — بياتريث سارلو — خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى — نخبة — سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط — روجر أوين — عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذى لا نعرفه — وثائق قديمة — أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة — كلود ترونكر — حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة — إيريش كستنر — سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١) — نصوص قديمة — عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥- أساطير وآلهة — إيزابيل فرانكو — حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء — ألفونسو ساسترى — ممدوح البستاوى
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون — مرثيديس غارثيا- أرينال — خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث — خوان رامون خيمينيث — صبرى التهامى
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية — نخبة — عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم — ريتشارد فايفيلد — هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية — نخبة — صبرى التهامى

٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدیبار	صبری التهامی
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعی
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان – إنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	مدحت الجيار
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربی	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون – ماساو ميوشی	ليلى الجبالی
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلی
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو	ماهر البطوطی
٦٧١-	قل لی كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوین	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات قصائد فرنسية للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوی
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينی	آية الله العظمى الخمينی	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنی
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنی
٦٧٧-	تاريخ الأدب فی إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمی
٦٧٨-	تاريخ الأدب فی إيران (جـ٢ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمی
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة	وول سوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فی هذا الفصل؟	ستانلی فش	أحمد الشيمی
٦٨٢-	نجوم حظر التجول الجديد	بن أوكری	صبری محمد حسن
٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل	تی. م. ألوكو	صبری محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسی
٦٨٥-	الأعمال القصصية (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسی
٦٨٦-	امرأة محاربة	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة	فتانة حاج سيد جوادی	ماجدة العنانی
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة الكبرى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحی
٦٨٩-	الملف	تادوزش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فی فرنسا	چوزيف ر. سترایر	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	دنيس براين	رمسيس عوض
٦٩٢-	الوجودية	ريتشارد أبيجانسی وأوسكار زاريت	حمدی الجابری
٦٩٣-	القتل الجماعی: المحرقة	حاثيم برشيت وآخران	جمال الجزيری
٦٩٤-	دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدی الجابری
٦٩٥-	رسل	ديف روبنسون وجودی جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أرسطو	روبرت ودفين وجودی جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجی كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	التحليل النفسی	إيفان وارد وأوسكار زاراتی	جمال الجزيری
٧٠٠-	حقيقة كاتب	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن

٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومي	محمد علاء الدين منصور وآخران
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	ڤالتر بنيامين	نخبة	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس